



جامعة الدول العربية
الإدارة العامة

الحريّة والتنظيم

تأليف

برتراند راسل

مراجعة

محمد بدران

ترجمة

عبد الكريم أحمد

١٩٦٠

مطبعة الطبع والنشر
مكتبة الأنجلو المصرية بالقاهرة



الإدارة الثقافية

الحِثُّ وَالنَّظْمُ

تأليف برتراند راسل

ترجمة عبد الكريم أحمد

مراجعة محمد بدراي

ملشزم الطبع والنشر

مكتبة الأنجلو المصرية

١٦٥ شارع محمد بك فريد (عماد الزهراء سابقا)

» (أ) مقدمة

» (ب) القسم الاول : مبدأ الشرعية

١ - الفصل الاول : خلفاء نابليون

٢ - الفصل الثاني : مؤتمر فينسا

٣ - الفصل الثالث : الحلف المقدس

٤ - الفصل الرابع : آخرة عهد مترنيخ

مقدمة

ان هذا الكتاب محاولة لتتبع الاسباب الرئيسية للتغيير السياسى الذى حدث خلال السنين المائة الواقعة بين ١٨١٤ و ١٩١٤ . ويبدو لى أن هذه الاسباب تنقسم الى ثلاثة أنواع : التطبيق الفنى الاقتصادى (١) ، والنظريات السياسية ، والافراد المهمين . ولا اظن أن ايا من هذه الاسباب الثلاثة يمكن اغفاله أو الاستغناء عنه تماما باعتباره نتيجة لاسباب من نوع آخر .

فالتطبيق الفنى الاقتصادى مثلا ما كان ليتغير بالطريقة التى تغير بها لولا وجود بعض المخترعين النابهين المعروفين . كذلك ترك الايمان بالقومية والدعوة الى الديمقراطية التى قام بها قسم كبير من الطبقات الحاكمة أثرا كبيرا مجرى الأحداث ، و لا يمكن أن نعزوهما كلية الى أسباب اقتصادية .

والمناقسة الحرة التى اعتنقها الراديكاليون البريطانيون والامريكيون وآمنوا بها كل الايمان باعتبارها الدافع الأساسى للتقدم ، كانت بلا شك راجعة الى اعتبارات اقتصادية ، ولكنها كانت مرتبطة ارتباطا واضحا بالبروتستانية . ومن ثم فانه بينما يجب أن نعتبر التطبيق الفنى الاقتصادى أهم أسباب التغيير فى القرن التاسع عشر ، فانه لا يمكن اعتباره السبب الوحيد لهذا التغيير ، وهو بصفة خاصة لا يفسر لنا انقسام الجنس البشرى الى أمم .

ونجد من ناحية أخرى أن الذين يعتقدون بأنهم كشفوا القوانين المسيطرة على التغيير الاجتماعى قد تغالوا فى الاستخفاف بالدور الذى يضطلع به الافراد فى التاريخ ، والذى أكده كارليل أكثر مما يجب ، ولا يزال يبالغ فيه أتباعه الرجعيون حتى يومنا هذا .

وأنا لا أعتقد أن تاريخ أوروبا خلال السبعين سنة الماضية كان يظل شديد الشبه بما كان ولا يزال عليه فعلا لو أن بسمارك مات فى طفولته . وما ينطبق بدرجة كبيرة على بسمارك ينطبق أيضا بدرجة أقل على عدد كبير من الرجال النابهين فى القرن التاسع عشر .

كما أننا لانستطيع أن نتجاهل الدور الذى يعزى الى ما يسمى بالصدفة ، أى الى الحوادث التافهة التى كان لها مصادفة أثر كبير . مثال ذلك أن أسبابا ضخمة جعلت الحرب الكبرى مرجحة الاشتعال ، ولكنها لم تجعلها حتمية . وكان من الممكن حتى آخر لحظة أن تؤجل اشتعال نارها حوادث صغيرة لم تقع

فعلا ، ولو أننا لانعلم أى شىء جعل وقوع هذه الحوادث مستحيلا ، ولعلهم لو تأجبت كانت قوى السلام قد تغلبت .

وفضارى القول أن التاريخ ليس علما ، ولا يمكن جعله يبدو علميا إلا بالتزيف فى أحداثه والحذف منها .

ومع ذلك فمن الممكن تتبع آثار الأسباب الكبيرة دون المغالاة فى التبسيط على أن نتذكر أن هناك أسبابا أخرى كانت تعمل عملها . والفرض من هذا الكتاب هو تتبع ماحدث من التعارض والتفاعل بين سببين من الأسباب الرئيسية فى التغيير الذى تم فى القرن التاسع عشر : أولهما الأيمان بالحرية الذى كان سائدا بين الاحرار والراديكاليين ، وثانيهما ضرورة التنظيم التى نجمت عن التطبيق الفنى الصناعى والعلمى .

وقد شاركنى فى العمل طوال المدة التى اقتضاها تأليف هذا الكتاب زميلي بيتر سبنس الذى قام بنصف الابحاث ، وبجزء كبير من التخطيط ، وأجزاء صغيرة من الكتابة نفسها ، فضلا عما أبداه من ملاحظات عظيمة القيمة لا عداد لها .

١ - خلفاء نابليون

الفصل الاول

خلفاء نابليون

ان المثاليه وليدة العذاب والامل ، ومن ثم فهي تبليغ أقصى مدتها كلما لاحتم
تقى الأفق نهاية فترة من فترات الضنك . ففي أعقاب كل حرب كبرى مثلاً
نتعلق آمال الناس بأحد المنتصرين بظنون أنه قد يكون بطلاً يدافع عن آمالهم
المثالية . وقد كان هذا الدور من نصيب القيصر الكسندر أستبغنه عليه
الجماهير عقب سقوط نابليون ، وتفيلته هو بنرحاب . وينبغي أن نذكر أن
منافسيه في هذا الميدان ، ميدان التفوق المعنوي ، لم يكونوا على قدر كبير
من القوة المعنوية . وكان منافسوه من الملوك هم فرانسييس امبراطور النمسا
وقردريك وليام ملك بروسيا والوصى على العرش الانجليزي ولويس الثامن
عشر ، ومن رجال السياسة مترنيخ وكاسلري وتاليران .

ومن بين هؤلاء الرجال كان فرانسييس آخر أباطرة الدولة الرومانية المقدسة
وهو لقب انحدر اليه من شيرلمان ، وانزعه منه نابليون الذي كان يعتبر نفسه
الخليفة الحقيقي لهذا الفاتح الهمجى . وكان فرانسييس قد اعتاد الهزيمة على
يد نابليون ، وانتهى به الأمر أن زوج ابنته ماري لويز «للمحدث الكورسيكى»
حتى يأن شر الحرب التي كان لا يفتأ يشنها على النمسا . وعندما بدأ يظهر
بعد كارثة روسيا سنة ١٨١٢ ، ان نابليون لم يعد ذلك الرجل الذي لا يفهر ،
كان فرانسييس اخر من انضم من الملوك الكبار الى الحلف الذي تكون ضده .
وكانت النمسا خلال كل السنوات العصيبة على استعداد دائم لإفادة من أية
صفقة يروق لنابليون أن يعرضها . وفي معارك (١٨١٣ - ١٨١٤) كان جيش
النمسا رغم ضخامته أقل امتيازاً من الجيش البروسى ، وكان ذلك أثر من آثار
سياسة ترمى الى جلب المغنم أكثر مما تهدف الى البطولة . ولم يكن فرانسييس
هو مصدر هذه السياسة . بل كان صاحبها وزيره مترنيخ وكان قد التحق
بخدمة امبراطوره في سن مبكرة وأطلقت يده في الشؤون الخارجية بمجرد أن
اعتنق باخلاص الرأى القائل بأن أى تغيير ليس فى مصلحة سيده . وبهذا
أصبح فرانسييس بعد أن ألقى عن كاهله عبء المسئولية الخارجية حراً يكرس
نفسه لمهمة أقرب لمزاجه وهى تنظيم الادارة الداخلية فى امبراطوريته . وكان
النظام القضائى مركزاً الى درجة أن تفاصيل أقل القضايا شأنًا كانت تعرض
عليه ، ولما كان يميل الى مثل هذه المسائل ، فانه شغل نفسه حتى بالاشرف
على تنفيذ أحكام الاعدام . وقلما كان يعيد النظر فى حكم ما ، ولم يستعمل
حقه فى الرأفة أبداً . وكانت علاقته بالمقربين اليه لا تتسم بالعطف ، أما
بالنسبة لبقية العالم فكاد أن يكون غير معروف .

ورغم أن جيوش فردريك وليم أبليت بلاء حسنا في القتال فإن الاحترام الذي كان الناس يكنونه نحو شخصه كان أقل مما كان يحظى به حتى فرانسيس نفسه .
فبينما كانت النمسا تتلقى ضربات الغازى عام ١٨٠٥ وقفت بروسيا موقفاً المشاهد المذبذب حتى جاء دورها في العام التالي فسحفت سحفاً فى جيناً حيث تبددت فى يوم واحد كل تلك الهيئة التى استمدتها بروسيا من مليكها فردريك الأكبر . واضطر الملك المسكين أن يلجأ الى ركن فى أقصى الشمال من ممتلكاته ، وعندما تصافى اسكندر وزابليون فى تيلسنت سنة ١٨٠٧ أرسل فردريك وليم زوجته الجميلة لتشفع له عند الامبراطورين . ولم يتأثر نابليون بهذه الشفاعة . لكن اسكندر الشهيم كان يحب أن يعتقد فى نفسه البطل المدافع عن الجمال فى محنته . وأثمرت الشفاعة فعقدت معاهدة أعين فيها زابليون أنه احتراماً لرغبة اسكندر يسمح لفردريك وليم بالاحتفاظ بجزء من مملكته السابقة . وكان اعتراف فردريك وليم بجميل اسكندر قويا ومسنماً ، ولكنه ظل حتى آخر لحظة لا يعتمد عليه بسبب طبيعته المترددة ، ومن ثم فقد كان موضع احتقار الجميع حتى أقرب حلفائه .

وكان جورج الثالث ، بعد ضياع المستعمرات الامريكية ومنعه بت Pitt من اطلاق الحرية للكثلكة ، قد أشهر جنونه متأخراً ، ولكنه ظل مع ذلك ملكاً على انجلترا ، وكان يقوم بهام الحكم الوصى على العرش وهو عجوز متأنق يخجل من فرط بدانته ولكن جسعه يمنعه من اتخاذ أى خطوة لملاجها . وكان الوصى على العرش من الناحية السياسية يمثل كل ما هو رجعى ، وفى حياته الخاصة يمثل كل ما هو دنى . وكانت معاملته لزوجته تجعل الناس يظنون استهزاءهم به عند مروره فى طرقات لندن ، كما كانت تصرفاته التى تعودها البلاط الانجليزى مع طول الوقت مصدر ازعاج لا يحتمل للسيدات الاجنبيات ، ومبالغ علمنا أنه لم ينجح طوال حياته فى كسب احترام أى انسان .

وكان لويس الثامن عشر ، الذى يمكن القول بأن الحروب التى استمرت اثنتين وعشرين عاماً قامت من أجله ، قليل الرذائل ولكن فضائله كانت أقل من رذائله نفسها . فقد كان رجلاً مسناً بديناً مصاباً بالنقرس ، يكاد يكون اجنبياً عن فرنسا التى غادرها صبياً وظل بعيداً عنها زهاء ربع قرن . ولم يكن يفتقر الى الفطنة ، كما كان أكثر دماثة من معظم أصدقائه . الا أنه أمضى سنين منفاه بين أعداء فرنسا يحدره الامل فى هزيمة بلاده لأن هذه الهزيمة هى السبيل الوحيدة لعودته الى عرشه . وكانت بطانته تتكون من الأمرء والأشراف الذين هربوا من الثورة ولم تكن لديهم أية معرفة بفرنسا التى خلفتها حكومة المؤتمر وخلقها نابليون . واذ كان هو فى حماية اعداء بلاده الاجانب ، فلم يكن متوقفاً أن ينال أى احترام فى بلاده ، واذا كانت الحكومات الاجنبية قد رفعتة الى العرش فانها فعلت ذلك لان ضعفه يبعث فى نفوسها أملاً فى الامان الذى حرمتها منه قوة نابليون .

هؤلاء هم الذين كانوا منافسي اسكندر في الفوز برضاء الجماهير ، أما منافسوه من بين رجال السياسة فكانوا أقدر من هؤلاء ، الا أنهم لم يكونوا من ذلك الضرب من الرجال الذي يبعث في الناس حماسة ، وكان أكثرهم قوة خلال سنى «السلام الأكبر» مترنيخ الذي ظل يحكم النمسا ، بل وكاد يكون المتحكم فى شئون أوروبا كلها ، حتى أسفطته ثورة ١٩٤٨ التى جعلتها سياسته أمرا لامفر منه ، وقد ظل طوال الفترة التى بين سنة ١٨١٤ وسنة ١٨٤٨ دعامة الرجعية والسبج الذى يخيف الاحرار ومصدر الرعب للشوار ، وكان ميدوه السياسى الأساسى بسيطا ، ان السلطات القائمة من صنع الله ، ومن ثم يجب تأييدها والا كان المرء كافرا . ولما كان هو على رأس هذه السلطات فإن الامر بدأ فى نظره واضحا لا يحتاج الى اثبات ، ولعله ما كان ليرى ذلك لو أن الوضع بالنسبة له كان مختلفا .

وقد ولد مترنيخ سنة ١٨٨٣ فى بلاد الراين لاسرة قديمة نبيلة ، ومن ثم كان يمثل طرازا وسطا بين القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ، وقد فقد والده جزءا كبيرا من أملاكه نتيجة لغزو جيوش الثورة الفرنسية لآلمانيا ، ولم يكن هذا الظرف مما يزيد فى حب مترنيخ للثورات ، وكان السللك الدبلوماسى النمساوى ، حيث عمل والده وأثبت فيه كفايته وان لم يصب فيه شهرة ، هو المجال الواضح لمترنيخ النساب ، وقد عزز فرصه فيه زواجه من فتاة ثرية هى حفيدة كونيتز المعروف الذى حقق الحلف النمساوى الفرنسى فى أيام حرب السبع السنوات . ولم تحظ القومية الألمانية فى أى وقت من الأوقات ، بل ولا أية قومية أخرى ، بعطف مترنيخ ، فقد كانت الدول فى نظره ضياعا خاصة للملوك ، ولم يكن الامر عنده يحتاج لى مبدأ آخر يربط الدولة بعضها ببعض . وبينما كانت تقاليد ألمانيا الغربية تجعلها أكثر ميلا الى الفرنسيين ، كانت النمسا ، التى تضم بين جنبااتها ألمانيا وصقلية ومجريين وإيطاليين ، العدو الأكبر للقومية طوال القرن التاسع عشر كله . وكان مترنيخ من هذه الناحية يعمل كما تعمله النمسا نفسها ، على استمرار التقاليد التى كانت قائمة قبل الثورة . ويصدق هذا أيضا على موقفه تجاه الكنيسة ، فانه لم يبد الا القليل من الاحترام للبابا فيما يتعلق بسنطاته الدنيوية على الرغم من أنه كان كاثوليكيا متدينا ، وكثيرا ما وقف فى وجه الكنيسة من الناحية السياسية .

ومع ذلك فقد كانت شخصية مترنيخ تتسم بصفات أخرى تجعله جديرا بان يعتبر «فكتوريا» (كانت الملكة فكتوريا فى العام الثانى والعشرين من حكمها عند مامات مترنيخ) . ذلك أن الغرور ليس وقفا على أى فترة بعينها فى التاريخ ، ولكن ذلك الضرب من الصلف المتباهى الذى اتصف به مترنيخ يمت الى الفترة القائمة بين حروب نابليون والحرب الكبرى ، واذا كان لنا أن نصدق مذكراته ، فانه كان مبرءا كل البراءة من الطموح ولم يبقه فى ميدان الحياة العامة سوى شعور بالواجب واعتقاد يؤله ويحز فى نفسه بأن غيره تنقصهم كفاياته . فقد بلغ من شدة اقتناعه بسمو صفاته الخلقية انه ظنها

تأيد واضحة لغيره وضوحها له هو نفسه . وفي أواخر عام ١٨١٣ ، عندما تبين له أخيرا أى الكفتين سترجح ، وضع حدا لتذبذب النمسا بين فرنسا وروسيا فكتب لابنته يقول :

« انى واثق من أن نابليون دائم التفكير فى . ولا بد أنى أبدا له وكانى الضمير مجسما » . وان ما ذكره مترنيخ من أسباب جعلته يتغلب على نفوره من المجد الدينوى ليبدو شديد الوقع فى النفوس . « ان كراهيتى للمناسب العامة أمر سبق أن ذكرته . فانى وقد اقتنعت بأن كل انسان ينبغى أن يكون مسئولا عن تصرفاته اذبان حياته وأدركت الصعوبات الهائلة التى يواجهها الفرد فى تدعيم صرح مجتمع منهار من جميع نواحيه ، ولما كنت لا أرتاح أمام محكمة سميرى لجميع الاجراءات التى رأيتها تتخذ لانتقاد المجتمع الذى قوضت أركانه أخطاء القرن الثامن عشر ، واذ كانت نفسى ، أخيرا ، لا تطاوعنى على أن أتصور أن تفكيرى قد بلغ من السمو حدا يستطيع معه اصلاح أى شىء يتولاه : فقد حاولت على الأظهر على مسرح تثور طبيعتى المستقلة ضد قيامى فيه بدور ثانوى ، على الرغم من اعتقادى بعدم قدرتى على القيام بدور المصلح » .

« ان العناية التى بذلت لتوجيه تربيتى نحو ميدان السياسة الواسع قد عودتنى منذ عهد مبكر أن أتأمل مداه الفسيح . وسرعان ما أدركت أن نظرتى الى طبيعة هذا الميدان ومكانته تختلف فى أساسها عن نظرة الأغلبية الساحقة من أولئك الذين يوكل اليهم إلقاء بالادوار السياسية الكبيرة فى هذا الميدان » .

وهو يذكر لنا أن الأسماء الدبلوماسية الضخمة ، التى سبقت عهده وانتهى عاصرته ، لم توح اليه بالاحترام ، ثم يواصل حديثه قائلا :

« ولما كنت قد عقدت النية على ألا أسلك مسلكتهم ، وكنت فى نفس الوقت يائسا من أن أشق لنفسى طريقا يرتضيه ضميرى ، فقد كان طبيعيا أن أفضل الا أزوج بنفسى فى خصم هذه الأحداث السياسية الهائلة ، ذلك الخصم الذى كان فشلى فيه ماديا أكثر توقعا من نجاحى . وأنا أقول ماديا لأنى لم أخش الفشل المعنوى فى يوم من الأيام ، فالرجل الذى يزوج بنفسه فى الحياة أعامة يجد أمامه دائما مخرجا مؤكدا من هذا الخط ، وهو الانسحاب من حده الحياة » .

ونم يكن يبدو للمشاهدين أن النمسا فى أيام نابليون تقوم بدور مشرف . ومع ذلك فان مترنيخ لم يكن يعتقد أن الأمر كذلك . فهو يقول : « لم أجد تحت وطأة ذلك الحمل الضخم من المسئولية ، سوى نقطتين كان يبدو الارتكاز عليهما مستطاعا ، وهما قوة شخصية الامبراطور الصامدة وضميرى » .

وليس من اليسير أن يتبين المرء من مذكرات مترنيخ حقيقة أمره بوصفه شخصا اجتماعيا ، على الرغم من أنه كان مدينا بنجاحه لأساليبه الاجتماعية . ولم يكن مترنيخ عميق التفكير فى أى وقت من الاوقات ؛ لقد كان ماهرا فى

تنفيذ خطته ولكنه لم يكن بحال منازا في وضع هذه الخطط . وكان مرحلة حلو المعشر ، فلم يكرهه سوى أولئك الذين كان يعمل على مقاربتهم . وكان يخلط السياسة بالشئون الغرامية كما كان يفعل الدبلوماسيون في ذلك العهد . ولكنه كان أكثرهم حظا من النجاح . فقد كانت السيدات اللاتي تستقي منهن الاسرار السياسية يلقين منه عناية لا يستطعن مقاومتها عادة . وكان هذا السلاح يوجه أحيانا الى كلا المسكرين . فقد كان مثلا على علاقة وثيقة استمرت عدة سنوات مع كارولين مورا شفيقة نابليون ، وكان يستقي منها أسرار نابليون . وأحيانا أخرى كانت تنتقل اليه ما يرى فوشيه أن من المصلحة أن يسمعه . وعندما صادقت النمسا مورا سنة ١٨١٤ ، وجه تاليران في خطباته الى لويس الثامن عشر «تهاما سافرا الى مترنيخ بأنه وقع تحت تأثير حبه للملكة كارولين . لكن الأمر لم يكن كذلك فقد كانت هناك في أول الأمر دوافع سياسية سليمة تبرر موقف النمسا ، فلما زالت هذه الدوافع فقدت مفاتن الملكة تأثيرها في مترنيخ . ومن الجائز أن مترنيخ كان يقع أحيانا فريسة للخداع في علاقته بالسيدات السياسيات ، الا أنه لا يمكن أن يتهم بحق بأن ميوله النسائية كانت تضله وتخرجه عن قصده في يوم من الأيام .»

وكان مترنيخ قبل كل شيء رجلا ارستقراطيا - ليس ذلك النوع من الارستقراطية التي تفوم على ملكية الارض مثل ارستقراطي انجلترا وروسيا - بل من ذلك الضرب من ارستقراطية البلاط التي يرجع الفضل في وجودها الى لويس الرابع عشر . وكانت الامور الخطيرة في نظر مترنيخ من شأن الملوك ووزرائهم فقط ، وهم في غير حاجة لأن يدخلوا في اعتبارهم مصالح عامة الناس . فالشعب في نظره لا يكاد يكون له وجود ، الا عندما كان يجد نفسه مضطرا للتفكير باشمئزاز في قذارة الثوار الفرنسيين وراثتهم . وعندما بدأ الشعب يتمرد في الفترة الاخيرة من عهده ، كانت طبيعته تمل عليه أن يطأه بقدميه كما يطأ خنفسا سوداء . لقد كان مترنيخ سيذا مهذبا مصقولا يكاد يكون الاخير من هذا النوع قبل طوفان الديمقراطية الجارف .

وكان كاسلري وزير خارجية انجلترا رجلا على خلق ، وقورا في حياته الخاصة ، نزيها في صفاته الشخصية ، وغير متحيز في الشئون الدبلوماسية ، ولم يكن المعيا ، فكان الأجانب يضحكون عليه (كما ضحكوا على ولسن فيما بعد) بسبب جهله جغرافية القارة الأوروبية (١) . ولكنه كان صائب الرأي سديده ، أقل ميلا الى الخداع من معظم معاصريه ، فظا في غير ما تظاهر . وشاهد ذلك أن الحكومة النمساوية نجحت في أثناء اجتماع مؤتمر فيينا في وضع جواسيسها خدامات في جميع السفارات تقريبا حيث كانت محتويات سلال المهملات تجمع وترسل الى رجال الشرطة ، ولكن كاسلري أحضر معه خادmatesه فسبب بذلك مصاعب تدمر منها رجال الشرطة السرية في تقاريرهم

(١) يردد تاليران في هذا الصدد ملاحظة كوتنيز « أن الاشياء التي يجعلها الانجليز الكثيرة الى حد يبوث على الدهشة . »

أشد التذمر . وقلما كان كاسلرى يخدع غيره ، ولكنه لم يكن من السهل خداعه هو نفسه . ويتبين للمرء من مراسلاته أنه كان رجلا بلا عواطف وغير مفرض الا فيما يتصل بطبقته وأمنه ، ويبدو أن نفوره وميوله الشخصية لم يكن لها اعتبار ما فى تكوين آرائه . وكان شديد الريبة فى الأجانِب ، وهى صفة بريطانية محضة . فهاهو ذا يكتب الى لورد باتورسبت فى ٣٠ يناير سنة ١٨١٥ قائلا : « أرجوك ألا تمنح أيا من الدول الأوروبية الكبرى مالا فى الوقت الحاضر ، ذلك أنها كلما زاد املاقها سهل صرفها عن التشاحن » ، وكانت تحديه رغبة صادقة فى السلام بعد سقوط نابليون . وشاهد ذلك مايقوله الوزير النمساوى جنتز فى حديثه عن مؤتمر فينا ، « ان انجلترا ترغب فى السلام ، السلام قبل كل شىء ، السلام - ويؤسفنى أن أقول - بأى ثمن وبأية شروط تقريباً » . وكان كاسلرى يتمتع بميزات كبيرة فى ميدان الشؤون الخارجية . ومع ذلك فقد كان عضوا بارزا فى أسوأ وأقسى حكومة ابتليت بها انجلترا فى تاريخها ، وهو يستحق نصيبه كاملا من اللوم فى هذا الصدد . ومما يدعو الى الدهشة من الناحية السيكولوجية أن يصاب هذا العقل الدقيق الخالى من العاطفة بنوع من الجنون يودى به فى النهاية الى الانتحار . ويقول عنه جريفيل بحق ان « ميزته الكبرى كانت هى الشجاعة الهائلة الحاسمة التى تكسب جميع تصرفاته مظهرا من العزيمة والثقة وتوحى الى أصدقائه باعجاب واخلاص لاحد له ، كما جعلت أشد خصومه عداء له يحترمونه » . وكان وهو وزير لخارجية يكتب الى السفراء بطريقة بالغة الحزم دون أن يثير ذلك امتعاضهم ، وحتى دوق ولنجتون لم يكن أسمى مقاما من أن يتلقى منه التعليمات . ولكن على الرغم من أن أولئك الذين اتصلوا به بسبب عملهم كانوا يخلصون له ، كما يقول جريفيل ، فان شخصيته التى لا لون لها لم تستطع أن تبعث الحماسة وتنسيعها فى نفوس الناس . ويبدو ذلك أيضا مما يقوله جريفيل عن أنباء موته ، « عندما وصلت المدينة قابلت عدة أشخاص اتخذوا جميعا مظهر الحزن لهذه المناسبة ، وقد أثارنى ذلك الى حد بعيد لاني لم أكن أشك فى أنهم لم يكونوا يبالون بموته ، بل انه اذا كان هناك شعور بخالجهم فأكبر الظن انه الشعور بالرضاء لحدوث شىء ما أكثر مما هو حزن على شخص مات » . ولعل رجلا مفرورا ما كان يسره أن يسمع هذا مبلغ الرثاء له ، ولكنى أشك فى أن لورد كاسلرى كان يهमे ذلك .

ولا يبقى بعد ذلك من الأشخاص المهمين فى مؤتمر فينا سوى تاليران الذى كان يمثل لويس الثامن عشر ومصالح فرنسا الجوربونية . ولما كان قد ولد سنة ١٧٥٤ لأسرة من أرقى أسر فرنسا الارستقراطية فقد أوتى الوقت الكافى لان يتمتع بمباهج النظام القديم بعد أن شب عن طوقه ، وقد ظل يذكر دائما أن أولئك الذين ولدوا متأخرين عن ذلك الوقت لم يعرفوا بهجة الحياة الحقيقية . وقد حرمته حادثة اصابته فى طفولته المبكرة من الانخراط فى مسلك العسكرية ، ولذلك أعده أبواه للالتحاق بخدمة الكنيسة وجعلا أخاه الأصغر

بريتا لممتلكات الأسرة • وصار تاليران أسقف أوتون ، إلا أنه لم يكن يتوقع من كبار رجال الكنيسة الأرستقراطية أن يكونوا على جانب كبير من التقى والصلاح ، لذلك استطاع أن يتمتع بالحياة فى صحبة رفقاء دُعرين لا يؤمنون بالدين ، على درجة عالية من الذكاء • وقد أدى به نفوره من السلك الكنسى وكذلك معتقداته الحقيقية ، الى الانضمام الى الثورة وتأييد النشرع المدبى للكهنوت • ولكنه وجد نفسه مضطرا الى الهروب فى بداية حكم الازهاب • ففر الى انجلترا حيث ارتابت الحكومة الانجليزية فى أنه جاسوس فرنسى ولم تصرح له بالبقاء • ومن انجلترا ذهب الى أمريكا حيث كون لنفسه عدة أصدقاء أهمهم اسكندر هاملتون وزير المالية ثم عاد أخيرا الى فرنسا عندما هدأت العاصفة •

وفد وجد تاليران أخيرا ميدانا لمواهبه حين أصبح وزيرا للخارجية فى حكومة نابليون ، ولم يكن من هوة البطولة ، ولذلك كان دائما يتجنب الصدام العنيف كلما استطاع الى ذلك سبيلا ، فعند ما كان يختلف مع نابليون كان يفضل الخضوع على الاستقالة من منصبه • ولم يترفع أبدا عن أخذ رشوة لفضاء ما كان يعتزم القيام به على أى الأحوال ، وقد جمع لنفسه بهذه الطريقة ثروة ضخمة ، الا أننا لانجد ما يدل على أن الرشاوى أثرت فى سياسته • وكانت له كل الميزات التى يتسم بها الرجل الذكى الذى لاتهمه البطولة • فقد كان سمح الطبع ، قلما يكره أحدا ، ينفر من الحرب ، ويعمل كل ما فى وسعه لتنمية التبادل التجارى الحر بين الامم • وقد حاول أن يحد من طموح نابليون ولكنه لم يصب نجاحا ، وعندما فشل فى ذلك ورأى أن نابليون ماله السقوط ، بدأ يتآمر مع آل بوربون • وليس أدل على ذلك من أنه سنة ١٨٠٨ عندما اجتمع نابليون والقيصر اسكندر فى ايرفورت لبقتهما العالم حذر تاليران القيصر من نابليون مع أنه كان لا يزال فى خدمته • وعندها اكتشف خيانتة فضله من منصبه ولكنه لم يصمه بالعار ، وعاد تاليران الى السلطة بمجرد سقوط نابليون ، وان لم يبق فيها طويلا بسبب عداة رجال الكنيسة والغلاة من المالكيين الذين علا شأنهم مرة أخرى بعد عودة الملكية •

وهناك اشياء تدعو الى التعجب فى تاليران • فقد كان قسا ولكنه تزوج ، وكان من الارستقراط لكنه تزوج امرأة ليس لها نصيب من عراقة الاصل أو حسن التربية عاشت حياة معوجة بلا خفاء قبل الزواج وبعده • الا أنه ظل محتفظا على الدوام وفى جميع الأحوال بأسلوبه الهادى المهدب المترفع الذى كان يثير أعصاب نابليون • وقد حدث فى احدى المناسبات ، عندما فابل توبيخ الامبراطور له علنا بعدم مبالاة ظاهرة ، أن دفع ذلك نابليون الى الاسترسال فى العنف شيئا فشيئا حتى عبره آخر الامر بعرجه وخيانة زوجته له • ولكن تاليران ابتسم دون أن يشيره ذلك ، وعندما هدأت العاصفة التفت الى الحاضرين وهز كفيه وقال لهم : مما يدعى الى الأسف أن يكون هدا الرجل العظيم سء التربية الى هذا الحد •

وقل أن نجد من الناس من عاشوا خلال مثل هذه التغيرات التي مر بها تاليران دون أن يصيبهم سوء . فقد ولد في حكم لويس الخامس عشر ومات أبان حكم الملكة فكتوريا . وكان له في حياته ما ليحصى من المغامرات الفرامية ، تميز الكنير منها بميل عاطفي حقيقي . وقد كان الميل العاطفي في الواقع أبرز ما اتسمت به طبيعته . وفي شيخوخته كان التفكير الحر والانطلاق في المغامرات الفرامية قد انقضى عهدهما وسادت فرنسا كما سادت انجلترا فضيلة العهد الفكتوري . فكيف تاليران نفسه لتغيير الذي حدث وليس ثوب الفضيلة بالمقدار الذي اقتضته التقاليد الاخلاقية الجديدة (١) وسوى أموره مع الكنيسة على فراش موته بصورة مسرحية من أغرب ما يتصوره العقل ، وكانت آخر كلمات له تقريرا هي أن يذكر القس الذي حضر وفاته بوجود مسحه النهائي بكل المراسم المقررة للاساقفة .

الا أنه في صميم قلبه ظل محتفظا طوال حياته بالنظرة التي كانت سائدة بين الأحرار من الارستقراط في عهد لويس السادس عشر . وقد أطاحت المفصلة برؤوس معظم من كانوا على ساكله أو قضت عليهم الحرب أو صاروا رجعيين بسبب ما انتابهم من خوف خلال حكم الارهاب . ولكن تاليران نجح من كل هذه المصائب بسبب مرونته وهدوئه الفلسفي بقوة ذهنه المسيطر . وكان طلي الحديد الى حد استطاع معه في شيخوخته أن يخلب لب السيدات متصنعات المشمة بنات قرن عادت فيه الاخلاق القويمة ولكن ضعفت فيه حياة الفكر . فقد كن يبدأن بأن يرينه خليعا مستهجنا ، ولكنهن لا يلبثن أن يغلبن تحت تأثير حدة ذكائه ، وقوة ثقافته ، واتساع أفقه ، ولطفه وديانته خلقه . ومما لا ريب فيه أن تاليران كان أمعة في الرجال ، ولكن ما أحدثه من ضرر كان أقل مما أحدثه الكثيرون من ذوى الاستقامة التي لا ترقى اليها الشبهات .

وكان القيصر اسكندر ، الذي كان هو بنفسه وزير خارجية بلاده ، كفا بهؤلاء الرجال النابهين على بكرة أبيهم . فقد حارب كل من مترنيخ وكاسلاري ، تاليران التأثير فيه دون أن يصيبوا نجاحا ، وكان ملك بروسيا يسير ورائه معصوب العينين ، إن خالف في ذلك نصيحة وزرائه . وصحيح أن مترنيخ أوتي فيما بعد من القوة ما استطاع به التغلب على آراء اسكندر ، الا أن هذا جاء في وقت يعتبر مرحلة متأخرة من مراحل تطور شخصيته ، أما في سنة ١٨١٤ فكان لا يزال محتفظا باستقلاله الكامل في الحكم على الامور . ولقد تعلم اسكندر الدبلوماسية في مدرسة شاقة صارمة . فكانت جدته القيصرية المتدورة المنحلة الاخلاق كاترين الكبرى ، وكان أبوه القيصر بول المجنون . وأخذته جدته منذ مولده ، بعيدا عن أبويه وأشرفت بنفسها على

(١) ويكتب تاليران في سنة ١٨٥١ الى لويس الثامن عشر قائلا : « هذا الشعور بعدم المبالاة باندين الذي اصبح العلة المنتشرة في الايام التي نعيش فيها » .

تربيته . ولما أدركت أن بول لن يصلح لأن يكون قيصرًا ، أرادت أن تتخطاه وتجعل اسكندر وريثها - وأبلغته جدته هذا المشروع كتابةً ولما يكن قد بلغ الثامنة عشر من عمره ، وكان لابد أن يرد عليها كتابةً أيضا . وقد كان كثير من الشبان يجدون صعوبة في الرد بأسلوب مناسب إذا وضعوا هكذا بين دكتاتورة عجوز ومريض نفسي تطير نفسه شعاعا لا أقل شيء ، ولكن الأمر مع اسكندر كان مختلفا ، فقد كتب الى جدته يقول :

« يا صاحب الجلالة الامبراطورية (٢٤ سبتمبر ١٧٩٦)

لا أعرف كيف أعبر عن شكري للثقة التي شرفتيني بها والكرم الذي أبديتنيه . نحوى بأن تخطى بيدك تفسيراً لما جاء في الأوراق الأخرى . وأمل أن تدركي يا صاحبة الجلالة ، وقد رأيت غيرتى على أن أكون جديرا بأفضالك العظيمة . انى مقدر هذه الأفضال حق قدرها . ولن أستطيع أن أرد لك ، ولو بحياتي ، كل ما تفضلت بعمله وماتنوين عمله لى . وواضح أن هذه الأوراق تؤكد كل الأفكار التي أبلغتنيها أخيرا ، ولا يمكن أن تكون ، اذا سمحت لى بأن أقول . ذلك ، أكثر عدالة مما هي فى الواقع . وانى إذ أضع عند أقدام جلالتك الامبراطورية مرة أخرى شعورى بعظيم امتنانى وشكرى ، أسمح لنفسي ، مع عميق احترامى وإخلاصى الدائم ،

بأن أكون أطوع رعايا جلالتك الامبراطورية ، وأكثرهم خضوعا ، حفيدك

اسكندر »

والحق انه لحفيد مثالى ! ومع هذا فلو أن والده اطلع على الخطاب ، كما يقول البعض ، لما وجد فيه ما يشتم منه أنه أقل إخلاصا لآبيه منه لجدته . ربما كان لاسكندر بعد هذا التدريب أن يخشى خداع مترنيخ أو تاليران .

وكانت تربيته من الناحية الدراسية خيرا مما أتيج لأغلب الامراء فقد كان يتحدث عن كانت وبستانلوتزى مع الفتيات الساذجات بينما كانت حملة سنة ١٨١٢ على أسدها . ذلك أن كاترين قد عملت على أن يتشبع بتقافة القرن الثامن عشر المستنيرة ، بل وحتى بنظريات الاحرار السياسية ، ولم تدخل اى تعديل على الأسس التي قامت عليها تربيته حتى بعد أن انقلبت الامبراطورة الى الرجعية بتأثير الثورة الفرنسية . وكان أستاذه ، وهو سويسرى فاضل اسمه لاهارب ، يملأ عقله الواعى بالخير الذى يتقبله العقل ، بينما كان أبوه وجدته يسمان الجزء اللاشعورى من أدراكه . وكان لاهارب يؤمن بالديمقراطية ويعجب - فى الحدود المعقولة - بالثورة الفرنسية ، كما كان فى أول الامر يظن خيرا فى نابليون . وكان على استقامة خلقية فى تحذلق ، فقد عارض مشروع كاترين فى تخطى بول معتمدا على الأسس القانونية البحتة ،

على الرغم من أن بول كان يكرهه وأن اسكندر يحبه ، وعلى الرغم من أنه كان واضحا أن بول لا يرجى من ورائه خير لروسيا . وقد دعا ذلك كاترين الى فصل لاهارب رغم أن خطتها التي كانت تهدف الى حرمان بول من العرش لم توضع موضع التنفيذ ، ولوأنها اتخذت بعض خطوات أولية لتنفيذها . فقد أعلنت أن اسكندر أتم تعليمه وأرغمته على الزواج فى سن السادسة عشرة حتى يبدو بالغاً كامل النمو .

وحكم بول أربعة أعوام كانت بالنسبة لاسكندر ، كما كانت بالنسبة لروسيا كلها ، سنين ارهاق . وأخيرا دبرت مؤامرة لاغتياله قام بها أقرب المحيطين به . وأحيط اسكندر علما بها فتوسل الى المتآمرين أن يبقوا على حياة أبيه ويكتفوا بخلعه ان أمكن . الا أن ذلك كان صعبا وخطرا ، ومن ثم قتلوه وتركوا اسكندر يتصرف بخير طريقة يستطيعها فى هذه الظروف . وقد أبعد عن البلاد المتآمرين الذين كان دورهم فى المؤامرة واضحا ، ولكن لم يوقع عليهم من العقاب الا أقل ما يستطاع . وتنفست روسيا كلها الصعداء ورحبت باسكندر بسرور بالغ ، وأخفى أمر اشتراكه فى المؤامرة ؛ ولم يتأكد الامر الى بعد ذلك بأكثر من قرن ، وان ظل اشتراكه فيها موضع الظن طوال الوقت . وقد تركت هذه الحادثة فى ضميره جرحا لم يندمل أبدا ، وكان لها أثر كبير فى الصور الغريبة الشريفة التى اتخذها تدينه فيما بعد . على أن هذا الأثر لا يكاد يظهر قبل سنة ١٨١٥ ، وظل اسكندر منذ ذلك الحين حتى وفاته سنة ١٨٢٥ يهوى فى ظلمات الكآبة شيئا فشيئا حتى صار فى أخريات حياته مثلا كاملا « لاورستيد » حديث .

الا أن مارآه العالم من اسكندر فى النصف الأول من حكمه كان شيئا مختلفا عن هذا كل الاختلاف . فقد كان مرحا شهما ، متأنقا فى هندامه الى حد يكاد يكون مبالغا فيه ، متحررا فى سياسته يحدوه أمل فى أن يقترن حكمه بالعمل على تحقيق الأهداف المثالية . وكانت له عشيقه يفضلها على غيرها ويحبها حبا جما ، وقد أنجب منها عدة أطفال . وكانت عاطفته نحو أخته كاترين أقوى من المالوف . فلم يكن يصرفه اشتغاله بأخطر الأمور عن الكتابة اليها ، وقد خلت رسائله اليها من التحفظ فكانت لذلك وثائق ذات أهمية تاريخية بالغة ، وكان يشكر لها صداقتها لعشيقته ، وقد تحالفا معا ضد أمهما . وكان يسره أن يفرقها بفيض من التعبيرات العاطفية المبالغ فيها ، مثل : «استودعك الله يا قرّة عيني ، ومعبودة قلبى ، ويا زينة العمر ، الأعجوبة الطبيعة » ؛ ويستطرد مناديا اياها بأغرب الالفاظ (١) . وكانت كاترين شابة مندفعة غير ذات كياسة ولكنها ذات حيوية ، وقد دفعت أخيها بتأثيرها فيه الى اتخاذ موقف سياسى غير سليم فى مناسبة واحدة على الأقل (عندما زار اسكندر انجلترا عام

(١) العبارة التى اوردها المؤلف هنا هي : يا « Bisiam Bisiamovna ذات الالف الاطلس » !! التى كتبها اسكندر لاخته فى خطاب قبل معركة استرلتز مباشرة .

(١٨١٤) • وكان لتصرفه نتائج خطيرة في شئون أوروبا ، وكانا على وفاق دائما الا عندما زحف نابليون على روسيا في سنة ١٨١٢ فانضمت هي الى الصرخة الوطنية التي علت لما ظهر من اخفاقه •

وكان اسكندر عندما اعتلى العرش عام ١٨٠١ في الثانية والعشرين من عمره لا أكثر ، وكانت احاطته بمختلف الشئون ضئيلة • فاستدعى لاهارب وحاول أن يدخل اصلاحات في البلاد بمساعدة مجلس مكون من أصدقائه لشخصيين • وقد نجح في القضاء على المساوىء التي خلفها بول ، وخفف من حدة الرقابة وأصلح أحوال التعليم • غير أنه وجد نفسه أمام عقبات هائلة لا قبل له بها عندما واجه مسائل خطيرة كتحرير رقيق الارض أو وضع دستور للبلاد ، وفيما يتعلق بالسياسة الخارجية ، عقد في أول الأمر صداقة مع نابليون وكان لاهارب لا يزال معجبا به • ولكن عندما هدد نابليون سويسرا وأعلن نفسه امبراطورا ، وأغضب بذلك لاهارب بوصفه وطنيا سويسريا ورجلا ديموقراطيا ، انقلب اسكندر ضده وحاربه في حملتى عام ١٨٠٥ و١٨٠٦ : الفاشلتين اللتين منيت فيهما روسيا بهزيمتى أوسترلتز وفريدلاندر ، أولاهما وهو حليف للنمسا والثانية وهو حليف لبروسيا ، وانتهى الأمر بصلح تيلست وقيام صداقة مفاجئة بين الامبراطورين الشرقى والغربى وساد علاقتهما في أول الامر جو من الصفاء واعتقد كل منهما أن الآخر مخلص له • ولكنهما ما أن افترقا حتى بدأت المشاحنات • ذلك أن اسكندر الذى كان يحارب الاثراك أراد أن يحتفظ بمقاطعتى الفلاخ والبقدان ، ولم يكن نابليون يريد اغضاب الاثراك خوفا من ارتمائهم فى أحضان الانجليز • ولذا عرض تسوية على حساب بروسيا لم يستطع اسكندر الموافقة عليها بسبب وعوده للملكة لويج الحسناء • وأخيرا حاول نابليون أن يبهز أنظار اسكندر بمشروع ضخم يرمى الى تقسيم تركيا يتبعه اشتراكهما فى غزو الهند • وقد خلب المشروع لب الجانب الصيوانى من عقل اسكندر - الجزء الذى كان يمتعه بقراءة ألف ليلة وليلة - فاستجاب له كما كان نابليون يأمل • ولكن ذلك لم يطغ على فطنة اسكندر • فاشتراط أن يشمل نصيب القسطنطينية الى جانب الفلاخ والبقدان وأن يستولى على نصيبه فى الغنائم قبل أن يعاون نابليون فى غزو سوريا • ولما كان الاتفاق بواسطة الخطابات أمرا ظهرت استحالتة فقد اتفق العاهلان على أن يتقابلا فى ايرمورت ، حيث كان نابليون يأمل فى أن يتغلب على الاسكندر بفضل نفوذه الشخصى • ولكنه لم يقدر اسكندر حق قدره ، فقد كتب اسكندر الى أخته يقول : « ان بونابرت يعتقد أنى انسان أحقر لا أكثر • ولكن من يضحك أخيرا يضحك كثيرا ، وقد وضعت أهلى كله فى الله • ان مجرد ذكر كلمة بونابرت بدلا من نابليون ينبىء عن شعور بالعداء ، وكان يجعل أية صداقة بينهما بعد ذلك مستحيلة لو عرف الامر •

وفى أثناء ذلك استغل اسكندر فترة الصداقة الظاهرة مع فرنسا فى غزو فنلندا التى كانت تابعة للسويد • وبعد أن تم له ذلك اشترى صداقة

السويد بأن وعدها بمعونته في الحصول على النرويج التي كانت تابعة وقتئذ.
للدانمارك التي كانت بدورها على علاقة ودية مع فرنسا . وأحس بعد ذلك
أن صداقة فرنسا لم تعد تحقق له غرضاً لأن نابليون ما زال يرفض مساعدته
في الحصول على الفلاح والبقدان . فلما احتج نابليون على أن ستمائة سفينة
بريطانية سارت صعداً في خليج فنلندا وأنزلت بضائع بريطانية في روسيا
اكتفى اسكندر بأن نفى ذلك في غير مجاملة . وسار الجيش العظيم نحو موسكو
وهلك في أثناء تقهقره ، وحيث أوروبا اسكندر باعتباره منقذها ، وسارت
جيوش الحلفاء المنتصرة صوب باريس .

ورأى اسكندر في ذلك كله يد الله العليا لأنه لم يستطع أن يعزو النصر
لنفسه أو لقواده . ورأى البروسيون في ذلك انتصاراً للقوة المعنوية على الحاد
فرنسا وفسادها . ورأى فيه النمساويون اثباتاً للحق القديم . ورأى الانجليز
فيه انتصاراً للقوة البحرية والصناعة الرخيصة . ورأى العالم بصفة عامة أملاً
في السلام .

هكذا كان الموقف في مستهل عصرنا .

٢ - مؤتمري فينا

الفصل الثاني

مؤتمر فيينا

كانت لاسكندر وفردريك وليم ومترنيخ وكاسلري مجتمعين القوة التي تمكنهم من رسم خريطة أوروبا السياسية وانشاء أى نوع من الحكومات يريدون فى الميدان الدولى وفى كل دولة من دول القارة الاوروبية ، غير أنهم كانوا مقيدين بمعاهدات معينة . ففى سنة ١٨١٣ وعدت روسيا ، وتلتها انجلترا ثم فرنسا ، بروسيا بأن تعود عظيمة كما كانت قبل أن يهزمها نابليون سنة ١٨٠٦ . وحددت معاهدة باريس (٣٠ مايو سنة ١٨١٤) حدود فرنسا بما كانت عليه سنة ١٧٨٢ ، فألغيت بذلك الفتوحات التى تمت فى عهد الثورة وعهد نابليون ، وحرمت فرنسا فى مداولات المؤتمر من حق الاشتراك فى تحديد الملاك الجدد للأقاليم المفتوحة . وكانت معاهدة باريس معندلة رحيمة الى درجة تدعو الى العجب اذا لاحظنا أن فرنسا كانت تحت رحمة الحلفاء بعد اثنين وعشرين عاما من الحروب عانت خلالها جميع دول أوروبا تقريبا ويلات الغزو ، ويرجع معظم السبب فى هذا التساهل مع فرنسا الى كرم اسكندر . فقد دخل باريس على رأس الجيوش الغازية وأعلن أن العدو كان نابليون لا فرنسا ، وقبل القرار الذى اتخذته الحكومة الفرنسية المؤقتة ، وهى شبه مختارة ، بعودة آل بوربون الى العرش ليكون ذلك أساسا لعدم حرمان فرنسا من أى جزء من الاراضى التى كانت سابقا فى حوزة ملوكها الشرعيين .

وقد لقي كرم اسكندر معارضة شديدة من أقرب حلفائه اليه وهم البروسيون ، كما أقلق بال الانجليز . وكتب كاسلري فى ٣٠ يناير سنة ١٨١٤ الى رئيس الوزراء اللورد ليفربول يقول :

« انى أعتقد أن الخطر الاكبر الذى نواجهه فى الوقت الحاضر هو نغمة الشهامة التى اتخذها الامبراطور فى الوصول بالحرب الى نهايتها . ذلك أنه يشعر بعطف شخصى على باريس لاعلاقة له بأية خطط سياسية أو عسكرية . ويبدو أنه ينشد فرصة يدخل فيها عاصمة العدو على رأس حرسه الضخم ، وأكبر الظن أنه يفعل ذلك ليظهر برحمته وتسامحه عكس ما لقيته عاصمة بلاده من دمار » .

وقد تحققت هذه الرغبة أتم تحقيق لاسكندر ، وأبدى له أهل باريس نتيجة لتسامحه كل الحفاوة الحماسية التى كان يمكن أن يريجوها . وقال بقية

الحلفاء أنه لو كانت فرنسا قد اضطرت الى التخلي عن اقاليم أكثر من التي تخلت عنها لما كانت هذه الاقاليم من نصيب روسيا . كما أن الامبراطور كان أقل كرما في المسائل التي كانت أقرب الى روسيا مثل بولندا . ولكن هذه الحواطر لم تكن تـجـول الا في أذهان العالمين ببواطن الامور فقط ، ولم تؤثر في حرارة الحماسة التي أبدتها عامة الناس نحوه .

وكانت المشاكل الإقليمية التي يواجهها المؤتمر كثيرة ومعقدة . وشعر المؤتمرين أنه قد يكون من المفيد أن يوجد مبدأ ما تبدو القرارات التي تتخذ على أساسه عادلة . وقد عبر جنتز زميل مترنيخ الذي اشتهر أنه أكثر المؤتمرين نشاطا ، انطباعاته في مذكرة بتاريخ ١٢ فبراير سنة ١٨١٥ يقول فيها : « ان أولئك الذين أدركوا تماما طبيعة المؤتمر وأهدافه عند انعقاده في فيينا لم يكن عسيرا عليهم أن يتبينوا الطريق الذي سيسير فيه أيا كان رأيهم في نتائجه . فقد كانت العبارات الرنانة مثل (إعادة بناء النظام الاجتماعي) و (تجديد النظام السياسي في أوروبا) و (سلام دائم يقوم على توزيع عادل للقوى) . الخ تلقى لتهدئة الجماهير وتضفي عظمة وفخامة على الاجتماع المهيب ، لكن الغرض الحقيقي للمؤتمر كان تقسيم الغنائم التي أخذت من المهزوم بين المنتصرين » .

الا أنه لم يكن من اليسير الاعتراف بذلك جهرا . هذا الى أنه كانت هناك بعض الدول لا مصلحة لها في معظم المسائل ، ومن ثم فقد تتأخر بالحجج التي تستند الى المبدأ . وفي هذا الموقف كان تاليران هو الذي اكتشف الشعار المعنوي الوحيد الذي أصغى اليه المؤتمر . وابتكر لهذا الغرض « مبدأ الشرعية » الذي سيطر على أوروبا حتى عام ١٨٣٠ . وقد أوضح تاليران ذلك في التعليمات التي طلب الى لويس الثامن عشر أن بوجهها اليه ليعمل بمقتضاها . ذلك أن فرنسا وقد منيت بهزيمة عسكرية كانت مضطرة الى الاعتماد على القوة المعنوية ، وهذا هو ما قدمه تاليران ، وما من شك في أنه كان في خبيثة نفسه يضمم السرور من هذا العمل .

ويقضى مبدأ الشرعية بصفة عامة بأن الاقاليم يجب أن تكون ملكا لحكامها الوراثيين ، الا اذا نزلوا عنها طواعية مقابل تعويض ما . وعلى هذا الأساس فان لفرنسا ، اذا كان يحكمها البوربون ، الحق في كل الاقاليم التي كانت فرنسية في عهد لويس السادس عشر . الا أن هذا المبدأ كان يجب أن بصاغ بعناية . فانه لم يكن من المرغوب فيه مثلا أن تعيد انجلترا الى عرشها أسرة ستيوارت . وكذلك كان الحال مع جنوا التي كانت جمهورية مستقلة قبل أن تستولى عليها فرنسا ، والتي كان مقررا أن تعطى للملك سردينيا . وكان من الممكن أن يطالب أهالي جنوا بأن يطبق عليهم مبدأ الشرعية ، ولكنهم لسوء الحظ أثاروا مبدأ آخر من مبادئ مؤتمر لاحق وهو مبدأ تقرير المصير ،

زأدهى من ذلك أنهم كانوا يرغبون فى دستور ديموقراطى . وهذا أمر فيه خطورة . وفى ذلك يقول تاليران :

« تقدم أهل جنوا بمشروع دستور لم يكن من الممكن قبوله لروحه الديموقراطية . ولكن هذا يجعل التسليم به ألزم لأن أهل جنوا كانوا ينفرون بشدة من اخضاعهم لملك أجنبى ، ولانه كان من الخير القضاء على بذور المرارة والنزاع فى كل مكان ، تلك البذور التى كانت تنمو فى كل اتجاه بسبب ضم البلجيكيين الى الهولنديين والساكسون للبروسيين والايطاليين لننمساويين » .

ومن ثم فان مبدأ الشرعية لم يكن ليتخذ حجة تثيرها الشعوب ضد الامراء . وما كان يمكن الادعاء بأن هذا المبدأ لا يمكن أن تثيره الجمهوريات .

فقد كان فى استطاعة سويسرا أن تثيره لان اسكندر كان يحب لاهارب . ولم يكن فى استطاعة بولندا التوسل به لانه لم يعد لها ملك شرعى ولان فرنسا لم تكن سنب تقسيمها . ويمكن القول بصفة عامة أن الاقاليم كانت تعامل كما تعامل الضياع الكبيرة فى الوقت الحاضر : فنحن لا نتصور أن الفلاحين التابعين لأحد أصحاب الاراضى يستطيعون امتلاك الارض التى يعيشون عليها بمجرد أن يقرروا أنهم يريدون ذلك . ان هذا يبدو سخفا فى نظر معظم الناس فى الوقت الحاضر ، كما كان مبدأ تقرير المصير يبدو سخيفا فى نظر من يتولون المفاوضات فى فينا . فاذا كان للملك حق وراثى فى جزء من اقليم فان ذلك يعطيه حقا فى المطالبة به لا يستطيع المؤتمر أن يتجاهله ، والا فقد كان من الممكن اعطاء الاقليم لاحدى الدول الكبرى عن طريق المساومة .

وكان المؤتمر كما رأينا فى حالة جنوا ينفر نفورا شديدا من أى شىء تشتم منه رائحة الديموقراطية . وقد سمح للدستور البريطانى بالبقاء لانه كان من تقاليد انجلترا ، ومنح الفرنسيون دستورا لأسباب مختلفة . فقد كان اسكندر ذا نزعة حرة خارج روسيا ، وكان البريطانيون يعتقدون أن منح الفرنسيين دستورا يجعلهم يقبلون البوربون ويهيء للأسرة الحاكمة استقرارا . واقتنع النمساويون والبروسيون بعد تردد بأن الدستور يحمل فى طياته أسباب الضعف وأنه سيضعف فرنسا ويحول دون عودة ما عانوه على أيدى لويس الرابع عشر وناپليون مرة أخرى . ولكن منح دساتير لائى بعد آخر لم يكن يلقى أى تشجيع . وكان الاحرار فى انجلترا يعارضون حكومة المحافظين فى هذا الشأن . وقد حدث فى ايطاليا أن لورد «وليم بنتيك»، وهو أحد أعضاء حزب الاحرار ذوى الروح العالية وكان له من الاهمية ما لا يمكن معه اشغال شأنه ، كان سببا فى ازعاج الحكومة الى حد كبير بتشجيعه

اهل جنوا وبالاحتجاج على الفظائع التى ارتكبتها ملك صقلية . وقد كتب
ليه كاسلرى فى ٧ مايو سنة ١٨١٤ يقول :

« من المستحيل ألا يرى المرء أن أوروبا مقبلة على تغيير معنى كبير ،
وأن مبادئ الحرية تعمل بأقصى قوتها . والخطر الكامن فى هذا هو أن الانتقال
قد يكون مفاجئا الى حد لا يحتمل معه أن يجعل العالم خيرا مما هو الآن أو أكثر
سعادة . ان لدينا دساتيرا جديدة بدىء بها فى فرنسا واسبانيا وهولندة
وصقلية . ومن واجبنا أن نرى نتائجها قبل أن نشجع محاولات أخرى فى هذا
السبيل . وقد نبذل تلك المحاولات ، ويجب علينا عندئذ أن نقبل ما يسفر
عنه من النتائج ، ولكنى واثق أنه من الخير أن نعمل على اعاقاة آثار هذا المبدأ
الخطر الذى انتشر فى الخارج . بدل أن نعجل سيرها .

ويجب أن نكف يدنا فى ايطاليا أكثر من غيرها اذا كنا نرغب فى أن
نظل على وفاق مع النمسا وسردينيا . فقد كنا على حق فى المخاطرة بأى شيء
عندما كنا نعمل على اخراج الفرنسيين من ايطاليا ، ولكن الحالة القائمة فى
أوروبا الآن لا تنطوى على مثل هذه الحاجة الملحة ، ونظرا لمقتضيات السلام
والهدوء العالمى فانى أفضل أن أرى الايطاليين ينتظرون آثار ما يحدث فى بقاع
أخرى ولا يحسون بها على أن يعرضوا أمنهم الداخلى للخطر بقيامهم بمحاولات
فى الوقت الحاضر » .

وقد يكون خليقا بنا أن نذكر بهذه المناسبة أن دستورى اسبانيا
وصقلية لم يلبثا أن ألغيا .

وقد أراد اسكندر أن يظهر للناس أن سياسته على نقيض السياسة
غير التحررية التى اتبعتها الدول الغربية فمنح بولندا ، أو على الاصح الجزء
الذى حصل عليه منها أخيرا بمقتضى قرارات المؤتمر ، دستورا . الا أن تاريخ
هذا الدستور يدل على أن سياسته التحررية لم تكن سوى الفاظ جوفاء .
فقد كانت الهيئة التشريعية مكونة من مجلسين ، المجلس الأدنى ويتكون من
واحد وسبعين من النبلاء ملاك الاراضى ، وواحد وخمسين عضوا يمثلون
المدن . أما المجلس الاعلى فيتكون من أعضاء الاسرة الامبراطورية وبعض
الاساقفة وقليل من الموظفين ، وكان البرلمان يجتمع مرة كل سنتين ويدوم
اجتماعه ثلاثين يوما ، وكان له أن يقبل أو يرفض ما تقدم به الحكومة من
مشروعات ولكن لم يكن له هو نفسه أن يقترح شيئا منها . وقد سارت
الامور على ما يرام فى أول اجتماع عقده البرلمان فى عام ١٨١٨ ، فقد قبل
المجلسان كل ما تقدم به اسكندر من مشروعات باستثناء مشروع واحد خاص
بالطلاق ألقى اسكندر بشأنه خطابا جميلا قال فيه أنه ينزل على آرائهم وأنه
مسرور لهذا الدليل على استقلالهم . ولكنهم فى عام ١٨٢٠ رفضوا جميع
اقتراحاته . فاستنشاط غضبا وقرر ألا يجتمع البرلمان بعد ذلك حتى عام .

١٨٢٥ على الرغم من أن الدستور ينص على غير ذلك . وأم يجتمع البرلمان بعد ذلك الا مرة واحدة سنة ١٨٢٩ ، وفى سنة ١٨٣٠ حدثت الثورة فى بولندا ، ومنذ ذلك الوقت حتى الحرب العظمى حكم القياصرة بولندا الروسية حكما أتوقراطيا . ومع ذلك فإن اسكندر تباهى كثيرا بنواياه التحررية نحو بولندا ، وبالميزات التى تجنيها هذه الدولة من توحيدها تحت حكمه .

وكان مبدأ الشرعية الذى اقترحه تاليران يتفق تماما وما يريده مترنيخ . الا أنه قامت مع ذلك صعوبة فيما يتعلق بنابولي : ذلك أن «مورا» ملكها كان قد أغرى بالتخلي عن صهره نابليون بمعاهدة تمهدت فيها النمسا بابقائه على عرشه . فلما ذهب نابليون لم يعد لهذه المعاهدة شأن ما ، وطالب تاليران بنابلي للملكها الشرعى فرديناند البوربونى . ولحسن الحظ حلت هذه المشكلة الدقيقة بسبب نزق مورا : ذلك أنه أبدى ندمه على خيانتة السابقة لنابليون عندما عاد من جزيرة ألبا ، ومن ثم سقط عندما سقط نابليون . وقد جعل ذلك مترنيخ حرا فى التمسك بمبدأ الشرعية دون تحفظ .

ووقف الانجليز من مبدأ الشرعية موقف الراضى المحيد طالما كان هذا المبدأ غير متعارض مع أية مصلحة بريطانية . ولم يكن طبعاً من المستطاع تطبيقه على المستعمرات وكان البريطانيون يصرون دائما على الحصول على بعض المستعمرات الهولندية المهمة التى فقدها الهولنديون بسبب تحالفهم مع فرنسا مرغمين . وقد منح أمير أورانج باجريكا تعويضا له عن هذه المستعمرات ، وشكر للمؤتمر فعلة هذا شكرا جزئيا ، وان كان قد فقدها فى سنة ١٨٣٠ . وكان موقف البريطانيين فى خارج أوروبا وفى البحار تحده المصالح البريطانية ، أما فى القارة الاوربية فقد كان مبدأ الشرعية كافيا وصالحا ما دامت كل المسائل التى تهم انجلترا قد سويت قبل أن يبدأ المؤتمر .

وكانت المعارضة التى أثارتها روسيا وبروسيا فى وجه هذا المبدأ أشد . وأقوى . فاما روسيا فيرجع بعض معارضتها الى سياسة اسكندر التحررية الغامضة ، ولكن الدافع الاساسى لهذه المعارضة كان تشاك مطامعه الاقليمية بصورة معقدة بمطامع بروسيا . ذلك أنه كان قد وعد ملك بروسيا بممتلكات تماثل فى اتساعها ما كان لديه قبل سنة ١٨٠٦ . ولكن بروسيا كانت تملك قبل سنة ١٨٠٦ اجزاء من بولندا أراد اسكندر أن يحتفظ بها ، ومن ثم رأى وجوب تعويض بروسيا عن هذه الاجزاء فى مكان آخر . وكان أكثر الحط ملاءمة له أن تعطى ساكسونيا لبروسيا ، ما دام ملك ساكسونيا لم يتخل عن نابليون فى الوقت المناسب . ولكن ملك ساكسونيا كان ملكا شرعيا : واستشاط لويس الثامن عشر وتاليران غضبا من فكرة انتزاع أملاكه

منه . وكانت النمسا تخشى كلا من روسيا وبروسيا ومن ثم انضمت الى فرنسا . وكانت انجلترا تريد تقوية بروسيا واضعاف روسيا ، ولذلك أيد كاسلري في مبدأ الامر مطالبة بروسيا بساكستونيا ولكنه عارض في مطالبة روسيا ببولندا كلها تقريبا . ولما وجد أنه من المستحيل عليه أن يؤيد بروسيا دون أن يعارض روسيا قرر أن يقف في وجه كليهما وانضم الى فرنسا والنمسا . وقد استغرقت هذه المشكلة معظم وقت المؤتمر .

وتم في مبدأ الامر اجتماع يوم أول أكتوبر بين تاليران واسكندر ذافع فيه تاليران عن الأهمية الاخلاقية لمبدأ الشرعية ضد ماصوره بأنه عدم تقيد القيصر بمبادئ الذمة والضمير . ولم يكن اسكندر يحب تاليران ، ويرجع بعض السبب في هذا بلا ريب لطبيعة تاليران الساخرة ، ولكن أهم من هذا أنه حينما احتجت الحكومة الروسية على نابليون لقتله دوق «دنجن» أجاب تاليران اجابة فيها تلميح الى أن ذلك ليس أسوأ من أن يغتال المرء أباه . وكان مركز تاليران في ذلك الموضوع ، كما كان في المقابلة الاخيرة ، متفوقا من الناحية المعنوية على مركز القيصر الشديد التدين ، وكان ذلك بلا ريب من دواعي تسلية تاليران . ولكنه لم يسمح لهذه التسلية بأن تظهر فيما جاء في مذكراته عن المقابلة التي تمت في أول أكتوبر :

اسكندر : دعنا نتحدث الآن عن مشاكلنا . ويجب أن ننهي منها هنا .

تاليران : هذا يتوقف على جلالتكم . فهذه المشاكل ستنتهي بسرعة وتوفيق اذا طبقتم عليها نفس النبل والسمو الروحي الذي طبقتموه على شئون فرنسا .

اسكندر : ولكن ينبغي أن ينشد كل منا تحقيق مصالحه في هذه التسوية .
تاليران : وكل حقوقه

اسكندر : سأحتفظ بالأقاليم التي احتلها .

تاليران : ان جلالتك لن ترغب في الاحتفاظ الا بما لك فيه حق شرعى .

اسكندر : انى متفق مع الدول العظمى

تاليران : لست أدري هل تعتبرون جلالتكم فرنسا من بين هذه الدول
اسكندر : طبعا . ولكنك اذا لم تكن تريد أن يستهدف كل منا تحقيق مصالحه ، فما الذى تنتويه اذن ؟

تاليران : انى أضع العدالة أولا والمصالح بعد ذلك .

اسكندر : ان مصالح أوروبا هي العدالة .

تاليران : ان هذه اللغة يا صاحب الجلالة ليست لغتك ، انها لغة غريينة عليك لا يقرها وجدانك .

اسكندر : كلا ، انى أكرر ماقلت ، وهو أن مصالح أوروبا هى العدالة . وهنا استدار تاليران الى الحائط وضرب رأسه به صائحا : « أوروبا ،

أوروبا ، أى أوروبا المسكينة : هل تقبل أن يقال ان جلاتك دمرتها » .

فاجاب اسكندر ، « انى أفضل الحرب على التفريط فيما احتله » . ويواصل تاليران أقواله فى مذكراته :

« وتركت ساعدى تسقطان واتخذت موقف الرجل الذى ناء به الحزن . ولكنه يصر على موقفه وكأنى أقول « لن يكون الخطأ عندئذ خطأنا » . واعتصمت بالسكوت . وظل الامبراطور بضع لحظات لا يقطع على سكوتى ثم عاد يقول « نعم ، أفضل الحرب » . فظلت محتفظا بمودتى نفسه . فرفع يديه فى حركة عصبية بصورة لم أشهدها منه قبلا ذكرتنى بأخر فقرة فى مرثية مارك أوريليوس ، وقال بصوت أقرب الى الصياح « لقد حان موعد الذهاب الى دار التمثيل ، يجب أن أذهب اليه ، لقد وعدت الامبراطور (امبراطور النمسا) بالحضور وهم فى أنتظارى » ثم ذهب ، ولكنه لم يلبث أن عادوأخذنى بين ذراعيه واحضننى وهو يقول بصوت لم يعد يشبه صوته ، « الوداع ، الوداع . سنلتقى مرة أخرى » .

واستمر النزاع بين هذين الرجلين طوال مدة المؤتمر على الرغم من هذا المنظر المؤثر ، وأخيرا سويت المسائل التى كانت موضع خلاف بانتراضى ، فقد حصل اسكندر على جزء من بولندا أقل مما كان يطالب به ، وحصلت بروسيا على نصف ساكسونيا فقط ، وترك النصف الآخر للايديا الشرعى . ولم يتم هذا التراضى الا بعد أن أرغمت عودة نابليون من ألبا الدول على تصفية خلافاتها . ولولا هذا لكان من المحتمل أن يستمروا فى المناقشة حتى يومنا هذا .

وكان موقف بروسيا فى ظاهرة مماثلا لموقف الدول الأخرى ، ولكنه فى أساسه كان يختلف عنها اختلافا بينا . فقد كان المستشار « هاردنبرج » ميالا الى النمسا فى الغالب ، بينما كان الملك مخلصا كل الاخلاص لاسكندر . الا أنه كانت توجد فى بروسيا حركة وطنية قوية ، جرمانية أكثر منها بروسية ، ومن ثم كانت موضع عطف الكثيرين فى أجزاء أخرى من ألمانيا . وكانت بروسيا قد بدأت بعد عام ١٨٠٦ فى القيام باصلاحات بالقدر الذى سمح به نابليون . وكان الوزير الوطنى « شتاين » قد أثار على نفسه غضب نابليون فأرغم على مغادرة البلاد ، وكان اثناء انعقاد مؤتمر فيينا فى خدمة اسكندر . الا أن الجيش البروسى كان متشبعا بفكرة وحدة ألمانيا ويحقد حقدا جارفا على

الفرنسيين • ومنذ عهد لويس الرابع عشر كان غربي ألمانيا المكون من عدة دويلات ضعيفة تحت رحمة فرنسا ، ولكن بروسيا استطاعت تحت حكم فردريك الأكبر أن تصد لويس الخامس عشر وان لم تستطع الوقوف في وجه نابليون • واتضح لجميع الألمان المحبين لوطنهم أن قدرا من الوحدة ضروري إذا أريد أن يكون الغزو الفرنسي في المستقبل مستحيلا ، ولكن الأمراء المستميتين في المحافظة على استقلالهم كانوا عقبة في سبيل جميع مشروعات الوحدة •

وهكذا تضافرت الروح الوطنية الألمانية مع الحقد على فرنسا على اشاعة شعور بالميل نحو بروسيا بين الطبقات المثقفة ، وخاصة الشباب ، باعتبارها الحصن الوحيد الذي يستطيع حماية ألمانيا من فرنسا • وكان هذا الشعور بطبيعة الحال معاديا لمبدأ الشرعية الذي يؤدي الى الإبقاء على الإمارات الصغيرة التي جعلت ألمانيا ضعيفة • ولذا كانت الروح الوطنية الألمانية بالضرورة ثورية الى حد ما ، وكانت من هذه الناحية موضع ريبة الحكومات حتى حكومة بروسيا ، ولكن بروسيا ظلت تشجعها طالما كانت تعمل لعظمة هذه المملكة • وأضفت المعارضة ضد الأمراء لونا من الديمقراطية على الحركة القومية التيوتونية ، مما جعل ملك بروسيا بعد سنة ١٨١٣ ، والقتال على أشده ، يمنح الشعب دستورا مكافأة له على النصر • وكان لابد من المحافظة على الأمل المتولد من هذا الوعد حيحتى يستنفد فردريك وليم كل المجهود الحربي الممكن من رعاياه ، الا أنه كان ينبغي أن تراعى منتهى الحكمة في الإبقاء عليه حيا حتى لا ينزعج الحكام الاتوقراطيون الآخرون • ثم ولم يسمع الا القليل عن الموضوع بعد ووترلو بطبيعة الحال •

وقد دهش تاليران عندما وصل الى فينا لهذه الروح الوطنية الألمانية الجديدة • وهو يعترف بأن فرنسا تصرفت معها تصرف الغازی الوقح وأثقلت كاهل المهزومين بمطالبها • (كان من مبادئ نابليون أن يحمل ضحاياه تكاليف حروبه) • وقد غضب القوم في فينا من اللين الذي تنسم به معاهدة باريس ، كما كانوا ، على حد قول تاليران (غافلين عن المباهج التي تستمد من الكرم لكثرة ما نعموا بها) ، وكانت القومية الألمانية في نظره يعقوبية في طبيعتها ، ويذهب الى أن اليعقوبية لم تسيطر على الطبقتين الدنيا والمتوسطة فحسب ، بل تسيطر أيضا على أسمى وأغنى طبقة النبلاء الذين يتأمر معهم ، كما يقول ، رجال الجامعات والشبان المتشبعون بنظرياتهم والذين يكرهون تقسيم ألمانيا الى دول صغيرة • « ان توحيد الوطن أصبح شعارهم وعقيدتهم ودينهم الذي بلغ حد التعصب ، وقد كسب هذا التعصب جميع الطبقات حتى بعض الأمراء الحاكمين فعلا » • ويعتقد تاليران أن الوحدة الألمانية لم تكن مصدر خطر على فرنسا عندما كانت الاخيرة تسيطر على الضفة اليسرى للواين وعلى بلجيكا ، ولكنها صارت الآن على جانب كبير من الخطورة • ومن ثم كان واجبه أن يقارم أي اتجاه نحو الوحدة الألمانية • وقد أفاده مبدأ

الشرعية كثيرا في هذه الناحية واتفق معه في ذلك مترنيخ مدفوعا الى ذلك يخوفه من بروسيا .

وهكذا أصبحت بروسيا الى حد ما النصير غير المتحمس لمبدأ جديد ، هو مبدأ القومية ، الذي بدا للدبلوماسيين المتقدمين في السن مفعما بالخطر الثورى .

ولا يمكن القول بأن هؤلاء الدبلوماسيين الشيوخ كانوا على خطأ . ذلك ان ما أسماه تاليران « يعقوبية » القوميون الالمان أدى رأسا الى الحرب العظمى بحركة اذا تأملناها بدت كأنها حتمية ، وقد لا تكون هذه الحتمية سوى مظهر خداع . لقد كان القوميون الالمان متقدمين على عصرهم أيام مؤتمر فينا ، الا أن وجهة نظرهم أخذت تسيطر على العالم سينا فسينا ابتداء من سنة ١٩٤٨ .

ويتسم هذا المبدأ الجديد ، مبدأ القومية الالمانية ، بعدة عناصر مميزة . فكان فيه العنصر الجرمانى البحت : عنصر الايمان بتفوق فضيلة الجنس الجرمانى ورجولته . وكان فيه الاعتقاد بأن حدود الدول ينبغي أن تكون مطابقة لحدود القوميات . وكان هناك أيضا الاعتقاد الديموقراطى بأن الشعوب يجب أن يكون لها حق اختيار نوع الحكومة الخاصة بها . وكان كل ذلك يعتبر أثما عظيما بالنسبة للمعتقدات التقليدية السائدة فى سنة ١٨١٥ .

وقد أيد القيصر حق الشعوب فى اختيار نوع الحكومة الخاصة بها فيما يتعلق بفرنسا بعد سقوط نابليون سنة ١٨١٤ . وقال جنتز معبرا عن رأى الحكومة النمساوية أنه اذا سمح للفرنسيين بتعيين حاكم آخر فان هذا يتضمن الاعتراف بمبدأ لا يمكن للمرء أن يتفوه به فى أيامنا دون أن يرتعد ، وهو المبدأ القائل بأن الشعب هو الذى يقرر هل يسمح ببقاء الملوك الحاكمين فعلا أو لا يسمح بقائهم . ان مبدأ سيادة الشعب هو محور كل النظم الثورية .

وكان المبدأ القائل ان حدود الدول يجب أن تكون مطابقة لحدود الشعوب ، بغضنا للنمسا بطبيعة الحال . ذلك أنه لو انتصر هذا المبدأ لاصبح جزءا من ممتلكات الامبراطور فرانسيس ضمن ألمانيا الموحدة ، وتصبح غاليسيا جزءا من بولندا الموحدة ، بينما تصبح بوهيميا وترانسلفانيا مستقلة . وقد حدث كل هذا فعلا منذ الحرب الكبرى نتيجة لمبدأ القومية ، عدا الجزء الخاص بألمانيا بطبيعة الحال . فلا عجب والحالة هذه اذا وقفت النمسا موقف المعارض للقومية الالمانية .

ونشأ الايمان بتفوق فضائل الالمان ورجولتهم من النضال مع نابليون ، وخاصة من حملة سنة ١٨١٣ التى كان لها من شأن فى التاريخ الشعبى الالمانى مثل ما لهزيمة الارمادا الاسبانية من شأن الانجليز ، وما لحرب الاستقلال من شأن عند الامريكيين .

ذئك أن الجليل الذي كان في شَرْخ الشباب في ألمانيا في سنة ١٨١٣ والرجال الأكبر سنا منهم ، الذين كانوا قادة لهم يعترفون بقيادتهم ، لم يقبلوا مطلقا فكرة القومية العالمية وعارضوا الكلاسيكية السائدة في القرن الثامن عشر من جميع الوجوه . وكانت الحركة الرومانسية في ألمانيا ، على نقيضها في إنجلترا ، وثيقة الصلة بالسياسة القائمة فعلا وكانت تهدف الى مثل عليا قابلة للتحقيق ، وقد حقق بسمارك فعلا هذه المثل . وكان الناس خلال الحركة الرومانسية مصابين بحمى المغالاة في الإعجاب . الذي لا يبرره العقل . فقد أعجب شلي بالثوار اليونانيين ضد الاتراك ، وبالثوار الاسبانيين ضد البوربون ، ولكن الرومانسيين الالمان كانوا يعجبون ببلوخر ، هذا الرجل الصارم المتدين الذي يحتل في القصص الالمانى مكان دريك في القصص الانجائزى .

ولما كان بلوخر قد أصبح بطلا قوميا ألمانيا فمن المفيد أن نذكر شيئا عن شخصيته . لقد كان جنديا عظيما ووطنيا متحمسا وخادما مخلصا لمليكه الى أقصى حد ، كما كان مندينا فى عمق وأخلاص . وكان موقفه من فرنسا موقف الاستهجان الخلفى . وقد كتب خلال معركة ووترلو ، وقبل أن يتحدد لمن سيكون النصر فيها ، يقول : « أمل أن تنتهى هذه الحرب بحيث تكف فرنسا عن أن تكون مصدر خطر الى هذا الحد على ألمانيا . يجب تسليم الالزاس واللورين لنا » . وبهذه المناسبة يقول تريتشكه مؤرخ ألمانيا الاول فى القرن التاسع عشر عن بلوخر ، « انه رجل عالمى بكل ما فى الكلمة من معانى النبيل » وأنه « متهور فى انكاره لذاته بصورة لم يكن يتسنى وجودها الا فى المثالية الألمانية » .

وكان موقف بلوخر تجاه الثوار الساكسونيين فى جيشه عام ١٨١٥ مما ينبىء عن شخصيته . فقد قسمت ساكسونيا بين ملكها الشرعى وبروسيا ، ومن ثم انضم جزء من جيش ساكسونيا الى الجيش البروسى ، ودفع بعض الجنود الساكسونيين شعور الولاء نحو مليكهم ووطنهم الى أن يرفضوا الاوامر من بلوخر . فأحمد تمردهم بشدة متناهية ، وكتب فى هذه المناسبة الى فردريك أغسطس ملك ساكسونيا يقول :

« يا صاحب الجلالة

لقد جابتم يا صاحب الجلالة بتصرفاتكم السابقة كارثة دهما على رعاياكم وهم فرع له قدره من الشعب الالمانى .

وقد تكون نتيجة تصرفاتكم فى المستقبل أن يجعل هذا الفرع بالعار .

لقد حدث التمرد الذى حدث فى الجيش ، والذى وضعت خطته فى فردريكفيلد وبرسبورج ، فى وقت قامت فيه ألمانيا كلها ضد العدو .

المشترك . وقد نادى المذنبون الاشرار علنا ببونابرت حاميا لهم ، وأرغموني على اعدام أفراد من جيشي لأول مرة وأنا الذى قضيت فى الخدمة العاملة خمسة وخمسين عاما لازمنى خلالها حسن الحظ فلم أقتل أحدا سوى أعدائى .

وسترون جلالتم من الاوراق المرفقة ما فعلته حتى الآن يحسدونى الامل فى انقاذ شرف اسم ساكسونيا ، ولكنها المحاولة الاخيرة من ناحيتى .

فاذا لم يلق صوتى أذنا صاغية فسأكون مضطرا الى اعادة النظام بالقوة وأن أمر باعدام الجيش الساكسونى كله اذا استلزم الامر ، رغم ما فى ذلك من ألم لى ، ولكن فيه أيضا راحة لضميرى وأداء لواجبى .

وستقع الدماء التى أريقته فى يوم ما على رأس المسئول عنها قضاء لحكم الله : وأمام عرش الديانة سيكون مثل من أعطى الاوامر كممثل من يسمح باعطائها .

وتدركون جلالتم كل الادراك أن رجلا مسنا فى الثالثة والسبعين مثلى لا يمكن أن يكون لديه من هدف دنيوى سوى اعلاء كلمة الحق .

ولهذا السبب سنتلقون جلالتم هذا الخطاب .

مركز القيادة فى ليج بلوخر

فى ٦ مايو سنة ١٨١٥

وكانت طريقتة فى التعبير عن مشاعر حبه غريبة . من ذلك ما قاله عندما توفيت زوجته ، « نعم لقد كانت الضفدعة جميلة كالشيطان ، وكانت لها عاطفة ألف شيطان » . وقد أعرب عن شعور قريب من هذا فى ملاحظة أبدتها لمتريخ وهما فى بهو الحفلات الكبرى فى قصر نابليون بسان كلو ، وكان بلوخر وفرسانه يحتلون هذا القصر بعد معركة وترولو : « لا بد ان هذا الرجل كان على قدر كبير من الغباء اذ يكون له كل هذا ثم يجرى وراء موسكو » . وقد خاب أمله عندما لقي « القبي الكبير » ذلك المصير الهين وهو النفى الى سانت هيلانة ، وسعى الى اعدامه . الا أن ولنجتون لم يقبل مطلقا هذه الحطة كما يبدو فى خطاب كتبه فى ٢٨ يونية ونابليون مازال طليقا .

« يظن الباريسيون أن اليعقوبيين سيسلمونه (نابليون) معتقدين أنى سابقى على حياته . ويكتب لى بلوخر طالبا باعدامه ، ولكنى أبلغته أنى سأعارض فى ذلك ، وسأصر على أن يقرر مصيره باتفاق عام . وقد قلت له أيضا انى بوصفى صديقا له أنصح به بالا يشترك فى مثل هذا العمل الدنىء - ، واننا هو وأنا ، قمنا بدور فى هذا الموضوع أنبل من أن نصبح آخر الامر جلادين - وانى مصر على أنه اذا أراد الملوك اعدامه فعليهم أن يستخدموا جلادا ، ولن أكون أنا ذلك الجلاد » .

والذين يذكرون انتخابات « اشتقوا القيصر » فى نهاية الحرب العظمى ، والشعور العام فى ذلك الوقت ، والخطب التى ألقاها رجال السياسة المبرزون ، سيدركون الى أى حد سبقت بروسيا العالم سنة ١٨١٥ وكيف أن دوافع الدوق النبيلة ستبدو شيئا عتيقا باليا فى نظر أحد الأجيال التالية .

وأيا كان رأينا فى الأفكار السياسية التى صاحبت النهضة فى ألمانيا فى بداية القرن التاسع عشر ، فلا بد لنا من الاعتراف بأننا اذا نظرنا الى فضل النابيهن من رجالها فى التراث الثقافى كانت ألمانيا فى مقدمة العالم كله فى ذلك الوقت . وانه لمن العسير أن يجد المرء « لكانت » و « هيجل » و « جوته » و « شيلر » نظراء من معاصريهم من غير الالمان . ولسنا ننكر أن كانت وجودته مدينان بجزء كبير من عظمتها الى تحررها من النعرة القومية الجرمانية وأن الاجيال اللاحقة من الالمان قد استنكرت بعضا من خير صفاتها . ففهد أعجب « كانت » بروسو وأحب الثورة الفرنسية وكتب رسالة يدعو فيها الى السلام ، الذى يقول فيه تريتشكه : « السلام الدائم هو الحلم الذى لا رجولة فيه » .

أما جوته فقد أيقظ فيه قصف المدافع فى معركة جينا مشاعر فلسفية ولم تبعث فيه حماسة وطنية ومن ثم استطاع أن يزور أرض المعركة مع بعض الفرنسيين دون أن يؤنبه ضميره . لقد كان كانت وجوته عظيمين ، ولكنهما ما كانا ليقرأ الطريقة التى استغلها بها القوميون الالمان . نعم أن أكثر الالمان العصاة الذين جاءوا بعدهما كانت قلوبهم مشبعة بالحماسة الوطنية ، وكان لهم ما يبرر ذلك . فان ألمانيا ظلت طوال الفترة القائمة من سقوط نابليون حتى الحرب العظمى محتفظة بتفوقها فى العلوم وفى كل فرع من فروع المعرفة تقريبا .

ولم يعتصر الامر على العلم وحده ، بل ان النظرة الالمانية سنة ١٨١٥ كانت من عدة نواح أخرى أقرب الى الروح التى سادت فى مائة السنة التالية من نظرة اية دولة أخرى . ويقول تريتشكه فى هذا : « لأول مرة من أيام مارتن لوتر انتشرت آراء ألمانيا فى الارض كلها مرة أخرى ، وقد وجدت هذه المرة قبولا أكثر مما تهيا لأفكار الإصلاح الدينى قديما . ان ألمانيا وحدها هى التى انطلقت تماما خارج نطاق الأفكار التى تضمنها نظام العالم فى القرن الثامن عشر . فقد حل محل المبدأ الحسى الذى كان يسود عصر الاستنارة فلسفة مثالية ، وحل محل سيطرة العقل شعور دينى عميق ، وحلت مباحج القومية محل النزعة العالمية ، وحل الاعتراف بالتقدم الحى للشعوب محل الحقوق الطبيعية ، واستبدلت بقواعد الفن الصحيح شاعرية حرة تنبعث من أعماق الروح كأنما تدفعها من هذه الاعماق طاقة طبيعية ، وحلت ثقافة القيم الجمالية التاريخية الجديدة محل العلوم المضبوطة . وبلغت هذه الدنيا دنيا الأفكار الجديدة أشدها على أكتاف ثلاثة أجيال ، أجيال من الشعراء الكلاسيكيين والرومانسيين ، على حين أن الشعوب المجاورة ظلت حتى ذلك الوقت لا تضم سوى أفراد منعزلين يحملون لواء هذه الأفكار الجديدة التى لم تشق طريقها منتصرة فى كل مكان الا أخيرا » .

وأعاد اليابا في هذه الفترة نفسها ، وكما يشير تريتشكه أيضا ، عهد التفتيش وقوائم الكتب التي تحرمها الكنيسة ، وأعلن أن جمعيات الكتاب المقدس رجس من عمل الشيطان ، بينما حدث في جنوبي فرنسا عند عودة الملكية أن « هاجم غوغاء الكاثوليك منازل البروتستانت وقتلوا الهراطقة صائحين ، لنصنع عجينة سوداء من دماء كالفن ! » .

ولم يفعل الساسة المجتمعون في مؤتمر فينا ، وهم من المتنورين المتمدنين ، شيئا لوقف تبار هذه الرجعية السوداء الحبيثة ، ولكنهم كانوا يرتعدون هلعاً من الأفكار الجديدة في ألمانيا . وقد أخذ مترنيخ بنوع خاص يبذل ما في وسعه لإبقاء الحالة في ألمانيا على ما كانت عليه إبان القرن الثامن عشر ونجح في إخماد كل حركة تحررية قامت جهرا حتى سنة ١٨٤٨ .

لقد كانت روح مؤتمر فينا من وحى القرن الثامن عشر ، وكانت القومية الألمانية الديوقراطية ، إذا ما أقحمت نفسها فيه ، تبدو كأنها آتية من عصر آخر . كذلك أثير في المؤتمر موضوع آخر كان يبدو غريبا عن الصورة العامة لهذا المؤتمر ، وهو موضوع تجارة الرقيق . وكانت إنجلترا أول من أثار هذا الموضوع الذي كان بداية يقظة العامل الانساني الذي يتسم به القرن التاسع عشر ، وقد وقفت منه الدول الاخرى جميعها موقف عدم المبالاة النامة . وكان الشعور بوجود الغاء الرق جارفا في إنجلترا ، واضطر كاسلري ، أيا كان رأيه الخاص ، الى الاصغاء باحترام لمطالب « ويلبر فورس » و « كلاركسون » بطل حركة الغاء الرقيق . وكان البريطانيون قد اتوا نجارة الرقيق عندهم وحاولوا أن يقنعوا الدول الاخرى بالغائها في بلادهم خلال خمسة أعوام . وقد دهش أشخاص مثل تاليران من أن الحكومة البريطانية كانت على استعداد لمنح افليم كامل أو مبلغ ضخم من المال لتحقيق هذا الغرض ، كما أعلنت أن رفضه قد يؤدي الى تمييز تجارى عدائى . والحطاب التالى الذى كتبه كاسلري الى السفير البريطانى فى مدريد نموذج لعدد كبير من نوعه :

« ميدان سان جيمس »

أول أغسطس سنة ١٨١٤

سيدي العزيز ،

... يجب أن تلج على الحكومة الاسبانية لتمنحنا المزيد من التسهيلات فى موضوع تجارة الرقيق والا فلن نستطيع أن نفعل شيئا لهذه الحمومة به . كانت رغبتنا فى ذلك . ان الشعب منتجته بكليته نحو هذا الهدف . وأعتقد أنه ما من قرية لم تجتمع وتقدم عرائضا فى هذا الشأن ، وقد تعهد مجلسا البرلمان بالعمل على تحقيقه والوزراء مضطرون لان يجعلوه أساسا نسياستهم . ومن المهم بصفة خاصة ألا تتخلف اسبانيا والبرتغال عن كل أوروبا فى هذا

الصدد ، والا كانت النتيجة المرجحة تحريم إستيراد منتجات مستعمراتها ،
ولذلك أرجو أن تلج في المطالبة بأن تتعهد فرنسا بالغاء هذه التجارة فى خلال
خمس سنين وأن ترجو الحكومة الاسبانية أن ترسل تعليمات بهذا المعنى الى
« لابرادور » ممثل اسبانيا فى فينا .

أما فيما يتعلق بالغاء تجارة الرقيق الفورى شمال خط الاستواء فاذا لم
تستطع اقناعهم بأن يتم الالغاء ابتداء من جنوب « رأس لوبيز » و « لوب
كونسالفز » فأرجو أن تطالب بأن يكون ذلك ابتداء من « رأس فورموزو »
أو حتى الى الغرب قليلا من « كيب كوست كاسل » بثلاث نقط (١) ، ولكن
لوبيز رفضها جميعا لأن السفن التى تحمل شحنات من العبيد تستطيع أن
تبعد عن الساحل ابتداء من هذه النقطة .

ولعلك تذكر أن أسبانيا لم تكن فيها تجارة رقيق خاصة بها قبل الغائها
عندنا ، ويبدو أنها لا تستورد الآن الا القليل منهم فعلا لمستعمراتها . وأن
القسم الأكبر من الرقيق الذى يشحن أولا الى كوبا وبورتوريكو يعاد شحنه الى
أمريكا ويهرب فى الولايات المتحدة ، وأكثر ما يكون ذلك عن طريق الميسسبى ،
رغم قوانين الالغاء الامريكىة . وان اقرار حق التفتيش المتبادل لهو على
جانب كبير من الاهمية لمنع التلاعب فى هذا الشأن » .

وموقف الانجليز تجاه تجارة الرقيق غريب من الناحية السيكلوجية ،
ذلك بأن الأشخاص الذين بذلوا جهودا أكثر من غيرهم فى سبيل الغائها
كانوا هم أنفسهم الذين يعارضون كل محاولة للتخفيف من أهوال التصنيع
فى انجلترا ، والشئ الوحيد الذى كان أشخاص مثل ويلبرفورس على
استعداد للتسليم به فى موضوع استخدام الاطفال فى الصناعة هو أن يمنح
أولئك الاطفال بعض الوقت فى أيام الآحاد ليتعلموا أصول الدين المسيحى .
لقد خلت قلوبهم من الرحمة نحو الاطفال الانجليز ، أما نحو الزوج فكانوا
كلهم شفقة . ولست أعنى بأن أتعرض لتعليل هذا التناقض ، لان التفسيرات
الوحيدة التى تخطر على بالى تدعو الى السخرية الى حد لا يحتمل . الا أنه
ينبغى ملاحظة هذه الحقائق باعتبارها مثلا بارزا لتعقد المشاعر الانسانية .

ولقد كان من المألوف حتى سنة ١٩١٩ أن يعتبر مؤتمر فينا فاشلا ،
ولكن العالم أصبح لديه بعد ذلك مستوى من الفشل أعلى درجة من مستوى
ذلك المؤتمر . ذلك أنه برغم مساوئه كان من بين القرارات التى تمخض عنها
قراران خطيران جديران بشكر أوروبا ، أولهما ما ساده من موقف التسامح
مع فرنسا . ولسنا ننكر أنه بعد « المائة اليوم » شعر المؤتمر بأن لا بد لهم

(١) النقطة فى الاصطلاح البحرى ١/٣٢ من دائرة البوصلة أى ١/٤ ١١ درجة .

من استعمال الشدة الى حد ما ، ففرضت عليها غرامة حربية وبقيت الجيوش المتحالفة تحتل مراكز هامة في فرنسا ، الا أنه لم تمض سنوات قليلة حتى دفعت الغرامة وانسحبت الجيوش . وكانت النتيجة أن فرنسا لم تحس بمرارة دائمة تجاه المنتصرين .

أما الفائدة الثانية التي جنتها أوروبا من المؤتمر فكانت انشاء حكومة دولية لتكون أداة للمحافظة على السلام . نعم ان هذه الحكومة كانت مؤقتة وأن اجراءاتها كانت سيئة عقيمة ، الا أنها مع ذلك منحت أوروبا فترة هدوء بعد حرب استمرت ثلاثة وعشرين عاما . فقد اتفقت روسيا وبروسيا والنمسا وانجلترا ، وانضمت اليها فرنسا فيما بعد ، على أن تعقد مؤتمرات من وقت لآخر لتنظيم شئون العالم . ويرجع الى هذا التدبير بعض الفضل في أنه لم تحدث حروب مهمة مدة تسعة وثلاثين عاما .

٣ - الحلف المقدس

الفصل الثالث

الحلف المقدس

ان محاولة اعادة عمل سبق أن قام به المرء بنجاح تنطوى دائما على مخاطرة . وشاهد ذلك أنه عندما دخل الحلفاء باريس سنة ١٨١٤ كان اسكندر يحتل مركز الصدارة بينهم ، ولكنهم عندما دخلوها سنة ١٨١٥ انتزع منه هذه المكانة ولنجتون وبلوخز اللذان كانا قد هزما أخيرا اعظم عبقرية عسكرية في العصر الحديث دون معونة اسكندر أو النمسا . على أن ما فاتة المجد الدنيوى يتبقى أمامه مجد الآخرة . وكان اسكندر فى ذلك الوقت قد أصبح أشد تدينا مما كان قبل .

وكان قد سمع من عدة سيدات يعرفهن الشيء الكثير عن متنبئة عجيبة تدعى البارونة « كرودنر » ، ولم تكن هذه السيدة ، التى بلغت الثانية والخمسين من عمرها ، قد كرسست كل حياتها قبل ذلك للعبادة . فقد كانت ابان شبابها مرحة غير مستقرة ، على الرغم من أنها تؤكد لنا أن روحها السامية لم تنم كل النوم فى أى وقف من الاوقات ، وأنها فى غمرة الترف والمباهج النزقة فى كوبنهاجن ظلت طاهرة تعيش عيشة العازبات وعلى وفاق دائم مع الطبيعة . ثم قررت عام ١٧٨٩ أن تغادر كوبنهاجن (حيث كان زوجها سفيرا لروسيا) لتعيش على وفاق مع الطبيعة فى باريس . ولكن سرعان ما تراكم عليها خلال بضعة شهور دين قدره ٨٠٠ جنيه لصانع ثياب ماري انطوانيت فأدى بها هذا مجتمعا الى أسباب أخرى ، الى مغادرة باريس الى مونيبييه .

وبعد أن هرب الملك الى « فارين » مستعملا جواز سفر أحد أصدقائها ، رأت من الحكمة أن تغادر فرنسا مع عشيقها متنكرا فى زى خادم ؛ وقدمته الى زوجها وأوضحت له الأمر بصراحة ، ولكن التجربة لم تصب نجاحا . وتقول عنه فى مناسبة لاحقة « ان مسيو كرودنر لا يقدر أى نوع من السعادة المنزلية . انه قد ازداد تعلقا بالحفلات والزيارات والمسارح وما إليها أكثر من أى وقت مضى » . ولكنها على الرغم من جموده هذا عاشت معه فى برلين حيث عين سفيرا لبلاده . وكانت تعتقد أنها تجلب له الحظ الحسن وأن « الله أراد أن ينعم على زوجى منذ رجوعى اليه . ولم لا أصدق أن قلبا ورعا يعبد الله فى بساطة وثقة طالبا العفو والسعادة لشخص آخر ، لا ينال الأمنية التى يطلبها ؟ » ومع ذلك فانها تركت البارون الطيب آخر الامر فى عام ١٨٠١ ،

وإذا كان الله قد أنعم عليه بخير بعد ذلك فلا بد أن هذا حدث عن طريق آخر .

وتمت هدايتها سنة ١٨٠٥ عندما كانت تقيم مع أمها في « ريجا » ، فقد حدث أن شابا يجيها رفع لها قبعتها وسقط مينا لساعته . وقد المها ذلك كثيرا إذ تصورت أنه كان من الممكن أن يحدث ذلك لها هي نفسها . ولم يمض وقت طويل حتى لاحظت أن صانع أحذيتها يبدو سعيدا ، ولما سألته عن السبب ذكر لها أنه من جماعة الاخوان «الموراويين» وأنه تعود قراءة الكتاب المقدس . وجربت الوصفة فنجحت معها . وقد كتبت تقول : « انك لاتدرى أى قدر من السعادة أناله من هذا الايمان المقدس السامى . ان الحب والطمح والنجاح تبدو لي مجرد طيش . ان الحب المبالغ فيه حتى ولو كان مشروعا ؛ يبدو كلا شيء اذا قورن باليسعادة النقية السماوية التى تهبط على الانسان من أعلى » .

وواتتها الفرصة التى أنزلتها منزلة عليا فى التاريخ بعد أن قضت عشر سنوات نحيا حياة العبادة . ولاح لها أنها قد قدس عايتها أن تقابل فيصرها فاستقرت فى ربيع سنة ١٨١٥ فى قرية تقع على الطريق من فينا الى مركز الجيش الروسى . وعندما كان اسكندر عائدا مسرعا من المؤتمر فى الرابع من شهر يونية ليكون على رأس جنوده اذ وجد نفسه أخيرا فى ذات ليلة فى هيلبورن قريبا من مقرها . وكان قد سمع عنها كثيرا ، ولكنه لم يكن يعرف أنها على مقربة منه . وكان فى هذه الليلة متعبا لا يستطيع القراءة قلقا لا يستطيع النوم فتذكر ما كان قد سمعه عنها وأبدى رغبته فى أن تتاح له فرصة للتعرف بها . وفى هذه اللحظة نفسها أعلن نبا قدومها .

ولم تضع وقتا ما . بل قالت له من فورها أنه آثم وأنه لم يذل نفسه الاذلال الكافى أمام الله حتى ذلك الوقت . وأنها هي أيضا كانت آتمة كبيرة ولكنها نالت العفو عند قدمى صليب المسيح . واجاب اسكندر : « لقد جعلتنى أكتشف فى نفسى أشياء لم أدركها من قبل . وانى أشكر الله على ذلك ، ولكنى أحس بحاجة الى الكثير من أمثال هذه المحادثات . فأرجوك ألا تبعدى عنى » . وأطاعت الأمر الامبراطورى وظلت خلال الاشهر التالية على مقربة من التائب الملكى .

وكان الحلف المقدس نتاج فضيلتها . وقد كتب اسكندر هذه الوثيقة الغربية فى سبتمبر سنة ١٨١٥ ، وكان المقصود بها أن تتضمن تطبيق الحقائق الدينية الكبرى التى تعلمها من البارونة على السياسة . وعرض عليها المشروع المبدئى وقبل باحترام ما اقترحت من التعديلات ، ثم أخذ الوثيقة تورا الى امبراطور النمسا وملك بروسيا ، على أن يتم توقيع باقى ملوك أوروبا

عليها فى أسرع وقت ممكن . (ولم يكن مستظاعا أن يطلب الى سلطان تركيا توقيعها لانه لم يكن مسيحيا) .

وفيما يلي نص الحلف المقدس كما وقعه اسكندر وفرانسييس وفرديريك وليم فى ٢٩ سبتمبر سنة ١٨١٥ :

« باسم الثالث المقدس الذى لا يتجزأ .

ان أصحاب الجلالة امبراطور النمسا وملك بروسيا وامبراطور روسيا ، بالنظر الى الاحداث العظيمة التى وقعت فى أوروبا خلال السنوات الثلاثة الماضية ، وخاصة بالنظر الى الأفضال التى شاءت العناية الالهية أن تخص بها هذه الدول التى وضعت حكوماتها ثقفتها وأملها فى هذه العناية وحدها ، ان هؤلاء الملوك وقد اقتنعوا كل الاقتناع بأنه أصبح لزاما عليها أن تقيم المبادئ الأخلاقية التى ينبغى على الدول أن تتحلى بها فى معاملاتها فيما بينها على أساس من الحقائق السامية التى تضمنتها العقيدة الابدية التى جاء بها المسيح مخلصنا : يعلنون جادين أن هذا العقد له هدف وحيد هو أن يعلنوا أمام العالم عزمهم الذى لا يتحول على ألا يتخذوا قاعدة لهم سواء فى ادارة دولة كل منهم أو فى علاقاتهم السياسية مع جميع الحكومات الأخرى ، سوى مبادئ عقيدتهم المقدسة ونواميس العدالة والرحمة والسلام ، تلك النواميس التى لا يقتصر تطبيقها على شئون الحياة الخاصة بل يجب على النقيض أن تكون ذات تأثير مباشر فى قرارات الحكام وأن تكون رائدهم فى جميع أحكامهم ، باعتبارها الوسيلة الوحيدة للتضامن بين النظم البشرية واصلاح نقائصها .

وبناء عليه يوافق جلالتهم على المواد التالية :

المادة الأولى : وفقا لنصوص الكتاب المقدس التى توصى كل الناس بأن يعتبر كل منهم الآخر أخا له ، يظل الملوك الثلاثة المتعاقدون مرتبطين برباط أخوة حقيقية لا تنقسم عراها ، ويعتبر كل منهم الآخرين مواطنين له يمد لهما يد المساعدة والإنجدة فى كل مكان ، وفى كل الظروف - واذ كانوا يعتقدون أن وضعهم بالنسبة لرعاياهم وجيوشهم هو اضع الأب من الاطفال ، فانهم سسيوجهون رعاياهم وجيوشهم بروح الاخوة هذه نفسها ، لحماية الدين والسلام والعدالة .

المادة الثانية : ونتيجة لذلك سيكون المبدأ الوحيد الذى تقوم عليه العلاقات سواء بين الحكومات المذكورة أو بين رعاياها مبدأ تقديم الخدمات المتبادلة ، وأن يظهروا نحو بعضهم البعض - بحسب نية لا يتغير - العطف المتبادل الذى ينبغى على كل منهم أن

يتحلى به ، وأن يعتبر كل منهم الآخرين ، دون أى استثناء ،
أعضاء فى نفس القومية المسيحية ، لان الأمراء الثلاثة
المتحالفين لا يرون الا أنهم هم أنفسهم نواب العناية الالهية
فى حكم أفرع ثلاثة من أسرة واحدة :

النمسا ،

بروسيا ،

روسيا

وهم بذلك يعترفون بأن الشعب المسيحى الذى يكونون هم
وشعوبهم جزءا منه ، ليس له فى الحقيقة ملك الا من له
وحده القوة العليا ، لان فيه وحده كل كنوز الحب والمعرفة
والحكمة اللانهائية ، أى الله ، مخلصنا المقدس ، عيسى
المسيح ، الكلمة المجسدة .

وبناء عليه فان أصحاب الجلالة يوصون شعوبهم ، وهم أشد
ما يكونون حرصا وصبرا ، واعتقادا بأن ما يوصونهم به
هو السبيل الوحيد للاستمتاع بذلك السلام الذى ينبع من
ضمير نقي ، والذى له وحده البقاء ، يوصونهم بأن يحصنوا
أنفسهم تحصينا يزداد على مدى الأيام بالمبادئ وبأداء
الواجبات التى فرضها مخلصنا الاقدس على بنى الانسان .

المادة الثالثة : ان جميع الدول التى ترغب فى الاعتراف مخصصة بالمبادئ
المقدسة التى أوحى بهذا الاتفاق ، والتى تدرك أن من أهم
الاشياء لسعادة الامم التى ظلت حائرة طويلا ، أن يكون لهذه
الحقائق أثرها الواجب فى مصائر الناس ، نقول أن جميع
الدول التى ترغب فى هذا الاعتراف ستقبل هذا الحلف
المقدس بأكبر قسط من العطف والحماسة .

وقع فى باريس فى سنة ١٨١٥ المباركة وفى ١٤ (٢٦) سبتمبر

توقيع : فرانسوا - فردريك وليم - اسكندر »

ولم يكن رأى الملوك والساسة الآخرين فى الحلف المقدس طيبا جدا .
وتقرر أن يسمح للويس الثامن عشر بأن ينضم الى الحلف المقدس وان ظلت
شئون أوروبا ينظمها حلف الدول الاربع الذى بدى فى شومون ،
ما دام طابع هذا الحلف المقدس دينيا وليس دنيويا . وكان رأى مترنيخ ،
كما ذكره لكاسلرى ، أن عقل اسكندر قد اختل ، ورأى الامبراطور

فرانسييس ، وقد اعتقد صحة هذا الرأي ، أنه من الحكمة أن يوقع مرضاة لاسكندر . ورفضت الحكومة البريطانية أن تنضم الى الحلف المقدس ، ولكن الوصى على العرش - هذا المسيحي الصميم - كتب رسالة للقيصر يعبر فيها عن مشاركته اياه في مشاعره . وعندما جاء اسكندر ليتحدث الى كاسلرى فى الامر اتفق أن كان ولنجتون حاضرا ، ووجد كلاهما (كما كتب كاسلرى الى ليفربول) صعوبة فى الاحتفاظ بالوقار الواجب بينما كان الامبراطور يشرح الموضوع . وما يجدر بالملاحظة أن توبة اسكندر كانت تعد عند جميع الساسة نصرا للرجعيين ، وأن الرجعيين أنفسهم ، وجميعهم يجهرون بمسحيتهم ، كانوا يرون أن الاقتراح الذى يطلب اليهم أن يعيشوا وفقا لهذه المبادئ دليلا على الجنون .

ولم يكن للحلف المقدس من الوجهة الرسمية أى تأثير فى مجرى الحوادث التى كانت تنظمها المؤتمرات المنصوص عليها فى الاتفاق الاخير الذى تم فى مؤتمر فيينا . ولكن الحقيقة أنه خلال السنوات الخمس عشرة من ١٨١٥ الى ١٨٣٠ (سنوات الرجعية السوداء) لم يخطئ الشعور العام حين كان يرى أن كل ماحدث من كبت للحرية عمل من أعمال الحلف المقدس . فقد كانت نتيجة توبة اسكندر أن نبذ الافكار الحرة ، ومن ثم ظل يسقط أكثر فأكثر تحت تأثير مترنيخ . ولولا تدخل مدام كروذنر الذى جاء فى الوقت المناسب لما بلغت سيطرة مترنيخ ما بلغته من قوة فى أوروبا . ولسنا ننكر أن القيصر سئم مدام كروذنر بعد فترة لم تطل ، الا أنه استبدل بها مستشارين دينيين أشد منها وبالا . وانا لنجد وجها للشبه بين علاقة اسكندر بدمام كروذنر وعلاقة نيقولا الثانى براسبوتين ، كما نجد بين العلاقتين فارقا : فالعلاقة الاولى مهزلة والثانية مأساة . ولكن المهزلة تنتهى عندما تنتقل من شخص اسكندر الى العالم بأسره . فقد مات وطنيون من نابلي أو قاسوا السجن مدى الحياة ، وضرب جنود روسيون بالسياط حتى ماتوا ، وعذب اليونانيون بأسياخ تخترق أجسادهم ، وكل ذلك لان ضمير اسكندر المرهف طلب هذه الضحايا . لقد كان اسكندر قبل أن يجد الخلاص ، انسانا رحيفا ، فلما وجده سقط بعد ذلك بالتدريج فى هاوية سحيقة من القسوة تزداد عمقا على مدى الايام .

وكانت المؤتمرات التى تولت تنفيذ الخطة التى وضعها مؤتمر فيينا هى : مؤتمر اكس لاشابل سنة ١٩١٨ ، وتروباو وليباخ (وهى فى الواقع مؤتمر واحد) سنة ١٨٢٠ وسنة ١٨٢١ ، ومؤتمر فيرونا سنة ١٨٢٢ .

وكان أكبر ما يعنى به مؤتمر اكس لاشابل الذى وصفه مترنيخ بأنه « مؤتمر صغير أنيق جدا » هو بشنون فرنسا . وتم فيه الاتفاق على أن تخلى الجيوش الاجنبية الاراضى الفرنسية فى مدى شهرين . وجددت روسيا

والنمسا وبروسيا وانجلترا معاهدة شومون التي تعهدت هذه الدول بمقتضاها في سنة ١٨١٤ أن تقاوم كل حكومة في فرنسا تهدد غيرها من البلاد . الا أنه بعد أن تم ذلك سمح لفرنسا بالانضمام الى جماعة الدول الكبرى بعد أن لم تكن موضع رغبة . واتفق في ملحق سرى على أن في مقدور أية دولة من الدول الخمس ، في حالة قيام اضطرابات ثورية ، أن تلجأ الى الدول الاربع الاخرى التي يجب عليها في هذه الحالة أن تمد لها يد المساعدة . وانتهى الرأي الى أن تعقد مؤتمرات بصفة دورية وفي حالة وقوع أزمة من نوع ما . وهكذا كان للحكومة الدولية اداؤها التشريعية والتنفيذية ، كما كان دستورها هو مبدأ الشرعية .

وأتيجت لمؤتمري نروباو ولينباخ فرصة لتطبيق المبادئ التي اتفق عليها في أكس لاشابل تطبيقا عمليا هاما ، فقد وقعت عدة أحداث مروعة أقلقت بال الملوك ووزرائهم . ففي اسبانيا تمرد الجيش وأرغم الملك على تجديد دستور سنة ١٨١٢ . وكانت هذه هي المناسبة التي أوحى لشلي نسيده الحربية الذي يبدأ .

مرة أخرى تلالاً بين شعب عظيم

وميض برق الشعوب ، الحربية

ولكن البرق شيء خطر ، وقد قررت روسيا وبروسيا والنمسا أن تسد عليه الطريق . الا أن ذلك لم يكن أمرا هينا . فقد حذت البرتغال حذو اسبانيا . وثار نابلي ، وهي تهم مترنيخ أكثر من اسبانيا والبرتغال ، مرة أخرى ضد فرديناند ، وأرغمته على أن يقسم على احترام الدستور الجديد الذي انتزع منه . ورفضت انجلترا ، التي كانت منذ بداية الامر تنظر بعين الريبة الى السياسة الرجعية التي تتبعها الدول الشرقية ، أن تتعاون في اخماد الثورات . كما أن فرنسا التي اضطرها الحلفاء لقبول النظام البرلماني لم تكن على ثقة من أن اسبانيا يجب أن تكون بلا برلمان ، وكانت وانقذ كل الثقة من أنه اذا حدث تدخل في اسبانيا فيجب أن يكون تدخل فرنسا بحتا . وخشيت الدول الشرقية أن تعود الى الجنود الفرنسيين تقاليدهم الثورية اذا هم اتصلوا بالثوار الاسبانيين . وعارض الانجليز أى عمل حربي في البرتغال . وأصر مترنيخ على ألا يذهب الى نابلي سوى جنود نمساويين ، مما أثار مخاوف غيره من الساسة من ازدياد قوة النمسا .

ورغم هذه الصعوبات كلها أفلحت أعمال الرجعية في كل مكان الا في البرتغال ؛ فقد حدث تغيير في الوزارة الفرنسية نقل السلطة الى ابدى المحافظين المتطرفين الذين سيروا الجيوش الفرنسية لتغزو اسبانيا في سنة ١٨٢٢ وإعادة حكم الملك المطلق . ونمت تسوية مشكلة نابلي بصورة أصرع .

فقد هرب فرديناند الى الولايات البابوية واستنجد بالنمساويين ، فأعيد اليه حكمه المطلق ومعه كل فظائع « الارهاب الابيض » . وكانت هذه الاحداث درسا للأحرار جعلهم يجنحون الى الهدوء فى بلاد القارة بضع سنوات . وكان دور اسكندر ، الذى كان هو نفسه قبل ذلك متحررا ، طريفا من الناحية السيكلوجية . فقد كان من حسن حظ مترنيخ أن وقع فى هذه اللحظة الحاسمة تمرد فى فرقة سيمونوفسكى التى كان اسكندر حتى ذلك الوقت يقدرها أكبر تقدير . وكان التمرد خفيفا جدا وكان سببه قسوة أميرالاي جديد قسوة غير محتملة . وتظاهر الامبراطور بترك الامر لوزيره اراكتشيف ، ولكنه فى الواقع أولى موضوع معاقبة المتمردين اهتمامه الشخصى وأصر على اصدار أحكام لا يتصورها العقل فى قسوتها تحت ستار من الرحمة المزيفة . فمثلا « ان صاحب الجلالة الامبراطور ، بالنظر الى طول المدة التى قضاه المذكورون أعلاه فى الجيش الاحتياطى ، وبالنظر الى سجل خدمتهم فى خط النار ، تفضل فرأى أن يجنبهم مذلة عقوبة الضرب بالسياط ، وقرر أن يضرب كل منهم ستة آلاف عصا ، يرسلون بعدها الى الاشغال الشاقة فى المناجم » .

وكان فى نفس الوقت تقريبا يكتب الى صديقه المتدين الأمير «جولتزيرين» :
« انى أسلم نفسى تماما لتوجيهات الله وقراراته ، وهو الذى يقضى فى الأمور ويضعها فى نصابها ، وكل ما أفعله أن أسلم نفسى لارادته وأنا مفتتح من صميم قلبي بأن ذلك لا يمكن الا أن يؤدي الى الهدم الذى قضت به مشيئته لتحقيق الخير العام » .

وقد دونت هذه الناملات الورعة فى خطاب طويل كتبه ابان انعقاد مؤتمر ليباخ بيرر فيه سياسته تجاه نابلي :لنى جرأ لأمير على انعقادها . وفيه يعترف اسكندر انه لا يستطيع أن يتصور الاسباب الى دعت لهذا الانتفاذ الذى لا يمكن أن يصدر « عن اعتقادك بأن علينا أن نتحمل دون أن نحرك ساكنا هذه المبادئ الهدامة التى أشعلت الثورة فى ثلاثة بلاد فى أقل من ستة أشهر والتي تهدد بالانتشار فى أوروبا كلها وعمها جميعا » . ثم يمضى فيقول ان هذه المبادئ ليست دوجهة ضد العروش وحدها ، بل ضد الدين المسيحى أيضا . ويسنم فيقارن ملك نابلي « بيوديت » والنوار من أهل نابلي « بهدلوفرن » ليثبت أن الله يستطيع أن ينصر الفئة الضعيفة ، ثم يورد فقرته من خطابات لفرديناند يقول فيها أنه يضع ثقنه فى الله وحده . (ونم يكن فرديناند يخاطر بشيء ما الا اذا رأى أن يرتكب اثم الحنث باليمين ، لأن «الدستوريين كانوا يرغبون فى بقائه منكبا عليهم) . وتأتى بعد ذلك صفحات وصفحات من الحجج الدنيوية يسوقها بدهاء وفى صميم الموضوع . ولكنه لا يلبث أن يعود الى الموضوعات الدينية . فيقول أن الاحرار والثوار والكاربونارى فى العالم كله جزء من مؤامرة عامة ، ليست موجهة الى الحكومات بقدر ما هى موجهة الى هدم دين

المخلص • أن مبدأهم هو سحق الله •• (شععار فولتير « اسحقوا اللعين ») .
وأنا لا أجزأ حتى على أن أخط بيدي هذا الكفر الذى يعرفه الناس تماما من
كتابات فولتير وميرابو وكوندورسييه ، وكثيرين غيرهم ممن هم على شاكلتهم •
وهو يقول أن معتقداته تتفق وتعاليم القديس بولس :

« فى هذه اللحظة فتحت الكتاب المقدس لأبحث عن الفقرة التى تتصل
بما أقوله لك الآن ، وعندما فتحته وقع بصرى على رسالة بولس الرسول الى
أهل رومية الاصحاح الثامن الآية ٢٢ الى آخر الاصحاح • وليس هذا هو ما
أردت أن أستشهد به ، ولكن لما كان ما وقع عليه بصرى عندما فتحت الكتاب
المقدس بدأ غريباً ومتفقاً مع ما كنت أكتبه اليك ، فاذى أريدك أن تقرأه •

أما الاستشهاد الذى اعتمد عليه فيما قلت لك عن الايمان فانك تجده فى
رسالة بولس الرسول الى أهل رومية ، الاصحاح الرابع عشر فى الآيه
الآخيرة ٢٣ : « وأما الذى يرتاب فإن أكل يدان ، لأن ذلك ليس من الايمان •
وكل ما ليس من الايمان فهو خطية •

انى أحس بأنى موكل بمهمة مقدسة الهية ، ويجب ألا أتهاون فيها ، ولا
أستطيع أن أتهاون فيها ، كما يجب على أكثر من ذلك ألا أكون سبباً فى فضيحة •
يقول بولس الرسول فى رسالته الى أهل رومية الاصحاح الرابع عشر :

الآية ١٣ : فلا نحاكم أيضاً بعضنا بعضاً بل بالحري احكموا بهذا أن لا يوضع
لأخ مصدمة أو معترة •

الآية ١٦ : فلا يفترى على صلاحكم •

الآية ١٨ : لأن من خدم المسيح فى هذه فهو مرضى عند الله ومزكى عند
الناس •

الآية ١٩ : فلنعكف اذن على ما هو للسلام ، وما هو للبينان بعضاً لبعض •

الآية ٢١ : حسن ألا تأكل لحماً ولا تشرب خمراً ، ولا شيئاً يصدم به
أخوك أو يعثر أو يضعف •

الآية ٢٢ : ألك ايمان ؟ فليكن لك بنفسك أمام الله - طوبى لمن لا يدين
نفسه فيما يستحسنه •

الآية ٢٣ : وكل ما ليس من الايمان فهو خطية •

وهذه النصوص تستتبع بوضوح أن من الحق أن يسجن خير الناس فى
نابل وأن يعود ظالم غاشم الى الحكم المطلق • وكان اسكندر يقود أكبر جيش

(١) يقول المؤلف هنا انه كتب النص الذى اورده الامبراطور وان كان فيه بعض الخلاف عن النص
المعترف به ، ولكنى نقلت النص العربى من الاصحاح العربى •

فى العالم وكانت له القوة التى يجعل بها ارادته تسود . ولسنا ننكر أن مترنيخ كان يظنه مجنوناً ، ولكنه يرى ذلك أمراً غير ذى بال طالما كان ممكناً حمل الرجل المجنون على تنفيذ رغبات وزارة الخارجية النمساوية .

وقد مرت عقيدة اسكندر الدينية فى عدة مراحل . ففى أول الأمر كان أورثوذكسيا ولم يكن يهجه أمرها كثيراً . ثم بدأ ، تحت تأثير أخته كاترين ، يهتم بالماسونيين الاحرار الذين كانوا موضع نفور من الارثوذكس الاكثر تمسكا بدينهم . وجاءت مدام كرودنر فأكدت له ، تبعا لنصيحة الاسكاف المؤراوى ، أهمية الكتاب المقدس وجعلته ينصرف الى دراسة الكتب المقدسة ، فشجع جمعيات التوراة البريطانية والاجنبية على توزيع التوراة فى روسيا ، واشترك معه فى ذلك الامير جولنزين . وكان كوشيليف صديق جولنزين ، معاونا آخر من معاونى اسكندر الدينيين . وقد حاول الاثنان أن يمنعا من أن يصير رجعيًا شديد الرجعية ، وكانا لا يتفقان فى آرائهما الدينية مع التمسك بالدين الى درجة التعصب وهو الذى كان يتسم به كبار رجال الكنيسة الروسية . وكان أحد هؤلاء الرجال الارشمنديت فوتيوس الذى أصبح له بعد موت كوشيليف نفوذ كبير على الامبراطور . وقد ألقى فوتيوس هذا صلاة جنازية فريدة نوعا ما عند وفاة كوشيليف قال فيها :

« فى أعماق السكون والوحدة ، أضرع الى المولى أن يستخدم فى أعماله ، عندما تفتضى ذلك ارادته ، رجل الدين ليدمر كهوف الشيطان القابعة فى الأماكن الخفية ، وجمعيات الفولتيريين السرية ، والماسونيين الاحرار والمارتينيين ، ويقطع رأس الافعى ذات الرؤوس السبعة التى صبت لعنتها ثلاثا على النور الذى مات كاهنه الاعظم أخيرا فى يوم القديس جورج ٢٦ نوفمبر ونودى ليقف أمام محكمة الديان » .

وكان أمام سياسة اسكندر فى الشؤون الدولية خطوة أخرى يجب أن يخطوها ، وقد خطا هذه الخطوة فى سنة ١٨٢٢ فى مؤتمر فيرونا وفى المحادثات التمهيدية التى جرت فى فينا . وفى هذا الوقت كانت ثورة اليونانيين على الطغيان التركى تستجمع قواها ، ولم تكن تثير الحماسة فى قلوب الاحرار فحسب ، بل كانت تثيرها أيضا عند أولئك الذين احتفظوا بوجهة نظر الصليبيين وكانوا يكرهون أن يخضع المسيحيون للمسلمين . وكان فى روسيا الى جانب ذلك ، دافع وطنى للعطف على اليونان لأن تركيا كانت عدوها القومى الوراثة ، كما أنه كان لروسيا مطامع اقليمية لا يمكن تحقيقها الا على حساب الاتراك . أما النمسا فكانت تنظر الى الموضوع من زاوية أخرى ، فقد كان من المحتمل أن يؤدى انهيار تركيا الى تقوية روسيا الى درجة غير مرغوب فيها . ونجح مترنيخ فى اقناع اسكندر بالأى يؤيد قضية اليونانيين على أساس أنهم ثوار خارجون على السلطة الشرعية . وكان مترنيخ يعلم حق العلم أن اسكندر يضحي بموقفه هذا بمصالح روسية لها أهميتها . فقد كتب

الى الامبراطور فرانسيس يقول « ان المجلس الرومى قد أطاح بضربة واحدة بالعمل المجيد الذى حققه بطرس الاكبر وخلفاؤه » . ومنذ ذلك الوقت أخذت مجموعة الدول الأوروبية تراقب عن كثب علاقات روسيا بالباب العالى وهو ما لم تفعله من قبل . وقد هنا مترنيخ نفسه على ما فعله فقسال وهو منشرح الصدر : « أن العمل الحاسم الذى قمت به عمل ممتاز حقا » .

وكان يبدو لاسكندر أنه لا يفعل أكثر من أن ينفذ مبادئ الحلف المقدس . ويروى شاتوبريان ، الذى كان أحد مندوبى فرنسا المفاوضين فى مؤتمر فيرنا ، ما قاله اسكندر له فى هذا الموضوع : « لم يعد هناك مجال لقياس سياسة انجليزية أو فرنسية أو روسية أو بروسية أو نمساوية ، لم يعد هناك سوى سياسة عامة واحدة ينبغى على الجميع ، شعوبا وملوكا ، اتباعها لحسير الجميع . ومن واجبى أن أثبت أنى مؤمن بالمبادئ التى أقمت عليها الحلف . وكانت ثورة اليونان فرصة لاحتمالى : فمما لا ريب فيه أنه ليس هناك ما يبدو فى صالحى وصالح شعبي ويتفق مع الرأى السائد فى بلدى أكثر من حرب دينية ضد تركيا ، الا أنى لاحظت طابع الثورة فى الاضطرابات التى وقعت فى البلوبونيز . ومن ثم كفت يدي ٥٥٠ كلا ، لن أنفصل عن الملوك الذين انضممت اليهم ، وينبغى أن يسمح للملوك بأن يعقدوا أخلافا عامة ليدافعوا عن انفسهم ضد الجمعيات السرية . وما الذى يمكن أن يغرينى ؟ ما حاجتى الى توسيع الامبراطوريتى ؟ ان الله لم يضع تحت امرتى ثمانمائة ألف جندى لأحقق بهم مطامعى ، بل هياهم لى لأحمى بهم الدين والاخلاق والعدالة حتى تسود مبادئ النظام الذى يقوم عليه المجتمع البشرى » .

وبهذه التأملات احتفظ الامبراطور الانطوائى على فضيلته ، بينما ظل اليونانيون يقاسون أشنع أنواع العذاب .

ولم يكن تصرف اسكندر فى شئونه الداخلية ابان السنوات الاخيرة من حياته خيرا منه فى شئون أوروبا . فقد شدد الرقابة على المطبوعات وضيق دائرة التعليم وضيق الحناق على الحرية العلمية أشد التضييق ، وكرس معظم اهتمامه « بالمستعمرات العسكرية » وهى محاولات لاخضاع الفلاحين للنظام العسكري دون أن ينتزعهم من عملهم بوصفهم رقيق أرض . وكان وزيره أراكشيف هو ملاكه الأسود ، وبشير السوء بين رجاله ، يستغل تأنيب الضمير الذى كان ينتاب القيصر ويشجعه على المضى فى يأسه الذى كان يسوقه الى القسوة . وكان أراكشيف خادما أميننا للامبراطور بول ، ولم يفته أن يذكر اسكندر بذلك . وفى سنة ١٨٢٣ كتب الى اسكندر بمناسبة عيد ميلاد بول يقول : « بعد أن عبرت فى الهيكل المقدس عن شعورى بالشكر العميق فى ذكرى من نحتفل باسمه اليوم ، والذى لا شك فى أنه يرى من مكانه قرب العرش العظيم ، العاطفة الحقة والاخلاص الذى يشعر بهما نحو خليفته العظيم ذلك الفرد من رعاياه الذى اقتضت ارادته ابان حياته أن يضعه بالقرب من

ابنه أمرا اياه بأن يكون خادمه الأمين ، واني لمنفذ هذا الامر بكل اخلاص ،
وأشكر الله كل يوم على أفضل جلالتكم على ،

وكان اسكندر مدينا لأراكشيف بحمايته من ثورات غضب بول التي كانت
في كثير من الأحيان مصدر خطر حتى على أسرته نفسها ، وترك اسكندر
الكثير من المنشئون الداخلية لأراكشيف ، أما غيرها من الشئون فكان يتظاهر
بتركها ولكنه كان يشرف عليها فعلا . مثال ذلك أنه يوجد مسودة خطاب بخط
الامبراطور مفروض أنها صادرة من أراكشيف الى موظف كان يريد التقاعد
. ويتضمن أنه (أى أراكشيف) رأى من الخير ألا يعرض ملامته على الامبراطور
وأنه يرفض اجابة هذا الطلب دون علم مولاه .

ومما هو مثير للجدال : الى أى حد كانت قسوة أراكشيف صادرة منه ، والى
أى حد كان هو شعاعا لا غير لاسكندر . ولكنى لا أرى مجالا للسك في أن
أراكشيف كان يغذى تأنيب الضمير الذي كان ينتاب اسكندر والذي جعله في
نهاية الأمر يسأم الحياة ولا يستقر طويلا في مكان واحد . وكان المتعصبون
البشعون من أمثال الارشمنديت فوتيوس يلامون هذه الحالة العقلية المظلمة
التي شارفت على الجنون . وقد طلق منذ سنة ١٨١٥ المرح والحب وكانت أخته
كاترين قد ماتت . وطفى على العالم الحقيقي شيئا فشيئا سستار من ظلمات
همومه حتى مات تحت وطأة الحزن والكمد .

لقد كانت شخصية اسكندر ، الى جانب سمة الجنون التي ينصف بها
آل رومانوف ، مزيجا من الحياء وحصافة أهل الريف . فأما حصافته فقد
خانتها في النهاية ، ولكنها كانت مثار الإعجاب أيام كان في عنفوان قوته .
فهو يكتب الى أمه من ايرمورت حيث كان يتصنع الصدقة لنابليون ليقول لها ،
« اننا سنشهد سقوطه في هدوء ، اذا كانت هذه ارادة العناية الالهية » ،
وليدل عليها بأسباب قوية لتوقعه سقوطه يقول لها في نفس الوقت أن
صداقته خير من عدوته . وكان خيلاؤه يتطلب إعجاب جميع الناس به . ويقول
جنتز في تقريره عن مؤتمر فيينا : « لقد حضر امبراطور روسيا الى فيينا أولا
ليكون موضع إعجاب الناس ، وهو أهم شيء في تفكيره » . ويستطيع المرء أن
يتصور الامبراطور في أيامه الأولى شابا ريفيا حسن المنظر ، تارة يرقص في
حفلات القرية ليغزو قلوب العذارى ، وطورا وهو يخدم جيرانه في بيع
الأبقار . وفي وسعنا أن نصف جانباً كبيراً من حياته الدينية بأنها « خيلاء »
نحو الله ، الذي لم يكن راضيا عن الطريقة التي اعتلى بها العرش ، وهو ما كان
اسكندر يخشاه . وكان في تصرفاته الاستبدادية يحس بأنه يرضى الله ،
ولا شك أنه كان يتصوره مشابها لآبيه .

هذا هو مؤسس الحلف المقدس والذي ظل عشر سنين ينظم شئون أوروبا
الدولية بما يتفق وإدراكه للمدين المسيحي . لقد كانت تجربة ممتعة ، ولكن
النتائج التي أسفرت عنها لم تكن كلها نتائج مرضية .

٤ - عهد مترنيخ

الفصل الرابع

عهد مترنيخ

بلغت قوة مترنيخ أوجها أيام مؤتمر فيرونا سنة ١٨٢٢ . وقد ساعدته في ذلك عدة ظروف مواتية . أولها وأهمها تأييد كامل من ناحية الامبراطور فرانسيس الذي كان أكثر رجعية من وزيره إذا كان في الناس من هو أشد رجعية من هذا الوزير ، وكان يعارض التعليم على أساس « أن الرعايا المطيعين مرغوب فيهم أكثر من المواطنين المتنورين » . وجاء تأييد آخر لسليطان مترنيخ من نجاحه في بسط سلطان النمسا والمبادئ المتساوية على ألمانيا . ذلك أن بعض الامراء الالمان كانوا يميلون الى منح رعاياهم دساتير كما وعدوهم كلهم تقريبا في سنة ١٨١٣ ، وكانت الجامعة تموج بالمبادئ التحررية التي لا تهدف الى الديموقراطية فحسب ، بل الى توحيد ألمانيا أيضا .

ويقول مترنيخ في تقريره للامبراطور فرانسيس : « أن بعض الرجال (ويلاحظ أنهم كلهم تقريبا من المشغولين بالتعليم) يهدفون الى ضم جميع الالمان في ألمانيا موحدة . . . وقد استغرق فعلا أعداد الشبان أعدادا منظما لهذه الغاية اللعينة أكثر من جيل واحد من أجيالهم (الطلبة) . وتوجد الآن طبقة كاملة من موظفي الدولة المقبلين والأساتذة والكتاب المبتدئين قد انضموا للثورة » . وصادفه حسن الحظ في معالجته لهذا الموقف . فقد حدث في شهر مارس سنة ١٨١٩ ، قبيل مؤتمر كارلسباد الذي دعى الى الانعقاد للنظر في هذه الأمور ، أن قتل أحد طلبة الدين يدعى كارل ساند كاتب بولونيا رجعيًا اسمه كوتسبيو ، كان موضع إعجاب الامبراطور اسكندر . وقد نظر الكثيرون ممن يعتبرهم مترنيخ أعداءه الى هذا العمل على أنه عمل خليق بالنساء ، وجعلوا من القاتل بطلا . ولم يكن عسيرا في هذه الظروف اقناع كل من اسكندر والامراء الالمان بأن النزعة التحررية نزعة خطيرة . وصدرت في كارلسباد قرارات تزيد من شدة القيود المفروضة على الصحافة وعلى الأساتذة ، وكان أثر اغتيال كوتسبيو في حصول مترنيخ على تأييد روسيا مماثلا لآثر تمرد فرقة سيمونوفسكي . كما كانت سياسة فرنسا خلال هذه الفترة تزداد رجعية على الدوام . وأخيرا فان كاسلري ، الذي تعلم أن يتعاون مع النمسا في مؤتمر فيينا ، واصل هذه السياسة في السنوات التالية ، الا عندما كانت المصالح البريطانية تجعل ذلك مستحيلا . وقد كتب مترنيخ عندما علم بوفاته في سنة ١٨٢٢ يقول : « انه كان الرجل الوحيد في بلاده الذي اكتسب خبرة في

الشتون الخارجية ، لقد تعلم أن يفهمنى ، • أعظم بهذا من اطراء ! وقد ظلت قوة مترنيخ فى ازدياد مستمر طوال السنوات الواقعة بين ١٨١٤ و ١٨٢٢ حتى بدا وكان ارادته لا راد لها فى أوروبا كلها • فلا عجب والحالفة هذه اذ أصبح يعجب بنفسه • وقد كتب عقب مؤتمر اكس لاشابل فى سنة ١٨١٨ الى زوجته يقول :

« يزداد اقتناعى يوما بعد يوم بأن المسائل المهمة لا يمكن أن تسوى على وجه مرض الا اذا توليتها بنفسى ••• لقد صرت نوعا من القوة المعنوية فى ألمانيا ، بل لعل كذلك فى أوروبا بأكملها - قوة ستترك فراغا عندما تختفى ، ومع ذلك فستختفى ، كما يختفى كل شيء يمت بصلة الى الطبيعة البشرية الرقيقة المسكينة ! وانى لا أمل أن يمد الله فى أجلي حتى أفعل بعض الخير، هذه هى أعز آمالى » •

وبعد عام من ذلك الوقت ، عندما وجد نفسه فى الغرفة ذاتها التى تم فيها التوقيع على الحلف الرباعى سنة ١٨١٣ اقحمت عليه تفكيره تأملات جيدة متعلقة بأهميته للعالم فقال :

« ان عقلى لا يفكر فى أى شيء ضيق أو محدود ، انى أذهب بتفكيرى فى كل وألم بميادين أوسع بما لا يقاس مما يستطيعون أو يودون ادراكه • وليس فى ناحية الى آفاق أبعد بكثير مما يشغل بال الغالبية العظمى من رجال الاعمال ، طاقتى أن أحاجز نفسى عن أن أقول لها - عشرين مرة كل يوم : (كم أنا على صواب ، وكم هم على خطأ ! وكم هو سهل أن يرى المرء هذا الصواب فهو واضح وبسيط وطبيعى) وسأظل أكرر ذلك حتى آخر أنفاسى ، وسيستمر العالم مع ذلك سائرا فى طريقه التمس » •

الا أنه لم يعد بعد سنة ١٨٢٢ القوى القادر على كل شيء •• فقد أخذ كاننج الذى خلف كاسلرى يعارض سياسة النمسا ، لا فى تفاصيلها فحسب بل فى خطوطها الرئيسية أيضا • وفى سنة ١٨٢٣ يكتب مترنيخ عن انجلترا وهو مكتئب حزين :

« مما يؤسف له أن تفقد ملكة البحار التى كانت سيده العالم يوما ما نفوذها النافع ! ترى ماذا جرى للامبراطورية البريطانية العظيمة النبيلة ؟ ماذا أصاب رجالها وخطبائها واحساسها بالحق والواجب وآراءها فى العدالة ؟ ليس هذا كله من عمل شخص واحد ، رجل واحد ضعيف عاجز ، ان كاننج ليس الا رمزا لأعراض ذلك المرض البشع الذى يجرى فى كل شريان فى أرض آبائه ، مرض دمر قواها وأخذ يهدد جسدها الضعيف بالانحلال » •

ولم كل هذا النواح ؟ أكبر أسبابه أن انجلترا رفضت أن تعاون اسبانيا فى إعادة فتح أمريكا الأسبانية ، وأن تعاون تركيا فى استعادة بلاد اليونان • وحدث بعد ذلك فيما يتعلق بالأمر الثانى ما هو أدهى وأمر •

ذلك أنه إذا كان موت كاسلري من عوامل سوء الطالع بالنسبة لمترينيخ ، فلمل موت اسكندر كان كارثة أكبر حلت بسياسته . لقد كان يفخر بما فعله من اقناع اسكندر بأنه فيما يتعلق باليونان يجب وضع مبدأ الشرعية فوق مصالح روسيا . فلما مات اسكندر سنة ١٨٢٥ عاد أخوه الى سياسة روسيا الطبيعية القاضية بمعادة الباب العالي . وفي سنة ١٨٢٧ اتحدت إنجلترا وفرنسا وروسيا ودمرت الاسطول التركي في معركة نافارين ، ولم يعد هناك بعدها ما يؤخر طويلا اعتراف الدول باستقلال اليونان .

وتم انهيار نظام الحكومة الدولية التي أنشئت في مؤتمر فيينا وزاد تعقيدا على تعقده على أثر ثورة سنة ١٨٣٠ . فقد تخلصت فرنسا من شارل العاشر وأحلت مكانه لوى فيليب الذي لم يكن له أى حق شرعى فى العرش . ورفضت بلجيكا البقاء متحدة مع هولندا وكان لا بد من الاعتراف بها مملكة منفصلة . وقامت حركات ثورية فى ايطاليا وألمانيا ، كما ثارت بولندا الروسسية على القيصر . إلا أن هذه الحركات لم تصب نجاحا باستثناء ما حدث فى فرنسا وبلجيكا . وحتى فى فرنسا ، سرعان ما ظهر أن الملك الجديد ليس خيرا من آل بوربون الشرعيين .

وأخيرا عاد مركز مترينيخ الشخصى فتحسن على أثر أحداث سنة ١٨٣٠ ، وإن كان نظامه لم يسيطر على أوروبا بعد ذلك أبدا . فقد قرر القيصر نيقولا ، الذى كان يحب شارل العاشر والذى أزعجته فتنة بولونيا ، أن الدول الرجعية يجب أن تقف صفا واحدا ، وتبين أن الدخول فى نزاع مع النمسا أمر لا يخلو من الخطورة . وأصبحت الحركات الثورية فى ألمانيا رغم ضعفها مصدر قوة للرجعية بعد أن تم اخمادها . وقام حزب اصلاحي فى النمسا ، ولكن مترينيخ ، الذى صار شديد الصمم ، استطاع أن يتجاهل برنامج هذا الحزب ، بل وظل فى الواقع لا يشعر بوجوده الى حد كبير .

ونكن الذى هزمه آخر الامر كان نمو مبدأ القومية . وقد كتب عن ذلك فى سنة ١٨١٩ يقول : « انى أمل ، بعون الله ، أن أقضى على الثورة الألمانية كما قضيت من قبل على قاهر العالم كله » . ولكن ثبت أن هذا الامر سراب على الرغم مما بذل من جهود صادقة لتحقيقه . فقد فعلت الرقابة كل ما فى وسعها لمنع أى تشجيع للشعور القومى حتى ولو كان بطريق غير مباشر . فمثلا كانت جملة « عصابة من الشبان الابطال تجمعوا حول علم بلادهم المجيد » يغيرها الرقيب الى « عدد كبير من الشبان تطوعوا مختارين لخدمة الصالح العام » (١) .

وحرم مترينيخ على الطلبة النمساويين تلقى العلم فى جامعات أجنبية ، وعارض

فى أن يتعلم الشبان التاريخ أو الفلسفة أو السياسة ، وكان يفضل أن ينشر الكتاب النمساويون كتبهم فى الخارج على أن ينسروها فى بلادهم . وألقى فى سنة ١٨٣٤ خطابا طويلا فى اجتماع للوزراء الألمان تحدث فيه عن مساوىء المبدأ التحررى وأشار الى « المحاولات المضللة التى تقوم بها بعض الجهات لأحلال النظرية الجديدة الخاصة بسيادة الشعوب محل مبدأ الملكية » ، وقال عن حزب الأحرار أنه « يفسد الشبان ، ويخدع أولئك الذين تخطوا عهد الشباب ، ويشيع الاضطراب والخلاف فى جميع العلاقات العامة والخاصة ، ويحث الناس عامدا وبطريقة منظمة على عدم الثقة بحاكمهم ، ويدعو الى تدمير وإبادة كل ما هو قائم » . وصفق الوزراء المجتمعون استحسانا ، ومع ذلك فإن « عدم الثقة بالحكام » ظل يزداد .

وقعت فى السنين الأخيرة من عهد مترنيخ قلاقل فى إيطاليا وبوهيميا وغاليسيا وهنغاريا ، وكان السبب فى كل منها هو يقظة الشعور القومى . وكان أخطر هذه الاضطرابات ما حدث فى هنغاريا . فقد كان لها دستور انحدر من العصور الوسطى يمنح طبقة الأشراف سلطة فى الشئون المحلية وان لم يمنحهم صوتا فى الحكومة المركزية . وكان هناك من الناحية النظرية مجلس تشريعى « دايت » يفترض فيه أن يدعى للانعقاد فى المناسبات الكبيرة ، ولكنه كان قد بلى وعفا عليه الدهر من الناحية العملية ، حين جاءت القومية الهنغارية وأعادته الى الحياة . وطالب المجلس فى سنة ١٨٢٥ بأحلال اللغة المجرية محل اللاتينية التى جرى العرف على أن تتم بها المناقشات فيه ، وبذلك حصل المجلس فى سنة ١٨٢٧ بعد نزاع طويل ، على وعد بأن يجتمع كل ثلاث سنوات . ومن ذلك الحين نزلت الحكومة عند سلسلة من مطالب المجرين دون أن تبدي سوى مقاومة ضئيلة بالقدر الذى يكفى لاذكاء الشعور القومى . وقبض على الزعيم الوطنى كوسوت ثم أفرج عنه فى سنة ١٨٣٩ عندما رفض الدايت أن يقدم مالا أو جنودا حتى يطلق سراحه . وأفضت المحاولات الضعيفة التى بذلت للقضاء على هذه الروح من سنة ١٨٤٤ الى ١٨٤٧ الى زيادة اشتعال الشعور القومى وأدت فى سنة ١٨٤٧ الى انتخاب دايت غاليتته متحمسة ضد الحكومة . كان هذا هو الموقف فى هنغاريا عندما اندلعت ثورة سنة ١٨٤٨ . ولم يكن لدى الأجزاء الأخرى غير الجرمانية من امبراطورية هابسبورج وسائل دستورية للأعراب عن تدمرها ، الا أنها استعملت ما كان لديها من وسائل أخرى . فقد عاد الشعور القومى الى الحياة فى بوهيميا وبين صقلية الجنوب ، كما أعد البولنديون فى غاليسيا عدتهم للثورة . لقد كان الموقف خطرا فى كل مكان ، ولكن طول عهد مترنيخ بالحكم ضرب عليه سنارا من الغفلة .

وهيأت ثورة فرنسا سنة ١٨٤٨ الفرصة للمتبرمين فى جميع أنحاء القارة الأوروبية فى أن ينطلقوا من عقالهم . وكانت الثورة قد بدأت فعلا فى إيطاليا

حتى قبل أن يضطر لوى فيليب الى الهرب من باريس ، ولكنها أنتشرت بعد ذلك الحدث في جميع أنحاء شبه الجزيرة باستثناء أملاك ملك سردينيا الذي كان هو نفسه متحررا جبانا نوعا ما . وهب الديموقراطيون في كل أنحاء ألمانيا ، وفي هنفاريا نادى كوسوت بالحرية ، وأثار الاشراف البولنديون في غاليسيا ثورة قومية لم تقلم أظفارها سوى ثورة قام بها الفلاحون بتشجيع الحكومة النمساوية أو على الأقل بتغاضيها عنها . وتبدد شمل أبطال مبدأ الشرعية فترة من الزمن في كل مكان الا في ممتلكات الفيصر .

وفي نفس الوقت كان الاحرار في النمسا الجرمانية يطالبون بدستور ، ولكنهم كانوا يطالبون بشدة أكثر بذهاب مترنيخ . وامتلات شوارع فيينا بالصخب والضجيج ، وما كان أشد دهشة مترنيخ اذ وجد أنه لا يعارضه الدهماء وحدهم أو أصحاب النظريات التحررية دون غيرهم ، بل يعارضه أيضا الكثيرون ممن كانوا حتى ذلك الوقت أرسستقراطيين محافظين ، وحزب قوى من رجال البلاط . فأجاب جميع مطالب النوار الا مطالبا واحدا هو أن يتقاعد . ولكن اذعانه لم يهدى من نورتهم . وأخيرا قررت الاسرة الامبراطورية التي أفزعها الدهماء أن مترنيخ يجب أن يذهب ، وكانت حتى ذلك الوقت منقسمة على نفسها . وهرب مترنيخ ببعض الصعوبة لاجئا الى انجلترا حيث أسلم الشعلة لذرتههلي .

وبعد فان مترنيخ لم يكن رجلا عظيما ، ولم تكن مواهبه تؤهله للمكانة التي احتلها على المسرح الأوروبي . لقد كان مهذبا في سلوكه ، ذا قدرة على الاقتناع ، لطيفا مع النساء ، كما أنه كان ماهرا في استغلال ما ينصف به الأشخاص الذين يتفاوض معهم من لازمات شاذة غريبة . وكانت مبادئه هي مبادئ امبراطوره ، كما أن الظروف هي التي منحت النمسا مركزا متفوقا بعد سقوط نابليون . ذلك أن فرنسا قد أوهنتها الهزيمة ، وانجلترا كانت مصرة على الاحتفاظ بالسلم بأى ثمن ، واستكندر على استعداد للنضحية بروسيا في سبيل الدين ، وملك بروسيا ضعيف مذبذب . والى جانب هذه العوامل كانت النمسا تهتم اهتماما خاصا بمبدأ الشرعية . والمبادئ المناهضة للقومية ، وهي المبادئ التي قامت عليها سياسة جميع الدول عندما كان الحرف من الثورة ومن نابليون ما زال مسيطرا على تفكيرها السياسي . إلا أن الدول على مر الزمن هجرت الواحدة بعد الأخرى عقيدة مترنيخ : هجرتها انجلترا في سنة ١٨٢٢ وروسيا في سنة ١٨٢٥ وفرنسا في سنة ١٨٣٠ ، بينما أخذت سيطرته على ألمانيا تضعف شيئا فشيئا . وكان هدفه الذي يوجه إليه تصرفاته هو الجمود ، وليس في ذلك شيء غير طبيعي بالنظر الى السنين الطويلة التي أشاعت فرنسا الثائرة خلالها الفلاقل في جميع أنحاء العالم . وكان الكثيرون في سنة ١٨١٥ يؤيدون مبدأ الجمود هذا ويتخذونه أساسا للحكم ، إلا أن السلام الطويل ولد طاقة جديدة ، وجعلت الطاقة الجديدة الجمود غير محتمل .

وعلى ضوء هذا المزاج الجديد رأى العالم مترنيخ على حقيقته : مختالا مغرورا
تافها ، غير قادر على عرض مبادئه بطريقة مشوقة ، يصم أذنيه عن كل الآراء
الجديدة منذ اللحظة التي سقط فيها نابليون . وكان القرن الثامن عشر مازال
يعيش في بطانته كأنه يعيش في متحف من المتاحف ، وكان يرفض أن يصدق
أن العالم قد سلك سبلا جديدة في الحياة والتفكير . وبدأ المعجبون به ، وكانوا
من قبل يشملون جميع قادة أوروبا ، يتناقصون شيئا فشيئا ، ولكنه ظل يلعب
الدور نفسه . وكان أسلوبه قد أصبح عتيقا منذ أمد بعيد قبل أن يطرده
استهجان النظارة من فوق المسرح . ولم يبق له بعد أن أصبح ثريارا أصم
سوى شيخوخته يناجى فيها نفسه معيدا ذكرياته القديمة . وأصبح أخيرا ،
في هذا الدور ، عديم الأذى .

القسم الثاني

الباب الأول

« زحف العقل »

« الوضع الاجتماعي »

- ١ - الفصل الخامس : الارستقراطية .
- ٢ - الفصل السادس : حياة الريف .
- ٣ - الفصل السابع : الحياة الصناعية .

الوضع الاجتماعي

القسم الثاني

زحف العقل

قال رجل الدين المجل الدكتور فليوت وهو يدخل مندفا صباح يوم جميل من أيام مايو في غرفة الإفطار بقلعة كروتشيه : « وقانا الله السوء يا سيدي ، لقد ضقت ذرعا بزحف العقل هذا . ها هو ذا ومنزلى كاد يحترق ، اذ عن لطاهيتي أن تدرس قوانين توازن السوائل الساكنة وضغطها من طريقة رخيصة تصدرها (جمعية الثقافة البخارية) ويكتبها صديق عالم يعتقد أن في وسعه أن ينجز أعمال الدنيا كلها كما ينجز عمله ، وأن لديه من الكفاية ما يؤهله لتناول كل فروع المعرفة البشرية » .

توماس لف بيكوك

الباب الاول

الوضع الاجتماعى

لانجلترا؛ فى الجزء الاول من القرن التاسع عشر أهمية خاصة فى التاريخ مصدرها نمو التصنيع الذى لم يكن له وقتئذ وجود قط فى أى مكان آخر . وقد نشأت عن التصنيع عادات فكرية معينة ونظم بذاتها فى الاقتصاد السياسى تبدت فيها سمات تفردت بها إنجلترا فى ذلك العهد ، وتشابكت هذه السمات مع العناصر الاساسية لوسائل الانتاج الجديدة فى نسيج معقد غاية فى التعقيد . وكان لابد لوجهة النظر الجديدة أن تشق طريقها فى صعوبة ضد طرق فى التفكير والعمل أقدم منها عهدا . وكانت المصانع الحديثة والمناجم لا توجد الا فى جزء صغير من إنجلترا ، ولا يكاد يكون لها أثر فى عقول الرجال المتعلمين ومن بينهم كل من بيدهم القوة السياسية تقريبا . ولذلك كان لا بد لفهم الافكار الجديدة فى ذلك العهد من أن تأخذ فى الاعتبار الوسط الاجتماعى الذى نشأت فيه ، وجهل الطبقات الحاكمة بالمشاكل الصناعية ، جهلا استمدته هذه الطبقات من تعليم تقليدى وانسغالها بالرياضة .

وكان الانجليز عند نهاية حروب نابليون منقسمين الى طبقات مختلفة وأنواع متباينة من المهن واضحة المعالم . وكانت الحياة الصناعية التى يحياها كل من الأجير وصاحب العمل تكاد تكون غير معروفة بالمرّة لدى بقية المجتمع . وكانت توجد فى الأريف الطبقات الثلاث ، أصحاب الأراضى والمزارعون والعمال اليدويون . وتكونت من صفار الملاك طبقة سادة الأرياف ، ومن كبارهم الطبقة الارستقراطية . وكانت القوة السياسية منذ ثورة ١٦٨٨ تكاد تكون كلها مركزة فى الطبقة الارستقراطية التى كانت تسيطر على مجلس العموم ، كما كانت تسيطر على مجلس اللوردات ، عن طريق الدوائر الانتخابية العفنة . وعملت الطبقة الارستقراطية منذ سنة ١٧٦٠ على الحط من مستوى الحياة بين الأجراء، بشكل ملموس مستغلة فى ذلك قوة البرلمان دون ماخجل . كما حالت أيضا ، عن جهل وبسبب الحرص على نيل قوى جديدة ولرغبتها فى رفع الايجارات ، دون تقدم الطبقة الوسطى . إلا أن كل ذلك تم بصورة شبه شعورية وبطريقة تكاد تماثل وعى النائب ، لأن المشرعين فى تلك الأيام لم يكونوا ينظرون الى واجباتهم نظرة جديدة . غير أنه ظهر فى الصورة ، فى بداية العصر الذى نعالجه ، توتر جديد ، واختفت بالتدريج روح القرن الثامن عشر لتحل محلها جدية الفكتوريين وفضيلتهم .

١ - الأرسنقراطفة

الفصل الخامس

الارستقراطية

كان الأحرار والمحافظون The Whigs & the Tories وهما الحزبان اللذان انقسمت اليهما الطبقة الارستقراطية ، أصلا يتكونان من أعداء آل ستيوارت وأصدقائهم على التوالي ، وكان من نتيجة ذلك أن الأحرار استولوا على السلطة بعد سقوط جيمس الثاني وطلبوا محتفظين بها احتفاظا يكاد يكون متصل الحلقات مدى قرن من الزمان . إلا أن المحافظين تسلبوا مرة أخرى الى الحكم فى حى جورج الثالث ، ودعموا مركزهم بمعارضتهم للشورى الفرنسية ، وأبقوا الأحرار فى المعارضة حتى سنة ١٨٣٠ . وكان الانقسام بين المحافظين والأحرار اجتماعيا كما كان سياسيا . فكانت هناك منازل محافظين يقابل فيها المرء محافظين ، ومنازل أحرار يقابل فيها أحرارا . وكان المحافظون يتزوجون عادة من بين المحافظين وكذلك يفعل الأحرار . ومع أن الفريقين كانا ارستقراطيين فانهما يختلفان الى حد كبير فى تفاليدهما وفى موقفهما من الطبقة المتوسطة الناهضة .

وكان المحافظون فى بداية القرن التاسع عشر بصفة عامة أقل ذكاء من الأحرار . ولم يكن مبدؤهم الأساسى ، وهو معارضة فرنسا وكل الأفكار الفرنسية ، يتطلب تفكيرا مستنيرا ولا يدفع الى تفكير مستنير ، وكانوا يحسبون بأن كل شىء كان على ما يرام قبل أن يسمم اليقويون عقول الناس ، وأن انشء الوحيد الضرورى بعد أن سجن نابليون فى سان هيلانة وأمن العالم من شره هو القضاء فورا على أى اتجاه ثورى يعاود الظهور من جديد فى إنجلترا أو فى الخارج . وكانوا مخلصين للكنيسة والملك ، وإن كان جورج الرابع يقض مضاجعهم بعض الشىء . وكانوا يؤمنون بأن الدرجات الاجتماعية من صنع الله ، وبأن احترام الصغير للكبير أمر بالغ الأهمية . وكانوا فى صف المصالح الزراعية ويودون أن تظل إنجلترا معتمدة على نفسها فى انتاج ما تحتاجه من غذاء . وكانوا يعارضون بطبيعة الحال إنتشار التعليم بين الجماهير وحرية الصحافة والخطب التى تثير الفتنة . أما فيما عدا ذلك فكانوا يشربون النبيذ البرتقالى ولاء لحليفتنا القديمة البرتغال ، ويتقبلون النقرس الذى يصيبهم نتيجة لذلك باعتباره تضحية يؤدونها نظير قيامهم بهذا السواجب الوطنى . وكان ساستهم ، منذ وفاة بت ، من ذوى المقدرة التى لا تعدو الدرجة الوسطى . وكان الرجل العظيم الوحيد بينهم هو دوق ولنجتون الذى كان

تجاحه فى الحرب أكبر من نجاحه فى الحكم كما تبين ذلك فيما بعد . وقد عبر
توم مور سنة ١٨٢٧ عن وجهة النظر العامة نحو ولنجتون بهذه السطور :

القائد العظيم الذى يبذل جهودا كبيرة ،

ليثبت ما لا يحتاج الى اثبات .

كم من أبطال علا نعيمهم ،

وحظهم من الذكاء متواضع !

واسنا ننكر أنه كان هناك واحد فى حزب المحافظين يتمتع بمقدرة سياسية
كبيرة هو كاننج . ولكنه لم يكن محبوبا بينهم ، وقد حدث ذات مرة عندما خرج
كاننج من الوزارة أن سمع أحد السادة المحافظين يقول شاكرا بالله أنهم « لن
يسمحوا بأن تكون لهم صلة بهؤلاء العباقرة الملعونين بعد الآن » .

وكان الاحرار أكثر امتناعا وأشد تعقيدا . ولما كانوا مدينين بمركزهم
لثورة ناجحة ضد ملك ، فانهم لم يمتنعوا فى وقت من الاوقات ذلك الولاء
المطلق الذى كان يتسم به المحافظون . كما أنهم كانوا يحسون نحو آل
هانوفر بشيء يماثل شعورهم نحو خدم ماجورين يمكن طردهم اذا لم يكن
عملهم مرضيا ، ويرجع ذلك الى أن الاحرار هم الذين جاءوا بهم ونصبوهم على
عرش انجلترا . ولما سألت الملكة فكتوريا اللورد جون رسل هل يعتقد حقيقة
أن مقاومة الملوك قد يكون لها ما يبررها فى بعض الظروف ، اجاب : « سيدتى ،
بما أنى أتحدث مع ملكة من أسرة هانوفر ، فان لى فيما أظن أن أقول نعم » .
وبينما كان أغلب الاحرار أيام الثورة الفرنسية قد حذوا حذو بريك فى التنديد
بالثورة ، كان فوكس الذى ظل الزعيم الرسمى للحزب فى صف الفرنسيين الى
أقصى حد كان ممكنا مع قيام حكم الارهاب . وفى الفترة من سنة ١٧٩٣ الى
١٨١٥ عندما كان أى ميل للافكار الفرنسية جريمة وكان أولئك الذين يشك
فى أن لديهم اتجاهات يعقوبية معرضين لتسجن مددا طويلة ، استمر بعض
البارزين جدا من الاحرار يجاهرون بآراء لو أنها صدرت من أشخاص أقل
منهم قدرا لساقتهم الى السجن ، مثل الايمان بالحرية والدعوة الى اصلاح
برلمانى شامل . لقد أيدوا الحرب ضد نابليون لانهم اعتبروه طاغية . ولكنهم
لم يتحمسوا أبدا للحرب حماسة المحافظين ، وعندما عاد نابليون من ألبا سنة
١٨١٥ ذهب عدد كبير منهم الى أنه يجب منحه فرصة أخرى . وحتى بعد
معركة واترلو أعلن لورد رسل فى مجلس العموم أسفه لأن هذه السياسة
لم تتبع .

وكان الاحرار يؤمنون بالملكية باعتبارها أداة نافعة لحماية النظام العام ،
الا أنهم لم يدعوا فى يوم من الأيام أنهم يكونوا احتراماما لأشخاص الملوك .
وفى ذلك يقول جريفيل فى سنة ١٨٢٩ : « لقد وجد ملوك طيبون وعفلاء ،

ولكنهم لم يكونوا كثيرين . ولو أننا نظرنا إليهم نظرة عامة لوجدناهم من مستوى ضعيف ، وأعتقد أن هذا (جورج الرابع) من أسوأهم .

ويقول جريفي عن بناء قصر بكنجهام في عهد وليام الرابع :

« لم يحدث أبدا أن كان هناك اسراف شرير مبتذل مثل هذا . لقد تكلف مليوناً من الجنيهات ، وليس هناك خطأ واحد لم يرتكب فيه . أعمدة في لون الحداش لا نهاية لها يشيع مرآها في النفس شمشوازا ، وتبعث على الغثيان ولكن ورق الجدران في جناح الملكة أبشع بكثير (هكذا) من أى شيء تراه وأكثر ابتذالا . . هل يستطيع الانسان بعد ذلك أن يدهش من أن يصير الناس متطرفين مع وجود مثل هذا النوع من السفه الملكي أمام أبصارهم ، دع عنك ماثيره في النفوس شخصيات هؤلاء الملوك أنفسهم (١) »

وكانت آلام الارستقراطيين موضع عطف لم تكن تحظى بمثلها آلام الملوك . فعندما اعتلى وليام الرابع العرش كان جريفي (الذي كان يسميه ببلي) يسخر منه لضعف بصره . ولكنه عندما وجد لورد هوللاند (وهو ابن أخى فوكس) في عسر مالي اعتبر الأمر خطيرا .

« لقد كنت بالأمس عند لورد هوللاند . . وكان هو وزوجته يبداون مريضين . وواضح أنهما في ضيق مالي شديد - هو في أرضه وهي : بصورة أشد في السكر والروم (٢) . وعندما أبديت رأبي في أن العملة الورقية يجب أن تتسرب ثانية بطريق النفاذ أو بأى طريق آخر (وكانت إنجلترا قد عادت الى قاعدة الذهب قبل ذلك بفترة قصيرة) ، قالت ليدي هوللاند انها ترجو الله أن يكون الوقت قد حان لذلك أو لاى شيء آخر ينقدهما . وقال هو أنه لن يوافق مطلقا على عودة العملة الورقية ، ولكنه يعتقد أن قاعدة الذهب يمكن تعديليها : بحيث يصبح الجنيه الذهبى مساويا لواحد أو اثنين أو ثلاثة وعشرين شلينا مثلا » . وكان بيت لورد هوللاند وزوجته ملتقى مجتمع الاحرار . ولم يكن ضروريا أن ينتمى الشخص الى الطبقة الارستقراطية ليسمح له بالاشتراك في حفلاتهما ، بل يكفي أن يكون على قدر من النضوج الذهني وأن تكون مبادئه من النوع الذي يرتضيانه ، وكان سيدنى سميث ومكولى ، فيما بعد ، من المترددين عليهما . ويصف جريفي (في ٦ فبراير سنة ١٨٣٢) أول لقاء له مع مكولى عند آل هوللاند فيقول :

« ٦ فبراير : تناولت العشاء أمس عند لورد هوللاند ، وقد وصلت متأخرا جدا ووجدت مكانا شاغرا بين سير جورج ربنسن ورجل عامي المنظر يلبس ملابس سوداء . وما أن وجدت لدى متسعا من الوقت للنظر الى جاري حتى بدأت

(١) أوراق جريفي ، المجلد الثاني ٣٠٧ ، ٣٠٨ .

(٢) كانت ليدي هوللاند ابنة احد الزارعين في جهايمكا ، وورثته .

أفكر (كما يفكر المرء عادة) فيمن عساه يكون ، ولما كان قد ظل فترة من الوقت صامتا لا يفتح فمه الا لياكل فقد انتهيت الى أنه أحد الادباء الحاملين أو الاطباء ، ولعله طبيب كوليرا ، وبعد فترة وجيزة تحول مجرى الحديث الى المفاضلة بين التعليم المبكر والمتأخر ، وقال لورد هوللاند أنه لاحظ دائما أن الرجال الذين علموا أنفسهم بأنفسهم مغرورون متغطرسون يميلون الى النعالي على عامة الجنس البشرى لجهلهم مقدر ما يعرفه غيرهم من الناس ، ذلك أن عدم التحاقهم بالمدارس العامة يجعلهم لا يدرون شيئا عن سير التعليم العام ، وقال جارى أنه يعتقد أن أبرز مثل للرجل الذى علم نفسه بنفسه هو «الفيرى» الذى بلغ الثلاثين من عمره ولم يكن قد تعلم شيئا سوى قيادة العربات ، وكان يجهل لغته نفسها جهلا اضطره الى أن يتعلمها مثل الطفل مبتدئا بالكتابة الأولية . وضرب لورد هوللاند « يوليوس قيصر سكاليجار » مثلا من أمثلة التعليم المتأخر وقال انه تزوج وبدأ يتعلم اللغة اليونانية فى نفس اليوم ، وعندئذ قال جارى : « لأظن أن تعلمه اليونانية كان عملا بدون تفكير سابق مثل زواجه ، وأعظمتنى هذه الملاحظة والطريقة التى قيلت بها فكرة عن جارى فخيلى الى أنه شخص بليد الذهن ، إذ أنه قالها بطريقة تكاد تكون سخيفة تشير فى السامع روح السخرية . واعتراى شئ من الدهشة عندما سمعته يمسك بطرف الحديث (مستطرادا من جرح سكاليجار) ثم يتحدث عن «لويولا» وكيف جرح فى «بامبلونا» . وقد أدهشنى أن يكون لديه علم بأى شئ عن جرح «لويولا» . وبعد أن انتهيت الى ذلك بدأت فى معاودة الاكل ، وعندئذ وجهه أوكلاند ، زكان جالسا أمامى ، حديثه الى جارى قائلا : هل لك فى كأس من النبيذ يا مستر مكولى ؟ لقد خيل الى أننى على وشك السقوط من مقعدى . فقد كان جارى هو مكولى الرجل الذى كنت أتحرق شوقا الى رؤيته وسماعه من مدة طويلة والذى أثار عبقريته ولباقته ومعلوماته المدهشة ونواحي نبوغه المختلفة عجبى وأعجابى مما منذ أمد بعيد ، وهأنذا أجلس بجواره وأسمعه يتحدث وأراه شخصا بليدا . وأحسست كأنه قرأ أفكارى ، فتندى وجهى عرقا ، ومع ذلك كان من المستحيل الا أجد فى الموضوع كله شيئا من المتعة . ولم أتبين الى أى حد كان منظر مكولى مبتذلا وقبيحا الا عندما وقف ، فلم يكن يبدو على وجهه أى أثر للذكاء ، ولم يحدث أبدا أن كتلة من الطين العادى الى هذا الحد قد احتوت عقلا قويا وخيالا حيا . لقد كان مكولى فى ذلك اليوم مصابا ببرد والتهاب فى حلقة ، وكان ذلك الالتهاب سببا مستمرا فى انقباض عضلات زوره مما جعله يبدو على وشك أن تعمره نوبة . وقد بدا الى أن سلوكه ليس بما يسر ولكنه لم يكن متصنعا أو مرتبكا ، ومع ذلك فهو لا يتسم بالبساطة ، كما أنه ليس مهذبا تماما وأن لم يكن فظا ، فلم يجنح الى الاستئثار بالحديث أو التعصب للرأى أو للحقائق التى يذكرها أو الى الادعاء بالفوق ، ولكن سرعان ما ظهرت سعة معلوماته وتنوعها ، فقد كان يبدو أنه يحيط احاطة تامة بكل موضوع أثير ، وكان الاقتباس وضرب الأمثلة والقصص لكل موضوع

فى متناوله • وكان الموضوع الرئيسى فى تلك الليلة على ما أذكر هو حقوق الابن الاكبر فى هذه البلاد وفى غيرها وخاصة فى روما القديمة ، ولكن مستر مكولى لم يكن متأكدا من أحكام القانون الرومانى فى الموضوع الا فيما يتعلق بتقسيم أملاك المتوفى بين أبنائه اذا لم يترك وصية • وبعد العشاء دخل تاليران ومدام دى دينو • وقدم مكولى الى تاليران الذى قال له أنه ينوى زيارة مجلس العموم يوم الثلاثاء وأنه يأمل أن يسمعه يتحدث ، وقال : انه سمع كل الخطباء العظام وأن ما يتمناه فى الوقت الحاضر هو أن يسمع السيد مكولى •

وكان ملبورن كثير التردد على منزل آل هوللاند ، وكان حديثه ، كما يقول جريفييل ، حديث الرجل المثقف الى حد لا يصدق العقل • وها هو ذا مثل مما ذكره جريفييل فى هذا الموضوع ، فى ٧ سبتمبر سنة ١٨٣٤ «تحدث آلن عن المصلحين الأوائل وعن العرائضيين وعن اضطهاد المسيحيين الأوائل بعضهم بعضا ، وألقى ملبورن من الذاكرة نص خطاب «فيجيلانتينوس» الى «جيروم» ، ثم سأل عن القانون الحادى عشر من قوانين هنرى الرابع الذى أصدره مجلس العموم ضد الكنيسة ، وأشار الى حوار بين كبير أساقفة كانتربرى وأسقف «الى» الوارد فى مستهل مسرحية هنرى الخامس لشكسبير ، فأرسل لورد هوللاند فى طلب الكتاب وبدأ يقرأ ، وكان ملبورن يحفظه كله عن ظهر قلب ويلقن القارئ طول الوقت •

وكان جريفي ، وهو ذو ميول راديكالية ، ينقلب أحيانا على آل هوللاند ، كتب جريفي يقول : «ان حقارة آل هوللاند وقذارتهم التعسة تثير فى نفسى أشد أنواع الاشمئزاز (٢٤ يولية سنة ١٨٢٠) • ولكن الذى إنطبع فى ذهنه فى أحيان أخرى كان يختلف عن هذا كل الاختلاف • «لم أدرك فى وقت من الاوقات ظرف لورد هوللاند لمثل ما أدركته هذه المرة • ولا أعتقد أن هناك انجليزيا على قيد الحياة واسع الاطلاع مثله ، فى السير والتاريخ والقصص الطريفة » ، (٢٣ نوفمبر سنة ١٨٣٣) • وبين هذين الرايين رأى ثالث : «تناولت العشاء مع مدعشقر (اسم التديل للىدى هوللاند) فى منزل آل هوللاند ، وكان الجمع صغيرا ، ولأول مرة سرنى أن المكان لم يكن مزدحما • وبينما يستطيع منزل آل هوللاند أحيانا أن يكون مبعث سرور لا يقل فى ذلك عن جو أى منزل آخر أعرفه ، فهو فى أحيان أخرى لا يقل عن غيره امتلاء بالثرثرة ولغو الكلام ، وقد كان كذلك فى هذه المرة » (٢٣ أبريل سنة ١٨٣٦) • وكان منزل آل هوللاند مشهورا بأزحام حفلات عشاءه • وقد قصت على جدتى أنها كانت ذات مرة فى هذا البيت ، فدخل عليهم ضيف غير متوقع وصاحت لىدى هوللاند فى مدعوها : « افسحوا مكانا يا أعزائى » ، فأجاب لورد هوللاند : « ليس من وسيلة الا أن أصنع مكانا ، لانه لا يوجد مكان » •

وكانت لىدى هوللاند أحيانا تبدى أقصى أنواع الصلف الذى تتصف به

سيدة عظيمة . وشاهد ذلك ما يذكره جريفي (٦ يولية سنة ١٨٣٣) في القصة التالية :

« قابلت ليدي هوللاند مرة أخرى يوم الخميس عند لورد سفتون . وقد بدأت بالتذمر من أن الفناء زلق وخطر على جياها ، وأجاب سفتون على ذلك بأن الفناء سيرصف بالحصى عندما تشرفه بالعشاء في منزله . وبعد ذلك بدأت تنسم الهواء حولها ثم ألقت نظرها على عدة أوكان للزهور مليئة بورود جميلة وبجميع أنواع الزهور الأخرى ، وقالت : « لورد سفتون انى مضطرة لأن أرجوك اخراج هذه الزهور من الغرفة ، ان رائحتها أقوى من أن أحملها » وجمل سفتون فعلا مع خادمه المنضدة بكل ما عليها خارج الغرفة ، ولم تلبث ليدي سفتون الصغيرة المسكينة العزيزة ، التى تحمل دائما طاقة صغيرة من الزهور على صدرها عندما تضع ملابس السهرة ، ان رفعتها من صدرها بتواضع شديد قائلة : « ليدي هوللاند لعل هذه الباقة أكثر مما تحتملينه » ، ولكن الأخرى تفضلت فسمحت لها بالاحتفاظ بها وان كانت قد فعلت ذلك بطريقة غير سمحة . وعندما أصيبت الشموع عند نهاية العشاء ، طلبت ليدي هوللاند أن تطفىء ثلاثا منها لأنها أكثر مما تحتمل ولانها قريبة منها جدا . فهل ثمة ما هو أقل كياسة من هذا ؟ » .

وعندما ماتت ليدي هوللاند انتهز جريفيال الفرصة ليكتب موجزا عن أهمية بيت هوللاند (٢٤ نوفمبر سنة ١٨٤٥) .

« على الرغم من أنها كانت امرأة لم يحبها أحد ، ومن ثم فان موتها لن يثير حزنا ، فان العدد الغفير من الناس سيأسف لوفاتها ، بعضهم حزنا عليها ، والبعض أنانية منهم ، وسيحزن كل أولئك الذين تعودوا الحياة في منزل آل هوللاند واستمروا يترددون عليه لان الستار قد أسدل على هذه المسرحية الطويلة ، ولانظاء نور اجتماعى أضاء انجلترا وزينها ، بل وأوروبا كلها ، طوال نصف قرن . ان العالم لم ير أبدا ، ولن يرى مرة أخرى ، ما يشسبه بيت هوللاند ، وعلى الرغم من أنه لم يكن كما كان اiban حياة لورد هوللاند ، هوللاند قد استطاعت أن تجمع حولها الى آخر حياتها مجتمعا كبيرا يكاد يضم كل نابه ظريف جدير بالاعتبار » .

على أننا لاينبغى أن نفترض أن كل الأحرار كانوا مثقفين مثل المجتمع الذى كانت تضمه حفلات عشاء آل هوللاند . الا أن زعماء الحزب كانوا بصفة عامة على قدر كبير من الثقافة يأخذونها فى يسر ويضيفون اليها ذلك التحرر الحلقى الذى كان من سمات القرن الثامن عشر . فليدي هوللاند مثلا تركت زوجها سابقا وعاشت مدة مع لورد هوللاند قبل أن تطلق من زوجها الاول ، وكانت زوجة ملبورن متممة بيرون كما يعرف العالم كله كانت تطارده بشكل سبب له ضيقا . وأحبت ليدي أكسفورد بيرون ، وبادلها هو حبا بحب . وكان سير

فرانسييس بوردتُ عشيقا آخر من عشاق ليدى اكسفورد ، وعرف أطفالها باسم «خليط اكسفورد» .

وكان مجنم الاحرار متساهلا مع ألوان الشذوذ الراديكالى طالما كانت مصحوبة بحضور البديهة أو العلم أو عراقة الاصل المصحوبة بالثروة . وكان بيرون فى أول الأمر ممن ينطبق عليهم هذا كله فى يسر . وعندما ألقى خطابه الأول والوحيد فى مجلس اللوردات دفاعا عن المتظاهرين فى لوديت ، الذين وقعت عليهم عقوبات وحشية ، لم يترك خطابه أثرا سيئا فى نفس أى شخص ، ويرجع بعض السبب فى هذا بطبيعة الحال الى أنه كان معروفا أن خطابه لن يكون له أثر . ولكنه عدا طوره فى النهاية ، لافى السياسة ، بل فى أخلاقه الشخصية . ولم تكن آثامه هى السبب فى الحكم عليه بقدر ما كانت مباحاته بهذه الآثام . وأخيرا هجره الجميع حتى ليدى ملتورن العجوز والدة السياسى المعروف ، وقد كانت موضع سر بيرون ، وهى سيدة تمتعت بان شبابها بحرية القرن الثامن عشر الى أقصى حد يسمح به حسن الأدب .

وكان التشكك فى شئون الدين أمرا مألوفيا بين الأحرار . الا أن مؤيديهم من الطبقة الوسطى كانوا فى الغالب من المتدينين المنشقين على الكنيسة الانجليزية ، ومن ثم كان الأحرار يحرصون على ألا يجاهروا بالأراء الخارجة على الدين الا فى أحاديثهم الخاصة ، وكان التعرض لها بصورة تدرکها الطبقات الأدنى منهم أمرا مبنذلا . ولهذا السبب نبذوا شللى ولم يفلوه فى صفوفهم وأن كانت مواهبه تؤهله للاندماج فيهم لولا صراحته فى التعرض للدين . ذلك أن محاولة طالب أن يقنع أستاذه بالالحد ، وان لم تكن فى ذاتها محاولة شريرة ، كانت بلاشك طريقة نابية ، يضاف الى هذا أنه هجر زوجته وأدهى من ذلك وأمر ، أنه هرب مع ابنة جودوين العجوز ذلك اليعقوبى الخليل الذى لم ينج من العقوبة التى يستحقها عن جرائمه الا بنشر كتابه بثمان يجعل شراة متعدرا . ولم يقنصر الأمر على أن الفناة التى هرب معها هى ابنة ذلك الثائر الأشيب ، بل ان أمها كانت تدافع عن حقوق النساء وكانت تحيا علنا حياة فإسدة فى باريس ، ولم تكن حياتها على هذا النحو للمتعة فحسب ، بل كانت تطبقا لنظرية تدين بها . وكان هذا أكثر من أن يكون فكاهة . وكان الأحرار يتذكرون أنه حتى الاحرار من الارستقراط أنفسهم قطع روبرسبير رقابهم . وكانوا أيضا يعرفون الحدود التى يجب الوقوف عندها ، وقد وقفوا عندها فى صلابة ضد شللى . وظلت هذه الفكرة عنه سائدة بينهم حتى أيام صباى ، بل انى سمعت أنها لم تزل موجودة فى بعض الاوساط حتى الان . وعندما بدأت أهتم بدراسة شللى وأنا فى السادسة عشرة من عمرى ، قيل لى أنه يمكن الصفع عن بيرون لانه ، وان أم ، كانت ظروف شبابها التعسة هى التى أدت به الى الاثم ، أما سيرة شللى الخلقية فلا يمكن الدفاع عنها لأنه كان يتصرف وفقا لمبدأ ، ومن ثم فهو لا يستحق أن يقرأ .

٢ - حياة الريف

الفصل السادس

حياة الريف

كانت حياة أعيان الريف طوال حروب نابليون وفي فترة من الزمن بعدها حياة هادئة يسودها الرخاء . فلم تكن الحروب وقتئذ مزعجة كما صارت بعدئذ ، وقل من الأعيان من كان يشغل باله بالمسائل العامة . كانت قيمة الأراضى فى ارتفاع ، وارتفع كذلك ايجارها : كان الطلب على المنتجات الزراعية يزداد بازدياد عدد السكان ، وكانت بريطانيا العظمى مازالت تنتج كل حاجتها تقريبا من المواد الغذائية . ولسنا نجد فى قصص جين أوسنن التى تدور حوادثها حول حياة صغار ملاك الأراضى ، سوى اشارة واحدة الى الحرب على ما أذكر : ذلك أن البطل فى قصة Persuasion (الإقناع) ضابطا بحريا ينتظر بعض المال مكافأة له ويأمل أن يسهل له هذا المال أمر زواجه . أما أعماله المجيدة فى الحرب فلا تسمع عنها كلمة واحدة له . ويبدو أن هذه الأعمال ما كانت لزيادة من جاذبيته مطلقا فى نظر بطلة القصة . ولا ذكر للصحف فى هذه القصص الا نادرا ، ولم يرد لها ذكر متصل بالسياسة الا مرة واحدة على ما أذكر . وتذكرها المؤلفة عادة لتلقى ضوءا على أشخاص قصصها . فمستر دارس يلتفت لصحيفة ليخفى بهارتباكه عنده ! ذهب ليطلب يد اليزابيث بنيت . ومستر بالمر عندما تقنعه زوجته على كره منه بالقيام بزيارة ، يلنقط جسرودة بعد التحية مباشرة وتقول له مسر بالمر : « هل من جديد فى الصحف ؟ » فبرد مستر بالمر : « لاشئ على الاطلاق » ويواصل القراءة . ولعل الجريدة كانت تتضمن تقريرا عن الفتنه فى تور أو القضاء على جمهورية البندقية . فان كانت كذلك فان مستر بالمر لم ير أن مثل هذه الحوادث مما يستحق الذكر .

ومرت فترات كان الدين فيها يقلق بال الناس . من ذلك أن العقيدة النظامية «Methodism» كانت فى الوقت الذى تكتب فيه جين استن تحدث تغييرا عميقا فى الطبقتين المتوسطة والدنيا . ولكن الدين لم يظهر فى قصصها الا فى صورة واحدة : عندما كان الامر يحتاج أبرشية تمنح لابن الاصفى . وكان كل أشخاص قصصها الأغنياء يملكون حق التصرف فى مناصب دينية محلية تدر ايرادا ، وكانوا فى بعض الأحيان يمنحونها للسخفاء من الناس ، وأحيانا أخرى يمنحونها لبطل القصة ، الا أن المؤلفة لم تكن تهتم فى الحاليتين بغير الناحية الاقتصادية .

وكان كبار المزارعين يعيشون على طريقتهم كما يعيش ملاك الأراضي ، وان كانوا يتدمرون من فداحة العصور وضريبة الفقراء . وكانوا يقلدون سلوك «السادة المهذبين» تقليدا أعمى ، فكانوا يصطادون ويشربون ويقامرون . وقد أخذت الصورة التقليدية لجون بول من هذه الفترة ، ومما يدعو الى العجب أن تظل هذه الصورة مقبولة حتى الآن رمزا لشعب أغلبيته الساحقة من سكان المدن .

وجاءت لحظة رهيبية في سنة ١٨١٥ خشي فيها أعيان الريف والمزارعون أن تنتهي فجأة طريقتهم الرغدة في الحياة . فقد انتهت الحرب وأصبح من الممكن استيراد الحبوب من الخارج . ونقص محصول البلاد ، وعرض الاجانب القمح بأسعار لا تستطيع المحصولات البريطانية منافستها . وحدث ضيق شديد في المناطق الصناعية لأن البلاد الأجنبية بدأت تفرض ضرائب جمركية على المصنوعات البريطانية . الا أن البرلمان استمع الى مطالب ملاك الأراضي والفلاحين وفرض ضريبة مرتفعة على القمح الاجنبي ، وكانت النتيجة أن الطبقات الأكثر ثراء في البلاد ظلت ثرية ، وعانت بقية الامة من جراء ذلك ما سوف نراه فيما بعد .

وكانت حياة الأجير الزراعي في أوائل القرن التاسع عشر في انجلترا تناقض أشد التناقض السعة التي كان يعيش فيها الأعيان حتى ليصعب علينا أن نفهم كيف ظلت الطبقات العليا تعيش راضية دون أن تحرك ساكنا . لقد كان الفلاحون في أوروبا ، باستثناء فرنسا وبعض أجزاء ألمانيا ، تعساء أشد التعاسة ، الا أن تعاستهم كانت قديمة العهد كما كانت في طريقتها الى التحسن بصفة عامة . ولكن حالة فقراء الريف في انجلترا ابتداء من سنة ١٧٦٠ وما بعدها كانت في انحطاط مستمر ، وان كان هذا التغيير يتم في هدوء لا يكاد يلاحظه أحد . وزاد عدد أفراد الطبقة التي لا تملك أرضا ، وهي طبقة لا يكاد يوجد لها مثل في القارة الأوروبية ، زيادة كبيرة وكانت تقدم الأيدي العاملة اللازمة للنمو السريع في الصناعة البريطانية ، ولم يدرك معظم المؤرخين حق الإدراك الى أي حد بلغ البؤس الذي نجم عن تغير حالة الأجير الريفى حتى نشر كتاب «عامل القرية» بقلم ج. ل. هاموند وباربارا هاموندى سنة ١٩١١ وهو اتهام ضخم بشع لجشع الطبقات العليا .

وكانت وسائل انتهاب الطبقات الثرية للطبقات الفقيرة متعددة ومختلفة ، أهمها وسيلتان هما «التسوير» و «قانون الفقراء» .

ولتاريخ التسوير ، فضلا عن أهميته في ذاته ، أهمية أخرى لأنه يوضح تأثير السياسة في التقدم الاقتصادى . وتفصيل ذلك أن فقراء الريف كانوا يعيشون في رغد الى حد ما أبان النصف الاول من القرن الثامن عشر . وكانت نصف الأراضي المزروعة في انجلترا على الارجح تستغل في ذلك الوقت على نظام «الشرائح» القديم ، ومقسمة الى أنصبة مختلفة المساحات ، منها الكبيرة

جدا ومنها الصغيرة جدا . وكان معظم العمال الزراعيون يستأجرون «شرايح» من الأرض وأكواخا يتضمن ايجارها حقوق رعى وجمع حطب الوقود من «الأراضي المشتركة» . وكانت حقوق استعمال الأراضي المشتركة في حالات كثيرة قائمة أو مسلما بها بصرف النظر عن امتلاكه للكوخ أو عدم امتلاكه اياه . وهكذا كان العامل يحصل على وقوده مجانا ، وكان يستطيع أن يربي دواجن وبقرة أو خنزيرا على الأراضي المشتركة ، ويستطيع اذا كان مقتصدا أن يدخر أجرته ويضم الى شريحته شريحة بعد شريحة حتى يصبح مزارعا متيسر الحال .

الا أن الأراضي أخذت طوال القرن الثامن عشر والنصف الأول من القرن التاسع عشر تسور بسرعة متزايدة ويعاد توزيعها بناء على قوانين يصدرها البرلمان . وقد بدى أولا بالحقول ثم تلتها الأراضي البور . فيتقدم عدد قليل من ملاك الأراضي ، أو يتقدم مالك واحد في بعض الأحيان ، في الجهة ملتصين اصدار قانون ، فيعرض مشروع بقانون وتمين لجنة ، وعندما يصدق على المشروع يعاد توزيع الأراضي «المسورة» كما يتراءى لأعضاء اللجنة المعنية ويذهب نصيب الأسد منها الى أكبر مالك أرض ، وهو عادة أحد الاعيان أو عضو برلمان . وقد كان هناك نظام من التعاون غير المشروع يستطيع بواسطته الرجل العظيم أن يترك مصالحه في أيدي أصدقائه وهو مطمئن . وبذلك يحصل كبار المزارعين في الجهة على نصيب لا بأس به من الأرض المسورة ، أما صغار المزارعين وأصحاب الاكواخ فلا يحصلون على شيء في العادة ، واذا منحوا نصيبا لا يستطيعون أن يضعوا يدهم عليه بسبب النفقات التي يتطلبها وضع السياج ، فيهاجر المزارع الصغير اما الى أمريكا أو الى مدينة صناعية او يصبح عاملا أجيرا «مياومة» ، وكثيرا ما كان سكان الاكواخ يصلون الى حالة من الضنك الشديد أو الموت جوعا . وكان سادة الأراضي ينظرون الى هدم الحالة بعين الرضاء التام ، فقد كانوا يأسفون على الاثر السيء الذي تركه الاستقلال الجزئي الذي يتمتع به العامل ، والذي تمتع به أجداده من مات السنين . وكانوا يعتقدون أنه يؤدي به الى الكسل ، وأن العامل لا يمكن الاعتماد عليه في بذل كل ما لديه من طاقة لصالح مخدمه الا اذا كان يعتمد على هذا المخدم اعتمادا كبيرا . ولم يقتصر الأمر على أن التسوير قد حرم العمال من الأرض ومن حقوق أخرى لها قيمتها ، بل أنه حرّمهم أيضا من القدرة على المساومة في علاقتهم مع المزارعين وملاك الأراضي . ومن ثم كانت خسارتهم مزدوجة ، فقد فقدوا أولا مصادر رزق كانت تأتيهم فوق أجورهم ، وثانيا ففقدوا جزءا من هذه الأجور بانخفاضها . وقد زاد المجموع الكلي للانتعاج الزراعي ، ولكن العامل لم يصبح مضطرا الى قبول نصيب أقل مما كان يحصل عليه من قبل فحسب ، بل كان مضطرا أيضا الى قبول تخفيض كبير في أجره . وكان انحطاط حال الفلاحين الذي نجم عن ذلك ثمنا باهظا لتقدم الزراعة على أساس علمي .

وكانت الوسيلة الثانية المحط من حالة العمال ، اجراء اتخاذ لصالحهم في

الظاهر وهو قانون الفقراء . ويرجع هذا القانون الى عهد الملكة اليزابيث ، ويقال . أن الدوافع اليه كانت انسانية (وان كان ذلك يبدو بعيد التصديق) ويفضى قانون الفقراء بأن كل أبرشية ملزمة بالألا تترك أحد فقرائها يموت جوعا . فإذا أصبح أى رجل أو امرأة أو طفل فى حالة املاق ، فإن واجب الأبرشية التى ولد فيها أن تمده بما يكفل له الحد الأدنى من العيش . وكان من الممكن اذا حصل الانسان على عمل فى أبرشية بعيدة عن مسقط رأسه أن تنولى الأبرشية الجديدة هذا الالتزام اذا احتاج الأمر اليه ، ولكن هذا لم يحدث الا نادرا ، فكان يقال أن للشخص «مقر» فى الأبرشية المسئولة عنه . وكانت أبرشيته تعترض على أن يفادرها مادامت قد تصبح مسئولة عن نفقات اعادته من الطرف الآخر من المملكة ، وحتى اذا سمحت له أبرشيته بمغادرتها فمن المشكوك فيه أن نسمح له أبرشية أخرى بالدخول فيها الا اذا كان يحمل شهادة من أبرشيته . نتحمل فيها مسؤولية اعادته اليها ، ولكن موظفى الأبرشية لم يكونوا ملزمين باعطاء هذه الشهادات التى كان الحصول عليها فى الواقع من أصعب الأمور . وكانت هناك من الناحية النظرية عدة طرق لاكتساب «مقر» جديد ، ولكن الوسائل كانت تبتكر لمنع الفقراء من الافادة منها . ومن ثم كان من العسير جدا على الرجل الفقير أن يفادر مسقط رأسه مهما كان موطنه فى غير حاجة الى مجهوده .

وقد خطت البلاد خطوة مهمة فى تطور قانون الفقراء بانشاء مايعرف باسم نظام (سبينهاملاند) عام ١٧٩٥ . وكان الجو فى ذلك الوقت مشبعا بالخوف من الثورة لان حكم الارهاب فى فرنسا كان قد انتهى وشيكا . وقد عجز المحصول وقتئذ وعمت الفاقة انجلترا كلها وأدى ذلك الى مظاهرات واسمة النطاق كان الشأن الاكبر فيها للنساء . وانزعجت الطبقات الحاكمة وانتهت الى أنه لايمكنها المحافظة على سلامتها عن طريق القمع وحده . وحاولت أن تجعل الفقراء يكتفون بالخبز الأسمر والبطاطس والحساء ، ولكن الفقراء رفضوا أن يقلعوا عن أكل الخبز المصنوع من القمح مما أدهش الكثيرين من حسنى النية . الا أن التجربة أثبتت فيما بعد أن الفقراء كانوا فى ذلك على حق من الناحية الاقتصادية . فقد افنح الارلنديون بأكل البطاطس ، وكانت النتيجة أن مات منهم جماهير غفيرة فى المجاعة التى حدثت من سنة ١٨٤٥ - ١٩٤٧ . ودعا بعض الأشخاص - ممن كانوا أكثر استنارة من معاصريهم - الى وضع حد أدنى للاجور ، وعرض واينبريد مشروع قانون لهذا الغرض على البرلمان ، ولكنه هزم بمعارضة بت . وكانت الخطة التى لاقت قبولا فى معظم أرجاء انجلترا ، وليس فى البلاد كلها ، نظاما لتكملة الاجور من « ضريبة الفقراء » اذا كان الأجر يبدو غير كاف لأن يضمن للشخص وأسرته حد الكفاف . فاجتمع عدد من كبار الموظفين بيوركشير فى سبينهاملاند (حيث أدخل هذا النظام لأول مرة) وقدروا أن الرجل يحتاج لثلاثة أرغفة « من حجم الجالون » فى الاسبوع بينما تحتاج المرأة أو الطفل الى رغيف ونصف . فاذا لم

يكن أجره كافيا لشراء هذه الكمية من الخبز يكمل من « ضريبة الفقراء » الى أن يبلغ القدر الكافى الذى يزداد وينقص بطبيعة الحال تبعا لاسعار الخبز .
وكانت الصيغة التى استعملت فى هذا الصدد فى القرار هى :

« عندما يتكلف الرغيف من الخبز من حجم الجالون الذى يزن ثمانية أرتال واحدى عشرة أوقية شلنا واحدا يكون نصيب كل فقير عامل ٣ شلنات أسبوعيا لتقوم بأوده سواء بما ينتجه بعمله أو عمل أسرته أو بعلاوة من ضريبة الفقراء ، كما يأخذ شلنا وستة بنسات لزوجه ولكل فرد آخر من أفراد عائلته .
وعندما يتكلف الرغيف من هذا النوع شلنا وأربعة بنسات يأخذ كل فقير عامل ٤ شلنات أسبوعيا لنفسه وشلنا وعشرة بنسات لكل فرد من أفراد أسرته . وهكذا يتناسب الايراد تبعا لزيادة ثمن الخبز أو انخفاضه (أى) ثلاثة بنسات للرجل وبنس لكل فرد آخر من العائلة نظير كل بنس يرتفعه الخبز زيادة عن شلن (١) » .

وقد ظل هذا النظام معمولا به دون أية تعديلات مهمة حتى وافق البرلمان بعد اصلاحه على قانون الفقراء الجديد سنة ١٨٣٤ . أما هل القانون الجديد أفضل من القديم فمسألة يمكن أن تكون حتى هذه الايام مثارا للجدل ، ولكن ليس هناك من يجادل فى سوء النظام القديم .

وكانت النتيجة الطبيعية لنظام سبينهاملاند أن خفض أصحاب العمل الاجور حتى تتحمل ضريبة الفقراء جزءا من نفقات العامل الذى يستخدمونه .
ومن ثم كان الاجراء فى عدد كبير من الأبرشيات يعيشون على الاعانات .
وحدث وقتئذ تطور فى نظام كان موجودا فى عام ١٧٩٥ تدفع بمقتضاه السلطات الأبرشية أجر العامل كاملا وتؤجره لأى شخص لديه عمل يراد أداءه ، وكان العمال فى هذا النظام يسمون « الدائرين » لانهم كانوا يدورون فى أنحاء الأبرشية .

ولم يكن مستوى الحياة على أساس نظام سبينهاملاند كريما ، ومع ذلك فقد كان أعلى من المستوى الموجود فى أماكن كثيرة بعد حروب نابليون .
ويبدو أن الهبوط ظل مستمرا طوال المدة التى كان قانون الفقراء قائما خلالها ،
وانه فى عام ١٨٣١ كانت الجراية العادية للعائلة رغيفا واحدا فى الأسبوع لفرد ورغيفا زائدا لكل ، وفى ذلك يقول آل هاموند :

« هبط المستوى خلال خمسة وثلاثين عاما الى الثلث تبعا لما يقول ماك كولوتسن ، ولم يكن ذلك بسبب الحرب أو المجاعة ، فانجلترا سنة ١٨٢٦ كانت قد قضت فترة سلام دام أحد عشر عاما ، ولكن ذلك الهبوط حدث خلال السير العادى لحياة الشعب ، فهل سجل التاريخ مثل ذلك الانحطاط فى مستوى الحياة فى أى مكان آخر ؟ (٢) » .

(١) « عامل القرية » هاموند - الطبعة الرابعة ص ١٣٩

(٢) « عامل القرية » ص ١٦١ ، وقد كتب ذلك قبل الحرب الكبرى .

وكان لهذا النظام عدة مزايا من وجهة نظر الطبقات العليا - فقد كانوا يشعرون بأن ما يدفع من ضريبة الفقراء كان على سبيل الاحسان ، ومن ثم فهو دليل على حبهم للخير ، وفي نفس الوقت ظلت الايجور عند حد الكفاف بطريقة تحول دون أن يصير التدمير ثورة . ففي فرنسا أفادت الثورة الفلاحين فائدة كبرى ، إذ ارتفع مستوى حياتهم في سنة ١٨١٥ عنه في سنة ١٧٨٩ ارتفاعا كبيرا على الرغم من الحروب الطويلة والهزيمة في النهاية . ولعل الثقة المستمدة من قانون الفقراء في أن ولاية الامور في الابرشية سيحولون بينهم وبين الموت جوعا هي التي دعت فقراء الريف في انجلترا الى أن يصبروا على بؤسهم . وانه لمن العسير ابتكار خطة أقل نفقة من هذه لتهدئة الفقراء ولسنا ننكر أن عدة اضطرابات قد حدثت أحيانا وخاصة «التمرد الاخير» الذي وقع سنة ١٨٣٠ . الا أن احماها لم يكلف الحكومة الا أقل عناء ، كما أنها كانت فرصة لنوقيع عقوبات وحشية على النافرين . لقد نزل قانون الفقراء بالعمال الى الحضيض وقضى على احترامهم لانفسهم، وعلمهم أن يحترموا «سادتهم» ، وترك كل ما أنتجوه ، باستثناء الحد الأدنى المطلق للبقاء، في أيدي ملاك الأراضي والمزارعين . لقد كانت هذه الفترة هي التي بنى فيها أصحاب الاراضي الحرائب الفوطية المقلدة التي يطلق عليها اسم « الحماقات » (١) حين انغمسوا في ذكريات وجدانية عن الماضي وملاؤوا الحاضر بؤسا وهوانا . .

(١) Folies اسم يطلق على الاعمال العديمة النفع وبخاصة المباني التي يعجز القانونون بها عن اتمامها بعد ان تبين لهم أن نفقاتها أكثر مما تتحملة مواردهم .

٣ - الحياة الصناعية

الفصل السابع

الحياة الصناعية

كان في الريف ثلاث طبقات ، ولكن الحياة الصناعية لم يكن فيها سوى طبقتين ، فصاحب الارض كان يفضل بصفة عامة ألا يقيم بين أقدار المصانع والمناجم ودخانها . وحتى اذا أقام بعض الوقت في جيرة كانت أيام أبيه ريفية فإنه يقصد في علاقاته بالطبقة الناهضة من أصحاب الأعمال التي كان ينظر الى أفرادها على أنهم مبدلون وغير متعلمين . وكانت العلاقة بين طبقة ملاك الأراضي وأصحاب المصانع في الغالب علاقة سياسية أكثر منها اجتماعية . فقد كانت لهم مصلحة مشتركة في اخماد القلاقل ، ولكن بقية مصالحهم كانت متعارضة في معظم الاتجاهات . فقد كانت هناك ضريبة استيراد على القطن الخام كان أصحاب المصانع حائقين عليها . وكانت الضريبة على الحبوب ترفع ثمن الخبز ومن ثم تزيد من النفقات التي يتطلبها ابقاء العمال على قيد الحياة، وكانت الزيادة في الأجور التي يضطر أصحاب المصانع الى دفعها نتيجة لذلك تذهب الى جيوب ملاك الأراضي في صورة ايجار للأراضي الزراعية . وكان صاحب المصنع يريد حرية التجارة بينما يؤمن صاحب الأرض بنظام الحماية، وكان صاحب المصنع في الغالب من «المنشقين» على الكنيسة الانجليزية ، أما أصحاب الأراضي فكانوا كلهم تقريبا من أتباع كنيسة انجلترا ، وصاحب المصنع التقط تعليمه حيثما اتفق بخير وسيلة استبطاها وارتفع من رهدة الفقر بالاقتصاد والجهد في العمل ، على حين أن صاحب الأرض قد التحق بالمدرسة العامة وعاش في الرفاهية طوال حياته .

وكانت الطبقات العليا تدرك، عندما يحدو لها التفكير، أن للحياة الصناعية في الشمال أهميتها . كانوا يعلمون أن منتجاتنا الصناعية ساعدت على هزيمة نابليون ، وكان بعضهم قد سمع عن جيمس وات ، وكانت لديهم فكرة غامضة عن عملية يصبح بها النجار ذا فائدة . الا أن هذه الأشياء وأمثالها كانت تبدو لهم كريبه لا أصالة فيها ، هذا الى أنها اذا انتشرت فقد تعرقل متعتهم في الصيد . وقد كان المشرف على تعليم جدى في وقت ما الدكتور كارتر ايت مخترع النول البخارى الذى أدخل الآلة ونظام المصانع في حرفة النسيج . وقال تلميذه فيما بعد : « لقد أخذت عن الدكتور كارتر ايت ، الذى كان رجلا واسع العلم موفور الذكاء فى المسائل الآلية ، تذوقا للشعر اللاتينى لم يزايلنى أبدا » . ريمضى فى ذكرياته فيدون بعض أمثلة عن قدرة مربيه «فى المسائل الآلية» ، ولكنه لم يذكر كلمة واحدة عن النول البخارى الذى يبدو أنه لم يسمع

عنه مطلقا على الرغم من أن مخترعه أهده «مجلدا من الخطابات والقصائد فى الإخلاق وفى موضوعات أخرى ذات بال» . وكانت انجلترا تعرف فى الخارج بالآلاتها ، ولكن الطبقة العليا كانت تستنكر ذلك ، وتؤكد أهمية الزراعة . وحتى بعد مضى مدة من الزمن نرى هذا الشعور يعبر عنه كنجليك فى سنة ١٨٤٤ فى قصة « ايوثين » بطريقة مسلية ، فى مقابلة خيالية بين سائح انجليزى وباشا تركى :

الباشا : ورر ! ورر ! ورر ! كل شيء على عجلات وز ! وز ! كل شيء بالبخار .

السائح (للدليل) : ماذا يقصد الباشا بهذا الصوت الذى يصدره ؟ انه لا يريد أن يقول ان حكومتنا ستتكث بالعهود التى قطعتها للمسلطان ، يريد ذلك ؟

الدليل : كلا يا صاحب السعادة ، ولكنه يقول ان الانجليز يتحدثون بالعجلات وبالبخار .

السائح : هذه مبالغة ، ولكن قل له أن الانجليز قد وصلوا بالآلات الى حالة عظيمة من الكمال . قل للباشا (وسيدهنس من هذا) انه فى أى وقت تحدث عندنا اضطرابات نريد اخمادها ، حتى ولو كانت على بعد مائتى ميل أو ثلاثمائة من لندن ، فاننا نستطيع أن نرسل آلافا من الجنود الى مكان الاضطرابات فى ساعات قلائل .

الدليل : (مستعيدا هدوءه وحرينته فى الحديث) : يا صاحب السعادة ، ان لورد مودكومب هذا يقول لسموك أنه اذا ماثار الايرلنديون أو الفرنسيون أو الهنود ضد الانجليز فى أى وقت من الأوقات تلقى جيوش باكملها من الجنود وفرق من المدفعية فى هوة ضخمة اسمها ميدان « يوستن » وفى طرفة عين تصبح فى مانشستر أو دبلن أو باريس أو دلهى وتستأصل أعداء انجلترا من على وجه البسيطة .

الباشا : أعرف ذلك - أعرف ذلك كله ، فقد نقلت الى التفاصيل بأمانة ، ويدرك عقلى موضوع الآلات البخارية ، فانا أعلم أن جيوش الانجليز تتركب فوق بخار مارجل تغلى ، وان خيلهم فحم مشتعل - ورر ! ورر ! ورر ! كل شيء على عجلات ورر ! ورر ! كل شيء بالبخار !

السائح (للدليل) : انى أود أن أعرف رأى سيد عثمانى غير متحيز فيما ينتظر لتجارنا ومنتجاتنا الصناعية الانجليزية من رواج ، فاسأل الباشا عن رايه فى هذا الموضوع .

الباشا (بعد أن تلقى السؤال من الدليل) : ان مراكب الانجليز تسير فى أسراب كالذباب ومنسوجاتهم القطنية المطبوعة تغطى وجه الأرض ، وسيوف

دمشق كأعواد من القش اذا قيست بسيوفهم . وليست الهند كلها سوى بند واحد في دفاتر تجارهم الذين تمتلئ مخازن مهملاتهم بالعروش القديمة !
ور ! ور ! ور ! كل شيء على عجلات . وز ! وز ! كل شيء بالبخار

الدليل : ان الباشا يمتدح أنصال السيوف الانجليزية وكذلك شركة الهند الشرقية .

السائح : انه على حق فيما يتعلق بالانصال . لقد جربت سيفي مع السيوف العادية التي يستعملها جنودنا في مالطة ، فقطعتها كأنها صفحات من قصة . (للدليل) ، قل للباشا اني مسرور جدا اذ أجد لديه هذه الفكرة الطيبة عن نشاطنا الصناعي ، الا أني أود أن يعرف أن لدينا في انجلترا شيئا آخر غير هذا النشاط . ان هؤلاء الأجانب يتصورون أنه ليس لدينا شيء سوى المراكب والقطر الحديدية وشركات الهند الشرفية ، أرجوك أن تقول للباشا أن ريفنا يستحق اهتمامه ، وانه قد حدث خلال مائتي السنة الاخيرة نفسها تقدم واضح في زراعة اللفت ، واذا كان ذلك لا يسترعى اهتمامه ، فيمكنك على أي حال أن توضح له أن لدينا فضائلنا الريفية - اننا شعب يقول الحقيقه واننا ، كالغلمانيين ، مخلصون في تنفيذ وعودنا . وبهذه المناسبة يمكنك أن تقول له في النهاية ، ما دمتنا بصدد الحديث في هذا الموضوع، أن الفلاح البريطاني لم يزل بحمد الله هو الفلاح البريطاني .

ولكن الفلاح البريطاني لم يكن هو الفلاح البريطاني الذي كان من قبل كما رأينا ، أن سائح كنتجيك وأضرابه قد حولوه الى رجل معدم مذعور يكاد يموت جوعا . الا أنه اذا كانت مساويء الريف في انجلترا بشعة ، فان مساويء الصناعة فيها كانت أشد بساعة الى أقصى حد . لقد أصبحت قطائع المصانع والمناجم في انجلترا في ذلك العهد قصة كريمة معادة ، ولكنها مع ذلك قصة لا يطيق الانسان سماعها . ولا يكاد قلبي يطاوعني على الكلام فيها ، الا أنه ينبغي لي أن أقول عنها شيئا .

ان الذي هزم نابليون ثلوج روسيا وأطفال انجلترا . والدور الذي لعبته الثلوج غير منكور ، لأنه يمكن اسناده الى العناية الالهية ، ولكن التاريخ يمر على الدور الذي لعبه أطفال انجلترا من الكرام باللغو لأنه دور يجتل رجال انجلترا بالحزى والعار . وكان ميشيليه ، في تاريخه ، أول من أبرزه في الصورة التي هو خليق بها ، وذلك في محادثه خيالية بين بت وأصحاب الأعمال : فهم يشكون اليه فدح ضرائبه الحربية فيرد عليهم قائلا : « خذوا الاطفال ، . الا أنه مضى وقت طويل جدا بعد انتهاء الحرب قبل أن يطلقوا سراح الاطفال .

وكان هناك نظامان لتسجيل الاطفال : النظام الاقدم ، نظام « الصبيان المعدمين » ، والنظام الاحدث منه عهدا ، نظام الاطفال « الأحرار » . وكان النظام القديم يسير على النمط الآتي : كابت الأبرشيات في لندن وفي

أماكن أخرى كثيرة تدعى حتى التصرف المطلق في أولاد الرّجل الذى يتلقى معونة فقر حتى سن الواحدة والعشرين . وكان معظم هؤلاء الأطفال حتى سنة ١٧٦٧ يموتون ، ومن ثم لم تكن هناك مشاكل أمام السلطات العامة . وفى هذه السنة بالذات استصدر رجل ذو نزعة انسانية اسمه هانواى قانونا يقضى بأن يبيت الأطفال خارج المصانع حتى سن السادسة بدلا من الاحتفاظ بهم فى داخلها . وكانت النتيجة أن عددا كبيرا منهم ظل لسوء الحظ على قيد الحياة ، وأصبحت السلطات فى لندن تواجه مشكلة التصرف فيهم . وكانت زيادة الطلب على الأطفال للعمل فى مصانع لانكشيرهى الحل . فقد كان الأطفال يرسلون صبيانا فى أحد المصانع ويصبحون ملكا لصاحب المصنع بالفعل حتى سن الواحدة والعشرين . فاذا كان المصنع يعمل ليل نهار قسم الأطفال الى نوبتين تعمل كل منهما اثنتى عشرة ساعة ، ويشترك فى السرير الواحد طفلان : طفل ممن يعملون نهارا وطفل ممن يعملون ليلا . وهؤلاء كانوا أسعد الأطفال حظا ، أما المصانع التى تغلق أبوابها ليلا فلم يكن فيها نوبة واحدة ، وقد يضطر الأطفال الى العمل خمس عشرة ساعة أو ستة عشرة ساعة كل يوم .

وكان أصحاب المصانع يفلسون أحيانا ، فيؤخذ الأطفال فى عربة الى بقعة منعزلة حيث يطلق سراحهم ويتركون ليتصرفوا كيفما استطاعوا . ولم يكن يسمح للأطفال بمغادرة المصنع أبدا ، باستثناء الحالة المسابقة ، الا ليذهبوا الى الكنيسة يوم الأحد اذا تم تنظيف الآلات فى وقت يسمح بذلك . ويكاد احتمال عدم الحصول على تعليم دينى كاف يكون الشيء الوحيد الذى يتأثر به الضمير العام فى ذلك العهد ، ولكنه والحق يقال ، كان يتأثر بعض الشيء من كثرة الأوبئة النى مات بسببها أعداد كبيرة من الأطفال .

وفى سنة ١٨٠٢ عرض سير روبرت بيل (والد السياسى المعروف) ، الذى لم يكن هو نفسه من أصحاب الاعمال المفالين ، مشروع قانون على البرلمان ونجح فى الحصول على مصادقته عليه يهدف الى « المحافظة بصورة أفضل على صحة وأخلاق الصبيان والعمال الآخرين الذين يعملون فى مصانع القطن وغيرها وفى صناعة القطن وأمثالها ، ولم يكن القانون فى الواقع ينطبق الا على الصبيان وفى صناعة القطن وحدها . وكان سير روبرت بيل يعتقد « أنه سيجعل تجارة القطن طيبة وصالحة من الوجهة الاخلاقية بقدر ما هى مهمة ، ونص القانون على ألا يعمل الصبيان ليلا ، والا يعملوا أكثر من اثنتى عشرة ساعة يوميا ، وعلى حلة جديدة كل عام ، وأن تخصص غرف منفصلة لكل من الاولاد والبنات وسرير مستقل لكل فرد ، وأن يتلقوا كل أحد دروسا فى الديانة المسيحية ، ويختبرهم مرة فى السنة أحد رجال الكنيسة . وماذا يمكن لأطفال فاضلين أن يطلبوا أكثر من ذلك ؟

واجتج أصحاب الاعمال على هذا القانون قائلين أنه سيفضى الى افلاس

أعمالهم . ولكن ظهر فيما بعد أنه ليس هناك من يعتزم ارغامهم على تنفيذه ، ولم ينتج عنه عمليا الا القليل من الخير . ثم بدأ فضلا عن ذلك ما كان يسمى سخرية الاطفال « الاجراء » يحلون محل الصبيان شيئا فشيئا . والاطفال الاجراء هم الذين كانوا يرسلون للعمل بمشيئة ذويهم على الرغم من أنهم لم يكونوا محرومين من حقهم السرعى فى الموت جوعا . وكان التغيير ناجما عن احلال قوة البخار محل القوة المائية وقد نسا عن ذلك نقل المصانع الى المدن حيث يستطيع الحصول على عدد كاف من الاطفال محليا . ورفض ولاة الامور أن تمنح معونة الفقراء للآباء الذين يرفضون ارسال اولادهم الى المصانع ، وأصبح عدد كبير من النساجين على شفا الموت جوعا . بسبب مفاضة الآلات الجديدة . ونجم عن ذلك أن كثيرا من الاطفال اضطروا الى أن يبدأوا العمل لكسب قوتهم فى سن السادسة أو السابعة ، أو قبل ذلك فى بعض الاحيان .

ويصف آل هاموند فى كتاب « عامل المدينة » حياة هؤلاء الاطفال الاجراء :

« وعندما يصبح الطفل أجيرا فان حياته العاملة لا تكاد تختلف عن حياة صبيان الصناعة التى وصفناها آنفا . كانوا يدخلون أبواب المصنع فى الساعة الخامسة أو السادسة صباحا ، ويقادرونها فى الساعة السابعة أو الثامنة مساء على أقل تقدير ، بما فى ذلك أيام السبت . ويظلون طوال هذا الوقت داخل مبان تتراوح درجة الحرارة فيها بين ٧٥ و ٨٥ درجة فهرنهايت . والراحة الوحيدة التى ينالونها خلال هذه الساعات الاربع عشرة أو الخمس عشرة من السجن هى أوقات الأكل ، نصف ساعة للإفطار وساعة للعداء على أكثر تقدير . وكانت ساعات الطعام المنتظمة مميزة لا يتمتع بها الا الكبار ، أما الاطفال فلم تكن بالنسبة لهم فى ثلاثة أيام أو أربعة فى الاسبوع سوى تغيير فى العمل لا غير ، فقد كانوا ينظفون آلة واقفه عن العمل بدل أن يلاحظوا آلة أثناء عملها ، ويختطفون ويزددون طعامهم كلما استطاعوا بين التراب ومخلفات الاحتراق . ولا يلبث الطفل أن يفقد كل رغبة فى الوجبات التى يتناولها داخل المصنع . ذلك ان مخلفات الاحتراق كانت تخنق رئتيه ، فاذا لم يفلح البصق فى اخراجها من رئتيه أعطيت له المعينات بكمية كبيرة .

وكثيرا ما كان العمل الذى يوكل الى هؤلاء الاطفال يوصف أنه خفيف وسهل ، عمل يكاد يكون تسليية ، يتطلب انتباهها ولكنه لا يتطلب مجهودا . وكان ثلاثة ارباع الاطفال يعملون (جماعين) أى يضمون أو يربطون الخيوط المقطوعة فى آلات « الفتل » والفزل المختلفة . وكان غيرهم يعملون فى كنس بقايا القطن أو تغيير « الوشيعات » واستبدالها . وقد قام فيلدن (١٧٨٤ - ١٨٤٩) صاحب العمل المنتور الانسانى النزعة الذى كان يمثل هووكوربت مدينة أولدهام والذى يشارك شافتسبورى وسادلر المجد الذى يعطر

ذكرهما ، قام بتجربة طريقة لقياس المجهود الجسماني الذي كان الاطفال يتحملونه . فقد راعه ما ذكره بعض مندوبي المصانع عن المسافات التي يقطعها الطفل يوميا في تتبعه لآلة الغزل ، فوضع ما قالوه موضع الاختبار العملي في مصنعه ، وما كان أشد دهشته اذ وجد أن ما يقطعه الطفل في اثنتي عشرة ساعة لا يقل عن عشرين ميلا . نعم انه كان هناك فترات قصيرة للراحة ، ولكن لم تكن هناك مقاعد يجلسون عليها لان الجاوس لم يكن مسموحا به .

أما الرأي القائل بأن عمليات «النجميع» التي يقوم بها الاطفال كانت عملية خفيفة في الواقع ، فإن خير من عبر عنه هو المستر «تافل» أحد مندوبي المصانع . فهو يقول ان ثلاثة أرباع الاطفال يعملون «جماعين» على آلات الغزل ، وعندما ترتد الآلة يقفون نحو ثلاثة أرباع دقيقة . ومن هذا يستخلص أنه اذا كان الطفل يعمل اثنتي عشرة ساعة يوميا فهو «في الواقع» لا يقوم بعمل ما مدة تسع ساعات ، أو اذا كان يلاحظ آلتين ، وهذا ما يحدث عادة ، فإن «وقت فراغه يبلغ ست ساعات بدلا من تسع» .

وكانت اساعات الاربع عشرة أو الخمس عشرة التي يفضيها الطفل محبوسا سنة أيام في الاسبوع هي ساعات العمل «النظامية» . أما في أوقات الضغط فقد كانت ساعات العمل مرنة تمتد بعض الأحيان الى حد لا يكاد يصدقه العقل . فلم يكن العمل من الساعة الثالثة صباحا الى العاشرة مساء أمرا غير معروف ، ففي مصنع مستر فارني كان العمل يستمر طوال الصيف من الثالثة والنصف صباحا الى التاسعة والنصف مساء . وفي المصنع الذي يسمى بحق «خليج جهنم» لم يكن العمل يستمر من الساعة الخامسة صباحا حتى التاسعة مساء فحسب ، بل كان يستمر أيضا طول الليل مرتين في الاسبوع ، وكان هذا يحدث على فترات تمتد كل منها شهرين . وكان أصحاب المصانع الأكثر انسانية يقنعون في أوقات الضغط بست عشرة ساعة يوميا من الخامسة صباحا الى التاسعة مساء .

وكان من المستحيل الاحتفاظ بهذا النظام بأي حال من الاحوال الا باستعمال الخوف قوة دفعه . ولم ينكر ملاحظو العمال الذين أدلوا بشهادتهم أمام لجنة سادار أن وسائلهم كانت وحشية . وقالوا انه لم يكن أمامهم الا أن يرغموا الاطفال على اتمام القدر المطلوب من العمل أو يتعرضوا هم أنفسهم للفصل ، وأنه في مثل هذه الظروف تعتبر الرحمة ترفا لا يستطيع رجال ذوو أسر أن يسمحوا لأنفسهم بها . وكان لا بد من توقيع عقوبات قاسية على التأخير في الوصول الى العمل صباحا بحيث تنقلب على الاغراء الذي قد يتعرض له الاطفال المتعبين بأن يقضوا أكثر من ثلاث ساعات أو أربع في الفراش . وقد قال أحد الشهود أمام لجنة سادار انه يعرف طفلا وصل الى بيته ذات مرة في الساعة الحادية عشرة مساء واستيقظ في الثانية

من الصباح التالي مذعورا وهرولا يعرج الى باب المصنع . وكان يحدث في بعض المصانع أنه لا تكاد تمر ساعة طول اليوم دون أن يسمع صوت الضرب وصيحات الألم . وكان الآباء يضربون أطفالهم لينقذوهم من ضرب أقسى علي أيدي الملاحظين . وكان التوتري يصل بعد الظهر الى درجة من الشدة بحيث لا ينقطع استعمال العصا الحديدية المعروفة باسم « أسطوانة بيلى » ، ومع ذلك كله فكثيرا ما كان يحدث أن طفلا يغفو ويسقط في الآلة التي بجواره ليقضى بقيه حياته مشوها أو ، اذا كان أحسن حظا ، ليجد راحة أطول من اغفائه التي اختلسها . ولسنا ننكر أن رجلا من أصحاب المصانع اسمه مستر جوت منع استعمال أى شيء سوى المقرعة ، وحاول الملاحظون أن يمنعوا الاطفال من الاغفاء عندما كانوا يعملون من الخامسة صباحا حتى التاسعة مساء بتشجيعهم على ترتيل الاناشيد الدينية . وكلما تقدمت النساء أصبح الألم والتعب والتوتر الذهني حالات غير محتملة ، ولهذا يضرع الاطفال الى أى شخص يمر بالقرب منهم أن يخبرهم كم ساعة بقيت أمامهم حتي نهاية العمل . وقد قال أحد الشهود أمام لجنة سادار أن طفله ، وهو صبي عمره ست سنوات ، كان يسأله : « أبى كم الساعة الآن ؟ » فاذا أجابه مثلا بأن الساعة السابعة ، رد عليه الطفل قائلا « انها التاسعة الا ساعتين انى لا أطين هذا (١) » .

ولما عرفت هذه الظروف هاج الناس مطالبين بقانون يضع حدا لا يشع هذه المساوىء سيجيء ذكره في فصل مقبل . وسأكتفى في الوقت الحاضر بالإشارة الى أنه صدر قانون في سنة ١٨١٩ الا أنه ثبت عدم جدواه مطلقا لأن التفتيش ترك الى المأمورين القضائيين ورجال الدين . وقد تنفس أصحاب المصانع الصعداء حين أنبتت التجربة أن المأمورين القضائيين ورجال الدين لا يعترضون على مخالفة القانون اذا كان الغرض من هذه المخالفة هو مجرد تعذيب الاطفال .

ولم يكن الاطفال يقاسون العذاب في مصانع القطن وحدها ، بل كانوا يخضعون في مناجم الفحم لظروف لا تقل عن هذه بشاعة . فكان هناك مثلا الموكلون بفتح « الأبواب الساقطة » وغلقها ، وهم عادة اطفال بين الخامسة والثامنة ، وكانوا « يجلسون في جحور صغيرة الى جانب الابواب يمسكون في أيديهم خيطا لمدة اثنتي عشرة ساعة . وكانوا يجلسون عادة في الظلام ، وقد يعطيهم بعض الاحيان عامل طيب القلب من عمال المنجم قطعة من شمعة . وجاء في تقرير لجنة استخدام الاطفال سنة ١٨٤٢ ، أن طفلة قالت « على أن أغلق الباب وأفتحه دين نور ، وهذا يسبب لى أشد الخوف . فأنا أذهب الساعة الرابعة صباحا ، أو الثالثة والنصف في بعض الاحيان ، وأعود في

الساعة الخامسة أو الخامسة والنصف (مساء) • ولا أغفو مطلقا • وأغنى
أحيانا عندما أجد الضوء ، أما فى الظلام فلا أجرؤ حتى على « الغناء »

وكان الكدح الذى يقوم به الاطفال فى هذه الظروف هو الذى استطاع
به لورد ملبورن أن يجمع الثروة التى أمكنته من أن يكون متمدينا وظيفيا •
وكان كاسارى ، وهو بعينه لورد لوند ندرى ، أحد ملاك مناجم الفحم ذوى
اللسان • وفى الواقع أن أكبر فارق بين المناجم وصناعة القطن أن عددا كبيرا
من زعماء الارستقراطيين من الحزبين كانوا ذوى مصلحة مباشرة فى المناجم ،
وقد أظهروا أنهم غلاظ الغلوب لا يقولون عن أكثر العصاميين من أصحاب
مصانع القطن وحشية • وكانت آلام الاطفال المعذبين النعمة التى تختفى وراء
الاحاديث الطريفة فى بيت آل هوللاند •

تُقد تحدثت عن الاطفال لان هذا الموضوع كان أشجع ناحية فى التصنيع
منذ مائة سنة • ولكن مثل هذا العذاب الذى يفاسيه الاطفال ما كان ليحدث
لو لم يكن أبائهم فى حالة من اليأس القاتل • لقد كانت ساعات العمل للكبار
طويلة الى حد لا يكاد يتصوره العقل ، والاجور منخفضة جدا ، وظروف
السكنى بشعة • وكان العمال الصناعيون ، ومعظمهم كان يقيم فى الريف
قبل ذلك ، يحشرون كالماشية داخل مدن حديثة سيئة البناء يملؤها الدخان
وغير صحية ، بل ان بعضهم كان يعيش فى فناء ، وكانت الكوليرا والتيفوس
أوبئة متوطنة بينهم • وانحدر الصناع المهرة الى حالة من الاملاق بسبب
استخدام الآلات ، فالنساجون الذين كانوا قبل ذلك فى ميسرة أصعبحوا
لا يستطيعون أن يكسبوا أكثر من ستة شلنات ونصف فى الاسبوع • وظل
تكوين الانحادات بين الأجراء مخالفا للقانون حتى سنة ١٨٢٤ ، وعلى الرغم
من وجود بعض النقابات فانها كانت بالضرورة صغيرة عديمة الاثر طالما كانت
مرغمة على أن تظل سرية ، وكانت الحكومة تستخدم جواسيسا عملهم أن
يدفعوا الفقراء الى التعبير عن مشاعر ثورية • وكان الجواسيس أنفسهم
ينظمون ، بعد عناء شديد ، حركات صغيرة ، وكان نصيب من يخدع بهم
الشنق أو النفى •

ان الرجال الذين حملوا وزر هذه الفظائع كانوا بشرا : وأنا وذنت
نشاركهم طبيعتهم البشرية ، ولعلنا - فيما أعتقد - كنا نفعل مثل ما فعلوا
لو كنا فى ظروف غير ظروفنا • ومع ذلك فان أحفادهم يحتجون باسم
الانسانية على ما يحدث فى روسيا السوفيتية ، ويوقعون عقوبات وحشية
على من يحاولون منع بعض الشرور القديمة من معاودة الظهور فى التصنيع
فى الهند الذى لم يزل فى سنه الاولى •

القسم الثانی

الباب الثانی

الرادیکالیون الفلسفيون

- ١ - الفصل الثامن : مالتس
- ٢ - الفصل التاسع : بنتام
- ٣ - الفصل العاشر : جيهس ميل
- ٤ - الفصل الحادي عشر : ريكاردو
- ٥ - الفصل الثاني عشر : مذهب بنتام
- ٦ - الفصل الثالث عشر : الديمقراطية في إنجلترا
- ٧ - الفصل الرابع عشر : حرية التجارة

۱ - مالتس

الباب الثامن

المتطرفون الفلسفيون

الفصل الثامن

مالتهس

ليس التفكير لونا من ألوان النشاط الطبيعية في الانسان ، فهو ينشأ عن مرض ، مثله كمثل ارتفاع درجة الحرارة في المرض . ففي فرنسا قبل الثورة ، وفي إنجلترا في مطلع القرن التاسع عشر ، دفع المرض السكامن في جسم الدولة السياسي رجالا الى التفكير في مسائل مهمة ، تطورت وأصبحت علم الاقتصاد السياسي . وأنتج هذا العلم ، بالاشتراك مع فلسفة بنتام وعلم النفس الذي أخذه جيمس ميل عن هارتلي ، مدرسة الراديكاليين الفلسفيين الذين سيطروا على السياسة البريطانية زهاء خمسين عاما . وكانوا طائفة غريبة من الرجال ، ليس فيهم شيء طريف ، خالين من كل ما يسمى « التصور » ، حريصين ، عقليين ، يناقشون الموضوعات بجذر مبتدئين بقضايا معظمها غير صحيح ، منتهين الى نتائج تتفق ومصالح الطبقة المتوسطة . وكان جون ستيوارت مل آخر من مثلهم أقل ذكاء من بننام أو مالتهس أو ريكاردو ، ولكنه فاقهم في قوة الخيال والعطف على الناس ، وكانت النتيجة أنه تحول عن الآراء التقليدية ، بل انه أجاز لنفسه أن يداعب الاشتراكية . الا أن مؤسسي المذهب ، لم يكونوا يتسامحون مطلقا في أي ضعف مثلهم كمثل مستر ميردمستون في قصة ديفد كدفيلد .

وليس آدم سميث ، مؤسس علم الاقتصاد البريطاني ، من رجال الفترة التي نحن بصددنا ، لان كتابه « ثورة الأمم » نشر في سنة ١٧٧٦ . وترجع أهميته الى مذهب « عدم التدخل » (Laissez faire) الذي أخذه عن الفرنسيين ، ولانه أول من جهر بالحجج التي تؤيد حرية التجارة . الا أنه يقتدر الى الصفات التي يتصف بها مؤسسو المذاهب . فهو حساس ، معتدل ، غير منظم ، ويعترف دائما بأن هناك حدود ، كما حدث مثلا في حججه الشهيرة التي ساقها دفاعا عن قوانين الملاحة التي كان أساسها أن مقتضيات الدفاع أكثر أهمية من الرخاء . فهو سيد مهذب ، متقدم في السن ، لطيف ، يتحلى بتلك الصفة المريحة التي يتميز بها القرن الثامن عشر وهي أنه لا ينبغي للسيد المهذب أن يتمسك بعقيدة أكثر مما يجب ، ولكنه مع ذلك كان يؤمن ، في حدود الإدراك الفطري السليم ، بأن مصالح الفرد والمجتمع متفقة بصفة

عامة ، وأن المصلحة الشخصية الاستثنائية تقضى بمثل السلوك الذى يقضى به حين الحير ، وقد استعمل هذا المبدأ فيما بعد لاثبات أن مصلحة صاحب المصنع الشخصية تتفق مع المصالح الحقيقية للمجتمع ، وأن مصلحة المجتمع يجب أن تكون مطابقة للمصلحة الحقيقية للأجير ، واستنتج ذلك أيضا أن الاجير يكون أحق اذا وقف فى وجه مخدمه .

ومالتس أكثر من كل أهمية بالنسبة للفكرة التى نحن بصددتها ، بل وبالنسبة للعالم كله ، وقد كان لكتابه « مقال فى مبدأ السكان » (الطبيعة الاولى سنة ١٧٩٨ ، والثانية سنة ١٨٠٣) أثر عميق فى كل النظريات والتطبيقات العملية التى جاءت بعده . ويبدو أن مالتس لم يشارك أبدا فى التفاؤل الذى كان سائدا قيل سنة ١٧٨٩ - على الرغم من أنه ولد سنة ١٧٦٦ ، ومما هو جدير بالملاحظة أنه عندما صار بت رئيسا للوزراء سنة ١٧٨٣ ، وهو فى سن الرابعة والعشرين ، دهش أشد الدهشة من أن يشغل شاب فى هذه السن هذا المنصب الحظير فى حين أن أباه لم ير هذا الرأى . فقد كان أبوه من « الكماليين » (Perfectionist) وصديقا لروسو ، ويقال أنه كان منفذ وصيته وإن كان ذلك يبدو غير صحيح ، وكان يعجب إعجابا شديدا بكتاب جودوين « العدالة السياسية » ومؤلف كوندورسييه « تقدم الروح البشرية » ، وكان مغرما بالجدل يشجع أفراد أسرته على أن يعرضوا بعض الموضوعات ويناقشها معهم . وقد ابتكر ابنه ، الذى أزعجه إيمان أبيه بالتقدم ، ما أسماه « باجهد » جهازا للقضاء على المرح ، ولم يكن مالتس فى بداية الامر يقصد به إلا أن يكون مجرد سلاح للمناقشة . وقد ثبت بعد ذلك أنه سلاح يتار فآمن مالتس به واستخدمه الى آخر أيامه . وكان هذا السلاح هو نظريته المعروفة فى السكان .

ولسنا ننكر أنه كان هناك الكثير مما يدعو الى التساؤم فى سنة ١٧٩٧ عندما فكر مالتس فى نظريته لأول مرة . ذلك أن الثورة الفرنسية كانت قد اجتازت مرحلة حكم الارهاب وانتقلت الى حكومة « الادارة » الدير كنوار الفاسدة التى لا توحى بخير قط . واصبحت الآراء المنحرفة فى انجلترا فى حكم لعدم ، وكانت الضرائب والفسق يزيدان جنباً الى جنب ، ولم يكن الوطنيون المتحمسون قد أضعفتم بعد انتصارات نلسون ، وكان الاستطول فى حالة من التمرد ، والمتطرفون فى السجنون انتهى وضعهم فيها بت ، إلا أن ايرلندا كانت على أبواب ثورة ١٧٩٨ . ولم يكن عسيرا على المرء أن يرى جريا طويلة مقبلة ، وعهدا طويلا من الاستبداد والضنك والمجاعات الدورية ، والقضاء على كل الآمال التى انبثقت عنها الثورة الفرنسية . لهذا كله كانت المذاهب التى تشيع فيها الكتابة هى الطراز السائد فى تلك الأيام ، وبدأ مالتس يعد العدة لكي يمد العالم بهذه المذاهب .

وكان مقالته ، كما ظهر فى أول الامر سنة ١٧٩٨ ، مؤلفا هزليا يكاد

يكون كله استنتاجا . الا أنه سافر بين هذا التاريخ وسنة ١٨٠٣ عدة مرات الى أوروبا ليجمع الحقائق من كل مكان يدعم بها نظريته . وكانت النتيجة أن ظهرت الطبعة الثانية كتابا تؤثر في المرء ضخامته وما يبدو فيه من استقراء مستمد من كل دول العالم . وفهرست الموضوعات وحده ضخمة : « السكان في روسيا ، « السكان في السويد » ، « السكان في ألمانيا » وهكذا . وإذا وصل القارىء فيه الى هذا الحد يكون قد أصبح نصف مقتنع بأى شيء يأتي بعد .

ونظرية مالتس في جوهرها بسيطة للغاية : وخلصتها أنه إذا لم يحدث ما يوقف نمو السكان ، فانهم يتضاعفون كل عشرين عاما أو نحوها ، وإذا مضت عليهم مائة سنة من الآن تضاعفوا اثنين وثلاثين ضعفا ، وبعد مائتي سنة يتضاعفون ١٠٢٤ مرة ، وبعد ثلاثمائة سنة يتضاعفون ٣٢٧٦٨ مرة وهكذا . وواضح أن شيئا من ذلك لا يحدث ، ولا يمكن أن يحدث . ولماذا ؟

ويقول مالتس أنه لا توجد الا ثلاث وسائل لا غير ، تؤدي الى ابقاء عدد السكان منخفضا ، وهى الوازع الاخلاقي ، والرذيلة ، والبؤس . وأمله ضعيف فيما يتعلق بالوازع الخلفي الواسع النطاق حتى يتعلم جميع السكان مبادئ الاقتصاد السياسى الحقيقية . وأما الرذيلة ، فهو بوصفه رجلا من رجال الدين لا يستطيع أن يتحدث عنها الا بلهجة الاستهجان ، هذا الى أنه وان كان يعترف بأنها ربما كانت عاملا هاما فى ايقاف زيادة السكان فى بعض العصور مثل أيام الامبراطورية الرومانية ، لا يتوقع أن تكون ذات أثر كبير فى معظم الاحيان . ويثبت بعد ذلك أن نقص السكان الذى ينجم عن الأوبئة سرعان ما يعوض ، وينتهى الى أن البؤس أهم ما يحول دون زيادة السكان عما يجب . ويقول أن السبب فى أن عدد السكان ليس أكثر مما هو الآن أن الناس يموتون جوعا .

وقد يقال أنه إذا توفر عدد أكثر من الناس للعمل فى الارض فانها ستقبل غناء أكثر . فلماذا تؤدي زيادة السكان اذن الى أن يموت أى شخص جوعا ؟ وعند هذه النقطة تستند المناقشة الى ما سمي فيما بعد بقانون تناقص الغلة . ومضمونه أنه إذا بذل ضعف العمل الذى كان يبذل من قبل فى قطعة ارض من الارض وكذلك ضعف رأس المال فإن الناتج يزيد ولكنه لا يتضاعف . وإذا استغل العمل ورأس المال فى قطعة ارض كانت قبل ذلك بورا ، فإن النتيجة تبقى كما هى لانه يمكن الافتراض بأن أحسن الاراضى قد زرعت أولا . وهذا كله بطبيعة الحال لا يصدق اذا كان عدد السكان قليلا جدا ، فالرواد الأول فى الاراضى البكر يستفيدون من السكان الجدد . أما البلاد القديمة التى استقر فيها السكان ، مثل بلاد أوروبا ، فصحيح بصفة عامة أنه إذا زاد عدد السكان دون تقدم يعادل هذه الزيادة فى تحسين وسائل الزراعة فإن كمية الطعام التى تخص الفرد تقل . وأخيرا نصل الى الحد الذى إذا زاد

فيه عدد السكان عما هو عليه يصبح نجاج عمل الرجل الواحد أقل مما يلزم لإطعام رجل واحد . وهنا يضع الجوع حداً لأي زيادة ممكنة في السكان .

ويقول مالتس أن الذين تتكون منهم أفقر الطبقات في المجتمع يجب أن يصل فقرهم إلى أدنى حد يتفق وبقاءهم أحياء ، وإلا زاد عددهم زيادة تؤدي إلى الحد السالف الذكر . وقد توجد فترات استثنائية قصيرة كالتى أعقبت « الموت الأسود » ، إلا أنها لا يمكن أن تستمر طويلاً ، لأن عدداً أكبر من الأطفال سيعيشون حتى تعود الحال القديمة إلى ما كانت عليه . وعن ثم فإن من الخير أن يكون بعض الناس أكثر مالا من غيرهم لأن « الجميسع في أى نظام يقوم على المساواة سيكونون في أدنى مستوى ، وهو على هذا الأساس يرفض خطط جودوين ، وأووين ، وغيرهما من المصلحين » . ويقول « إنه مما لا شك فيه مطلقاً أن السبيل الوحيد الذى يتفق وقواعد الدين والأخلاق ، الذى يقضى بأن يعطى الفقراء الجزء الأكبر من ثروات الأغنياء ، دون أن نهبط بالمجتمع كله إلى حد البؤس ، هو أن يراعى الفقراء الحكمة في زواجهم والاقتصاد قبل الزواج وبعده » . وهكذا يطيح مالتس بكل الخطط التى ترمى إلى تحسين حال البشرية ولا تحل مشكلة السكان . وهى مشكلة لا سبيل إلى حلها إلا عن طريق المزارع الأخلاقى ، أما الطريق الأخرى التى اقترنت فيما بعد باسمه فهو يتحدث عنها باشمئزاز ويعتبرها « فنونا غير لائقة » .

ويعترض مالتس بطبيعة الحال على « قوانين الفقراء » وإن لم يعتقد أن من الممكن الغاؤها دفعة واحدة . فهو يقول إنه من المحال القضاء على الفقر ، وقد يكون ممكناً أن تجعل الفقراء أغنياء والأغنياء فقراء ، ولكن لا بد أن يكون البعض فقيراً ما دامت النسبة الحالية بين الطعام وعدد السكان باقية . فإذا ارتفعت معونة الفقراء ، فإن ذلك لن يجعل فى مكنة كل عامل أن ينال نصيبه من اللحم . لأن كمية اللحم الموجودة فى البلاد ستظل كما هى ، وإذا لم يكن يوجد منها ما يكفى الجميع ، فإن الأسعار سترتفع .

وهو لا يعتقد أنه فى الإمكان أن تحصل أوروبا على قسط كبير من طعامها من قارات أخرى ، فيقول : « فى عمرة من التأملات أطائشه اقترح البعض (على سبيل المزاح بطبيعة الحال لا الجدى) أن تزرع أوروبا غلالها فى أمريكا وتكرس نفسها للصناعة والتجارة فقط ، باعتبار ذلك خير تقسيم للعمل فى العالم » .

وليس هناك سوى أمل واحد للطبقات العاملة ، هو التزبية باعتبارها سببلاً يؤدي إلى غرس المزارع الأخلاقى فى نفوسهم ، ويقدم بيكوك فى كتاب « مليكورت » مارتس تحت اسم مستتر فاكس ، ويمثله وهو يحاول أن « يربى » فلاحاً يوشك أن يتزوج :

نظر مستر فاكس الى العروسين بعطف بالغ ، وصمم على أن يتأكد هل لديهما فكرة واضحة عن الشرور التي تنتظرهما نتيجة الخطوة الهوجاء التي يعتزمان اتخاذها . ومن ثم بادرها بالإشارة الى أن القس مستر بورتبايت مشغول وأنه سيحضر بعد لحظات . ثم قال : « وحتى يحضر، أقف ممثلاً لقيادة الادراك السليم لأعمالكما هل قدرتما نتائج ما أننا مقبلان عليه الآن حق قدرها ؟ »

العريس : قيادة الادراك السليم ! لن أكون رجلاً بحق اذا خضعت لقيادة ما أيا كان نوعها . لسنا خاضعين للأحكام العرفية ، هل تظننا خاضعين لها ؟ تبا لتلك الايام اذا كان ذلك القائد ، الادراك السليم ، سميتدخل بين الرجل والمسكين وبين حبيبه .

مستر فاكس : إن حالتك بالذات هي الحالة التي تنادى صراحة بهذا التدخل .

العريس : اذا كان قائدك - وهو الادراك السليم - سميتنظر حتى تدعوه « زوكى » صراحة فما أطول ما ينتظر . أليس كذلك يا زوكى ؟

العروس : لا شك فى هذا يا روين .

مستر فاكس : أؤكد لك يا صديقى أن الادراك السليم لا شأن له بالأحكام العرفية ولا بأية صورة من صور السلطان الاستبدادى ، بل انه يتصل بالسلطة التي تعتمد على الحق ، والخير فى آخر الامر ، وان العالم كله هو المجال الذى يعمل فيه .

العريس (وهو يهرش فى رأسه) : قد يكون فى ألفاظك بعض المعنى ، ولكنى أظنك تريد أن تقول أن هذا القائد الذى تسميه الادراك السليم ان هو الا واعظ من أتباع المذهب النظامى ، ولكننى من أتباع الكنيسة الحقة وكذلك زوكى ، الست كذلك يا زوكى ؟

العروس : لا شأن له بنا مطلقاً يا روين .

العريس : ومن ثم فليس لنا شأن بقيادة الادراك السليم ولا شأن له بنا . أهو كذلك يا زوكى ؟

العروس : لا شأن له بنا مطلقاً يا روين .

مستر فاكس : أذن فمهما يكن من هذا الامر ، أنت مصمم على الزواج ؟

العريس : أظن ذلك ، بالتأكيد ، ولتسمح لنا بذلك قيادة العقل السليم، اليس كذلك يا زوكى ؟

العروس : نعم - بالتأكيد يا روين .

مستتر فاكس : وهل أنت مدرك حق الإدراك يا صديقي الأمين ، حقيقة الزواج ؟

العريس : لا شك أنى مدركها ، فقد حفظنها أنا وزوكى عن ظهر قلب من كتاب الصلوات العامة ، أليس كذلك يا زوكى ؟

(ولم تر سوزان (العروس) أنه يليق أن تجيب فى هذه المرة) .

لقد أمرنا فى هذا الكتاب بأن من لم يعط موهبة - (وهنا عركته سوزان عركة مفاجئة شديدة فى ذراعه استحال بعدها حديثه صراخا) . ما هذا ! لقد آلمتنى كثيرا ! وسأنتقم منك أيا كنت (وهنا طبع قبلة شديدة على شفتى عروسه التى اعتراها الخجل وجللت بالعار مستتر فاكس) .

مستتر فاكس : أتعلم أنك فى خلال ست سننوات لا يبعد أن يكون لك من الاطفال مثل هذا العدد ؟

العريس : كلما زاد عددهم كان ذلك زيادة فى الخير . أليس كذلك يا زوكى ؟ (وصمتت سوزان مرة أخرى) .

مستتر فاكس : أرجو أن يكون ذلك يا صديقى ، ولكننى أخشى أن تجد أنه كلما زاد عددهم زاد حزنك . وأى المهن تشتغل بها ؟

العريس : انى أشتغل عند برانستات الفلاح : أزرع له وأحصد ، وأدرس ، وأذهب الى السوق بالقمح والماشية ، وأدير طرف المحراث اذا لزم الامر ، وأنظف الخيل وأطعمها ، وأنظف الاسوار والحفر ، وأقطع الخشب ، وأجمع ثمار الحديقة ، وأعصر الجمة ، وأشربها ، وأوثر أربعة عشر شلنا فى الاسبوع على عملى هذا . وزوكى تلك قد جمعت أكديما من المال ، فقد كانت تعمل فى حلب اللبن عند تشميركرد الفلاح ، وعندها أربعة جنيهات وسبعة عشر شلنا وتسعة بنسات فى الصندوق القديم ذى الثلاثة الاقفال المستوية والمعروة التى يبابه . أليس هذا عندك يا زوكى ؟

العروس : نعم عندى بلا ريب يا روين .

مستتر فاكس : لا يبدو لى أيها الصديق الجليل أن أجرك البالغ أربعة عشر شلنا فى الاسبوع مضافا الى ما جمعه سوزان وهو أربعة جنيهات وسبعة عشر شلنا وتسعة بنسات سيكفى لاعالة أسرة كالتى تتوقع أن تكون لك .

العريس : ولم يا سيدي ؟ فأنا أولا لا أعرف أى شىء تعتمزمه زوكى فى هذا الامر . ويحك يا زوكى ! لا تقرصينى هكذا - وثانيا - مع تقديري

واجب الخضوع لك وللادراك السليم الذى يتولى القيادة والواعظ المنتمى الى طائفة النظاميين - اظن ان هذا امر يتوقف على تفارتما نحن للحياة . لا على نظرة اى انسان غيرنا .

مستتر فاكس : ولكنه يتوقف على نظرة غيرك لهذا السبب ، وهو أنك اذا لم تستطع اعالة ابنائك ، فان على الأبرشية أن تتولى هذا العمل بالنيابة عنك .

العريس : هذا صحيح من بعض النواحي ، وهو غايبة فى المنزء على أحسن تقدير ، ولكنى لا أريد أن تكون لى بعد الآن علاقة بالأبرشية ولا للأبرشية علاقة بى .

مستتر فاكس : لا شك فى أنك لا علاقة لك بها الآن ، ولكنك يا صديقى العزيز اذا ما حملت أعباء أسرة ، فان نزعتك الاستقلالية ستفارقك وتحمل محلها الضرورة الملحة ، وإذا ما تصادف أن أصبحت بلا عمل ، وهو ما حدث لكثير من الاشخاص الاشراف الآن ، فماذا أنت فاعل فى ذلك الوقت ؟

العريس : افعل خير ما أستطيع يا سيدى كما هو شأنى على الدوام ، وما من أحد يستطيع أن يفعل خيرا فىنى .

مستتر فاكس : وهل تظن إذن أنك تفعل الآن خير ما تستطيع حين تتزوج والمستقبل أمامك مشكوك فيه ؟ كيف تربي أطفالك ؟

العريس : أربيهم على خشية الله ، لا شك فى هذا .

مستتر فاكس : هذا صحيح بطبيعة الحال ، ولكن كيف تربيهم بحيث يستطيعون كسب عيشهم ؟

العريس : هذا موكول للمستقبل ، ولست أتمسك فى أنهم لن يموتوا جوعا اذا ساروا على سنة أبيهم . ولكنى أفهم الآن حقيقة ذلك الادراك السليم الذى يتولى القيادة . انه يمثل أحد جملة الضرائب وأوراق النقد ، وهو لا يقنع بانزاع الخبز من فم المسكين ، وإرسال ابنائهم الى الجيش والاسطول والى المصانع وما إليها ، بل يريد أن يأخذ منه زوجته فضلا عن هذا كله .

مستتر فاكس : هانت ذا يا صديقى الكريم قد ارتكبت خطأ كبيرا ، سأوضحه لك لخيرك ، ان السبب فى ازغام الأطفال على الالتحاق بالجيش والاسطول أن أولئك الفقراء يلدون أطفالا أكثر مما يستطيعون اعالتهم ، ونتيجة ذلك أن الحكام والفاتحين يجدون كثيرا من الادوات المعدة التى يستخدمونها لظلم بنى الانسان واهلاكهم . والنتيجة التى نستخلصها من هذا هى أنه اذا امنع الناس عن الزواج حتى يتأكدوا من قدرتهم على أن يعولوا ابنائهم وييسروا لهم أسباب الراحة فى بيوتهم .

العريس : بارك الله فيك . هذا كلام جميل للغاية ، ولكن خلاصة هذا الحديث هو أنى لا أستطيع أن أعيش من غير زوكى وأن زوكى لا تستطيع أن تعيش من غيرى . هل تستطيعين يا زوكى ؟

العروس : لا ، بالتأكيد يا زوكى (X) .

ويبدو أن عممية « التريبة » التى توصل الناس الى الوازع الإخلاقى الذى تتطلبه قواعد مالتس الإقتصادية والإخلاقية عملية طويلة بعض الشيء ، ولكنه مع ذلك متفق مع كل المصلحين الآخريين فى عهده تقريبا على أن التعليم العام أمر أساسى لتحقيق أى تحسين جوهرى . فهو يقول ان بعض الناس يعترضون على التعليم على أساس أن الفقراء اذا تعلموا القراءة سينصرفون الى قراءة « توم بين » ، ولكنه من ناحيته متفق مع آدم سميث فى أنهم كلما زادوا تعلموا ابتعدوا عن الكتابات المثيرة .

وهو يذهب الى أنه ليس هناك « حق » يدعم المبدأ الذى يقضى بأن الانسان اذا لم يستطع أن يحصل على قوته بمجهوده الخاص ، أو أن الطفل اذا لم يستطع أن يعيش من مجهود أبويه ، فإن المجتمع ليس عليه أى التزام باعالتهم . فهو يقول :

« ولكن يبدو واضحا ، على أساس من العلم والعمل ، أنه اذا سمح بهذا «الحق» فإنه لا يلبث أن يزيد الى حد لا يمكن الوفاء به ، وأن محاولة تحقيق ذلك عمليا تؤدي بالجنس البشرى الى أشجع أنواع الفقر وأوسمها نطاقا ، ويستتبع بالضرورة أن سلوكنا ، الذى ينكر هذا الحق ، أكثر ملاءمة لحالتنا الراهنة من صيحاتنا الحماسية التى تسمح به .

ان خالق الطبيعة العظيم ، بحكمته التى تبدو فى كل أعماله ، لم يترك هذه النتيجة للتقدير العقلى الجاف للنتائج العامة . فهو اذ يجعل عاطفة حب النفس أقسى من عاطفة حب الخير الى أقصى حد ، قد أرغمنا فوراً على هذا [الاتجاه فى السلوك الذى لا مندوحة عنه للمحافظة على الجنس البشرى . . .

ويؤكد مالتس فى أكثر من موضع ، نازايبا التى تعود على المجتمع من الانانية الفردية ، ولهذا السبب جعلتنا العناية الالهية أنانيين . إلا أن الانانية التى تعود بالحير أنانية من نوع خاص : إنها أنانية فطنة ، مدبرة ، تضسبط نفسها ، ليست مندفعة ولا حمقاء . وقد أنجب مالتس نفسه ثلاثة أطفال فى السنوات الأربعة الأولى بعد زواجه ، ولم يتنجب بعدها . ولنا أن نفترض أن

(X) اورد المؤلف نص الحوار باللغة الرفيعة الدارجة وهو ملء بالمبارقات اللطيفة التى يعتمد عليها تماما فى توضيح وجهة نظره .

ذلك يرجع الى ضبط النفس . أما رأي مسز مالتس في مبدأ السكان فلم يسجل .

ويرجع الى مالتس معظم السبب في أن الراديكاليين الفلسفيين البريطانيين ، على خلاف الراديكاليين في كل البلاد والعصور الأخرى، اهتموا بالحرص ، أكثر من اهتمامهم بأية فضيلة أخرى ، وذلك وضع بارد فيه جفاف وعداء لحياة العاطفة . وهو على نقيض وجدانية العصور الوسطى من كل ناحية . وقد هوجم مالتس بطبيعة الحال مهاجمة عنيفة ، الا أن الهجوم عليه كان كله على أساس عاطفى أو تعصب دينى . فأما الهجوم الدينى فكان مركزه قويا فى الرد عليه ، لأنه هو نفسه رجل دين لا تزقى اليه شبهة فى الالحاد مهما كانت بعيدة . وفى رده على الهجمات القائمة على العاطفة لم يكن يحتاج الى أكثر من لفت النظر الى الحقائق الواضحة القائمة فى إنجلترا وقتئذ . وبدت نظريته أمام معاصريه كأن لا سبيل الى دحضها على أساس من التفكير المنطقى ، وكانت النتيجة أن جميع الذين تتأثر آراؤهم بالحجة اتفقوا معه . ولهذا أثر تأثيرا عميقا فى الأفكار خلال السنين الثمانين الأولى بعد نشر مؤلفه ، ومنذ ذلك الوقت وهو يؤثر فى معدل المواليد ، وإن كان ذلك يحدث بطرق ما كان ليرضى عنها . وأخذ أثره فى الأفكار يضعف بينما زاد تأثيره فى معدل المواليد ، الا أن ثانى الأمرين أكثر أهمية من أولهما . وإذا كانت عظمة الانسان تقاس بمدى تأثيره فى الحياة البشرية ، فقلما نجد من الناس من هم أعظم من مالتس .

وإن الحكم على ما فى مبدأ مالتس من صواب وخطأ أصبح مستطاعا الآن ، وإن لم يكن كذلك فى أيامه . فبريطانيا العظمى قد اضطرت إبان حروب نابليون الى الاعتماد على ما تنتجه هى نفسها من طعام اعتماداً يكاد يكون تاما ، ولهذا انتشرت فيها الفاقة بينما كان السكان يزيدون بسرعة . وبدأ أن قانون الفقراء حافز على الزواج دون تبصر لأنه كان يمنح المعونة بنسبة عدد الأطفال .

وكان الاعتقاد السائد فى ذلك الوقت - الى عهد قريب - أن الزيادة السريعة فى السكان راجعة الى ارتفاع فى معدل المواليد (١) ، ولكن السائد الآن أن هذه الزيادة كان مرجعها الى انخفاض معدل الوفيات . وقد يبدو غريبا أن ينخفض معدل الوفيات فى هذه الفترة العصبية ، ولكن يبدو أن هذه حقيقة لا سبيل الى الشك فيها . وأسباب ذلك كما عددها كلاهما (٢)

(١) كان أول تعداد للسكان فى بريطانيا العظمى (دون أيرلندا) فى سنة ١٨٠١ وكانت الأرقام فى الإحصاءات الأربعة الأولى هى :

١٤٣٩٢٠٠٠ سنة ١٨٢١

١٠٩٤٣٠٠٠ سنة ١٨٠١

١٦٥٣٩٠٠٠ سنة ١٨٣١

١٢٥٩٧٠٠٠ سنة ١٨١١

(٢) « التاريخ الإقتصادى لبريطانيا الحديثة » لكلاهما (١٩٢٦) المجلد الأول ص ٥٥

هي « القضاء على الجدري وانخفاض الاصابة بالحميات نتيجة لادخال نظام المجارى الصحية ، واختفاء مرض الاسهال القوي الذي كان من الامراض المستوطنة ، وتقدم في طب الولادة نسيا عنه انخفاض في وفيات الاطفال والامهات اثناء الوضع ، وانتشار المستشفيات والصيديات والمدارس الطبية » . وكان معدل المواليد في سنة ١٨١١ منخفضاً بعض الشيء عنه في سنة ١٧٩٠ ، ويبدو انه لا قانون الفقراء ولا عمل الاطفال في المصانع قد اثر فيه .

وأيا كانت أسباب زيادة السكان ، فان الزيادة نفسها أصبحت لا جدال فيها بمجرد أن عرفت نتائج التعداد الثاني وهو تعداد سنة ١٨١١ . وجملة القول - أن مالتس كان محقاً بلا جدال في اعتقاده ، اذا صرفنا النظر عن أثر التقدم الفني في الزراعة . ان مساحة محدودة من الارض مثل بريطانيا العظمى ، التي يسكنها فعلا عدد كبير من السكان ، لا تستطيع أن تنتج الغذاء اللازم لعدد أكبر ممن فيها دون أن ينخفض مستوى المعيشة ، وانه اذا استمر عدد السكان في الزيادة فلا بد أن يصل في القريب العاجل الى الحد الذي تصبح فيه أية زيادة جديدة مستحيلة بسبب نقص الغذاء . وهذا رأى لا ينطبق في النهاية على بريطانيا العظمى وحدها ، بل تنطبق كذلك على العالم كله . وفي العالم أجزاء كالصين مثلا تظهر فيها حقا حقيقة ذلك وبصورة محزنة .

لا أنه قد ثبت منذ كتب مالتس مقالته حتى الآن أن العوامل التي تحد من صحة نظريته مهمة الى حد لم يكن متوقعا . فالسكك الحديدية والسفن التجارية قد جعلت من المستطاع « أن تزرع أوروبا غلالها في أمريكا » ، وهو ما كان مالتس يعتقد دعابة . كما ثبت أن التقدم الفني في الزراعة أكثر أهمية مما افترض مالتس أنه مستطاع . وأهم من هذا كله أن الزيادة في رخاء الأجراء قد أدت الى نقص سريع في معدل المواليد بدل أن تؤدي الى زيادة هذا المعدل ، وزاد من سرعة هذا النقص ما حدث بعد الحرب العظمى من انخفاض في مستوى الرخاء مرة أخرى ، ولعل هذا لا يدحض أى شيء قاله مالتس ، ولكنه قضى على أهمية نظريته فيما يتعلق بالاجناس البيض . أما في آسيا فلا تزال لها شأن عظيم .

۲ - بنام

الفصل التاسع

بنجامين

كان الراديكاليون الفلاسفيون يعرفون عادة بالبنتمامين ، وكان معظمهم يعتبرون جيرمي بنسام زعيما لهم ، ولكن من المشكوك فيه مع ذلك أن بنتام كان يحتل هذه المكانة او لا تدخل جيمس مل ٠٠ غير أنه مما لا ريب فيه أن بنتام يعد من أندر الشخصيات في التاريخ . ولعله ، وقد ولد سنة ١٧٤٨ ، كان من المتوقع أن يقترن اسمه بفترة مبكرة عن تلك التي نحن بصدددها . وأيا كان الامر فالواقع أن حياته الطويلة (مات سنة ١٨٣٢) تنقسم الى ثلاث مراحل ، بدأت آخرها وأهمها وهو في سن الشيخوخة ، فهو لم يعتنق مبدأ الديمقراطية في واقع الامر الا بعد أن بلغ الستين .

ولم تكن نشأته مما يرجح أن يصبح في يوم ما مصلحا . فقيده كانت أسرته من اليعاقبة ، ولكنها كانت أحرص من أن تتورط في اضطرابات سنة ١٨١٥ و ١٨٤٥ . وكون جده ثروة من اشتغاله بالاعمال المالية والتجارية ، وكان والده ميسور الحال طوال حياته . وبذل مجهودا كبيرا في تربية ابنه ، التي كانت - كما يبدو - مثلا احتذى في تربيته جون سينيورث مل . ففي سن السابعة أرسل بنتام الى مدرسة وسمتسمتر ، ثم انتقل الى جامعة أكسفورد في الثانية عشرة ، وحصل في الخامسة عشرة على درجة بكالوريوس في الآداب . وكان أبوه ، وهو رجل شديد الميل الى التعاطف ، يرغب في أن يختلط ابنه باللوردات والعظماء في الجامعة ، وكان على استعداد دائم لمده بما يلزمه من مال ينفقه في المقامرة عندما يكون في صحبتهم . ولكن جيرمي كان غلاما حبيبا يفضل الكتب على الهو . وقد فعل ما فعله مالتس ، وان اختلف الاسلوب ، فقلب العلاقة التي تقوم عادة بين الابن والاب رأسا على عقب : كان الوالد يحث ابنه على الههو والمجون ، وكان الابن يصر على الجسد والوقار . والتحق جيرمي بمهنة المحاماة ليرضى أباه ، ولكنه أرضى نفسه بأن كتب في اصلاح القانون بدل أن يمارسه . وأحب فتاة اعترض والده على زواجه منها لانها ليست ثرية ، رغم أنه هو أعضب والده بزواجه زواجا قائما على الحب وكان موفقا فيه كل التوفيق . وتخلي جيرمي عن فتاته مفضلا ذلك على أن يقصر جهوده على السعي لكسب المال ، ولكنه قاسى من جراء ذلك الامرين . ويبدو من خطابات له أخيه ، وكان لا يخفى عنه شيئا ، أنه قد اتخذ في ذلك

الوقت طابع عدم المبالاة الساخرة وقد ظل شيء من هذا الطابع في فلسفته
وان اتخذ صورة المدلفة والنظريات البهتة .

وكان جيرمي في رأى من لم يعرفه الا في الفترات اللاحقة من حياته
رجلا عطوفا غريب الاطوار خجولا الى حد لا يكاد يصدقه العقل لا يخرج أبدا
عن نطاق نظام ترتيب فرضه على نفسه ، واعتقد أننا ننتبين في ذلك الاثر
الباقى في نفسه من خلافة مع أبيه ونبذ السعادة العاطفية (X) .

وقد وصف روبرت أوين ، الذى تعرف ببننام فى سنة ١٨١٣ على الرغم
من نفوره من مقابلة الغرباء فى هذه الفترة ، لقاءهما الاوّل فقال :

« بعد اتصالات مبدئية مع صديقينا المشتركين جميعا جيمس مل وفرانسس
بليس اللذين كانا وقتئذ مسنشاريه الرئيسيين ، وبعد تبادل بعض الرسائل
بينى وبينه ، تقرر أخيرا أن أذهب الى مقر عزلته الذى يشبه صومعة الناسك
فى ساعة معينة ، وأن أصعد الى الطابق العلوى بعد دخولى من الباب مباشرة
ثم نتقابل فى منتصف الدرج . ونفذت هذه التعليمات وفابلنى مضطربا
مرتجفا ثم أخذ بيدي بينما جسمه يضطرب من شدة الاهتياج وقال بسرعة:
(مرحبا ، مرحبا . لقد انتهى الامر . لقد تم لفـاؤنا . تفضل فى
مكتبى ! »

وقابل بننام أوين بعد خمسة عشر عاما من ذلك الوقت ، وقال له وهما
يفترقان : « ليرعك الله ، اذا كان لهذا الكائن وجود ، وهما يكن من ذلك
يا صديقى الصغير اعتن بنفسك » .

وفى سنة ١٨١٤ والسنوات الثلاث التالية كان بننام يقضى نصف وقته فى
منزل قديم يسمى « فورد أبى » (دير المخاضة) فى ديفونشير حيث كانت
الحياة فيه تضى فى سلسلة متصلة من البهجة كما يصفها هو :

« لقد كان مسرح غبطة عظيمة بالنسبة لعدد من الاشخاص لم يكونوا قلة .
ولا تسمع فيه كلمة غضب واحدة . وتدير مسزس «مديرة المنزل» شئون
المنزل كأنها ملك ، وكان الجيران كلهم ودودين ، وان كانوا لا يزارون ، وكانت فيه
موسيقى ورقص ، وان كنت أكره الرقص . وتختلط فيه زمرة من الناس
لهذيين والبسطاء . ويجيء الناس وينهبون . وتأتى جماعات لترقص وعلى
رأسها مسزس » .

غير أنى أخشى أن يكون وصف فرانسس بليس أقرب الى الحقيقة :

(X) فقد اعتاد عادة لا تغير اى زيادة السير حول حديثه قبل الافطار وبعد الافطار ،
وكان يسمى هاتين التزهتين « جولات ما قبل الفطور وبعد العشاء » .

« كل أيامنا متماثلة ، ولذلك فإن وصف أحدها يكفي لوصفها جميعا .
يستيقظ مل بين الخامسة والسادسة ، ثم يراجع أصول كتبه مع جون ، فيقرأ
جون الاصل والوده التجربة . ويكون ويلى وكلارا فى حجرة الاستقبال قبل
السابعة ، فاذا ما انتهت مراجعة التجارب ذهب جون الى الناحية الاخرى من
الغرفة ليعلم أخته . وعندما يتم ذلك ، وبعض الوقت الذى يحدث فيه ،
يدرس جون الهندسة ، ويستمر ذلك حتى الساعة التاسعة عندما يكون
الافطار قد أعد .

ويستيقظ مستر بنتام بعد السابعة بقليل ، وينصرف الى عمله فى الثامنة .
واستيقظ أنا فى السادسة وأنصرف الى عملى ، وفى التاسعة يبدأ الافطار
فى حجرة الطعام ويحضره مسز مل ومل وأنا وجون وكولز .

فاذا ما انتهى الافطار أستمع مل الى ويلى وكلارا ثم جون . وتسمع الدروس
تحت شرفة عريضة يقطعونها جيئة وذهابا من طرف لآخر ، وفى ناحية منها
توجد حجرة الافطار وفى الناحية الاخرى تقوم أوانى الزهور الواحدة فوق
الاخرى حتى تصل الى ارتفاع رأسك ، وهذا المكان فى صدر المنزل « الدير » .
وتلقى كل الدروس والقراءات بصوت مرتفع وتستغرق ثلاث ساعات كاملة ،
حتى الساعة الواحدة تقريبا .

ويستمر مستر بنتام فى العمل من التاسعة حتى الثانية عشرة ، ومن الثانية
عشرة حتى الواحدة يعزف على أرغن فى حجرة الاستقبال .

وأقضى أنا الوقت من بعد الافطار حتى الساعة الواحدة فى تعلم اللاتينية ،
وهذا أيضا يتم بصوت مرتفع أثناء سيرى ، وقد حفظت حتى الآن الاسماء
والصفات . وفى هذه الاثناء يكون جون ، وهو ولد طيب ، قد تلقى درسا فى
اللاتينية على مل ، ودرسا فى الفرنسية على : لقد كان فى ظروف ممتازة
بالنسبة لفلانم ذى نبوغ .

وفى الساعة الواحدة نسير ثلاثتنا فى الدروب والحقول مدة ساعة . وفى
الثانية نعود جميعا الى العمل مرة أخرى حتى موعد العشاء فى الساعة
السادسة ، ونتناول العشاء معا ، أنا ، مسز مل ، ومل ، وبنتام ، وكولز ،
فنتناول الحساء أو السمك أو الاتنين معا واللحم والفطائر ثم الفاكهة عادة ؛ وهى
البطيخ والشليك والزبيب والعنب ، ولا نشرب خمرًا . وقد وضعت زجاجة
خمر على المائدة يوم قدومى ، ولكنى لم أذقها ، فلم تظهر بعد ذلك أبدا . وبعد
العشاء أسير أنا ومل سيرا نشطا مدة ساعتين ، حتى الثامنة والرابع تقريبا ،
وبعد ذلك يسير أحدنا بالتناوب مع مستر بنتام مدة ساعة ، وعندئذ يحضر
الشاى الذى نقرأ خلاله الصحف والمجلات ، ولا تلبث الساعة أن تصبح الحادية
عشرة ، فنأوى جميعا الى الفراش .

وتسير مسرّ مل في أهبة حول الحديقة أمام المنزل حوالي نصف ساعة قبل الافطار ، وتسير مرة أخرى بعد العشاء وفي رفقتها جميع الاولاد حتى موعد النوم .

وكانت العوامل الذهنية التي كيفت عقل بنتام فرنسية في الاغلب الاعم . نعم ان هيوم ترك أثرا في فلسفته ، وان هارنلي ترك أثرا في سيكلوجيته وفقا لبدأ التداعي . كما أن أول مبادئه الاخلاقية وجد ، في كتاب هتشمسون ، « بحث يتعلق بالحير والشر الاخلاقيين » بنفس الالفاظ تقريبا . وفي هذا يقول هتشمسون ان الشر الاخلاقي لعمل ما هو « مثل درجة اليؤس وعداد من يقاسونه ، وعلى هذا يكون خير عمل هو الذي يحقق أكبر قدر من السعادة لأكثر عدد من الناس » . الا أن اتجاهاته الذهنية قد كدنتها الفلسفة الفرنسية التي كانت سائدة في عهد ما قبل الثورة . فكان يعجب بقولنير ، كما كان تابعا متحمسا لهلفسيوس . وقد قرأ هلفسيوس سنة ١٧٩٦ وصمم بعد ذلك مباشرة على أن يكرس حياته لمبادئ التشريع ، وفي هذا يقول : « لقد كان هلفسيوس بالنسبة لعالم الاخلاق ماكانه بيبكون للعالم المادي . واذن (فيبكون) عالم الاخلاق قد وجد ، أما (تيوتن) الاخلاق فلم يأت بعد » ولعلنا لانجانب الصواب اذا افترضنا أن بنتام كان يصبو لان يكون هو نيوتن . عالم الاخلاق .

وعندما قرأ بنتام كتاب بيبكارييا « في الجرائم والعقوبات » كان رأيه فيه اعظم من رأيه في هلفسيوس نفسه . وفي ذلك يقول :

« نك الله يا أسنادي ، يا سيد المبشرين بالعقل ، يا من رفعت بلادك ايطاليا عالية فوق انجلترا ، وكنت أضيف - وفوق فرنسا - لولا أن هلفسيوس ، دون أن يكتب في القانون ، قد ساعدك وأمدك بأرائك الاساسية . انت يامن تتحدث بالمعقول عن القانون عندما كان الناس في فرنسا لا ينطقون الا بلغو الحديث : حديث هو العقل نفسه اذا قورن باللغو الذي كان ينطق به الانجليز ، وأنت يا من جلت جولات نافعة في طريق المنفعة ، ماذا أبقيت لنا أن نفعله ؟ - ان الذي أبقينه هو إلا تعجيد أبدا عن ذلك الطريق » .

وعملت رحلته الى فرنسا في سنة ١٧٧٠ وهو في الثانية والعشرين على تقوية التأثير الفرنسي شى نفسه . والواقع أنه ظل طوال حياته ، ومن عدة نواح ، فيلسوفا فرنسيا من فلاسفة عهد لويس السادس عشر . وكانت الرحلة الاخرى الوحيدة التي أنرت فيه هي زيارته لروسيا سنة ١٧٨٥ .

وكان سبب هذه الرحلة أن أخاه صمويل بنتام (الذي صار فيما بعد القائد سپر صمويل بنتام) قد التحق بخدمة الامبراطورة كاترين ليحاول

(x) ذكرت هذه الفقرة في « ندو الراديكالية الفلسفية » تأليف هالي ص ١٣

(x) « تعليم بنتام » تأليف ايفرات ص ١٥٣

ادخال الاساليب الحديثة على الزراعة في روسيا ، وهي مهمة ثبت أنها كانت عسيرة وقتئذ ، كما هي عسيرة الآن . وكان جيرمي يأمل أن تدخل كاترين في بلادها القانون الجنائي العلمى الذى يضعه : وكتب فى ذلك يقول : « لقد بذلت فى روسيا جهودا لحمل الناس على التفكير بقدر ما بذل فى بلاد أخرى لئلا ينهزموا من التفكير (X) » . غير أنه كان من سوء الحظ أن أخاه ، الذى أصاب نجاحا فى البلاط الروسى ، أراد أن يتزوج إحدى الوصيفات ، ورأت كاترين أن هذا تطاولا منه ، ومن ثم غضبت عليه وغضبت كذلك على جيرمي وقانونه . وكان بنتام كثير الكتابة كل يوم أينما حل ، سواء فى البحر الاسود أو فى منزله أو فى مقره فى كوين سكوير . وكان يعنى بوضع كل ما يكتبه فى عيون حيث تظل معطلة الا اذا قبض لها صديق طيب يخرجها من مكانها . وكانت النتيجة أن ظل بنتام حامل الذكر فى انجلترا فلم تحظ كتاباته القليلة التى نشرها الا باهتمام بسيط . الا أنه قابل فى سنة ١٧٨٨ رجلا من أهالى جنيف ، اسمه ديمون ، أصبح تلميذه المتحمس له ، وحصل منه هذا التلميذ على بعض المخطوطات وترجمها الى اللغة الفرنسية وعمل على نشرها فى نطاق واسع فى القارة الأوروبية . هذا وكان ديمون يعد المساعدة اللازمة لحطاب ميرابو الذى كان مشغولا بفرامياته وبمحاولة التخلص من دائنيه فلم يكن لديه وقت للبحث . وقد نشر ديمون مقتطفات طويلة من كتابات بنتام فى صحيفة ميرابو « كوربيه ده بروفانس » . وكتب بنتام فى سنة ١٧٨٩ الى ميرابو يقول :

« انى لفخور ، كما ينبغي أن أكون ، بما أعربت عنه من نوايا طيبة . وانى لا تطلع بفارغ صبر الى الوقت الذى تتحقق فيه هذه النوايا . والى أن يتم ذلك اسمح لى ، بالاضافة الى الشرف الذى أناله بأن أدعو الكونت دى ميرابو مترجمى والمعقب على كتاباتى ، أن أسمى نفسى مكاتبه » .

وقد بلغ من شهرته فى فرنسا أن الجمعية العمومية انتخبته مواطنا فرنسيا . الا أنه كان ما زال ينتمى الى حزب المحافظين . وسرعان ما عافت نفسه الثورة ، ونسيته الثورة أيضا فى نفس الوقت تقريبا . غير أن صيته استمر فى الذيوع فى غير فرنسا . فكان ابيرانسكى وزير اسكندر المتحرر يعجب به ، وفى سنة ١٨١٤ طلب اليه اسكندر أن يعاونه فى اعداد مجموعة قوانين . وكان موضع التبجيل فى أسبانيا ، وفى جميع أنحاء أمريكا اللاتينية ، وقرر المجلس النيابى فى أسبانيا أن تطبع أعماله على نفقة الحكومة . ويذكر لنا بورو فى كتابه « الكتاب المقدس فى أسبانيا » كيف اعتقل فى ركن قصى من غاليسيا لانه كان يبيع الكتاب المقدس وكيف أن القاضى « أطلق سراحه فوراً لما علم أنه مواطن لبنتام العظيم » . ودعاه آرون بير ، الذى كان قبل ذلك نائبا لرئيس جمهورية الولايات المتحدة ، ليحضر الى المكسيك حيث كان يريد تنصيب نفسه امبراطورا

ويجعل بنتام مشرعا • (ويبدو أن المكسيكيين لم يفكروا قط في هذا المشروع)
وجال بخاطر بنتام أن يذهب الى كاراكاس ليستمتع بجوها وليعد قانونا جنائيا
لفنزويلا • وقصارى القول ان صيته فى البلاد النائية لم يكن له حد • وفى
ذلك يقول هازلت :

« ان مستر بنتام من الاشخاص الذين يشنون صحة المثل المأثور (لا كرامة
لنبي فى بلده) ان صيته قد ذاع حول العالم ، وانعكست أضواء تفكيره ،
وزاد بهاؤها ، على الناحية الأخرى من الكرة الأرضية • ان اسمه قلما يعرف
فى انجلترا ، وهو معروف أكثر فى أوروبا ، ولكن شهرته تبلغ مداها فى
سهول شيبيل ومناجم المكسيك • لقد منح الدنيا الجديدة دساتير ، وشرع
للمستقبل • أما سكان وستمنستر ، التى يعيش فيها ، فقلما يحلمون بهذا
الشخص ، ولكنه هيا للرجل البدائى فى سيبيريا راحة كتلك التى يحسها
عندما يبدد القمر بأشعته الباردة ظلماء حياته فتجمله يقول مع « كاليبان » (انى
أعرفك وأعرف كلبك وأجتمك !) • وربما مد الهندي ذو السحنة السمراء
يده له من وراء المحيط الهادى الكبير • ونعتقد أن الامبراطورة كاترين كانت
تراسله ، ونعلم أن الامبراطور اسكندر زاره وأهداه صورة صغيرة له محفورة
على صندوق سعوط من الذهب أعاده الفيلسوف كما يليق بكرامته الخالدة •
ان مستر هو بهاوس أعظم منه سنا فوق منبر الخطابة ، واللورد رول أكثر
منه أهمية فى أحواض بليموث البحرية ، ولكن مستر بنتام يتقدم الجميع فى
ميدان الشهرة بلا قرين فى باريس أو بيجو • ويرجع ذلك الى أن تأثيره وُلّفنا
تأثير عقلى بحث • فقد كرس حياته لطلب الحقائق المجردة والعامّة والدراسات
التى (تطوف بالفكر من جبال نهر السند الى القطب) • كما أنه لم يتورط
أبدا فى المؤامرات الشخصية أو السياسية الحزبية • حقيقة أنه أعلن ذات
مرة ، أنه « جيرمى بنتام وهو بكامل فواه العقلية يعتقد أن سبب صمويل
ريملى خير من يمثل وستمنستر » الا أن ذلك كان نزوة بنت وقتها • وفيما عدا
ذلك كانت حججه ، ان تكن صادقة ، فهى صادقة فى كل مكان : لقد كانت
تأملاته مما يهم البشرية جمعاء ، وليست مقصورة على جماعة معينة أو هدف
أخلاقى بذاته • لقد بلغت الذروة فى عالم الاخلاق كما بلغت فى العالم
المادى • ان الشيء الصغير يرى خيرا ما يرى عن كنب ، أما الشيء العظيم فلا
يظهر على حقيقته الا من مركز مشرف ، ويزداد على مر الزمن وتساميا
كلما بعدت المسافة ! •

ومقام مسنر بنتام بن الفلاسفة شديد الشبه بمقام لافونتين بين الشعراء •
فهو فى عاداته العامة وفى كل شيء ، سوى ما يتعلق بمهنته ، طفل لا أكثر •
لقد عاش طوال سنيه الاربعين الاخيرة فى منزل فى وستمنستر يطل على
المنتزه ، مثل ناسك فى صومعته ، يخيل القانون نظاما والعقل البشرى آلة •
وكان نادر الخروج من منزله ، لا يجتمع الا بالقليل جدا من الصحب • وكان

القبائل ذوو الحظوة الذين يتجنعون بحق مفايلته لا يسمح لهم بالدخول الا فرادى ، لانه لم يكن يحب شهودا على حديثه ، وكان يتكلم كثيرا ولا يصغى الا للحقائق .

وتورط بنتام فى تلك الاثناء فى المشروع المشؤوم الذى ملاء الفترة الوسطى من حياته مرارة وارتباكاً ماليا . فقد اخترع (أو لعل أخاه فد اخترع) نوعاً جديداً من السجون أسماه « بانوبتيكون » على شكل نجمة بحيث يستطيع السجنان وهو جالس فى وسط السجن أن يرى أبواب كل غرفة ، بل وأكثر من ذلك ، يستطيع السجنان ، عن طريق مرايا توضع بزوايا معينة وستائر فى أوضاع مختلفة ، أن يرى المسجونين دون أن يروه . وكان يعتقد أنه يمكن أن تطبق هذه الفكرة نفسها فى المصانع والمستشفيات والملاجئ والمدارس . واعترض البعض على ذلك باسم الحرية (فيما عدا السجون) . ولكن بنتام كان يؤمن بأن السعادة لا الحرية هى غاية الانسان ، ولم يكن مقتنعاً بأن الحرية ضرورية للسعادة ويقول : « سمعهم ان شئت جنوداً أو سمعهم رهباناً أو سمعهم آلات فإن ذلك لا يهمنى ماداموا سعداء . ان الحروب والعواصف هى خبر ما يقرأ عنه الانسان ، ولكن السلام والهدوء هما خير ما يتحملة » (X) ولا يتبعى أن نفترض أن بنتام كان يفصر جهوده ، فى أى وقت من الأوقات على « البانوبتيكون » ، فقد كان نشاطه دائماً كثيراً متعدد النواحي . فقد اخترع فى سنة ١٨٠٠ مثلاً آلة للتبريد . ولكن « البانوبتيكون » ظل سنين طويلاً أهم ما يشغل باله . وعمل كل ما فى وسعه ليقنع الحكومة البريطانية بإنشاء سجن واحد فى القليل على أساس فكرته . وحصل على شبه وعد بذلك ، فاشترى أرضاً لهذا الغرض ، ولم يلبث أن وجد أن الحكومة عدلت عن رأيها وخسر من جراء ذلك الجزء الأكبر من ثروته . وكان يعزو فشله الى نفوذ جورج الثالث الشخصى ، ومن الناس من يرى ان هذا كان السبب فى تحوله الى المبدأ الجمهورى فيما بعد . ولاقت فكرته نجاحاً فى أماكن أخرى وفى عهد أخرى ، فقد أمر الامبراطور اسكندر ببناء بانوبتيكون فى بطرسبرج ، وشيدت ولاية الينوى واحداً منها فى سنة ١٩٢٠ . ولكن الحكومة البريطانية ظلت على اصرارها . وأخيراً منح بنتام فى سنة ١٨٠٨ مبلغ ٢٠٠٠٠ جنيه تعويضاً عما أنفقه بناء على تشجيع الحكومة .

الا أنه فى سنة ١٨٠٨ كان قد بدأ فعلاً فى المرحلة الثالثة ، وأكثر مراحل حياته أهمية ، وذلك بتحالفه مع جيمس مل .

ولم يدخل بنتام أى تغيير على فلسفته العامة عندما أصبح راديكالياً ، فقد بقيت كما كانت أيام صباه لم يحدث فيها قط تغيير . ولم يكن فيلسوفاً عميقاً ولكنه كان واضحاً ومنطقياً وواقفاً كل الثقة من أنه على حق . وكان لفلسفته أساسان ، أحدهما نفسانى والاخرى أخلاقى . وقد دونهما بايجاز فى مذكرة كتبها لاستعماله الخاص .

« مبدأ التداعى » ، هارتلى : الصلة التى تربط بين الافكار واللفظة ، وبين الافكار والافكار .
« مبدأ السمادة الكبرى » ، بريستل ، طبعة بنتام على كل فرع من فروع الاخلاق بتفصيل :
وقد سار قبله هلفسيوس بعض هذا الطريق نفسه »

ولا بد لنا أن نقول شيئا عن كل من هذين المبدأين .

ان « مبدأ التداعى » الذى يعزوه بنتام الى هارتلى هو : « تداعى الافكار » المعروف ، وهو الذى يجعلنى أقول مثلا « أمل أن تكون مسز لويس بخير » عندما أتحدث مع مستر أبتون سنكلير . وأحيانا تكون نتائج هذا المبدأ خيرا من ذلك ، كما يحدث عندما يذكرنى منظر الشواء بالبيرة . والتداعى كما يعرف الجميع وسيلة من وسائل القبض على المجرمين . فإذا فرضنا مثلا أنك تستجوب رجلا يشتبه فى أنه قطع رقبة زوجته بسكين ، فتقول أنت كلمة ويرد هو بأول كلمة تخطر بباله . فتقول « قطة » ويقول هو « كلب » ، وتقول « سياسى » فيقول « لص » ، وتقول « سبكين » فيجد نفسه مايدفعه لان يقول « رقبة » . ولكنه يعلم أنه خير له ألا يقولها ، فيتردد قليلا ثم يقول « شوكة » ، ويدل الوقت الذى يمضى على مقاومته .

والامر حتى هذه النقطة عادى . ولكن من الناس من يعتقدون أنه يمكن تفسير جميع العمليات العقلية بالتداعى ، وأن علم النفس يمكن أن يصير علما كالعلوم الطبيعية والرياضية على أساس هذا المبدأ وحده . وقد أخذ بنتام هذا المبدأ عن هارتلى . وقبل هارتلى كان هيوم ، وهو رجل أعظم من كل خلفائه من الفرنسيين أو البريطانيين ، قد فعل كل مابدأ له ممكنا فى نفس الاتجاه . فقد فكر هيوم فى كل الاشياء التى فكر فيها أتباعه وبين السبب الذى يدعو الى تصديقها واعتبارها صادقه ، ثم أخذ يوضح أنها مع هذا ليست صادقة كل الصدق . وأغضب ذلك أتباعه الذين أرادوا أن يستخرجوا من البشك مذهبا يقينا ، وهم ثم كانوا دائما يقدرون هيوم أقل مما يستحق ولم يكن ماابتكره هارتلى هو مبدأ التداعى ولكن الذى ابتكره هو التوسع فيه ، فوق مايجب ، ليعم كل الظواهر العقلية .

ومما تجدر ملاحظته فى هذا الموضوع أن الوضع الذى فيه علم النفس لم يتغير منذ بنتام حتى الآن الا ما طرأ من تبديل على المصطلحات . فبدلا من مبدأ « التداعى » نتحدث الآن عن « الفعل العكسى المشروط » ، وصرنا نرى ان أثر التجربة ينصب على عضلات ، وغدد ، وأعصاب ، ومخ ، لاعلى أفكارنا . وقد أثبت بافلوف أن المبدأ يستطيع أن يفعل الشيء الكثير ، وأكد واطسون أنه يستطيع أن يفعل كل شيء . ولكن من حقنا أن نرى أن نظريته ناقصة لم تكمل حتى يوضح لنا لماذا لا يعطس الانسان عندما نذكر له كلمة « فلفل »

وهناك خلاف واحد مهم بين مذهب التداعى والمذهب السلوكى . فالاخير

ينصب أساسا على ما يفعله الجسم ، بينما كان الاول ينصب على نشاط العقل .
وكان أنصار التداعي يميلون الى انكار وجود المادة ، ولكنهم لم ينكروا العقل .
نعم ان الشاعر قال :

« ان استيوات ميل لم يذر عقلا ولا مادة

بل اعمل فيها جميعا هدمًا وتدميرا بلا رحمة ولا شفقة » .

ولكنه كان أكثر ترفقا بالعقل منه بالمادة : أما السلوكيون فهم على النقيض
من ذلك : أنهم يؤمنون بالمادة ولكنهم يرون أن فكرة العقل فرض لا لزوم له .

ولا شك أنه قد حدث تقدم علمي ملحوظ بقدر الفرق بين قانوني الفعل
العكسي المشروط وتداعي المعاني . فالقانون الجديد يشمل كل ما كان يشمل
القانون القديم كما يشمل أشياء أخرى كثيرة غيره . وما من أحد يجادل في أن
القانون القديم كان صحيحا في ميدان بعينه وأن القانون الجديد صحيح في
ميدان أكثر اتساعا يشمل فيما يشمل ميدان القانون القديم . وليس موضوع
الجدل بحق هو صحة أي من القانونين بل مداه : فيذهب البعض الى أن جميع
الظواهر العقلية تنطوي تحت نطاقه ، بينما يذهب آخرون الى أن بعض أنواع
النشاط العقلي تخضع لقوانين أخرى . ولا يزال هذا الجدل الآن في جوهره
كما كان منذ مائة وثلاثين سنة .

وقانونا التداعي والسلوكية ينتهيان الى نفس النتائج من ناحية ذات شأن
عظيم . فكلاهما يسلم « بنظرية الحتمية » ، أي أنهما يذهبان الى أن ما تفعله
يخضع لقوانين يمكن التثبت منها - الى حد كبير على الاقل - بحيث أن تصرفاتنا
في ظروف معينة يمكن أن يتنبأ بها عالم نفساني خبير . وعلى ذلك فلنا أن
نفترض أن بنتام كان يقول لنفسه : « ان المجرم نتاج للظروف ، واذا كانت
ظروف معينة جعلته شريرا فلا بد أن تكون هناك ظروف أخرى يمكن أن تجعله
صالحا . ومن ثم ليس علينا الا أن نخترع النوع الصحيح من السجن وهو
كفيل بأن يحول اللصوص من تلقاء نفسه الى رجال شرفاء » . وعلى هذا النحو
يعتقد السلوكيون أن مشكلة تنشئة أطفال صالحين ليست سوى مشكلة ايجاد
الافعال العكسية المشروطة الصحيحة . ففي تجارب المعمل ، اذا فعل الكلب
ماتريده أعطيته طعاما ، واذا فعل عكس ماتريده سلطت عليه تيارا كهربائيا .
وهم يؤكدون لنا أنه اذا طبقت هذه الطريقة نفسها على الاطفال فسنعلمهم
نماذج لحسن الخلق . ولكنني لم أجد أن مستر وكفورد اسكويز ينال ما يستحق
من الفضل نظير هذا الكشف .

وكان « مبدأ السب-عادة الكبرى » أكثر مبادئ المدرسة البنتمية شهرة .
وهذا المبدأ يقول ان الاعمال تكون خيرا عندما تؤدي الى أكبر قدر من
السعادة لأكبر عدد من الناس ، وتكون شرا اذا لم تؤد الى ذلك ، ولست أدري

لماذا يعزو بننام هذا المبدأ الى بريستلي في الفقرة التي نقلناها عنه قبل . فقد ذكر هذا المبدأ ، كما رأينا ، بنفس الفاظ بننام تقريبا في كتابات هتشمسون قبل ذلك بوقت طويل . كما أن معظم الفلاسفة الانجليز والفرنسيين قبلوه في صورة ما . وبريستلي كما يعرف كل انسان كيميائي راديكالي من أنصار شبيعة التوحيد في الدين المسيحي . وقد وضع في علم اللاهوت نظاما يسند الى العقل الى حد كبير ، ويمكن القول بأنه هو الذي كشف الاكسجين ، وانتصر لثورة الفرنسية حتى في أحلك أيامها ، ومن أجل ذلك هاجم غوغاء برمنجهام منزلة ودمروه وكان هو حكيما فهرب الى أمريكا . والخلاصة أنه كان مواطننا خليقا بأكبر قسط من الثناء ، ولكن ليس هناك من سبب خاص يجعله صاحب الفضل في ابتكار مبدأ السعادة الكبرى .

وكان هناك شيء من التناقض بين آراء بننام الاخلاقية وآرائه في علم النفس ، فبينما العمل الطيب هو الذي يؤدي الى السعادة العامة ، نرى أخذا بأفوال بننام ، ان من القوانين السيكولوجية أن كل انسان ينشد تحقيق سعادته الشخصية . واذ كان هذا عملا لايسع للناس الا أن يزاولوه فان لومهم على فعله لن يكون سوى مجهود ضائع ، على أن من واجب المشرع مع ذلك أن ينظم الامور بحيث تتحقق سعادة كل فرد عن طريق أعمال تؤدي الى المصالح العام . وهذا هو المبدأ الذي يستوحيه بننام في كل أعماله التشريعية .

ومع ذلك فهناك ، كما يقول ، عدة أسباب تجعل هذا التوحيد المصطنع بين المصلحة الشخصية والمصلحة العامة أمرا لا تمس الحاجة اليه كثيرا كما يمكن أن نفترض . فهناك كما أشار كتاب سابقون كثيرون « التعاطف » الذي يجعل مرأى شخص يتألم يثير في النفس الالم . بل والى جانب ذلك فاننا سنجد (كما قال كل الاقنصادين في ذلك العصر) بوجه عام أن خير ما يفعله الانسان ليحقق المصلحة العامة هو أن يسعى الى تحقيق مصنحته هو .

وقد نشأ هذا المذهب ، الذي استمد منه المبرر النظري لمبدأ عدم التدخل وغيره من العقائد المتزنة السليمة ، من دعاية خيال «Jeu d'esprit» وتفصيل ذلك أن ماندفيل ، وضع في كتابه « حكايات النمل » الذي ظهر عام ١٧٢٣ ، بأسلوب ليس فيه الكثير من الجد ، مذهب « الرذائل الخاصة » والمصالح العسامة » ، وقد ذهب فيه الى أننا انما نعمل على تحقيق الخير للمجتمع عن طريق أنانيتنا . وأخذ الاقنصاديون والاخلاقون بهذه النظرية وان قائلوا ان ماندفيل ما كان يجب أن يتحدث عن « الرذائل الخاصة » لأن الانانية لايعدها رذيلة الا الذين عجزوا عن فهم المبادئ الحفيقة التي يقوم عليها علم النفس . ومن ثم أخذ جميع الداعين الى مبدأ عدم التدخل بمذهب التوافق الطبيعي بين المصالح ، لا على أنه حقيقة مطلقة ، بل على أنه مبدأ عام في حدود واسعة النطاق . وسنرى فيما بعد كيف وجه ريكاردو ، عن غير قصد ، ضربة قاضية الى هذا المذهب ووضع الاسس للمذهب المضاد منه « صراع انطبقات » .

وبعد فقد كانت المبادئ الاخلاقية التي بنيت على مبدأ السعادة الكبرى ، الذي عرف فيما بعد بمذهب النفعية ، مناقضة بعض الشيء لتعاليم الاخلاقية السليمة اذا نظرنا اليها نظرة جدية . نعم ان بعض النابهن من رجال الدين ، مثل الاسقف بتلر ، قد اعتنقوا هذا المذهب وأنه ظل لا يلقي معارضة الى أن أصبح شعار الراديكاليين . الا أن كل نظرية تحكم على التصرف من الناحية الحلقية عن طريق النتائج التي تؤدي اليها ، لا يمكن أن تتفق ، الا بمحض الصدفة السعيدة ، مع النظرة التي جرى بها العرف ، والتي تعتبر أنواعا معينة من التصرفات آتمة بصرف النظر عن نتائجها . ولا جدال في أن القاعدة التي تقول « لا تسرق » قاعدة سليمة تماما بصفة عامة ، الا أن من السهل أن يتصور المرء ظروفا تكون فيها السرقة سبيلا لتحقيق السعادة العامة ، ففي نظام بسوده مبدأ النفعية تكون كل القواعد الاخلاقية العادية معرضة للاستثناءات . لقد كان بننام حر التفكير في الدين ، وكذلك كان كبار أتباعه ، ومن ثم كان طبيعيا أن يتهموا بالدعوة الى تعاليم منافية للأخلاق . والحق أن هذا الاتهام كان في الواقع أقل بكثير مما كان منتظرا ، ويرجع بعض السبب في ذلك الى أن زعماء هذه المدرسة كانوا حريصين في شرح مذهبهم ، وبعضه الى أن حياتهم الخاصة كانت نقية لا تشوبها شائبة الى حد منقطع النظر . وعلى الرغم من أن تعاليمهم كانت في أساسها تعاليم هدامة ، فان الناس ظلوا ينظرون اليهم بصفة عامة نظرة احترام وتبجيل .

ولم يفرق بننام بين اللذة والسعادة ، ورفض باصرار أن يضيف شيئا من السمو على ما يسمى باللذات العليا . وفي ذلك يقول هو نفسه : « اذا تساوت اللذة من ناحية الكم فلا فرق بين دق المسامير والشعر » . ومع ذلك فان مذهبه كاد يكون هو النسك بعينه من الناحية العملية . فقد كان يذهب الى أن اسمى اللذات هي الرضا عن النفس . واذا كان الناس يميلون الى تقدير اللذات الحاضرة أكثر من اللذات المستقبلية ، فان الرجل العاقل هو من يتصرف بالفطنة يضبط النفس . وكان هو وأتباعه ينشدون السعادة بصفة عامة في العمل اثناق وانكار اللذات الحسية انكارا يكاد يكون تاما . وما من شك في أن هذا كان هو مزاجهم الطبيعي ، ولا يمكن تفسيره على أنه نتيجة مستخلصة من مذهبهم ، الا أن النتيجة هي أنهم كانوا في أخلاقهم لا يقلون صرامة عن معارضيههم المستمسكين بمبادئهم .

۳ - جيمس مل

الفصل العاشر

جيمس مل

كان جيمس مل صاحب اليد الطولى فيما أصبح لبنتام من قوة فى السياسة الانجليزية . وقد تركت شخصية هذا الاسكتلندى الصلب أثرها الكبير فى طابع الراديكالية البريطانية . ولد جيمس ميل سنة ١٧٧٣ أى بعد خمسة وعشرين عاما من ميلاد بنتام ، وكان والده تاجرا صغيرا ، وتولى الانفاق على تعليمه راع من النبلاء هو سير جون ستيوارت الذى أدهشته قدرة الصبى . وكان الهدف أن يصبح رجل دين ، ولكنه ما انتهى من دراسته حتى كان قد فقد إيمانه بالدين المسيحى . وذهب الى لندن عام ١٨٠٢ ، ولا بد أنه لم يكن وقتئذ من الراديكاليين لانه اشترك فى تحرير صحيفة ضد المعاقبة . وعاش مل عن طريق الصحافة وكان يقضى أوقات فراغه فى تعليم ابنه وتأليف كتاب فى تاريخ الهند . وقد بدأ الكتاب فى سنة ١٨٠٦ ونشره فى سنة ١٨١٨ ، وكان نشر هذا الكتاب سببا فى أن شركة الهند الشرقية ألحقته بخدمتها حيث ظل بغيره حياته . وكان يعتمد فى معاشه من سنة ١٨٠٨ الى سنة ١٨١٨ على كرم بنتام الى حد كبير . فقد كان فى حديقة منزل بنتام فى كوين سكوير منزل صغير كان يملكه ميلتون ، وأعار بنتام هذا المنزل لجيمس مل بعض الوقت ، ولكن بنتام استأجر بعد ذلك منزلا آخرا قريبا من منزله ليعطيه لمل بنصف الاجاز الذى يدفعه . وفى الصيف كان مل يذهب مع بنتام عادة اذا غادر هذا لندن .

وكان مل قد أصبح راديكاليا قبل أن يقابل بنتام ، أما فى علم النفس فكان من أنباع هارتلى ، وفى الاقتصاد كان يعتقد نظريات مالتس ، كما كان صديقا حميما لريكاردو ، وفى السياسة كان ديموقراطيا متطرفا ومن المؤيدين النظريين لمبدأ عدم التدخل . ولم يكن جيمس مل مفكرا أصيلا ، ولكنه كان واضحا فى تفكيره قويا فيه ، كما كان يتمتع بذلك الايمان الذى لا يقبل مناقشة والذى يتجلى به الحوارى المطبوع ، مع ما يتوفر فى الحوارى من ازدراء كامل للأذهاب التى تتعارض مع مذهب رائده . وقد كتب مرة بعد محاولة قصيرة لقراءة نظريات الفيلسوف كانت : « انى أرى بوضوح كامل ما الذى يهدف اليه كانت المسكين » ، وكان يعجب اعجابا شديدا بهافسبيوس كمثل من هم على شاكلته ، وأخذ عنه مذهبه المعروف عن « قدرة التربة على كل شىء » . وكان ابنه الاكبر جون ستيوارت ، الذى ولد فى العام الذى بدأ فيه كتابه عن تاريخ الهند ،

مادة ملائمة لتطبيق نظريات هلفسيوس والتدليل على صحتها . وتنبئنا سيرة جون استيوارت الذاتية ، وهى كتاب من أمتع ما كتب ، بنتيجة هذا ، كما تكشف لنا عرضا عن شخصية والده جيمس مل .

وما من شك فى أن جلد جيمس مل على العمل كان عجيبا . فقد كان يقضى يومه كله جالسا الى مكتبه يؤلف كتابه فى تاريخ الهند ، بينما يجلس ابنه جون فى نفس الغرفة يستذكر دروسه مع حقه فى أن يطلب ايضا حركات كلما دعت الحاجة . وقد تولى والد جون تعليمه ، وهو يذكر لنا أنه بدأ اليونانية فى الثالثة من عمره « أحفظ عن ظهر قلب ما كان والدى يسميه (المنطوقات) وهى قوائم من الالفاظ اليونانية الشائعة ومعانيها الانجليزية ، كان يكتبها لى أبى على بطاقات » . ولم يبدأ اللاتينية حتى بلغ السابعة . وقد قرأ فى نفس السنة سستا من محاورات أفلاطون ، الا أنه لم يحسن فهم « ثياتيتوس » وبدأ يتعلم الحساب فى نفس الوقت ، وكذلك قادرا لا يتصواه العقل من التاريخ ، ويقول فى هذا : « وعندما وصلت الى الحرب الامريكية أخذت الجانب المخطئ كما يفعل الاطفال أمثالى (حتى ردتنى أبى الى الصواب) وكان السبب فى ذلك أن الجانب المخطئ كان يسمى الجانب الانجليزى » . أما فيما يتعلق بالتسلية فقد كان لديه كتب مثل « رحلات نسون » : « ولم يكن لدى شىء يذكر من كتب الاطفال - أو من أدوات اللعب - الا ما كان يصلنى من هدايا بين الغينة والغينة من أحد الاقارب أو المعارف . وكان كتاب « روبنسن كروزو » من أهم هذه الكتب وظلت قراءته متعة لى طوال حدائتى . ومع ذلك لم يكن استبعاد كتب التسلية جزءا من برنامج والدى على الرغم من أنه لم يكن يسمح بها الا بقدر ضئيل جدا .

وبعد النامنة صار من واجب جون ، الى جانب الدراسة ، أن يعلم اخوته واخواته الصغار وكانوا كثيرين . وقد شغلت دراسة الالباذة والأوديسة ومسرحيات اسخيلوس وسوفوكليس ويوريديس وكل المؤلفين اللاتينيين الكبار وقدر كبير من التاريخ ودراسة مفصلة لنظام الحكم الرومانى ، والقيام بواجبه فى تعليم أفراد الاسرة الصغار معظم وقته ، فلم يجد متسعا من الوقت لدراسة الشىء الكثير ! وبيدوانه لم يتفر شيئا غير هذه قبل سن الثانية عشرة سوى الجبر والهندسة وحساب التفاصيل وأفرع أخرى مختلفة من الرياضيات العليا !!

وليس من حقنا أن نفترض أن جون لم تكن له فى الحياة متع ومسرات . فهو يقول : « كانت العلوم التجريبية من أكبر دواعى تسليتى خلال هذه الفترة من طفولتى ، من الناحية النظرية لا العملية ، فلم أكن أجرى التجارب ، الأمر الذى أسفت كثيرا لاني لم أفعله ، بل ولم أكن أشهد هذه التجارب ، ولكنى كنت أقرأ عنها » .

وبدا جون في دراسة المنطق عندما بلغ الثانية عشرة ، فقد قرأ كل ما كتبه ارستطاليس عن هذا الموضوع وكذلك ما كتبه بعض المدرسين وهو بز . وكان يقضى أوقات نزهته مع والده يسيران في طريق باجشوت هيث وهو يستمع الى والده يلقيه أنه ينبغي ألا يعتقد أن المنطق القياسى شىء سخيف ، ويعلمه كيف يبسط الحجج ويضعها في الصورة القياسية الصحيحة .

وكان قد أشرف على نهاية الثالثة عشرة من عمره عندما التحق والده بخدمة شركة الهند الشرقية ، الا أن تعليمه استمر كما كان ، وقد علمه والده في هذه السنة بالذات كل الاقتصاد السياسى .

وعندما بلغ الصبى الرابعة عشرة رأى أنه قد بلغ المرحلة التى يجب عندها أن يرى شيئاً من العالم ، وأرسل في رحلة الى خارج انجلترا مدتها عام . وقد زوده والده عندما غادر منزل الاسرة ببعض النصائح القيمة مثلما فعل بولونيوس في مناسبة كهذه ، ولم تدون هذه النصائح بالفاظها ، ولكن يبدو أنها كانت بوجه عام على النحو التالى :

« يا جون - لقد ظللت حتى هذه اللحظة أحرص على أن أخفى عنك الى أى حد تمتاز مقدرتك الفكرية وما حصلته في دراستك عن مثيلاتها عند معظم الاولاد الذين فى سنك . وذلك لعلمى أن مغالاة الانسان في تقدير كفاياته من أكبر العيوب . أما الآن وأنت بسبيل قضاء عام في رحلة خارج البلاد ، وهو ما قررت أنه سيكون سعياً وراء مصلحتك ، فانك لا بد مدرك هذه الحقيقة عن طريق غيرى اذا لم أخبرك أنا بها ، بل لعل بعض الناس يجاملك دون تفكير ويوحى الى عقلك بالاعتقاد الخاطيء بأنك تتمتع بمواهب غير عادية . والواقع أن أية معرفة لديك تزيد على ما يعرفه غيرك لا يمكن أن تمرى الى أية ميزة خاصة لديك ، بل الى حسن حظك النادر فى أن لك أبا قادرا على تعليمك ومستعدا لأن يبذل الجهد ويوفر الوقت اللازمين لذلك . واذا كنت تعرف أكثر مما يعرفه الصبية الاقل منك حظا ، فليس هذا مما يدعو الى الفخر ، ولو أن هذا لم يكن شأنك لكان عارا عليك » .

وكان جيمس مل من أعداء المسيحية المتحمسين ، وكان يقول ان الاله كما يصفه الدين ، ان كان موجودا ، كان كائنا قاسيا لا حد لقسوته . ومع ذلك يبدو أنه فى علاقته بابنه لم يستطع التخلي عن بعض الصفات الالهية التى كان يستنكرها . فقد كان جون حين ينتقد والده ، على كره منه ، يقول انه لم يظهر كثيرا من العطف على أطفاله ، ولكنه يبادر فيضيف انه يعتقد أن والده كان « يحس » نحوهم بحنان ولكنه يخفيه بسبب تحفظه واستهجانته اظهار العواطف ، غير أن القارىء لا يسمعه الا أن يرتاب فى هذا القول . ويعترف جون بأنه لم يكن يشعر بالحب نحو أبيه لأن « الخوف منه كان يقضى على الحب فى منابته » . ويضيف أن هذا لا بد كان سببا فى حزن والده ، وأن اخوته

البصغار الذين أشرف جون على تربيتهم دون والده ، كانوا يحبون أباهم من صميم قلوبهم ، وانه ليساورنى الشك فى ذلك أيضا .

وكان جون يجد خلال سنى حياته التالية ، أسبابا تجعله يختلف دائما مع أبيه ، إلا أنه كان يتردد فى اتخاذ خطوة تجعل الخلاف يصبح أمرا واقعا . ويبدو شبح أبيه فى كتاباته يحذره كلما راوده اغراء بالاحساس العاطفى وكأنه يقول له : « .. اياك والضعف » . لقد كان جيمس مل رجلا صالحا ، كان يعمل كثيرا وقد كرس نفسه لتحقيق الاغراض العامة . إلا انه ماكان يجب أن يترك مطلق السراح بين أطفال .

وان وصف جون لنظرة والده فى الحياة لممتعة ، خاصة وأن جيمس مل يمثل المدرسة البنتمية من هذه الناحية أكثر من أى فرد آخر :

« كان فى نظرتة للحياة مزيجا من نظرة الرواقى والابيقورى والكلى ، لا بلعنى الحديث للكلمة ولكن بمعناها القديم . وكانت الرواقية تغلب على صفاته الشخصية ، أما فى مقياسه للاخلاق فكان أبيقوريا بقدر ماكان فى هذا المقياس من نزعة نفعية ، فقد كان يرى أن الفيصل الوحيد بين الخطأ والصواب اتجاه الفعل نحو انتاج اللذة أو الالم . إلا أنه قلما كان يؤمن (وهذا هو العنصر الكلى من شخصيته) باللذة ، أو أن ذلك كان على الاقل فى أخريات أيامه ، وهى الفترة الوحيدة التى أستطيع التحدث عنها بثقة من هذه الناحية . ولم يكن احساسه باللذة معدوما ، ولكنه كان يعتقد أن القليل من ملذات الحياة هو الذى يستأهل الثمن الذى لابد أن يدفع فيها ، فى الحالة الراهنة للمجتمع على الاقل . وهو يعزو الجزء الأكبر من الفشل فى الحياة الى التفاؤل فى تقدير اللذة . ومن ثم كان الاعتدال ، بأوسع معانيه عند الفلاسفة اليونانيين - وهو الاعتدال الذى يقف عند حد التوسط فى جميع ألوان مجازاة النفس - كان هذا الاعتدال بالنسبة له ، كما كان بالنسبة لهم ، الدعامة الاساسية التى تقوم عليها التربية ، أو يكاد يكون ذلك . وان قدرا كبيرا من ذكريات طفولتى لتشفغله محاولاته أن يلقننى هذه الفضيلة . وكان يعتقد أن الحياة البشرية فى أحسن حالاتها من أتفه الأشياء بعد أن تولى نضرة الشباب وينتهى الظما للمعرفة الذى لا يطفأ غليله . ولم يكن كثير الحديث عن هذا الموضوع وخاصة فى حضرة صغار السن كما يمكن أن نصور . فاذا ما تحدث عنه كان حديث الشخص الواثق المقتنع أشد الاقتناع . وكان يقول أحيانا أنه اذا أخذت الحياة الصورة التى يمكن أن تكونها عن طريق الحكم الصالح والتعليم انصحیح كانت جديرة بأن يحيها الانسان . ولم يغير رأيه البتة فى أن المتع الفكرية تسمو على كل المتع الأخرى ، حتى باعتبارها مسرات فى ذاتها بصرف النظر عن الفوائد الأخرى التى تحققها . وكان يضع لذة التعاطف الخير فى رأس القائمة ، كما كان يقول أنه لم يعرف فى حياته رجلا مسنا سعيدا الا

ذلك الذى استطاع أن يعيش ثانية فى مسرات الشباب • وكان يبدى أكبر ازدهاره نحو العواطف المناجحة أيا كان نوعها ونحو كل ما قيل أو كتب فى الإشادة بها • فقد كان يعتبرها ضربا من الجنون ، وكانت عبارة « العاطفة المشبوبة » عنده صيغة أخرى للتعبير عن الاستهجان والاستخفاف • ويرى أن الاهتمام الكثير بالعواطف انحراف فى القيم الاخلاقية فى العصر الحديث اذا قورن بالعصور القديمة •

لقد كان الاقتناع الفكرى بأن اللذة هى الخير الاوحد ، مع عدم القدرة على ممارستها من الناحية المزاجية ، هو الصفة المميزة لاصحاب مذهب النفعية • وكان فقرهم العاطفى ميزة لهم فيما يتعلق بحساب اللذة والالم • فقد كانوا يميلون الى الاعتقاد بأن اللذة يمكن أن تقاس برصيد الانسان فى المصرف كما يقاس الالم بالفراغات التى يدفعها المرء أو المدد التى يقضيها فى السجن ، وأن الاخلاص الرواقى المبرأ من الانانية للمذهب القائل بأن كل انسان انما يسمى لتحقيق لذته أمر غريب متناقض من الناحية السيكلوجية • وكان لينين وأكثر أتباعه اخلاصا يتصفون بشيء لا يختلف عن هذا كثيرا • فيبدو أن لينين كان يعتقد أن الخير هو وفرة العروض المادية للجميع ، وكان يستخف كثيرا بالدعوة الى « الاينار » ويؤمن ايمانا راسخا - لا يقل عن ايمان البنتميين - بأن المصلحة الاقتصادية الشخصية هى التى تتحكم فى نشاط الناس الاقتصادى • وقد تحمل فى سبيل هذا المبدأ الاضطهاد والنفي والفقر • وعندما علا نجمه وصار على رأس دولة كبيرة عاش عيشة آسبارطية متقشفة بسيطة ، ودفعه حبه الشديد للرفاهية المادية الى اغراق بلاده فى فقر مدقع سنين طويلة • ان البنتميين لم يطلب اليهم مثل هذا العمل البطولى ، ولكن عقلياتهم كانت قريبة الشبه من ذلك الى حد كبير •

وكان جيمس مل ديموقراطيا ، ولم يكن ذلك لانه كان يحس بأنه مهان معتدى عليه (ومنذا الذى يجروا أن يعتدى على رجل مثله) ؛ ولا لدافع من تعاطف كريم ، وهو الذى لم تنعم عليه الطبيعة بقدر كبير منه • بل كان ديموقراطيا ، بقدر ما نستطيع أن نحكم عليه ، عن طريق التطبيق العقلى لحساب اللذة • فاذا كان لديك شلن وأردت أن توزعه على اثني عشر طفلا فانك تحقق أكبر قدر من السعادة - اذا تساوت الظروف - بأن تعطى كلا منهم بنسا • واذا أعطيت الشلن لاحدهم ولم تعطى الباقيين شيئا فان الاول سيصاب بانتخمة من كثرة الحاوى التى سيأكلها ، ويعصف الغضب بالاحد عشر طفلا الآخرين بسبب الغيرة • ويعتبر ذلك ، الى الحد الذى يذهب اليه ، حجة الى جانب الشيوعية ، الا أن الشيوعية كانت موضع اعتراض شديد من جميع البنتميين لانهم كانوا يعتبرون المنافسة دافعا لا بد منه للنشاط • ولم يكن هناك حجة مماثلة لهذه يمكن تطبيقها على توزيع السلطة السياسية • إذ أن الانانية التى تتحكم تصرفات جميع الناس لتجعل من غير المستطاع أن يعهد الى شخص ما رعاية مصالح شخص آخر بحيث يكون صاحبها آمنا عليها ، وعلى هذا الاساس

فإن أية طبقة تحرم من السلطة السياسية لابد أن تتعرض للظلم . يضاف الى هذا أنه اذا كانت المنافسة حافزا للنشاط النافع فيجب أن يتعرض لها الجميع وأن تلغى الامتيازات غير العادلة . هذه وأمثالها هي الحجج التي يستطيع بنتام أن يفهمها . وهذه هي الاسباب ، بالاضافة الى فشل مشروع « ألبانوبتيكون » ، التي جعلته يهجر حزب المحافظين ويصبح ديموقراطيا .

وكان أصحاب مذهب النفعية رجالا يعتمدون في أحكامهم على العقل وحده الى حد غير عادي ، وكانوا يؤمنون ايمانا راسخا بأن غالبية الجنس البشري يعقلون . وفي ذلك يقول مل : « ان كل شخص لديه عقل متعود على أن يزن البراهين ويدع أرجحها يقوده ويحدد أحكامه . وعندما تعرض عليه المسائل مع براهينها بنفس العناية والمهارة ، فإنه مما لا ريب فيه - على الرغم من أن قلبه قد تخطيء الحكم - أن تصدر الغالبية حكما صحيحا ، وأن أقوى البراهين - أينما وجدت - سبتترك أبلغ الأثر » . ان في هذا الاعتراف بالايان براءة سعيدة ، وهو ينتمى الى عصر ما قبل فرويد ، وقبل نمو فن الدعاية . ومن الغريب حقا أن الاحداث التي جرت في عهد مل قد بررت ثقته . فان البنتمانيين ، وهم رجال علم ومؤلفو كتب صعبة ، لم يكونوا يهدفون الا الى مخاطبة عقول الناس ، ومع ذلك فقد أصابوا نجاحا ، وقد ظلت السياسة البريطانية حتى سنة ١٨٧٤ تسير في كل المسائل المهمة على نفس الاسس التي كانوا يدعون اليها . ولم يدهش أحد في العصر الفكتوري لهذا الانتصار الذي حققه العقل . ولكنه يبدو في عصرنا المجنون خرافة من خرافات أحد العصور الذهبية .

وما كاد بنتام يقتنع بحجج الديموقراطية حتى أصبح ديموقراطيا أكثر من أي من أتباع مدرسته . فكان يرى أن الملكية ومجلس اللوردات نظامين غير مرغوب فيهما ، وان لم يجد من يجروا على أن يتفق معه علنا في هذا الرأي . كما أنه لم يستطع أن يأتي بأية حجة ضد منح النساء حق التصويت ، بل لقد فعل ما يناقض هذا فتقدم بعدة حجج قوية تؤيد منحهن هذا الحق وان لم ينته الى رأي محدد في هذا الشأن كتابة . ولكن يبدو أن رأيه الخاص كان في جانب منحهن هذا الحق أكثر منه في معارضته ، اذ يقول جون ستيوارت مل وهو يعرض آراء الشبان الذين كانوا متأثرين ببنتام : « ان كل سبب من الاسباب التي تؤيد منح حق الانتخاب لاي انسان ، يلزمنا بالأنا نحرّم النساء من هذا الحق . وكان هذا هو الرأي السائد أيضا بين من اعتنقوا المبدأ الجديد من الشبان ، ومما يسرني أن أستطيع القول بأن مستر بنتام كان يؤيدنا تأييدا تاما في هذه النقطة المهمة » . الا أن هذا الرأي ظل لدى مستر بنتام فكرة نظرية غلمية ، وكان من نصيب جون ستيوارت مل أن يتولى هو فيما بعد توجيه انتباه البرلمان الى هذه المشكلة باعتبارها مشكلة ذات أهمية عملية .

ولجيمس مل أهمية مزدوجة في الحركة البنتمانية . فهو أولا قد شكل ابنه

جون كما شكل هملكار ابنه هانبيال . ولم يكن جون ، بشخصيته الطريفة
الطبية ، مؤهلا بالطبيعة لهذا المذهب الجاف - مذهب الراديكاليين الفلاسفة ،
والحق أنه خفف فيما بعد من حدة المذهب في عدة نواح . الا أنه ظل محتفظا
بإيمانه بأن تعاليم والده كانت في جوهرها سليمة ، وقد منح ذلك تأثيرا أكبر
مما كان يصيبه لو أنه اضطر للاعتماد على ثقته بنفسه .

ووجه الأهمية الثاني لجيمس مل أنه استطاع ، بما له من قدرة على أن يجمع
حوله الاتباع ، أن يجمع عددا من الرجال النابهين المتفوقين في مدرسة واحدة ،
ومن ثم زاد في نفوذهم الجماعي زيادة ضخمة . لقد كان معظم الراديكاليين
يرتابون في نظرية مالتس ، ولكن جيمس مل قبلها ووجهها اتجاها جديدا .
فهو وصديقه فرانس بليس ، الحائك الراديكالي ، لم يكونا متأثرين بوساوس
مالتس الدينية ، ومن ثم استخلصا من مذهبه الاقتصادي أن موانع الحمل
الصناعية مرغوب فيها . وبدء المذهب الذي عرف باسم « المالتسية الحديثة »
ومنهما انتشر المذهب في تودة بالرغم من الاضطهاد حتى استطاع أن يضع في
عصرنا حدا لزيادة السكان في أكثر البلاد مدنية .

وقد تعرف بليس بنتام في سنة ١٨١٢ عن طريق جيمس مل ، وهكذا
احتك بنتام بطبقة اجتماعية وبنوع من الساسة قلما كان له عهد بهما من قبل .
وكان بليس يعامل بنتام باحترام مشوب بالحلب فكان يخاطبه في رسائله
بقوله : « والدي الكبير العزيز » . أما عن رسائل بنتام الى بليس فان احداها ،
وهي التي جاءت في كتاب جراهام والاس « حياة فرانسيس بليس » قد تصلح
نموذجا . وهي تتعلق بالاحتياطات التي كان بنتام يتخذها لاختفاء عدائه
للمسيحية وإيمانه بالمالتسية الحديثة (وربما كان ذلك بتأثير بليس نفسه) .
وكلمة Juggical (عابد الاله الهندي المقدس) التي جاءت في الرسالة تعني
المسيحي . واللفظ مشتق من كلمة Juggernaut (بفرنوط) (X)
الذي كان يستعمل لديهم بمعنى المسيحية ، حتى يمكن الحديث في الموضوع
أمام الحدم دون التعرض للفضيحة . ونص الرسالة كما يلي :

ولدى الطيب العزيز

لقد حددت لك موعدا ، عليك أن تحافظ عليه مهما كان الامر ، أو أن تحدد
غيره . والمقصود منه أن تقابل برينيتس وتسمع منه أسفه لأنه قال عنك أنك
« رجل جرى شرير » (الموعد هو الساعة الواحدة من يوم الثلاثاء
وهو بداية نزهتي اليومية) . وقد قلت له أنك غلام جرىء ولكني أنكرت أنك
شرير بناء على معرفتي بك معرفة وثيقة قرابة عشرين عاما . وسألته : لماذا

(X) ضرب من العبادة يتطلب التضحية العمياء من العابد بنفسه في سبيل الأعبود ،
ويستعمل اللفظ أيضا بمعنى أية قوة جبارة لا تقوم تسير في سبيلها ، وتحطم كل من يعترضها
واللفظة هندية

يقول عنك انك شرير ، فكان جوابه أنه يقول ذلك بسبب الجهود التي تبذلها لنشر طريقتك في مكافحة الزيادة في السكان . (كان يجب أن أقول - لا يقاف . الزيادة في السكان) . والمسألة أنه مسيحي من أتباع كالفن وسليل جدين من رجال الدين المعروفين ذوى السمعة السيئة . وقد قلت له ان كل انسان يتحكم فى تصرفاته ولكن ليس هناك من يتحكم فى آرائه ، وانك ، فيما يتعلق بالموضوع الذى نتحدث عنه ، لست مختلفا معه فى رأى اكثر من اختلافه معك ، وانه لو تشاجر كل انسان مع كل شخص آخر لا ينفق معه فى وجهة النظر فى نقطة من النقاط فان الارض ستستريح قريبا من حملها البشرى . وقد حرصت على ألا يعرف رأيتى فى المسألة التى هى موضع النقاش والا ضاع كل ما نهدف اليه ، هذا إلا اذا استنطعت أن أحمله على تغيير رأيه ، ولم يكن هناك متسع من الوقت لذلك ، وكل ما فهمه منى فيما يتعلق بمشاعرى الدينية أنى أؤبد التسامح بين الجميع ، وقد استشهدت على هذا الرأى بآيات من الكتاب المقدس فى مناسبة أو مناسبتين . . . »

وقد جمع جيمس مل بين بنتام ومالتس وريكاردو وراديكالية الطبقة المتوسطة الدنيا التى يمثلها فرانسس بليس ، الذى كان بدوره على صلة وثيقة براديكالية الطبقة العليا المثلة فى سير فرانسس بوردت . وقد منحت تعاليم هارتلى وهلفسيوس ، ومعها بعض أجزاء من تعاليم هيوم مما يصلح لأن يكون جزءا من معتقد مذهبتى ، فورة الجماهير فى انتخابات وستمنستر الاحترام الفكرى الذى ينشأ عندما يكون هناك أساس فلسفى لعقيدة ما . وكان جيمس مل فى كل هذا يقوم بدور الملائم الذى يضم الاحجار المنفرقة ليقم منها صرحا . وكان الصرح غريبا يضم موادا ما كان أحد يتوقع أن يراها منضمة بعضها الى بعض . ان معظم الحركات (الراديكالية) كان مبعثها أما الشعور بالعطف على المظلومين أو الحقد على الظالمين . أما راديكالية جيمس مل فلم يكن أحد السببين بارزا فيها . ولا ريب أنه كان يشعر بحب للخير العام ، يظهر مثلا فى مقاومته لكل ما اعتقد أن فيه قسوة من الدين التقليدى . غير أن هذه العاطفة لم تكن عميقة ، وكانت خليقة بأن تزول أمام أية عاطفة أقوى منها لو أنها كانت لدى شخص أعمق منه شعورا . ان حب الخير عند جيمس مل كان يقوم مقام الحافز العاطفى ، الا أنه ظل فى مكانة ثانوية ولم يستطع فى أية حال من الحالات أن يتغلب على العقل . ولم يكن يلقي أية صعوبات فى قبول الآراء القائلة ان الآلام لا مفر منها . وكانت هذه الآراء مصدر قوة حيث كانت سليمة ، أما اذا كانت غير سليمة فقد كانت مصدر ضعف . وقد تميزت البنتمانية بهذا الضعف وهذه القوة طوال تاريخها .

۴ - ریکاردو

الفصل الحادى عشر

ريكاردو

يختلف ريكاردو عن جيمس مل فى أن أهميته ترجع الى مذهبه وحده لا الى شخصيته . وقد كان باجماع الآراء رجلا محبوبا ، ويذكره جون ستيوارت مل مرارا بعبارة « أعز أصدقاء والدى » ، ويقول أنه « كان محبوبا من الشبان لبشاشة وجهه وأخلاقه السمحة » . ودخل ريكاردو البرلمان سنة ١٨١٨ . وكان المجلس يستمع اليه باحترام ، ولكن تأثيره يرجع الى أنه كان من الكتاب . وقد نشر أهم كتبه « مبادئ الاقتصاد السياسى والضرائب » سنة ١٨١٧ . يستطيم أن نقول أن هذا الكتاب صار شريعة الاقتصاد الصحيح ، غير أنه قد اتضح أن الشيطان يستطيع أن يستشهد بالكتاب المقدس : فقد استمد كل من الاشتراكيين ودعاة الضريبة المفردة حججهم من نظريته فى الربح . كما أنه أوضح بصورة أعم ، وبطريقة عرضية خلال مناقشته توزيع الثروة بين طبقات المجتمع ، أن للطبقات المختلفة مصالحا متباينة . وقد استمد ماركس كثيرا من كتاباته من ريكاردو . ومن ثم كانت له أهمية مزدوجة فهو الاصل الذى قام عليه الاقتصاد الرسمى ، وهو أيضا المصدر الذى انبثقت منه البدع الجديدة وأن لم يكن يقصد ذلك .

ونظرية ريكاردو فى الربح بسيطة وصحيحة كل الصحة فى الظروف المناسبة . ولتقتصر فى بحثها على الاراضى الزراعية أولا فنقول . أن بعض الاراضى أخصب من غيرها وبعضها أقل خصوبة ، ولا بد فى كل وقت من وجود أراضى على الحد الأدنى من الانتاج لا يزيد ريعها على نفقاتها . أى أنها لا تغل للفلاح ربحا على رأسماله مساويا للربح الذى يغله هذا المال اذا استغل بطريقة أخرى . فاذا طلب المالك ريعا لهذه الارض ، فإن الفلاح لا يجد أنها خليقة بأن يزرعها ، ومن ثم فإن هذه الارض لا تدر ريعا للمالك . أما الارض الأكثر خصوبة فهى على العكس من ذلك تغل ربحا لقدر معين من رأس المال أكثر من الربح المعتاد ، ومن ثم فإن زارعها يكون مستعدا لأن يؤدى للمالك فدرا من المال مقابل الحق فى زراعتها . انه على استعداد لان يدفع من نتاج الارض ما يزيد على ما تغله أقل الاراضى المزروعة انتاجا . ومن ثم يكون ريع الفدان من الارض هو القدر الذى يزيد به المحصول الذى ينتجه على قيمة المحصول الذى ينتجه فدان من أسوأ الاراضى المنزرعة .

وما ينطبق على الاراضى الزراعية ينطبق على كل أنواع الاراضى . فقطعة من الارض فى وسط مدينة كبيرة تصلح لاغراض مثل المكاتب والخوانيت يمكن أن تغل ربعا هائلا . وجزء من هذا الربح هو فائدة رأس المال المستغل فى صورة مبان وما اليها ، وجزء آخر هو ربح التجارة أو العمل ، ولكن يظل هناك جزء آخر يذهب الى المالك فى صورة ريع للارض . وأى طرف يطرأ يزيد فى حجم المدينة . ومن ثم يزيد فى الدخل الناتج من الحانوت أو المكتب القائم فى وسطها ، يرفع الربح الذى يستطيع المالك اقتضاه مقابل حق استعمال المكان . وينبغى أن يكون مفهوما بطبيعة الحال أن النظرية خاصة بربح الارض وحدها ، لا بالجزء الذى يتعلق بقيمة المباني المقامة فوقها .

وكان لنظرية ريكاردو أهمية عملية كبرى فى ظروف انجلترا وقت أن كان قانون الحنطة معمولا به . ذلك أنه لو كان فى الاستطاعة استيراد الحنطة لتركت أقل الاراضى خصوبة فى انجلترا بلا زراعة . ومن ثم يقل الفرق بين احسن الاراضى المزروعة وأسوأها وتهبط الايجارات . وكان هذا كله واضحا لاصحاب الاراضى الذين كانوا يسبطرون على البرلمان .

غير أنه كانت هناك نتائج أخرى متصلة بالحجج التى ساقها آدم سميث دفاعا عن حرية التجارة . فلو أن استيراد الغلال تم نتيجة لالغاء ضريبة الاستيراد ، لتحول رأس المال المستغل فى زراعة أسوأ الاراضى الى الصناعة حيث يستغل فى انتاج المصنوعات التى تصدر ويدفع ثمنها فى الغلال المستوردة . وهذا الاستغلال الجديد لرأس المال سيكون بالضرورة أكثر ربحا من القديم ، والا لما كان ثمة ربح من استيراد الغلال بدلا من انتاجها محليا . ومن ثم تحدث زيادة فى الثروة القومية يصحبها انخفاض فى ريع الارض : سيكون هناك قدر أكبر من الثروة يوزع بين السكان ، ومن هذا القدر الزائد تصيب الطبقات الصناعية نصيبا أكبر . وقد استهوت هذه الحجج السليمة التى لا ريب فى صحتها رجال الصناعة ولكنها لم ترق لملاك الاراضى . ولم يستطع دعاة حرية التجارة السيطرة على البرلمان الا بعد أن صدر « قانون الاصلاح » الذى نقل النفوذ السياسى الى الطبقة الوسطى . وعندما أقر قانون حرية التجارة فى الحنطة سنة ١٨٤٦ ، تبين أن نتائجه جاءت مطابقة لما تنبأ به الاقتصاديون .

ان نظرية ريكاردو فى الايجار تعكس بدقة صورة النزاع بين رجال الصناعة من الطبقة الوسطى وبين ملاك الاراضى من الطبقة العليا ، ذلك النزاع الذى سيطر على السياسة الانجليزية من سنة ١٨١٥ حتى سنة ١٨٤٦ . غير أنه كان فى الاستطاعة تطبيق النظرية بصورة أكثر تطرفا بكثير مما تخيل ريكاردو أو رجال الصناعة فى مانشستر . ذلك أن هؤلاء الرجال كانوا أثرياء ، ولكنهم كانوا يتوقون الى المزيد من الثراء . لقد كانوا الاثرياء العاملين ، ولم يقبلوا أن يكونوا فى مركز أدنى من الاثرياء الحاملين . الا أنهم لم يكونوا بأى حال ثوريين ،

فقد كانوا يريدون أن يبقى العالم مكانا يستطيع فيه المرء أن يتمتع بشروته . هذا الى أنهم كانوا يحسون بعدم ثقة عميقة الجذور نحو الدولة ، ولا ريب فى أن ذلك راجع الى أنهم لم يكونوا مسيطرين عليها . ولهذا الاسباب لم يتقدموا من ريكاردو الى هنرى جورج ونظرية الضريبة المفردة . ومع ذلك فان هذا يكون نتيجة منطقية الى أبعد حدود المنطق .

ذلك أن الربح الاقتصادى لا يدفع للمالك لقاء أية خدمة يقوم بها ، أنه يدفع له نظير الاذن بانتاج الثروة على أرضه لا لسبب آخر . فهو يثرى من عمل غيره دون أن يحرك ساكنا ، ووظيفته الاقتصادية تنحصر فى أنه يتلقى الربح دون أن يضيف شيئا الى الثروة القومية . وليس من الصعوبة بمكان كبير أن يستنبط من ذلك أن الملكية الخاصة فى الارض يجب الغاؤها وأن يدفع الربح للدولة . بيد أن هذا الاستنباط لم يقم به ريكاردو بل أنه لم يفكر فيه .

وكانت نظرية ريكاردو فى القيمة أقل سلامة من نظريته فى الایجار . الا انها كانت مع ذلك أبعد أثرا . ومسألة القيمة تظهر فى الاقتصاد على الوجه التالى : افترض أن لديك جنيتها تريد أن تنفقه ، فانك تستطيع أن تحصل مقابله على كمية معينة من القمح أو الجعة أو الطباق أو الدبابيس أو الكنب أو غيرها من السلع . فاذا كان عدد معين من الدبابيس وكمية معينة من القمح كل منهما يكلف جنيتها ، فان « قيمتها » تكون متساوية . فما الذى يحدد أن عددا بذاته من الدبابيس يساوى كمية معينة من القمح ؟ يجيب ريكاردو عن هذا السؤال بقوله : ان قيمتها تتساوى اذا كان انتاجها قد تطلب قدرا مساويا من العمل . ذلك أن قيمة أية سلعة تقاس بكمية العمل الذى يتطلبه صنعها .

وهذا المذهب سليم الى حد معين . فاذا كنت نجارا وكان عمل منضدة يتطلب منك ضعف الوقت الذى يتطلبه صنع كرسي ، فطبيعى أنك ستطلب فى صنع المنضدة ضعف ما تطلبه لصنع الكرسي - عدا ثمن الخشب . فالسلع المصنوعة المختلفة التى يصنعها رجال يتقاضون جميعا أجورا متساوية يكون ثمنها متناسبا مع كمية العمل التى اقتضاها صنعها - عدا ثمن المادة الاولية . ويمكن القول بأن نظرية ريكاردو فى القيمة صحيحة تقريبا فى ظل ظروف المنافسة الحرة ، عندما تعتمد قيمة السلعة أساسا على العمليات الصناعية التى تمر بها وهى المقابلة للخصوبة الطبيعية للأرض .

الا أنه من السهل أن نرى أن النظرية لا يمكن أن تكون صحيحة من كل الوجوه ، ونوعى على الاقل لانها تتعارض مع نظرية ريكاردو نفسه فى الربح . ان أردبين من القمح متساويان فى القيمة اذا كانا من نوع واحد أيا كان مصدر انتاجهما ، ولكن أردبا من القمح من أرض جيدة يكلف عملا أقل من أردب مثله ينتج فى أرض ضعيفة . وهذا هو الأساس الذى تقوم عليه نظرية ريكاردو فى الربح ، وكان يجب أن ينبه الى أن نظريته فى القيمة لا يمكن أن تكون

صحيحة • وهناك بطبيعة الحال أمثلة أكثر تطرفا من ذلك • ففي العهد الاولى عندما كان يكتشف حقل جديد للذهب ، كان يحدث أحيانا أن يلتقط رجل بمحض الصدفة قطعة من الذهب قد تصل قيمتها الى ١٠٠٠٠ جنيه • ان قيمة عمله في هذه الحال بالمعدل العادى كانت تصل الى نصف جنيه ، ولكن الذهب الذى حصل عليه يساوى نفس القيمة التى تكون له لو أنه اضطر لان يعمل من أجل الحصول عليه •

ولست أحب أن اتعب القارىء بسرد دقائق نظرية القيمة ، وحسبى أن أقول أن هذا الموضوع كانت له أهمية بالغة فى تطور الاشتراكية بحيث لا معدى عن مناقشته بعض المناقشة • ان نظرية ريكاردو صحيحة كل الصحة فى بعض الحالات ، خاطئة كل الخطأ فى حالات أخرى ، وهى فى الحالات العادية السائدة صحيحة الى حد ما وان كانت غير صحيحة كل الصحة • ويتوقف الامر على ما للاحتكار من شأن فى الحالة التى هى مدار البحث •

ولنأخذ أولا حالة لا يكاد يكون للاحتكار شأن فيها عدا ما يتصل ببيع الارض مثل صناعة الاقمشة القطنية بالحالة التى كانت عليها فى عهد ريكاردو • وأكبر الظن أن هذا النوع من السلع هو ما كان يفكر فيه عندما وضع نظريته • لقد كان فى ذلك الوقت عدد كبير من أصحاب المصانع يتنافسون جميعا فيما بينهم منافسة شديدة ، وكان انتاج المادة الاولية يتم فى ظروف متماثلة تقريبا ويبيعها زراعيها فى ظل المنافسة • هذا ، وكان العمل الذى ينفق فى صنع الالات اللازمة بطبيعة الحال جزءا من العمل الذى يتطلبه صنع الاقمشة ، وكذلك كان يوجد فى ذلك الوقت قدر كاف من الحديد يؤخذ من عدة مناجم • ليس بينها أى اتحاد ، كما تكونت مع الوقت عدة مصانع لانتاج آلات النسيج وصحيح أنه هناك عنصر واحد من عناصر الاحتكار هو ما كان ينشأ عن حقوق الاختراع : وهذه تمثل نظريا القيمة الاحتكارية لمهارة المخترع • على أن ما كان يتقاضاه المخترعون مقابل حقوق اختراعهم لم يكن يمثل سوى جزء ضئيل جدا مما تتكلفه قطعة بذاتها من نسيج القطن • ولهذا يمكن القول بوجه عام أن ثمن قطعة القماش كان يتحدد بدقة الى حد كبير تبعا لكمية العمل الذى يتطلبه انتاجها •

والآن لنبحث حالة تناقض الحالة السابقة كل التناقض • ولنفرض أنهينا صورة من صور ليوناردو مثلا • فالمفروض أن كمية العمل التى بذلت فيها ليست أكثر من كمية العمل التى تبذل فى صورة تافهة تباع بخمسة شلنات ، ومع ذلك فقد تساوى خمسين أنفا من الجنيات • وهذه الحالة تمثل الاحتكار بكل معانيه • وذلك أن العرض لا يمكن زيادته ومن ثم لا يعتمد الثمن الا على الطلب وحده • والارباح التى يجنيها أشخاص لديهم احتكار كامل أو جزئى تندرج تحت هذه الحالة ، وأنا حين أقول ذلك أفكر فى أشخاص مثل المغنيين أو الجراحين النابيين والمحامين ونجوم السينما ومن اليهم •

وتقع معظم الحالات في الوسط بين هذين الطرفين النقيضين ، فالمواد الأولية لاية صناعة هي بصفة عامة اما زراعية أو معدنية . فاذا كانت زراعية عدل قانون الريع قانون ريكاردو في القيمة كما رأينا : ان ما يحدد القيمة هو قيمة العمل في أضعف الاراضى المنزرعة لا قيمته في الاراضى المتوسطة . أما في حالة المواد المعدنية فان نفس ما ذكرناه عن الانتاج الزراعى ينطبق عليها اذا كانت هناك عدة مصادر مستقلة لانتاجها . الا أنه كثيرا ما يحدث أن تكون هناك اتفاقات بين أصحاب مصادر المادة الأولية بحيث تتحدد قيمتها تبعا للفوائد التى تتحكم في الاحتكارات . وقد أخذت الاحتكارات الكاملة والجزئية تحل في الفترة الاخيرة محل المنافسة . ونتج ذلك اما عن طريق انشاء الموثقات «*» ، وأما عن طريق حقوق الاختراع ، أو عن طريق ملكية المواد الأولية .

وعندما يكون هناك احتكار مصحوب بالقدرة على زيادة الانتاج ، فان على المنتج أن يقرر هل الاربح له أن يوزع مقادير كبيرة بأسعار منخفضة ، أو مقادير صغيرة بأسعار عالية . وواضح أن مبيعاته تقل بقدر ما يرفع من السعر وأن هناك سعرا يوفّر له أكبر قدر ممكن من الربح . ولكن هذا لا علاقة له بتكاليف الانتاج باستثناء أنها تعين حدا أدنى لا يستطيع المنتج أن يبيع بأقل منه ويظل يكسب .

ومن ثم فان نظرية ريكاردو القائلة بأن القيمة تحددها كمية العمل التى تنفق في انتاج السلعة نظرية بعيدة عن أن تكون صحيحة من كل الوجوه ، وقد أصبحت أقل صحة على مر الزمن بسبب ضعف المنافسة . وكان هو نفسه يدرك نواحي الضعف في نظريته ، ولكن جيمس مل وماك كولوخ تلقاها بحماسة الحواريين ورفضوا أن يعترفوا حتى بالتحفظات التى رأى ريكاردو أنها ضرورية . وهكذا تقبل الاقتصاديون التقليديون النظرية بلا تحفظ تقريبا حتى ابتكر جفنز «Jevons» بعد ذلك بكثير نظرية أخرى أفضل منها وضعت «الطلب» في المكان اللائق به من الأهمية .

وقد رحب المدافعون عن العمل بنظرية ريكاردو في القيمة ، وكان من الطبيعى أن يرحبوا بها ، واستخدموها بطريقة لم تخطر له على بال . فقالوا اذا كانت القيمة الكلية للسلعة راجعة الى كمية العمل التى تنفق في انتاجها ، فلماذا لا يدفع ثمن السلعة كله الى الاشخاص الذين قاموا بصنعها ؟ وبأى حق يستولى المالك وصاحب رأس المال على جزء من الانتاج ما داموا لم يضيفوا شيئا الى قيمته ؟ واعتمد الاقتصاديون المتصلون بالحركات العمالية مثل توماس هود جسكين ووليم تومبسون على أقوال ريكاردو فذهبوا الى أنه يجب ألا

(*) اتفاق عدة بيوت صناعية .

يحصل أحد على مال الا مقابل عمل ، والى أن للعامل الحق في الحصول على كل ما ينتجه عمله . وأصبح هؤلاء الرجال ، كما سنرى فيما بعد ، ذوى نفوذ فى الحركة الاشتراكية المرتبطة بروبرت أوين . ثم أثروا فيما بعد فى ماركس الذى أقام حججه أيضا على نظرية ريكاردو فى القيمة . ولقد ضعف نفوذ ريكاردو بين الاقتصاديين التقليديين الى حد كبير وفى الوقت الحاضر ، الا أنه لا يزال باقيا فى اقتصاديات الماركسيين الذين ظلوا محتفظين فى هذه الناحية وفى نواح أخرى غيرها ، بوجهة نظر تمت الى أوائل القرن التاسع عشر .

۵ - مذهب بنتام

الفصل الثاني عشر

مذهب بنتام

نشأ من تعاليم مالتس وريكاردو وينتام وريكاردو مجموعة من العقائد كونت مذهباً تقبله عدد متزايد من التقدميين من الطبقة المتوسطة والعمال - وإن كانت بين الطبقة الثمانية عدة مدارس منافسة كان لها أيضاً نفوذ . وكانت الآراء التي تقبلها أتباع البنتامية أقل نضوجاً من آراء زعمائها في بعض النواحي ، ولكنها أكثر نضوجاً في نواح أخرى . وينبغي أن ننظر فيما صار إليه المذهب عند من قاموا بنشره بين الجماهير لأن تأثيره في التشريع إنما جاء عن طريقهم . وتنقسم وجهات نظر الراديكاليين الفيلسفين بطبيعتها الى ثلاثة أقسام رئيسية : اقتصادية وسياسية وأخلاقية ، وكانت وجهة نظرهم الاقتصادية أهم ما في مذهبهم .

وكانت الآراء الاقتصادية لهذه المدرسة يسيطر عليها مالتس : كان من الأمور التي لا بد منها إلى أن يحين الوقت الذي يمكن فيه اقناع الطبقات العاملة بأن تمارس ضبط النسل على أساس أخلاقي ، أن تظل أجور العمال المهرة وفقاً لمبدأ زيادة السكان عند حد الكفاف الذي يمكن الرجل من أن يعيش وينشئ أسرة . ويكفى ، حيث يعمل النساء والاطفال لقاء أجر ، أن يكون أجر الرجل بحيث يقوم بأوده وحده . وقد تمر بالعالم في تاريخه أوقات ، عقب حرب مدمرة أو وباء جازف ، ترتفع فيها الأجور بصفة مؤقتة عن الحد الأدنى للعيش ، ولكن النتيجة تكون انخفاضاً في معدل الوفيات بين الاطفال حتى يعود السكان إلى مستواهم المنخفض السابق عن طريق زيادة عددهم . ومن ثم ، لم يكن هناك داع للمشروعات التي يقوم بها الاخيرار ذوو المقاصد الطيبة ولا للتفريج عن الطبقات الفقيرة بواسطة قانون الفقراء . ومن أجل هذا كان العمال الذين حاولوا رفع الأجور عن طريق الاضرابات واتحادات العمال مضللين يسلكون غير الطريق الصحيح . وكذلك انشيوعيون الذين ينشدون المساواة الاقتصادية قد ينجحون في الانخفاض بمستوى الاغنياء ولكنهم لن يستطيعوا تحسين حال الفقراء حيث أن الزيادة في السكان ستهدم في وقت قصير أى تحسين مؤقت لحالهم .

ولم يكن أمام الطبقات العاملة سوى أمل واحد لا غير ، هو أن يحكموا

عقولهم ويتعلموا السيطرة على غرائزهم التناسلية . وكان الراديكاليون الذين ينتمون الى الطبقة الوسطى ، باستثناء قلة منهم ، يدعونهم الى أن يفعلوا ذلك عن طريق ضبط النفس الاخلاقى . بينما كان بليس ، وهو من أكثرهم تحمسا للمائتس ، والذي ظل متأثرا بأصله العمالى ، يدعو الى استعمال وسائل أقل قسوة . وفى نفس الوقت اتخذت المدرسة كلها من مبادئها عدرا يعفيها من الاشتراك فى المجهودات الانسانية التى كانت تبذل للتخفيف من آلام الطبقات الاجيرة عن طريق ما كان يبدو لهم ووسائل سطحية .

كذلك كان لابد من وضع أصحاب الاراضى ، وهم فى الطرف الاخر من السلم الاجتماعى ، فى وضعهم الصحيح . فقد وضحت نظرية ريكاردو فى الربح أن جميع الفوائد الناتجة من قوانين الغلال ستذهب آخر الأمر الى أصحاب الاراضى ، لان ارتفاع الایجار قد حرم الزراع من أى ربح كان من الممكن أن يناوئه لولا هذا الارتفاع . أما الأجراء فلم يصيبهم كسب أو خسارة لانهم سيظلون على أى حال عند الحد الأدنى للعيش . لكن أصحاب المصانع يخسرون ، لانهم يضطرون لرفع الاجور عندما ترتفع أسعار الحبز حتى يحولوا بين عمالهم والموت جوعا . ومن ثم يجب إلغاء الضرائب على القمح المستورد لصالح أصحاب المصانع .

ويمثل الربح ما يبقى بعد دفع الایجار والاجور . ومن ثم كان السبيل الى زيادة الارباح هو خفض الربح والاجور . وتخفيض الاجور لا يمكن أن يتم الا عن طريق خفض أثمان الحبز ، أى باتباع مبدأ حرية التجارة فى الحبوب ، ويؤدى نفس الاجراء أيضا الى خفض الربح عن طريق الامتناع عن زراعة أسوأ الاراضى ، ومن ثم فان هذا الاجراء ذو فائدة مزدوجة للطبقة التى تعيش على الارباح لا على الایجار والاجور . وكان البنتميون يمثلون هذه الطبقة ، وكانوا هم أول من اعتنق العقيدة الحديثة ، عقيدة التصنيع واستخدام الآلات .

وكانت العقيدة البنتمية من الناحية السياسية تتضمن ثلاث مسائل رئيسية : عدم التدخل «laissez faire» والديموقراطية والتعليم . وقد نشأ عدم التدخل بوصفه مبدأ اقتصاديا ، فى فرنسا فى ظل العهد القديم ، ولكنه اختفى خلال الثورة ، كما أن نابليون لم يرفه ما يهمه . الا أن انجلترا فى سنة ١٨١٥ كانت تعيش فى نفس الظروف التى أدت الى ظهور هذا المبدأ فى فرنسا أيام لويس السادس عشر : فقد كان فيها طبقة وسطى نشطة ذكية تسيطر عليها سياسيا حكومة غبية . ولعله يمكن أن نتصور وجود اشكال نافعة من سيطرة الدولة ، ولكن الحكومة التى كانت قائمة وقتئذ كانت أقرب الى أن تتخذ أشكالا ضارة ، ومن ثم لم يطالب هؤلاء الرجال بالحدس - وهم يحسون بانهم يملكون سلطة جديدة وانهم ينشئون عالما جديدا - الا أن يتركوا وشأنهم .

والى هنا يوجد انكثير مما يقال دفاعا عن الحرية فى التجارة والغمبل ، ولكن مذهب عدم التدخل أصبح بعد ذلك مذهباً تعسفياً وبولغ فى تطبيقه بنظر سخيف . فجريدة « الايكونوميست » ، وهى صحيفة كانت تمثل وجهة نظر البنتمانيين ، اعترضت حتى على قانون الصحة العامة الذى صدر سنة ١٨٤٨ على اثر تحقيق أجرته لجنة وأظهرت فيه ماكان فى معظم المدن الكبيرة من حالة صحية بلغت من السوء حدا يرتاع له الانسان ، وأعلنت أسفها لان القانون لا يلقى معارضة أشد عنفا أثناء عرضه أمام مجلس العموم ، وقال المحرز : « ان الألم والشر انذار من الطبيعة ولا يمكن التخلص منهما ، وان المحاولات الانسانية المنعجلة التى ترمى الى القضاء عليهما فى الدنيا عن طريق التشريع قبل أن يتحقق الغرض منهما ، نجم عنها دائما من الشر أكثر مما نجم عنها من الخير (١) » . ولكن البرلمان صمد أمام هذه الحجج التى تدعوه الى عدم إنشاء نظام صالح للمجارى ، لان عدم وجودها أدى الى انتشار وباء شديد على مرمى حجر من مجلس العموم . وكذلك كان معظم الراديكاليين الفيلسفين يعارضون تشريعات المصانع حتى فى الحالات التى لم يكن فيها جدال مطلقا . وفى سنة ١٨٤٧ عندما أقر المجلسان القانون الذى يحرم عمل الاطفال أكثر من عشر ساعات يوميا فى مصانع القطن ، كانت العناوين فى جريدة الايكونوميست « اللوردات يتحالفون مع أعضاء مجلس العموم فى تحريم الصناعة » . وقالت الجريدة أن المبدأ الذى أقر على أساسه هذا القانون هو نفسه الذى قام عليه قانون انغلاق ، وهما فى كلتا الحالتين تدخل لا مبرر له فى صالح طبقة واحدة (٢) .

وقبلت غالبية المدرسة مع بعض القيود مبدأ الديمقراطية الذى كان يدعو اليه جيمس مل بكل قواه ، وكذلك بنتام فى الفترة الاخيرة من حياته . ذلك أن الملكية كانت لها مكانة خاصة عظيمة الاهمية فى تفكيرهم ، ومن أجل ذلك لم يرحبوا بمنح حق الانتخاب لأعداد كبيرة من الناس الذين لا يملكون شيئا . وكانوا جميعا يريدون شيئا أبعد أثرا من قانون الاصلاح الذى صدر عام ١٨٣٢ ، ولكن قل منهم من كانوا يطالبون بحق الانتخاب لجميع الرجال ، كما لم تكن بينهم سوى حفنة صغيرة ترغب فى منح هذا الحق للنساء . وأما الدعوة الى منح حق الانتخاب لجميع الرجال فقد قامت على أكتاف جماعة « العرائضيين (٣) » ، وهم من الطبقة العاملة ومن ثم كانوا أقل قدرا من البنتمانيين . ومع ذلك فان البنتمانيين كانوا يدعون دائما الى توسيع حق الانتخاب الى أقصى حد يتفق وظروف السياسة العملية ، ومن ثم لم يكن

(١) كلاهما - المجلد الاول ص ٥٤٥

(٢) كلاهما - المجلد الاول ص ٥٧٧

(٣) Chartist طائفة من المصلحين السياسيين فى انجلترا قامت بين عامي ١٨٣٧ - ١٨٤٨ تطلب بالاصلاح الاجتماعى وضمموا مبادئها فى عرائض .

أثرهم فى تقدم الديمقراطية أقل منه لو أنهم كانوا أكثر تطرفا فى مطالبهم .

وكان الايمان بالديموقراطية مرتبطا بالايمان بسيطرة التفكير المنطقى على عقول الناس ، بشرط أن يكونوا قد تلقوا قدرا من التعليم الذى يمكنهم من تتبع المناقشة . ويقول جون استيوارت مل عن أبيه أنه « كان يثق ثقة لا حد لها بقوة عاملين عظيمين هما : الحكم النيابى والحسرية الكاملة فى المناقشة » . ولقد بلغ من اعتماد أبى على تأثير التفكير المنطقى فى العقل البشرى ، عندما يسمح بوصول هذا التفكير الى عقول الناس ، أن جعله يشعر بأن البلد ينال حتما كل ما يبتغيه اذا تعلم كل السكان القراءة واذا أمكن اىصال كل الآراء على اختلاف أنواعها اليهم بالقول وبالكتابة واستطاع السكان ، عن طريق حق الانتخاب ، أن يختاروا المجلس التشريعى الذى ينفذ ما اقتنعوا به من آراء . وكان يعتقد أن المجلس التشريعى اذا لم يعد يمثل مصالح طبقة بذاتها فانه سيهدف الى الصالح العام بأمانة وبقدر كاف من الحكمة ، لان الناس فى هذه الحالة سيهتدون بهدى عقولهم وسيكونون آراءهم فى ظل قيادة مثقفة الى الحد الذى يكفى لان يجعلهم يحسنون اختيار ممثلهم ، حتى اذا فعلوا ذلك تركوا لمن يختاروهم حرية العمل فى حدود واسعة . ومن ثم كان الحكم الارستقراطى ، أى حكم الأقلية فى أية ضرورة من صورته ، والذى كان يراه الحائل الوحيد بين الجنس البشرى وبين سياسة أموره بأفضل ما يوجد فى الناس من حكمه ، كان هذا الحكم هدفا لاستنكاره الشديد ، وكان حق الانتخاب الديموقراطى أهم نقطة فى عقيدته السياسية ، ولم يكن ذلك قائما على أساس من الحسرية أو حقوق الانسان أو من العبارات الأخرى التى تنطوى تحتها معان ذات شأن قليل أو كثير ، وهى العبارات التى ظلت حتى ذلك الوقت الوسيلة المألوفة للدفاع عن الديموقراطية ، بل كان أساسه أن حق الانتخاب الديموقراطى هو أهم ضمان لا بد منه « للحكم الصالح » . ولم يكن فى ذلك أيضا منمساكا الا بما اعتقد أنها الأساس التى لا غنى عنها ، فلم يكن يهمله كثيرا صورة الحكم سواء كانت جمهورية أو ملكية ، وكان من هذه الناحية يفوق بننام الذى كان يبدو له الملك فى شخصية (المفسد العام) شيئا وبيلا بالضرورة .

« سينال البلد كل ما يبتغيه ، اذا تعلم السكان كلهم القراءة » . لقد كان جيمس مل يتصور العمال عائدا الى منزله مساء وهو يقرأ كتابات هيوم وهارتلى وبننام ، ولم يتنبأ بنوع الكتب التى سيزود بها أناس تعلموا القراءة . ولكنهم لم يتعلموا شيئا آخر . وما من شك فى أن نوع العامل الذى تصوره موجود فعلا ، ولكنه ليس العامل العادى ، وما كان أى شخص آخر أقل تقشفا من البنتمامين الأول ليتصور أن هذا النوع من العمال سيكون هو الغالب . وأيضا كان الامر فانه من الطبيعى أن يشعر المرء بهذه الرغبة الجارفة فى نشر التعليم اذا كان هذا ما يتوقع حدوثه . وقد كان لجميع البنتمامين شأن كبير فى الحركات التى قامت فى ذلك العهد لتزويد الطبقات العاملة

بالمدراس . نعم ان التعليم الاجبارى العام لم يقرر فى انجلترا حتى سنة ١٨٧٠ ، الا أنه ما كان ليقرر وقتئذ الا بفضل الراديكاليين الفلسفيين .

وكانت معارضة التعليم العام فى ذلك الوقت قوية بدرجة تدعو الى الدهشة ، حتى عند فئات لم تكن تلك المعارضة القوية متوقعة منها . وفى عام ١٨٠٧ تقدم «هويتبريد» بمشروع قانون يقضى بانشاء مدارس أولية فى جميع أنحاء البلاد . ورفض المشروع فى مجلس اللوردات بتأثير الحاج «ايرل دون» وأسقف كنتربرى ، وهذا أمر طبيعى متوقع ، ولكن الذى يدعو الى الدهشة هو أن المشروع عورض بشدة من جانب رئيس « الجمعية الملكية» ، الذى قال : مهما يكن لمشروع تعليم الطبقات العاملة الفقيرة من مظهر براق من الوجهة النظرية ، فإنه فى الحقيقة سيكون سببا فى الاضرار بهم من الناحية

الخلقية وسينقص من سعادتهم ، ان تعليمهم سيؤدى بهم الى احتقار حظههم فى الحياة بدلا من أن يجعلهم خداما صالحين فى الزراعة وفى غيرها من الاعمال الشاقة التى قضى بها عليهم مركزهم فى المجتمع ، وبدلا من أن يتعلموا الطاعة والخضوع سيصبحون مشاكسين متمردين ، كما اتضح فى البلاد الصناعية ، وسيجعلهم قادرين على قراءة النشرات التى تدعو الى الشغب والفتنه والكتب البذيئة والمطبوعات التى تناهض المسيحية ، ان التعليم سيجعلهم وقحين فى معاملة من هم أعلى منهم درجة ، وتكون النتيجة بعد سنوات قليلة أن تجد الهيئة التشريعية أن من الضرورى استعمال الشدة معهم وأن يمسد الموظفون التنفيذيون بقوانين أكثر شدة من تلك التى يعمل بها الآن « (X) » .

ولكن على الرغم من هذه التحذيرات الخطيرة أخذ المنشقون فى انشاء المدارس واضطرت الكنيسة الى أن تحذو حذوهم حتى لا تفقد سلطتها على الشبان . وكان البنناميون نشطين فى هذه الحركة التى قام بها المنشقون .

ولعل القارىء يذكر أن الدكتور «فولليوث» كان يعترض فى الفقرة التى جعلناها شعارا لهذا الجزء من الكتاب ، على كراسات علم توازن السوائل التى تباع بسنة بنسات وجمعيات « الفكر البخارى » ، و « الصديق المثقف » . أما عن كراسات علم توازن السوائل فأنا أشك فى وجودها ، ولكن « الصديق المثقف » كان بروجهام ، وجمعية « الفكر البخارى » كانت هى « جمعية نشر المعرفة المفيدة » ، التى كان رئيسها بروجهام ونائب رئيسها لورد جون رسل . واذا لم يكن بروجهام بنتاميا كاملا ، فإنه كان وثيق الصلة بالبنتاميين ، وكان جيمس مل ، كما يقول وبنيه جون « العمقريه الطيبة التى كانت الى جانب بروجهام فى معظم ما فعله من أجل الجمهور فى التعليم وفى اصلاح التشريع وفى أى موضوع آخر تناوله » . وقد قامت الجمعية المشار اليها بنشر قدر كبير

من المعرفة المفيدة على الرغم من عداء دكتور فولليوت ورئيس الجمعية الملكية . ومع ذلك فلم ينته التحامل على التعليم العام الا بعد نضال شديد . وشاهد ذلك أنه عندما أنشأ جدى فى عام ١٨٥٣ مدرسة فى قرية بيترز هام (حيث كان يعيش) احتج سادة الجهة قائلين « أنه قضى على الطابع الارستقراطى الذى كانت تنسم به الجيرة حتى الآن » . كلا . ان هذا التحامل لم ينته حتى اليوم .

وهناك نقطة أخرى مهمة فى السياسة البنتمامية وهى العناد للنزعة الاستعمارية . فبنتمام لم يكن يرى ، حتى عندما كان محافظا ، أية جدوى فى ممتلكات ما وراء البحار . وقد كتب وقت أن كانت الثورة الفرنسية فى ذروتها بقلا عنوانه « حرروا مستعمراتكم : الى المؤتمر الوطنى فى فرنسا سنة ١٨٩٣ مينا عدم الفائدة من وجود مستعمرات نائية لاية دولة أوربية وما لها من الأضرار » . وقدم هذا الكتاب الى تاليران . ولم يكن هذا رأيا يعرضه على الفرنسيين بالنسبة للمستعمرات وحدهم ، بل انه كان يدين بهذا الرأى بالنسبة للمستعمرات البريطانية . وقد اقتنع بوجهة نظره صديقه اللورد « لانسداون » الذى قال فى مجلس اللوردات سنة ١٧٩٧ « ليس هناك خير للأسبانيين أفضل من أن نريحهم من لعنة المستعمرات (أمريكا الاسبانية) ، وأن نجعلهم شعبا نشطا مثل جيرانهم . وليس هناك شر لانجلترا أكبر من اضافة هذه المستعمرات الى ممتلكاتها التى أصبحت فعلا أكبر مما يجب » . وقد احتفظ أتباع بنتمام اللاحقون فى مجموعهم بوجهة نظره نفسها فى هذا الموضوع . لانهم لم يروا أية ميزة اقتصادية فى السيادة على البلاد الاجنبية باعتبارهم من أنصار حرية التجارة ، كما كان ينقصهم الشعور بالكبرياء الامبراطورى . وكان الأحرار فى القرن الثامن عشر استعماريين أكثر من المحافظين ، وفى القرن التاسع عشر كان البنتماميون ، وهم أكثر الشيع تمثيلا للأحرار ، من الداعين الى مبدأ « انجلترا الصغيرة » ، غير أنه ثبت أن الكبرياء الوطنية أقوى بكثير من الفلسفة فى هذه الناحية . وفى الوقت الذى كان فيه البنتماميون فى أوجهم ، كان بالمرستون معبود حزب الاحرار ، لانه وضع هيبية بريطانيا فى المقام الاول قبل أية فلسفة تحت الشمس .

وينبغى أيضا الاعتراف بأن بنتمام نفسه انحرف عن اتجاهه العالمى المتشدد فى موضوع بذاته . فبعد أن التحق جيمس مل بخدمة شركة الهند الشرقية ، أحسن هو وبنتمام بأن ميدانا جديدا قد فتح أمامهما للتجربة . وكان بنتمام يأمل أن يوصى بوضع قانون للهند وقال فى ذلك : « سأكون مشرع الهند البريطانية بعد وفاتى . فبعد عشرين عاما من وفاتى سأكون حاكما مطلقا » . ويضيف « هالفى » بعد أن أورد هذه الجملة عن بنتمام : « بعد ثمانية وعشرين عاما من وفاته صدر قانون الهند الجنائى ونفذ ، وكان من وضع ماكولى تحت تأثير

بنتام وجيمس مل ، ومعنى هذا أن بنتام الذى أخفق فى وضع قانون لانجلترا ، أصبح فعلا مشرعا لاوسع ممتلكاتها رقعة « (X) » .

وكانت وجهة النظر الاخلاقية عند النتاميين غريبة نوعا ما . فقد كانوا متحررين من الناحية الفكرية ، وكانوا من الناحية النظرية يعيشون من أجل اللذة ، وفى الناحية الاقتصادية يعتقدون أن الرجل العاقل يجب أن ينشد تحقيق مصالحه الشخصية المالية . وكانوا من الناحية السياسية يدعون الى احداث تغييرات كبيرة ، فى غير حرارة ولا حماسة وفى غير أى مظهر للكسرم العاطفى حتى عندما كانوا يعملون ضد مصلحتهم ومصلحة طبقتهم ، وقد أبدى بعضهم ، وخاصة بنتام ، عدم اهتمام بالمصالح المالية الشخصية يندر وجوده ، واستعدادا للتضحية بمبالغ كبيرة فى سبيل الصداقة أو المصلحة العامة ، أما فيما يتعلق « باللذة » فإن المرء يحس بأنهم قرأوا عنها فى الكتب وظنوا أنها لا بد أن تكون شيئا حسنا ، ولكنهم لم يعرفوا شيئا عنها فى حياتهم الخاصة ، وأن تحررهم الفكرى لم يصل بهم الى أن يقترفوا عملا يناقض التقاليد الاخلاقية التى يتقبلها الناس ، مع جواز استثناء الدعوة للمالتسبية الحديثة التى كان يقوم بها جيمس مل فى وهن ، والدعاية التى قام بها بليس فى جراءة أكبر لهذه الفكرة نفسها . وقد كانوا جميعا باستثناء بليس رفاق كتب لا أكثر ، وكان العمل الذى وجدوا فيه المتنفس الطبيعى لنشاطهم هو الكتابة . ولم يكن فى حياتهم صراع ، فليس فيهم واحد يعرف كيف يتعامل مع تاجر خيل غشاش أو مقامر مختال أو حتى سكير من النوع العادى .

وأخلاق جيمس مل كما يصفها ابنه تعتبر نموذجا لما كانت عليه شيعته : « فى الاخلاق كانت مشاعره حية متصلة فى كل المسائل التى أعتقد أنها مهمة لخير الانسان ، هذا مع أنه لم يكن يحفل بالمرء بكل المبادئ الاخلاقية السائدة (وان كان ذلك لا يظهر فى تصرفاته الشخصية) وكان يعتقد أن هذه المبادئ لا أساس لها سوى المنسك والترهات الكهنوتية . فكان مثلا يتطلع الى وجود حرية أكبر فى العلاقات بين الجنسين ولكن دون أن يحدد بدقة ما ستكون عليه أو ما يجب أن تكون عليه ، ظروف هذه الحرية بالضبط . ولم يكن هذا الرأى متصلا عنده بأى احساس شهوانى لا من الناحية النظرية ولا من الناحية العملية . بل انه على العكس من ذلك ، كان يتوقع أن من النتائج الحسنة لزيادة الحرية أن أخيلة الناس ستتنصرف عن العلاقة الجسدية وما يتعلق بها ، وعن رفع قيمة هذه العلاقة الى الحد الذى تصبح فيه أحد الاهداف الرئيسية فى الحياة . وذلك تحول فى التخيل والمشاعر فى موضوع كان يعتبره من أعمق الشرور فى العقل البشرى وأكثرها انتشارا فيه » .

وكان في الواقع ينظر الى العلاقة الجنسية كما أنظر أنا الى كرة القدم . فليس لدى أية رغبة في أن أمنع الناس من مشاهدة مباريات كرة القدم ، ولكني لا أستطيع أن أنصور لماذا يشاهدونها وأرجو أن يجيء اليوم الذي يصبحون فيه أعقل من أن يرغبوا في مشاهدتها . ولو كنت أعيش في بلد تعتبر كرة القدم اثما ويلعبها الناس سرا بينما يتظاهرون بأنها شيء غير معروف في البلد ، فلربما وجدت ما يدفعني الى الانتصار لقضية لاعب الكرة المضطهد ، دون أن أتحمس كثيرا لهذا الانتصار ، وهذا يمثل وجهة نظر هؤلاء الرجال المهذبون جدا . من أنصار مذهب « اللذة غاية الحياة » فيما يتعلق بالمبادئ الأخلاقية للعلاقة الجنسية .

وكانت الفضيلة التي يضعونها عملا في المقام الاول من الفضائل هي الحرص وحسن التبصر . وكان لهذا أسباب عدة . منها ماالتس : لقد كانوا يرون أن الزواج في الصغر وتكوين أسرة كبيرة هو أشنع الجرائم ، وليس غير الحرص شيء يساعد الناس على تجنبها . وسبب آخر هو : أن أولئك الذين لديهم رأس مال مهما صغر يسهل عليهم استثماره ، أما الذين ليس لديهم رأس مال مطلقا فإن الحياة تكون بالنسبة لهم صعبة . وسبب ثالث ترك أثره في جميع الآراء على اختلاف أنواعها ودرجاتها هو الخوف من الثورة الفرنسية والشعور بأن مثل هذه الاحداث لا يمكن تجنبها الا بالتحكم في العواطف والانفعالات .

وكان لدى أصحاب المذهب النفعية فضيلة أخرى متصلة اتصالا وثيقا بفضيلة الحرص تلك هي الصحو الذهني ، فقد كانوا يناقشون بعناية كل شيء يتناولونه بالبحث ، ولم يدر بخلدهم أبدا أن هناك مسائل يدركونها على ضوء الفطرة ، وقلما كانت العواطف تضللهم ، وعلى الرغم من أنهم كانوا منظمين ، فإن حب النظام لم يؤد بهم الى ارتكاب أخطاء ما كانوا يرتكبونها على أي الاحوال . وقد انحدر اليهم لجزء كبير من هذا الصحو الذهني من «لوك» ، « ففي مقاله عن الإدراك الانساني » « Human Understanding »

فصل نقدي عنوانه « عن الحماسة » موجه ضد شيع كرومويل . وقد احتل النظاميون (Methodists) مركزا مماثلا لهذا ، من الناحية الفكرية لا من الناحية السياسية ، في عهد أنصار مذهب النفعية . فقد كان النظاميون يعرفون كل شيء عن العالم الآخر الذي كانوا يعتبرونه أهم من حياتنا على هذه الارض . ولم يكن البنتميون يدركون شيئا عن هذه الموضوعات وأمثالها فهم لم يكونوا ملحدين ولكنهم كانوا ممن عرفوا بعد ذلك باسم « اللا آدرين » فقد كانوا لا يصعدون أحكاما حيث لا يوجد دليل - وهي سنة تدعو الى الاعجاب بقدر ما هي نادرة الوجود .

وكان أصحاب المذهب النفعية ، وما زالوا ، موضع سخرية الناس لما

يتصورونه عنهم من أنهم يحكمون على جميع الاشياء بقدر فائدتها لا على أساس قيمتها في ذاتها . « يقول النفعي ، ما فائدة البلبل اذا لم يكن مشويا ؟ وما فائدة شذى الورد اذا لم تستطع أن تقطر منه سائلا تبساع منه النقطة بعشرة شلنات ؟ ماذا تستطيع أن تصنع من احمرار سحابة في الصباح الا باعتبارها نذيرا للراعي بأن يأخذ معه معطفه الذي لا ينفذ منه المطر عند الخروج (x) ؟ ويجب الاعتراف بأن في اتجاه النفعيين الاوائل بعض ما يبرر هذا الاتهام في الظاهر ، ولكنني أعتقد أن أسامه الاول هو ما توحى به كلمة « النفعية » . وما من شك في أنه لم يكن في مذهب هذه المدرسة ما يبرر هذا النقد الشائع . لقد كان هذا المذهب يقول : « ان اللذة هي الخير . فاذا وجدت لذة في سماع البلبل أكثر مما تجد في أكله فيجب ألا تشوبه . واذا كنت أنت والبلبل تشتركان في التمتع بقدر من اللذة اذا ما تركته يعني أكبر من القدر الذي تتمتعان به لو أكلته ، فان على المشرع أن يصدر من الفوانين ما يجعل واجبا عليك ألا تقتل الطائر . كان هذا هو المذهب . ومنذا الذي يستطيع أن يطلب أكثر من ذلك ؟

وحتى من الناحية المزاجية ؛ فعلى الرغم من أن الفكرة الشائعة عنهم كانت صحيحة بعض الشيء من هذه الناحية ، فانها لم تكن تنطبق الا في حدود معينة . فقد كان بنتام يهوى الموسيقى ، ودفع جيمس مل ابنه جون الى قراءة قدر من الشعر أكبر مما قرأه أى صبتى آخر عاش في عصره . حتى جون نفسه أصبح بعد أن بلغ أشده ذا مزاج شعري ونزعة عاطفية بعض الشيء تهفو نفسه أحيانا الى المسرات العاطفية التي جعلها أبوه عسيرة عليه . والسبب في إطلاق كلمة « نفعية » على هذه الجماعة أن بنتام وأتباعه لم يكونوا يرتضون الاشياء العديمة النفع لمجرد أنها تقليدية . فان اجراءات المحكمة العليا التي هاجمها ديكنز في كتابه « المنزل الاسود » منسلا لم يكن فيها قطعا شيء من القيمة الذاتية التي في أغنية البلبل . ومن ثم كان يجب أن يحكم عليها على أساس من فائدتها ، وعلى هذا الاساس حكم بعدم صلاحيتها . وقد طبق بنتام هذا المعيار على كل ما كان يثقل به القانون الانجليزي من عبث لا فائدة من الاحتفاظ به سوى أن يكون مصدر كسب للمحامين ، وكان يرى أن هذه الفائدة غير كافية ، وبدأ يعمل ليحاول اصلاح هذا القانون . وما من شك في أن المعيار الذي وضعه النفعيون في جميع الميادين المشابهة لهذا الميدان معيار جدير بالاعجاب ، وعلى أساس هذا المعيار كانوا محقين فيما ذهبوا اليه ولعلمهم لم يؤتوا ما أوتى البلبل من فتننة وجمال ، الا أنهم على الاقل أوتوا فضيلة المنفعة .

٦ - الديمقراطية في إنجلترا

الفصل الثالث عشر

الديموقراطية في إنجلترا

جاءت الديموقراطية الى العالم في صورتها المظفرة الواثقة بنفسها من الولايات المتحدة مقترنة بمبدأ حقوق الانسان . وأخذت حركة العرائضيين ، أول حركة ديموقراطية خالصة في إنجلترا ، فلسفتها الكاملة أساسا من أمريكا ، ولكنها فشلت وخلفتها بعد فترة حركة جديدة تطالب بتمثيل الشعب وقاد هذه الحركة أول الامر « برايت » صديق « كوبدن » ، وتولى بعد ذلك قيادتها جلاستون الذى صار تلميذا لكوبدن خلال فترة برلمان ١٨٤٦-١٨٤١ . واستمدت هذه الحركة الناجحة وحيها من الراديكاليين الفيلسفيين الذين كان أهم ماتركوه من أثر فى السياسة البريطانية هو الطابع الذى صبغوا به نظرية الديموقراطية طوال وجودها باستثناء فترة العرائضيين .

ويختلف الشعور الديموقراطى الذى كان موجودا فى إنجلترا من عدة أوجه مهمة عن الشعور الديموقراطى فى أمريكا وفى القارة الاوربية . وسندرس هذا الشعور الاخير فى فصل مقبل . وحسبنا أن نقول هنا أن من أهم أوجه الخلاف أن دعاة الديموقراطية فى إنجلترا لجأوا الى التاريخ والتقاليد . ذلك أن النظم النيابية ، وهى عنصر هام فى الديموقراطية الحديثة ، كانت موجودة فى إنجلترا منذ القرن الثالث عشر بلا انقطاع ؛ ولا جدال فى أن مجلس العموم لم يكن فى وقت من الاوقات ممثلا للشعب ، الا انه كان يمثل طبقات أخرى غير الطبقة الارستقراطية ، وقد استخدمته هذه الطبقات فى القرن السابع عشر فى كفاح قوى ناجح فى سبيل حقوقها . ويقول لورد مورلى فى معرض حديثه عن جون برايت الذى كسب حق الانتخاب للعمال ما يأتى : « أن الزعيم السياسى يحسن صنعا اذ يحاول أن يحتفظ لديموقراطيتنا بطابعها التاريخى . ان جون برايت جدير بأن يكون زميلا لجون هامبدن وجون سلدن وجون بيم لو أنه وجد فى زمانهم . فقد كان يتحلى بروح الزعماء المنتهزين » . وجون برايت نفسه كان من الكويكرز وكان ماثلا فى ذهنه دائما الاضطهاد التقليدى الذى لاقوه أبان حكم آل ستيوارت ، ومن ثم كان يحس بأنه يمثل استمرارا لعهد كرمويل .

وسادت بين الراديكاليين رغبة فى وضع الاصلاح فى صورة العودة الى عادات أسلافنا الأكثر نقاء . وفى أحد الاجتماعات الكبرى الأولى التى عقدها العرائضيون فى الهواء الطلق عام ١٨٣٨ قال « دابلاى » رئيس الاجتماع وهو يطالب بحق الانتخاب لجميع الرجال :

« كان حق الانتخاب العام هو ما درجت عليه البلاد حتى منتصف عهد هنري السادس . فكيف فقدناه ؟ لقد حدث ذلك في أثناء البلبللة التي صاحبت الحروب الاهلية . ذلك أن الناس لم يكونوا يدركون قيمته ولذلك عدل القانون على أساس ادعاءات خلافة في ظاهرها ؛ ولا يزال الانجليز منذ ذلك الوقت حتى الان يشعرون بآثار هذا الاجزاء المنطوى على الخيانة . وقد سرى هذا الشر فينا شيئا فشيئا . فقد كانت البلاد تنعم بالرخاء وكان الناس العاديون في سعة الى حد لا يدرك مداه سامعوه . وكانت الضرائب لا وجود لها تقريبا ، ولم يكن ممكنا فرض ضرائب لان برلمانا ينتخبه الشعب كان يتولى المحافظة على ما كان الناس يكسبونه . الا أننا عندما فقدنا هذا البرلمان تغير كل شيء ، فقد أدركت الطبقة الارستقراطية شيئا فشيئا أن الناس كانوا أغنى مما ينبغي ، ومن ثم سنوا القوانين لعلاج هذا الشر (١) » .

ان دقة دبلداى التاريخية مشكوك فيها ، ولكن من مميزات انجلترا أن يدافع راديكالى متطرف عن آرائه على أساس أنها احياء للماضى البعيد . فقد كان هدف فتنة « وات تايلر » ، التي حدثت ابان العصر الذهبي الذى يتحدث عنه دبلداى ، كان هو الرجوع بالنظام الاجتماعى الى عهد آدم وحواء .

وثمة وجه خلاف مهم آخر بين انجلترا وأمريكا فيما يتعلق بالشعور الديموقراطى، ذلك أنه فى أمريكا كان ذا طابع زراعى بينما كان طابعه الاساسى فى انجلترا صناعيا ومتسما بسمات سكان المدن . فقد أبقى قانون الفقراء القديم العمال الريفيين مستسلمين رغم فقرهم رباستثناء فتنة سنة ١٨٣٠ القصيرة) ، كما أن المزارعين كانوا عادة ينضمون الى أصحاب الاراضى ، لكن الموقف فى المناطق الصناعية كان مختلفا . ذلك أن أصحاب الاراضى لم يكونوا يعيشون بصفة عامة فى أملاكهم ، وكانوا يستصدرون قوانين تقف فى سبيل أصحاب المصانع . كما أن أصحاب المصانع كانوا يعارضون الطبقة الارستقراطية سياسيا بين سنة ١٨١٥ وسنة ١٨٤٦ بسبب الضرائب الجمركية، وقد ضموا اليهم الاجراء الى الحد الذى بدا لهم بعيدا عن الخطر ، وكانت الصناعة تتسع وتتقدم من الناحية الفنية . وهكذا اشتركت جميع العناصر فى توجيه السكان الذين يشتغلون بالصناعة ، العمال منهم وأصحاب الأعمال ، نحو الراديكالية بينما بقيت المناطق الزراعية اقطاعية لا يكاد يطرأ عليها تغيير .

هذا فى انجلترا ، أما فى أمريكا وفى القارة الأوروبية فقد كانت الديموقراطية مرتبطة ارتباطا وثيقا بالقومية ، بينما كانت فى انجلترا عكس ذلك . كما أن حرب الاستقلال فى أمريكا والحروب الثورية فى فرنسا قرنت الديموقراطية بالقوة الحربية للامة ، بينما كانت القوة الحربية فى انجلترا مقترنة بالرجعية وبدوق ولنجتون ، وكانت تستخدم فى اضطهاد الشعوب الخاضعة أكثر منها فى الدفاع عن النفس . ولهذا السبب كانت أيضا الاحزاب

الديموقراطية والسياسة الديموقراطيون في إنجلترا أقل تشبعا بروح الحرب والاستعمار ، وسارت الامور على هذا المنوال حتى تقاعد جلادستون سنة ١٨٩٤

وكان الشعور الديموقراطي في إنجلترا في القرن التاسع عشر منبعثا الى حد كبير من فترة سوء حكم الطبقة الارستقراطية والملكية التي بدأت عام ١٧٦٠ واستمرت طوال حكم جورج الثالث وجورج الرابع . فقد كان مجلس اللوردات يسيطر على مجلس العموم عن طريق نظام «الدوائر الانتخابية العفنة» ، وكانت الحكومة عاجزة وفاسدة الى حد لا يتصوره العقل ، والضرائب فادحة تسحق كاهل دافعيها خاصة أشد الطبقات فقرا لأنها كانت تفرض في الغالب على الضروريات . وكانت السلطة التشريعية للبرلمان تستغل كلها لاثراء اصحاب الاراضي على حساب كل فئات المجتمع الاخرى . وكان كل شيء في حاجة الى اصلاح : التعليم ، والقانون ، والنظام القضائي والسجون والحال الصحية في المدن ونظام الضرائب وقانون الفقراء وكثير غيرها . بينما كان حكام البلاد يقضون وقتهم في صيد الثعالب والاوز البرى ، ويستصدرون قوانين أشد قسوة من سابقتها ، ولم يطق عقل الشعب وانسانيته واحساسه استمرار هذا النظام .

وأخذت الثورة الفكرية صورة الراديكالية الفلسفية ، وكان من حسن الحظ أنه عندما أصبح الاصلاح ممكنا وجد رجال لديهم القسوة على تبيين التفاصيل وكانوا قد فكروا فيما ينبغي عمله . وكان من تأثير بنتام ومدرسته ان الناس قلما كانوا يتشددون بأقوال غامضة عن حقوق الانسان ، وتركت العواطف بصنفة عامة للرجعيين ، وكان طابع المصلحين الاهتمام بالنفعيه . ولعل ذلك هو السبب في أن الحركة التي بعنوها ظلت أكثر من خمسين عاما قبل أن تحدث رد فعل لها .

وكانت المعركة الاولى أصعب معارك الحركة نحو الديموقراطية ، وهي معركة قانون الاصلاح التي تم النصر فيها سنة ١٨٣٢ . وكانت الدعوة الى اصلاح مجلس العموم عن طريق الغاء «الدوائر الانتخابية العفنة» وتوسيع حق الانتخاب قد بدأها فعلا سياسيون ذوو نفوذ قبل الثورة الفرنسية ، الا أنها طرحت جانبا مع غيرها من اصلاحات التقدم التشريعي خلال فترة الحروب الفرنسية . ومع ذلك فقد بقيت مصدر إلهام لذلك الفريق من الأحرار الذين تبعوا «فوكس» . ومن ثم بدأ الأحرار عندما استولوا على السلطة بزعامة جراي سنة ١٨٣٠ بالعمل على اتخاذ اجراء كان في نظرهم من واجب «بت» الأصغر أن يستصدره عندما تسلم مقاليد السلطة لأول مرة ، وعلى الرغم من أن اقتراحاتهم كانت متواضعة فان لهجتهم كانت لهجة الديموقراطية . وشاهد ذلك ماقاله لورد جون رسل عندما تقدم بقانون الاصلاح اذ قال انهم مصرون على ألا يكون مجلس العموم : «مكونا من ممثلين لطبقة صغيرة واحدة أو

لمصالح خاصة ، بل يجب أن يكون هيئة متكاملة تمثل الشعب تنبثق من الشعب وتتجاوب مع الشعب » .

وكان ارستقراطيو حزب الاحرار فى سنة ١٨٣٢ يشبهون الارستقراطيين المصلحين فى فرنسا سنة ١٧٨٩ ، « فميرابو » و « لافاييت » وفريق الملكيين الديموقراطيين «الوراقين» (١) يودون لو أنهم حققوا اصلاحا سليما معتدلا يمنح فرنسا دستورا كثير الشبه بدستور انجلترا بعد عام ١٨٣٢ . فلماذا اذن نجح فريق الاصلاح الدستوري فى انجلترا وأحقق فى فرنسا ؟ لا ريب . أن هناك اسبابا كثيرة لذلك ، ولكن أهمها فيما اعتقد أن الثورة فى فرنسا كانت ثورة مدن وثورة زراعية فى نفس الوقت ، وهو ما لم يحدث فى انجلترا . فقد وجد الارستقراطيون الفرنسيون ، على الرغم من أنهم نزلوا عن امتيازاتهم الاقطاعية ، انهم يواجهون عداء يهددهم بالخراب المالى . وقضى ذلك على حماسهم فى الاصلاح ، وأدى بهم الى استعلاء الاجانب على الثورة . أما المصلحون الانجليز فقد أحمدا الثورة الزراعية بالدم فى بداية المطالبة بقانون الاصلاح ، ومن ثم أحسوا بأن دخلهم فى امان . وتراجعت معارضة المحافظين أمام التهديد بالثورة لان المسألة لم تبد لهم مسألة حياة أو موت بالنسبة للارستقراطية . وهكذا انتقلت السلطة السياسية النهائية فى هدوء الى ايدى الطبقة الوسطى .

وعلى الرغم من أن قانون الاصلاح قد أجاز بوسائل دستورية بحته ، فانه ماكان ليصير قانونا بغير تهديد قوى بالثورة أثمر ثمرته . وكان لابد للطبقة الوسطى من الاستعانة بالعمال كى يؤدى هذا التهديد ثمرته المنشودة ، وتطلب هذا بعث الامل فى نفوسهم . ولم يفد العمال شيئا من المشروع الذى أجاز فعلا ، بل انه حرمهم من حق الانتخاب فى الاماكن القليلة مثل وستمنستر التى كانوا يتمتعون فيها بهذا الحق من قبل . وبينما كانت الطبقة الوسطى تكره احتكار الارستقراطية للسلطة السياسية ، فانها لم تكن تريد نظاما يكون فيه لعمالهم حق الانتخاب . وجاء قانون الاصلاح فى الواقع كما أرادته الطبقة الوسطى تماما . فمنذ سنة ١٨٣٢ حتى وسع ذرائبى حق الانتخاب عام ١٨٦٧ ، كان الوزراء وان ظل معظمهم من الطبقة الارستقراطية ، مضطرين الى الرجوع دائما الى رجال الاعمال واصحاب المصانع والمتاجر . وكانت السلطة النهائية قد انتقلت الى ايد جديدة وتغير طابع السياسة البريطانية .

وكان قانون الاصلاح وما أسفر عنه من نتائج صدمة مريرة للطبقة العاملة بددت أوهامها . وكان من بين أول الاجراءات التى اتخذها البرلمان بعد الاصلاح سن قانون فقراء جديد استحدث النظام الذى وصفه كتاب « أوليفر تويست » . فقد كان قانون الفقراء فى حاجة الى تعديل ، ولا شك فى أن

(١) ناد سياسى فرنسى من انصار الملكية الدستورية تكون عم ١٧٩١ وقد ايده البعاقبة.

النتائج النهائية للقانون الجديد كانت عواقبها الوبيلة أخف من مثيلاتها في القانون القديم . ولكنه انطوى على قسوة ومصاعب لا تحتل كان الداعون اليه يبررونها على أسس مستمدة من أقوال مالتس . لقد ساعدت الطبقة العاملة الطبقة الوسطى في الاستيلاء على السلطة ، وكان قانون الفقراء الجديد هو جزاءها . وانبثق الوعي السياسي للطبقة العاملة من هذه الخيانة . وكما انبثق مالتس من قانون الفقراء القديم ، انبثق ماركس وانجلز من قانون الفقراء الجديد .

وكان أول أثر للصدمة التي فتحت عيون الأجراء هو نمو الحركة النقابية (سيجيء وصفها في فصل ثال) التي قادها روبرت أوين مؤسس الاشتراكية . وعندما انهارت هذه الحركة عاد الايمان بالوسائل السياسية بدل الوسائل الصناعية ، وأدى ذلك بعض الوقت الى حركة العرائضيين . وقد انبعثت هذه الحركة من «اتحاد عمال لندن» الذي أسس سنة ١٨٣٦ والذي كان يدعو الى ست مطالب تضمنتها عرائض هي: حق الانتخاب لجميع الرجال ، وبرلمان سنوي والتصويت السري ، وعدم اشتراط الملكية في الناخب ، ودفع مكافآت لاءضاء البرلمان ، ودوائر انتخابية متساوية .

ولم يكن روبرت أوين يعطف على حركة العرائضيين شأنه تجاه كل حركات الاصلاح السياسي . فهو يقول : «اذا قام بينكم برلمان يختار في العام القادم على أساس حق الانتخاب العام والتصويت السري فالفالب أنه سيكون أقل المجالس النيابية التي حكمت هذه البلاد حتى الان كفاية وأكثرها مشاغبة وأسوأ جمعية عامة حكمت البلاد أثناء تاريخها كله » .

وجاءت الحركة المناوئة لقانون الفقراء الجديد من مصدرين متضادين . فقد عارضه المحافظون والعرائضيون معا باعتباره اجراء يمثل راديكالية الطبقة الوسطى . فكان المحافظون يريدون الابقاء على ما كان يؤدي اليه قانون الفقراء انقديم من خضوع لملك الاراضي الزراعية في الريف ، ولكنهم انزعجوا عندما استحوالت الاجتماعات التي تعقد لمعارضة قانون الفقراء الجديد الى اجتماعات العرائضيين .

« ولقد رفض رجل الدين «ج . س . بل» أن يشترك في مظاهرة كبرى ضد قانون الفقراء القديم قامت في هارتشيد مور لانه كان في النية عرض اقتراح بتأييد حق الانتخاب العام . . . وشكا في العام التالي من أن الاجتماعات التي تعقد ضد قانون الفقراء كانت تتحول الى اجتماعات راديكالية ، وصرح بأنه لن يعمل أبدا مرة أخرى مع الراديكالية . غير أن العرائضيين لم يكونوا أقل منه انتقادا لحلفائهم . فقد كتبت جريدة العهد تقول : (ان المظاهرات التي تقوم ضد قانون الفقراء اذا وضعت في يد محافظ متعصب مثل «ايرل ستانهوب» بن أخى ذلك الحقير ، أداة الاستبداد الدموي ، وليم بت وأجد المعجبين به ، تصبغ لاشيء سوى خدعة حزبية ، خدعة يأمل المحافظون من ورائها الاستيلاء على مراكز الاحرار ومرتباتهم ، وهم يبيتون النية على استكمال سلطتهم عندما

يحصلون عليها بطريقة أسوأ مما فعل الاحرار أو ما يمكن أن يفعلوه (١) .

وعلى الرغم من أن الاجراءات التي دعى اليها «العهد» كانت سياسية بحتة فان أهداف العرائضيين النهائية كانت اقتصادية . وفي ذلك يقول مؤرخهم جاميغ (وهو واحد منهم) :

« تنظر الجماهير الى الطبقات التي تتمتع بحق الانتخاب والتي تراها تنعم بالثراء ، وتقارن هذا الثراء بالبرؤس الذي تنمرغ فيه . واذا ما وزنا الامور بهيزان المنطق السليم وتتبعنا اسبابها ونتائجها ، لم نعجب من وصولهم الى هذه النتيجة وهي أن حرماننا من السلطة السياسية هو السبب في وضعنا الاجتماعي غير الطبيعي» .

الا أنهم بوصفهم هيئة لم يتجاوزوا مطلقا حدود النفط الست أو يناقشوا التفسيرات الاقتصادية التي كانوا يعتزمون اجراءها اذا سنولوا على السلطة حتى يتجنبوا ما قد يحدثه ذلك من بلبلة في النتيجة النهائية .

وقد قضى على الحركة العرائضية قبل أن تحقق أيا من أهدافها ، فقد عرقلها سجن كثير من زعمائها ، وكانت تعاني انقساما داخليا في مشكلة حكمة الالتجاء الى القوة المادية . ولكن السبب الرئيسي في انهيارها كان ظهور «العصبة المناهضة لقانون الغلال» التي اثارته مشكلة كانت مصلحة الطبقة الوسطى والطبقات العاملة فيها واحدة . ووضع الهياج الذي صاحب المطالبة بحرية التجارة وكذلك التحسن السريع في حالة الاجراء بعد الفاء قانون الغلال حداً لتلك المرارة التي كانت تحسها الطبقة العاملة ضد سياسي الطبقة الوسطى . وكان جون برايت ، وهو أحد أصحاب مصانع القطن من الطبقة الوسطى وزميل كوبدن في الحركة المناهضة لقانون الغلال ، هو الذي تزعم حركة منح عمال المدن حق الانتخاب ، ولم تكن له مصلحة خاصة في توسيع حق الانتخاب ، وكان الدافع الرئيسي له في ذلك كرهه للحرب . فقد عارض في حرب القرم وفقد نتيجة لذلك مقعده في البرلمان بصفة مؤقتة . وكان يكره نعمة الحرب والخيلاء التي كان يتحدث بها بالمرستون والتي كانت تحببها الكثرة الغالبة من الطبقة الوسطى ، واعتقد أن العمال سيؤيدون سياسة أقل ميلا للحرب . وقد استطاع بالمرستون مادام حيا أن يحبط كل مجهودات برايت الاصلاحية ، فلما مات عام ١٨٦٥ بدأ الاحرار يحسون بأنهم يجب أن يكونوا متحررين ، وبدأ ذرنايلي العمل على تثقيف حزب المحافظين . وكانت النتيجة أن زال عمال المدن حق الانتخاب سنة ١٨٦٧ . أما العمال الزراعيون فقد اعتبروا ، لأمر ما ، أكثر خطورة وكان عليهم أن ينتظروا الى أن جاء جلاستون ومنحهم حق الانتخاب سنة ١٨٨٥ .

٧ - حرية التجارة

الفصل الرابع عشر

حرية التجارة

وجهت الطبقة الوسطى فى انجلترا بعد أن استولت على السلطة السياسية سنة ١٨٣٢ جهودها بطبيعة الحال نحو تعديل القوانين بحيث تزيد من ثرائها . كان هناك نوعان من التشريع لابد منها لتقدم الأمة : أحدهما تحسين الحالة فى المصانع والمناجم ، والثانى إلغاء القوانين التى كانت تعرقل الحركة الصناعية . وكان النوع الثانى وحده هو الذى يتفق ومصالح أصحاب المصانع . الا أن أهم بنوده ، وهو إلغاء الضرائب على الغلال ، كان يتعارض مع مصلحة ملاك الاراضى الزراعية ، ومن ثم لقي معارضة شديدة من الكثرة الغالبة من الطبقة الارستقراطية . وعندما كان أنصار التصنيع يتجدثون عن مضار ارتفاع ثمن الخبز ، كان أصحاب الاراضى يردون عليهم بالإشارة الى مساوىء استخدام الاطفال فى المصنع وطول ساعات العمل فيها . ونجح كل من الفريقين فى آخر الامر فى اصلاح الشرور التى كان الطرف الاخر يستفيد منها : فنجح لورد سافتسبرى فى الحصول على موافقة البرلمان على «قوانين المصانع» ونجح كوربن فى استصداره قانون «حرية التجارة» . وكان النزاع بين أصحاب المصانع وملاك الاراضى موقفا سعيد النتائج ، لانه أجبر كلا من الفريقين على الالتجاء الى قوم أختيار لا مصلحة لهم .

بيد أن الفريقين المتنازعين لم يكونا على قدم المساواة ، لان أصحاب المصانع كانوا يخلقون وسائل جديدة فى الانتاج بينما اقتصر دور ملاك الاراضى على تلقى الريع فحسب . وكان رجال الصناعة البريطانىون فى ذلك الوقت ممثلين نشاطا لا يعرفون رحمة ولا هوادة ممثلين بتلك الثقة بالنفس التى تصحب النجاح والسلطة الحديثة . وكان الكثيرون منهم قد ارتفعوا عن طريق مجهوداتهم وحدها . وقد تبعوا الراديكاليين فى ايمانهم بالمنافسة باعتبارها القوة الدافعة للتقدم ، وكانوا ضيقى الصدور بأى شيء يخفف من حدتها . فطالبوا بإلغاء الحماية الضرائبية على السلع التى يصنعونها وعلى البضائع التى ينتجها غيرهم ، فقد كانوا يشعرون بأنهم اذا منحوا ميدانا مبرءا من التمييز فسيفوزون حتما .

ولم يكن كفاحهم فى موضوع حرية تجارة الغلال فى سبيل مصالحهم

الخاصة فقط ، بل كان موجها أيضا في سبيل مصلحة بلادهم ومصلحة العالم أجمع . ذلك أن القمح يمكن انتاجه في بلاد أخرى بنكلفة أقل منها في إنجلترا ، بينما يمكن انتاج المنسوجات القطنية في إنجلترا بتكاليف أقل منها في غيرها من البلاد . فاذا ما أصرت إنجلترا على انتاج غذائها بنفسها فان مجموع الثروة التي يمكن توزيعها بين جميع السكان تقل عما يكون لو أن إنجلترا انتجت غذاء أقل ومسوغات أكثر . ومن هذا المجموع الأقل كان نصيب ملاك الارض الذي يستولون عليه في صورة ريع ، أكبر مما يكون لو أن أسوأ الأراضي تركت بورا . ويسنتج هذا كله من قانون ريكاردو في الريع الذي يقول أن ريع قطعة من الارض يمثل الفرق بين غلتها وغلة أسوأ قطعة تزرع من الارض . ومن ثم فان حرية التجارة ستفيد بلا شك الطبقات التي لا تملك أرضا ، فستزيد ثروة البلاد ، وسيحصلون على نسبة أكبر من المجموع الزائد . ومن ثم كانت حرية التجارة في مصلحة الطبقات الصناعية بشقيها ، العمال وأصحاب الاعمال .

وكذلك كانت حرية التجارة في مصلحة العالم كله . ذلك أن الامم التي تشتري منها بريطانيا العظمى حاجتها من الغذاء ستزاد ثروتها ، فضلا عن أن المنفعة التجارية المتبادلة ستهدىء من حدة المنافسات الدولية ، وبذلك تعمل على تدعيم السلام . هذا على الأقل ما كان يعتقد دعاء حرية التجارة .

وبهذه الطريقة نشأ موقف استطاعت فيه طبقة قوية أن تدافع عن مصالحها الخاصة وأن تدعم في نفس الوقت الخير العام . ومثل هذه المواقف قديمة بأن تعمل على ظهور زعماء من ارجال ذوي الافق الانساني الواسع ، يختفى فيهم عنصر المصلحة الشخصية خلف المصلحة العامة . وكان كوبدن قائد معركة حرية التجارة من هذا النوع . فهو صاحب مصنع قطن يدرك كل الادراك الميزات المادية التي تجنيها طبقته من حرية التجارة ، الا أنه كان في نفس الوقت عالما تعتبر حرية التجارة بالنسبة له جزء من قضية أكبر هي قضية السلام العالمي . ولكنه عندما كسب لزملائه قضية حرية التجارة ، وجد أسفا أنهم لا يبالون ببقية برنامجه . فقد كان اتجاهه للمصلحة العامة ورقة رابحة في أيديهم طالما اتفق ذلك ومصالحتهم الشخصية ، ولما لم يعد كذلك انقلبوا عليه .

وكان لكوبدن نظرة عامة في السياسة ظلت طوال حياته لا تلقى حظها من التنفيذ في معظم الاحوال بسبب نفوذ المرستون المضاد لها ، الا أنها صارت بعد ذلك ذات أهمية كبرى اذ تبناها ، في معظم مظاهرها ، جلاستون وفريق من حزب الاحرار الذين كانوا أقل تعصبا لحزبهم . هذا الى أن التقدير الذي حظى به اثر نجاحه في الحركة المناهضة لقانون الغلال جعل المذاهب التحررية الاوروبية تتأثر الى حد بعيد بوجهة نظره ، وأكسبته أهمية لم تكن مقصورة على بريطانيا وحدها .

وكان كويدن كغيره من المصلحين يعمل بوحى من الادراك الفطرى السليم ، فقد كان يرى أن الأمم ينبغي أن تنشده الثروة القومية دون اعتبار كبير لمسائل مثل المجد واتساع رقعة الارض . فكان يدعو الى السلام ، لاعلى أساس مجرد مسلم بصحته مقدا بل على أساس أن الحرب والاستعداد للحرب عملية خاسرة اذا نظرنا اليها على أنها من أعمال الاستثمار . وكانت حجته فى دفاعه عن فكرة العالمية أن القومية تقلل من ثروة الجنس البشرى . وفى نفس الوقت كان يختمفى وراء هذا الستار الاقتصادى قلب رحيم وقدر كبير من العاطفة الانسانية . ولسنا ننكر أنه كان غافلا عن الظروف السيئة التى يعمل فيها العمال الصناعيون ، ولكن سياسة حرية التجارة لاشك رفعت أجورهم العملية الى حد كبير كما كزن كويدن يؤكد باستمرار . ولم يكن مؤمنا بمالنس أو « بالقانون الحديدى للاجور » ، فقد ظل طول الحركة المناهضة لقانون الغلال يردد دائما أن حرية التجارة فى المواد الغذائية ستفيد كلا من أصحاب الاعمال والعمال فى الصناعة ، وقد أثبتت التجربة أنه كان على صواب . وكانت آراؤه الاقتصادية معقولة وعملية ، وليست نظرية جامدة مثل نظريات جيمس مل وماك كولوخ الاقتصادية ، فقد كان يختار من حجج الاقتصاديين ما يدعم حرية التجارة ويتجاهل ماعداها .

لقد كان المألوف فى أيام كويدن ، وهو مألوف أكثر فى الوقت الحاضر ، اتهام كويدن بأنه رجل تحدده دوافع دفينه ، يعتقد أن أهم شيء لاية أمة هو الثراء المادى . وشاهد ذلك أنه عندما عارض كويدن وبرايث فى حرب القرم (وهى حرب كان شعور الامة فيها هائجا فى جنون كشعورها أبان الحرب الكبرى) ، قال الناس أن ذلك يدل على أنهما رجلا لا يستطيعان الارتفاع عن مستوى الماديات . وقد عبر تينسون فى « مود » عن هذه النظرة فى أبيات جديدة بأن تذكر دائما تحذيرا « للمثاليين » .

وهاك وصف تينسون لبرايث وهو يخاطب اجتماعا للسلام :

فى الاسبوع الماضى جاء رجل الى بلدة فى الريف ،

ليخطب منددا بجيشنا الصغير المسكين ،

ويلعب لعبة لعبها من قبل الملوك الطغاة ،

وان كانت الدولة أيضا قد لعبتها مثله أكثر من مرة ،

هذا الذى يرتدى القبة العريضة ويتشوق بالاشياء المقدسة . وقد

أصم قطنه أذنيه وأعماه بريق الذهب .

وحتى فى أحلامه تتردد أصداء رنين نقوده ،

ذلك الحقيق ، أخذ يندد بالحرب .

وعند ما رأى تينسون أن حرب القرم قادمة ، كانت تأملانه كما يلى :

جال بخاطري أن حرباً ستنشأ دفاعاً عن الحق ،
وان طغياناً جديداً سيحتمى رأسه الآن أو ينقض ،
ويعود مجد الرجولة الى عرشه القديم ،
ولن يكون لبريطانيا من صاحب المال اله لاله غيره ،
ولن تكون التجارة هي الكل في الكل ،
ولن يردد السلام في المراعى نعمات متقاعسة ،
ويرنو بنظره الى الحصاد ينضج ، والى القطعان تتكاثر ،
كلا ولن تقبع طلقات المدافع حتى يعلوها الصدا على شاطئ التخاذل ،
وتنتهى القصيدة بأبيات مشتعلة بالوطنية النبيلة :

... صحوت لأهداف أسمى

لأرض فقدت بعض شهوتها للذهب ،
وحبها لسلام مليء بالمظالم والمخازى ،
بشعة ، كريهة ، وحشية ، لاتذكر فى حديث ،
ولأحى مرة أخرى علم المعركة يرفرف عالياً
وان كانت أضواء كثيرة سنخبو ، وتبكي عيون كثيرة
أولئك الذين يسحقهم صدام الادعاءات المتعارضة ،
غير أن غضب الله الحق سينزل على مارد كاذب ،
وستخفى الظلمات نفسها فى النور ،
وتتلاهاً فجأة أسماء تحيطها هالة من البهاء ،
ويصبح الفكر النبيل أكثر حرية تحت الشمس ،
وينبض قلب الناس برغبة واحدة ،
والآن ، على حافة البحر الاسود وأعماق البحر البلطى ،
ومنافذ المعازل تكشر عن أنياب فيها الموت ، تشتعل
زهرة الحرب الحمراء كالدم بقلب من نار ،
فدعها تشتعل أو تنطفئ ، وتعصف الحرب كالريح ،
لقد أثبتنا أن لنا قلوباً نضحى بها فى قضية ، ما زلنا والنبيل فينا ،
وقد استيقظت ، كما يبدو ، الى عقل أفضل ،
لقد أحسست بأحاساس بلادى ، وأصبحت واحداً من عشيرتى ،
وأمنت بمقاصد الله ، وبالقدر المكتوب ،
غير أن مشاعر كوبدن كانت خلال حرب القرم أقل تهيجاً مما تدعو
اليه قصائد تينسون ، يشهد بذلك قوله :

«لم تشعر الطبقة العاملة حتى الان بانثار الحرب فى صورة التعطل من

العمل ، بل شعرت بها فى صورة ارتفاع سعر الغذاء الذى أثر تأثيرا شديدا فى العمال غير المهرة الذين يتقاضون أقل الأجور . وكان الفريق الأكبر من هذه الطبقة ، طبقة العمال الزراعيين - تلك الجماهير الصماء الضعيفة الذين لم يسمعو قط أصواتهم فى صخب السياسة أو يشعروا الناس بوجودهم فى أية حركة اجتماعية - هم أكثر من قاسى العذاب من جرائها . ان لدينا مدرسة من العاطفيين تقول لنا أن الحرب تعلى من كرامة الانسان الأصيلة وتقضى على قوة المال وعبادة الذهب وما الى ذلك من عبارات . ألا فليس هؤلاء فى الريف (فهم فى حاجة الى ما ينعش نفوسهم) - سواء فى المروج أو فى المستنقعات أو الغابات أو فى أى جزء من هذه الجزيرة جنوبى نهر «الترنت» ، يجدون أن متوسط أجور العمال الزراعيين ، فى هذه اللحظة ، أقل من اثنى عشر شلنا فى الاسبوع ، وليسألوا كيف تستطيع أسرة من خمسة أشخاص ، وهو أقل من متوسط عدد أفراد الأسرة عندهم ، أن تعيش وتؤمن الخبز بنسبنا ونصف بنسب للرتل . انهم لن يجدوا من يستطيع الاجابة عن هذا السؤال .»

وقد ظل التناقض بين الادراك الاقتصادى السليم و «المنالية» ، الذى بلغ مرحلة خطيرة فى حرب القرم ، قائما منذ ذلك الوقت ، وكان من سوء حظ البشر أن كان «المناليين» هم الفائزون بصفة عامة . وانست أقول أن لاشيء خيرا من الرخاء المادى واعتمد فذلك على القضايا الاخلاقية المجردة ، ولكنى اتفق مع كوربدن فى أن خير الاهداف السياسية التى كان لها آثارا اجتماعية هامة ولا يزال أهم هذه الاهداف هو السعى لتحقيق الثراء العام . بل أقول أكثر من ذلك : انه عندما ينصح الذين امتلأت بطونهم الفقراء بأنهم يجب أن يسموا بأرواحهم فوق مطالب المعدة ، أحس بأن الامر كله نفاق يبعث فى النفس الاشمئزاز . وقد كان لهذه «المنالية» التى يسهل على الألسنة أن تلوكها عدة صور . ففى أسوأ فترات حرب نابليون كان النظاميون والمبشرون بالانجيل ينصحون الفقراء بأن يركزوا آمالهم فى الجنة وأن يدعوا الاغنياء يتمتعون بما يملكون على الارض . وجاء من بعدهم من يطيب لهم نزع العصى - الوسيطى على اختلاف مشاربهم : كولريديج وكارليل وذررايلى والرسائليون (المدافعون عن سلطة الكنيسة) وغيرهم من أصحاب المذاهب التى كانت فى جوهرها رد فعل لظهور الآلة وأصحاب الثروات الصناعية . وأهم من ذلك كانت هناك وجهة النظر القومية التى كان يمثلها بالمرستون فى انجلترا أيام كوربدن ، والتى ثبت أنها اقوى من دعوة كوربدن ومن الاشتراكية - حتى وقتنا الحاضر على الاقل .

وليسست هذه العقائد «النبيلة» كلها على اختلاف انواعها ، سوى متنفسات لانفعالات خافية من القسوة أو الجبروت أو الطمع . وقد تكون الدعوة الدينية التى تنادى باحتقار العروض الدنيوية موضع احترامنا اذا أدت ، كما أدت دعوة ارنست فرانسيس الى التزام الفقر من قبل الداعى لها ، ولكن عندما تصدر الدعوة من رجل مثل تنيسون لايسعنا الا أن نشك

فى أن الامر أحبولة تنصب ، بطريقة لاشعورية ، للفقراء حتى يظلوا هادئين .
وليست الفئة التى كانت تحفظ بعقلية العصور الوسطى ومنها كولريديج
والرسائليين ، الا قوما يجدون الحياة الحديدية مؤلمة ايلاما يدفعهم الى أن
يبحنوا عن مهرب من الواقع عن طريق الاقيون أو القصص الخرافية أو
اختراع «عصر ذهبي» فى الماضى . ولست أقول أنهم أشرار فاسدون ، بل كل
ما أقوله عنهم أنهم تنقصهم الصلابة التى يتطلبها التفكير الثمر . وقد كان
لدورائيل الذى ترا ده هذه الاحلام نفسها ، من القوة ما يكفى لان يقلب الحقيقة
كى تتفق مع خياله : فقد كان يرى أن امبراطورينا الهندية ، ليست سوفا
للمضامع القطنية فحسب ، بل انها أيضا احياء لأبهة سليمان أو أوغسطس .
الا أنه حين أضفى ذلك المجد الخيالى على الاستعمار ، قد شجع الطغيان
والسلب فيمن أقنعهم بأن يشاركوه خداعه لنفسه . أما مثالية كارليل فهى
من النوع القديم الطراز الذى ينتج لصاحبه عذرا لمعاقبة الاثمين . وهو
يعجب أكثر ما يعجب بالرجال الذين استباحوا دماء البشر : فمثله الأعلى
فى البطولة هو دكتور فرانسوا طاغية بارجواى الذى لم يجد كارليل شيئا
يقوله فى الإشادة به غير أنه شمنق أربعين أفقا دون محاكمة . وليست
مبادئه الاخلاقية المتزمتة فى واقع الامر سوى ستار يخفى وراءه كرهه
للجنس البشرى ، ذلك الكره الذى نشأ عن سوء الهضم المستديم الذى كان
مصابا به . وقد أدت مثله العليا فى صورتها التى كانت عليها ، الى نيتشه
وعن طريقه الى النازية .

أما القومية ، اذا لم تكن هى الجشع السافر غير المقنع ، فيمكن تعريفها
بأنها ربط بين مبدأ اخلاقي أصيل ووحدة جغرافية أو عنصرية . والآن
بها يقولون مثلا : أن طهارة الحياة العائلية أمر من الأهمية بالمكان الاول من
الناحية الاخلاقية وانه يوجد فى خير صورته بين خطى عرض كذا وكذا
وخطى طول كذا وكذا . ويتبع ذلك أن للذين يعيشون فى هذه المنطقة
الفاضلة الحق ، بل ويكاد يكون واجبهم ، أن يقتلوا أى عدد يتراءى لهم من
الناس الذين يعيشون فى المناطق الأخرى ويرغموا من بقى منهم على قيد
الحياة أن يدفعوا جزية . ومما يؤسف له أن الفضيلة العليا التى يمتاز بها
المنتصرون معرضة للزوال خلال عملية الفتح . ولكنى لن أقول أكثر من هذا
عن موضوع القومية لاني سأولى اهتمامى فى مرحلة تالية .

وكان ظهور التطرف فى الوطنية بين الطبقات الوسطى صدمة كبرى
خيبت آمال كوربدن . وفى سنة ١٨٣٥ حين لم تكن هذه الطبقات قد ألفت
السلطة بعد ، دخل فى روعه أنهم سيؤيدونه فى حبه للسلام ، فهو يقول :
«ان الطبقات الوسطى والنشطة فى انجلترا لا يمكن أن تكون لها مصلحة غير
المحافظة على السلام ، ذلك أن أمجاد الحرب والشهرة ومكاسبها ليست من
نصيبهم ، وأن ساحات القتال حقول يستغلها الارستقراطيون وترويضها دماء
الشعب » . ثم يمضى قائلا : « وقد نرى فى بعض الانتخابات المقبلة شعاع

(لاسياسية خارجية) يطبق على الذين يريدون أن يصبحوا ممثلين لناخبين .
أحرار » . الا أن التجربة دلت على أنه كان مخطئا فيما توقع . فقد أصبح
بالمستون ، أكثر أنصار التدخل تهورا ، معبود الطبقة الوسطى بينما فقد
كوبدن مقعده في البرلمان لأنه عارض حرب القرم . وكذلك اعتقد ماركس
أن البروليتاريا لن يقبلوا طائعين نحمل مشاق حروب استعمارية ، بيد
أن ماركس وكوبدن لم يدركا التغيير النفساني الذي ينجم عن الاستحواز على
السلطة السياسية أو الوسائل التي فديستعملها الاغنياء لمدهنة الديموقراطية .
فقد تعارض طبقة لاتتمتع بحق الانتخاب في حرب يثيرها حكماها ، ولكنها
عندما تحصل على حق الانتخاب تحس بأن الحرب «حربها» هي ، وتصبح
حربية النزعة مثل الطبقة الحاكمة السابقة .

• وهم آخر من أوهم كوبدن هو أن التجارة تعمل على نشر السلام .

« ان التجارة هي الترياق العظيم ، كأنها كشمف طبي نافع ووسيلة تعمل
لحقن جميع أمم العالم بمصل المدنية الصحي الواقى . ولن تغادر شواطئنا
كمية من البضائع الا وهي تحمل معها بذور الذكاء والنكير المنمر الى أفراد
من مجتمعات أخرى أقل منا استنارة ، ولن يزور تاجر مراكزنا الصناعية
الا كان حين يعود الى بلاده رسولا للحرية والسلام والحكم الصالح - بينما
تقوم سفننا التجارية التي تتردد الان على كل ميناء في أوروبا وطرقنا
الحديدية التي تشبه المعجزات والتي تشيد بفضلها الامم جمعا خير داعية
واعلان عن قيمة أنظمتنا المستنيرة» .

وجدير بنا أن نبحث الأسباب التي منعت التجارة من العمل على نشر
السلام لانها من بين الاسباب الرئيسية التي أدت الى فشل مذهب كوبدن ،
فنقول أنه عندما تكون هناك دولتان غير متنافستين مطلقا فيمما يتعلق
بالمنتجات المتبادلة بينهما ، أى عند ما تكون كلتاهما غير قادرة على انتاج
ما تشتريه ، فان الناس يشعرون بأن التجارة مفيدة للطرفين وتحقق فعلا
النتائج التي كان يأملها كوبدن . وقد كانت معظم التجارة في عهده من هذا
النوع . فقد كنا نبيع القسم الاكبر من مصنوعاتنا الى بلاد ليس لديها آلات
انتاج ، وكنا نشترى غلات طبيعية لا توجد في الجزائر البريطانية ؛ وعندما
تكون التجارة من هذا النوع فانها تعمل على تشجيع الصداقة بين الأمم ،
أما اذا باع بلد لبلد آخر بضائع يستطيع هذا البلد الآخر انتاجها فسرعان ما يصبح
غضب المنافسين أشد من رضا المستهلكين ، وتتحول الصداقة الى عداة .
وشاهد ذلك أنه في السنوات السابقة على الحرب الكبرى كانت توضع على
جميع البضائع الاجنبية التي تباع في المملكة المتحدة علامات باسم البلد
الذي وردت منه وذلك بمقتضى «فانون العلامات التجارية» ؛ وجعل مرأى
عبارة « صنع في ألمانيا » باسمته رار الناس يعتقدون أن انجلترا
تفقد تجارتها بسبب المنافسة الألمانية ، وهو اعتقاد كان له شأن

كبير في اثاره الشعور العدائى فى البلاد . ولم يكن للحجة التى تساق دافعا عن حرية التجارة التى تقول بأن ثمن الواردات يدفع من ثمن الصادرات وانها بناء على ذلك لاتضر الانتاج المحلى بوجه عام ، لم يكن لهذه الحجة تأثير فى أى وقت من الاوقات فى أولئك الذين يقاسون من المنافسة الاجنبية . . وكانت الصناعة البريطانية فى عهد كورن قد بدأت تلقى منافسة فى جميع البلاد المتقدمة خارج بريطانيا العظمى ، بيد أن أصحاب المصانع فيها كانوا فى مركز أضعف إذا قورنوا برجال الصناعة الانجليز والاسكتلنديين . ولم تكن بريطانيا العظمى تحظى بالحب بسبب رخص بضائعها فى البلاد التى كانت تحاول بناء صناعاتها على النمط البريطانى . وبذلك أدت زيادة التجارة الى زيادة العداء القومى والى نمو شعور عكس الشعور ائذى توقعه كورن . وكانت هذه واحدة من أهم أخطائه فى السيكلوجية السياسية .

وكان كورن من الماحية السياسية معارضا للاستقرائية ، وكان فى أيامه الاولى معارضا للطبقة العاملة وان كان ذلك بدرجة أقل : لقد كان معارضا للاولى لانها تمثل امتيازا وليس لديها عقل ، وللطبقة الثانية لانه كان ينقصها التعليم . وكان يعجب اعجابا شديدا بأمريكا ، ويرجع معظم السبب فى اعجابه الى أن المشروعات الصناعية فى تلك البلاد لم يكن يعوق تقدمها نفوذ الارستقراطية والتقاليد ، والى أن السياسة الخارجية فيها كانت بعيدة عن التدخل فى شئون البلاد الأخرى . وقد اخنار شعارا لنشرته الاولى القول المأثور عن واشنطنون : «ان القاعدة الكبرى عندنا فيما يتعلق بتصرفاتنا تجاه الشعوب الاجنبية هى أن نحد من علاقاتنا السياسية بها بقدر الامكان ونحن نعمل على توسيع نطاق تجارتنا معها» . وقد ظل طوال اشتغاله بالسياسة يحث السياسة الانجليز على الاخذ بهذا الرأى ولكن دون جدوى . وعندما عرض عليه بالمرستون فى سنة ١٩٥٩ منصبا وزاريا رفضه لانه لم يستطع أن يوافق على السياسة الخارجية التى كان يتبعها ذلك الوعد العجوز .

وكان كورن ، على تقيض معظم السياسة فى عهده ، يرى أن الصناعة - لا التسليح - مصدر القوة القومية ، وبناء على ذلك كانت أمريكا فى نظره أهم من روسيا ، فهو يقول :

«ينبغى للمشتغلين بالسياسة الداخلية والخارجية عندنا ، أيا كان لونها ، أن يوجهوا عنايتهم لدراسة الصناعة والاقتصاد والسياسة السلمية فى أمريكا لا لدراسة نمو روسيا ، لان خطر التفوق على انجلترا فى القوة والعظمة انما يأتى عن طريق هذه الميادين التى تعمل فيها أمريكا لا عن طريق مجهودات القوة الوحشية : نعم ، أن منافسة أمريكا الناجحة هى التى نستضعنا ، فى أغلب الظن ، فى المرتبة الثانية بين الشعوب» .

وان وصوله الى هذا الاعتقاد فى سنة ١٨٣٥ لينبىء عن حكمة أكثر مما قد يدركه معظم الناس الان . وقد ظل القيصر حتى فى سنة ١٨٩٨ يتوقع أن تخرج اسبانيا منتصرة فى الحرب الاسبانية الامريكية . وربما كانت الحكومة البريطانية أسرع تقديرا للموقف من وليم الثانى ، الا أنها بلا جدال لم تصل الى الرأى الذى عبر عنه كوبدن الا بعد الحرب الاهلية فى أمريكا . ويقول كوبدن فيما يتعلق بتخلص رجال الصناعة الامريكيين من تدخل النفوذ الارستقراطى ما يأتى :

« ليس هناك ما يصور الظروف المعرقة التى يجاهد فى ظلها بلد قديم ، مثل بريطانيا العظمى ، لمنافسة غريمتها الأحدث عهدا ، أوضح من أن نلقى نظرة على تقدم السكك الحديدية فى الامبراطوريتين .

ففى نفس الوقت الذى يتم فيه يوميا تقريبا فى الولايات المتحدة مصادقة أحد المجالس التشريعية فى ولاية من الولايات على انشاء شركة جديدة للسكك الحديدية بين الهناف وبطريقة لا تكلف سوى دولارات قليلة ، نرى البرلمان البريطانى يعترض بأصواته على عدد من أهم المشروعات التى جاءت فى أعقاب سكة حديد ليفربول .

فشركة لندن وبرمنجهام ، بعد أن أنفقت حوالى أربعين ألف جنيه فى محاولتها الحصول على موافقة المجلس التشريعى على مشروعها ، فشلت فى مجلس اللوردات . وقد استخلصت مما قيل أمام اللجنة هذه الاسئلة ذات الطابع الخاص :

هل تعرف اسم منزل ليدى هيسستنجز ؟ الى أى مدى يقترب الخط الذى تريد انشاءه من هذا المنزل ؟ اذا نظرت من الغرف الرئيسية فى هذا المنزل هل يمر الخط أمام هذه الغرف الرئيسية ؟ كم تبعد عن المنزل النقطة الذى يصبح القطار فيها على مرأى منه ؟ - هل يكون هذا جوالى ربع ميل ؟ - هل يمكن أن يسمع صوت القاطرة فى المنزل من هذه المسافة ؟ - هل يوجد فى هذا المكان أى تقاطع أو جسر للسكك الحديدية ؟ - هل هو على مرأى من المنزل ؟ - واذا راعينا مصلحة البلاد أليس من الممكن أن ينقل الخط الى مسافة أبعد من مقر ليدى هيسستنجز ؟ »

لقد كان لكوبدن كل الحق فى تأكيد مضار سيطرة أصحاب الاراضى الجاهلاء . بيد أن هناك جانبا آخر لموضوع السكك الحديدية الامريكية . لقد حصل أصحاب رؤوس الاموال الذين لا يسيطر عليهم سوى مجالس تشريعية مرتشيه على مساحات هائلة من الاراضى العامة بلا مقابل ، وابتكروا حيلة بارعة لسلب أموال حملة الاسهم العاديين لمصلحة المديرين . فقد اتبعت طرق فنية منظمة فى نقل الثروة أولا من الملكية العامة الى حملة الاسهم فى الشركات ، ثم نقلها

من هؤلاء الى المديرين • وبهذه الطريقة تركزت القوة الاقتصادية في أيدي قلة بلغت من الثراء حدا لم يعرف من قبل •

ويبدو أن كوبدن لم يكن يدري شيئا عن فساد دوائر الاعمال والسياسة في أمريكا ، على الرغم من أن هذا الفساد وجد منذ رئاسة واشنطن الأولى • فقد كان كوبدن كرجال عصره كلهم تقريبا يؤمن بالمنافسة الحرة ، على أن تكون منافسة تسيير وفقا لقواعد معينة ، تلعبه الكريكت • فما كان ليقبل منافسة في شراء ذمم القضاء للتصديق على خرق القانون ، أو في حمل شركات السكك الحديدية على نقل بضائع أحد المتنافسين بأسعار أقل من بضائع غيره • وكان أيضا يرى أن تدخل الدولة بأن تساعد رعاياها على حساب الاجانب خرق للقواعد كما يفهمها هو • فقد كان المفروض أن الدولة ليست سوى حكم يضمن اتباع المتنافسين للقواعد • ويتحدث وليم جيمس عن شباب علم أن الغرض من لعب الكرة هو نقلها الى الجانب الآخر من « قوائم الهدف » ، قام في ليلة مظلمة ووضع الكرة في هذا الجانب • وكان الرجال الذين يشرون بمساعدة الدولة في نظر كوبدن و « مدرسة مانشستر » خارجين على أصول الرياضة خروج هذا الشباب • بيد أن هذا التشبيه لو ذكر لهم لبدا لهم غير عادل الى أقصى حد • بل فكروا فيها على أنها قانون من قوانين الطبيعة • ولما كانوا مواطنين أمناء وشرفاء فانهم لم يحسموا بأن القانون الجنائي الذي يوجد دائما في الصمورة الخلفية للموقف يفرض على نشاطهم قيودا ولذلك فانهم عندما سمعوا بأعمال فاندريلت وجولد صدموا : لان هذا لم يكن ما عنوه بالمرّة !

يجمع ذلك فمما لا سبيل الى انكاره أنه كان منافسة •

وكان كوبدن يعتبر الاستعمار ضربا من الحماقة ، وكانت له آراء عادلة حقة عن الهند ، حتى أثناء التمرد عندما فقد معظم الانجليز رؤوسهم • فهو يكتب ، والجنون حول الموضوع في أوجه ، ما يأتي :

« من سوء حظي أنني لا أستطيع حتى أن أتماون مع الذين يريدون «اصلاح» الهند ، فانا لا أؤمن بقدرة انجلترا على حكم هذه البلاد مطلقا بصفة مستمرة ، وعلى الرغم من أنني أود أن أرى الشركة وقد أقيمت - لانها ستار يخفى عن الشعب الانجليزي مسؤولياته المريعة كالة - فاني لا أعتقد أن التاج يستطيع حكم الهند تحت سيطرة البرلمان • فلو أن مجلس العموم طرح جانبها كل مسؤولياته في التشريع المحلي وكرس نفسه بكليته لمهمة حكم مائة مليون من الآسيويين لفشل ، ان الهند يجب أن يحكمها الذين يعيشون في ذلك الجانب من الكرة الارضية • ان شعبها ليفضل أن يحكم حكما سميئا - حسب رأينا نحن في الحكم - على أيدي رجال من لونه ومن ذوى قرباه وعشيرته على الخضوع - لئلا أن يحكمهم - حكما أفضل - جماعة من الدخلاء العابرين يجيئون تباعا من الجانب الآخر من الكرة الارضية •

ثم يكتب في الوقت عينه الى برايت قائلا :

« ما أسعد ذلك اليوم الذى لا يكون لانجلترا فدان واحد من الارض فى قارة آسيا . غير أنى لا أرى السبيل الى تحقيق هذا الوضع . وانى لأحمد حسن طالعى اذ لست فى مركز يضطرنى الى التصريح علنا بآرائى فى الموضوع الذى يشغل بال الناس جميعا فى الوقت الحاضر ، لانى ما كنت لاستطيع أن أقول ما أعتقد بصراحة وأظل محتفظا بثقة أية دائرة من الدوائر الانتخابية فى المملكة . ترى أين نجد فردا واحدا لا يؤمن بأن انجلترا سيعمها الحراب اذا حرمت من امبراطوريتها الهندية ؟ دعنى اذن لخنازيرى وخرافى ، التى لم يتسلط عليها هذا الوهم » .

ولم يكن كوبدن فى هذا الوقت عضوا فى البرلمان ومن ثم لم يكن مضطرا للتصريح علنا بآرائه عن الهند ، ولكنه كان يحس بأنه فى عزلة أكثر مما كان ابان حرب القرم . فقد وجد أن أصحاب المصانع فى لانكشير ويوركشير كانوا يعتبرون الهند سوفا يجب المحافظة عليها لمصلحتهم بالحرب البريطانية ، وكان يشكو من أنهم لم يفهموا مبادئ حرية التجارة . ويبدو أنه لم يخطر بباله أن الهند اذا ما تركت وشأنها ، قد تنمى صناعة القطن فيها بمساعدة تعريفة جمركية ، ثم تصيح فى غير حاجة الى واردات مانشمستر . ان الاسباب التى تدعو الى عدم محاولة حكم الهند بالقوة اسباب ، فيما أرى ، وجيهة كل الوجاهة ، ولكنى أعتقد أنه كان من الممكن فى ذلك الوقت التوفيق بينهما وبين المصلحة الذاتية المادية التى اتسمت بها صناعة المنسوجات البريطانية . لقد كانت حرية التجارة بالنسبة لكوبدن شيئا أعظم من مجرد اجراء مالى يمليه الادراك السليم ، لقد كانت جزءا من عقيدة أخلاقية متصلة فى النفس . فقد كان يعتقد اعتقادا راسخا أن الامانة خير سياسة ، ومن ثم كان يعمى أحيانا بعض الشئ عن خير سياسة عندما تكون خير سياسة فى الواقع غير أمينة . وقد أثبت تقدم الصناعة منذ عهده الى يومنا هذا أن ما أملاه عليه قلبه فى هذا الموضوع كان خيرا مما أملاه عليه عقله .

ويتعرض كوبدن فى أيامنا للنقد من ناحيتين متضادتين : من ناحية القوميين ، بسبب نزعته العالمية التى أوحى اليه بحماسه لحرية التجارة ، ومن ناحية الاشتراكيين بسبب نفوره من الحركة النقابية وقوانين المصانع . وأعتقد أن النقد الذى وجه اليه من وجهة النظر الثانية ربما كان أشد قسوة بعض الشئ مما كان ينبغى أن يكون . فمما لا ريب فيه أنه كان يريد تحسين حال الطبقات العاملة ، وما من شك فى أنه حسن أحوال هذه الطبقة الى حد يدعو الى الاعجاب . فقد ارتفعت الاجور الحقيقية بسرعة كبيرة منذ اللحظة التى ساد فيها مبدأ حرية التجارة ، باستثناء فترة حرب القرم عندما كنا نحاصر الموانئ التى كان يجيء منها معظم الغلال المستوردة ، وأدى فتح الغرب الأوسط بفضل السكك الحديدية الى تحسين آخر فى الاجور الحقيقية ، ولكنه

ما كان ليوّدي الى ذلك لولا حرية التجارة . وقد نجح لورد شافتسبري ،
الذي عالج مشكلة حالة العمال على أساس انساني ، في اقرار عدد من قوانين
المصانع القيمة المختلفة ، ولكنني لا اعتقد أن باحثنا متزنا يستطيع أن يعزو اليه
قدرا من الزيادة في سعادة الاجراء يوازي ما يجب أن يعزى الى كوبدن . ومع
ذلك فان لورد شافتسبري حظي ، بفضل العاطفية التي تغلب على حكم الناس ،
بتقدير أكثر جدا من كوبدن في هذا المجال .

ومن المستحيل ، بطبيعة الحال ، أن نحكم بدقة على نصيب حرية التجارة في
زيادة رخاء بريطانيا ، بيد أنه واضح على الاقل أنه لو ظل قانون الغلال نافذا
لنتطلب الامر زيادة كبيرة في العمل الزراعي لطعام السكان المتزايدين ، ولكان
الطعام الذي يمكن الحصول عليه نظير قدر معين من العمل في تربة بريطانيا
أقل مما يمكن الحصول عليه بمبادلة المصنوعات بطعام ينتج في الخارج . وقد
بلغت الزيادة في الاجور الحقيقية أيا كانت أسبابها ، حدا عجيبا . فهذا هو ذا
كلابهام يقول أن الاجور الحقيقية ارتفعت بسرعة بين سنتي ١٨٥٠ و ١٨٧٤
ثم انخفضت بعد ذلك بعض الشيء حتى سنة ١٨٨٦ ثم ارتفعت مرة أخرى
حتى فاقت في سنة ١٨٥٠ المستوى الذي بلغته سنة ١٨٧٤ . فقد كان
معدل الاجور الحقيقية في سنة ١٨٧٤ بين ٥٠ ، ٦٠ في المائة أكثر من معدلها
في سنة ١٨٥٠ . وفيما يتعلق بتجارة القطن ، التي كان كوبدن متصلا بها
بصفة خاصة ، فقد كان معدل الاجور حتى في أحلك اللحظات ، أي في سنة
١٨٨٦ ، أعلى من مستواها في سنة ١٨٥٠ بثمانية وأربعين في المائة . أما
فيما يتعلق بالفترة التي سبقت انقضاء قوانين الغلال فقد كانت الاجور النقدية
أقل في سنة ١٨٥٠ منها في سنة ١٨١٠ ، ولم ترتفع الاجور الا ارتفاعا ضئيلا ،
إذا كانت قد ارتفعت على الإطلاق ، بين سنتي ١٨١٠ و ١٨٤٦ ، عندما اعتنق
بيل مبدأ حرية التجارة . إذا نظرنا الى هذه الحقائق تعذر علينا انكار أهمية
كوبدن في رفع الاجور .

وواضح في الوقت نفسه أن كوبدن كان يعارض أي قيود تفرض على حرية
المنافسة بين الاجراء . وكان موقفه من استخدام الاطفال أقل مذهبية . فقد
كان يجهد تحديد ساعات العمل للاطفال وكذلك تحديد السن التي يسمح
فيها باستخدامهم ، ولكنه كان يعارض قانون « الساعات العشر » ، الذي كان
يهدف لضمان عدم عمل الاطفال عشر ساعات يوميا بأن حرم على المصانع أن
تعمل أكثر من هذه الفترة كل يوم . فقد كان التدخل في ساعات العمل
للبالغين يبدو له موضع اعتراض من ناحية المبدأ ، وان كانت التجربة قد دلت
على أن من أصعب الامور تحديد ساعات العمل للاطفال وحدهم تحديدا فعلا .
ويقترح كوبدن في خطاب له في سنة ١٨٣٦ ، بمناسبة ترشيحه في ستوكبورت ،
ذلك الاقتراح الحيالي الذي يقضي بأن يقتصد كل عامل عشرين جنيها من أجره
ليكون في استطاعته أن يهاجر الى أمريكا اذا شاء . ويبدو أنه لم يكن يدرك

مطلقا الشرور التي كشفت عنها اللجان الملكية . وهو يقول بقوة في نشرته الاولى ، عن انجلترا وايرلنده وأمريكا ، انه ينبغي أن نعمل على علاج فقر الفلاحين الايرلنديين قبل أن نتدخل بدوافع انسانية في شئون القارة الاوربية، ولكنه لم يخطر بباله أبدا أن هذه الحجج نفسها تنطبق على ظروف الصناعة في انجلترا .

وهو يعبر بصراحة عن موقفه تجاه النقابات في خطاب كتبه الى شقيقه في سنة ١٨٤٢ ، فيقول : « ثق أنه لا يمكن أن نجني شيء من وراء مصادقة النقابات . فهي قائمة على مبادئ من الطغيان الوحشي والاحتكار . واني لافضل أن أعيش تحت حكم باي الجزائر على حكم لجنة نقابية » . ومما لا ريب فيه أن هذه كانت وجهة نظر غالبية أصحاب الاعمال في عهده ، هذا الى أنها تتفق وايمانه العام بحرية التجارة . الا أنها تصور عدم قدرته على رؤية مشاكل العمل الا من وجهة نظر أصحاب الاعمال .

وكان كوبدن ، بطبيعة الحال ، معارضا لاي نشاط صناعي تقوم به الدولة الا عند الضرورة القصوى . فقد قال في آخر سني حياته في خطاب طويل هام « يجب ألا يسمح للحكومة بأن تصنع لنفسها أية سلعة يمكن الحصول عليها من منتج خاص في سوق يسودها التنافس » .

هذا ولم يكن انتصار حرية التجارة في سنة ١٨٤٩ كاملا . فقد تقرر أن تفرض ضريبة ابتداء من سنة ١٨٤٩ قدرها شلن واحد على ربع الطن من القلال ، وبغيت كذلك بعض آثار الحماية الاخرى ، ولم يبلغ آخرها الا في سنة ١٨٧٣ . وكانت السياسة العامة للحكومة في جانب حرية التجارة حتى سنة ١٩١٤ ، على الرغم من قيام أنصار الحماية بحملة بين سنة ١٨٨٠ و ١٨٩٠ ، وحملة أخرى أكبر منها بدأها جوزيف تشمبرلين في سنة ١٩٠٣ . وكان أكبر سبب في هزيمته في الانتخابات هو ذكريات باقية عن « سنوات الجوع بين سنة ١٨٤٠ و ١٨٥٠ » . وقد تقدمت جميع الطبقات في انجلترا بسرعة غير عادية أثناء الجزء الاول من فترة حرية التجارة بصفة خاصة . ولم يكن السبب في ذلك حرية التجارة وحدها بطبيعة الحال ، فقد كان التفوق الصناعي لانجلترا ومد خطوط السكك الحديدية في عرض القارة الامريكية عاملين أساسيين في هذا التقدم . غير أن هذا التقدم ما كان ليتحقق بهذه السرعة بغير حرية التجارة . وقد أثبتت مذاهب الاقتصاديين ، من سنة ١٨٤٦ الى سنة ١٩١٤ مع بعض تعديلات فيها كانت تحدث من آن الى آن ، أنها كانت كافية ، بصفة عامة ، لان تهيب لجميع الطبقات حياة راضية مطردة التحسن .

أما في غير انجلترا فقد كانت الأوضاع أكثر تعقيدا . نعم ان كوبدن قد حمل نابليون الثالث على السماح بحرية أوسع للتجارة بمقتضى معاهدة سنة ١٨٦٠ التجارية التي ألغت الموانع السابقة على استيراد عدد كبير من السلع

وخفضت الضرائب الفرنسية على كل الواردات تقريبا من انجلترا الى ٣٠ ٪ / أو أقل . غير أن هذه المعاهدة لم تبرم الا بنفوذ نابليون ولم تحظ في أي وقت من الاوقات بالقبول العام في فرنسا . ذلك أن أصحاب المصانع شعروا ، وهو امر طبيعي ، أنهم لا يستطيعون مواجهة المنافسة الانجليزية دون مساعدة التعريفة الجمركية . ومع ذلك ، عقد نابليون معاهدة مماثلة مع الاتحاد الجمركي الالماني بعد ذلك بسنتين ، في الرغم من عدم تحمسهم لهذه السياسة وكانت الطبقة الوحيدة في فرنسا التي رحبت من كل قلبها بحرية التجارة هي طبقة زراع الكروم لانهم كانوا يعتمدون على التصدير . الا أنه عندما أصابهم الحراب ننيجة لاصابة كرومهم بحشرة الفيلوكسيرا اقتنعوا بأن انضرية الجمركية ستمكنهم بطريقة خفية من مقاومة هذه الحشرة البغيضة . ولم يعد في فرنسا من تلك اللحظة أنصار لحرية التجارة سوى عدد قليل من المفكرين المعزولين . الا أن فرنسا لم تقرض تعريفة جمركية حامية مرتفعة عامة الا في سنة ١٨٩٢ ، وذلك بسبب المعاهدات التجارية التي عقدت بنفوذ كوبدن .

وفي ألمانيا ، حيث كان تعدد الدول الصغيرة التي لكل منها جماركها الخاصة يسبب مضايقات لا تحتمل للتجارة ، كانت أهم خطوة نحو حرية التجارة من وجهة نظر رجال الصناعة ، هي انشاء الاتحاد الجمركي الالماني (انزلفراين) ، الذي أصبح يضم بالتدريج كل شمال ألمانيا وبعد سنة ١٨٧١ كل الامبراطورية الجديدة ما عدا هامبورج وبريمن ، وكان أكبر الفضل في اقامة هذا الاتحاد راجعا الى بروسيا . وكان لحرية التجارة بطبيعة الحال ، وهي الحرية التي كان شتاين أول من أدخلها في ألمانيا ، شأن في تكوين هذا الاتحاد ، خاصة قبل الوحدة السياسية . هذا الى أن القوة السياسية كانت أساسا في أيدي كبار أصحاب الاراضي ، وترتب على ذلك أن رجال الصناعة أحسوا بما أحس به أقرانهم في انجلترا قبل سنة ١٨٤٦ . وكان ننيجة لذلك أن الاحرار والطبقة الوسطى من الالمان كانوا في مجموعهم في صف حرية التجارة حتى أحلت ائوحدة الالمانية الشعور بالقومية محل التحررية . وفي سنة ١٨٧٠ دفع بسمارك ألمانيا الى هجر سياسة حرية التجارة التي كانت قائمة فعلا وكانت لها الغلبة حتى ذلك الوقت . ولم يكن للايمان بحرية المنافسة منذ تلك اللحظة شأن في السياسة الالمانية .

وفي أمريكا اعتنق الشمال نصف مذهب كوبدن واعتنق الجنوب النصف الآخر . فكان الجنوب يجهذ حرية التجارة لانه كان يعيش على تصدير القطن وكان الاثر الوحيد للتعريفة بالنسبة له هو رفع أسعار ما يشتريه بيد أن الجنوب كان يعتمد على الرق ، أما الشمال فكانت نديه الديموقراطية والعمل الحر ، ولكنه كان مصمما على بناء صناعاته على أساس تعريفة مرتفعة . ولم تصبح الصناعة في الشمال ذات أهمية حقيقية الا أثناء الحرب الاهلية وبتأثير تعريفة وقت الحزب . ومنذ ذلك الوقت صارت أمريكا من أنصار

الحماية حتى في الاوقات التي لم تكن فيها بحاجة الى الدخل المتجمع من التعريفات وكان مصدر ارتباك للادارة .

ان منزلة كوبدن في القارة الاوروبية كانت عظيمة على الرغم من أن نفوذه في التشريع ، خارج انجلترا ، كان نفوذا ظاهريا قصير الاجل . وقد قام في سنة ١٨٤٦ ، بعد انتصاره الكبير في انجلترا ، برحلة الظافر المنتصر حول أوروبا .

« لقد استقبل في كل مكان استقبال المكتشف العظيم في علم يهم الجنس البشري في مجموعه أكثر من أي علم آخر ، هو علم الثروة . فقد أقتنع أعني بلد في العالم بأن يحدث انقلابا في سياسته التجارية . وكان الناس ينظرون اليه نظرتهم الى رجل اكتشف سرا هائلا . فكانت كل مدينة مهمة تقريبا زارها في جميع بلاد أوروبا الكبرى تحتفل بزيارته باقامة الولايم وشرب الانخاب وخطب النهنئة . وقابل البابا وثلاثة أو أربعة من الملوك وكثيرين من السفراء وكل الساسة النابهين . ولم يترك فرصة واحدة تمر دون كلمة يقولها في موضعها . بل انه رجا قداسة البابا نفسه ، أن يستعمل نفوذه ضد مصارعة الثيران في أسبانيا (*) » .

وكان قداسة البابا حتى ذلك الوقت (١٨٧٤) لا يزال ضالعا مع الاحرار ، ولم يكن قد أدرك بعد أن التجارة تؤدي الى الخطيئة ، فكان في رده على كوبدن كريما جدا . ووعده بالنظر في موضوع مصارعة الثيران ، « وأعلن أنه في جانب حرية التجارة ، وقال أنه سيفعل كل ما في وسعه لنصرة قضيتها ، ولكنه أضاف متواضعا أن ما يستطيع عمله قليل » .

وقابل كوبدن مترنيخ بعد ذلك بأشهر قليلة ، وتحدث اليه مترنيخ فترة طويلة بلا انقطاع ، ولكن الحديث لم يكن عن حرية التجارة . ومن ثم لم يترك أثرا كبيرا في نفس كوبدن الذي اعتقد أن مظهره يدل على « الصقل الجيد أكثر مما يدل على قوة كامنة في الشخصية » ، وأن حديثه كان « مراوغا أكثر منه عميقا » . وبعد المقابلة كتب متفائلا في يومياته :
« يغلب على الظن أنه آخر تلك الفئة من أطباء الدولة الذين يفتنرون على النظر الى الاعراض التي تظهر على الامة فيكتفون بعلاجات سطحية من يوم الى آخر ، ولا يحاولون مطلقا أن ينفذوا الى ما خلف السطح لاكتشاف مصدر الشرور التي يعانيتها النظام الاجتماعي . وستختفي هذه الفئة من الساسة باختلافه ، فلقد سلطت الاضواء على «معامل الحكم» بشدة بحيث لم يعد يسمح لهذه الفئة أن تفرض على الجنس البشري القواعد القديمة » (*) .

وكانت النمسا والروسيا مهذبتيه ، ولكنهما لم تقابلاه بحماسة ، ولكنه حظى في أسبانيا وإيطاليا وألمانيا بحفاوة شعبية منقطعة النظير . ففي أسبانيا

(*) هودل - « حياة كوبدن » (١) ص ٤٦٤

(*) هودل - المرجع السابق - ص ٤٧٤

شبه بكريستوفر كولبوس ، وفي إيطاليا حياه الموسيقيون بأنغامهم ، أما في ألمانيا فقد أهداه المعجبون به من أهلها مبلغا كبيرا من المال . وقد أغضب ذلك تريتشكة الذى كان يبغضه باعتباره « ماديا » ، وقال فى هذا :

« ان التحول الذى تم فى انجلترا قد أوحى لانصار حرية التجارة فى جميع البلاد بثقة فى النفس وفى النصر ، وقد سادت مبادئهم خلال العقدين التاليين فى العالم المتسدين . وفى كل مكان فيه تقريبا . فكل اكتشاف جديد يستطيع القرن الثامن عشر أن يفخر به قد أسهم فى ربط الشعوب بعضها ببعض بحيث بدا أن قطع هذا الرباط بالتعريفات العداوية يكاد يكون مما لا يقبله العقل . وبدأت فترة طويلة من التسامح المتبادل لتسهيل التجارة ، وكان ذلك من عوامل تحسن ظروف الحياة بصفة عامة . ولكن الناس أدرکوا أخيرا تلك الحقيقة القديمة ، وهى أن السوق المحلية أهم كثيرا من التجارة العالمية ،

ويعود الفضل فى ذلك الانتشار الواسع الذى حظى به مبدأ حرية التجارة فى منتصف القرن التاسع عشر الى كويدن ، ولكن آدم سميث كان أول من نادى بهذا المبدأ قبل ذلك بوقت طويل (فى سنة ١٧٧٦) ثم ضاع بعد ذلك فى غمرة الحروب النابليونية . أما الحجج المعنوية المجردة التى تساق دفاعا عن حرية التجارة والتى عرضها سميث وقبلها معظم رجال الاقتصاد البريطانيين فمستمدة من مبدأ تقسيم العمل . فإذا كان (أ) يجيد صنع السيارات و (ب) يجيد عصر الخمر فإنه من الأجدى على الاثنين أن يخصص كل منهما نفسه بصنع ما يجيده وأن يتبادل ما ينتجه مع الآخر . أما إذا أنفق كل منهما نصف يومه فى صنع السيارات والنصف الآخر فى صنع الخمر فإن كلا منهما سيحصل على سيارات أقل وخمر أقل مما إذا قصر جهوده على عمله . وتبقى هذه الحجة صحيحة إذا كان (أ) يعيش فى قطر ، و(ب) يعيش فى قطر آخر . بيد أن هذه الاعتبارات المجردة قلما كانت تؤثر فى الحكومات .

وكان الاقتصادي الألماني « ليست » أول من هيا دفاعا نظريا عن مبدأ الحماية (فى سنة ١٨٤١) . وكان هذا الدفاع هو نظرية : « الصناعات الوليدة » الشهيرة . خذ الصلب مثلا . فقد يحدث أن يكون بلد ما مهيا بالطبيعة لانشاء صناعة ضخمة فى الصلب وتنميتها ، ولكن النفقات الأولية تجعل البدء بهذه الصناعة مستحيلا بسبب المنافسة الأجنبية الا اذا أمكن الحصول على مساعدة الحكومة . وقد كان هذا الوضع قائما فى المانيا عندما كتب ليست ولفترة ما بعد ذلك . بيد أن التجربة دلت على أن الحماية اذا منحت مرة لا يمكن الرجوع فيها حتى بعد أن يكبر الوليد ويصبح عملاقا .

وهناك حجة أخرى ليست اقتصادية بحتة تركت أثرا أعمق فى الحكومات ، وهى أنه يجب على الأمة أن تنتج كل احتياجاتها ، على قدر المستطاع ، فى وقت الحرب . وهذا رأى جزء من مبدأ القومية الاقتصادية الذى لقي معارضة شديدة من مدرسة ما نشستر التى كانت تدعو الى السلام والى مقساومة الاستعمار . وقد أثبتت القومية الاقتصادية فى النهاية أنها أقوى من النظرة

التجارية البحتة التي نادى بها كوبدن ، بيد أن ذلك لم يكن سوى جانب واحد من جوانب نمو القومية بوجه عام .

ان مبدأ حرية المنافسة كما نادى به مدرسة ما نشسטר كان مبدأ لم يأخذ في الاعتبار بعض قوانين القوى الاجتماعية . فأولا ، تتجه المنافسة الى أن تنتهي بانتصار طرف ما ، وتكون النتيجة أن تنعدم المنافسة ويحل محلها الاحتكار ، والمثل الشائع المعروف لذلك حياة روكفلر ، وثانيا ، هناك اتجاه لأن تتحول المنافسة بين الافراد الى منافسة بين الجماعات ، لان عددا من الافراد يستطيعون أن يزيدوا من فرص انتصارهم اذا اتحدوا بعضهم مع بعض . ولهذا المبدأ مثلان هما النقابية والقومية الاقتصادية . وكان كوبدن ، كما رأينا ، يعارض الحركة النقابية . ومع ذلك فهي نتيجة حتمية للمنافسة بين أصحاب الأعمال والعمال فيما يتعلق بتصيب كل منهما في مجموع الانتاج . وقد عارض كوبدن أيضا القومية الاقتصادية . ولكن القومية الاقتصادية نشأت بين أصحاب رؤوس الأموال لدوافع مشابهة جدا لتلك التي أدت الى نشوء النقابية بين العمال . فقد اتضح لرجال الصناعة في كل من أمريكا وألمانيا أنهم يستطيعون زيادة ثروتهم بالاتحاد لانتزاع مزايا من الدولة ، وبهذه الصورة أصبحوا منافسين بوصفهم مجموعة قومية لمجموعات قومية في بلاد أخرى . وكان هذا تطورا اقتصاديا محتوما وان كان منافيا لمبادئ مدرسة مانسستر . وقد فشل كوبدن ، في كل هذه المسائل ، في فهم قوانين التطور الصناعي ، وترتب على ذلك أن مبادئه لم تبق قائمة الا زمنا محدودا .

وعلى الرغم من أن مبدأ حرية المنافسة كانت حدوده تضيق باستمرار من حدوده باستمرار - بواسطة قوانين المصنع ، والنقابات ، والضرائب الحامية ، والموتقات - فقد ظل مثلا أعلى يلجأ اليه رجال الاعمال كلما أريد التدخل في نشاطهم . ولا يزال القائمون على رأس الاحتكارات الضخمة في أمريكا يعلنون أنهم يؤمنون بالمنافسة - وان كانوا يعنون بها المنافسة بين العمال في الحصول على عمل لديهم . وما زالوا - يؤمنون - كما كان فرانسييس بليس يؤمن - بأن المنافسة هي الدافع الوحيد الممكن للجد والتشاط . وقد أصبح هذا الاعتقاد مضرا لانه يعرقل التنظيم حيثما يكون هذا التنظيم أجدى من المنافسة غير المنظمة . ومع ذلك فإنه فقد حدته كثيرا عما كان منذ ستين عاما . فقد كان يبدو في ذلك الوقت كان داروين قد أضفى عليه قدسية باعتباره قانونا من قوانين الكون .

فقد نشر كتاب داروين « أصل الأنواع » سنة ١٨٥٩ . ويمكن اعتباره تطبيقا لاقتصاديات بنتم على عالم الحيوان . والناس جميعا يعرفون أن داروين قد وصل الى مبدأي تنازع البقاء والبقاء للأصلح بقراءته نظريات مالتس . أن جميع الحيوانات مشغولة بالصراع الاقتصادي للحصول على الطعام ، وأن

الحيوانات التي روضت نفسها ترويضاً أكمل على اتباع تعليمات «سمائل» عن «مساعدة النفس» هي التي تعيش وتكون أسراً ، بينما تفنى الحيوانات الأخرى .

ومن هنا ينبعث اتجاه عام نحو التقدم : فأكثر الحيوانات مهارة يفضى بالتدريج على الحيوانات الغبية ، حتى نصل في النهاية الى الانسان .

والداروينية كما تبدو في كتابات مؤسسها ، وكما تبدو أكثر من ذلك في كتابات هربرت سبنسر ، تكملة للراديكالية الفلسفية . بيد أنها تتضمن عناصر كانت تصيب هلفسيوس وجيمس مل ، لو أنهم عرفوها بصدمة ، وبصفة خاصة ما كان منها متصلاً بالوراثة . فقد كان من بين المبادئ التي تميزت بها الراديكالية أن الفوارق الذهنية بين الناس ترجع الى اختلاف التربية . بأوسع معاني هذه الكلمة . الا أن داروين يعتبر الوراثة مقترنة بالتغيرات التلقائية من ضرورات التطور . فهناك عدة أنواع من الحشرات يموت فيها الجيل قبل أن يولد الجيل التالي ، وواضح أن تكيفها مع البيئة لا يعود مطلقاً الى التربية . ولا مناص من أن يؤمن كل فرد من أنصار الداروينية ، بوجود فوارق خلقية في القوى الذهنية بين أفراد الجنس البشري . ان جيمس مل قال لابنه جون أن ما بلغه هذا لا يرجع الى قدرة شخصية فيه بل يرجع الى أن له والداً بذل مجهوداً كبيراً في تعليمه . ولكن لو أن داروينياً سئل عن هذا لعزا بعض التقدم الذي أحرزه جون الى الوراثة . وقد أحدث هذا صدعاً في مبدأ الراديكالية القائل بأن كل الناس قد ولدوا أكفاء .

وكان من السهل بطبيعة الحال مواءمة الداروينية مع القومية . فاليهود مثلاً أو أهل الشمال أو أهل اكوادور يعلنون أنهم خير البشر ، ويستخلص من ذلك أنه يجب عمل كل ما يمكن لزيادة ثرائهم - على الرغم من أن الاحصاءات تدل على أن الاغنياء أقل ذرية من الفقراء . وبهذه الطريقة أيضاً هيأت الداروينية فرصة للتحول من النظرة العالمية التي نادى بها الراديكاليون الفلاسفيون الى التعصب العنصري الهتلري .

وانه لما يسئلفت النظر أن نلاحظ كيف بدأ علماء الأحياء يتحولون عن تنازع البقاء بوصفه دافعاً للتطور لما أخذ الاعتقاد في المنافسة الحرة يضمحل في العالم الاقتصادي . وان ما أخلوه محل تنازع البقاء لشيء غير محدد على الاطلاق ، الا أنه على أي الاحوال شيء مختلف عنه كل الاختلاف . ولعل نظريتنا في التطور ستصبح واضحة مرة أخرى عندما تستقر أحوالنا السياسية .

وهناك ناحية أخرى أصابت فيها الداروينية تلك الصورة من المنافسة التي نادى بها كوبدن بضربة قاصمة . تلك هي أن المنافسة ، كما فهمتها مدرسة مانشستر ، لم تكن منافسة بين الافراد - وليست بين الجماعات - فحسب ، بل انها كانت أيضاً منافسة اقتصادية بحتة داخل اطار من القانون . بيد أن

المنافسة بين الحيوانات ليست محدودة بهذه الطريقة . كما كان واضحاً من الناحية التاريخية أن أهم صور المنافسة بين البشر هي الحرب . وهكذا اتجهت الداروينية ، في صورتها الشعبية ، لأن تكون عدائية واستعمارية ، وان لم يكن لداروين نفسه هذه الاتجاهات .

ومن ثم كانت الداروينية ، على الرغم من أصلها ، قوة معادية للكوبدنية والراديكالية الفلسفية على السواء . فهي بتأكيدها أهمية الوراثة أضعفت من إيمان الناس بما للترزية من قوة عظيمة ، وأحلت محلها الاعتقاد بأن بعض الاجناس أفضل في ذاتها من غيرها . وقد أدى هذا الى تأكيد القومية . كما أن الاعتراف بأن الحرب وسيلة من وسائل المنافسة قد قضى على الارتباط بين المنافسة والدعوة الى السلام ، وهو الرباط الذي كان دائماً غير متجانس ، لأن الشريك الطبيعي للسلام هو التعاون .

وأنا لأقول بأن الداروينية الشعبية قد تأيدت بالدليل العلمى فى استخلاصها هذه النتائج . فلعلها كانت تحتفظ بوجهة نظر داروين وسينسر السياسية لو أنها نشأت فى بيئة أخرى . ومما لاشك فيه أن علم الأحياء ، كما هو الآن ، لا يبرر القومية أو حب الحرب . الا أن مبادئ داروين كانت مصدراً للمصاعب الفكرية فى الصور المتأخرة من الراديكالية . كما كانت مبادئ مالتس مصدراً للمصاعب الفكرية فى صورتها الأولى من الراديكالية . وكما أن المشكلة الأولى قد تغلب عليها ضبط النسل ، كذلك يمكن التغلب على الصعوبة المتأخرة بواسطة علم تحسين النسل . الا أنه يجب أن يكون هذا علماً قائماً على أسس علمية أكثر وبعيداً عن القوى أكثر مما نراه فى أية صورة من صورته المنتشرة فى هذه الايام .

القسم الثاني

الباب الثالث

الاشتراكية

- ١ - الفصل الخامس عشر : أوين والاشتراكية البريطانية الأولى
- ٢ - الفصل السادس عشر : الحركة النقابية الأولى
- ٣ - الفصل السابع عشر : ماركس وانجلز
- ٤ - الفصل الثامن عشر : المادية الجدلية
- ٥ - الفصل التاسع عشر : نظرية فائض القيمة
- ٦ - الفصل العشرون : السياسة الماركسية

القسم الثانى
الباب الثالث
الاشتراكية

الفصل الخامس عشر
أوين والاشتراكية البريطانية الاولى

الفضل الخامس عشر

أوين والاشتراكية البريطانية الاولى

لم يخل الأمر من تحدٍ لمذهب التجارة والعمل حتى في الوقت الذي بلغ فيه أعظم قوته ، فقد كان معظم أصحاب المصانع ينظرون الى الدولة على أنها مصدر للنشريات والأوامر الملكية التي تصدر بناء على توصية المجلس الخاص ، وكانوا يحاولون أن يجعلوا وظيفتها مقصورة على معاقبة العمال المتدمرين . وبدأ لهم أن كل تنظيم شر وكانوا يريدون أن يترك كل انسان وشأنه (في حدود القانون) لينجو أو يهلك بقدر ما تمكنه من ذلك مقدرته .

الا أن « المصنع » كان يستطيع مع ذلك أن يوصى بنوع آخر من الافكار يختلف عن هذا كل الاختلاف ، وذلك لعدة أسباب أولها أن كل مصنع كبير هو في ذاته منظمة وتعتمد كفايته على حسن تنظيمه . وثانيها ، أن القدرة الانتاجية لأي مصنع معجز حسن الاعداد يبلغ من الضخامة درجة كبيرة ، اذا لم يكن يصحبها حسن التنظيم ، أدت الى اكتظاظ الأسواق بالمنتجات اغراقا يؤدي الى خراب أصحابه وتشريد عماله . فأى مصنع اذن عندما ينظر اليه من داخله يوحى بفائدة التنظيم ، واذا نظرنا اليه من خارجه بدت لنا مخاطر الانتاج الذي لاضابط له . وهذه الأفكار وأمثالها هي التي جعلت روبرت أوين مؤسس الاشتراكية بعد سنتين عديدة قضاها صاحب مصنع ناجح .

ان الرواد الاوائل في كل حركة ذات بال ليسوا عادة في مستوى من يأتون بعدهم من الناحية الفكرية . فقد كان هناك شعراء ايطاليون قبل دانتي ومصالحون بروتستانت قبل لوثر ، ومخترعو آلات بخارية قبل جيمس وات . اولئك قوم يرجع اليهم فضل أصالة التفكير ، لا فضل النجاح في التنفيذ .

وينطبق هذا القول نفسه على روبرت أوين . فهو لم يكن واسع الاحاطة بالموضوع مثل كارل ماركس ، كما أنه ليس مجادلا ممتازا مثل معاصريه الذين اعتنقوا مبداه والذين أقاموا آراءهم على الأسس التي وضعها آدم سميث . ولكن آراءه لم تكن محصورة داخل نطاق جامد ، ولهذا أصبح باعث عدة اتجاهات هامة في نماء الاشتراكية . وكان من بعض النواحي ينسب عصره الى درجة تدعو الى الدهشة . فهو يفكر في الصناعة من ناحية مصالح الأجراء ثم يحتفظ في الوقت عينه بعقلية صاحب المصنع الكبير الدكتاتورية .

وهو في ذلك يذكرنا بروسيا السوفيتية : فمن السهولة بمكان أن نتصوره وقد دفعته الحماسة لاعداد مشروعات خمس سنوات ثم يفشل لعجزه عن فهم نظام الزراعة . . . ألا أن الاستمرار في هذا التشبيه الى أبعد من ذلك قد يؤدي بنا الى تنكب طريق الصواب . فلم يكن أوين حكيما بكل ما تعنيه هذه الكلمة ، ولكنه كان قديسا عظيم القداسة ، وقل أن نجد في الناس من كانوا أقرب منه الى القلوب . فقد جاءت شخصيته الحساسة الكريمة مثل مطر الصيف عقب جو النفعيين الجاف المترب وبين فطائع نظام المصانع الذي كان سائدا في أيامه .

وقد ولد روبرت أوين سنة ١٧٧١ في مدينة صغيرة هي نيوتاون بمقاطعة مونتمجري ومات فيها سنة ١٨٥٨ (x) وقد اتسمت حياته الطويلة التي بلغت ٨٧ عاما بنشاط لا يكاد يصدقه العقل . ومرت خلال مراحل متعددة ، بعضها مهم وبعضها غير ذي أهمية ، ولكنها جميعا جديرة بالاهتمام من حيث أنها تصور شخصية عجيبة . كان والده صانع سروج وكان أيضا وكيل مكتب البريد ولكن مرتب هذه الوظيفة لم يكن بالتأكيد يتجاوز عشرة جنيهات في السنة . والتحق روبرت بالمدرسة في الرابعة من عمره ، ولكنه في سن السابعة ، بعد أن تعلم القراءة والكتابة والحساب ، عمل مساعد معمل ولم يتعلم شيئا جديدا في المدرسة خلال العامين التاليين سوى فن التعليم . الا أنه كان يتمتع بميزات معينة بعد ساعات العمل في المدرسة ، وفي ذلك يقول : « لما كنت أعرف كل أسرة في المدينة ، وتعرفتني بكل أسرة فيها ، كانت مكتبات القس والطبيب والمحامي - مثقفي المدينة - مفتوحة أمامي ، وكان يسمح لي بأن آخذ منها أى كتاب معي الى منزل ، وقد استفدت من هذا التصريح الى أقصى حد » وقد حاولت ثلاث عوانس من شيعة النظامين أن يحولنّه الى شيعتهن ولكنه يقول : « لما كنت قد قرأت كتبا دينية من جميع الشيع المختلفة فقد تولتني الدهشة : أولا للاختلاف القائم بين المذاهب المختلفة في المسيحية ، ثم للعداء المرير بين المسيحيين واليهود والمسلمين والهندوس والصينيين . . . الخ ، وبين هذه النحل من ناحية ومن كانوا يطلقون عليهم كفرة ووثنيين من ناحية أخرى . وقد أخذت دراسة هذه الأديان المتعارضة والعداء الذي يكنه كل منها لغيره تثير في نفسى الشكوك نحو سلامة أى منها . . . وقد اضطررتنى قراءتى الدينية مضافة الى قراءتى الأخرى الى أن أشعر شعورا قويا ، وأنا في العاشرة من عمري ، بأن هناك شيئا جوهريا غير سليم في كل هذه الأديان بالطريقة التي يبشر بها أصحابها حتى ذلك الوقت » .

(x) ان العاومات المتعلقة بتاريخ حياة اوين التي سياتى ذكرها مستمد معظمها من

كتاب « سيرة روبرت اوين » ، تأليف بودمور سنة ١٩٠٦ ، وهناك كتاب كول « حياة اوين » وهو

أيضا مفيد .

ويقول أوين : أنه على ما يذكر ، لم يعاقبه والده سوى مرة واحدة :

« لقد كنت أحب دائما أن ألبى رغبات والدي ، ولم أرفض لهما طلبنا أبدا . وحدث في يوم من الأيام أن وجهت الى والدي حديثا لم أسمعته جيدا ، وبفترضت أن الرد المناسب هو أن أقول : « لا » وقلت : « لا » وأنا كعادتي معتقد أنني أحقق رغباتها . ولم تفهمني والدي وظنت أنني أرفض ما تطلب ، فقالت فورا في حدة - وكانت عادتها أن تكلمني برفق - « ماذا ؟ ألا تريد أن تفعل ؟ » . ولما كنت قد قلت « لا » فقد اعتقدت أنني إذا قلت « نعم » سأفعل « أكون مناقضا لنفسي وبالتالي كاذبا ، فقلت مرة أخرى « لا » ولكني لم أقصد مطلقا عصيانها . ولو أنها عندئذ سألتني في شأن وهدوء عن حقيقة شعوري وأفكاري لكننا تفاهمنا المفاهيم الواجب ولسارت الأمور كلها خيرا مايرام ولكن والدي لم تكن قد فهمت حقيقة شعوري وأفكاري فاستمرت تتكلم بحدة وغضب أشد من ذي قبل لاني لم أكن قد عصيتها قبل ذلك أبدا ، وقد أدهشها بلا ريب وغضبت أشد الغضب عندما قلت « لا » مرة ثانية . ولم تكن والدي تتولى معافية أي منا بل كانت تترك الأمر لوالدي ، وكان أسقائي وشقيقتي كثيرا ما ذاقوا طعم السوط الذي كان يحتفظ به والدي للمحافظة على النظام بين الأطفال ، لكنني لم أكن قد ذقت طعم السوط قبل ذلك أبدا . وناذت والدي أبي وأبلغته رفضي . ثم سئلت مرة أخرى هل أنا مستعد لتنفيذ ما أمرت به والدي ، فأجبت في اصرار « لا » ، وعندئذ ذقت طعم السوط المرة بعد المرة وهما يكرران سؤالي هل أطيع وأجيب بالرفض . وظل السوط يلهب ظهري وأنا مصر على الرفض الى أن قلت في هدوء ولكن في حزم - قد تقتلونني لكنني لن أفعل ، وكان في ذلك فصل الخطاب . ولم تبذل بعد ذلك مطلقا أية محاولة لعقابني . واني مقتنع كل الاقتناع ، من شعوري بأن طفولتي الذي لازلت أذكره جيدا ، أن العقاب كثيرا ما يكون عديم الجدوى ، بل هو مؤذ جدا وضار بمن يعاقب وبمن يوقع عليه العقاب » .

وعندما بلغ أوين العاشرة من عمره أقنع والديه بأنه بلغ السن التي يسمح له فيها بأن يسعى الى رزقه في العالم بنفسه . فأعطاه والده أربعين شلينا وأرسله الى لندن ليقوم مع أخيه الأكبر الذي كان يملك محلا لصناعة السروج في « هاي هولبورن » . وبعد سنة أسابيع حصل هذا الصبي الذي لم يتجاوز العاشرة من العمر على عمل عند مسنر جيمس مالكوجوفوج وهو صاحب متجر في سانفورد بمقاطعة لنكولن . ومنذ هذه اللحظة لم يكلف أبويه قرشا واحدا . وسارت الأمور على ما يرام ، فقد أحبه مخدموه وأحب هو مخدموه . ويبدو أن مثار الخلاف الوحيد بينهما كان موضوع الدين :

« لقد اضطررت وأنا كاره ، بعد تردد طويل وأسف ونزاع فكري أن أنبذ انطباعاتي الأولى المتأصلة في نفسي عن تفوق المسيحية ، غير أنني ، وقد

۲ - بنام

اضطرت الى نبد ايماني بهذه العقيدة ، لم يعد أمامي سوى أن أنكر كل العقائد الأخرى لأنني اكتشفت أنها جميعاً قائمة على نفس التصور السخيف الذي يذهب الى « أن كل انسان يكون صفاته بنفسه - فيتحكم في أفكاره وادارته وتصرفاته - وأنه مسئول عنها أمام الله وأمام الناس » وقد أدت بي تأملاتي الى نتائج أخرى تختلف عن هذه كل الاختلاف ، فقد انتهيت من تفكيري في الموضوع الى أنني ما كنت لأستطيع أن أكون أية صفة من صفاتي ، فقد فرضتها الطبيعة على فرضا ، وأن لغتي وديني وعاداتي فرضها على المجتمع ، وأنني بهذا وليد المجتمع بحق وأن الطبيعة تفرس الصفات والمجتمع يوجهها . وهكذا اضطرت الى انكار كل ايمان بأى دين من الأديان التي تعلمها الانسان بعد أن تبينت خطأها جميعا في الأساس الذي تقوم عليه . الا أن مشاعري الدينية لم تترك وراءها فراغا ، فما لبثت أن حل محلها فورا روح البر نحو جميع الناس - لا نحو شيعة أو حزب ، ولا نحو بلد أو لون - بل نحو الجنس البشري ، روح تصحبها رغبة جارفة في فعل الخير لهم .»

وأيا أكان الامر فقد وجد أوين أن لا بد له من البحث عن عمل آخر ، ووجد هذا العمل في محل فلنت وبالمر على جسر لندن ، حيث حسب أوين نفسه ثريا بمرتب قدره ٢٥ جنيه في السنة . وكانت واجباته في هذا العمل مرهقة . فقد كان عليه أن يكون في المتجر الساعة الثامنة صباحا كامل الهندام ، « ولم تكن عممية ارتداء الملابس وقتئذ سهلة . فقد كان على ، وأنا طفل في ذلك الوقت ، أن أنتظر دورى أمام الحلاق ليرتب شعري ويضع عليه المسحوق والدهان ويشيه ، وكانت لدى خصلتان كبيرتان من الشعر على جانبي رأسي وصغيرة من الخلف ، ولم يكن أحد يتصور أن يظهر أمام الزبائن قبل أن يتم ترتيب هذا كله بعناية » . ولم يكن العمل ينتهي بعد أن يفلق المتجر أبوابه ، وكثيرا ما كانت الساعة تدق الثانية قبل أن يأوى الى فراشه . وكان يضايقه عدم وجود فراغ لديه يقضيه في تعليم نفسه ، ويخشى أن تضر ساعات العمل الطويلة بصحته في آخر الامر ، ومن ثم حصل على عمل آخر عند مستر ساترفيلد في مانشستر . وبقي في هذا العمل حتى سنة ١٧٨٩ عندما قرر أن يبدأ عملا لحسابه الخاص وكان قد بلغ رشده في الثامنة عشرة من عمره .

وفي ذلك الوقت كان منسج كومبتون حديث العهد جدا ولم يكن قد تم تسجيل حق اختراعه بعد . واقترض أوين ١٠٠ جنيه من شقيقه واشترك مع رجل اسمه جونز وبدأ يعمل في صنع آلات الغزل . ولكن جونز وجد في العام التالي شريكا لديه رأس مال أكبر من أوين اشترى حصة أوين ، وانفق أن يكون نصيبه ست آلات ولكنه في الواقع لم يتسلم سوى ثلاث . وبدأ بهذه المغازل الثلاثة مصنعا وربح في أول عام ٣٠٠ جنيه .

وبلغ مسامعه في نهاية ذلك العام أن شخصا يدعى مستر درنكوتر ،

وهو ثرى من أصحاب مصانع النسيج ، يبحث عن مدير جديد • فرشح نفسه للموظفة • وعندما سئل عن المرتب الذى يريده قال «ثلاثمائة جنيه فى العام» ، وراح ذلك مستر درنكوتر وأجابته بأنه قابل صباح ذلك اليوم عدة أشخاص. تقدموا لهذه الوظيفة وان ما طلبوه مجتمعين لا يساوى هذا المبلغ ، ورفض أوين أن ينزل عن شيء منه وأثبت أنه يربح فعلا هذا القدر من مصنعه • واستطاع بأسلوبه الذى لا يفشل ، أن يؤثر فى مستر درنكوتر ويحصل على الوظيفة • وأصاب فيها نجاحا كبيرا وسرعان ما صار شريكا (وكان عمره وقتذاك ٢٠ عاما) • غير أنه عندما حانت الفرصة لتوحيد المصنع مع مصنع آخر كبير يمكنه مستر اولدنو الذى كان يريد أن يتزوج ابنة دونكوتر ، سئل أوين عن مقدار التعويض الذى يريده لفض الشركة القائمة بينه وبين شريكه • فتألم ومزق عقد الشركة واستقال من منصب مديرها • ولم يفقد أوين شيئا نتيجة لهذا التهور ، فقد عرف عنه أن لاشئ مطلقا يحول بينه وبين النجاح ، وسرعان ما وجد عملا جديدا أصبح شريكا فيه ، وصاحبه التوفيق كعادته فى عمله الجديد •

وكانت الخطوة التالية - التى حددت مستقبله فى عمله ، أن تزوج ابنة أجد الاسكتلنديين من أصحاب المصانع الأثرياء اسمة ديفيد ديل ، واشترى منه مغازله فى نيولانارك • وتم هذا عندما كان أوين فى الثامنة والعشرين • وكان مستر ديل ، الذى كان شديد التدين ، قد قضى بعض الوقت يعارض فى زواج أوين من ابنته بسبب آرائه الدينية • غير أنه لم يكن هناك من يستطيع مقاومة شخصية أوين الجذابة طويلا • وعندما حان الوقت للنظر فى بيع المغازل ترك مستر ديل ، الذى كان رجل أعمال ناجحا جدا واسكتلنديا (X) ، أمر تحديده الثمن لاووين • وقدر أوين المغازل بمبلغ ستين ألفا من الجنيهات • فقال مستر ديل « إذا كنت تعتقد أنها تساوى ذلك فسأقبل العرض كما ذكرته ، إذا قبله أصدقائك » ووافق أصداقاه أوين (وهم شركاؤه) وثمت الصفة • وكذلك تم زواج أوين من ابنة مستر ديل بعد ذلك بفترة قصيرة فى سبتمبر سنة ١٧٩٩ • وقد ظلت زوجته شديدة التدين واقتنعت بأن زوجها مصيره جهنم • ومع ذلك فقد بقيت على حبه طول حياتها ، وأحبها هو عندما كانت مشاريعه تترك له وقتا يتذكرها فيه • وعاشا سنين طويلة فى نيولانارك ، وأدار العمل على أسس نموذجية بقدر ماسمح له بذلك شركاؤه • ونجح العمل باستمرار من الناحية التجارية والمالية ، وأذاع نجاحه فى النواحي الأخرى شهرته فى جميع أنحاء العالم •

وكانت السنوات التى قضاها أوين فى مانسستر فرصة أتاحت له عقد صداقات مع عدد من رجال الفكر النابهين • وأصبح فى سنة ١٧٩٣ عضوا

(X) يعنى أنه كان بخيل فقد اشتهر الاسكتلنديون بالبخل (المترجم)

في الجمعية الأدبية والفلسفية بمانشستر التي رشح لها هو فيما بعد دالتون العالم الذي أدخل نظرية الذرة في الكيمياء . وكان دالتون صديقا حميما لأوين ، كما كان دكتور برسيغال مؤسس الجمعية من أنصار تشريع المصانع المتحمسين ، ولعله أثر في أوين في هذا الموضوع . وقلما نجد بعدئذ ما يدل على أن أوين تعلم شيئا من غيره .

ويمكن تقسيم حياة روبرت أوين الى أربع مراحل . ففي المرحلة الأولى يمثل أوين بطل قصة سمايل « مساعدة النفس » اذ يرتفع بسرعة بمجهوده الشخصي الى مركز ذي نفوذ وثراء . وتنتهي هذه الفترة باهتلاكه مصنع نيولانارك . وفي المرحلة الثانية يبدو رجلا خيرا ومع ذلك فهو صاحب العمل الأريب الذي استطاع أن يجعل مصنعه مربحا رغم الوسائل التي تهدف الى الخير وحب الانسانية والتي كان أصحاب المصانع الآخرون يعقدون أنها ستؤدى به الى الخراب . وظل في هذه المرحلة ناجحا نجاحا يدعو الى العجب ، وكان الذي يجعل نجاحه عجيبا بحق هو ذلك المزيج من الكفاية والعمل والقضية . واخذت هذه المرحلة من حياته تخطى مكانها سنة ١٨١٥ لمرحلة الاصلاح الاجتماعي وإن كان قد ظل على صلة غير رتيبة بنيولانارك بصورة أو أكثر حتى عام ١٨٢٨ أو عام ١٨٢٩ . ولم تكن مرحلة الاصلاح الاجتماعي ناجحة نجاحا مباشرا على الرغم من أنه وضع فيها الأسس الأولى للاشتراكية والحركة التعاونية وحرية الفكر لدى الطبقة العاملة . وتحول شيئا فشيئا من زعيم للطبقة العاملة يجعله الناس الى الكاهن الأعظم للشيعة صغيرة ، وبعد سنة ١٨٣٥ تقريبا فقد أهميته بوصفه من العاملين للصالح العام وأصبح مجرد رجل خيالي انتهى به الأمر الى الروحانية . وكان مصدر نجاحه الإيوان واخفاقه فيما بعد واحدا : ذلك هو الثقة بالنفس . فطالما كان يسعى لتحقيق امره في أساسها قابلة للتحقيق كانت ثقته في نفسه عنصرا من عناصر نجاحه ، وعندما حاول فيما بعد أن يحدث في سنوات قلائل تغييرات تنظلمائة عام ، اصطدم اخفاقه بثقته في نفسه وأدى به الأمر الى الابتعاد عن عالم الواقع شيئا فشيئا حتى لم يبق له الا أصوات ترتفع اليه من ماضيه ، وهناك فقط وجدت ارادته اللاشعورية ميدانا لا معارضة فيه لقدرتها التي يتطلبها منها لا شعوريا في كل مجال . ولعله لا يوجد شخص يستطيع أن يكون مبتدعا عظيما دون أن يكون مؤمنا بنفسه ايمانا لا يبرره العقل . والدليل على ذلك أن عظماء المبتكرين المبتدعين كانوا يعتقدون في أنفسهم القداسة ، ما يقرب منها . وقد أصيب أوين بهذا المرض نفسه ولكن كان في صورة ودبعة غير مكرومة . وبينما كان غيره من المصلحين يدعون لاعلاء كلمة الله ، كان أوين يدعو لإعلاء كلمة العقل . وقد أثار عجبهم أن تكون عقول الناس مغلقة الى هذا الحد ، ولكنه كان حسن الظن دائما بقلوبهم .

وكانت آمال أوين في نيولانارك لا تزال متواضعة ، وكان نجاحه عظيما .

فقد عمل فى أول الأمر على استخدام آلات حديثة من آخر طراز ، وإدارة ذات كفاية . ثم استأصل شائفة السرقة ، التى كانت متفشية ، ولم تكن تكفى العقوبة القانونية لمنعها . ووجه بعسد ذلك هجومه نحو السكر ، فعين رجالا يطوفون بنيولانارك ليلًا ثم يبلغونه عما يرونه من حالات السكر وكان يوقع على أصحابها غرامات ، واستطاع فى مدى سنتين قلائل ، بهذه الوسيلة وبتأثيره الشخصى ، أن يقضى على السكر قضاء تاما تقريبا فيما عدا يوم رأس السنة . وكان يصر على أن تظل الشوارع نظيفة . وابتكر طريقة غريبة لتشجيع عادات الجد فى المغازل . فصنع قطع صغيرة من الخشب طليت بالأسود والأزرق والأصفر والأبيض على التوالى: الأسود دلالة على الرداءة فى العمل والأزرق على المتوسط والأصفر على العمل الجيد والأبيض على الممتاز . وكانت واحدة من هذه القطع الخشبية توضع فى مكان ظاهر بجانب كل عامل ليظهر أى لون من الألوان يستحقه عمله وخلقه . ومن الغريب أن هذه الطريقة أثمرت ، حتى كان جميع العمال فى آخر الأمر يستحقون اما اللون الأصفر أو اللون الأبيض (X) .

كنا حتى الآن ننظر فى الوسائل التى أتبعها أوين لانارك لجعل المغازل تدبر ربعا . وقد أصاب فى هذا من النجاح ما جعل المصنع خلال السنوات العشر الأولى من إدارته يربح ٦٠٠٠٠ جنيه بالإضافة الى فائدة على رأس المال بواقع ٥ ٪ . فنال بذلك رضا شركائه . وبعد أن حصل على رضائهم أصبح مطلق اليد فى تطبيق ما شاء من اجراءات جديدة تهدف الى الخير الانسانى :

فقد كان عدد المستخدمين عندما تسلم أوين لانارك بعين ١٨٠٠ و ٢٠٠٠ منهم خمسمائة من أطفال الملاجىء كانوا تحت التدريب . فقرر فوراً ألا يأخذ بعدئذ أطفالا معدمين . ولم يأخذ الا أطفالا فوق العاشرة ، وكان يحصل عليهم من لانارك ، البلد المجاور ، وبرضاء والديهم . وكان شركاؤه يصرون على أن تكون ساعات العمل أربع عشرة ساعة يوميا منها ساعتان للراحة وللوجبات . الا أنه نجح سنة ١٨١٦ فى تخفيضها بعض الشيء . أما الأجور فكان متوسطها سنة ١٨١٩ ٩ شلنات و ١١ بنسا فى الأسبوع للرجال و ٦ شلنات للنساء و ٤ شلنات و ٣ بنس للأطفال الذكور و ٣ شلنات و ٥ بنسات للبنات . وينبغى أن نعترف بأن هذه الأرقام ليست مثالية . ذلك أن أوين لم يكن حرا فى هذه المسائل لأنه كان مضطرا للحصول على أرباح . وكان شركاؤه فى الواقع دائمي التذمر من اتجاهاته الانسانية . واستطاع فى سنة ١٨٠٩ ، ومرة أخرى فى عام ١٨١٣ ، أن يتخلص من شركائه بمعونة شركاء جدد كان

(X) توجد طريقة مشابهة لهذه فى روسيا السوفيتية فى الوقت الحاضر . إذ تمنح المزارع الجماعية شارات تمثل التقدير الذى يستحقه كل منها : مثلا طائرة لاهسيتها وسرطان لأحدهم لاسولها .

يأمل أن يمنحوه حرية أوسع في تصرفاته . وكان اللذان أمداه بالمال في المرة الثانية هما جيرمي بنتام وأحد الكويكرين اسمه وليم آلن . وقد بقيت بعض المشاكل مع ثانيهما ، ولكنها كانت مشاكل من لون آخر وفي مجموعها أقل خطورة من سابقتها .

وقد لقي أوين في مبدأ الأمر بعض المصاعب مع الذين كانوا يعملون معه لأنه كان من أهل الجنوب وغريبا عنهم . ولكنه نجح في اجتذابهم شيئا فشيئا ، ويرجع بعض ذلك الى شخصيته ، ولكن العامل الأساسي كان تصرفه سنة ١٨٠٦ عندما منعت حكومة الولايات المتحدة جميع الصادرات الى بريطانيا العظمى فقطعت عنها بذلك القطن الخام . وأغلقت مصانع النسيج أبوابها أربعة أشهر ، ولكن أوين احتفظ بجميع عماله بأجر كامل . وأصبح من تلك اللحظة موضع ثقة الجميع .

وكان من أهم أعمال أوين الادارية أنه أنشأ مدرسة متصلة بالمصنع . فقد كان كجميع المصلحين في تلك الفترة يعلق أهمية كبيرة على التعليم . وكان يعتقد أن أخلاق الانسان كلها ، أو كلها تقريبا ، نتاج للظروف . الا أنه كان يختلف عن غيره ممن كانوا يعتبرون هلفسيوس رائدهم ، في أنه اكتشف هذه الحقيقة العظيمة بنفسه ، على حد قوله ، عن طريق الاثر الذي تركته في جهازه الهضمي وجبة ساخنة جدا من الحساء المركز . ومما لا ريب فيه أنه كان يمتاز عن جيمس مل في ناحية واحدة . فقد كان يحب الأطفال ويفهمهم . فجاء كل ما قاله عن التربية صحيحا سليما ، وكان يفهم مشاعر الأطفال وأجسادهم بنفس القدر الذي يفهم به عقلياتهم . فكانت هناك مدرسة للحضانة تيسر على أمس حديثة كلها ، وكان الرقص بملابس مناسبة جزءا هاما من البرنامج ، وأحزن ذلك مستر آلن خاصة عندما كان الأولاد يلبسون «السرراويل القصيرة» بدلا من «البنطلونات» الطويلة . وحصل على وعد من أوين بايقاف هذه المظاهر ، ولكن يبدو أنها استمرت رغم ذلك .

وأصاب نيو لاناك شهرة واسعة ذاعت في جميع أرجاء العالم وزارها ٣٠٠٠ شخص تقريبا . وكان من بين الزائرين الدوق الأكبر نيقولا (الذي صار فيما بعد قيصر روسيا) ، وأمضى الليلة في ضيافة أوين في منزله وظل يستمتع له وهو يشرح آراءه مدى ساعتين أو أكثر . وعرض نيقولا أن يأخذ أحد أبناء أوين في خدمته ، بل انه اقترح أن يأخذ أوين نفسه الى روسيا ومعه مليونان من السكان الزائرين وأسرههم . وتبدو هذه الواقعة غريبة اذا نظرنا اليها على ضوء حياة نيقولا بعد ذلك .

وعندما زار أوين لندن سنة ١٨١٣ للبحث عن شركاء جدد تعرف الى كل ذي حيثة تقريبا ، ولم يقتصر الامر على ان قابل جميع الراديكاليين الفلسفيين

فحسب ، بل انه قابل أيضا رئيس الوزراء وكبير أساقفة كنتربري وكثيرين آخرين من النابهين . وقد أحبه الجميع ، ولم يكن قد بدأ دعوته بوضوح الى أى من المذاهب التي تعتبر هدامة . ونشر في سنة ١٨١٤ كتاب « نظرة جديدة الى المجتمع ، شرح فيه مذهبه الذي يعتز به عن أثر الظروف في تكوين الطبائع ، وانتهى الى أنه يمكن بسهولة ادخال تحسينات كبيرة عن هذا الطريق . وأرسل هذا الكتاب الى كل شخص من أصحاب النفوذ تقريبا ، بل انه أرسله الى نابليون نفسه في البنا . ومن الغريب أن نابليون قرأه وأعاده متضمنا بعض التعليقات المحبذة . ولما عاد من ألبا ، كان أوين يرى أن تتاح لنابليون فرصة ليضع آراءه موضع التنفيذ ، الا أن صديقه رئيس الوزراء رأى رأيا آخر .

وكان أول اتصال لاوين بالسياسة العملية سنة ١٨١٥ عند ما حاول استصدار تشريع لتنظيم عمل الاطفال في المصانع . وكان يريد تخريم استخدام اطفال أقل من العاشرة في مصانع النسيج ، وألا يسمح بالعمل أكثر من عشر ساعات ونصف ساعة يوميا لمن هم أقل من الثامنة عشرة .

وسارت الامور على مايرام في مبدأ الامر . فقد وعد أوين بتأييد الحكومة بشرط أن يحصل على تأييد البرلمان . وحصل في البرلمان على عدد كبير من المؤيدين . ووضع مشروع القانون تحت رعاية روبرت بيل الأكبر الذي كان قد استصدر سنة ١٨٠٣ التشريع الصناعي الوحيد الذي كان نافذا وقتئذ وهو القانون الخاص بتنظيم استخدام الاطفال المعدمين في مصانع القطن . ولكن سير روبرت بيل نفسه كان من رجال الصناعة ، فأصر على استشارة أصحاب المصانع الآخرين ، وبدأ هؤلاء ينظمون معارضة للمشروع ، وأصبح واضحا أن القانون لن يمر الا بعد كفاح طويل وتعديل كبير .

وبعد أن تقدم بيل سنة ١٨١٥ بمشروع قانون على أسس مشروع أوين ، سمح بتأجيله واكتفى سنة ١٨١٦ بإنشاء لجنة لبحث الموضوع . وقدم أصحاب المصانع الى هذه اللجنة الادلة على أن الاطفال يفيدون من ساعات العمل الطويلة من الناحية الخلقية . وذكروا أن أربع عشرة ساعة يقضيها الطفل يوميا في المصنع تعلمه الطاعة والنشاط والمواظبة ، وأنه يجب عدم تخفيض ساعات العمل لمصلحة الاطفال أنفسهم . كما أن من المستحيل مواجهة المناقشة الأجنبية إذا تدخل البرلمان في الامر ، ويلحق الخراب بأصحاب المصانع ويتعطل الجميع عن العمل . وفي مقابل هؤلاء الشهود ، شهد عدد من الاطباء بأن ساعات العمل الطويلة تضر بصحة الاطفال . ولم يوافق على مشروع القانون من بين أصحاب المصانع سوى أوين وبيل .

ولم يتم شيء في سنة ١٨١٧ لان بيل كان مريضا . وأعاد بيل تقديم المشروع بقانون عام ١٨١٨ مع تعديله بعض الشيء لعله يضعف بذلك معارضة أصحاب المصانع . ومر المشروع في مجلس العموم ولكنه رفض في مجلس

اللوردات . فقد نجح السادة اللوردات فى أن يجدوا عددا من الاطباء على استعداد لان يقسموا أنه لا يوجد شيء خير لصحة لطفل من خمس عشرة ساعة يقضيها فى المصنع يوميا « بل ان أحد الاطباء المعروفين رفض الموافقة على أن وقوف الطفل ٢٣ ساعة من ٢٤ يضر بصحته » (x) .

وأخيرا وافق المجلسان فى سنة ١٨١٩ على قانون . وكان هذا القانون اقل فى عدة نواح من مشروع سنة ١٨١٥ . فكان ينطبق فقط على مصانع القطن دون بقية المنسوجات ، وجعل الحد الأدنى للسن تسع سنوات بدلا من عشر . وكان يسمح باثنتى عشر ساعة من العمل الفعلى يوميا وثلاث عشرة ساعة ونصف يقضيها الطفل فى المصنع بما فيها ساعات الاكل ، وبدلا من تعيين مفتش ترك أمر التفتيش للموظفين المحليين ورجال الكنيسة . وقد أثبتت التجربة فى قانون سنة ١٨٠٢ أن الموظفين المحليين ورجال الكنيسة يمكن الاعتماد عليهم فى افعال واجبههم ، وتبين لهذا السبب أن القانون الجديد لا ثمرة منه مطلقا كما كان مرجوا .

وكان أوين فى هذه الاثناء قد شرع فى وضع اول برنامج كبير له يهدف الى اصلاح العالم . واذا أدخلنا فى اعتبارنا أن من هذا البرنامج انبثقت الاشتراكية ، فانه لما يدعو الى العجب أن نعرف مدى التضعيد الذى لقيه أوين فى أول الامر من العظماء . فقد ظل دوق كنت والد الملكة فيتوريا صديقا له طول حياته (مات ١٨٢٠) . وكان دوق يورك وأسقف كنتربرى وعدد آخر من الاساقفة والنبلاء يصفون اليه فى احترام بسبب طريقته المسالمة المقنعة ، وكذلك بسبب نجاحه العملى فى نيولانارك . ثم تغلبت أمانته شيئا فشيئا على كياسته وهجره أصدقاؤه العظماء بالتدريج ، ولكن العالم كله كان فى أول الامر يميل اليه ويناصره .

وكانت مقترحات أوين الاصلية قد قدمت الى « لجنة منتقاة » سنة ١٨١٧ . كانت تنظر فى قانون الفقراء . وكان السلام قد جلب معه موجة واسعة من البطالة ، وقال أوين فى هذا : « لقد مات العميل الاكبر للمنتجات يوم أن وقع الصلح » . غير أنه الى جانب هذا السبب الوقتى كانت الآلات تحل محل المجهود البشرى ويزداد ذلك على توالى الأيام . وكان بعض المتفائلين يعتقدون أن رخص السلع المصنوعة بالآلات سيؤدى الى زيادة الطلب بحيث أن عددا من العمال سيستخدم لا يقل عن كان يستخدم منهم أيام الحرف اليدوية . وكان هذا المذهب صحيحا بقدر ما كان هناك من توسع مستمر فى الأسواق الخارجية ، الا أن الأسواق الخارجية لم تتسع فى عامى ١٨١٦ . فقد أخذت الرسوم الجمركية تفرض على الواردات فى القارة الاوربية ، كما أن سوق

أمريكا الجنوبية لم تكن حتى ذلك الوقت قد فتحت الا قليلا . وأيا كان الأمر فإن الأسواق الأجنبية ، كما يعرف الجميع الآن ، لا يمكن أن تظل تتسع الى ما لا نهاية . وكان أوين أول من أدرك أتم الإدراك المشاكل التي تثيرها القدرة الإنتاجية للآلات . فهو يقول ان السلام « وجد في بريطانيا وفي حوزتها قوة جديدة تعمل باستمرار ، وهي قوة يمكن أن نقول عنها مطمئنين أنها تزيد كثيرا على قدرة العمل عند مائة مليون من أكثر البشر نشاطا في عنفوان رجولتهم ولنضرب لهذه القوة مثلا فنقول ان في أحد المصانع في هذه البلاد آلات يساعدها ما لا يتجاوز ٢٠٠٠ شخص وتنتج قدرا يساوي ما يستطيع كل سكان اسكتلنده أن يصنعهوه بالطريقة التي كانت سائدة منذ خمسين عاما ! وفي بريطانيا العظمى عدد من أمثال هذا المصنع . . وهكذا نرى أن بلادنا كانت تملك عند نهاية الحرب قوة منتجة تعمل كما لو كان عدد سكانها قد زاد فعلا خمس عشر أو عشرين مرة . وقد حدث معظم هذا في السنوات الخمس والعشرين الماضية » (x) .

ويمضى أوين فيقول :

« لقد توقف الطلب الحربى على منتجات العمال ، ولم يعد فى الامكان ايجاد أسواق لها ، ولما كان الدخل العالمى غير كاف لشراء ما تنتجه هذه القوة الهائلة فقد ضعف الطلب نتيجة لهذا . ومن ثم لما أصبح من الضرورى الحد من مصادر الانتاج تبين بعد قليل من الوقت أن القوة الآلية أرخص كثيرا من المجهود البشرى . فاستمر العمل بالاولى وحلت محل الثانية . وأصبح ممكنا الحصول على المجهود البشرى الآن بسعر أقل كثيرا من حد الكفاف المطلق لفرد يعيش عيشة طيبة عادية (x x) . »

وينتهى أوين الى أن « الطبقات العاملة لم تعد لديها الوسائل المناسبة لمواجهة القوة الآلية » . ولما لم يكن مستطاعا إيقاف الآلات فلا بد من واحدة من اثنتين ، اما أن يموت الملايين جوعا ، أو « أن تهيأ مهن ذات طابع خاص للطبقات العاملة الفقيرة المتعطلة وأن نجعل الآلات خاضعة لعمل هذه الطبقات بدلا من احلالها محلها كما هو الحال فى ازوقت الحاضر » .

وكانت هذه على ما أعتقد أول مرة يدرك فيها شخص مشكلتنا الحديثة . تلك هى أنه لا فائدة ترجى من مهاجمة الآلات ، ومع ذلك فإنه اذا ترك الأمر للقوى الاقتصادية القديمة تلعب دورها جرة ، فإن العالم الآلى تصيب فيه اليد العاملة رخيصة مستعبدة . وليس هناك ما يحول دون وقوع هذا الشر الا تخطيط مقصود لا اتباع سياسة « حرية العمل والاتجار » . هذا ما

(x) « أوين » تأليف كوك ص ١٧٧ .

(x x) المصدر السابق الذكر ص ١٧٩ .

كان أوين يقوله في وضع اقتصادى هو صورة مصغرة من وضعنا الحالى ، وقد اخفى نمو التجارة الخارجية ثم الاستعمار الاقتصادى ما فى هذا الراى من حقيقة زهاء مائة عام . وأخيرا أثبتت الايام أن أوين كان يدرك قوانين مهمة فى النمو الصناعى اغفلها كل الاغفال الاقتصاديون التقليديون فى عهده . وقد هزمه بليس ، من الراديكاليين ، فى المناقشة على أساس مبدأ السكان ، وكانت حججه فى الواقع أرجح فى حدود ما كان معروفا وقتئذ ، ولكن ظهرت مع مضي الوقت صحة تشخيص أوين للحالة .

ولم يكن العلاج الذى اقترحه أوين سليما مثل تحليله للشر نفسه . ولما كان مشروعه مقديما الى هيئة تنظر فى قانون الفقراء ، فقد عرضها أكثر ما عرض على أنها وسيلة لعلاج الفقر . وكانت خطته ترمى الى أن يجمع المتعطلون فى قرى حيث يزرعون الأرض متعاونين ويعملون متعاونين أيضا فى الصناعة، الا أن الجزء الأكبر من عملهم يكون عادة زراعىا . ويعيشون جميعا فى مجموعة واحدة من المباني تضم قاعات عامة للقراءة ومطبخا مشتركا ، ويتناول الجميع وجباتهم معا . ويعيش جميع الأطفال الذين تجاوزوا الثالثة فى مبنى مستقل وتتخذ الإجراءات المناسبة لتعليمهم من سن مبكرة جدا . ويعيش الجميع فى وئام ويعملون معا . وتستخدم أحدث المكتشفات الكيماوية فى تطوير الزراعة بحيث تقوم على أساس علمية . غير أن أوين ، مثل كروبوتكين فيما بعد ، كان يؤمن بنظام الزراعة الكثيفة ، وكان يفضل المحراث اليدوى على المحراث الآلى مستندا فى ذلك الى حجج غير مقنعة . فبينما كان يرى أن المصانع ينبغى أن تكون على أحدث طراز ، وأن يتم تسميد الأرض بالطرق العلمية، كان يفضل أن تظل عملية الحرث نفسها بدائية .

وأثار مشروع أوين دهشة معاصريه وكان موضع تسليتهم . فقدمه تيلوك على أنه « السيد المفرط فى الخير التعاونى ، الذى لا يريد قتالا ولا صلاة ، ولكنه يريد أن يقسم العالم الى مربعات مثل رقعة الشطرنج يحتل كل منها جماعة ينتج بعضها ما يحتاجه البعض وتقوم على خدمتهم جميعا آلة بخارية تكسوهم وتطعمهم . وفى الوقت الذى يقدم فيه كل انسان مشروعا لاصلاح العالم يقول السيد المفرط فى الخير : ابنوا ثكنات تعاونية ضخمة مربعة الشكل تنوسطها آلة بخارية تقوم على خدمة من فيها » . وكانت مربعات أوين هذه موضع سخيرية عامة ، ولم يأخذها على محمل الجد الا نفر قليل جدا . والحق أن العقبات المالية كان مما لا يمكن التغلب عليه بصرف النظر عن العقبات الأخرى وقد قدر هو نفسه نفقات إحدى هذه المؤسسات التى تضم ١٢٠٠ رجل وامرأة وطفل بمبلغ ٩٦٠٠٠ جنيه . نعم انها متى بدأت ستتكفل بنفسها وتدر فائدة على رأس المال المستثمر فيها ، لكن منذ الذى كان مستعدا لاصلاح الجنس البشرى بطريقة تتكلف ٨٠ جنيه لكل فرد ؟ لقد كان من الممكن محاولة تنفيذ

المشروع على سبيل التجربة ، الا انه كان واضحا انه ليس علاجاً للشروع التي يعانيتها شعبنا بأكمله .

ولم يفضل أوين لعدم مهارته في تهيئة الدعاية المناسبة لمشروعه . فقد كون لجنة تضم معظم الشخصيات البارزة ، وحظي من الحكومة بالتشجيع ، وحمل جريدة « التايمز » وجرائد أخرى مهمة على تحييد المشروع وعلى نشر مقالات عنه بقلمه . وكان يشتري ٣٠٠٠٠ نسخة من كل عدد ينشر فيه شيء من ذلك ليوزعها بنفسه - ولعله بهذه الطريقة كان يحث الجرائد على الوقوف الى جانبه .

ولم يدع أوين الاصاله المشروعة . فكان يقول : ان الفكرة سبقه اليها كاتب اسمه جون بيلرز نشر في سنة ١٦٩٦ كتيباً بعنوان « مقترحات لانشاء كلية لجميع المهن والحرف الزراعية المفيدة » الخ والمراجع أيضاً انه مدين ببعض آرائه لجماعة من اتباع جورج راب في بنسلفانيا . وقال أعداؤه : ان آراءه تشبه الى حد كبير آراء توماس سبنس الذي كان يقول بان الأرض ملك للشعب وينبغي ألا تترك للملكية الخاصة . وسواء كانت آراء توماس سبنس قد أثرت في آراء أوين أو لم تؤثر فيها ، فانه خليف بالذکر . فقد ولد سنة ١٧٥٠ ومات سنة ١٨١٤ . واستمر يدعو الى تأميم الأرض منذ سنة ١٧٧٥ خلال أسوأ فترات الرجعية المناهضة لليعقوبية ، وبدء نشاطه أول الامر في نيوكاسل ثم واصله بعد ذلك وهو بائع كتب في تشانبرى لين . وكان الذي دفعه الى تكوين آرائه حادث وقع في نيوكاسل سنة ١٧٧٥ . فقد سورت البلدية جزءاً من زمامها وأجرته ، ولكن اجراء المدينة اقاموا دعوى طالبوا فيها بالايجار وكسبوها . ونشر سبنس كتاباً يحمل عنواناً جذاباً هو « لحم الخنزير أو دروس للجماهير المستضعفة » . وكان أول بحث كتبه وقرأه أمام الجمعية الفلسفية في نيوكاسل عنوانه « في طريقة ادارة ضياع الشعب باعتبارها ملكاً مشتركاً عن طريق تقسيم الريع » . وتعرض سبنس المسجون مراراً وكذلك أتباعه الذين أطلقوا على أنفسهم « أتباع سبنس الاخبار » . واتهمتهم الحكومة بالتآمر وألقت القبض عليهم دون محاكمة وأوقفت « قانون المثول » (x) بسببهم . ولم يكن ارجاع آراء أوين الى هذا الاصل مما يشجع كبار الاساقفة على تأييدها . على أن شبح سبنس لم يكن هو الذي قضى في النهاية على تأييد المراجع العليا لاوين :

فقد عرض مشروعه في اجتماع عام في ١٤ أغسطس سنة ١٨١٧ وكله ثقة من أنه سرعان ما ينتشر في العالم كله . ولقي تأييداً كبيراً ولكن بعض الناس رفضوا خطته من مبدأ الامر . كما أن بعض الراديكاليين ، ومن بينهم كويت ،

وهو القانون الذي يقضى بوجوب استدعاء الشخص المسجون

Habeas Corpus (x)

لسماع دفاعه امام المحكمة .

رأوا أنها « لا شيء سوى نوع من التهريج » . وعارض مالتس آراءه على أساس مبدأ زيادة السكان ، وإن كان ريكاردو يحبذها بصفة عامة . وأثار الشاعر سوذى نقص العنصر الدينى فى طريقة أوين لاصلاح العالم . وقرر أوين أنه ليس من الأمانة فى شيء أن يلتزم الصمت إزاء هذه التهمة الأخيرة ، ولهذالقى فى اجتماع ثان عقد فى ٢١ أغسطس خطابا سبق اعداده بعناية أوضح فيه بكل ما يستطيعه من تأكيد ، أنه هو نفسه ليس مسيحيا ، بل قال أكثر من ذلك ، أنه يعتبر الدين المصدر الأساسى لكل الشرور التى تحل بالانسانية قال : « أصدقائى ، أقول لكم أنه قد حيل بينكم حتى الآن وبين أن تعرفوا المعنى الحقيقى للسعادة وذلك نتيجة لشيء واحد لاغير ، هو الأخطاء - الأخطاء الشنيعة - التى تضمنتها الأفكار الأساسية لجميع الأديان التى تلقاها الناس حتى الآن . ومن ثم جعلت الانسان أكثر الكائنات تعاسة وأقلها اتفاقا مع نفسه . وقد أحالت الأخطاء التى تدخر بها هذه الأنظمة الانسان حيوانا ضعيفا أبلها ، مفتونا فى الدين متعصبا ، أو مناققا بانسا . فإذا انتقلت هذه الصفات الى القرى المقترحة ، بل انها لو دخلت الجنة نفسها لاختفت الجنة ! »

ومن هذا فقد أوين بطبيعة الحال تأييد كبير الأُساقفة والأساقفة والأدواق والوزراء وجريدتى التايمز والمورونج بوست . ولم يبق بين العظماء من يقف الى جانبه الا دوق كنت ، وبدرجة أقل ، دوق سكسيس ، ووجد معارضا تشريع المصانع فى البرلمان أكثر حججهم وجاهة ضد الرحمة بالأطفال فى أن المدافع عن الرحمة وجل كافر . ولم يثبط هذا من عزيمة أوين بل ظل سائرا فى طريقه كما لو كان الأمر ينتقل من نجاح الى نجاح . وشرع يعمل للحصول على المال اللازم ليبدأ بقرية تعاونية واحدة على الأقل . ولكن جهوده لم تأت وقتئذ بأية ثمرة .

وفى العام اتتالى كان فى أوروبا وقدم مذكرة الى مؤتمر اكس لاشابيل :
وهناك كان لقاءه الوحيد بالقيصر ، ولم يكن لقاء موفقا .

« وقدم نفسه للقيصر (اسكندر الاول الشقيق الأكبر لضيف أوين الدوق الأكبر نيقولا) عندما كان يهم بمغادرة الفندق وقدم له نسختين من مذكرته ، ولم يكن فى ملابس القيصر جيب يتسع لهذه الاوراق فرفض قبولها ودعا أوين الى زيارته فى المساء . فغضب أوين لرد القيصر الجاف وعزف عن قبول دعوته وسلم أوين نسختا من مذكرته الى لورد كاسلرى أحد المندوبين البريطانيين فى مؤتمر اكس لاشابيل وطلب اليه عرضها على المؤتمر ، وعلم فيما بعد من عدة مصادر أن مذكرته بحثت وأنها كانت من بين أهم الوثائق التى عرضت للبحث » .

لقد كان ينبغي له أن يتذكر أن الرجل الحسن الهندام لا يفسد منظره بأن يملا جيوبه بالأوراق مهما بلغ مقدار تدينه .

وأدرك أوين شيئا فشيئا أن الحكومة لن تنفذ مشروعه ، ولكن الأمل ظل يراوده في أن تقوم بذلك بعض السلطات المحلية . وفي سنة ١٨٢٠ قدم تقريرا مطولا الى مجلس لانارك موضحا فيه آراءه بتفصيل مسهب ، وأهم شيء جديد في هذا التقرير اقتراحه أن تحل « صكوك العمل » محل النقود . وكانت الحكومة على وشك العودة الى نظام الدفع بالذهب ، الذي أوقف العمل به سنة ١٧٩٧ بسبب الحرب ، ومن ثم كانت مشاكل النقد تحتل عندها مكانا بارزا . وكان اقتراح أوين يتضمن أن تحدد جميع الأسعار بالنسبة الى كمية العمل التي يتضمنها الانتاج وأن تكون كل المدفوعات على أساس وحدات العمل . وهو يقول في ذلك « ان الوحدة الطبيعية للقيمة هي من حيث المبدأ الجهد البشرى أو القوى اليدوية والذهنية المشتركة التي تتطلبها الانتاج » . وكان يعزو الى تطبيق هذا النظام نتائج تكاد تكون سحرية . وكانت آماله في هذه الحال ، وكما حدث دائما بعد سنة ١٨١٧ ، مسرفة مبالغا فيها وادراكه للعقبات يكاد يكون معدوما . وكلمة تقدمت به السن كان شعوره بالواقع يضعف ويزداد تحليفا في أجواء الخيال غير المحدد .

ومع ذلك فان هناك شيئا كثيرا من الحقيقة ونقطة هامة في تقريره الى مجلس لانارك . أما التقرير فيبدأ بأن العمل هو مصدر كل ثروة (x) ، ثم يقول انه ليست هناك صعوبة في انتاج ما يكفي ولكن الصعوبة في ايجاد السوق . والسواق تقوم على مطالب الطبقات العاملة التي تعتمد بدورها على الأجور . ومن ثم فال تحسين الأسواق لا يتطلب سوى رفع الأجور . « ولكن أوضاع المجتمع القائمة لا تسمح بأن يكافأ العامل على نشاطه ، ومن ثم تكسب جميع الأسواق » . وبعد أن يشرح اقتراحه الخاص بصكوك العمل والقرى التعاونية يمضى معارضا المغالاة في تقسيم العمل . وذهب الى أنه ينبغي أن ينال الأطفال تدريبا عاما غير متخصص وأن يجمع البالغون بين الزراعة والعمل الصناعى . واعتبر أوين كدأبه دائما أن التعليم أساس كل ماعداه . غير أن النتائج التي كان يهدف اليها كانت بعيدة المدى . فسيحصل كل الناس على ما يكفيهم ومن ثم لن تقوم حرب ولن ترتكب جرائم ولا تكون سجون ، وسيكون بدلا منها سعادة شاملة تعم الجميع .

وشغل أوين معظم وقته طوال السنوات الاربع من سنة ١٨٢٤ الى سنة ١٨٢٨ فى تجربة انشاء مجتمع على أسس المربعات التعاونية . وكان جورج زاب ، وهو مصلح دينى المانى ، قد اصطحب جماعة من أتباعه أقاموا مستعمرة فى بنسلفانيا أولا ثم بعد ذلك فى أنديانا وأقلعوا عن الزواج والتدخين فازدهرت أحوالهم . وفى سنة ١٨٢٤ قرروا أن ينتقلوا من مستعمرتهم ، وفى أوائل

(x) ليس هذا صحيحا الا بصورة جزئية بطبيعة الحال كما رأينا فى حديثنا عن ريكاردو .

سنة ١٨٢٥ باعوا كل ماكانو يملكونه في أنديانا لاوين الذي أطلق على المكان اسم «نيوهارموني» وشرع في تنظيم مجتمع أحلامه بعد أن وجه خطابا الى رئيس الولايات المتحدة ومجلس الأمة في واشنطن . وسارت الامور كلها سيريا خاطئا ، كما يحدث دائما في مثل هذه التجارب ، وفقد اوين ٤٠٠٠٠ جنيه وخرج من المشروع رجلا فقيرا . الا أن أبناءه الذين ذهبوا معه الى نيوهارموني احتفظوا ببعض الاراضي وصاروا في النهاية مواطنين أمريكيين ناجحين .

ومن الغريب حقا أن نيوهارموني أصابت نجاحا في مجال واحد كان موضع دهشة المجتمع . ذلك أن اوين قد استوفد من أوروبا بعض رجال العلم قام عدد كبير منهم بأعمال قيمة . وتولى اولاده أنفسهم الاشراف على « مصلحة المساحة الجيولوجية في الولايات المتحدة » التي ظل مركزها الرئيسي في نيوهارموني حتى سنة ١٨٥٦ . وقد كتب بودمور سنة ١٩٠٦ في ذلك يقول :

« وهكذا أخفقت تجربة اوين الكبرى ، الا أن جهوده كللت بنجاح لم يكن قط في الحسينان . فقد ظلت نيوهارموني أكثر من جيل المركز العلمي والتربوي الرئيسي في الغرب ، تنبعث منها اشعاعات تركت أثرها في اتجاهات متعددة في البناء الاجتماعي والسياسي في البلاد . ويبدو طابع روبرت اوين واضحا على البلد الذي أسسه حتى الآن . ذلك أن نيوهارموني ليست كغيرها من بلدان غربي الولايات المتحدة لانها مدينسة ذات تاريخ ، ولا يزال عدد من مواطني المدينة النابهن يحملون اسم اوين وهم أحفاد الاشتراكي العظيم . وتفتخر المدينة بأن لديها مكتبة عامة - أمينها أحد أحفاد المستعمرين الاصليين - تضم حوالي خمسة عشر ألف مجلد ، الكثير منها نادر وقيم » .

وبعد مجهود قصير لامع في الحركة النقابية (انتهى عام ١٨٣٤ وسيكون موضع بحثنا في الفصل التالي) لم يعد لاوين أية علاقة وثيقة براديكالية الطبقة العاملة . وصار زعيما لفئة صغيرة من المفكرين الاحرار في العقائد الدينية ولم يعد في نظر الناس المحترمين « مستر اوين الخير » فقد أصبح شخصا خطرا يدفع الجماهير الى الالحاد والى النشاط الثوري . وفي سنة ١٨٣٥ زادت سمعته سوءا بدعوته الى افكار متطرفة في الزواج في سلسلة من المحاضرات نشرها بعنوان : « محاضرات عن زواج رجال الدين في العالم الفاسد القديم » . والواقع ان هذا العنوان مضلل ، فهو يقصد الزواج الذي يعقده رجال الدين . وكان اوين في ذلك الوقت قد أصبح شيوعيا كاملا . وكان يعارض في الزواج باعتباره وضعا مرتبطا بالملكية الخاصة وأنه يتضمن ما يشبه الملكية في الأشخاص . ولم يقتصر استنكاره على الزواج وحده بل انه استنكر أيضا المحيط العائلي الذي يعيش فيها الأطفال ، وكان يستعمل في ذلك لغة جد عنيفة ، ولكن يبدو أنه كان يأمل في أن تقوم بين النساء والرجال علاقات تدوم مدى الحياة رغم الحرية التي يدعو اليها .

ولست أدري هل كانت هذه الآراء وليدة تفكير نظري في الشيوعية ، كما فعل أفلاطون ، أم أنها من إحياء ظروف معينة في حياته الخاصة . فقد ماتت مسز كوين سنة ١٨٣١ ورغم أنه كان كثير التغيب عنها مددا طويلة ، فليس هناك ما يدل على أنه انصرف عن حبه إياها . وقد كتبت إليه في آخر سني حياتها تقول :

« زوجي العزيز ، كم أحس بحاجتي اليك ، أستمع الى نصحك في هذه الأوقات العصيبة . . . واني آمل أن تتذكر الخميس القادم ، اليوم الذي صرنا فيه شخصا واحدا منذ واحد وثلاثين عاما، واعتقد، مما أشعر به أنا نفسي ، أننا مازلنا يحب بعضنا بعض بنفس الاخلاص الذي كان يتسم به حيننا منذ واحد وثلاثين عاما وأننا نفهم بعضنا بعضا أكثر مما كنا في ذلك الوقت ، واني لأرغب مخلصا ألا يحدث ما يضعف هذا الحب » .

وعلى الرغم من أن أعداء أوين استهجنوا مبادئه فانهم لم يجدوا مطعنا في حياته الخاصة . فالمرعبات التعاونية ومدارس الحضانة والغاء الملكية الخاصة والغاء الزواج تكون كلها مجهوعه من المبادئ المنطقية المتسقة ، وليس هناك من سبب يدعو الى البحث من مصدر آخر لآرائه الاخلاقية .

ولم يكن في هذه الايام المدلهمة سوى شخصين لم يرعهما خبث أوين ، هما : لورد ملبورن والملكة فكتوريا . ذلك أن أوين قد ظل ، على الرغم من موضوع عمال دورشمستر (x) ، ذا علاقة طيبة بملبورن الذي قدمه الى الملكة عام ١٨٣٤ ، ولما كان أوين لا يترك فرصة يقابل فيها أي شخص دون أن يقدم له وثيقة ما فانه أعطى الملكة « نداء موجهها من مؤتمر ممثلي المجتمع العالمي للمتدينين العقلين يطلب الى الحكومة تعيين هيئات لبحث ما يقترحه المؤتمر من اجراءات تهدف الى تحسين أحوال المجتمع » وليس في التاريخ ما يدلنا هبل تفضلت جلالتها بقراءة الوثيقة متأثرة بهذا العنوان الجذاب أم لا .

ولم يتعرض ملبورن مطلقا للمحاسبة على جرائمه ، ولكنه هوجم بشدة على أنه قدم ملجدا معروفا مثل أوين الى الملكة (x x) . وقد أشار أسقف اكستر في عريضة قدمها وجهاء برمنجهام ضد الاشتراكية الى أن منظمة أوين غير قانونية وأنه من الممكن - بل من الواجب - أن يزج به في السجن .

« وأضاف أن هناك ضريبا أخرى بشعة من التجديف والفساد لا يريد أن يخدم بها آذان السادة اللوردات . فهناك كتاب لأوين تحت يد الأسقف - والإشارة هنا لاشك مقصود بها كتاب «زواج رجال الدين . . .» - وقع نظره على فقرة واحدة منه ، ولكنه لم يسمح مطلقا بعد ذلك بأن يدنس عقسه بالنظر اليه مرة ثانية . وهو لا يستطيع بأي حال من الأحوال ولا يريد أن يلقن

(x) انظر الفصل التالي .

(x x) واضح أن ملبورن نفسه كان ملجدا متطرفا . انظر جريويل ١٦ ديسمبر ١٨٣٥ .

الى مسامع الماركيز «تورمانبي» بعض عبارات التجديف والبذاءة التي لامينيل لسئوها حتى ولو اراد بذلك أن يقنعه بضرورة اتخاذ اجراء حاسم سريع » .

ومع ذلك فلم يكن هذا هو أسوأ ما فى الأمر . فيبدو أنه فى كونييود (احدى الجماعات التي أسسها أوين) كان الغناء والرقص والموسيقى يحدث يوم الأحد ! وهذا هو الرجل الذي رأى رئيس الوزراء أنه يليق بأن يقدمه الى الملكة الشابة البريئة .

وعقب الحملة الخطابية التي تزعمها الأسقف ضد أوين قامت حركة فى أنحاء البلاد على أيدي رجال أقل منه مرتبة ، وكانت النتيجة أن أتباع أوين أصبحوا هدفا لهجوم الفوغاء باسم الدفاع عن المسيحية . الا أنه لم تقع حوادث ذات بال . واختفت الشيعة الأوثنية شيئا فشيئا فى زوايا النسيان . ونستطيع أن نتبين الى أى حد اقتترنت الاستراكية بالحلب المباح فى نظر الطبقات الموسرة من أقوال أحد اليهود من رجال الكنيسة فى سنة ١٨٤٦ أمام لجنة برلمانية لانشاء السكك الحديدية . فقد سئل هذا الشاهد عن أخلاق العمال الذين يعملون فى الانشاءات :

انك تتحدث عن الآراء الالحادية . فهل تعتقد أن عددا كبيرا منهم اشتراكيون؟
فاجاب : « معظمهم اشتراكيون فى أعينهم ، ذلك أن قلة صغيرة منهم هم المتزوجون ، وان بدا أن لهم زوجات » (X) .

ان الحياء الفكتورى الذى تتسم به الاجابة عن هذا السؤال لجدير بالثناء ، الا أنه ليس من المحتمل أن هؤلاء العمال كانوا اشتراكيين بأى معنى آخر . لقد كان اشتراكيو ذلك العهد قلة متحمسة من ذوى النشاط ذهنى ولم يكن لاولئك العمال شيء من هذه الصفات .

ومن العسير أن يصدر المرء حكما صحيحا على عمل أوين واثره . فهو حتى عام ١٨١٥ يبدو رجلا عمليا ناجحا فى كل أمر يتولاه ، ولا تقوده نزعات الرجل المصلح الى القيام بمحاولات مستحيلة . وبعد ذلك التاريخ أصبح أفقه أكثر اتساعا ، ولكن حكمته فى شئون الحياة اليومية تضائلت . وقد أخفق فيما بذله من محاولات لاصلاح العالم بسبب قلة الصبر وعدم الاهتمام بالنواحي المالية اهتماما كافيا ، وكذلك بسبب اعتقاده . بأنه من السهل اقناع كل الناس بأن يروا ما كان يبدو له حقيقة واضحة لا تحتاج الى دليل . وقد ضلله نجاحه فى نيولانارك كما ضلل غيره فى مبدأ الأمر . ذلك أنه كانت لديه دراية بالآلات كما كان يعرف كيف يجعل نفسه محبوبا ، وكانت هاتان الصفتان كافيتين فى نيولانارك ، ولكنهما لم تكونا كافيتين فى مقامراته الثمالية . فلم تكن لديه الصفات التي تجعل منه زعيما أو منظما ناجحا .

غير أنه يستحق مكانة ممتازة بوصفه صاحب فكرة . فقد أوضح مشتاكل
معلق بالانتاج الصناعي أثبتت الأيام انها مهمة وان كانت أهميتها قد اختفت
وَقَبْنا في الفترة التالية لنشاطه بسبب امتداد السكك الحديدية . فقد أدرك أن
زيادة الانتاج الناجمة عن استعمال الآلات لا بد أن تؤدي اما الى تضخم في
انتاج أو الى انتشار البطالة الا اذا بذلت الجهود لتوسيع الأسواق عن طريق
فتح الأجور . كما أدرك أن احتمال رفع الأجور في ظل القوى الاقتصادية السائدة
في نظام المنافسة الحرة بعيد . واستنتج من ذلك وجوب الاتجاه بطرق الانتاج
التوزيع اتجاها اشتراكيا أكثر من ذي قبل اذا أريد أن يكون التصنيع مُصْذِر
خاه عام . وقد نجح القرن التامع عشر في تجنب منطق تضخم الانتاج عن
لرقيق ايجاد أسواق جديدة وبلاد جديدة للاستغلال بصورة مستمرة ، ولكن
لحقائق الكافية في تحليل أوين قد بدأت تظهر بوضوح في هذه الأيام .

وكانت أخطر الاعتراضات على برنامجه في عهده هي مبدأ زيادة السكان
ضرورية المناسبة بوصفها قوة دافعة في الصناعة . وتستمد الحجج التي يقوم
عليها هذان الاعتراضان من مالش الذي يصف أوين بأنه « رجل خير » .
ويؤيد تشريعه المقترح للمصانع وأساليبه في التعليم . ويقول ان جميع
النظم التي تهدف الى المساواة تنطوي على استبعاد « تلك البواعث التي تدفع
الناس الى بذل الجهود والتي لا يستطيع غيرها التغلب على الكسل الطبيعي في
الإنسان » ، بينما تزول أيضا الموانع الحصينة التي تحول دون الأسراف في
النسل والتي تعتمد جميعها على الملكية الخاصة . « وفي مثل هذه الظروف ان
يكون ثمة سبب لآن يرى انسان انه مضطر لاختضاع نفسه لواجب الامتناع
أكثر من اى انسان آخر . روضح أن عجز أوين التام عن أن يقترح اية وسيلة
لتحقيق هذا الهدف - تحديد النسل - بطريقة طبيعية تتفق مع الاخلاق ولا
تتضمن قدرا كبيرا من القسوة ، وكذلك اخفاق كل مفكر آخر - قديما كان
أو حديثا - ممن حاولوا مثل هذا العمل ، انما يدل على أن الحجج التي تساق
ضيد أنظمة المساواة ليس لها من رد مقبول حتى من الناحية النظرية » .

أما فيما يتعلق بهذين الاعتراضين ، فإن الحجج التي بنيت على مبدأ السكان
أجاب عنها انخفاض معدل المواليد فعلا . ومن سخيرية القدر الغربية أن بعض
الراديكاليين من الطبقة الوسطى هم الذين أخذت عنهم الطبقات العاقلة في
آخر الأمر معظم ماتبعته من وسائل ضبط النسل الذي جعل نجاح الاشتراكية
ممكنا ، بينما كان الاشتراكيون انفسهم اما معادين للفكرة أو غير مباليين بها .
وتضاءلت خطورة الاعتراضات الأخرى بسبب زيادة القدرة الانتاجية للعمل .
فما لا ريب فيه أن الخوف من الفقر كان دافعا لا بد منه عندما كانت ساعات
العمل العادية بين ١٢ و ١٥ ساعة يوميا . أما الآن ، مع استعمال الطرق

الحديثة ، فان ساعات عمل قليلة جدا ، مع التنظيم المناسب ، أصبحت كافية ويمكن الوصول الى هذه الغاية عن طريق نظام يسهل تنفيذه .

وطبيعي أن القرى التعاونية التي يقترحها أوين تعتبر سخفا إذا نظرنا إليها على أنها هي الحل المستطاع . ذلك أنه لا يمكن تجربة نظام شيوعي تجربة صادقة على نطاق ضيق ، بل أن هذه التجربة يجب أن تشمل على الأقل أمة بأكملها إن لم تشمل العالم كله . وكان اقتراحه يرمى إلى أن تجمع هذه القرى بين الزراعة والصناعة ، وأن تكفى كل منها نفسها فيما يتعلق بالطعام بقدر الامكان . وكان هذا النظام يبدو طبيعيا في الشمال الصناعي في سنة ١٨١٥ حيث كانت تقوم مصانع منعزلة تدار بقوة الماء داخل مناطق زراعية؛ غير أنه من المستحيل في العالم الحديث أن تنشج مناطق صناعية كل طعامها . إذ لا يستطيع مجتمع صغير في الوقت الحاضر أن يهدف نحو الاكتفاء الذاتي اقتصاديا إلا إذا كان على استعداد لأن يتقبل مستوى منخفضا جدا من الحياة .

ومع ذلك فلم يزل هناك الكثير في نواح أخرى مما يمكن أن يقال في صف مربعات أوين . فهو على خلاف معاصريه لم يفكر في الحياة على أساس من الربح والحسارة ، فقد اهتم بالجمال وتنمية الحواس والعقل ، واهتم فوق كل شيء بالأطفال . إن حياة جماعية مثل التي وضع أوين برنامجها ممكن أن تضم كل ألوان الجمال الذي يوجد في كليات أوكسفورد وكيمبردج كما أنه من الممكن توفير وقت فراغ يتسع للفنون الجميلة عامة ويهيء للأطفال حرية العمل واللعب . إن الفردية العائلية التي ألفناها لتجعل كل هذه الأشياء مستحيلة . و . انتجمع وحده هو السبيل الوحيد الذي يستطيع عن طريقة أشخاص ممن ليسوا أكثر ثراء مما ينبغي أن يهبوا من أدران الحياة ويتمتعوا بالمباهج الجمالية التي تتوفر في العماثر الفسيحة ووفرة الهواء المطلق وأشعة الشمس . إن المدن الحديثة سجون للأطفال ، إلا إذا كانوا فقراء إلى حد يسمح لهم باللعب في الشوارع ، وحتى هذا نفسه غير صحي وخطر . وكان أوين يعتقد أن التحول إلى المجتمع الجديد أمر أسرع وأسهل مما هو ممكن في الواقع ، ولكن الأشياء التي أراد تحقيقها جميلة ، وقد أهملها كل المصلحين الآخرين تقريبا . وهي أشياء جعل نمو الانتاج الآلي تحقيقها عمليا ، مع بعض التعديلات الفنية أيسر من ذي قبل لا أصعب منه . وهذه الأسباب هي التي تجعل أوين رجلا عظيم الشأن على الرغم من مواطن الضعف في آرائه ، وهي آراء لم تزل قادرة على الإثارة .

الفصل السادس عشر

الحركة النقابية الاولى

يستطيع اى شخص لديه سلعة يبيعها ان يحصل لها فى الغالب على سعر احسن لو أنه كان محتكرا لها مما لو كان خاضعا للمنافسة فيها . فاذًا كان له منافسون فمن مصلحته عادة أن يتحد معهم كي يحصلوا جميعا على مزايا الاحتكار . على أن من العسير في أغلب الأحيان قيام هذا الاتحاد لأن الذين كانوا متنافسين يميل كل منهم للشك فى غيره ولأن فى رسع أى واحد منهم ، بعد الاتفاق على الاتحاد ، أن يحصل على كسب مؤقت بالخروج على الباقين والتفاهم مستقلا مع المشترين . هذا الى أن المشترين ، وهم يدركون ما عسى أن يصيبهم من خسارة نتيجة لاتفاق البائعين ، يضعون فى طريق هذا الاتفاق كل العقبات الممكنة ، سواء كانت قانونية أو بائنة الرأى العام . ومن ثم فإن مزايا المنافسة يحرص عليها المستهلكون ، بينما يعمل المنتجون على تحقيق فوائد الاتحاد . وكان النزاع بين هاتين النظريتين المتضاربتين والمذاهب العامة المتعلقة بهما ينشأ عن كل منهما من خير عام يظهر باستمرار خلال التاريخ الاقتصادى للقرن التاسع عشر . والعمل ، باعتبارها سلعة ، يبيعه الأجير ويشتريه صاحب رأس المال . وعند ما يزيد عدد السكان وتسود المنافسة بين الأجراء لا مفر من أن تميل الأجور الى الهبوط الى حد الكفاف . والنقابات ، فى أصلها على الأقل - هبى محاولة لمنع حدوث هذه النتيجة عن طريق الاتحاد بين بائعى العمل - فى جرفة معينة فى مبدأ الأمر ، ثم تتسع بالتدريج لتضم ميادين أكبر حتى تشمل آخر الأمر الاغلبية الساحقة من الأجراء . ولا جدال فى أن مقدرة الأجراء على المساومة الاقتصادية ، وكذلك مكانة العمل بصفة عامة ، قد ارتفعا كثيرا عن طريق الحركة النقابية ، الا أن الخطوات الاولى كانت صعبة ، وكثيرا ما أصيبت الآمال الكبيرة الاولى بالنكسة بعد النكسة .

ويرجع تاريخ أول نقابة ، كما يقول مستر ومستر سيدنى وب ، الى أواخر القرن السابع عشر ، أى أنها بدأت قبل عهد الانقلاب الصناعى . « فى جميع الحالات التى قامت فيها النقابات كانت الغالبية العظمى من العمال قد فقدوا استقلالهم بوضعهم منتجين يتحكمون فى عمليات الإنتاج ويملكون أدوات عملهم ونتاجه ، وتحولوا الى وضع صاروا فيه أجراء طوال حياتهم ولا يملكون أدوات الإنتاج ولا السلعة فى صورتها النهائية (x) وفى بعض المهن ، كمهنة الحائكين

(x) «تاريخ الحركة النقابية» تأليف سيدنى وبياتريس وب الطبعة الثالثة سنة ١٩٢٠ ص ٢٥ - ٢٦

مثلا ، حدث هذا الهبوط بمستوى العامل الى مستوى البروليتاريا قبل عصر الآلة ، الا أن ظروف قيام الحركة النقابية على نطاق واسع لم تبدأ الا عن طريق الآلة ونظام المصانع . ولهذا السبب أصبحت النقابات مهمة في بريطانيا العظمى قبل أى مكان آخر بمدة طويلة .

ولم تكن النقابات في القرن الثامن عشر من الأهمية بدرجة تكفى لاثارة عداه القانون لها ، ولكنها صارت موضع اضطهاد قانونى ابتداء من سنة ١٧٩٩ حتى سنة ١٩١٣ . أولا من جانب الهيئة التشريعية والمحاكم معا ، ثم من قبل المحاكم وجدها متحدية نوايا الهيئة التشريعية . ففي سنة ١٧٩٩ قدم بت مشروع قانون وافق عليه البرلمان بطريقة عاجلة وجعل كل الاتحادات العمالية غير مشروعة . وكانت اتحادات أصحاب الأعمال أيضا غير قانونية من الناحية النظرية بمقتضى هذا القانون ، ولكن هذا الجزء من القانون ظل ميتا . كما كانت هناك تشريعات أخرى الى جانب القانون العام تطبق كلما رأت المحاكم أن ذلك أيسر لها .

ففى اضراب قام به عمال نسبيج القطن سنة ١٨١٢ قبض على أعضاء اللجنة بتهمة الاتحاد . وهى جريمة فى نظر القانون العام ، وحكم عليهم بالسجن مددا تتراوح بين أربعة شهور وثمانية عشر شهرا . وفى سنة ١٨١٨ حكم على زعماء اضراب قام به الغزالون بالسجن عامين تطبيقا لتشريع صدر سنة ١٣٠٥ ضد « المتآمرين والمارقين » . وكانت المحاكمات كثيرة حتى عند ما لم يكن هناك اضراب . ويقول وب زوجته : « لقد شهدت العشرين السنة الأولى من القرن التاسع عشر تعقب القانون للنقابيين باعتبارهم ثوارا ومتمردين ، بحولون دون النمو السليم للاتحادات ويدفعون أعضاءها لأعمال العنف والغتن » .

وبدأت حقبة جديدة فى الحركة النقابية سنة ١٨٢٤ نجمت عن تدخل الراديكاليين من الطبقة الوسطى . فقد كانت الحركة حتى تلك اللحظة تنمو من تلقاء نفسها ويتجاهلها جميع من هم خارج صفوف الأجراء أو ينفرون منها . ثم جذبت محاكمة عمال مطبعة التايمز انتباه الحائك الراديكالى فرانسيس ولغنتت نظره الى مافى قوانين الاتحادات من ظلم بين ، وفى أول العقد الثالث عندما بدأت لهجة السياسة البريطانية تكون أقل مغالاة فى الرجعية ، حصل على تأييد اثنين من الراديكاليين الفلسفيين هما ماك كولوش وجوزيف هيوم فى الغاء هذه القوانين . ونجح هيوم سنة ١٩٢٤ فى حمل البرلمان على أن يوافق على قانون يكفل حرية كاملة للاتحادات أيا كان نوعها . وفى تلك الأيام لم يكن هناك من يهتم كثيرا بمثل هذه المسائل حتى ولا الحكومة نفسها ، ونجح هيوم بالتزامه الصمت والهدوء مع أعضاء البرلمان ، بل والوزراء أنفسهم ، من أن يلاحظوا ما كان يحدث (X) . وحدثت فى تلك الأيام عاصفة من الاضطرابات ودهش

الناس اذ وجدوا أن القوانين القديمة لم تعد تنفذ . وفي سنة ١٩٢٥ أعاد البرلمان بعض النصوص التي كان قد ألغها عن غير قصد . ولكنه لم يذهب الى حد جعل الإضرابات والبقايات غير مشروعة . وأصبحت الحركة النقابية منذ هذه اللحظة ذات شأن في كل من الصناعة والسياسة ، وان كانت قد مرت بأزمات ونهضات كثيرة .

وقد ظلت النقابات بلا أهداف سياسية أو اقتصادية طوال الفترة التي كانت

بعيدة فيها عن تأثير الطبقة الوسطى ، كما انها كانت تفتقر الى الاحساس بتضامن الطبقة العاملة . وكانت تتكون في الغالب من اتحادات محلية من أصحاب الحرف المهرة الذين ينتمون الى حرفة بذاتها ، تتعاون أحيانا مع اتحادات مشابهة لها في أماكن أخرى . الا انها قلما كانت تهتم بشيء خارج نطاق الاحتفاظ بمستوى الأجور فيها . بيد أن بعض زعمائها تنبهوا ، عقب اتصالهم بالراديكاليين الفلسفيين في موضوع إلغاء قوانين الاتحادات ، إلا أن هناك مذهبا آخر يمنح الاجراء أكثر مما يمنحهم ضبط النسل والنظريات الاقتصادية المائتسية والاتجاه نحو الهجرة . ولم تكن الدعوة الى الاشتراكية مقصورة على أوين وحده بل كان يقوم بها أيضا عدد من الاقتصاديين أهمهم توماس هودجسكين الذي يتمتع بميزة نادرة اذ يستشهد به ماركس محررا آراءه وكان هودجسكين يقول ، متبعا في ذلك ريكاردو ، أن العمل هو مصدر القيمة ، ويختلف معه في أنه كان يدعو الى أن يأخذ العامل كل نتاج الصناعة . وقد راع جيمس مل الأثر الذي أحدثه نشاطه فكتب بقلق شديد في ١٦ اكتوبر سنة ١٨٣١ الى بليس عن وفد « من الطبقات العاملة » كان يدعو للشيوعية لدى مستر بلاك محرر المورنج كرونكل :

« ان آراءهم في الملكية تبدو بشعة ، فانهم لا يريدون فقط ألا تكون بينها وبين التمثيل الثياني علاقة ، وهو أمر سليم في ذاته وان لم يكن سليما في الوقت الحاضر ، وهذا ما يجب عليهم أن يدركوه ، ولكنهم فيما يبدو يعتقدون أن الملكية يجب ألا توجد أصلا وأن في وجودها وبال عليهم . ولا يسألونني الشك في أن بينهم أوغاد يعملون بنشاط وضحج أنه من اليسير التأثير على بلاك وخذاعه . ولكن الموضوع يتطلب عناية . وليس ثمة من يستطيع أن يسبر غور الأمور مثلك ، كما أنه ليس هناك من لديه وسائل العلاج بالقدر الذي لديك . انهم أغبياء اذ لا يرون ما يريدونه جنون سميكون كارثة عليهم لا يمكن أن يحقق بهم الا على أيديهم أنفسهم » .

وأجابه بليس :

« عزيزي مل - بما أنك تبتذل جهديك أحيانا في خدمة الناس ، وبما أنك رجل له نفوذ ، فاني أبعث اليك بمقالة ردا على رسالتك . ان الرجال الذين زاروا بلاك لم يكونوا وفدا من العمال ، بل هم اثنان من ستة أشخاص يدبرون

- أويستون ادارة - الاجتماعات فى قاعة فى طريق بلاكفراير وفى معبد فيلادلفيا فى فينيسبرى * والمذهب الذى يدعون اليه الآن هو ذلك الذى يذكره هودجسكين فى رسالة نشرها سنة ١٩٢٥ بعنوان (الدفاع عن العمل ضد مطالب رأس المال) * * * واستمر على هذا المنوال فى رسالة طويلة (X) . وبعد عام أرسل مل المعلومات التى حصل عليها من بليس الى لورد بروجهام :

« ان الهراء الذى تشبرون سيادتكم اليه عن حق العامل فى الاستيلاء على كل انتاج البلاد ، بما فى ذلك الاجور والارباخ والريع ، مصدرها خزعبلات جنونية نشرها صديقنا هودجسكين على هيئة نظام كامل وقام يدعو اليها فى حماسة المتعصبين المتشددين * وكل ما يظهر منها فى الكرونكل انما يتسرب اليها عن طريقه باعتباره مساعداً المحرر ، اذ أن بلاك «المحرر» ليس ماهراً جداً فى اكتشاف هذه المسائل ولكن جميع آراء بلاك فى موضوع الملكية آراء سليمة ، ولو أن آراء هودجسكين انتشرت لكانت معولا أكثر هدماً للمجتمع المتمدن من جحافل الهون والتتار (X X) » .

وكانت نتيجة التعاليم الاشتراكية ثورة ضد راديكالية الطبقة الوسطى وغوا سريعا لحركة عمالية خالصة ، بعضها نقابى وبعضها تعاونى ، كانت تنظر الى أوين باعتباره نبيا * وبينما كان أوين مشغولا بنيوهارموني بدأت الحركة التعاونية مرتبطة ارتباطا وثيقا بمبادئه * وفى هذه الآونة كان أول استعمال معروف للفظ « اشتراكى » وصفا لاتباع أوين * وكان ذلك فى مجلة « التعاون » الصادرة فى سنة ١٨٢٧ اذ أطلق على أنصار « قرى أوين » اسم الشيوعيين والاشتراكيين The communionists and socialists (X X X) ولما ظهر أن رأس المال اللازم لانشاء القرى لا سبيل الى الحصول عليه اتجهت الحركة التعاونية فى نموها اتجاها عمليا أكثر من ذى قبل وأن النمو الهائل للمتاجر التعاونية فى الوقت الحاضر لهو اثر من آثار نمو الحركة التعاونية الذى بدأ منذ أيام أوين ، غير أن الحركة مرت بأزمات مختلفة وتجارب فاشلة عديدة قبل أن تصل الى صورتها العملية المكتملة التى بلغت فى النهاية *

وقد افتتح أوين ، فى سبتمبر سنة ١٨٣٢ ما أطلق عليه « التبادل القومى العادل للعمل » فى بناء رائع نوعا ما فى طريق « جريز اين » كان يتخذة قبل ذلك أحد أتباعه اسمه بروملى « مؤسسة لمحاربة الجهل والفقر » . كان المقصود منها أن تمثل - الى حد ما - ثمن هذه السلع مقدرا بالعمل ، وكان مقدار ضخم من التبادل يتم عن طريق هذه المنشأة ، إلا أن أحدا لم يعرف تماما هل كانت عملية خاسرة أو أنها كانت تربح * ثم بدأ بروملى يطالب أوين بايجار مرتفع (ليس بصكرك العمل !) * وكانت النتيجة أن انتقل أوين

(X) « بليس » تاليف دالاس ص ٢٧٤ .

(X X) خطاب مل بروجهام فى كتاب « جيمس مل تاليف « بين » ص ٣٦٤ .

(X X X) « تاريخ بريطانيا الحديثة الاقتصادية » كلاهام ، الجزء الاول ص ٣١٥ .

لى مكان جديد ، وفى يولية سنة ١٨٣٣ انقطعت صلته بالمنشأة . وكانت هناك « مراكز لتبادل العمل » غير أن هذه تدار على أسس مشابهة لهذا المركز معظمها فى لندن . وتكونت « جمعية المهن المتحدة » كانت على اتصال بهذه المراكز يوفر فيها العمل للمتعطلين ، ولكنهم كانوا يأخذون أجورهم صكوك عمل ويرسل انتاجهم الى مراكز « تبادل العمل » . إلا أن الحركة كلها سرعان ما فشلت . ويعزو وليم لوفت - وهو أحد زعماء العرائضيين ومن أنصار وين الذين كانوا على صلة وثيقة بجمعية المهن المتحدة - فشل الحركة الى « الخلافات الدينية والحاجة الى الضمان القانونى ونفور النساء من الاقتصار فى مشغرياتهن على مكان واحد » . ومما يدعو الى العجب عدم قدرة أوين المستمرة على ابعاد المسائل الدينية من أن تكون ذات شأن فى عمله .

وظلت الحركة النقابية فترة وجيزة مرتبطة ارتباطا وثيقا بهذه المحاولات الاولى الفاشلة للحركة التعاونية . وعلى الرغم من أن بعض النقابات ظلت بمنأى عن مبادئ أوين ، فان معظمها قبل تعاليمه فى سنة ١٨٣٣ ، وحدث بفضل زعامته نمو سريع مفاجئ فى عضويتها ومحاولة لتحقيق أهداف اشتراكية واسعة لها .

وكان أوين كعادته يتوقع الحصول على نتائج سريعة . فكان يعتقد أن الحركة النقابية تستطيع تغيير النظام الاقتصادى بأكمله فى سنوات قلائل . وقد كتب الى اتحاد البنائين ردا على خطاب أرسلوه له ما يأتى : « انكم تستطيعون تحقيق هذا الانتقال (الى العصر التعاونى الجديد) بالنسبة لسكان الامبراطورية كلها فى أقل من خمسة أشهر (X) » . وكون البنائون « اتحاد الاخوة البنائين العاملين القومى » . وكانوا على أهبة للتعاقد بأنفسهم على تشييد المباني ، وأبلغوا أصحاب الاعمال أن سلطانهم أخذ فى الزوال ، إلا أنه ممكن ضمهم الى الاتحاد بوصفهم مديرين اذا أثبتوا كفايتهم . وفى نفس الوقت طلب البنائون العاملون اجورا أعلى . ولم يبد أصحاب الاعمال أية حماسة نحو عصر أوين الذهبى ورفضوا استخدام أعضاء الاتحاد . وحدث اضراب ، وشرع المضربون فى بناء مقر لاتحادهم فى برمنجهام . إلا أن أموالهم لم تكف لاتمام البناء وانهاء المشروع كله . ولكنه كان فى هذه الاثناء قد أصبح جزءا من حركة أكبر .

وفى أكتوبر سنة ١٨٣٣ اجتمع مندوبون عن النقابات فى جميع أنحاء البلاد فى مقر « التبادل القومى العادل للعمل » وأوصوا بتكوين « اتحاد قومى كبير للطبقات المفيدة والمنتجة » . وفى غضون أسابيع قليلة بلغ عدد أعضائه نصف مليون عضو ، وقدر مجموع عدد النقابيين بمليون شخص . وبينما كانت الشكوك تساور بعض النقابات فى أوين ، كان « اتحاد المهن

التضامنى القومى الكبير « مخلصا لمذهبه كل الاخلاص ويبدو أن تفاؤله والزيادة السريعة فى عضويه النقابات جعلت النقابيين يتهورون . فحدثت اضرابات فى كل مكان » وانزعج أصحاب الاعمال ورفضوا استخدام النقابيين فأصبحوا بلا مال .

وفى هذه اللحظة وقعت حادثة عمال درشستر . كان هؤلاء ستة رجال يعملون فى انشاء مقر « لجمعية الصداقة بين العمال الزراعيين » التى لم تكن فى ذاتها جمعية غير قانونية ، غير أنهم اتهموا بجريمة أخرى هى أنهم كانوا قد استحلقوا أعضاءها ايماناً (x) وعلى هذا الاساس حكم عليهم بالنفى سبع سنوات . فكان لابد لأولين والزعماء الآخرين أن يكرسوا جهودهم لانتارة الجماهير للدفاع عن قضية هؤلاء التعساء . وبدلوا كل ما فى وسعهم ولكن ملبورن وزير الداخلية لم يلب .

وساءت وقتئذ أحوال « الاتحاد التضامنى » ، وجاءت خلافات أوبن مع مساعديه ، ومعظمها على مسائل دينية ، فأكملت انهياره . وانصرف أكبر مساعديه : ج . أ . سميت عن الاشتراكية وأسس « النديانة العالمية » ، وعاش بعد هذه الفترة معيشة هادئة فى رغد يعمل محرراً للجريدة « فامبلى هيرالد » .

ولقى « الاتحاد القومى الكبير للنقابات » نهايته المحزنة بين المشاكلك الشخصية والمتاعب المالية . وبعد أن تحطمت آمال أوبن فى الاتحاد أقنع من بقى مخلصاً له من أتباعه أن ينضموا إليه فى منظمة جديدة اسمها « الاتحاد البريطانى والاجنبى المتضامن للصناعة والانسانية والمعرفة » وانزوت الحركة النقابية - فترة ما - فى عالم النسيان . وتحولت حماسة الطبقة العاملة اولا الى اتجاهات سياسية بحثت تحت تأثير العرائضيين ، ثم اتجهت بعد انشاء « رواد ريتشمديل » سنة ١٨٤٤ الى الحركة التعاونية الشانانية التى ظلت تعتبر أوبن نبياً ، ولكنها اتبعت وسائل عملية أكثر من ذى قبل لتحقيق اهداف أقل ثورية .

ويقول وب وزوجته فى سنة ١٨٤٨ ما يأتى :

« لقد زال خطر الثورة . وبدأ ينشأ جيل جديد من العمال ، جيل لا يعرف شيئاً عن أسوأ أوان الاضطهاد القديم ، جيل تسمع بالفلسفة الاقتصادية والسياسية التى ينادى بها مصاحو الطبقة الوسطى . ولم يعد يقرأ ريكاردو وجروته وبنتمام الاقلة ، ولكن نشاط التربويين من أمثال لورد بروجهام وشارلز نايت أدى الى انتشار « المعرفة المفيدة » بين جميع أعضاء

« مؤسسات العمال » وقراء « المجلة الرخيصة » . وقد وجدت آراء الطبقة الوسطى عن حرية العمل والمنافسة غير المقيدة التي انتشرت بهذه الطريقة قوة دافعة ضخمة من الدعاية غير الاعادية التي قامت بها عصابة مقاومة قانون الغلال والتقدم العام الذى صاحب حرية التجارة .

وقد أدى فشل حركة أوين النقابية مع زيادة الرخاء العام بين سنتي ١٨٤٠ و ١٨٨٠ عندما كانت مدرسة منشستر تسيطر على السياسة الاقتصادية البريطانية الى أن تحول زعماء الطبقة العاملة أنفسهم الى النزعة الفردية انفرادية . غير أن الحركة النقابية أخذت تنمو شيئاً فشيئاً وتنتشر فى كل البلاد الصناعية بعد نكستها الكبيرة (يقدر وب وزوجته أنه لم يكن فى المملكة المتحدة كلها سنة ١٨٤٠ مائة ألف تعاوني) . نجحت الحركة فى بريطانيا العظمى فى مواجهة فترات عداء القضاء نحوها بين الحين والحين بتشريعات جديدة تصدر بين الفينة والفينة . وعندما ساءت الاحوال ثانية فى العقد التاسع من القرن الثامن عشر وبدأت الاجور فى الانخفاض تذكر النقابيون أوين وجددوا ايمانهم بالاشتراكية . وأطرى هندمان فى سنة ١٨٨٥ « روبرت أوين النبيل » الذى استطاع أن يدرك عدم جدوى انصاف الحلول . « ولكن الثورة التى لم تكن مستعدة فى أيامه صارت الآن ناضجة ومستعدة لقد اقتربت أيام ثورة القرن التاسع عشر الاجتماعية الكبرى (X) » . ولم تقع الثورة فى سنة ١٨٨٥ كما لم تقع فى سنة ١٨٣٤ . ولكن الاشتراكيين اللاحقين وجدوا عملاً مفيداً يقومون به . لقد جند أوين العمال غير المهرة فى نقاباته مدة قصيرة ولكنه لم يقدمهم الا الى الجوع والسجن والنفى . وفى أواخر العقد التاسع عندما وصلت الحركة النقابية مرة أخرى الى العمال غير المهرة . أدت الى سلسلة من الاضرابات التى نجحت نجاحاً رائعاً واذا كانت الاشتراكية على نطاق قومي قد أثبتت أنها غير عملية ، فان نتائج كثيرة قد تحققت عن طريق الاشتراكية المحلية .

لقد ازدهرت التجارة وضعفت الاشتراكية ، والآن ضعفت التجارة مرة أخرى وازدهرت الاشتراكية . ولعل هذه ليست آخر حلقة فى السلسلة . الا أن حلقة لا بد آتية .

۳ - مارکس وانجاز

الفصل السابع عشر

ماركس وانجلز

لم تصر الاشتراكية قوة كبيرة في السياسة العملية بسرعة ، كما أصبحت الراديكالية الفلسفية ، بل أنها ظلت بوجه عام مذهباً لا أثر له تعنته أقلية حتى سنة ١٩١٧ . أما من حيث هي نظام من التفكير فإنها تنتمي الى نفس الفترة التي ينتمي اليها ريكاردو و جيمس مل ، ولقد صارت الحركة الاشتراكية بعد فنسل روبرت أوين فرنسية في معظمها وكيفت بحيث ثلاثم ظروف مافيل الصناعة ، وكان لآراء سان سيمون وفورييه تأثير كبير ، وبلغ الاشتراكيون من القوة حداً استطاعوا معه أن يسيطروا على بداية ثورة سنة ١٨٤٨ . غير أن الاشتراكية الفرنسية كانت لا تزال تعاني بعض عيوب الاثوية وبعض النقائص الأخرى الخاصة بها . فلم تكن تتضمن مجموعة منسفة من المبادئ أو خطة عملية للانتقال من الانتاج الرأسمالي الى الانتاج الاشتراكي .

ولم يكتمل نضوج الاشتراكية من الناحية الفكرية بحيث أصبحت قادرة على أن تكون مصدر إلهاء لحزب سياسي جدى إلا على يدي ماركس وانجلز . وقد نشر البيان الشيوعي ، الذي كان يتضمن فعلاً كل النقاط الأساسية لمذهبهما ، قبيل اندلاع الثورة الفرنسية في سنة ١٨٤٨ . وينتمي نظام ماركس من الناحية الفعلية الى هذه الحقبة .

ولكى نفهم ماركس يجب أن ندخل في اعتبارنا مجموعة من العوامل المعقدة التي أثرت فيه وشكلت عقليته . وكان أول هذه العوامل هو تأثير هيغل الذي صادف ماركس خلال حياته الجامعية ولم يستطع مطلقاً أن يتخلص منه بعد ذلك ، ولا تزال آثاره باقية في الشيوعية حتى اليوم . وقد اقتبس ماركس من هيغل حبه للمنظام الشامل والاعتقاد بأن التاريخ نتيجة نظامية لحطة عقلية تتم بنفس الحتمية ونفس التحديد في المعارضة المنطقية الذي تنسم به الجدلية الهيكلية . والتجربة الثانية التي مر بها ماركس كانت عمله كصحفي ألمانيا راديكاليا وتعرضه لكل صعوبات الرقابة كما كانت قائمة وقتئذ . وبعد ذلك قادته رغبته في المعرفة الى الاتصال بالاشتراكية الفرنسية ، ومن الفرنسيين تعلم أن ينظر الى الثورة على أنها الوسيلة الطبيعية السوية للتقدم السياسي . غير أن انجلز كان هو الذي أدخل لأول مرة في عملهما المشترك العنصر البائع الأهمية وهو أحدث المعلومات الخاصة بالتصنيع في بريطانيا . فقد نشر انجلز في سنة ١٨٤٥ كتابه عن « حالة

الطبقة العاملة الانجليزية في سنة ١٨٤٤ » ، وقد تركت هذه الفترة المظلمة طابعها على كل ماكتبه ماركس وانجلز بعد ذلك ، ولعله لولا اتصال ماركس بانجلترا لاستمرت آراؤه ميتافيزيقية مجردة الى حد بعيد تنقصها تلك المعرفة الوثيقة بالحقائق الصناعية التي استمد منها قدرته على الاقناع ، ولما جاء الوقت الذي اكتمل فيه نظامه كان قد اجتمع له ثلاثة عناصر ذات قيمة من ثلاثة بلاد مختلفة . فقد منحته ألمانيا القدرة على بناء الأنظمة ، وجعلته فرنسا ثوريا ، وجعلته انجلترا عالما .

وولد ماركس سنة ١٨١٨ في تريفيس في بلاد الراين حيث كان النفوذ الفرنسي قد تغلغل أكثر من تغلغله في أية بقعة أخرى في ألمانيا (X) ، وكان عدة أجيال من أجداده من رجال الدين اليهود ولكن والده كان محاميا . واعتنقت الاسرة الدين المسيحي عند موت جدته لوالده ، وكان هو وقتئذ في السادسة من عمره ونشأ ماركس على المذهب البروتستنتي . ووقع في غرام فتاة «رستقراطية جميلة ولما يتجاوز السابعة عشرة من عمره ، وأقنع والديه ووالديها بالموافقة على خطوبتهما . الا أنه لم يستطع الزواج منها الا بعد سبع سنوات . وكان والداها قد غيرا رأيهما وعارضا بشدة في اتمام الزواج .

وبدأت تظهر فيه ، وهو طالب جامعي - تلك الطاقة الهائلة - السيئة التوجيه - التي تميز بها طوال حياته . فهو يذكر في خطاب كتبه لوالده ولم يكن قد تعدى التاسعة عشرة من عمره أنه كتب ثلاثة مجلدات من الشعر الى حبيبته جنى وترجم أجزاء كبيرة من « تاسيتوس وأوفيد وكتابين من الباندكت » وكتب كتابا من ثلاثمائة صفحة في فلسفة القانون ، ثم تبين أنها عديمة القيمة وألف مسرحية ، « وعرف في فترة من فترات كآبته هيجل من أوله الى آخره » وقرأ عددا لا يحصى في مختلف الموضوعات .

وكان هيجل قد مات عام ١٨٣١ وما زال تأثيره في ألمانيا قويا جدا . الا أن مدرسته انقسمت الى شيعتين ، الهيجليون الشتيوخ والهيجليون الشبان . وفي سنة ١٨٣٩ نقد فيورباخ النظام الهيجلي نقدا هداما وتحول من المثالية المطلقة التي نادى بها هيجل الى صورة من صور المادية وجر معه عددا كبيرا من الهيجليين الشبان الذين كانوا يمتازون عن الهيجليين الشسيوخ براديكاليتهم . وكانت الدوائر العلمية في ألمانيا تتسم بنشاط ذهني ضخم خاصة بين الشبان . وبينما كانت ألمانيا في تلك الآونة متقدمة على العالم كله في ميادين المعرفة ، كانت متخلفة جدا عن فرنسا وانجلترا اقتصاديا وسياسيا . وكانت الرقابة فيها شديدة شنيعة والطبقات الوسطى محرومة

(X) لقد اعتمدت اساسا فيما يتعلق بعياة ماركس على كتاب اوتو رولد « ماركس » حياته واعماله . طبعة آلن وانوين .

من القوة السياسية . ونجم عن ذلك بالضرورة أن أصبح الشبان المفكرون راديكاليين إن لم يكونوا ثوريين ، وتفتحت أذهانهم للأفكار السياسية التي جاءتهم من الخارج وخاصة من فرنسا . ولم يكن ماركس إبان شبابه في عزلة ، بل كان فردا من مجموعة من الشبان المتحمسين الذين يعتقدون أن الفلسفة هي مفتاح كل مغلق ، ولكنهم جميعا اختاروا الفلسفة التي تلائم أكثر من غيرها السياسة الراديكالية .

وأراد ماركس في أول الأمر أن يعمل في الصحافة . واشترك في سنة ١٨٤٢ في تحرير مجلة « راينيش زائتونج » ثم لم يلبث أن صار محررها ، وهنا أدرك لأول مرة العقبات التي لا يوجد لها حل في الفلسفة الأكاديمية . وكان أول ما استرعى انتباهه من هذه العقبات موضوع القانون الخاص بسجن الفقراء الذين يسرقون أخشاب الوقود من الغابات . وأدرك من ذلك الوقت أن المسائل الاقتصادية قد أهملت دون مبرر ، وتأكد هذا عنده من كتاب قرأه عن الاشتراكية الفرنسية . وعندما أوقفت الرقابة مجلة « راينيش زائتونج » في يناير سنة ١٨٤٣ أتيح لماركس وقت كاف للدراسة وقرر أن يدرس الاشتراكية .

وذهب الى باريس واضعا هذه الغاية نصب عينيه ، لأن الاشتراكية وقتئذ كانت في الاغلب الأعم اشتراكية فرنسية . وكانت الاشتراكية في تلك الأيام قد صارت تحت قيادة روبرت أوين مذهباً في أسنسه علمانياً مناهضاً للمسيحية . وكان أوين كما رأينا يعارض دائما في الوسائل السياسية ، وترك السياسة الراديكالية في إنجلترا للعرائضيين الذين لم يكن برنامجهم يولى المسائل الاقتصادية اهتماما مباشرا . أما في فرنسا فقد كان الأمر على النقيض من ذلك وكانت الحركة التي بدأها سان سيمون وواصلها فورييه في تقدم مطرد تملؤها الحيوية . وتعرف ماركس الى زعمائها وكان أهمهم برودون ولويس بلان . وتعلم كل ما يمكن تعلمه وقتئذ عن الاشتراكية ولكنه لم يعقد أواصر الصداقة مع أى من الاشتراكيين الفرنسيين .

وينبغي أن نقول هنا أن الاشتراكية قبل ماركس لم تكن جديدة بقدر كبير من الاحترام العقلي . فقد كان سان سيمون قبل كل شيء اقطاعيا ينفرد من الصناعة والعلم الحديث وكان يسعى الى التجديد عن طريق المسيحية بعد تطهيرها مما فيها من عيوب . أما فورييه فقد كان خياليا الى أبعد حد عندما تعرض لوضع خطط لتنظيم أحسن في الانتاج . وذلك على الرغم من أنه كان ممتازا في نقده للنظام القائم . وترجع أهمية الاشتراكية الى أنها جعلت عددا من المفكرين يحسون بعدم الرضا عن الرأسمالية ويتجهون نحو البحث عن وسيلة تضع حدا لها . على الأقل تخفف من شرورها . وقد نجح هؤلاء الرجال في فرنسا في خلق حركة عمالية لا هي سياسية بحتة ، مثل حركة

العرائضيين ، ولا هي اقتصادية بحتة ، مثل النقابية ، بل تجمع بين الاثنين معا . وقد أدرك هؤلاء أن الوسائل السياسية مثل حق الانتخاب لجميع الرجال ضرورية ، ولكن الغرض منها كان استعمالها لتحقيق أهداف اقتصادية تهم البروليتاريا . وقد تعلم ماركس في فرنسا هذه الفكرة الخاصة بعلاقة السياسة بالوسائل الاقتصادية واحتفظ به طوال حياته .

كما ظل الاعتقاد بوجود علاقة وثيقة بين الفلسفة والسياسة ، وهو الاعتقاد الذي قبله ماركس وزمـمـرتـه على أنه بديهية أيام كان طالبا في الجامعة ، جزءا من مذهبه . فقد قال وقتذاك : « ان الفلسفة لا يمكن أن تتحقق

الا اذا نهضت البروليتاريا ، والبروليتاريا لا تستطيع أن تنهض الا اذا تحققت الفلسفة » . ولا بد أن هذا يبدو للشعوب التي تتكلم الانجليزية والتي لا تأخذ الفلسفة مأخذ الجد ، شعورا غريبا . اللهم إلا اذا كانوا قد تعلموا أن يتقبلوا الشيوعية . أما بالنسبة لماركس فإنه يبدو أن تحقيق الفلسفة كان يبلغ في أهميته ما يبلغه نهوض البروليتاريا . لقد كان في الواقع قد سار شوطا بعيدا في طريقه الى النظرية التي مؤداها أن الفلسفة تعبـير عن انظروف الاقتصادية .

وبدأت صداقته مع انجلز في ذلك الوقت ، في باريس سنة ١٨٤٢ . وكان انجلز يصغر ماركس بعامين ، كما كان قد تعرض في أيامه الجامعية لنفس المؤثرات الفكرية التي مر بها ماركس . ولكن والده كان يملك عدة مصانع لغزل القطن في كل من ألمانيا ومانشستر ، وكان قد أرسل انجلز الى مانشستر لياشر أعمال الاسرة المالية فيها . وقد هيأ له ذلك فرصة الحصول على معلومات مباشرة عن التصنيع الحديث وعن المصنع الانجليزي في عهد من أسوأ العهود . وكان في تلك الآونة يؤلف كتابه عن أحوال الطبقة العاملة الانجليزية . ويستعمل هذا الكتاب بقوة نفس المادة التي استعمالها ماركس بعد ذلك في الجزء الاول من كتابه « رأس المال » ، فهو مركز حافل بالحقائق المستقاة من مصادر رسمية ، هتمسائم فيما يتعلق بالفترة التي كتب فيها ولكنه مقعم بالأهل في ثورة البروليتاريا في القريب العاجل ، ويجعل الكتاب الحكم على أهمية انجلز في العمل المشترك الذي قام به الرجلان ممكنا . فقد كان ماركس رجل نظريات علمية أكثر ممسا ينبغي حتى قابل انجلز ، وكانت في القارة الأوروبية شرور لعلها لا تقل عن الفظائع التي كانت في انجلترا ، ولكنها كانت أقل جدة وأقل قوة في الحكم على مساوىء الرأسمالية . وقد درج انجلز على أن يقلل من شأن نصيبه هو في جميع ما اشتركا في عمله ، ولكن لا جدال في أن هذا النصيب كان عظيما . وكان أهم ما عملـه أنه وجه أولا انتباه ماركس الى نوع الوقائع الذي يضمن أكثر من غيره قبول الناس لنظريته الاقتصادية . ويبدو أن المفهوم المادى للتاريخ - في خطوطه الرئيسية على الأقل - قد اكتشفه كل منهما على حدة قبل أن يبدأ تعاونهما .

وكان انجلز شيوعيا فعلا عندما قابل ماركس أول مرة ، فقد اعتنق هنا المبدأ على يد رجل اسمه موسى هيس أحد الزعماء الراديكاليين الالمان . وقد كتب هيس في سنة ١٨٤٣ :

« حضر انجلز لمقابلتي وهو في طريقه من برلين في العام الماضي عندما كنت على وشك السفر الى باريس وتدارسنا الموضوعات الحاضرة ، وافترقنا وانجلز قد صار توريا من الدرجة الاولى وشيوعيا مؤمنا بمذهبه ، وهكذا عملت على نشر الدعاء » .

ومما هو جدير بالذكر أن ماركس في تلك الآونة عقد أواصر الصداقة مع هاين الذي أعجب به اعجابا بالغنا وصار شيوعيا .

وكان المفكرون في انقارة في ذلك العهد متقدمين جدا في السياسة عن مفكرى انجلترا ، ويرجع ذلك بلا شك الى أن الطبقة الوسطى كانت أقل قوة وإلى أن الثورة كانت الخطوة الاولى الواضحة فيما هو جار وقتئذ . وقد كانت الافكار التي اعتنقها ماركس وأصدقائه قبل سنة ١٨٤٨ ، ومترنخ ما زال في الحكم ، تعرض معتنقيها في الفترة الثانية لاضطهاد أكبر مما كانوا يتعرضون له وقتئذ .

ونفى ماركس من باريس في يناير سنة ١٨٤٥ بناء على طلب الحكومة البروسية فذهب الى بروكسل . وفي ذلك الوقت استنفاد ماركس لأول مرة من سخاء انجلز عليه بالمال ، ذلك السخاء الذي ظل حتى وفاته المصدر الرئيسي الذي يستمد منه المال . ومن بروكسل قام ماركس ، بمساعدة انجلز ، بدعاية شيوعية واتصل بعدة هيئات مثل « الجمعية التربوية للعمال » و « اتحاد العادلين » و « العصبة الديمقراطية » و « الديموقراطيون المتآخون » . وتحول « اتحاد العادلين » الذي كان يجتمع في شارع « جريت ونديل » في لندن الى « العصبة الشيوعية » التي كان برنامجها يتضمن « القضاء على البورجوازية (طبقة الملاك الوسطى) وسيطرة البروليتاريا وانغاء المجتمع الطبقي وانشاء نظام اقتصادى واجتماعى خال من الملكية الخاصة والطبقات » . وفي ديسمبر سنة ١٨٤٧ قررت هذه الهيئة أن يقوم ماركس وانجلز بوضع وثيقة عن أهدافها . وترجع كل أهمية « العصبة الشيوعية » في التاريخ الى هذا القرار لان نتيجته كانت هي « البيان الشيوعى » .

وجاء البيان الشيوعى من حيث الاسلوب والوضوح والتركيز وأثره القوى في الدعاية خير ما كتب ماركس في حياته ، فقد كانت فيه الحفة والسرعة اللذان هما من خصائص فجر الثورات ، كما كان فيه ذلك الوضوح الذى ينشأ عن ايمان حديث المهدي بنظرية تكشففت حديثا ، وهو يسيدا بالكلمات الآتية :

« هناك شبح يقض مضاجع أوروبا ، هو شبح الشيوعية » وقد عقدت كل السلطات في أوروبا القديمة حلفا مقدسا لإبعاد هذا الشبح : البسايا والقيصر ، ومترنيخ وجيزو ، وأراديكاليون الفرنسيون وجواسيس الشرطة الألمانية .

وينتهي بهذه الكلمات :

« ان الشيوعيين ليربأوا بأنفسهم عن أن يخفوا آراءهم وأهدافهم . أنهم ليجهرون بأن ما يصبون إليه لا يمكن تحقيقه الا بالقضاء بالقوة على كل الاوضاع الاجتماعية القائمة . فلترتجف الطبقات الحاكمة هلعاً من الثورة الشيوعية . ان البروليتاريا ليس لديهم ما يفقدونه الا أغلالهم . وأمامهم العالم ليكسبوه . أيها العمال في كل الدول . اتحدوا » .

وتتضمن بقية البيان تاريخ العالم ويبدأ بقوله « ان تاريخ كل المجتمعات التي فامت حتى الآن هو تاريخ الصراع بين الطبقات » فيبين ما أدت إليه الرأسمالية الحديثة من ثورة وحشية ، ثم يستطرد ، على أساس من حنمية القياس فيما يبدو الى المرحلة التالية من تاريخ العالم ، ثورة البروليتاريا .

ولست أعرف أية وثيقة أخرى بلغت ما بلغه البيان الشيوعي من قوة الدعاية ، وهو يستمد هذه القوة من انفعال عنيف يكسوه رداء عقلي معروض عرضاً لا هوادة فيه .

وكان البيان الشيوعي هو الذي أكسب ماركس مكانته في الحركة الاشتراكية ، وهي مكانة كان يستحقها ولو لم يكتب كتابه « رأس المال » .

ولم يكد البيان ينتهي حتى اندلعت الثورة في باريس ودعت الحكومة المؤقتة ، التي كانت غائبيتها من الاشتراكيين ، ماركس الى باريس فذهب إليها . ولكنه لم يبق فيها سوى شهر واحد : فقد امتدت الثورة الى ألمانيا وكان طبيعياً أن يرغب في ان يخص بلاده بنشاطه .

قلما نجد في التاريخ ثورات أصابت كل من اشترك فيها بخيبة أمل أكثر مما فعلت ثورات سنة ١٨٤٨ . وكانت خيبة الأمل مؤقتة بالنسبة للثوريين المعتدلين ، أما بالنسبة لماركس فكانت خيبة أمل استمرت طول الحياة .

فقد نفى ماركس من بروسيا في مايو سنة ١٨٤٩ ولم يسمح له بالعودة إليها مطلقاً ، وإن كان قد عاد في الواقع خفية مرات قليلة وقضى بها فترات قصيرة . وقد كان نشاطه في ألمانيا صحفياً بحثاً ، وأكثر اعتدلاً مما كان يتوقع : ولكنه مع ذلك كان نشاطاً لا تستطيع ارجعية أن تبسجه . ومن ألمانيا ذهب الى باريس ونفى منها بعد شهر . وكان الملاذ الوحيد الباقي هو إنجلترا

« أم المنفيين » كما كانت تسمى وقتئذ . وعاش بقية حياته في إنجلترا باستثناء فترات قصيرة الاجل ، ولم يعد يحاول اشعال ثورات اiban حياته ، ولكنه كان يهيم بالحافز العقلي لثورة تقوم في مستقبل غير معين .

ويقسم فشيل ثورات سنة ١٨٤٨ حياة ماركس فترتين واضحتين ، فقد قضت هذه الثورات على كل آماله في النصر العاجل وساقته الى النفي والفاقة . ولو أن ايمانه بالنصر النهائي للشيوعية كان يقوم على أسس عقلية أقل ثباتا لما استطاع أن يثابر - كما فعل - في اعداد مؤلفه التاريخي المرهق بدون تشجيع الا من نفر قليل من أصدقائه وأتباعه . وان مثابرته ونشاطه طوال الفترة الاخيرة من حياته لما يثير العجب حقا .

أما فيما يتعلق بظروفه الخاصة فان حياته كانت مثل حياة مستر مكوبر سلسلة من الديون الملحة والمرابين والمشاحنات حول فواتير مزورة وما الى ذلك . وكان هو وأسرته يعيشون في غرفتين في شارع « دين » بحى سوهو . وقد كتبت مسز ماركس عندما ماتت طفلة لها في سنة ١٨٥٢ تقول :

لقد مرضت فرانسيسكا الصغيرة المسكينة بالتهاب رئوى حاد . وظلت البائسة تصارع الموت ثلاثة أيام . وكانت تعاني عذبا شديدا . وعندما قضى الامر أرقدنا جسدها الصغير في الغرفة الخلفية الصغيرة المظلمة وذهبنا جميعا الى الغرفة الامامية . ونمنا تلك الليلة على الارض . وكان الاطفال الثلاثة الآخرون معنا ، وبكيننا الملاك الصغير الذى فقدناه وقد ماتت الطفلة في وقت كنا نعاني فيه آلام افاقة الشديدة . ولم يكن أصدقائنا الألمان قادرين على مساعدتنا . . . ولم يستطع ارنست جونز ، الذى زارنا في ذلك الوقت ووعده بمساعدتنا ، أن يفعل شيئا . . . ودفعتنى حاجتنا الملحة الى أن أهرع الى لاجيء فرنسى يقيم قريبا منا وكان قد زارنا من وقت قريب . وأعطاني فورا جنيهين بطريقة ودية جدا . . . واستطعت بهما أن أشتري التابوت الذى يضم رفات ابنتى المسكينة التى ترقد الآن فى سلام . لم يكن لهذه الوليدة مهد حين خرجت الى هذا العالم ، ولقد قضينا زمنا طويلا نلقى أشد الصعاب فى الحصول على صندوق لها يستريح فيه جسمها راحته الأبدية .

وقد خصص انجلز ، الذى استمر يباشر أعمال الاسرة فى مانشستر كل بنس استطاع أن يستغنى عنه لمساعدة ماركس . ولكن انجلز بطبيعة الحال لم يكن على وفاق مع والده الذى كان « كلفينا » متدينا : ومن ثم لم تكن النقود التى استطاع التصرف فيها كثيرة جدا . وكان ماركس يضيف الى ما يصله من انجلز ما يتكسبه من الصحافة ، خاصة من أمريكا ، غير أن الدخل الذى كان يحصل عليه بهذه الطريقة كان ضئيلا وغير ثابت . ومات ابن ماركس الوحيد فى سن التاسعة . وقد كتب الى انجلز يقول : « ان المنزل

يبدو موحشا منذ وفاة الطفل المسكين الذي كان يملؤه حياة . وكان ماركس دائما ودودا في علاقته مع الاطفال ، وكان اطفال جيرانه يدعونه «بابا ماركس» وينطلقون اليه في طلب الحلوى ، ولم يكن تطالعهم يذهب سدى . ذلك أنه في علاقته مع الاطفال لم يكن يخشى المنافسة أو يعتوره الشعور بالنقص اللذان يجعلانه حاد الطبع مشاكسا في علاقته بالكبار ، وقد نشرت مجلة « نيو سيستم انديش » في ٢٨ اكتوبر الخطاب التالي :

« ميدن تورز

١٨٦٥/٧/٣

عزيزتى مس ليليو

أرجو أن تقبلى عذرى لتأخيري فى الاجابة . فأنا من ذلك النوع من الناس الذى يفكر مرتين قبل أن ينتهى الى رأى . ولهذا دهشت اذ تلقيت دعوة من انثى لا معرفة سابقة لى بها على الاطلاق . لكننى بعد أن تأكدت من أنك سيدة محترمة ومن أن معاملتك التجارية فوق الشبهات ، يسعدنى أن أنتهز هذه الفرصة ، الغريبة بعض الشيء ، لأمتع نفسى بما تقدمينه من طعام وشراب . واذ كنت مصابا بداء الريبة فانى أرجو ألا يكون فى حجرة استقبالك تيار هواء ، أو ما يشبهه ، وسأتولى أنا بنفسى ما تحتاجه الحجرة من تهوية . ولما كنت مصابا ببعض الصمم فى أذنى اليمنى فأرجو ان تضى على يمين المائدة شخصا ثقيل الظل ، وهو ما أعتقد أن جماعتك لا تخلو منه . أما فى الناحية اليسرى فأرجو أن تحتفظى لى بأجمل من لديك من اناك ، أعنى أجمل ضيفاتك .

ولما كنت متعودا - الى حد ما - على مضغ الطبايق ، فليكن لديك شيء منه معدا لى . ولما كنت على صلة ببعض الأمريكين الذين تعودوا البصق فانى أرجو ألا يخلو المكان من المباسق . ولما كنت فوق ذلك أحب التيسير والبساطة وأنفر من الجو الانجليزى المنقل بالتكلف ، فيجب أن تكونى مستعدة لرؤيتى عاريا الى حد ما . وانى لأرجو أن أجد ضيفاتك فى نفس الحالة .

الوداع يا عزيزتى الخليفة المجهولة .

المخلص

دكتور كرانكلي «

وطلبت المجلة الى القراء أن يحدسوا من هو كاتب هذا الخطاب . ولكن أحدا لم يصل الى الجواب الصحيح ، لقد كان فى الواقع من ماركس الى ابنته .

وكانت خطباته الى إنجلز سلسلة ممتدة من الشكاوى : انه كان مريضا . . . وزوجته مريضة . . . أطفاله مرضى . . . والقصاب والخباز يطالبان

بحسابهما . . والدته لا تريد أن تفعل أى شيء آخر لمساعدته . وأصبح يعتبر مساعدة إنجلترا له أمرا طبيعيا وأن بينه وبينه وشكواه حتى فى أقل الأوقات ملامة . فقد كان إنجلترا يعيش مع فتاة إيرلندية دون زواج ، وكانت الفتاة مخصصة له . وجاء موتها صدمة شديدة له ، ولما كتب يبلغ ماركس لأخبر المحزن أجابه بهذا الخطاب :

« عزيزى إنجلترا ، لقد أدهشنى وفاة مازى وأحزنتنى . فقد كانت ودودة وذكية ، وشديدة الاخلاص لك . ان الحالة عندنا ليس فيها الا مايزعج . وأنا شخصيا لم أعد أعرف رأسى من قدمى . وقد فشلت محاولاتي للحصول على بعض المال من المانيا أو فرنسا ، وطبيعى أن مبلغ ١٥ جنيه لن يحول دون وقوع الكارثة مدة تزيد على أسبوع أو أسبوعين . هذا الى أن أحدا لم يعد يريد أن يعطينا شيئا بالنسيئة ، ماعدا الجزائر والحجاز (وهما أيضا سيمتنعان عن معاملتنا بعد هذا الاسبوع) ، وأنا مطالب بالحاج بنفقات المدرسة وياجار المنزل وقد انقضت على الذئاب كلها . والقليلون منهم الذين أعطيتهم بعض ماأنا مدين به لهم تحت الحساب أخفوه فى جيوبهم فى ملح البصر وعادوا ينقضون على وهم أشد عنقا مما كانوا . هذا الى أن الاولاد ليس لديهم ملابس أو أحذية يخرجون بها . وقصارى القول اننا نعيش فى جهنم . . . ولن نستطيع الاستمرار على هذه الحال أسبوعين آخرين . أنها أنانية منى أن أضيئك بكل هذه المشاكل فى هذا الوقت . ولكن العلاج يكون دائما من نفس نوع المرض . وقد يساعد بلاء على التهورين من بلاء آخر (X) »

واستمرت مشاكل ماركس الماية حتى سنة ١٨٦٩ ، عندما باع إنجلترا (وكان والده قد توفى) نصيبه فى المصانع ودفع ديون ماركس (٢١٠) جنيه وقرر له معاشا قدره ٣٥٠ جنيه فى السنة وذهب هو نفسه الى لندن . وقد صار أخيرا حرا يخصص كل وقته للنشاط الاشتراكى .

وكان ماركس طوال هذا الوقت يعمل فى المتحف البريطانى . وفى عام ١٨٥٩ نشر كتابه « نقد الاقتصاد لسياسى » وفى سنة ١٨٦٧ نشر الجزء الاول من « رأس المال » . ونشر إنجلترا الجزأين الثانى والثالث بعد وفاته . ولم تستطع المشاكل العائلية ولا المرابون أو الامراض والموت أن يحولوا بينه وبين اتمام مؤلفه الكبير .

وكان عمل ماركس المهم الوحيد بعد سنة ١٨٤٩ ، عدا مؤلفاته ، هو النشاط الذى بذله فى « اتحاد العمال الدولى » وهو مايعرف باسم « الدولية الاولى » سنة ١٨٦٤ وكانت الاساس الذى قامت عليه الحركة الاشتراكية الدولية فيما

بعد . ولكن على الرغم من أنها كانت تضم بذور أحداث عظيمة ، فإنها لم تحقق هي نفسها أى عمل عظيم . فالتقابات فى انجلترا بقيت ، بعد شئ من التردد ، على منأى منها باستثناء بعض النقابات القليلة . وفى ألمانيا ، ابتعد عنها «الاتحاد العام للعمال الألمان» ، وهو المنظمة التى أسسها لاسال ، بسبب غيرة . ماركس من لاسال ومن خلفه شفايترز الذى اتهمه ماركس زورا بأن يعمل مع بسمارك . وأدى نفوذ باكونين فى سويسرا والبلاد اللاتينية الى انتشار الشيوعية الفوضوية التى كانت تختلف عن الماركسية فيما يتعلق بالعمل السياسى ووظيفة الدولة . ولستنا ننكر أن باكونين وأتباعه انضموا فى النهاية الى الدولية الاولى وحاولوا السيطرة عليها ، ولكن نزاعهم مع ماركس أدى الى انهيارها فى سنة ١٨٧٢ .

ولم يكن ماركس فى أى وقت من الاوقات ممن يحتملون المنافسة . ويقول روله وهو يتحدث عن الفترة التى سبقت سنة ١٨٤٨ مباشرة ما يأتى :
« ان الطريقة التى خلت من أى تسامح والتى تم بهاتطهير صفوف الشيوعيين وانقسام المعسكر الشيوعى ، لم تكن وليدة ضرورة محتومة ، ولم تكن تعتمد على أى تطور اقتصادى ، بل ان السبب الأساسى كان هو شهوة ماركس فى التفرد شخصيا بالسيطرة التى كان يعثلها بثقة عمياء لاقبل المناقشة فى قدرة فكرته على الانتصار » .

ولم يطرأ أى تحسن على ماركس فى هذه الناحية حين تقدمت به السن . وكان هجومه على باكونين أكثر عدوانه كلها قسوة وأشدّها مرارة ولم يتورع فيه عن شئ . وكان باكونين أرسنقراطيا روسيا انحاز الى الثورة الألمانية فى سنة ١٨٤٨ ، وكان نتيجة ذلك أن حكم عليه بالاعدام فى ساكسونيا سنة ١٨٤٩ ، ثم سلم الى النمساويين الذين حكموا عليه هم أيضا بالاعدام ، ثم سلموه الى الفيصر نيقولا الذى سجنه فى جزيرة « بطرس وبولس » ثم نفاه الى سيبيريا التى فر منها فى سنة ١٨٦١ ، وأخيرا وصل الى لندن عن طريق اليابان وأمريكا . وقد اتهمه ماركس كتابة منذ سنة ١٨٤٨ بأنه جاسوس ، ومع أنه ثبت وقتئذ أن الاتهام لا أساس له فانه اعاده فى السنين التالية فى الظروف الملائمة . وعندما أراد باكونين بعد اثنتى عشرة سنة فى السجن أن يستأنف علاقته بزملائه من الثوريين وجد نفسه موضع ريبتهم ، واكتشف أخيرا ان ماركس هو مصدر متاعبه ، ولكنه بدلا من أن يغضب لهذا كتب الى ماركس خطابا وديا انتهى بمقابلة بينهما أقنعه فيها باخلاصه للثورة . وقد هدا ذلك من حدة ماركس بعض الوقت . وكتب الى انجلز يقول : « لقد رأيتك مساء أمس مرة أخرى بعد ستة عشر عاما . وأجد نفسى مضطرا للاعتراف بأنى أحببتك جدا ، أكثر جدا من الماضى . . . فهو بوجه عام واحد من أولئك القلائل الذين وجدت أنهم لم يتخلفوا خلال ستة عشر عاما ، بل تقدم كثيرا » .

على أن الصداقة بين هذين الرجلين ماكانت لتدوم طويلا ، فقد كان باكونين «رسول الشيوعية الفوضوية ، وكان ماركس نبي الشيوعية السياسية : وكان ماركس يكره الجنس الإصقلى وباكونين يكره اليهود . واجتمعت أسباب شخصية تجعل التعاون بينهما مستحيلا . ولم تكن الأسباب الشخصية فيما يتعلق بباكونين بكافية لآحداث شقاق بينهما . فبعد أن قرأ « رأس المال » كتب يقول « لقد ظل ماركس يخدم قضية الاشتراكية مدى خمسة وعشرين عاما بكفاية وبنشاط وإخلاص ، متقدما على كل شخص آخر فى هذا المضمار . وما كنت لاغفر لنفسى مطلقا لو أنى ، لأسباب شخصية ، قضيت على ما ترك ماركس من أثر مفيد أو قللت من شأنه . ولكننى مع ذلك قد أتورط فى معركة معه ، لا لانه أساء الى شخصا ، بل بسبب اشتراكية الدولة التى يدعو اليها » .

وانضم باكونين الى الدولية الاولى فى سنة ١٨٦٨ وشرع يعمل فى ضمها الى وجهة نظره . ودخل مع ماركس فى نزاع شديد ، أثبت فيه ماركس . وأتباعه أنهم لايتورعون عن شئ . فقد أعادوا اتهامه بالجاهوسية ، كما اتهموه بأنه اختلس ٢٥٠٠٠ فرنك . وفى مؤتمر لاهاي ، حيث كان لماركس أغلبية ، تقرر طرد باكونين على أساس أنه « لجأ الى حيل غير قانونية ليستولى على ممتلكات الآخرين » . الا أنه كان انتصارا عقيما لان الدولية الاولى قضت نحبها فى العالم الثانى .

ولم تقص الصدمة على أى من الفريقين ، الاشتراكيين أو الفوضويين ، الا أنه بينما ازدهرت الاشتراكية ظلت الفوضوية عديمة القيمة من الناحية السياسية . وقام فى روسيا خليفة لباكونين يمتاز عنه فى أكثر من ناحية ، هو كروبوتكين الذى عاش حتى رأى الماركسية تسيطر على روسيا السوفيتية . واندثر اتباع باكونين فى كل مكان آخر عدا أسبانيا . وأي كان الرأى فى وسائل ماركس ، فان برنامجه كان عمليا أكثر من برنامج خصمه وقائما على تقدير أسلم للطبيعة البشرية . وقد انتهى دور ماركس فى الحياة العامة بانقضاء الدولية الاولى سنة ١٨٧٣ .

وكان ماركس أول مفكر اقتصادى تأبه نظر الى الحقائق الاقتصادية من ناحية البروليتاريا . فقد كان الاقتصاديون التقليديون يعتقدون أنهم يؤسسون علما موضوعيا خاليا من أى تحيز خلو العلوم الرياضية نفسها . الا أن ماركس لم يجد صعوبة فى اثبات أن تحيزهم الرأسمالى أدى بهم الى الوقوع فى أخطاء عديدة وتناقض كثير . وكان يذهب الى أن علم الاقتصاد بأكمله يتخذ اتجاهها آخر! يختلف عن اتجاههم كل الاختلاف اذا نظرت اليه من زاوية الاجير . ولعل إخلاصه لمصالح البروليتاريا مما يدعو الى العجب بالنظر الى أصله المورجوازي وتربيته العلمية . وكان يحبوه طوال حياته حب السيطرة مختلطا بشعور بالنقص جعلاه شرسا فى معاملة من هم أرقى منه اجتماعيا

شديدا في خصومته ، عطوفا على الأطفال . ولعل هذه الصفة فيه هي التي جعلته نصير المظلومين ، ومن العسير تحديد السبب الذي جعله يشعر بالنقص ، وقد يكون منشؤه أنه كان يهوديا أصلا ومسيحيا بتربيته . ولعله كان لهذا السبب يتعرض لازدراء زملائه في المدرسة في السنوات الأولى دون أن يجد ما يشد أزره من تلك الثقة الداخلية بالنفس التي يستطيع اليهودي عادة أن يستمدّها من دينه . ان العداة للسامية شر ، ولكنه أدى الى نتيجة واحدة . طيبة : أدى الى ظهور زعماء مدافعين عن الجماهير من بين اليهود ، لعلهم كانوا لولا ذلك يصبحون من المدافعين عن الحالة القائمة . فاذا كان هذا التفسير صحيحا فان الماركسية تكون جزءا وفاقا لغناء الاثرياء الذين يناصبون السامية العداة .

٤ - المادية الجدلية

الفصل الثامن عشر

المادية الجدلية

كان لماركس وانجلز في وضع النظريات نصيب مزدوج ، فهناك نظرية ماركس في فائض القيمة ، وهناك نظريتهما المشتركة في التطور التاريخي historical development التي تسمى « المادية الجدلية » . وسنبحث النظرية الثانية أولاً ، لأنها فيما يبدو لي أكثر سلامة وأهمية من الأولى .

ولنحاول قبل كل شيء أن نكون على بينة واضحة مما تعنيه نظرية «المادية الجدلية» . إنها نظرية تتضمن عدة عناصر . فهي من الناحية الميتافيزيقية مادية ، وفي وسيلتها تسير على نهج من الجدل أوحى به هيغل ، ولكنها تختلف عن نهجه هو من عدة أوجه مهمة . فهي تأخذ من هيغل وجهة نظر تطويرية ، تتميز فيها كل مرحلة بمصطلحات منطقية واضحة ، وهذه التغيرات (المراحل) هي من نوع الاطراد ، لا بالمعنى الاخلاقي « ethical » لهذا اللفظ بقدر ما هو بمعناه المنطقي - أي انها تغيرات تحدث طبقاً لحطة يستطيع رجل بلغ الحد الكافي من الذكاء أن يتنبأ بها - نظرياً . ويقول ماركس أنه فعلاً تنبأ بها في خطوطها الرئيسية الى اللحظة التي تم فيها انشياء الشيوعية في العالم كله . وتستحيل ميتافيزيقيتها المادية ، فيما يتعلق بنشئون البشر ، الى المذهب الذي يقول ان السبب الرئيسي للظواهر الطبيعية كلها هو طريقة الانتاج والتبادل السائدة في أي وقت بذاته . وقد شرحت هذه النظرية بوضوح أكثر من أي شرح آخر لها ، في كتاب انجلز بالالمانية . وقد ظهرت منه الاجزاء التي تهمننا باللغة الانجليزية بعنوان « الاشتراكية ، المثالية والعلمية » ، ومما يفيدنا أن نورد هنا بعض فقرات منه .

«لقد رأينا أن «كل» التاريخ القديم ، باستثناء مراحل البدائية ، كان تاريخ صراع بين الطبقات : وأن هذه الطبقات المتنازعة كانت في كل المجتمعات وليدة طرق الانتاج والتبادل - وقصارى القول أنها كانت نتاج الظروف الاقتصادية السائدة في عصرها . كما أن البناء الاقتصادي للمجتمع يمدنا دائماً بالاساس ، وهو الاساس الذي اذا بدأنا منه وحده نستطيع أن نصل الى التفسير النهائي لكل ما قام عليه من الانظمة القضائية والسياسية . الدينية والفلسفية وغيرها من الافكار في أية فترة من فترات التاريخ » .

ويرى ماركس وانجلز ، أن اكتشاف هذا المبدأ يدل على أن مجيء الاشتراكية محتوم لا مفر منه .

« ومنذ هذه اللحظة لم تعد الاشتراكية اكتشافا عارضا يقوم به هذا العقل الكبير أو ذاك ، بل النتيجة المحتومة للصراع بين طبقتين نمتابا طراد تاريخي وهما البروليتاريا والبورجوازية . ولم تعد مهمتها تكوين نظام للمجتمع يكون قريبا للكمال بقدر المستطاع ، بل بحث التعاقب الاقتصادي التاريخي للأحداث التي نتجت عنها بالضرورة هذه الطبقات وما بينهما من نزاع ، والبحث في الظروف الاقتصادية التي نشأت بهذه الطريقة عن الوسيلة المؤدية إلى إنهاء هذا الصراع . إلا أن الاشتراكية الأولى لا تتفق وهذا المفهوم المادى إلا بقدر ما كان مفهوم « الطبيعة » لدى الماديين الفرنسيين يتفق مع الجدلية والعلوم الطبيعية الحديثة . ومما لا جدال فيه أن الاشتراكية الأولى كانت تنتقد طرق الانتاج الرأسمالية القائمة وقتئذ ونتائجها . إلا أنها لم تستطيع تفسيرها ومن ثم فهي لم تستطع السيطرة عليها . وكل ما كانت تستطيع هو أن تنبذ هذه الطرق باعتبارها شرا يجب تجنبه . وكلما اشتدت الاشتراكية الأولى فى التنديد باستغلال الطبقة العاملة ، وهو الاستغلال الذى لامفر منه فى ظل الرأسمالية ، ضعفت قدرتها على توضيح ماهية هذا الاستغلال وكيف نشأ » .

ويطلق أيضا على نظرية المادية الجدلية اسم « المفهوم المادى للتاريخ » وفى ذلك يقول انجلز : « يبدأ المفهوم المادى للتاريخ من القضية التى مؤداها أن انتاج وسائل الرزق ، وتبادل المنتجات بعد الانتاج ، هما أساس كل بناء اجتماعى ، وانه فى كل مجتمع ظهر فى التاريخ تعتمد طريقة توزيع الثروة والطريقة التى انقسم بها المجتمع إلى طبقات وفئات على ما ينتج وكيف ينتج وكيف يتم تبادل المنتجات . ومن وجهة النظر هذه يجب البحث عن الاسباب النهائية لكل التغيرات الاجتماعية والثورات السياسية ، لا فى عقول الرجال ولا فى قدرة الانسان على ادراك أوفى للحقيقة الخالدة والعادل ، بل فى التغيرات التى تطرأ على طرق الانتاج والتبادل : فيجب البحث عنها فى اقتصاديات كل عهد بذاته لا فى فلسفته . ان الإدراك المتزايد بأن الأنظمة الاجتماعية القائمة أصبحت غير معقولة أو عادلة ، وأن العقل أصبح لا عقل ، والصواب خطأ ، لدليل على أنه قد حدثت فى هدوء تغيرات فى طرق الانتاج والتبادل لم يعد يلائمها النظام الاجتماعى الذى كان مناسباً لظروف اقتصادية سابقة . ومن هذا يستتبع أيضا أن وسائل التخلص من هذا التناقض الذى تكشفت لا بد أن تكون موجودة هى الأخرى ، فى حالة من النموبدرجات مختلفة فى طرق الانتاج المتغيرة نفسها . ولا سبيل إلى الوصول إلى هذه الوسائل عن طريق الاستدلال من مبادئ أساسية ، بل ينبغى اكتشافها فى الحقائق الثابتة المتصلة فى نظام الانتاج القائم »

وليست ضروب الصراع التى تؤدى إلى فورات سياسية فى أساسها صراعا عقليا فى أفكار الأدميين وانفعالاتهم :

« وليس هذا الصراع بين القوى المنتجة وطرق الانتاج صراعا بنشأ. في عقل الانسان ، كذلك الصراع القائم بين الحطينة الاصلية والعدل الالهى . انه يوجد في الواقع بصورة موضوعية في خارجنا ، مستقلا عن ارادة حتى من تسببوا فيه وعن تصرفهم . وليست الاشتراكية الحديثة الا انعكاسا في الفكر لهذا الصراع في الواقع . أى الانعكاس المثالى أولا في عقول الطبقة التى تعاني الظلم مباشرة ، نعى الطبقة العاملة » .

وثمة شرح واف للنظرية المادية فى التاريخ فى كتاب من أوائل الكتب اشترك فى تأليفه انجلز وماركس سنة ١٨٤٦ ويسمى « الايدولوجية الالمانية » . وفيه يذكر المؤلفان أن النظرية المادية تبدأ مع عملية الانتاج الفعلية فى عصرها وتعتبر صورة الحياة الاقتصادية المتصلة بهذا النوع من الانتاج والتى تنشأ بواسطته أساسا للتاريخ . ويقولان أن ذلك يوضح المجتمع المدنى فى مراحل المختلفة وفى نشاطه بوصفه دولة . هذا الى أن النظرية المادية تفسر على أساس اقتصادى شئونا أخرى مثل الدين والفلسفة والاخلاق وأسباب النهج الذى سار عليه أطرادها .

ولعل هذه المقتطفات تكفى لايضاح ماهية النظرية . الا أن عددا من الاسئلة يظهر بمجرد أن نحصها فحصا دقيقا . فقبل أن ننتقل الى المسائل الاقتصادية يتزع المرء الى التساؤل أولا هل المادية صحيحة من الناحية الفلسفية ، وهل يمكن تبرير عناصر الجدول الهيجلى التى تتضمنها نظرية النمو الماركسية مستقلة عن النظرية الهيجلية مكتملة . ثم يأتى بعد ذلك سؤال آخر هو : هل لهذه المذاهب الميتافيزيقية أية علاقة بالنظرية التاريخية الخاصة بالنمو الاقتصادى ، ثم يأتى أخيرا بحث النظرية نفسها . وأحب أن أحدد مقدما ما أحاول اثباته فأقول : انى ذهبت أولا (١) الى أن المادية بصورة ما قد تكون صحيحة وان كان يستحيل أن نعرف ذلك بصفة قاطعة . (٢) وأن عناصر الجدلية التى أخذها ماركس عن هيجل جعلته ينظر الى التاريخ على أنه عملية عقلية أكثر مما هو فى الواقع ، وأقنعته بأن كل التغيرات لابد أن تكون بشكل ماتقدميه ، كما بعثت فيه شعورا بالثقة فيما يتعلق بالمستقبل ليس له أساس علمى . (٣) وأن نظرية النمو الاقتصادى قد تكون كلها صحيحة كل الصحة ولو كانت الناحية الميتافيزيقية فى نظريته وقد تكون غير صحيحة ولو كانت الناحية الميتافيزيقية عنده صحيحة ، وانه لولا تأثير هيجل لما خطر له مطلقا أن موضوعا تجريبيا بحثنا الى هذا الحد يمكن أن يقوم على أساس ميتافيزيقى مجرد . (٤) وانه فيما يتعلق بالتفسير الاقتصادى للتاريخ ، فانه يبدو لى انه حقيقى الى حد بعيد ، وانه اضافة مهمة جدا لعلم الاجتماع . الا أنى مع ذلك لا أستطيع أن أعتبره صحيحا كل الصحة أو أن أشعر بأية ثقة فى أن جميع التغيرات التاريخية الكبرى يمكن النظر اليها باعتبارها نموا . ولنتناول هذه النقط واحدة فواحدة .

(١) المادية : لقد كانت مادية ماركس من نوع فريد ، فهى لاتماثل مادية:

القرن الثامن عشر بأى شكل من الأشكال . فهو عندما يتحدث عن « المفهوم المادى للتاريخ » لا يؤكد أبدا المادية الفلسفية ، بل كل ما يؤكد هو السببية الاقتصادية للظواهر الاجتماعية . وخير شرح لموقفه الفلسفى هو ما نجده فى مؤلفه « احدى عشرة نظرية عن فيورباخ » (١٨٤٥) ، وان كان هذا الشرح مختصرا جدا ، وهو يقول فيه :

« ان العيب الرئيسى فى جميع المذاهب المادية السابقة - بما فيها مادية فيورباخ - هو أن المادة (gegenstand) والحقيقة والاحساس لا تدرك الا فى صورة الموضوع (objekt) أو فى صورة تأمل (Anschauung) ، لا فى صورة نشاط أو عمل إنسانى مدرك ، أى بدون العامل الشخصى . ومن ثم جاء نمو الجانب الفعال عن طريق المثالية وكفقيضة للمادية » .

« ان مشكلة اتصال الموضوعية بالتفكير البشرى ليست مشكلة نظرية ولكنها مشكلة عملية . أى أن الحقيقة الفكرية ، مثل القوة الفكرية ، يجب أن تظهر فى العمل . والنزاع القائم على واقعية الفكر المنفصل عن العمل أو عدم واقعيتها مشكلة كلامية بحتة .»

« ان أقصى ما نستطيع أن تصل اليه المادية التأملية ، أى المادية التى لا تعتبر الاحساس نشاطا عمليا ، هو تأمل أفراد منعزلين فى مجتمع بورجوازى . « والاساس الذى تقوم عليه المادية القديمة هو المجتمع البورجوازى » أما أساس المادية الجديدة فهو المجتمع البشرى أو الانسانية الاشتراكية .

« ونم يفعل الفلاسفة « وى أن فسروا العالم بعدة طرق ، ولكن المهمة الحقيقية للفلسفة هى تغيير العالم »

والفلسفة التى تدعو اليها الاجزاء الاولى من هذه الآراء هى التى عرفت فيما بعد فى عالم الفلسفة عن طريق كتابات ديوى باسم البراجماتية أو مذهب الدرائع . ولست أعرف هل يعلم دكتور ديوى بأن ماركس سبقه الى هذا الرأى أولا يعلم ، ولكن مما لا ريب فيه أن رأيهما فيما يتعلق بالوضع الميتافيزيقى للمادة واحد ، اختلاف فيه . ولعل مما يفيد أن نشرح نظرية ماركس فى المادة شرحا أوفى لما بعلقه عليه من أهمية .

لقد كان مفهوم « المادة » فى المادية القديمة مرتبطا بمفهوم « الحس » . فكانت المادة تعتبر سبب الحس وأيضاً موضوعه أصلا ، فى حالتى النظر واللمس على الأقل ، وكان الحس يعتبر شيئاً يقف الانسان فيه موقف المنفعل يقتصر عمله على تلقى الانطباعات من العالم الخارجى . بيد ان هذا المفهوم عن الحس باعتباره انفعالا سلبيا هو تجريد غير واقعى لا يقابله شىء عملى كما يقول الدرائعيون . فإذا لاحظنا حيوانا يتلقى انطباعات متصلة بحيوان آخر نشاهد ما يأتى : تتسم

طاقنا نفه ، وتختلج أذناه ، ويوجه عينيه الى النقطة المناسبة مباشرة ، وتتوتر عضلاته استعدادا للحركة المناسبة . كل هذا نشاط ، معظمه من نوع يؤكد الصفة الاختيارية للحس ، وبعضه من نوع يؤدي الى نشاط جديد متصل بالموضوع . ان قطة ترى فأرا ليست بأى حال من الاحوال مستقبلا سلبيا لانطباعات تأملية بحثة . ومثل القطة مع الفأر كمثل صانع المنسوجات مع بالة من القطن . فبالة القطن فرصة للعمل ، انها شئ يحول الى شئ آخر . ولاخفاء في أن الآلة التي تقوم بتحويله هي نتاج للنشاط البشرى . ويمكن القول بوجه عام ان المادة كلها ، في رأى ماركس ، يجب أن يفكر الإنسان فيها كما يفكر في الآلة : ففيها مادة أولية تهيب الفرصة للعمل ، ولكنها في شكلها النهائي نتاج انساني .

لقد تلقت الفلسفة عن الاغريق مفهوم التأمل السلبي ، وافترضت أن المعرفة تأتي عن طريق التأمل . أما ماركس فيعتقد اننا دائما نعمل حتى ونحن أقرب ما نكون الى «الحس» البحت : فنحن لانقتصر أبدا على ادراك محيطنا ، بل اننا نعمل دائما في نفس الوقت على تغييره . وهذا بالضرورة يجعل المفهوم القديم للمعرفة غير قابل للتطبيق على علاقاتنا الواقعية بالعالم الخارجى . فبدلا من أن نعرف شيئا بمعنى أننا نناقى منه انطباعات سلبية ، لايمكن أن نعرفه الا بمعنى اننا قادرون على تناوله بالتغيير بنجاح . ولهذا كان اختبار كل حقيقة لا يتم الا عمليا . واذ كنا نغير كل « موضوع » عندما نتناوله ونؤثر فيه ، فان الحقيقة تزول عنها صفة الثبات والجمود « الاستاتيكية » وتصبح شيئا دائم التغير والنمو . وهذا هو السبب في أن ماركس يطلق على ماديته « الجدلية » ، ذلك بأنها تتضمن في ذاتها مبدأ أساسيا هو مبدأ التغير التقدمى مثلها في ذلك مثل جدلية هيغل .

وأعتقد انه في وسع الانسان أن يشك في أن انجلز قد فهم كل الفهم آراء ماركس عن طبيعة المادة والصفة البراجماتيه للحقيقة . ومما لا ريب فيه انه كان يظن أنه متفق مع ماركس ، الا أنه أقرب للمادية التقليدية في الواقع (X) . ويوضح انجلز « المادية التاريخية » كما يفهمها في مقدمة لكتاب « الاشتراكية المثالية والعملية » كتبها سنة ١٨٩٢ . وفيها يبدو أن الدور الذى يسندة الى العمل قد اختزل الى مهمة التحقيق العلمى التقليدية . فهو يقول ، « انك لا تعرف الشئ على حقيقته حتى تجربه . فعند اللحظة التي تتناول هذه الاشياء بالاستعمال ، على اساس الصفات التي ندركها فيها ، فأننا نختبر صحة مدركاتنا الحسية أو خطئها اختبارا بعيدا كل البعد عن مظنة الخطأ . ولم يحدث مرة واحدة حتى الآن أن أدى الامر الى أن مدركاتنا الحسية أعطينا ، عندما نخضعها للمقتضيات العلمية ، أفكارا عن العالم الخارجى مختلفة في طبيعتها عن الواقع ، و أن هناك تناقضا متاصلا بين العالم الخارجى ومدركاتنا الحسية عنه » .

وليس في ذلك أثر من برجاسية ماركس ، أو من المذهب القائل بأن المحسوسات هي في الاغلب الأعم نتاج نشاطنا ، ولكننا لا نجد فيه أيضا أى أثر يدل على أنه يدرك أن ثمة تناقضا بينه وبين ماركس . ولربما كان ماركس قد غير آراءه في أواخر حياته ، ولكن يبدو أن الامر الأكثر احتمالا أن ماركس له رأيان مختلفان في هذا الموضوع ، وفي غيره من الموضوعات ، يدين بهما معا في وقت واحد ، وانه كان يطبق هذا الرأي أو ذاك ، حسب الموضوع الذى يناقش فيه . فمما لاجدال فيه انه كان يعتقد بأن هناك قضايا «حقيقة» بمعنى أبعد من المعنى البراجماتى ، فهو عندما يسرد فى «رأس المال» ألوان القسوة التى فى النظام الصناعى كما وردت فى تقارير «اللجان الملكية» فإنه يؤمن بلا شك انها حدثت فعلا ، لا ان عملا ناجحا سيتم نتيجة لافتراض أنها حدثت . كما أنه عندما يتنبأ «بالثورة الشيوعية» يؤمن بأنها ستقع فعلا ، لأن التفكير فى حدها أمر مناسب . ومن ثم فلا بد أن برجماتيته لم تكن تظهر الا فى أوقات مختلفة ، عندما يمكن تبريرها على أساس برجماتى ، بأنها ميسورة مناسبة .

ومما هو جدير بالذكر ان لبيذين الذى لم يكن يعترف بوجود خلاف ما بين ماركس وانجلز فى كتابه «المادية والنقد التجريبي» وجهة نظر أقرب الى نظرة انجلز منها الى نظرة ماركس .

أما من ناحيتى ، وأنا لا أعتقد أن المادية يمكن «اثباتها» ، فانى أرى أن لبيذين على حق فى أن المادية لم تنقصها علوم الطبيعة الحديثة . فمنذ أيامه حتى الآن أخذ كثيرون من علماء الطبيعة المحترمين يبتعدون شيئا فشيئا عن المادية . وقد كان ذلك الى حد كبير رد فعل لنجاح لينين ، وطبيعى أ يفترض هؤلاء العلماء والناس عامة أن علم الطبيعة هو السبب فى هذه الحركة . وانى لمتفق مع لينين على أنه لم تظهر حجة جديدة ذات قيمة فى الموضوع من أيام بركلى باستثناء حجة واحدة . ومما يدعو الى التعجب حقا ان هذا الاستثناء الوحيد هو ما جاء به ماركس فى أبحاثه عن فيورباخ وأعقله لينين كل الاغفال ، فلو أنه لم يكن هناك شيء اسمه «حس» ولو كانت المادة باعتبارها شيئا ندرکه بطريقة سلبية وهما وخداعا ، وإذا كانت «الحقيقة» مفهوما عمليا أكثر منها مفهوما علميا ، إذن لكانت المادية انقائمة ، مثل مادية لينين ، مما لا يمكن الدفاع عنه . وكذلك تصبح وجهة نظر بركلى هى الاخرى مما لا يمكن الدفاع عنه ، لانها تزيل «الموضوع» الذى يتعلق به نشاطنا . الا أن نظرية ماركس الذرائعية ، لا بعد ما تكون عن المادية ، وإن كان يسميها كذلك . نعم ان حججها بالتأكيد أقوى كثيرا من حجج المادية ، أما انها فى آخر الامر نظرية صحيحة أو غير صحيحة ، فمسألة عسيرة تجنبنا عاندا أن أدلى برأى فيها ، لاني لا أستطيع أن أفعل ذلك دون كتابة رسالة فلسفية كاملة .

(٢) الجدلية فى التاريخ ، كانت الجدلية الهيجلية نظرية كاملة الاحاطة . فانك اذا بدأت باى مفهوم جزئى وتاملته فسرعان ما يتحول الى نقيضه ، ويكون هو ونقيضه قضية مركبة ، تصبح هى ايضا نقطة البدء لحركة مماثلة ، وهكذا دواليك حتى تصل الى الفكرة المطلقة (absolute Idea) تستطيع أن تفكر فيها ماثتت دون أن تكتشف أى تناقض جديد . وليس الإطراد التاريخى للعالم فى الزمن سوى توضيح (objectivation) لهذه العملية الفكرية . وقد دنا هذا الرأى لهيجل ممكنا لان العقل عنده هو الحقيقة النهائية . أما ماركس فيرى عكس هذا ، يرى أن المادة هى الحقيقة الغائية . ومع ذلك فهو يظل يعتقد أن العالم يطرد تبعا لقاعدة منطقية . فهيجل يرى أن أطراد التاريخ يجرى على سنن منطقية كأنه دور من الشطرنج ، وماركس وهيجل يلتزمان قواعد الشطرنج ويفترضان فى نفس الوقت أن قطع الشطرنج تحرك نفسها وفقا لقوانين الطبيعة دون تدخل اللاعبين . ويقول انجلز فى احدى الفقرات التى اقتبسها من قبل ما يأتى :

« ان وسيلة التخلص من التناقضات التى ظهرت « لا بد » أيضا أن تكون موجودة بحالة من انمو تزيد أو تنقص داخل طرق الانتاج المتغيرة » . ان « لا بد » هذه تنم عن احدى مخلفات عقيدة هيجل القائلة بأن المنطق يحكم العالم . ولماذا تكون نتيجة أى صراع فى السياسة هى على الدوام قيام نظام آخر أكثر نموا من سابقه ؟ ان هذا لم يكن فى الواقع ما حدث فى حالات لاعداد لها . فغزو البرابرة وروما لم يؤد الى قيام أنظمة اقتصادية أكثر نماء ، ولا طرد المسلمين من أسبانيا أو القضاء على طائفة « الالبيجنسيين » فى جنوبى فرنسا . وقد دمرت الحضارة المسيحية قبل عصر هوميروس ثم مرت قرون عديدة قبل أن تظهر حضارة أخرى فى بلاد اليونان . وأن أمثلة الاضمحلال والتأخر تتساوى على الاقل فى عددها وأهميتها فى التاريخ أمثلة النماء . وليست وجهة النظر المضادة التى تظهر فى مؤلفات ماركس وانجلز غير مثل من نزعة التفاؤل التى سادت القرن التاسع عشر .

ان لهذا الامر أهمية علمية ونظرية معا . فالشيوعيون يفترضون دائما أن الصراع بين الشيوعية والرأسمالية لا بد أن ينتهى بقيام الشيوعية ، وان كانت الرأسمالية قد تحصل على انتصارات مؤقتة بين الحين والحين ، وهم لا يتصورون نتيجة أخرى مرجحة مثلها هى العودة الى الهمجية . ونحن جميعا نعلم ان الحرب الحديثة أمر خطير شيئا ما ، وان الحرب التالية يحتمل أن تؤدى الى هلاك شعوب كبيرة باستعمال الغازات السامة والبكتريا . فهل من الممكن ان نفترض جديا أنه بعد حرب تدمر فيها المراكز المزدحمة بالسكان والمراكز المهمة للمنشآت الصناعية سيكون الجزء الباقى من السكان

في حالة عقلية تسمح بقيام الشيوعية العلمية ؟ أليس من المؤكد تقريبا ان ابقاين على قيد الحياة سيكونون في حالة من التذمر والوحشية التي لايتصورها العقل يتقاتلون جميعا من أجل آخر لقمة من الخبز ؟ لقد كان ماركس يقوم بعمله في المتحف البريطاني ، ولكن الحكومة البريطانية وضعت دراية أمام المتحف البريطاني بعد الحرب الكبرى ، ولعلها قد فعلت ذلك لتعلم المفكرين أين يكون مكانهم . وصحيح أنه يمكن أن يقام كما حدث في روسيا عقب مناقشات مبدئية كالتى حدثت في سنة ١٤ - ١٩١٨ ، ولكنه لا يمكن أن يقوم عقب حرب خطيرة حقا وانى لاخشى أن يكون التفاؤل التعسفي الذى يتميز به المذهب الشيوعى من بقايا العهد الفكتورى .

وهذاك شيء آخر غريب فى التفسير الشيوعى للجدلية . لقد ختم هيجل ، كما يعرف اجمع ، بحثه الجدل فى التاريخ بالدولة البروسية التى هى فى رأيه التجسيد الكامل « للفكرة المطلقة » . راعى ماركس ، الذى لم يكن يعطف على الدولة البروسية ، هذه الخاتمة عرجاء واهنة . وقال ان الجدلية يجب أن تكون أساسا ثورية ، وبدا كأنه يعتقد أنها لا يمكن أن تصل الى مستقر ثابت فى النهاية . بيد أننا لم نسمع شيئا عن الثورات التالية التى ستحدث بعد قيام الشيوعية ، وفى آخر فقرة من كتاب « فقر الفلسفة » يقول ماركس :

« ان التطور الاجتماعى لن تزول عنه صفة الثورات السياسية الا فى نظام ليس فيه طبقات أو عداء بين الطبقات » .

أما ماذا يكون هذا التطور الاجتماعى وكيف يتم بغير القوة الدافعة للصراع الطبقي فلا يقول ماركس عنه شيئا . وفى الواقع أنه لمن العسير أن نرى حسب نظريته كيف يمكن حدوث أى تطور تال . وليست جدلية ماركس أكثر ثورية من جدلية هيجل الا من ناحية الظروف السياسية الراهنة . هذا ولما كان كل نمو انساني يحكمه ، كما يقول ماركس ، صراع الطبقات ، وبما أنه لن يكون فى ظل الشيوعية الا طبقة واحدة ، فان النتيجة الحتمية أنه لايمكن حدوث أى نمو بعد قيامها ، وأن البشرية لا بد أن تظل فى حالة من الجمود البيزنطى الى ابد الأبدى . وواضح أن ذلك لا يمكن أن يكون صحيحا ، وأن فيه ما يشير الى ضرورة وجود أسباب أخرى ممكنة للاحداث السياسية الى جانب تلك التى تبينها ماركس .

(٣) عدم اتصال الميتافيزيقا بالموضوع :

ان الاعتقاد بأن الميتافيزيقا لها أى أثر فى الشؤون العقلية لهو فى نظرى،

دليل على العجز المنطقي . ان الانسان ليجد علماء طبيعة من مختلف الآراء منهم من يتبع هيوم ، ومنهم من يتبع بركلي ، ومنهم مسيحيون مقلدون ، ومنهم ماديون أنصار المذهب الحسي ، ومنهم القائلون بأن النفس هي الموجود الوحيد . ولكن هذا لا يترك أى أثر فى نشاطهم فى علم الطبيعة . فهم لا يختلفون فى تقدير موعدها الخسوف ، أو فى ماهية الشروط التى يجب توافرها لثبات جسر من الجسور . ويرجع ذلك الى أنه فى العلوم الطبيعية توجد بعض المعرفة الحقيقية ، وأيا كانت الآراء الميتافيزيقية التى يعتمدها عالم الطبيعة فانها لا بد أن تكيف معها وفقا لهذه المعرفة . ويصدق هذا بعينه على العلوم الاجتماعية بقدر ما فيها من معارف حقة ، واذا كانت الميتافيزيقا ذات فائدة حقيقية فى الوصول الى نتيجة ما فالسبب فى ذلك أن هذه النتيجة لا يمكن الوصول اليها بالوسائل العنسية . أى لانه ليس هناك سبب وجيه لافتراض صحتها . ان ما يمكن أن نعرفه فى هذا المجال ، يمكن ان نعرفه دون حاجة الى الميتافيزيقا ، وكل ما ينطلب الميتافيزيقا لاثباته لا يمكن اثباته . ويعرض ماركس فى الواقع كثيرا من الحجج التاريخية المفصلة فى كتبه ومعظمها سليم الى بعد حد ، الا أنه ليس بينها ما يعتمد على المادية بحال من الاحوال . ولنضرب لذلك مثلا قولهم أن المنافسة الحرة تنزع الى أن تنتهى الى الاحتكار ، ان هذه القضية حقيقة تجريبية ، والدليل على صحتها واضح لاختفاء فيه ايا كان رأينا الميتافيزيقي . وتندخل ميتافيزيقية ماركس فى الأمر بطريقتين ، فهى من ناحية تجعل الأشياء أكثر تحديدا وجفافا وقطعية مما هى فى الحياة الحقيقية ، ومن ناحية أخرى تكسبه نقة عن المستقبل أكثر مما يجيزه أى اتجاه علمي . أما فيما يتعلق بانثبات صحة مذهبه فى الاطراد التاريخي ، فان ميتافيزيقية لا صلة لها به . ولا شأن للميتافيزيقا مطلقا فى مستقبل الشيوعية وهل ستعم العالم أو لا تعمه . قد تكون النظرة الميتافيزيقية ذات فائدة فى الصراع : وشاهد ذلك أن انفتوح الاسلاميه الاولى قد سهلها الى حد كبير الاعتقاد بأن المؤمن الذى يستشهد فى القتال مثواه الجنة ، وكذلك قد يساعد اعتقاد الشيوعيين بوجود اله اسمه المادية الجدلية ، يقاتل الى جانبهم ويمنحهم النصر عند ما يشاء فيها يبذلونه من جهود . ومن ناحية أخرى قد يوجد عدد كبير ممن يأنفون أن يؤمنوا بعقائد لا يقوم على صحتها أى دليل فى نظرهم ، ولا بد ان تعتبر هذه الخسارة فى الشيوعيه سببها ما فيها من عنصر ميتافيزيقي .

(٤) السببية الاقتصادية فى التاريخ : اننى متفق أساسا مع ماركس

فى أن انعلل الاقتصادية هي أساس معظم الحركات الكبرى فى التاريخ ، وليست هذه مقصورة على الحركات السياسية ، بل تشمل أيضا الحركات التى تمت فى ميادين أخرى مثل الدين والفن والأخلاق . الا أن هناك حدودا مهمة يجب

ألا تفوتنا . فأولا : لا يراعى ماركس عنصر التخلف الزمنى المراعاة الواجبة فالمسيحية مثلا ظهرت فى الامبراطورية الرومانية وهى تحمل من عدة وجوه ظابع النظام الاجتماعى الذى ساد فى هذه الآونة . ولكن المسيحية ظلت قائمة خلال عدة تغيرات . بيد أن ماركس يعاملها على أنها فى دور الاحتضار . فهو يقول « عندما كان العالم القديم فى آخر مراحل انهياره تغلبت المسيحية على الأديان القديمة . وعندما تهاوت الأفكار المسيحية تحت معاول الأفكار العقلية التى سادت فى القرن الثامن عشر قاتل المجتمع الإقطاعى معركته الأخيرة الفاضية ضد البورجوازية التى كانت وقتئذ ثورية ، (بيان الحزب الشيوعى الذى وضعه كارل ماركس وف . انجلز) . ومع ذلك فقد ظلت المسيحية أكبر عقبة فى سبيل تحقيق آراء ماركس فى بلاده نفسها ، ولا يزال نفوذها فى جميع أنحاء العالم الغربى كبيرا . وأعتقد أنه من الممكن أن نسلم بأن المذاهب الجديدة التى تصيب أى نجاح لابد أن تكون ذات علاقة من نوع ما بالظروف الاقتصادية السائدة فى عهدها ، الا أن المذاهب القديمة قد تظل قائمة قرونا دون أن يكون لها أى اتصال حيوى بهذه الظروف .

وهناك نقطة أخرى أعتقد أن نظرية ماركس عن التاريخ فيها محددة أكثر مما يجب ، تلك هى أنه لا يدخل فى اعتباره أن قوة صغيرة قد ترجح إحدى الكفتين عندما تكون قوتان كبيرتان متقاربتين فى كفتى الميزان . وقد نسلم بأن القوى الكبيرة وليدة أسباب اقتصادية ، ولكن كثيرا ما يحدث أن يتوقف انتصار احدها على حادثة عرضية تافهة . انه لمن العسير ، عند قراءة ما كتبه تروتسكى عن الثورة الروسية ، أن نصدق أن وجود لينين أو عدم وجوده فيها سببان ، ولكن سماح الحكومة الألمانية له بالسفر الى روسيا أو عدم سماحها له لم يكن من المسائل المقررة بل كان وليد الساعة . فلو أن الوزير المختص كان يعانى نوبة سوء هضم فى صباح اليوم الذى أصدر فيه قراره فى هذا الموضوع فلربما قال « لأوافق » بدلا من « أوافق » التى قالها فى الواقع ، ولا أظن أن الثورة الروسية بغير لينين كانت تحقق كل ما حققته فعلا . ولنضرب ذلك مثلا آخر : لو أن الروسين كان لهم قائد محنك فى معركة غالى ، فلربما كانوا قضوا على الثورة الفرنسية قضاء مبرما . ومثل آخر أكثر عجباً وأوغل فى الخيال : من الممكن بسهولة أن يقال أنه لولا وقوع هنرى الثامن فى غرام آن بولين لما كان للولايات المتحدة الأمريكية اليوم وجود . لانه نجم عن هذا الغرام أن انجلترا خرجت على الباباوية ومن ثم رفضت الاعتراف بهدية البابا الى أسبانيا والبرتغال وهى الهدية التى كانت تشمل الأمريكتين . فلون ان انجلترا ظلت كاثوليكية لكان من المحتمل أن ما نسميه الآن الولايات المتحدة قد صار جزءا من أمريكا الإسبانية .

ويقودنا هذا الى نقطة أخرى ظهر فيها خطأ فلسفة ماركس في التاريخ . فهو ينظر الى الصراع الاقتصادي على أنه دائما صراع بين طبقات ، بينما كانت الغالبية العظمى من أدوار هذا الصراع بين أجناس أو أمم . لقد كان التصنيع الانجليزي في أول أمره « عالميا » لأن القائمين به توقعوا أنه سيظل محتفظا باحتكاره للصناعة . وبدأ لماركس كما بدأ تكويدن ان العالم يسير في طريق « العالمية » . ولكن بسمارك غير مجرى الحوادث ، واتجه التصنيع منذ ذلك الوقت الى طريق قومي اتجاها ازداد قوة على مر الأيام ، وحتى الصراع بين الامم كان اقتصاديا الى حد كبير ، ولكن انقسام العالم الى أمم هو في ذاته راجع الى أسباب غير اقتصادية في معظمها .

وهناك طائفة أخرى من الاسباب كانت لها أهمية كبيرة في التاريخ ، وهي الاسباب التي يمكن أن نطلق عليها اسم الاسباب « الطبية » . فالموت الأسود الذي اجتاح أوروبا مثلا كان حدثنا أدرك ماركس أهميته أنهم إدراك ، ولكن أسبابه لم تكن اقتصادية الا الى حد قليل . ومما لا شك فيه أن إلباء ما كان ليحدث بين سكان يتمنعون بمستوى اقتصادي أكثر ارتفاعا ، ولكن أوروبا كانت تعيش في نفس الحالة من الفقر التي كانت عليها سنة ١٣٨٤ قرونا عديدة بحيث لا يمكن أن يكون السبب الأساسي للوباء هو الفقر . ولننظر أيضا الى موضوع مثل انتشار الملاريا والحمى الصفراء الاستوائية ، والى أن هذين المرضين قد أصبحا الآن من الأمراض التي يمكن الوقاية منها ، تلك مسألة ذات آثار اقتصادية كبرى . وان لم تكن في حقيقة أمرها ذات طابع اقتصادي .

وأكثر ما يجب تصحيحه في نظرية ماركس هو ما يتعلق بأسباب التغيير في طرق الانتاج . ذلك أن طرق الانتاج تبدو في كتابات ماركس أنها هي الاسباب الرئيسية ، ولكنه مع ذلك يترك الاسباب التي تؤدي الى تغييرها من وقت لآخر دون أي توضيح . والواقع أن طرق الانتاج تتغير في الاغلب الاعم نتيجة أسباب فكرية أي بسبب الاكتشافات والمخترعات العلمية . ويعتقد ماركس أن الاكتشافات والاختراعات تحدث عندما يتطلبها الوضع الاقتصادي . ولكن هذا الرأي ليس له ما يدعمه من حقائق التاريخ . والا ، فلماذا لم يكن هناك أي علم تجريبي تقريبا منذ عهد أرشميدث حتى أيام ليوناردو ؟ مع أن الظروف الاقتصادية السائدة في القرون الستة التالية لعهد أرشميدث كانت مما يجب أن يجعل البحث العلمي سهلا . لكن نمو العلم بعد النهضة هو الذي أدى الى الصناعة الحديثة . غير أن ماركس لم يقدر الذهن بوصفه عاملا مؤثرا في العملية الاقتصادية التقدير الواجب .

وبعد ، فان التاريخ يمكن النظر اليه من عدة زوايا ، ومن المستطاع ابتكار قوانين عامة كثيرة تلم كل منها بقدر كاف من الموضوع بحيث تبدو سليمة

وافية بالفرض اذا اختبرت الوقائع بعناية . واني لا اعرض في غير تعسف .
لا مبرر له ، النظرية العلمية الآتية بديلا من النظرية الماركسية لتعليل قيام
الثورة الصناعية :

ان التصنيع يرجع الى العلم الحديث ، والعلم الحديث يرجع الى وجود
جاليليو ، ووجود جاليليو يرجع الى وجود كوبرنيك ، ووجود كوبرنيك يرجع
الى النهضة والنهضة ترجع الى سقوط القسطنطينية ، وسقوط القسطنطينية
يرجع الى هجرة الاثراك ، وهجرة الاثراك سببها جفاف آسيا الوسطى . ومن
ثم فان الدراسة الاساسية الخاصة ببحث العلل التاريخية هي علم
وصف الماء (X) .

(X) لا حاجة الى القول بان رسل هنا يتهمكم ولا يعنى ما يقوله جديا . وكأنه يقول ان في هذه
النظرية من الحقائق بقدر ما في النظريات اني تحدث عنها في الفصل .

٥ - نظرية فائض القيمة

الفصل التاسع عشر

نظرية فائض القيمة

ان نظرية ماركس فى فائض القيمة بسيطة فى خطوطها الرئيسية ، وان كانت معقدة فى تفاصيلها . فهو يقول أن الأجير ينتج سلعا تساوى فى قيمتها أجره فى جزء من ساعات العمل اليومية ، يفترض غالبا أنه حوالى النصف ، أما فى ساعات العمل الباقية فهو ينتج سلعا تصبح ملكا لصاحب رأس المال على الرغم من أنه لا يدفع فيها شيئا . ومن ثم فإن الأجير ينتج أكثر مما يؤجر عليه . وقيمة هذا الانتاج الإضافى هى ما يسميه ماركس « فائض القيمة » ، ومن فائض القيمة هذا تأتى الأرباح والأجور والعشور والضرائب - وباختصار - كل شيء عدا الأجر .

وهذا الرأى يقوم على حجج اقتصادية ليس من السهل تماما متابعتها خاصة لانها صحيحة فى بعض أجزائها وغير صحيحة فى بعضها الآخر . ومع ذلك فمن الضرورى تحليل حجج ماركس لانها كانت ذات أثر عميق فى نمو الاشتراكية والشيوعية .

ويبدأ ماركس من المبدأ الاقتصادى التقليدى الذى يقول بأن قيمة التبادل لسلعة ما ، تتناسب مع مقدار العمل الذى يتطلبه انتاجها . وقد بحثنا هذا المبدأ من قبل فى معرض الكلام على ريكاردو ورأينا أنه غير صحيح الا بصورة جزئية وفى ظروف معينة . فهو صحيح اذا كانت الأجر تمثل تكاليف الانتاج وكانت هناك منافسة بين الرأسماليين تعمل على ابقاء الأسعار فى أقل مستوى ممكن . فاذا انضم الرأسماليون وكونوا موثقة أو اتحادا فيما بينهم ، أو اذا كانت تكاليف المادة الأولية تمثل جزءا كبيرا من مجموع تكاليف الانتاج فان النظرية تصبح غير صحيحة . ومع ذلك فقد تقبل ماركس النظرية من رجال الاقتصاد فى عصره ، على الرغم من أنه كان يحقنهم ، دون أن يختبر - فيما يبدو - الحجج التى تساق لتأييدها .

والخطوة التالية فى المناقشة مستمدة من مالتس (وان لم يعترف بذلك الاعتراف الواجب) . فانه بمقتضى نظرية مالتس فى السكان ستظل المنافسة قائمة باستمرار بين الأجراء ، وينبئ على ذلك أن قيمة العمل ، كغيره من السلع ، ينبغى أن تقاس على أساس تكاليف انتاجها (وتوالدها) . وهذا يعنى أن الأجر ستظل عند الحد الذى يكفى الحاجات الأساسية وحدها للعامل وأسرته ، وأن العمال لا يستطيعون الارتفاع عن هذا المستوى فى ظل نظام المنافسة .

ونظرية مالتس في السكان ، كمنظريه ريكاردو في القيمة ، تخضع لقيود سبق أن ناقشناها . وينبذ ماركس هذه النظرية دائما باحتقار ، وهو مضطر لان يفعل ذلك لانها اذا كانت صحيحة فانها تجعل أى نظام شيوعى مستحيل التحقيق ، وهو ما حرص مالتس على الاشارة اليه . غير أن ماركس لا يدلى بأى حجج معقولة ضد مالتس ، بل انه يفعل ما هو أكثر من هذا اثاره للعجب اذ يقبل دون مناقشة القانون الذى يقول أن الاجور فى ظل نظام التنافس لا بد أن تظل دائما عند حد الكفاف ، وهو القانون الذى يعتمد على قبول نفس النظرية التى يرفضها فى مناسبات أخرى .

ويبدو أن نظرية فائض القيمة تقوم على أساس هذين الفرضين :

نظرية العمل والقانون الحديدى للاجور : فاذا فرضنا أن الاجير يعمل مثلا اثنتى عشرة ساعة فى اليوم ، وانه ينتج فى ست ساعات ما يوازي قيمة أجره ، فان ما ينتجه فى الساعات الست الباقية يمثل استغلال الرأسمالى ، أى فائض القيمة الذى يستولى عليه . فعلى الرغم من أن الرأسمالى لا يدفع شيئا مقابل الساعات الست الاخيرة ، فهو مع ذلك - لسبب غير مفهوم - قادر على أن يجعل سعر منتجاته يتناسب مع ما يتطلبه الانتاج من وقت عمل . وينسى ماركس أن نظريته كلها تعتمد على افتراض أن كل عمل يستحق أجرا ، وأن الرأسماليين يتنافسون فيما بينهم (X) ، فاذا انعدم هذان الفرضان فليس ثمة ما يحتم أن تتناسب القيمة مع وقت العمل الذى يتطلبه الانتاج .

فاذا افترضنا وجود رأسماليين متنافسين كثيرين فى ميدان العمل الذى تتحدث عنه ، وأن شئون العمل فى مبدئها هى كما يفترض ماركس ، كان من المسبب استطاع خفض الاسعار ومع ذلك يتبقى ربح ، ويكون ذلك نتيجة للمنافسة . وصحيح أن الرأسمالى سيكون مضطرا لان يدفع ايجارا ، وربما كان عليه أن يدفع فائدة عن مال مقترض ، الا أنه من ناحيته سيكون مضطرا للاكتفاء بأقل كسب يرى أنه خلىق بأن يجمسه على الاستمرار فى العمل . أما اذا انعدمت المنافسة ، فان السعر سيتحدد كما هو الحال فى الاحتكارات ، طبقا لمبدأ « ما تتحمله السوق » وهو أمر لا علاقة له مطلقا بقدر العمل الذى يستلزمه الانتاج .

وهن ثم ، فاته وان لم يستطع أحد أن ينكر أن الناس يجمعون ثروات باستغلال العمل ، فان تحليل ماركس للعملية الاقتصادية التى يتم ذلك عن طريقها. يبدو غير سليم . والسبب الاساسى فى أنه غير سليم هو قبول نظرية ريكاردو فى فائض القيمة .

(X) على الرغم من ان انجلز يذكر ذلك فى مقدمة كتاب « لقر الفلسفة » .

لقد تحدثت فيما سبق عن القيمة كما لو كان مستطاعا قياسها بالسعر
(بصرف النظر عن تقلبات العملة) ، وهو ما يستتبعه في الواقع تعريف
القيمة بأنها مقدار السلع الأخرى التي يمكن مبادلتها بسلعة معينة ، وليس
السعر سوى وسيلة للتعبير عن قيم المبادلة لسلع مختلفة بعبارات قابلة
للقياس : فإذا شئنا أن نمارن قيمة عدد من السلع المختلفة ، فعلنا ذلك
بسهولة بالرجوع الى أسعارها ، أى بقيمتها التبادلية بالنسبة الى الذهب
(إذا كان نظام العملة الذهبية هو المتبع) ، وطالما كانت القيمة تعنى « قيمة
التبادل » ، فإن قياس قيمة سلعة ما (فى وقت معين) بسعرها فى ذلك
الوقت إنما هو نتيجة منطقية لتعريف القيمة نفسه .

ولكن ماركس لديه فكرة أخرى عن القيمة تتعارض بصورة غير واضحة
مع تعريف القيمة بأنها « قيمة المبادلة » ، وهذه الفكرة التى لا تظهر واضحة
فى أى قول من أقواله ، فكرة أخلاقية أو ميتافيزيقية ، ويبدو أنها تعنى
« ما ينبغى أن تتبادل به السلعة » ، وسنورد هنا بعض المقتطفات لظهور
الصعوبة التى يصادفها المرء فى الوصول الى ما يقصده ماركس من معنى فى
هذه النقطة ، فهو يقول :

« إن السعر هو الاسم النقدى للعمل متحققا فى سلعة ، ومن ثم كان
التعبير عن مقابل السلعة بمبلغ من المال هو سعرها تكرر لا فائدة منه
كالتعبير بصفة عامة عن القيمة النسبية للسلعة بذكر ما يقابل سلعتين .
ولكن على الرغم من أن السعر ، وهو التعبير عن مقدار قيمة السلعة ، هو
الذى يوضح نسبة مبادلتها بالنقود فإن ذلك لا يبنى عليه أن ما يوضح نسبة
مبادلة السلعة بالنقود هو بالضرورة ما يبين مقدار قيمة السلعة . . . ان
مقدار القيمة يعبر عن علاقة من علاقات الانتاج الاجتماعى ، انه يمثل
العلاقة التى توجد بالضرورة بين سلعة معينة وذلك الجزء من مجموع وقت
العمل فى المجتمع الذى يستلزمه انتاجها . وبمجرد أن يحول مقدار القيمة
الى ثمن ، فإن العلاقة الضرورية الأتفة الذكر تأخذ صورة نسبة تبادل عرضية
الى حد ما ، بين سلعة وأخرى هى سلعة النقود . ولكن نسبة التبادل هذه
أما أن تمثل المقدار الحقيقى لقيمة السلعة وهو الذى يمكن التنازل عن السلعة
مقابلة حسب الظروف ، أو لقيمة الذهب التى قد تختلف عن هذه القيمة .
وعلى ذلك فإن احتمال الاختلاف الكمي بين السعر ومقدار القيمة ، او اختلاف
أحدهما عن الآخر ، من مكونات صورة الثمن نفسها » .

والى هنا يمكن أن نفترض أن ماركس لا يفكر الا فى التقلبات العرضية
كتلك التى ترجع الى الدهاء ، أو الى الفقر النسبى للبائع والمشتري ، ولكنه
ينتقل الى تفرقة أكثر خطورة بين السعر والقيمة ، ولو أنه استمر فيها أكثر
مما فعل لوضعت أمامه عقبات يبدو أنه ظل يجهلها ، فهو يقول :

« ومع ذلك فان صورة الثمن ليست فقط متفقة مع احتمال قيام اختلاف كمي بين مقدار القيمة والثمن ، اى بين مقدار القيمة والتعبير عنها بالنقود ، بل انها قد تخفي أيضا عدم اتساق نوعى يبلغ من شأنه انه على الرغم من أن النقود ليست سوى صورة لقيمة السلع ، فان الثمن تزول عنه تماما صفة التعبير عن القيمة ، فالاشياء التى ليست فى ذاتها سلعا مثل الضمير والشرف . . الخ ، يستطيع أصحابها أن يعرضوها للبيع وأن تكتسب بذلك ، عن طريق الثمن ، صورة السلع . ومن ثم يمكن أن يكون لشيء ما ثمن دون أن تكون له قيمة . والثمن فى هذه الحالة وهمى ، مثل بعض الكميات فى الرياضة . الا أن صور الثمن الوهمية قد تخفي أحيانا علاقة قيمة حقيقية اما مباشرة أو غير مباشرة ، مثل ثمن الأراضى البور التى لا قيمة لها لانه لم يدخلها أى عمل بشرى » .

وطبيعى أن لا مفر لماركس ما دام مستمسكا بنظرية « القيمة فى العمل » . أن يذهب الى أن الأراضى البكر ليس لها قيمة . ولما كان لهذه الأراضى فى الغالب ثمن فان التفرقة بين الثمن والقيمة مهمة بالنسبة له فى هذه النقطة . ويبدو الآن أن قيمة المبادلة ليست القدر الحقيقى للسلع الأخرى التى تتبادل بها أية سلعة معينة فى الواقع ، بل هو مقدار السلع الأخرى التى يمكن مبادلتها بسلعة معينة « اذا » قيم الناس السلع بالنسبة لمقدار العمل الذى يستلزمه إنتاجها . ويعترف ماركس بأن الناس لا يقيمون السلعة على هذا النحو فى بيعهم وشراؤهم ، ولو صح ذلك لكان من المستحيل مبادلة أرض بكر لم يبذل فيها أى عمل بمقدار من الذهب بذل قدر معين من العمل فى استخراجها من المنجم . ومن ثم فإن ماركس عندما يقول ان قيمة سلعة ما تقاس بمقدار العمل الذى يتطلبه إنتاجها فانه لا يريد أن يقول شيئا عما يمكن أن تساويه السلعة فى السوق . فماذا يعنى إذن ؟

انه قد يعنى واحدا من اثنين : ربما كان كل قصده أن يعرف كلمة « القيمة » تعريفا لفظيا ! فلعله يريد أن يقول : عندما أتحدث عن « قيمة » سلعة ما ، فانى أعنى القدر من العمل الذى يتطلبه إنتاجها ، أو على الأصح تلك الكمية من السلع الأخرى التى ينتجها قدر مساو من العمل . أو أنه ربما كان يستعمل كلمة « قيمة » بمعنى أخلاقى ، فيقول ان السلع « ينبغى » أن تتبادل بنسبة العمل الذى استلزم إنتاجها ، وأنها تكون كذلك فى عالم تسود فيه العدالة الاقتصادية . فاذا كان يقصد المعنى الاول فان معظم القضايا التى تتضمنها نظريته فى القيمة تصبح تافهة ، بينما تصبح القضايا التى تؤكد وجود علاقة بين القيمة والثمن تحكيمية وتظل غير صحيحة فى بعض أجزائها . أما اذا كان يقصد المعنى الثانى فانه لا يكون عندئذ محللا لحقائق اقتصادية بل منشئا لمثل اقتصادى أعلى . هذا الى أن الأعلى فى هذه الحالة يكون مستحيل التحقيق للأسباب التى ذكرت فى نظرية ريكاردو .

الخاصة بالريع : ان كيلا من الحنطة يزرع فى ارض ضعيفة يتطلب قدرا من العمل أكثر مما يتطلبه كيل مثله زرع فى ارض جيدة ، ولكنه لا يمكن أن يباع بسعر أكبر فى ظل أى نظام اقتصادى يمكن أن نتصوره . ومن ثم فإن كلا من التفسيرين ، اللفظى والاخلاقى ، ل معنى «القيمة» يرجع بنظرية ماركس الاقتصادية إلى حالة الاضطراب .

ومع ذلك يبدو أن التفسير الاخلاقى للقيمة كان له بعض الاثر ، لا فى ماركس وحده ، بل فى كل من آمنوا بنظرية « القيمة فى العمل » . ويشهد بهنذا فى حالة ماركس أنه يذكر فى معرض حديثه عن ثمن الارض البكر أشياء مثل ثمن شرف الإنسان حيث يشعر المرء بأن وجود الثمن يتضمن شيئا من المعنى الاخلاقى . أما عن غيره من الاقتصاديين فمن الطريف أن نلاحظ أن هودجسكين ، الذى تعلم منه ماركس الشيء الكثير والذى كان أول واحد من أصحاب النظريات طبق نظرية القيمة فى العمل لمصلحة البروليتاريا ، يعود بمصدر هذه النظرية الى مذهب لوك الذى يبرر الملكية الخاصة على أساس حق كل شخص فى نتاج مجهوده (X) . وانه اذا بادل نتاج مجهوده بنتائج قدر مساو لثمن مجهود شخص آخر فإن العدالة تكون قائمة . ومن ثم فإن نظرية العمل تتفق والاخلاق . ويبدو أن هذه النظرة أثرت فى ماركس عن غير علم منه : فهو يشعر عندما يختلف الثمن عن القيمة بأن الثمن يمثل شر الرأسمالية .

ويعتمد جزء كبير من تأثير كتابات ماركس على الفروض الضمنية فى أمثلته الرياضية ، ولناخذ واحدا منها يمثل الكثير .

ومثل واحد آخر . يذكر لنا جاكوب العملية الحسابية التالية عن سنة ١٨١٥ . وهى ناقصة جدا بسبب التكييف السابق لعدة بنود منها ، ومع ذلك فهى كافية فيما يتصل بغرضنا . وهو يفترض أن ثمن الحنطة ١٠ شلن ثمانية بوشل ، وأن متوسط غلة الفدان الانجليزى ٢٢ بوشل فى السنة .

ما ينتجه الفدان الانجليزى

العشور والعوارد والضرائب	بنس	شلن	جنيه	العشور والعوارد والضرائب	بنس	شلن	جنيه
الايجار	-	٨	١	بذور	-	٩	١
ربح المزارع وفائدته	-	٢	١	مخصبات	-	١٠	٢
المجموع	-	١١	٣	أجور	-	١٠	٣
				المجموع	-	٩	٧

« فإذا افترضنا أن ثمن الناتج هو قيمته ، فاننا نرى هنا فائض القيمة موزعا على عدة بنود من الربح والفائدة والإيجار ٠٠ الخ ، ولا يهمنا مطلقا شيء منها بالتفصيل وكل ما نفعله أن نضمها بعضها الى بعض والمجموع هو فائض القيمة وقدره ٣ جنيهات و١١ شلنًا : ومبلغ ٣ جنيهات و ١٩ شلنًا الذي يدفع ثمنًا للبذور والمخصبات هو رأس المال الثابت ونحن نضعه مساويا للصفر ٠ ويبقى بعد ذلك مبلغ ٣ جنيهات و ١٠ شلنات وهو رأس المال المتغير الذي ينفق ، ونحن نرى أن قيمة جديدة قدرها ٣ جنيهات و ١٠ شلنات + ٣ جنيهات وشلن واحد قد أنتجت بدلا منه ٠ ومن ثم فإن

ف	بنس	شلن	جنيه
-	-	١١	٣

وهو ما يعطينا نسبة للفائض أكثر من

م	-	١٠	٣
---	---	----	---

١٠٠٪ ، فالعامل يقضى أكثر من نصف وقت عمله اليومي في انتاج الفائض الذي يتقاسمه أشخاص مختلفون فيما بينهم متدعرين بأعداد مختلفة « ٠ وفى هذا المثال «ف» تعنى فائض و «م» تعنى رأس مال متغير أى أجور ٠ ونلاحظ أن ماركس قد أدخل في فائض القيمة كل ما يكسبه المزارع وكل العوائد والضرائب ٠ ومن ثم فإن العملية تعنى ضمنا : أ - أن المزارع لا يعمل ، ب - أن العوائد والضرائب تذهب كلها الى الاغنياء المتعطلين ٠ وماركس بطبيعة الحال لا يجهر بأى هذين الفرضين بعبارة صريحة ، ولكنهما يفهمان ضمنا من أرقامه فى هذا المثال وفى كل مثال آخر مشابه له ٠ وكانت العوائد فى سنة ١٨١٥ ، وهى التى ينطبق عليها المثال السابق ، يذهب معظمها أجورا فى ظل قانون الفقراء القديم ٠ وصحيح أن الضرائب كان معظمها يذهب الى أصحاب الاموال ، ولكن الباقي كان بعضه ينفق بالتأكيد فى أعمال مفيدة ، فكان بعضها مثلا ينفق فى المحافظة على المتحف البريطانى الذى لولاه لما استطاع ماركس أن يكتب مؤلفه الكبير ٠

وأهم من موضوع الضرائب والفئات موضوع عمل الرأسمالى : ففي حالة الرأسمالى الصغير ، كالمزارع مثلا ، يكون من السخف أن نعامله معاملة الاغنياء المتعطلين ٠ فلو أن مزرعة ما أدارتها الدولة ، لاحتاجت الى مشرف ، واكبر الظن أن أى مشرف كفاء سيتقاضى أجرا يوازى بالتقريب ما يكسبه المزارع اذا أخذنا متوسط ما يكسبه فى عدة سنوات ٠ وكان أصحاب مصانع القطن قبل سنة ١٨٤٦ ، الذين أخذ منهم انجلز فكرته عن الرأسمالى وأخذها من ثم ماركس نفسه ، أشخاصا عاديين الى حد كبير يديرون أعمالهم برأس مال كله مقترض تقريبا ٠ وكان دخلهم يتوقف على مهارتهم فى استعمال المال الذى اقترضوه ٠ وصحيح أنهم كانوا قساة وحشيين ، ولكن ليس صحيحا أنهم كانوا متعطلين ٠ ذلك أنه لا بد من وجود شخص ما ينظم المصنع وشخص يشتري الآلات ويبيع المنتجات ، وشخص يقوم بالاشراف

اليومى على العمل . وكان صاحب العمل فى الايام الاولى للتصنيع يقوم وحده بكل هذا . ومع ذلك فان ماركس ينظر الى كل ما يربحه على أنه فائض قيمة يخلقها عماله ويستولى هو عليها ، وأنا أعرف أن هناك فقرات يعترف فيها ماركس بنقيض قوله هذا ، ولكنها فقرات متفرقة ، بينما نجد الأقوال التى تفترض أن صاحب العمل لا يعمل شيئا متفغلة فى الكتاب كله .

ولسنا ننكر أن الرأسمالى غالبا ما يكون متعطلا لا يعمل شيئا فى المشاريع الرأسمالية الحديثة التى تقوم على نطاق واسع فحملة أسهم السكك الحديدية لا يفعلون شيئا ، والمدبرون لا يعملون الا القليل فى ادارة العمل . ويحجج العمل فى ادارة كل المشروعات الكبيرة الى أن يتركز شيئا فشيئا فى أيدي الخبراء المأجورين ، بحيث يصبح الرأسماليون ولا عمل لهم الا قبض الفوائد . ولنا أن نتوقع من الخبراء المأجورين أن يعطفوا على الاشتراكية طالما كانت تمثل تنظيما علميا أكثر للصناعة ، أقل فوضى وأبعد نظرا عما هي عليه الآن . ولكنهم قلما يفعلون ذلك ، ويرجع هذا الى أن الاشتراكية ، بسبب التحيز الذى أضفاه عليها ماركس ، وقفت الى جانب العمال ضد الاغنياء الكسالى ، والى جانب العمال اليديويين ضد كل الاغنياء والعمال الدهنيين . وماركس ، اذ تجاهل وظيفة الرأسمالى الصغير فى ادارة العمل ، وضع نظرية لا يمكن أن تنصف الخبراء المأجورين الذين يتولون أعمال الادارة فى المشروعات الواسعة النطاق . ولقد كان تمجيد العمل اليديوى ضد الذهني خطأ من الناحية النظرية ، أدى فى نتائجه السياسية الى كوارث مدهمة .

وقد يقال انه ليس من المهم أن يكون ماركس محقا فى تفاصيل تحليله الاقتصادى ودقائقه ، وحسنه أنه كان على حق فى القول بأن البروليتاريا كانت موضع استغلال وحشى ، وأن هذا الاستغلال يرجع الى قوة الاغنياء . ولم تكن التفرقة بين طبقتين من الاغنياء ذات فائدة من وجهة نظره . وأن الشيء المهم لديه هو وضع حد للاستغلال ، ولا سبيل الى ذلك سوى الاستيلاء على القوة فى معركة مع الاغنياء كمجموعة .

ويوجه الى هذا القول اعتراضان : الاول ، أن القضاء على الاستغلال اذا نفذ بغير حكمة قد يؤدي الى وضع البروليتاريا فى موقف أكثر بؤسا مما كانوا قبلا . والثانى ، أن ماركس لم يبحث بحثا دقيقا عن أين تستقر قوة المال ، وأنه من ثم خلق لنفسه أعداء بلا ضرورة تقتضى عداهم .

والاعتراض الاول ينطبق على انهيار أى نظام تكون القوة فيه موزعة توزيعا حاليا من المساواة . ذلك أن أصحاب القوة فى هذه الحالة يستخدمونها دائما للحصول على ميزان خاصة لانفسهم . وهم فى نفس الوقت يرغبون بصفة عامة فى الحيلولة دون حدوث فوضى وأن يضمنوا مستوى معيننا من الكفاية فى النظام الذى يفيدون منه . وهم يجنحون الى احتكار الخبرة بأعمال

الحكم والادارة . وقد يحدث اذا سلبوا قوتهم فجأة أن يكون نقص المعرفة والخبرة عند من كانوا عرضيين للاضطهاد سببا في وقوعهم في ازمات يعانون فيها أكثر مما كانوا يعانون من ظل الوضع الذي تخلصوا منه . واذا أريد ألا يحدث ذلك فلا بد من أن يكون لدى أولئك الذين تحرروا حديثا قدر كاف من الذكاء والمعرفة الفنية والدراية في الحكم يمكنهم من السير بالحياة الاقتصادية والسياسية للمجتمع . فالثورات الناجحة ، مثل الثورة الفرنسية ، قام بها رجال على قدر من المعرفة والذكاء أكبر مما كان لدى المدافعين عن النظام القديم . فاذا لم يتحقق هذا الشرط فإن التحول لا بد أن يكون شاقا عسيراً ، وقد لا ينجح في تحسين الحالة بأية صورة . وأنا لنشك في أن سكان هايتي قد أصبحوا أسعد حالا مما كانوا منذ تخلصوا من الفرنسيين .

أما فيما يتعلق بتحليل قوة المال فاني أعتقد أن هنري جورج كان أقرب الى الصواب من ماركس . فقد وجد هنري جورج ، مقتفيا أثر سبنس والفيزيوقراطيين الفرنسيين ، أن مصدر القوة الاقتصادية هو الارض ، ومن ثم كان يرى أن الاصلاح الضروري الوحيد هو أداء الايجار للدولة لا للمالكين الأفراد . وكان هذا بعينه هو رأى هربرت سبنسر الى أن تقدمت به السن وأصبح رجلا محترما وقورا . وهذا الرأى في صورته القديمة قلما ينطبق على العالم الحديث ، ولكنه يتضمن عنصرا مهما من الحقيقة لم يدركه ماركس لسوء الحظ . ولنحاول الآن أن نعيد تصوير الفكرة بالمصطلحات الحديثة .

ان كل قدرة على استغلال الآخرين تتوقف على حيازة احتكار كامل أو جزئي ، دائم أو مؤقت . ولكن هذا الاحتكار قد يكون من أنواع مختلفة أشد الاختلاف ، أكثرها وضوحا هو الارض . فاذا كنت أمتلك قطعة أرض في لندن أو نيويورك ، فاني أستطيع ، بمقتضى قانون « عدم التعدي » ، أن أثير كل قوى الدولة لأمنع غيري من استعمال أرضي دون موافقتي . وعلى ذلك فإن الذين يرويدن السكنى في أرضي أو العمل عليها يجب أن يؤدوا لي ايجارا ، واذا كانت أرضي ممتازة جدا فعليهم أن يدفعوا ايجارا مرتفعا . وليس على أن أفعل شيئا على الاطلاق في مقابل هذا الريع . ان الرأسمالي يجب عليه أن ينظم مشروعا ، وعلى صاحب المهنة أن يستخدم مهارته ، ولكن صاحب الارض يستطيع أن يفرض جزية على نشاطهم دون أن يقوم بعمل ما . كذلك اذا كنت أمتلك فحما أو حديدا أو أى معدن آخر ، فاني أستطيع أن أفرض شروطى على الذين يرغبون في استخراجها طالما كنت أترك لهم نسبة معتدلة من الربح . وكل تحسين في الصناعة وكل زيادة في سكان المدن تزيد بطريقة آلية ما يستطيع صاحب الارض أن يستولى عليه في صورة ايجار . ويظل هو بلا عمل بينما يعمل الآخرون . ولكن عملهم يزيده ثراء باستمرار .

على أن الأرض ليست هي الصورة الوحيدة من صور الاحتكار . فأصحاب رؤوس الاموال مجتمعين محتكرون بالنسبة للمقترضين ، وهذا هو السبب في أنهم يستطيعون الحصول على فائدة . والسيطرة على وسائل الائتمان نوع من الاحتكار يبلغ من الاهمية ما تبلغه الارض . فالذين يسيطرون على الائتمان يستطيعون تشجيع أى مشروع أو تدميره كما يروق لهم ، بل انهم يستطيعون ، فى حدود معينة ، أن يقرروا ازدهار الصناعة بصفة عامة أو كسادها . وهم مدينون بهذه القوة الى الاحتكار .

والذين يملكون أكبر قوة اقتصادية فى العالم الحديث يسندونها من الارض والمعادن والائتمان مجتمعه . فأصحاب المصارف الكبرى يسيطرون على مناجم الحديد والفحم والسيك الحديدية ، والرأسماليون الصغار واقعون تحت رحمتهم ، ويكاد يكون شأنهم فى ذلك شأن البروليتاريا سواء بسواء .

ويتطلب القضاء على القوة الاقتصادية أن تكون خطواته الاولى هي القضاء على المحتكرين . ثم يبقى بعد ذلك أن نرى هل يستطيع الذين تم لهم النجاح بفضل مهارتهم دون الاستعانة بالقوة الاقتصادية النهائية أن يحدثوا ضررا كبيرا فى عالم خال من الاحتكارات الخاصة . وانى لا أشك فى أن العالم ، اذا أخذنا فى الاعتبار كل العوامل ، كان يصبح أسعد حالا لو أن مستر هنرى فورد منع من صنع سيارات رخيصة . هذا ويتوقف الضرر الذى يحدثه رجال الصناعة الكبار عادة على الوصول الى مصدر من مصادر قوة الاحتكار ، ان صاحب العمل هو العدو المباشر فى النزاع الخاص بالعمل ، ولكنه غالبا لا يزيد على أن يكون نفرا فى الجيش المعادى ، أما العدو الحقيقى فهو المحتكر .

٦ - السياسة الماركسيّة

الفصل العشرون

السياسة الماركسية

كانت مبادئ ماركس السياسية نتاج نظريته الاقتصادية والمادية الجدلية . وكان الاشتراكيون السابقون يلجأون الى اريحية الناس واحساسهم بالعدالة . وقد ظل أوين الى آخر حياته والصفة الغالبة عليه أنه الاب الطيب لنيولانازك . وكانت دعوة سان سيمون دعوة دينية . فقد كان يهدف الى اقامة طراز جنيد من المسيحية . وكان هدف فوربيه كما كان هدف أوين انشاء مستعمرات يقوم نجاحها دليلا على صواب مبادئه . أما ماركس فقد أدرك عدم جدوى هذه الطرق . فانه رأى أن عنصر الأريحية عند الناس لن يبلغ من القوة حثدا يكفى لتغيير النظام الاقتصادي كنه . كما أدرك أن الاشتراكية لن تنجح على دفعات فى مجتمعات صغيرة منعزلة ، بل يجب البدء بها على نطاق واسع نيجسا لثورة سياسية . وقد حكم هو وانجلز على من سبقوهما بأنهم مثاليون خيالون . وكانت المشكلة التى تواجههم هى : من الناحية النظرية - النبؤ بالنمو الحتمى الجدلى للصناعة ، ومن الناحية العملية - ضمان استيلاء البروليتاريا على القوة ، وهى الطبقة التى ستكون مصالحتها العامل الذى يحول الرأسمالية الى الاشتراكية .

وقد أدرك ماركس وانجلز منذ سنة ١٨٤٨ أن المنافسة لا بد منتهية الى الاحتكار . ورأيا أن المشروعات تنجح الى التضخم فى الحجم ، وأن كل تقدم فى يساعد على هذا التضخم . وقد جعل نمو الوثقات فى أمريكا هذا الرأى واضحا قبل أن يموت انجلز ، ولكن ادراك ذلك فى سنة ١٨٤٨ يدل على بعد نظر لم يكن يتمتع به فى ذلك العهد أى شخص آخر غير ماركس . فقد كان ماركس يقول أن تركيز رأس المال سيؤدى الى نقص عدد الممولين وان من غلبوا على أمرهم فى معركة التنافس سيصبحون من طبقة البروليتاريا ، ولن يبقى فى النهاية الا قلة من الرأسماليين ويصبح كل السكان تقريبا من البروليتاريا . وسيكون البروليتاريون قد تعلموا خلال صراعهم مع رأس المال أن ينظموا أنفسهم على نطاق قومى أولا ثم على نطاق دولى فيما بعد ، حتى اذا صار الراسماليون آخر الامر من القلة ، والبروليتاريون من الكثرة والتنظيم ، بدرجة كافية استولى هؤلاء على القوة ووضعوا حدا للعهد الرأسمالى :

« الى جانب التناقض المستمر فى عدد أقطاب رأس المال ، الذين يغتصبون ويحتكرون كل الميزات فى عملية التحول هذه ، يزداد مقدار البؤس والاضطهاد والعبودية والتأخر والاستغلال . ولكن تنمو مع هذا أيضا ثورة الطبقة العاملة ، طبقة يزداد عددها على الدوام ، يوحدتها وينظمها ويهذبها الطابع الآلى لعمالية

الانتاج الرأسمالي نفسها • ويصبح احتكار رأس المال قيادامكيلا لطريقة الانتاج التي نشأت ونمت معه وفي ظله • وأخيرا يصل تركيز وسائل الانتاج وصبغ العمل بالصفة الاشتراكية نقطة يصبحان فيها غير متفقين مع محيطهم الرأسمالي • فيتصدع هذا المحيط • وتدق أجراس نهاية الملكية الخاصة الرأسمالية ، ويجرد مغتصبوا الملكية من ملكيتهم (١) •

وتتكون كل السياسة عند ماركس من الصراع بين الطبقات الذي يؤدي اليه تغير طرق الانتاج الفنى • لقد انتصرت البورجوازية على نبلاء الاقطاع في الثورة الفرنسية الكبرى ، وانتصرت مرة أخرى عليه بالقدر الذي كان ضروريا ، في ثورة سنة ١٨٣٠ • وأدت الحرب الاهلية في انجلترا الى بعض هذا الانتصار في تلك البلاد ، ولكنه تم بفعل قانون الاصلاح الصادر في سنة ١٨٣٢ والقضاء قوانين الغلال • وقامت في ألمانيا نفس المحاولة في ثورة سنة ١٩٤٨ ، ولكنها لم تصب نجاحا كاملا ، وشهدت فرنسا في هذه السنة الاخيرة بداية ثورة جديدة ، ثورة البروليتاريا ضد البورجوازية • وكان للاشتراكيين قوة كبرى في الشهور الاولى من الثورة الفرنسية التي قامت سنة ١٨٤٨ واستطاعوا انشاء «الورش القومية» حيث يستطيع كل شخص ، من الوجهة النظرية ، أن يحصل فيها على عمل يؤجر عليه • الا ان الاشتراكيين قضى عليهم في مذابح كبيرة في شهر يونية • وظلوا مدة طويلة لا يضطلعون بدور كبير في سياسة البلاد • وكان ماركس يتطلع الى حدوث سلسلة من هذه المارك تصبغ فيها هزيمة الاشتراكيين أكثر صعوبة شيئا فشيئا ، ثم تصبغ في آخر الامر مستحيلة • وما من شك في أن البروليتاريا سيهزمون البورجوازية في آخر الامر ، كما هزمت البورجوازية النبلاء الاقطاعيين •

لم يخلق بعد متنبىء صدقت كل نبوءاته ، ولكن ماركس كان مصيبا من عدة وجوه ، فالمنافسة أعقبها في الغالب احتكار ، وطبيعة البروليتاريا أضحت اشتراكية فاكثرت • وفي دولة كبرى واحدة تحاول الحكومة فعلا اقامة الشيوعية • الا أن هناك مع ذلك عدة نقط لم يصب فيها ماركس كبد الحقيقة ، وبعضها فقط ذات أهمية كبرى •

وكان أكثر اخطائه خطورة أنه لم يقدر قوة القومية حق قدرها • « أيها البروليتاريون في كل البلاد • • اتحدوا » • هذا ما يقوله البيان الشيوعي ، غير أن التجربة قد دلت على أن البروليتاريا لا يزالون يكرهون الاجانب أشد مما يكرهون أصحاب الاعمال • ففي سنة ١٩١٤ أطاع الماركسيون أنفسهم ، باستثناء قلة ضئيلة منهم ، أوامر الدولة الرأسمالية التي اتفق أن كانوا ينتمون اليها • وحتى اذا أمكن على مر الزمن اقناع البروليتاريا من الشعوب البيضاء بنجاهل الحدود القومية ، فان لامر سيتطلب وقتا أطول بكثير قبل أن يشعروا بأى تضامن حقيقى مع منافسيهم من الاجناس الصفراء والسمرء والسوداء •

والى أن يفعلوا هذا ، ويبادلهم الصفر والسمر والسود شعورهم ، لن يستطيعوا تحقيق أى نصر راسخ على الرأسماليين .

ولم تثبت القومية انها أقوى من القوى الاقتصادية البحتة فيما يتعلق بالبروليتاريات وحدها . فقيما يخص الرأسماليين أيضا ثبت أن حدود الدول هي عادة حدود الاتحادات الاقتصادية . وشاهد ذلك أن معظم الاحتكارات الرأسمالية قومية وليست عالمية . ففي صناعة الصلب مثلا توجد احتكارات معترف بها أو قائمة بالفعل في أمريكا وألمانيا وفرنسا ، الا أن هذه الاحتكارات المختلفة مستقلة بعضها عن بعض ، وتكاد صناعة الاسلحة تكون هي الصناعة الوحيدة التي لها صفة الدولية حقا (١) لان الشيء المهم بالنسبة لها أن تكون الحروب طويلة وكثيرة لا أن ينتصر فيها هذا الجانب أو ذلك . وباستثناء هذه الصناعة ، يتنافس المحتكرون الذين ينتمون الى دول مختلفة ، ويدفعون حكوماتهم الى مساعدتهم في هذه المنافسة . والتنافس بين الامم صراع اقتصادى مثل الصراع بين الطبقات ومساو له في الاهمية على الاقل في السياسة الحديثة ، ومع ذلك فان ماركس يقول أن الصراع بين الطبقات هو المسيطر على السياسة كلها .

واذا فرضنا أن كان لماركس عذر يبرر به عدم تقديره القومية حق قدرها ، فان هذا العذر يتضاءل اذا عرفنا أنه هو نفسه اشترك في الثورة الألمانية التي قامت سنة ١٨٤٨ ولاحظ بعناية الدور الذى لعبته القومية فى القضاء عليها . فهو يذكر فى كتابه «الثورة والثورة المضادة أو ألمانيا سنة ١٨٤٨» الذى كتبه فى سنة ١٨٥٢-٥١ كيف حاول صقالبه الامبراطورية الالهساوية والهنغارية ، الذين كانت قوميتهم هي السبب المباشر فى الحرب الكبرى بعد ذلك ، وهم الذين تتكون منهم الان تشيكوسلوفاكيا وجزء من يوجوسلافيا ، كيف حاول هؤلاء التخلص من السيطرة الجرمانية وكيف هزموا فى النهاية . وهو لا يظهر أى عطف عليهم بل ينظر الى المسألة كلها من زاوية القومية الألمانية انتفليديه . فهو يقول :

«وهكذا انتهت الى وقت ما ، ولعلها انتهت الى الابد ، محاولات صقالبه ألمانيا لاستعادة كيان قومى مستقل . ان هذه البقايا المنفردة من قوميات عديدة قد انطقت جذوة القومية والحيوية السياسية فيها منذ أمد بعيد، فاضطرت من أجل ذلك الى الخضوع لأهم أقوى منها ، هي التي غلبتها على أمرها مدى ألف عام تقريبا ، كما حدث لاهل ويلز فى انجلترا والباسك فى اسبانيا والبريتونيين الجنوبيين فى فرنسا وكما حدث بعد ذلك للكرويويليين الاسبانيين والفرنسيين فى تلك الاجزاء من أمريكا الشمالية التي احتلها الجنس الانجليزى الأمريكى أخيرا - ان هذه القوميات المحتضرة ، من البوهيميين

(::) انظر « الدولية والوطنية السرية ليمتد » الذى نشره اتحاد السيطرة الديمقراطي .

والكروانيين والدلماسيين . الخ حاولت أن تستغل القوضى الشاملة التي حدثت في سنة ١٨٤٨ لاستعادة الحالة السياسية التي كانوا عليها سنة ٨٠٠ ميلادية . ان تاريخ الف عام كان يجب أن يقنعهم بأن هذا الرجوع الى الوراء مستحيل ، وانه اذا كانت أجناس مثلهم من الصقالبة من أسلافهم قد احتلوا في وقت من الاوقات جميع الاقاليم الواقعة شرق نهري الألب والسال ، وليس الا دليلا على اتجاه تاريخي ، وعلى قدرة الشعب الماني المادية والفكرية على اخضاع جيرانه الشرقيين القدماء وامتصاصهم وهضمهم ، وان نزعه الامتصاص التي يتصف بها الشعب الالماني كانت دائما وما زالت أبعد الوسائل أثرا في نشر حضارة غربي أوروبا في شرقي القارة ، وهو اتجاه لن يتوقف الا اذا بلغت عملية الجرمنة حدود شعوب كبيرة متماسكة سليمة قادرة على ان تحيا حياة فومية مستقلة ، مثل الهنغاريين والبولنديين الى حد ما ، وان المصير المحتمي الطبيعي لهذه القوميات المحتضرة هو الاستسلام لهذا التحليل وذلك الاستيعاب من جيرانهم الذين هم أقوى منهم حتى يلبغا غايتيهما . ولا شك في أن ذلك لا يرضى المطامع القومية للدعاة الخياليين للجامعة الصقلبية الذين استطاعوا أن يثيروا جزءا من الشعوب البوهيمية والسلافونية ، ولكن هل يتوقع هؤلاء أن يعود اثنان الف الف عام ارضاء لغناات قليلة متوترة من الرجال الذين يحيط بهم وينتشر بينهم الالمان من كل جانب في كل بقعة من الارض يحتلونها ، قوم لا يعرفون منذ أمد بعيد جدا أية نفسة أخرى يستعملونها في أغراض الحضارة سوى اللغة الالمانية وتنقصهم المقومات الاولية للكيان القومي ، وهي كثرة العدد وارتباط الموطن . وهكذا اصطدمت ثورة الجامعة الصقلبية ، التي اندلع لهيبها في كل مكان في الاقاليم السلافونية الجرمانية والمجرية ، والتي اتخذت ستارا للحركة الداعية الى استعادة استقلال جميع تلك الامم الصغيرة التي لاعداد لها ، اصطدمت هذه الثورة بالحركات الثورية الاوربية في كل مكان ، وكان السلافيون في جميع الحالات (باستثناء الجزء الديمقراطي من بولندا) ينضمون الى جانب الاستبداد والرجعية . هذا ما حدث في ألمانيا ، وهذا ما حدث في بلاد المجر ، بل وهذا ما حدث في أماكن متفرقة في تركيا . لقد وقف هؤلاء الحونة للقضايا والاعوان الرئيسيون لمسائس الحكومة النمساوية موقف الحارجين على القانون في نظر كل الشعوب الثورية . وعلى الرغم من انه لم يحدث في أي مكان أن اشترك جماهير الشعب في المنازعات التافهة الخاصة بالقومية والتي كان يثيرها زعماء الوحدة الصقلبية ، فاننا لن ننسى قط أن جماعات من السلافونيين المتفهمين هتفت في براج ، وهي بلدة نصف ألمانية قائلة : «السوط الروسي ولا الحرية الالمانية» وكرروا هتافهم مرارا ! وليس من المتوقع أن يقوموا بمحاولة أخرى في فرصة تالية بعد أن ضاعت جهودهم هباء في سنة ١٨٤٨ ، وبعد الدرس الذي لقتهم اياه الحكومة النمساوية . الا انهم اذا حاولوا مرة أخرى أن يقفوا الى جانب القوى المناهضة للثورة ، متذرعين بأمثال هذه المعاذير الواهية ، فان واجب المانيا واضح لاخطأ

فيه ، ذلك أنه لا يستطيع بلد ما فى حالة ثورة وحرب خارجية أن يسمح للمخونة أن يوجدوا بين ظهرانيه » .

ولو أن ماركس كانت لديه أية قدرة على النقد الذاتى ل رأى ، وقد استطاع أن يكتب هذه النبذة ، ان الماركسيين انفسهم غير مبرئين من التحيز القومى . وكان ماركس يرى أحيانا أن القومية لا يمكن تجنبها فى ظل الرأسمالية ، وانه لاشئ يمكن أن يحل محلها الا حكم البروليتاريا . فتراه يكتب فى سنة ١٨٤٦ يقول :

« ان وهم الجمهورية الأوروبية ووهم السلام الدائم فى ظل منظمات سياسية قد أصبح مدعاة للسخرية منله كمثل العبارات الخاصة بانماء الشعوب فى ظل حرية التجارة . . ان للبورجوازية فى كل بلد مصالحها الخاصة ، ولما كانت لاتضع شيئا فوق هذه المصالح ، فانها لن تسمو أبدا فوق القومية . ولكن للبروليتاريا مصلحة واحدة متماثلة فى كل البلاد ، ولها عدو واحد ، ومعركة واحدة تنتظرها ، والبروليتاريون فى مجموعهم مبرءون بطبيعتهم من أى تحيز قومى ، وثقافتهم وحركتهم كلها فى أساسها انسانية مناهضة للقومية . ومن ثم فلا يستطيع القضاء على القومية الا البروليتاريا ، والبروليتاريون هم الذين يستطيعون نشر الأثناء بين الشعوب المختلفة . .

ومع هذا فان هذا الحلم لم يتحقق بعد . .

وبينما كان ماركس محقا فيما تنبأ به عن تركيز الصناعة الرأسمالية ، فيما يتعلق بفروعها الأساسية على الأقل ، فى صور احتكارية أو قريبة من الاحتكار ، فانه أخطأ حين افترض أن ذلك سيؤدى الى نقص كبير فى عدد الأفراد الرأسماليين . وفى بلاد مثل انجلترا وفرنسا وهولندا يوجد عدد لا حصر له من النساء العجائز والضباط المتقاعدين وذوى الدخول الثابتة على اختلاف أنواعها يعيشون على فوائد أموالهم المستثمرة . وهؤلاء هم عصب الاحزاب الشديدة الرجعية ، لانهم ليس لديهم مايشغل بالهم سوى ثبات أثمان أسهمهم وأرباحها . وحتى العمال يصبحون ذوى مصلحة فى بقاء النظام الرأسمالى اذا كانوا أعضاء فى منظمات لها أرصدة مستثمرة . والحق انه لا يوجد فاصل واضح بين الرأسمالى والبروليتارى كما افترض ماركس . فقد كان يتطلع كما تطلع هيجل الى وجود طوائف منفصلة فى عالم الواقع ، وينتظر أن تكون الحقائق فى هذا العالم منفصلة محددة ، انفصالها فى الكتب المدرسية . والأمر ليس كذلك فى أى بلد قديم العهد بالثروة ، بل ان المصالح الرأسمالية عنلى النقيض من ذلك تنفذ الى أعماق البروليتاريا ، وهى وسيلة للتقريب بين تلك الطبقات التى اعتقد ماركس انها ستتباعد ويزداد تباعدها على مر الأيام . مثال ذلك أن الاشخاص الآتية أسماؤهم ، وهم من حملة الاسهم فى شركة هاندلى بيج المحددة المسئولية لصناعة الطائرات ، كانت لهم فى ٥ يونية سنة ١٩٣١ مصلحة مشتركة ، لافى النزعة الرأسمالية وحدها ، بل فى الجرب أيضا .

« سير بازيل مايهيو ، سير هنرى جريون ، عدة بنوك وشركات استثمار ، الضابط الطيار لويس جريج ، مستر س. د ، فيري ، المحترم ج. داون ، دوقه جرافتون ، لورد آرثر براون . مستر ف هاندلي بيچ ، مستر آرثر ج بيچ ، وهم سائقوا سيارات الأجرة ، وموظفو بلدية ، وعمال طباعة ، ونظار محطات ، وصيادلة ، ومزارعون ، وكونسبتلات شرطة ، ومدرسون ، وبائعو سمك ، وضباط بحريون ، وضابط جوى كبير ، ورجل دين فى بعض الاوقات ، وضابط كبير فى الجيش ، وموظف مدنى فى وزارة الخارجية ، ومدرس موسيقى ، وأطباء ، وأوصياء على كنيسة وسليان بمانشستر (١) » .

وليس مصدر هذا التوافق فى المصالح بين طبقات مختلفة هو الاهتمام بالاستثمار وحده ، بل يرجع أيضا الى أسباب تتعلق بطبيعة عمل الشخص ، ولناخذ رجل الشرطة مثلا . فهو حليف للرأسمالى فى الحدرد التى يعتبر فيها حاميا للقانون والنظام الرأسمالىين . وهو عندما يرغب فى تحسين حاله شخصيا عن طريق الترقية يجب عليه أن يعمل على ارضاء ولاة الامور ، ولكن عندما يرغب فى تحسين حال رجال الشرطة بصفة عامة يصبح بروليناريا ويلجأ الى وسائل الاتحادات والاضرابات . وينطبق هذا بعينه على جنود الجيش والبحارة . ولكن أية دولة رأسمالية أوتيت شيئا ولو قليلا من الحكمة وتتجنب الهزيمة فى الحرب تستطيع دائما أن تحتفظ بهذه الطبقات الى جانبها . وقد أدرك ماركس وجود هذه الطبقات ولكنه لم يدرك مدى ماستصير انيسه من ضخامة وأهمية .

وهناك ناحية أخرى أخطأ فيها ماركس عندما قسم المستغلين بالصناعة كلهم الى رأسمالى وبروليتارى . هى الخاصة بالموظفين المأجورين فى المشروعات الرأسمالية الكبيرة . ذلك أن أعمال الادارة التى كان يقوم بها صاحب العمل نفسه منذ مائة عام ، يقوم بها الآن موظفون يتقاضون مرتبات ، هذا فضلا عن أن الادارة تحتاج فى كثير من الأحيان الى فنيين وخبراء علميين ، ويصدق هذا بصفة خاصة فى الصناعات الكيماوية . وهكذا وجدت طبقة متوسطة جديدة بين الرأسمالى والبروليتارى . وقد أخذت هذه الطبقة على عاتقها كل الاعمال التى كان يقوم بها صاحب العمل فيما مضى أو جل هذه الاعمال . وفى أمريكا حيث تقل الوراثة فى رأس المال عنها فى أوروبا يسيطر كبار الاغنياء فعلا على الصناعة فى بعض نواحيها العامة ، وخاصة فيما يتعلق بالتمويل والسياسة العامة . ولكن هذه الحالة ستزول فيما نظن كلما أصبح رأس المال أكثر ثباتا واستقرارا فى أمريكا . وفى انجلترا أصبح الرأسمالى ملكا لا يفعل شيئا ، وصار الموظف المأجور صاحب السلطان فى المصنع . وأكبر الظن أن هذه النزعة ستعم جميع البلاد .

(١) « الدولية السرية » التى نشرها اتحاد السيرة الديمقراطي ص ١٩ .

ولا يجد الموظف ذو المرتب ما يدعوه الى حب الرأسمالى الذى يفوز بنصيب الأُسد من الغنيمة دون أن يعمل شيئاً للحصول عليها . غير أن الموظف ذا المرتب يتمتع بمركز ممتاز اذا قورن بالعامل الأٌجير ، وهو من ثم يتردد فى الانضمام الى الأٌجير بأن يصبح اشتراكيا ، ويرجع بعض السبب فى هذا الى روح التعالى ، ولكن التعالى ليس هو السبب الوحيد . لقد حقر ماركس كل عمل عدا العمل اليدوى ، ولم يحاول أن يلجأ الى أية طبقة سوى طبقة البروليتاريا . لكن الخبراء العلميين يدركون أهميتهم فى العالم الحديث ، وهم ليسوا على استعداد لان يخضعوا أنفسهم لعمال اليدويين . وشأنهم فى ظل الرأسمالية على الأقل معترف به اذ استخدمهم الرأسماليون وعاملوهم معاملة تنطوى على قدر من الاحترام ، وليس لديهم أى شعور بالاطمئنان الى أن مركزهم سيقبل حسنا كما هو اذا شبت ثورة بروليتارية . ومن ثم يظل أغلبهم حلفاء للرأسماليين كارهين لوضعهم هذا بدرجة تزيد أو تنقص .

لقد خلق ماركس بتعاليمه حرب الطبقات التى تنبأ بها ، الا انه بتمجيده للعمل اليدوى أكثر مما ينبغى ، هبط بتقسيم الطبقات الى نقطة فى السلم الاجتماعى أدنى مما ينبغى ، واستحدث لهذا السبب عداوة أهم طبقة فى العالم الاقتصادى الحديث ، أى طبقة الرجال القائمين بالعمل الذى يتطلب مهارة فى التصنيع . ولقد كان من الممكن كسبهم ، أو على الأقل كسب عدد كبير منهم ، الى جانب الاشتراكية لو انها عرضت على أنها طريقة لتنظيم الانتاج والتوزيع العالميين أكثر انطباقا على أصول العلم ، لا فى صورة مذهب انتقامى من الطبقات الاكثر حظا . ان الرأسمالية الخاصة قد أثبتت أنها فوضى لا نحتمل وانها لا تستطيع أن تحقق ذلك الرخاء الذى كان ينبغى أن ينشأ عن زيادة القوة الانتاجية للعمل . وقد أصبح واضحا أن حافز الربح لم يعد الدفاع السليم فى ميادين الانتاج الواسعة ، وأنه من الضرورى تحرير البشرية ايجاد طريقة فى التنظيم كالتى يدعو اليها الاشتراكيون .

والدعوة الى الاشتراكية الدولية فى الوقت الحاضر مستطاعة من ناحية الكفاية لامن ناحية الصراع بين الطبقات ، الا ان الحالة فى انجلترا خلال العقد الخامس من القرن الثامن عشر ، وهى التى استمد منها ماركس وجهة نظره ، كان يتعذر معها الدعوة على هذا الأساس . وكان لابد لكل شخص لم يطمس التحيز الى الطبقة الرأسمالية على بصره أن يحس بفضب شديد نحو أصحاب الاعمال الصناعيين ، الا اذا كان هو نفسه وحشا قاسيا لا قلب له . وكانت البروليتاريا فى تلك الايام تنمو نموا سريعا ، وكان العداء بين الطبقات فى جميع ميادين الصناعة حادا وعنيفا . وجعل معظم الاقتصاديين من الطبقة الوسطى من أنفسهم دعاة لتبرير تصرفات أصحاب الاعمال ، وأخذوا يدافعون عن سيئاتهم معتمدين على مغالطات فندها ماركس بتهمك هى به خليقة .

وليس هناك ما يدعوا الى العجب فى أن ماركس اقام دعوته أساسا على العداء

بين الطبقات اذا ما فكر المرء فى الحالة التى كانت عليها الرأسمالية البريطانية فى النصف الاول من القرن التاسع عشر . وعلى الرغم من أن الرأسمالية أصبحت أقل وحشية فى بريطانيا العظمى بعد سنة ١٨٤٦ ، فان قسوتها استمرت بكامل بشاعتها فى كل افليم بعيد غزته . وقد بلغت فى الكونغو البلجيكي حدا من الوحشية فاق كثيرا أسوأ شرور مصانع النسيج والمناجم فى شمالى انجلترا . ان قسوة الانسان فى سبيل الربح لا تقف عند حد ، وتلك حقيقة ليست جديدة جاءت بها الرأسمالية ، فقد كانت معاملة قلب الأسد لليهود ومعاملة بيزارو للانكا تنسم بنفس الجشع والقسوة فى ابتزاز المال اللذين يتسم بهما أصحاب الاعمال ممن أشاعوا الحقد فى نفس ماركس . الا أننا عندما ننظر اليه باعتباره نبيا من أنبياء العصر الحاضر نجد أن الامر مختلف عن هذا بعض الشيء . ذلك أن الحقد الذى كان يعتمل فى نفسه ، رغم انه كان طبيعيا جدا وينصب على أشخاص جديرين بكل جحد ، لم يكن أساسا صالحا لدراسة علمية فى الاقتصاد ، أو لوضع نظرية تنشئ نظاما يقوم على أنقاض الرأسمالية ، ولعله كان من سوء الحظ أن المذهب الماركسي تبلور نتيجة لدراسه الاوضاع فى انجلترا الصناعية خلال العقد الذى بدأ سنة ١٨٤٠ ، ولو أن ذلك حدث فى فترة لاحقة ، لكان من الجائز أن يتخذ هذا المذهب صورة أقل سُدرة وأكثر قدرة على اجتذاب الأنصار على نطاق واسع .

ان الماركسية بالتجائها الى بث روح الكراهية فى نفوس البروليتاريا فقدت عدة حلفاء ذوى شأن كان من الممكن أن تضمهم الى جانبها . غير أنه لما كانت الكراهية أكثر الانفعالات الانسانية الدافعة الى العمل فقد بعثت حركة أنشط وأكثر عزيمة مما كان يحدث لو انها كانت أقل عنفا مما هي . وكان هذا العنف مقصودا من مبدأ الأمر . فقد ذكر ماركس فى خطاب مفتوح كتبه فى سنة ١٨٤٦ ضد هـ . كريج أن الحب لم ينجح فى تحسين الأوضاع الاجتماعية مدى عام ١٨٠٠ وأنه لا يولد القوة الفعالة اللازمة للعمل .

ثم قال : ان ظروف العالم فى الوقت الراهن بما فيه من تعارض شديد بين رأس المال والعمل مصدر أقوى للآراء الاشتراكية من الحب الانساني . ثم يضى فيقول : « ان هذه الظروف تنادينا قائلة : ان الأمر لا يمكن أن يظل على هذا النحو ، ولا بد من حدوث تغيير ، ونحن أنفسنا ، نحن بنى الانسان ، يجب أن نغيره . وهذه الضرورة الحديدية تهيب للمجهود الاشتراكية مجالا أوسع وتضم اليها مؤيديه أقوى نشطين ، وتمهد السبيل للإصلاح الاشتراكي بتفتيز العلاقات الاقتصادية القائمة أسرع مما يغيرها كل الحب الذى يعمر جميع القلوب الحساسة فى العالم كله » .

وبعد ، فإن الالتجاء الى الكراهية قد يكون الوسيلة النفسية المثلى لكسب النصر فى الحرب ، وهذا ما كان يعتقد جميع المحاربين بين سنة ١٩١٤ وسنة ١٩١٨ . ولكنه ليس الوسيلة النفسية السليمة للبناء الذى يعقب الحرب .

فيجب أن يكون ذلك واضحا لنا ، نحن الذين نعاني العواقب المريرة لمعاهدة فرساي . ولم يكن ماركس بالشخص الذي يعمر قلبه الحب ، بل ان الحقد والضغينة تشيعان في صفحاته . ومن سوء الحظ أن الكثير من الجوانب الكريهة في طبيعة ماركس قد قلدها اتباعه . ولا يسع المرء الا أن يحس بأن كل حرب تدير رحاها بهذه الروح ، سنؤدي حتما - اذا نجحت - الى سلم لا تقل عاقبته بشاعة عن سلم فرساي . ان الحقد اذا اندفع فيه الانسان أكثر مما ينبغي ، يصبح عادة ولا بد له أن يبحث دائما عن ضحايا جدد .

وفوق ذلك ، فان مما يشك فيه المرء كثيرا أن تستطيع البروليتاريا بمفردها أن تنتصر على الرأسمالية في دولة حديثة قديرة . ان الرأسماليين ومعهم أولئك الذين يشعرين بأن مصالحهم متفقة معهم لم يصبحوا ، كما افترض ماركس ، جزءا صغيرا من السكان . هذا الى أن هذه الفئة تضم الآن غالبية الخبراء الفنيين الذين تعتمد عليهم الحرب الحديثة . فهل من المنتظر مثلا أن تنضم القوات الجوية الى جانب البروليتاريا ، وهل تستطيع البروليتاريا أن تنتصر في حرب اذا لم تكن معها هذه القوات ؟ تلك مشكلة واحدة من المشاكل العديدة التي تواجه الماركسية الحديثة .

وقد كان مذهب ماركس في الصراع بين الطبقات احدى القوى التي قضت على النزعة التحريرية في أوروبا في القرن الثامن عشر وذلك باشاعة الخوف في الطبقات الوسطى ودفعها الى الرجعية ، وكذلك بما ذهب اليه من أن الآراء السياسية تعتمد ، ويجب أن تعتمد دائما ، على الميول الاقتصادية دون أى اعتبار للمصالح العام . ولم تزل النزعة التحريرية القديمة تعيش في أمريكا حيث لم يترك ماركس سوى أثر سيماسى ضئيل ، وحيث تقوم هذه النزعة في الوقت الحاضر بمحاولة لاماركسية في التعمير والانشاء . ولعل هذه الوسائل البينة قد فات أوانها ، ولعل العالم لن يستطيع أن يتجنب عملية « التطهير » التي تنشأ عن صراع عنيف بين الطبقات . ولكن اذا كان هذا مما لا يمكن تجنبه ، فان كتابات ماركس قد ساعدت على أن تجعل هذا التجنب غير مستطاع .

ومبادئ ماركس ، كمبادئ غيره من الناس ، بعضها سليم وبعضها غير سليم . وفيها الكثير مما يمكن المجادلة فيه ، ولكن نظريته تتضمن أربع مسائل ذات أهمية قصوى تثبت انه رجل على قدر كبير من الذكاء الخارق .

الاولى هي ما يتعلق بتركيز رأس المال وتحوله تدريجيا من المنافسة الحرة أو الاحتكار .

والثانية هي الدافع الاقتصادي في السياسة ، وهو المبدأ الذي يؤخذ الآن على أنه قضية مسلم بها ، والذي كان يعتبر عندما عرضه ماركس بدعوة جريئة . . .

والثالثة ، وهى نتيجة للدافع الاقتصادى فى السياسة ، هى ضرورة استيلاء من لا يملكون رأس مال على القوة . وهذا عكس مافعله أوين من الالتجاء الى نزعة حب الخير .

والرابعة هى ضرورة استيلاء الدولة على وسائل الانتاج ، وما يتبع ذلك من أن الاشتراكية يجب أن تضم من مبدئها أمة بأكملها اذا لم يتيسر أن تشمل العالم كله . لقد كان السابقون على ماركس يهدفون الى أنشاء مجتمعات صغيرة ويفترضون إنه من الممكن تجربة الاشتراكية فيها على نطاق ضيق ، ولكنه أدرك عدم جدوى هذه المحاولات كلها .

ويستحق ماركس ، على أساس هذه النقاط الأربع ، أن يعتبر مؤسس الاشتراكية العلمية . وهو كغيره من مؤسسى المبادئ فى حاجة الى تصحيح آرائه من عدة وجوه ، واذا ما وقفنا أمامه موقف الهيبة والخشوع الدينى ، فقد يكون لهذا أوخم العواقب . أما اذا أخذناه على أنه نسان معرض للخطأ ، فسنجد الكثير من الحقائق المهمة فيما قال .

القسم الثالث

الديموقراطية وحكم الاقلية الثرية في أمريكا

الباب الاول

الديمقراطية في أمريكا

- ١ - ديموقراطية جفرسن : الفصل الحادى والعشرون
- ٢ - استعمار الغرب : الفصل الثانى والعشرون
- ٣ - ديموقراطية جاكسن : الفصل الثالث والعشرون
- ٤ - الرق والانفصال : الفصل الرابع والعشرون
- ٥ - لتكوان والوحدة القومية : الفصل الخامس والعشرون

القسم الثالث

الديهوقراطية وحكم القاعة الشرية فى أمريكا

من الغرب أقبلت الحرية بسرهه تعارض منهج السماء وحكم الاقدار ،
كانها شمس نانية يلقيها النهب تحترق ، وتشعل وتضىء • جاءت
أسمتها الفتية من وراء المحيط الاطلنطى تطارد الظلال والاحلام •
واخفت منها فرنسا بكل ما فيها من نورات دموية ولكنها لم تستطع
اطفاء لهيبها •
وما هى ذى سهامها المجيدة تنساقط مرة اخرى فنمزق السحب من
المانيا الى بلاد الاسميان •

ألا ما أشد أسفى على الحرية!

إذا ما استطاعت الجموع الحاشدة ، أو الثروة الطائلة ، أو الشئون
المخبية للآمال أو الاقدار المتقلبة أن تقضى على الاحرار •

شمل

القسم الثالث

الديموقراطية وحكم القلة الثرية فى أمريكا

ظهر مع التصنيع ، كما رأينا ، نظامان فلسفيان كاملان تقريبا ، كلاهما متصل بنوع بذاته من السياسة التقدمية . وهذان النظامان هما مذهب الراديكالية الفلسفية واشتراكية كارل ماركس المادية . وتحالفت كل من هاتين المدرستين ، وخاصة الاولى ، مع نزعة التحرر السابقة على عصر التصنيع والمتصلة بالثورتين الامريكيتين والفرنسية فى سبيل السيطرة على الرأى العام . واقتفى جميع أصحاب الآراء التقدمية اثر جفرسن فى مسائل كثيرة مثل الديمقراطية ومعارضة الاقطاع والتحمس للتعليم . كما قبل معظمهم مبدأ تقرير المصير فى القومية الذى نادى به أيضا جفرسن بوضوح لأول مرة فى « اعلان الاستقلال » .

وكان النمط الذى اتخذته سياسة القرن التاسع عشر التقدمية يتكون فى الغالب من تعاون وتفاعل بين الراديكالية الصناعية والمنزل العليا الديموقراطية الخاصة بالقرن الثامن عشر والحرية الفردية والاستنارة الفكرية . وأخذ التصنيع على مر الزمن طابعا عدوانيا وثقة فى نفسه يقويان شيئا فشيئا ، وانزوى ذلك النوع من التقدمية الذى ظهر فى القرن الثامن عشر فى زوايا مهجورة . وبدل الرأسماليون ، بعد أن تحرروا من الاقطاع ، « الحرية » بوصفها مثلا أعلى الى « المنافسة الحرة » . غير أن المنافسة الحرة تحولت بعد فترة من المفالاة التى لا ضابط لها الى احتكار على نطاق قومى ، فكانت النتيجة أن أصبحت الدولة شريكة فى المنافسة وان حلت النزعة القومية الاقتصادية محل المنافسة بين المشروعات الخاصة .

وهكذا تختفى تحررية القرن الثامن عشر ، التى اندمجت فيها الراديكالية الصناعية فى مبدأ الامر . ويتخذ رأس المال نزعة محافظة ، ويقتصر النزوع نحو التقدم شيئا فشيئا على البروليتاريا . « الحرية الفردية » التى نادى بها جفرسن مبدأ عديم الجدوى للبروليتاريا ، ويرجع ذلك الى ما لصاحب العمل من قوة اقتصادية . ويتبع ذلك أنه كلما صارت اسس السياسة التقدمية بروليتارية تفقد عناصرها التى ترجع الى القرن الثامن عشر . ويحل التنظيم والمساواة محل الحرية الفردية .

١ - الديمقراطية في أمريكا

الباب الاول

الديموقراطية في أمريكا

الفصل الحادي والعشرون

ديموقراطية جفرسن

كانت الولايات المتحدة خلال السنوات السبع والعشرين الاولى من كيانها يوصفها شعبا مستقلا موضع اهتمام أوروبا ، وكان أهم أسباب هذا الاهتمام أنها كانت أكمل وأهم مثل قائم للديموقراطية . وكانت الآراء حولها منقسمة عندئذ كما هي منقسمة الآن حول روسيا : فكان الاعتراف بأوجه النقص في أمريكا يعتبر خيانة بين الراديكاليين ، والاعتراف بجزاياها خيانة بين المحافظين ، ولم يقتصر ذلك على أوروبا . فقد كان الامريكيون ، باستثناء الاتحاديين في الايام الاولى ، يشعرون بأنهم يحملون لواء التقدم . وفي ذلك يقول جفرسون عندما تقاعد في سنة ١٨٠٩ « اننا الملاذ الوحيد لبقايا الحرية البشرية ، ومن ثم فان واجبتنا نحو أنفسنا ونحو الاجيال المقبلة والجنس البشري كله يطالبنا باسم كل دافع مقدس ونبييل أن نرعى سلامة بلادنا المحبوبة خلال الاضطرابات التي تثير بقية العالم وتزلزله » . ويشيع نفس الشعور في خطاب لنكولن في جتسبيرج بعد ذلك بخمسة وعشرين عاما . وقد عبر والت هويتمان عن الشعور العام لدى الامريكيين بقوله :

هل وقفت الشعوب الاقدم عهدا جامدة ؟

هل وهنت قواها وانتهى درسها وقد أنهكها النصب ، هناك وراء البحار ؟

لقد حملنا الامانة الابدية والعبء والدرس ،

أيها الرواد . . هيا أيها الرواد !

ولم تكن الديموقراطية من الناحية النظرية جديدة بأى حال من الاحوال ، وذلك على النقيض من مذاهب الاقتصاديين والاشتراكيين . فقد كان لها في العالم الحديث مصدران ، أحدهما يوناني روماني قديم والآخر بروتستانتى . وامتزج هذان المصدران عند مؤسس الديموقراطية الامريكية : أما خلفاؤهم فلم يبق عندهم سوى المصدر البروتستانتى .

ويصف «هيرودوت» في نبذة معروفة المشاهير من أهل فارس قبل اعتلاء داريوس العرش وهم يتناقشون في مزايا الملكية والارستقراطية

والديموقراطية . ومما لا شك فيه أن هيرودوت يعزو الى أهل فارس مشاعر الاغريق : فقد كانت الديموقراطية فى أيامه شائعة فى اليونان باعتبارها صورة من صور الحكم . وكذلك كان الرومان يكرهون الملوك ، وأقاموا جمهورية اتجهت نحو الديموقراطية أكثر فأكثر الى أن خلفتها الامبراطورية . وأصبح رجال مثل «ابنى جراتشى» نماذج للخطابة البلاغية ، وأثنى الكتاب الرومان ، خاصة فى ظل الامبراطورية ، ثناء مستطابا على حرية الشعب . وصار بروتس وكاسيوس رمزا لها ، أما دانتي الذى كان يعجب بالامبراطورية المقدسة ، فقد رأهما آثمين من أكبر الآثمين ووضعهما مع يهودا الاسفريوطى فى فم الشيطان المثلث . الا أن الذين كانوا يبغضون الطغاة جعلوا من بروتس النموذج الاول للفضائل الديموقراطية حتى فى روما نفسها ، بل وحتى فى العصور الوسطى .

وقد أدى احياء الدراسات القديمة الى زيادة أثر اليونان وروما فى التفكير السياسى . فعلى القرن الثامن عشر عندما كان كل الارستقراطيين الاذكياء يعرفون اللغة اللاتينية ، وعدد كبير منهم يعرف اليونانية ، كان شئ من الادب الجمهورى يعتبر مما يتفق مع سلامة الذوق . وقد علق « هوراس وولبول » على جدار منزله نسخة من حكم الاعداء على شارل الاول وكتب تحتها « العهد الاعظم » ليظهر تفوقها على « العهد العظيم » Magna Charta المعروف فى التاريخ الانجليزى . وفى فرنسا كانت الراديكالية الفكرية مصحوبة الى حد كبير بالانجذاب باليونان والرومان الاقدمين ، وكانت النتيجة أن كره نابليون تاسيتوس ، ولم يكن يطبق أى أستاذ يثنى على هذا المؤلف . وفى أمريكا أيضا ترك هذا الاتجاه أثره فى الايام الاولى وإن كان دائما أقل أهمية من أثر البروتستانتية . وشاهد ذلك أن المجلس التشريعى فى فيرجينيا أننى على جفرسون فى سنة ١٨٠٩ لجه « الرومانى » لبلاده . وانه عندما استشير فى أمر تمثال واشنطنجتون نصح بأن يكون ممثلا له وعلى رأسه (عباءة) رومانية . وكان الفادة الاول للرأى العام فى أمريكا ، وخاصة من كان منهم من فرجينيا ، تسيطر على تفكيرهم وأسلوبهم الى حد كبير النماذج اليونانية - الرومانية القديمة .

ولعل تأثير اليونان وروما فى فرنسا قبل الثورة كان السبب الاساسى فى انسار الآراء الديموقراطية بين أولئك الذين لم تكن لهم مصلحة فى التغيير مثل الارستقراطيين الاحرار . ومع ذلك فقد كان هناك ثلاثة عوامل ذات أهمية كبرى تركت أثرها فيهم : روسو ، والفلسفة التى أخذت عن لوك ، والتجربة التى مر بها لافاييت واخوانه الضباط فى أمريكا .

والمصدر الاول لكل هذه العوامل الثلاثة هو البروتستانتية .

فقد أدت الثورة الدينية ضد البابوية فى ألمانيا وانجلترا وأمريكا الى

التمرد على السلطة المدنية وتم هذا التحول بسهولة كبيرة . فقد أكد لوثر مبدأ « حق الفرد في الحكم على الامور » وأوحى بعمله هذا بأن هناك مسائل ليس للسلطات الحق في ارغام الفرد عليها . ولما كان لوثر قد صادق عددا من الامراء ، فانه قصر مذهبه على حق الانسان في مقاومة السلطة الكنسية ، ولكن كثيرا من الناس رفضوا هذا التحديد في الهياج الذي نجم عن حركة لوثر . من ذلك أن زعماء الفلاحين الثائرين في سنة ١٥٢٥ طالبوا بوجوب الغاء رق الارض « لأن المسيح افتدانا جميعا بدمه الغالي ، الراعى والنبيل ، أحقرنا وأجلنا ، ولم يستثن أحدا » . وقد أخذت ثورة الفلاحين ، واشترك لوثر في احمادها بقسوة لا يكاد يصدقها الانسان . ولكن الحركة استمرت ونمت على أيدي اللامعديانيين الذين ساروا بها الى خاتمتها الطبيعية - الشيوعية الفوضوية ، وهي نفس المذهب الذي عارض به باكونين وكروتكين مذهب ماركس . وبعد القضاء على اللامعديانيين في أوروبا انتقل مذهبهم الى انجلترا حيث أصبح الاساس الذي قامت عليه حركة الكويكرين . وقد أوضح « وينستاني » زعيم الحفارين (X) أنهم ليسوا في حاجة الى حكومة لأنهم يملكون أموالهم مشاعة بينهم . وعلى الرغم من أن كرمويل لم يكن يقبل هذه المبادئ ، كما لم يقبلها شارل الاول ، فان جيش القديسين المظفر النابغ له كان ديموقراطيا من الناحية النظرية . وأضيف الى الديموقراطية كما فهمها القدامى مبدأ جديد هو الحرية الشخصية . وبينما قامت المساواة على العميدة الفائلة بأن المسيح مات في سبيل الجميع ، فان الحرية نشأت من حق الفرد في أن يحكم بنفسه على الامور . ولما كانت الحرية تصل الى الفوضى اذا دفعت الى خاتمتها المنطقية ، فانه كان على رجال السياسة البروتستانتيين أن يجدوا طريقة تجعلها تتفق ووجود الحكومة . وبدا لهم أن خير طريقة هي دزيج من الديموقراطية ومذهب في حقوق الانسان يضع حدودا لا يتعداها تدخل الحكومة في الشؤون الخاصة لكل انسان . وهكذا كانت الديموقراطية البروتستانتية في نفس الوقت نظرية في الحكم ونظرية في حدود سلطان الحكومة .

وحمل جيش كرمويل مبادئه ، عن طريق الهجرة ، الى نيو انجلاند ، فهم وان لم يسيطروا على الحكومة المحلية هناك فعلا ، كانوا على الاقل النواة التي أدت بالتدريج الى قيام نظام ديموقراطي . وفي انجلترا استمر معارضو آل ستيوارت الذين أعيدوا الى الحكم يبشرون بالحرية الطبيعية . ويبدو أن هؤلاء الرجال ، وخصوصا « آلجرتون سيدني » ، كان لهم تأثير كبير في جفرسون (X) . وكذلك كان لوك بطبيعة الحال ، وكان تأثيره يمثل ما بقي من تفكير سليم من عهد الثورة بعد أن استقرت احوال انجلترا بعد سنة

(X) « حركة الحفارين في عهد الكومنولث » تأليف لويس بيرنز سنة ١٩٠٦ .
(X) انظر كتاب ف . و . هيرست « حياة جونسون وخطاباته » ص ٩ - ٥٠٨

١٦٨٨ • ويبدو أن روسو لم يكن له أى تأثير ذو قيمة فى زعماء الثورة الأمريكية •

وهكذا كانت ديمقراطية جفرسون تقوم على أساسين • فمن ناحية ، يجب أن يكون الحكم ديمقراطيا ، ومن ناحية أخرى يجب ألا يكون هناك إلا أقل قدر ممكن من الحكم • وحيث يكون العمل المشترك ضروريا يجب أن تسود ارادة الاغلبية ، ولكن لكل فرد حقوقا طبيعية معينة لا يمكن حرمانه منها وينبغى على الحكومة ألا تدخل فيها •

ويستحق جفرسون أن يعتبر مؤسس الديمقراطية الأمريكية لثلاثة أسباب : الاول أنه هو الذى وضع « اعلان الاستقلال » ، والثانى أنه كان زعيم الحزب الجمهورى ومنشئه الى حد كبير ، وهو الحزب الذى هزم الاتحاديين الذين كانوا مناهضين للديموقراطية ، والثالث أنه كان اول رئيس جمهورية آمن بالديموقراطية وعمل على اقامتها •

وقد كان جفرسون ديموقراطيا للشعب وليس من الشعب • فقد ارتفع أبوه بمجهوده الشخصى ولكن امه ، وهى من أسرة راندولف ، كانت تنتمى الى احدى كبريات الاسر فى فرجينيا • وخالط هو نفسه منذ صباه المبكر أبناء أصحاب المزارع الاثرياء وتمتع بالحياة الرغدة المستقلة التى ينتمتع بها أصحاب الاراضى • لقد كان ينتمى بطبيعة نشأته الى الطبقة الحاكمة فى فرجينيا ، وصار من قضاة الاخطاط فى سن الحادية والعشرين ، وعضوا فى مجلس المواطنين الاحرار سنة ١٧٦٩ وهو فى السادسة والعشرين • وعندما شرع فى الزواج طلب من انجلترا « بيانو » وعدة جوارب وقطعا عديدة من الملابس الفاخرة • وعلى الرغم من أنه كان سييدا مهذبا بكل ما تحمله هذه الكلمة من معان فان احتقاره للفوارق الاجتماعية كان حقيقيا وأصيلا فى نفسه وساعده على أن يتجنب طوال الثورة الفرنسية ذلك الشعور العاطفى المزيف الذى طبعه « بيزك » فى أخيلة الناس • فنراه يأمل فى سنة ١٧٩٤ أن « يحمل الفرنسيون فى النهاية الملوك والنبلاء والقساوسة الى المقصلة التى ظلوا أمدا طويلا يعرقونها بالدماء البشرية » • وقد حمل الجمعية العامة فى فرجينيا سنة ١٧٧٧ أثناء حرب الاستقلال على الغناء الوقف وحق الابن البكر وحده فى الميراث ، وهما النظامان اللذان ساعدا على ابقاء طبقة أرسقراطية من ملاك الاراضى تبلغ فى أهميتها ما بلغته الطبقة المائلة لها فى انجلترا • وكتب تكرر ، مترجم حياة جفرسون ، فى سنة ١٨٣٧ موضحا الاثر الذى أحدثته اجراءات جفرسون هذه يقول : « لقد كان هناك (فى فرجينيا) قبل الثورة عدد من العربات التى يجرها أربع جياد قدر ما يوجد منها الآن مرتين أو ثلاث مرات ، الا أن عدد العربات التى يجرها جوادان قد يكون الآن عشرة أمثال ما كانت عليه فى الفترة السابقة أو عشرين مثلا » • فاذا كان ذلك دليلا على الديمقراطية ، فهى ديموقراطية ليست من النوع الثورى جدا •

وكان جفرسون منهمكا تماما قبل حرب الاستقلال فى النزاع مع انجلترا، وفى أثناء القتال كان فى مبدأ الامر عضوا فى مجلس الامة ثم عضوا فى الجمعية العامة الفرجينية حيث عمل على اعادة النظر فى القوانين بصورة عامة ، وانتقل بها طفرة من حالها التى كانت عليها فى العصور الوسطى الى مفهومات « بكاريا » الحديثة ، فألقى عقوبة الاعدام الا فى حالتى القتل العمد والحيانة العظمى ، كما ألغى تدخل الكنيسة فى الحكم ، وقرر مبدأ الحرية الدينية الكاملة . (كانت كل الاديان عدا المذهب الاسقفى موضع اضطهاد فى فيرجينيا حتى ذلك العهد) . وحاول عبثا أن يحقق الغاء الرق بالتدرج فعرض مشروع قانون ينص على أن كل الارقاء الذين يولدون بعد صدوره يصبحون أحرارا . وفى سنة ١٧٧٩ انتخب حاكما لفيرجينيا . ومن سنة ١٧٨٤ الى سنة ١٧٨٩ كان وزيرا مفوضا لدى فرنسا . وعند عودته عين وزيرا للخارجية وظل فى هذا المنصب حتى آخر يوم من سنة ١٧٩٤ . وفى سنة ١٧٩٧ صار نائبا لرئيس الجمهورية ثم رئيسا لها من سنة ١٨٠١ الى سنة ١٨٠٩ وكان قد بلغ السادسة والستين من عمره تقريبا .

وقد يظن المرء من هذه الصورة العامة لتاريخ حياة جفرسون الوظيفية انه لم يكن لديه متسع من الوقت لائى شىء آخر عدا السياسة . بيد أن حبه لبيته فى مونتيسلو واهتمامه بالعمارة وحبه الشديد للاطلاع على كل ما هو علمى كانت جميعها تحتل من نفسه مركزا مهما يماثل طموحه السياسى على الاقل ، وجعلته يغتبط حقيقة بفترات الراحة والتقاعد التى مرت به . وتصور لنا « مذكرات عن فيرجينيا » التى كتبها عام ١٧٨٢ مباشرة عقب نجاته بشق النفس من الانجليز الذين كانوا على وشك أن يأسروه فى منزله ، وتذكر زملائه فى المجلس التشريعى له فى هذه الفترة ، اتساع نطاق مجالات اهتمامه . وقد كتب هذه المذكرات استجابة لطلب رجل فرنسى اسمه « دى ماربوا » الذى لا بد دهش من سيل المعلومات الذى تدفق عليه . فقد سأله مثلا عن الانهار فكتب له . جيفرسون الحقائق الأساسية المتعلقة بخمسة وثلاثين نهرا مندفعاً فى حماسة شديدة من وقت لآخر كأن يقول مثلا : « ان الاهيو أجمل نهـر على وجه البسيطة فتياراته هادئة ومياهه صافية ومجره متبسط لا تعوقه صخور او منحدرات سريعة باستثناء مكان واحد » ويتضمن الكتاب معلومات عن الجبال والشلالات والكهوف والنباتات البرية والحيوانات مدونة فى تفصيل ودقة بقلم رجل جاب الولاية على ظهر جواد من الشرق الى الغرب ومن الشمال الى الجنوب ولاحظ كل شىء بعناية .

وهو لا يكتب كما يكتب رجل العلم التزيه فحسب ، بل يكتب أيضا كما يكتب الوطنى المتحمس . فقد حدث أن جرؤ بافون العالم الطبيعى المعروف على أن يقول ان حيوانات العالم الجديد أصغر أجساما من حيوانات العالم القديم وأن فى أمريكا « يقل نشاط الطبيعة وقوتها كثيرا عن العالم

القديم « . ولم يكن ذلك مما يطيقه جفرسون . فكتب ثلاث صفحات بالخط الصغير مثلت بيانات مقارنة عن وزن الحيوانات فى أمريكا وأوروبا مبتدئا بالجاموس البرى الذى يزن عدة أمثال أى من حيوانات قارة مستر بافون العقبمة . ولم يكن هذا كل شيء : فاذا كان مستر بافون يستطيع أن يتحمل وزن الجاموس البرى فانه سينوء بحمل الماموت الذى توجد عظامه فى أهيو . بل وأكثر من ذلك ، أن بعض الهنود الذين زاروا جفرسون لبعض الشئون عندما كان حاكما أكدوا له أن الماموت لم يزل يعيش فى الشمال الغربى . فضلا عن شهادتهم ، فان وجوده يتفق ونظام الطبيعة ، ذلك أنه لم يثبت مرة أن الطبيعة سمحت بانقراض أى من سلالات حيواناتها . وأصبح استنمرار وجود الماموت على قيد الحياة فى الارض الامريكية قضية آمن بها جفرسون طوال حياته ، بل انها صارت عنصرا من عناصر الحملات السياسية . ولم يكن رأيه غريبا . لقد حدث أن رأيه لم يكن مصيبا ، ولكنه كان من الممكن أن يكون صحيحا ، كما أنه لم يكن قطعا أكثر بعدا عن العلم من رأى مسيو بافون الشهر .

وكان جفرسون مهندسا معماريا ناجحا يمتاز بالاصالة . فقد كان أحد الرواد فى تكييف الانماط القديمة للظروف الامريكية . ان مونتيسلو وجامعة فرجينيا صرحان جميلان وكلاهما من تصميمه .

وقد تحلى جفرسون بكل ما يستحق الاعجاب فى ثقافة القرن الثامن عشر دون أن يكون فيه ذلك الطابع من الضيق والركود الذى جعل هذا القرن غير محبب للنفوس . وقد طفرت المدنية الامريكية فى الشمال من نسق القرن السابع عشر الى التاسع عشر فجأة ، ومن ثم فاتتها ذلك العنصر الملطف . ومن سوء الحظ أن تأثير جفرسون فى مسائل الثقافة كان ضعيفا لا يكاد يستحق الذكر ، على الرغم من أن تأثيره السياسى كان عظيما فعلا . وحتى ذلك التأثير الثقافى الضعيف لم يكن له وجود الا فى الجنوب حيث طمست الحرب الاهلية معالمه . لقد خسرت أمريكا الشيء الكثير بفقدائها تلك السمة من سمات القرن الثامن عشر .

وقد أوضح جفرسون فلسفته السياسية بعبارات محكمة قوية فى « اعلان الاستقلال » . وقد صارت ألفاظ هذا الاعلان معروفة ، على الاقل لدى الامريكيين ، الى حد أصبحت معه لا تحمل أى معنى . ومع ذلك فانى أرجو القارئ أن يسمح لى بتحليل موجز للفقرة العظيمة الاهمية من فقراته :

« أن نرى هذه الحقائق واضحة بنفسها لا تحتاج الى دليل : ان الناس جميعا خلقوا أكفاء ، وأن خالقهم منحهم حقوقا لا يمكن أن تنتزع منهم ، وأن من بين هذه الحقوق حق الحياة والحرية وطلب السعادة ، وأنه أنشئت الحكومات

بين الناس لضمان هذه الحقوق ، وأنها تستمد سلطتها العادلة من رضا-
المحكومين وأنه إذا أصبحت أية صورة من صور الحكم عاملا يقضى على هذه-
الغايات فإن من حق الناس أن يغيروها أو يلغوها » .

وهو عندما يقول أن هذه الحقائق « واضحة بنفسها » فإنه يعنى بالضبط
ما يقول : أنه يعنى أنها معروفة فى ضوء الطبيعة الذى كان أكثر سناء فى
القرن الثامن عشر منه فى هذه الأيام . وقد اعتمد أيضا على ضوء الطبيعة فيما
يتعلق بقواعد الاخلاق الشخصية . فقد ذكر فى أخريات حياته فى خطاب
الى القاضى جونسون من كارولينا الجنوبية يوضح فيه تصرفاته السياسية
السابقة ، ان حربه كان يعتقد « أن الانسان عاقل ، منحته الطبيعة حقوقا
واحساسا داخليا بالعدالة » . وفى سنة ١٨١٥ قال فى خطاب أرسله لآدمز ،
« أن الاحساس الخلقى هو جزء من تكويننا مثل الشعور أو البصر أو السمع
بالقدر الذى رأى الخالق الحكيم أنه ضرورى لحيوان قدر عليه أن يعيش فى
مجتمع » . ويضيف ، « أن كل عقل ليحس بالسرور فى فعل الخير لغيره » وأن
« جوهر الفضيلة هو فى فعل الخير للآخرين » .

وإيمانه بالاحساس الخلقى بطبيعة الانسان الفطرية هو الذى تقوم عليه
أسس مذهب التحررى . فاذا عرف كل انسان عن طريق ضميره ما هو
الصواب ، وإذا كان الصواب هو ما فيه الخير للآخرين ، فإن تحقيق السعادة
العامية لا يتطلب الا أن يطيع كل فرد ما يمليه عليه ضميره . وهذا وكان
جفرسون يعتقد أن معظم الناس سيعملون بوجه عام ما تمليه عليهم ضمائرهم
إذا لم توجد الانظمة التى تفسد الناس وزالت آثار الطغيان التى تحط من
شأنهم . وقد يكون القانون ضروريا بالنسبة لفئة قليلة ، ولكن الحرية أساسا
هى ما يتطلبه تحقيق السعادة العامة .

ولا تكاد تكون هناك ضرورة لاثبات خطأ هذه الفلسفة لجبل عاش خلال
الحرب العظمى ومعاودة فرساي واضطهاد اليهود وكبار الملاك (الكولاك) فى
روسيا ، كل هذا باسم أسمى المثل الاخلاقية العليا . وأجدى علينا أن ندرس
مبادئ جفرسون من الناحية العملية فى ضوء النتائج التى كان يقصد أن تسفر
عنها والتي كان يحتمل أن تسفر عنها . وإذا سلمنا بأن التدخل فى الحرية
قد يكون أحيانا مما لا يمكن تجنبه ، فإن ذلك لا يستتبع أنه دائما محمود .
فقد حدث كثيرا ، وحدث فى أوروبا أيام جفرسون ، أن حرمت الحكومات
أعمالا تهدف للخير وفرضت أشياء كثيرة مضره . فوضعت العراقيل فى سبيل
التجارة ودفعت الناس الى الحرب، وقيدت حرية الفكر وشجعت التعصب، وكانت
العقوبة على الاعمال التى يجمع الكلل على أنها غير مرغوب فيها مثل السرقة
قاسية إلى حد تصبح معه شرا أكبر من ذلك الذى تحاول علاجه . وكانت
الضرورة الاولى فى مثل هذا العالم هى التخلص من النشاط الحكومى الموجه
توجيها سيئا . ولتحقيق هذا الغرض ، كانت أية فلسفة متطرفة بعض الشيء

فى الحرية أداة مفيدة • وقد يكون عدم التدخل بوصفه نظرية من النظريات مما لا يمكن الدفاع ، ولكنها باعتبارها قوة سياسية ، كانت بلا شك ناعمة فى أيام جفرسون •

وقد يسر على الديمقراطية أمرها فى أمريكا اتساع المجال أمامها • فالذين لا يحبون المدن المزدهمة كانوا يستطيعون قتال الهنود أو المكسيكيين • وكان تصور جفرسون للديموقراطية زراعيا ، فكان يخشى نمو المدن الكبيرة ، ويرجع الى ذلك بعض السبب فى أنه كان يعارض فرض الضرائب الجمركية على المصنوعات (X) • وكانت الغالبية العظمى فى حزبه من أصحاب الاراضى الذين لا يحبون رأسمالية المدن • وقد ظلت السياسة التقدمية فى أمريكا أساسا زراعية من عهد جفرسون حتى يومنا هذا ، ويرجع ذلك غالبا الى أن نوع المبادئ التحررية عنده لم يكن فيه ما يفيد الاجير الصناعى • وحتى أقل أصحاب الاراضى شأنًا يكونون فى بلد نام متفوقين من الناحية الاجتماعية والاقتصادية على جمهرة السكان • فهم قد يكرهون رأس المال فى صورة المصارف المالية، بل أن هذا هو المحتمل، ولكنهم يفنون الى جانب رأس المال ضد الاجراء • وقد جعل ذلك من العسير على أمريكا أن تنمى أى نوع حديث من الاحزاب السياسية التقدمية ، كما جعل أولئك الذين أطلق عليهم تقدميين بالاسم غير متحمسين فى دعوتهم حتى ليصعب على المرء أن يعرف هل رجل مثل و • ج • برايان يمكن اعتباره راديكاليا أو أنه كان آخر المدافعين المستميتين عن صور من الفكر والنشاط عفا عليها الزمن • الا أن المستقبل كان فى عهد جفرسون مازال مزدهرا أمام صفار الملاك •

وهناك صعوبة أخرى فى فلسفة جفرسون أصبحت مع الوقت عسيرة الحل ، وهى تلك التى تتعلق بحق تقرير المصير • فاعلان الاستقلال يقرر أنه عندما تصبح أية حكومة عاملا يقضى على « الحياة والحرية وطلب السعادة » يحق للشعب أن يغيرها أو يلغيها • وتوحى الظروف بأن الشعب الذى يهمه الامر هو نفسه الذى يفصل فى هذه المسألة ، وليس هناك من وسيلة لتحديد أى الجماعات أو الاشخاص يتكون منهم الشعب • • فالجنوب مثلا كان يستطيع دون تجن ، أن يعتمد على مبادئ اعلان الاستقلال لتبرير الانفصال • وواضح بطبيعة الحال أن هناك حالات يجب أن يتراجع فيها تقرير المصير أمام المصالح العليا لبني الانسان • انه ليكون من السخف أن تترك قناة السويس وقناة بنما للسيطرة التى لا ضابط لها لسكان الاراضى التى تمران بها (X) • ان

(٧) الاصول الاقتصادية للديموقراطية الجفرسونية - تشارلز «ا» بيرد

(X X) لقد غير المؤلف رايه هذا كثيرا بمناسبة الاعتدال اثنائى على مصر فى سنة ١٩٥٦ ، وحتى اذا لم يغيره فان قوله هذا لا يؤخذ على انها قضية مسلم بها ، فهو يخطئ كما يخطئ غيره من الناس • ويلاحظ هنا انه يقول السيطرة التى لا ضابط لها ، ولم تقل مصر فى يوم من الأيام ان سيطرتها على القناة لن يكون لها ضابط ، ومن اجل هذا وضعت هى الضوابط التى تحقق مقتضيات استعمال القناة فيما أعدت له

تقرير المصير يجب إخضاعه للمحك النهائي للصالح العام ، ولا يمكن القول بأنه حق طبيعي مطلق من كل قيد . فكلما تقدم العالم فى سبيل الوحدة ، عن طريق التقدم الفنى ، أصبح السماح بالاستقلال المطلق الذى يؤدى الى وجود أمم منفصلة كل منها عن الأخرى عقبة تزداد ضخامة فى سبيل التقدم . ذلك أن الشعوب كالأفراد يتعين عليها أن تتعلم الخضوع لنوع من الحكم . ولهذا أصبحت الفلسفة التحررية ، فى هذا الموضوع ، كما هي فى موضوعات أخرى غيره ، تنزع الى القوضى أكثر مما يتفق وحاجات العلم الحديث .

ولم يكن دستور الولايات المتحدة ، على خلاف اعلان الاستقلال ، من وضع جفرسون ، لأنه كتب فى فرنسا عندما وضع وأقر . وطبيعى أنه كان لابد من الاتفاق على وضع دستور ما ، غير أن أنشط العناصر فى الدعوة له كانت هى التى عارضها جفرسون سياسياً فيما بعد ، ويحلل شارلز أ . بيرد فى كتاب خليق بالاعجاب (X) ، الدوافع الاقتصادية التى كانت تحدى أولئك الذين وضعوا الدستور وكانوا السبب فى إقراره . وقد جاء الدافع إليه أساساً من أصحاب الملكية الخاصة ، وخصوصاً أصحاب الدين الاتحادي وديون الولايات . وكانت لدى هؤلاء رغبة متمردة فى الهزيمة الديمقراطية ، نراها مثلاً فى السلطات الممنوحة للمحكمة العليا وفى المادة الخاصة بضمان قداسة العقود .

وان بعض آراء بيرد لجديرة بالذكر هنا :

« ان الحركة التى أدت الى وضع الدستور الأمريكى قد ابتدأها وقام بها أساساً أربع جماعات من ذوى المصالح المتعلقة بالملكية الخاصة ، وهى جماعات أخذت بمصالحها مواد الاتحاد : المال وسندات الدين العام ، والمنتجات الصناعية ، والتجارة ، والنفل البحرى » .

« وكان أعضاء مؤتمر فيلادلفيا الذى وضع مشروع الدستور ، ما عدا فئة قليلة منهم ، ذوى مصالح شخصية مباشرة عاجلة ، وكانوا يستمدون مزايا اقتصادية من النظام الجديد » .

« ان الدستور هو أساساً وثيقة اقتصادية تقوم على الرئى القائل بأن حقوق الملكية الخاصة الأساسية مقدمة على الحكم وأنها ، من الناحية المعنوية ، بعيدة عن متناول الغالبية الشعبية » .

وسنرى أنه لم يكن فى فلسفة الدستور شيء مما يصح لجفرسون أن يعترض عليه وإن كانت الجماعات التى وضعته لم تكن ممن يوجه إليها جفرسون اهتماماً خاصاً ، فقد كان هو أيضاً يؤمن بأن الحقوق الخاصة مقدمة على الحكومة ، ولم يكن بلا ريب موادها للملكية بوصفها هذا ، كما أنه لم يعترض على الدستور

ألا من حيث خلوه من اعلان للحقوق ، وهي رغبة حققت فيما بعد . ومع ذلك فإن اقرار الدستور كان الخطوة الاولى فى بناء القوة السياسية لحكم القلة ذات المال التى جعلت ديموقراطية جفرسون طرازا باليا .

وبدئ فى مجلس الامة الاول الذى انتخب فى ظل الدستور فى استعمال أداة الديموقراطية بمهارة لجعل الاغنياء أكثر ثراء . ذلك أن حكومه الولايات المتحدة وحكومات الولايات المختلفة كانت قد استدانن المال أبان الحرب ، وكثيرا ما كانت تعد الجنود بدفع مرتباتهم ولا تفى بوعودها . وانخفضت هذه الديون الى جزء صغير من قيمتها الاسمية لأنه كان يشك كثيرا فى أنها ستترد . لكن مجلس الامة قرر دفع هذه الديون بقيمتها الاسمية . ولم تتخذ آية احتياطات للحيولة دون وصول أخبار هذه النية مقدما لذوى المصلحة فى هذه الديون . وكانت النتيجة أن اشترى المضاربون الاغنياء الديون من الضباط المتقاعدين الذين كانوا يعيشون فى الريف والذين لم يكسبوا قد عرفوا بعد ماذا يحدث فى المجلس . وحدثت ضروب من الفساد استفاد منها رجال الاعمال المهرة الذين لم يشترك معظمهم فى الحرب ، على حساب الجنود القدامى وغيرهم من السذج . وأثارت هذه الاعمال غضبا شديدا ولكنه كان أضعف من أن يؤثر فى مجرى الحوادث .

وكان المحرك الاول فى هذه العمليات وزير المالية اسكندر هاملتون ، وهو رجل من أقدر الرجال الذين عرفوا فى التاريخ وأهمهم . وليس ثمة دليل على أنه هو نفسه كان فاسدا مرتشيا ، بل انه فى الواقع ترك الوزارة فقيرا . ولكنه شجع الفساد عامدا ، لأنه كان يرى أنه بذلك يمنح الاغنياء حقهم من النفوذ . وكان يدافع دون مصالحة خاصة له عما كان يدافع عنه غيره . تحذروهم مصالحهم الخاصة . فكان مثلا يدافع عن نمو الصناعة لأنه كان يعتقد أن استخدام الاطفال فيها أمر سليم ، فهو يقول : « ان النساء والاطفال يصبحون أكثر نفعا ، ويكون الانتفاع بالاطفال مبكرا ، عندما تستخدمهم المؤسسات الصناعية » . ويقدر عدد من يعملون من النساء والاطفال فى الصناعات القطنية فى بريطانيا العظمى بأربعة أسابيع مجموع من يعملون فيها تقريبا ، والغالبية العظمى بينهم من الاطفال ، وكثير من هؤلاء فى سن غضة . وكان يكره الديموقراطية ويعجب بانجلترا . وعمل طول حياته العملية لان يجعل امريكا تشبه انجلترا . وكان يأمل فى أن تتحول طبقة الاغنياء الى طبقة أرستقراطية ، وكان قوى الاعتقاد بأن الفساد هو خير وسيلة لجعل حكم الاغنياء يسود على الديموقراطية .

ولم يكن هاملتون ، على خلاف جفرسون ، أمريكيا ولا أرستقراطيا : فقد كان الابن غير الشرعى لتاجر اسكتلندى وفتاة من الهند الغربية الفرنسية . وفى جزيرة سان كيتس ، حيث أمضى صباه ، قرأ باوتارخ وحام بالشهرة ، وكتب وهو صبى فى أوائل عقده الثانى وصفا لعاصفة لاقى ترحيبا كبيرا :

« ان وصف العاصفة هو الذى قرر مستقبله ، فقد كان الحلم الذى يراوده أن يرتفع عن طريق السيف ، ولكن قلمه هو الذى جمع حوله الاصدقاء الذين دبروا المال لارساله الى أمريكا لتعليمه ، وقد ظل طوال حياته يتطلع الى المجد عن طريق السيف وهو لا يدري أنه يكسب الخلود عن طريق قلمه ، (X) . وكان عمره عندما بدأت حرب الاستقلال تسعة عشر عامًا ، وحاول جاهدا أن يحصل على فرصة يبرز فيها عسكريا ، غير أن تاريخه العسكرى لم يكن ممتازا وان كان مشرفا . ولم تظهر عبقريته الا فى ميادين السياسة والمال والصحافة .

وقد طالب فى الاجتماع الذى تم لوضع الدستور بأن يكون اختيار رئيس الجمهورية وأعضاء مجلس الشيوخ مدى الحياة ، وأن يعين رئيس الجمهورية حكام الولايات الذين ينبغى أن يكون لهم حق الاعتراض على المجالس التشريعية فى الولايات ورابطاً لها . وكان يفضل قيام حكومة ملكية سافرة ، وظل يأمل فى تحقيقها مدة طويلة . وعلى الرغم من أن الدستور لم يجرى كما يشتهى ، فإنه تبين ما فيه من امكانيات وبدأ يعمل لاستغلالها الى أقصى حد . وصار زعيم الاتحاديين وحقق الكثير عن طريق تفسير سلطات الحكومة الاتحادية تفسيراً واسعاً . فاستعمل التعريف المجرى لتشجيع المصنوعات وعمل على ادماج رأس المال التجارى والصناعى والدوائر المالية ، وبذلك أقام حزبا سيطر على أمريكا باستثناء ما يتعلق بالسياسة الخارجية الى حد ما . سنة ١٧٨٩ الى سنة ١٨٠١ التى تولى جفرسون فيها الرئاسة .

ومن سنة ١٧٩٠ الى سنة ١٧٩٤ كان كل من هاملتون وجفرسون عضوين فى مجلس الوزراء فى واشنطن . ولم يدرك جفرسون فى مبدأ الامر عندما عاد من فرنسا اتجاه سياسة هاملتون وساعده فى أن تتولى الحكومة أداء ديون الولايات بقيمتها الاسمية ، وهو عمل ندم عليه فيما بعد . ولم يطل الامر حتى ثار العداة المبرير بين جفرسون وهاملتون وأصبحا زعيمى حزبين متعاديين أشد العداة . ولم يكن ثمة رجلا ن آخران يمكن أن يكونا متعارضين فكريا مثلهما . فقد كان جفرسون يناصر الديمقراطية والزراعة ، وكان هاملتون يمثل الارستقراطية وثراء المدن . واعتقد جفرسون ، الذى كان طوال حياته نابها ثريا ، ان الناس بطبيعتهم فضلاء . أما هاملتون ، الذى كافح من قبل ضد الفقر وما فى مولده من شذوذ ، فكان يعتقد أن الناس أساسا فاسدون وأنه لا يمكن اجبارهم على القيام بعمل نافع الا بضغط من الحكومة . وكان جفرسون الآمن على مستقبله فى ضياعه وبين أصدقائه المثقفين يؤمن برجل الشارع ، أما هاملتون الذى يعرف من هو رجل الشارع فكان يسعى لصحبة البارزين فى المجتمع . وكان جفرسون ذا مصالح متعددة كثيرة تضى عليه السعادة وتجعله رجلا غير طموح متسامحا ذا روح عالية فى كل حملاته .

السياسية . أما هاملتون ، الذي كانت خيلاؤه تتطلب الثقة التي يبعثها النجاح في النفس ، فكان دنيئا في عداواته لا يرعى ذمة أو ضميرا في نقاشه . وقد نجح كلاهما الى حد ما ، وفشلا الى حد ما : فقد جعل جفرسون أمريكا موطنا للديمقراطية وجعلها هاملتون موطنا لأصحاب الملايين .

وكان النجاح في السياسة من حظ جفرسون وفي الاقتصاد من نصيب هاملتون . فلم يلبث حزب هاملتون أن تفتت ، وكان أهم أسباب تفتته أنه فقد اتزانه ، ولكن الحزب ما كان يستطيع أن يسيطر على الحكومة مدة أطول مما فعل مهما بلغت قيادته من المهارة . ذلك أن توسع أمريكا نحو الغرب أدى الى زيادة عدد أصحاب الاصوات الذين كانوا يؤمنون بديموقراطية جفرسون ، وكذلك فعل المهاجرون الاجانب ، وخاصة الايرلنديين ، لأن هاملتون وحزبه كانوا من أنصار انجلترا . وساعدت التطورات التالية التي أدت الى اتساع الرقعة المخصصة للزراعة على تمكن قبضة الديموقراطية على السياسة الأمريكية . وكانت محاولات هاملتون من الناحية السياسية سرايا لم يتحقق .

الا أن تاريخ سياسته كان مختلفا كل الاختلاف اذا نظرنا اليه من الناحية الاقتصادية . فقد تمتعت الصناعة الأمريكية في مبدأ الامر بقدر متزايد من الحماية لأسباب مختلفة ، وكانت هذه في مبدأ الامر أسبابا عارضة الى حد ما ، ولما كانت الحماية الجمركية كثيرا ما تلعب دورا في الانتخابات ، فإن أصحاب الاعمال والعمال في الصناعة كانت مصلحتهم الاقتصادية واحدة . ومن ثم لم يكن هناك سوى قدر ضئيل من السياسة البروليتارية على الرغم من بعض الحركات المتفرقة في العقد الرابع من القرن الثامن عشر ، وظلت المناطق الصناعية تميل بكتلتها الى اتجاه محافظ . ووجد الفساد الذي أدخله هاملتون عامدا في الدوائر السياسية فرصا أخذت في الازدياد مع نمو الغرب ، أولا فيما يتعلق بتوزيع الاراضي الجديدة ، وبعد ذلك في تمويل السكك الحديدية . وقد فشل الغرب باستمرار في كفاحه ضد الرأسمال الشرقي ، ويرجع بعض السبب في ذلك الى الفساد وبعضه الى عدم قدرة الغرب على وضع برنامج منظم . وقد كانت معتقدات المزارع الغربي ، مثل دستور بلاده ، تمنعه من الاعتداء على حقوق الملكية الخاصة ، وهذه الحقوق بالذات هي التي أكدت خضوعه للمصارف المالية . وأصبح ثراء الاغنياء في أمريكا يزداد بصورة لم تعرف من قبل ، واكتسب هؤلاء الاغنياء سلطة تزيد كثيرا عما كان يتمتع به الملوك في العهود الغابرة .

ان ديموقراطية جفرسون الزراعية تستطيع النجاح في بلد مثل الدنمرك التي لا تهيب الا فرصا ضعيفة للنمو الرأسمالي على نطاق واسع . أما في اقاليم شاسعة مثل الولايات المتحدة حيث يعتمد الزراعيون أساسا على السكك

الحديدية ، فلا أمل للنزعة الحرة الزراعية في أن تصيب نجاحا . ان السيطرة على قوى الرأسمالية الحديثة الضخمة غير ممكنة عن طريق فردية سمحة تتمتع بحرية واسعة . وجفرسون ، حين ربط التقدم الامريكى عن غير قصد ، بهذه الفلسفة غير المناسبة جعل انتصار اقتصاديات هاملتون أكثر شمولا مما كان يستلزمه الحال .

وقد سيطرت الفلسفة التى كان هذان الرجلان دعامتيا على الحياة الامريكية حتى سنة ١٩٣٣ .

٢ - استعمار الغرب

الفصل الثاني والعشرون

استعمار الغرب

يرجع السبب في تفاؤل القرن التاسع عشر الى ما حدث من تقدم جد سريع في الرخاء المادى - وهذا أتقدم نفسه يرجع الى عاملين متصلين أحدهما بالآخر وهما حصول التصنيع على أسواق جديدة باستمرار ، والتوسع المستمر في زراعة الاراضى البكر . ولما كان كوكبنا محدودا في حجمه فان هذه العملية لا يمكن أن تستمر الى غير نهاية . ولكن الاجزاء الغربية من الولايات المتحدة والممتلكات البريطانية المستقلة والدول الجنوبية من أمريكا الجنوبية هيأت ميدانا للتوسع بلغ من الضخامة حدا جعل الامر يبدو كأن لا حاجة للتفكير في المستقبل البعيد عندما تكون كل المساحات الحالية قد احتلت .

وتم غزو الغرب في الولايات المتحدة على أيدي رجال كانوا يؤمنون بديموقراطية جفرسون وأقاموا حكومات ديموقراطية حيثما وجد عدد كاف من السكان الزراعيين . وكان السكان الزراعى الذين تكاثروا في أمريكا يختلفون كل الاختلاف عما عرف من قبل في تاريخ البشرية من نواح كثيرة . فبعد كان تقسيم السكان فى أوروبا الى سادة اقطاعيين ورقيق أرض قد وجد طريقه الى كل بقعة ، وكان لا يزال قائما فى روسيا وبولندا والنمسا والمجر وبعض أجزاء ألمانيا . وكان العامل الزراعى ، حتى فى الاماكن التى تحرر فيها من رق الارض ، مقيدا من الناحية العملية الى قطعة معينة من الارض أو على الأقل لمنطقة بذاتها . ولم يكن العمال الزراعيون فى ذلك العهد من أصحاب المبادأة فنيا أو سياسيا . وحتى فى فرنسا حيث جعلت الثورة العامل الزراعى مالكا لارضه ، كان ذانزعة محافظة شديدة تحت تأثير الكنيسة . وكان المستعمرون الزراعيون فى أمريكا من المهاجرين الذين تحدوهم روح المغامرة ويتطلعون الى التحسينات الفنية فى طرق الانتاج ، ويستمدون من حكمهم أنفسهم ومن الحياة القاسية التى يحيونها احتراما لأنفسهم وثقة فيها جعلتهم لا يستطيعون النظر الى غيرهم على أنهم أرقى منهم اجتماعيا . وكانت الديموقراطية فى جميع أنحاء الغرب منتصرة معتدة بنفسها ، على استعداد لتحدى العالم كله ، كما جعلها نجاحها المادى العجيب تزداد اقتناعا بأنها على صواب .

وكانت المرحلة الاولى فى الاستيلاء على الغرب الواقع خلف جبالا «الجاني» عسالة حرب ودبلوماسية . وفى سنة ١٧٥٦ كان الفرنسيون يملكون كندا

وحوض الميسسبى كله بينما كان الاسبان يملكون فلوريدا وتكساس والغرب الاقصى . وفي سنة ١٧٦٣ استولى الانجليز على كندا وعلى النصف الشرقى من وادى الميسسبى ، وكان استيلاء الولايات المتحدة على هذا الاقليم الاخير فى سنة ١٧٦٣ . وفى سنة ١٨٠٣ اشترى جفرسون النصف الغربى لوادى الميسسبى من نابليون . واشترت فلوريدا من الاسبان فى سنة ١٨٢١ . وانضمت تكساس بمحض رغبتها الى الولايات المتحدة فى سنة ١٨٤٥ بعد فترة قصيرة من الاستقلال ، وتم بعد ذلك غزو الاقليم التى تقع الى الغرب منها حتى المحيط الهادى من المكسيك سنة ١٨٤٨ .

وكان الاستعمار الكثيف لهذه المناطق يتم أحيانا بعد وقت طويل من الاستيلاء عليها ، ولكن التوسع عبر القارة كان مستمرا منذ انشاء الاتحاد حتى نهاية القرن التاسع عشر . وحتى فى أيام الاحتلال لم يستطع الانجليز أن يحولوا دون تحقيق رغبة الامريكيين الطبيعية فى استكشاف الاراضى البكر التى تقع خلفهم واستغلالها ، وعندما تخلصوا من حكم ادوارد الثالث تحرك سكان الولايات الساحلية يدفعهم الاعتزاز بممتلكاتهم وتحثهم صعاب العيش فى جموع كبيرة عبر الجبال الى وادى الميسسبى . واستمرت الحال هكذا يوما بعد يوم وشهرا اثر شهر وسنة وراء سنة تسير صفوف طويلة من المهاجرين ، الاسر الاكثر مالا فى عربات تتبعها قطعانها ، والاسر الارق حالا على الاقدام تحمل ممتلكاتها فى عربات يد أو على عواتقها ، فى سبيل لا ينقطع على الطريق المتجهة الى الغرب لينشئوا ولايات جديدة . وضمت كنتكى الى الاتحاد فى سنة ١٧٩٢ وتنسى فى سنة ١٧٩٦ وأهيو فى سنة ١٨٠٣ . وكان التقدم فى الشمال الغربى بطيئا فى اول الامر لأن الانجليز ، الذين ظل شعورهم عداثيا ، احتفظوا بمخلف الاعذار بالحصون التى كانوا قد وافقوا على تسليمها منذ سنة ١٧٨٣ الى سنة ١٧٩٤ عندما تم توقيع معاهدة جاى . كما أن الهنود الذين انضموا الى الانجليز جعلوا البلاد غير آمنة للمستوطنين الى ما بعد الحرب التى قامت فى سنة ١٨١٢ . وابتداء من سنة ١٨١٥ وما بعدها امتلات انديانا وايلينوى ، رغم وجود عدد كبير من الهنود ، بالمستوطنين بسرعة وأصبحتا ولايتين فى سنة ١٨١٦ و ١٨١٨ على التوالي ، وظل جزء من أقصى الشمال الغربى خاليا من المستوطنين الى ما بعد ذلك بكثير لان ارواء الارض فيه كان يتطلب مجهودا مشتركا . فلم تنضم داكوتا الجنوبية والشمالية مثلا الى الاتحاد حتى سنة ١٨٨٩ . غير أنه ما أن حلت سنة ١٨٢٠ حتى كان هناك أكثر من مليونين وربع مليون من المستوطنين غرب جبال اللجهانيز وفى سنة ١٨٤٠ كان فى هذا الجزء سبعة ملايين تقريبا .

وكانت الحركة نحو الغرب تقل فى أوقات الرخاء وتزيد فى الازمات ، عندما كان الفقراء يهربون من البطالة وانخفاض الاجور وارتفاع الضرائب . الا أنه كانت توجد عدة أسباب غير اقتصادية لهذه الحركة ولهذا لم تنقطع

الهجرة انقطاعاً تاماً . فحب المغامرة وحب الحرية والرغبة الوجدانية فى أن يحس المرء بنفسه جندياً من جنود الطبيعة فى جيش المدنية المتقدم ، جعلت كلها الناس يتركون حياة الدعة ليتحملوا مخاطر حياة الرواد وصعابها . وفى ذلك يقول د . توكفيل :-

« انى على استعداد تام للاعتراف بأنه ليس بين الامريكيين شعراء ، ولكنى لا أوافق على أنهم عطل من الافكار الشعرية . ففى أوروبا يتحدث الناس كثيراً عن مجاهل أمريكا ، ولكن الامريكيين أنفسهم لا يفكرون فيها كثيراً : أنهم لا يحسون بما فى الطبيعة غير الحية من عجائب ، بل من الممكن أن نقول عنهم أنهم لا يحسون بوجود الغابات الهائلة التى تحيط بهم حتى تهاوى أشجارها تحت فؤوسهم . ذلك أن أبصارهم معلقة بشئ آخر ، أنهم يتطلعون الى زحفهم عبر هذه المجاهل ، يجففون مسنقعاتها ويغيرون مجارى انهارها ويعمرون الخالى منها ويخضعون الطبيعة لسلطانهم . وهذه الرؤيا الضخمة لانفسهم وهم يقومون بهذا الزحف لا تراودهم فى فترات منقطة بل يمكن أن نقول أنها رؤى تداعب خيال كل فرد منهم فى أهم تصرفاته وأقلها شأنًا بلا انقطاع وانها تظل على الدوام ماثلة فى ذهنه . ولا يوجد شئ أكثر تفاهة وثقلاً وامتلاء بالمصالح الحسية من حياة الانسان فى الولايات المتحدة . الا أنه من بين الافكار التى توحى بها هذه الحياة فكرة مليئة بالشاعرية وهى ذلك العصب الخفى الذى يكسب الاطار كله حيويته » (x) .

وأصبح غرب أمريكا يعتبر نفسه ، ويعتبره العالم ، نموذجاً للديموقراطية . وكانت هناك مع ذلك ثلاثة عوامل تفرقت بها أمريكا فى ذلك العهد وتركت أثرها فى طبائع الناس وفى الحياة الاجتماعية وجعلتهما مختلفين تماماً عما يمكن أن يكون فى أوروبا فى ظل أى نوع من أنواع الحكم . وهذه العوامل هى : الارض الحرة والهناد واسترقاق الزنوج . وسأتحدث عن هذا العامل الاخير فى فصل تال . أما العاملين الآخرين فينبغى أن نذكر شيئاً عن كليهما الآن اذا أردنا أن نفهم العناصر التى تفرقت بها الديموقراطية الامريكية . وسأبدأ بالهنود .

ترك الصراع مع الهنود منذ مبدأ الامر نوعاً من العنف والتماسك الاجتماعى فى الحياة الامريكية ما كان ليتوقع وجوده فى بيئة أقل أخطاراً من هذه البيئة . وكان الهنود يتحلون بكثير من السجاياء الحميدة ولكنهم كانوا قساة الى أبعد حدود القسوة . ولا يمكن أن نطلب من رجال كانت نساؤهم وأطفالهم معرضين باستمرار لسليخ الرؤوس والقتل « بالبلط » الهندية أن يشعروا بالمعطف الاخوى نحو الهنود . كما أن الهنود ما كانوا ليقبلوا ذلك الاعتداء الوحشى الذى كان البيض يقومون به دون وازع من ضمائرهم .

(x) دى توكفيل « الديموقراطية فى أمريكا » الجزء الثانى ص ٦٧ طبعة جرين وشركاه .

ويقول جيمس ترسلو آدمز في وصف حرب « البيكو » سنة ١٦٢٧ ما يأتي :

« انها قصة الاعتداء الابيض والحقد العنصرى التى كانت تتكرر لسوء الحظ على طول حدودنا تقريبا مدى قرنين ونصف قرن . وكان الحدث الرئيسى فى هذه الحرب ، وهى الاولى فى نيو انجلند ، هو هجوم مفاجىء قام به المتطهرون بقيادة الضابط جون ماسون على أكبر قرية من قرى الهمج . ففى أثناء الظلام والرياح تهب بشدة وقف الحرس عند مدخلى الحظيرة ليمنعوا أحدا من الهرب ، ثم أشعلوا النار فى القرية . ومات خمسمائة هندي بين رجل وامرأة وطفل حرقا ، وكل ماقاله القائد المتطهر وقتئذ أن عناية الله قد جعلت عدد الموجودين يزيد فى تلك الليلة المشنومة ١٥٠ شخصا عن المألوف » (X)

وليس لنا بعد ذلك أن ندهش للطريقة التى عامل بها هؤلاء المستعمرون أنفسهم الكويكرين لأسباب دينية : فقد شنقوا ثلاثة رجال وامرأة وسجنوا عددا آخر وضربوهم وعذبوهم وباعوا أطفالهم عبيدا فى جزر الهند الغربية (X X) . وقد بقيت بعض آثار هذه الحماسة فى الاضطهاد على الحدود حتى فى القرن التاسع عشر . ولم تأخذ الطابع الدينى الا ضد المورمون ، ولكنها ظلت موجودة فى صورتها السياسية وخاصة فيما يتعلق بموضوع الرق .

وكانت الصورة المألوفة للحوادث فى الشمال الغربى تتم على هذا النسق : يأتى أولاً المكتشفون ثم يجيء وراءهم بعد فترة قصيرة تجار الفراء . وبعد فترة من الوقت ، تترازم بين قرنين وعشر سنوات ، تنشئ الحكومة . الفرنسية أو الانجليزية أو الأمريكية ، ومراكز عسكرية فى المجهل بناء على ما يذكره تجار الفراء . (وكان الدافع عادة هو الرغبة فى الاستيلاء على تجارة الفراء للبلد الحاكم) . وكان الهنود يثارون خلال الحرب بين الشعوب البيضاء المقضاء على هذه الحاميات المتطرفة . ويؤدى ذلك الى معركة انتقامية يهزم فيها الهنود بعد قتال عنيف ويجبرون على توقيع معاهدة يبيعون بمقتضاها أراضيهم ، ثم يتجهون غربا ليستقروا فى أرض من جديد . وفى أثناء الحرب كان الهنود يذبحون المستوطنين فى جهات نائية ، والمستوطنون يذبحون الهنود . وكان منتظرا من كل رجل أبيض يعيش فى منطقة من مناطق الحدود أن يحارب ضد الهنود عندما يطلب اليه ذلك . وعلى الرغم من أن الهنود كانوا يهزمون دائما فى آخر الأمر فإنهم كانوا ينتصرون فى معارك لا يقل عددها عن التى هزموا فيها ، وكانوا ينتصرون دائما تقريبا عندما يتساوى الفريقان فى العدد (X X X) .

(X) « الديهوقراطية تسير » ص ٢٥ .

(X X) نفس المرجع ص ٢٦ .

(X X X) « شيكاغو والشمال الغربى » تأليف م . م . كوف .

وكان الخوف من الهنود كالسيف المعلق بصفه مستمرة فوق الحدود في الأيام الأولى . ويقول نيقولاى وهامى وهما يصفان حياة جد ابراهام لنكولن (وكان يسمى أيضا ابراهام) ما يأتى :

« لم يكن يمر يوم ، قبل أن تضع معاهدة جرينفيل فى سنة ١٨٩٥ حدا للحروب الدامية الطويلة مع الهنود ، يستطيع فيه أحد الرواد أن يترك كوخه وهو على ثقة من أنه لن يجده كومة من الرماد عندما يعود ، ويجد أسرته الصغيرة مذبوحة على عتبته أو سبقت الى أسر أسر من الموت . وفى كل مرة يجن الليل فيها على منزل الرجل وهو بعيد عنه كان قلق نساءه وأطفاله وانشغالهم شديدا ، لا يقلل من انزعاجهم أن الامر قد تكرر كثيرا بحيث أصبح مألوفا .

وسرعان ما انتهت حياة الرائد ابراهام لنكولن بفاجعة . فقد استقر فى مقاطعة جفرسون على أرض اشتراها من الحكومة وقطع أشجار الغابة من بقعة أعدها للزراعة . وفى صباح أحد أيام سنة ١٧٨٤ خرج هو وابناؤه الثلاثة : موردكاى ويوشع وتوماس . وساروا الى نهاية الحقل ليبدأوا عمل اليوم . وانطلقت من الاجمة رصاصة قتلت الاب ، فجرى الابن الاكبر موردكاى ، بطريقة غريزية لا شعورية ، الى المنزل ويوشع الى الحصن المجاور فى طلب العون ، وترك الابن الاصغر ، وهو طفل فى السادسة ، بجوار جنة أبيه . واختطف موردكاى ، حين بلغ المنزل ، بندقيته ورأى خلال ثقب فى الحائط هنديا مصطبغ الجسم بأصباغ القتال ينحنى الى الأرض ليلتقط الطفـل . فصبوب بعناية الى حلية بيضاء على صدر المتوحش وأطلق عليه النار فصرعه . وجرى الطفل بعد أن تخلص من الهندي الى الكوخ ، وأخذ موردكاى يطلق النار على المتوحشين الذين بدأوا يظهرون من خلف الأشجار حتى عاد يوشع بالنجدة من الحظيرة وولى المعتدون الادبار . وقد تركت هذه المأساة أثرا لايمحى فى ذاكرة موردكاى . وأصبح يتربص بالهنود فى عزم واصرار يدفعه الى ذلك إما رغبة قوية فى الانتقام لأبيه المقتول ، أو سرور بمهارته فى الإصابة ، وقلما كان ينتظر اذا ما رأى هنديا ليسأله أهو عدو أم صديق بل كان يطلق النار عليه حالما يدخل فى نطاق مرمى بندقيته » .

وقد حارب لنكولن نفسه ضد الهنود فى حرب الصفر الاسود The Black Hawk war سنة ١٨٣٢ . وكان هاريسون مدينا فى وصوله الى الرئاسة الى انتصاره على الهنود فى تيبكوانو ، وكذلك حاز الرئيس جاكسون بعض الشهرة بسبب نجاحه ضد الهنود السيمينول ، وان كان السبب الرئيسى فى شهرته يرجع الى الهزيمة التى أنزلها بصهر ولنجتون .

وتعتبر المذبحة التى قتل فيها معظم حامية فورت ديربورن سنة ١٨١٢ فى البقعة التى تقوم عليها شيكاجو الآن ، وهى من أحداث الحرب مع انجلترا ، من أفزع مائى الحروب الهندية . وكانت شيكاغو فى ذلك الوقت تتكون من

الحامية العسكرية وناجر اسمه كنزى لا أكثر . وصدرت الاوامر المضابطة هيلد قائد الحامية أن يخلى الحصن ، ففعل ، ثم هوجمت قوته الصغيرة على بعد ميلين من الحصن وقتل ، كما جاء فى تقريره ، ٢٨ رجلا وامرأتان و ١٢ طفلا .

تلقى القليلون الذين استطاعوا الهرب مغامرات غريبة (X) . فقد كان من بينهم مثلا مسز سيمونز وطفلتها التى تبلغ من العمر ستة أشهر . وقد فقدت زوجها وابنها البالغ من العمر سنتين فى المذبحة . وظلت أسيرة فى أيدي الهنود ستة أشهر قضت معظمها سائرة على قدمها تحمل طفلتها . وكانت ترغم على المرور بين صفيين من النساء الهنديات اللاتى كن يضربنها بالعصى وهى تحاول أن تحمى طفلتها من ضرباتهم . وأخيرا أخذت الى دترويت التى كانت وقتئذ فى أيدي الانجليز ، وكان ذلك نهاية أسوأ فترة فى رحلتها .

ووصلت بعد ثمانية أشهر من المذبحة الى منزل خشبى اتخذه أبواها ملجأ لهما . وحتى فى هذا المكان قتلت أختها وقتل زوج أختها بيد الهنود بعد وصولها بفترة قصيرة . وعاشت بعد ذلك هى وابنتها حياة خالية من الاحداث وكبرت الابنة وتزوجت وزهدت غربا باستمرار حتى عاشت عيشة موفقة فى أهيو وأيوما وكاليفورنيا حيث ماتت سنة ١٩٠٠ (X X) .

وقد عامل الهنود التاجر كينزى معاملة المحاييد ولم يمسوه بضر خلال المعركة . ومع ذلك فقد قدر له تعويض عن خسائره شمله هو وأبناءه وبناته وزوجات أبنائه المطلقات فى كل معاهدة تمت بعد ذلك مع الهنود .

وكان الهنود قد أثروا خلال حرب سنة ١٨١٢ الى القيام بأعمال هجومية متحدين تحت قيادة زعيم اسمه تكومش وأخيه ، الذى كان يدعى النبوة وأنه يتلقى الوحي من الروح الكبيرة . وقد قالت الروح الكبيرة للمتنبىء فى إحدى المناسبات :

« أنا أبو الانجليز والفرنسيين والاسبان والهنود . لقد خلقت الرجل الاول ، وهو الاب المشترك لكل هؤلاء الناس وأبوكم أنتم أيضا ، وانى أتحدث اليكم الآن عن طريقه هو الذى أيقظته من رقدته الطويلة . ولكن الأمريكين

(X) « شيكاغو والشمال الغربى القديم » م . م . كوفى .

(X X) يبدو ان القلة التى نجت من المذبحة كانت تتفتح بحيوية عجيبة . ويؤكد احدهم اسمه كينسون ، أنه من مواليد سنة ١٧٣٦ ، ومما لا شك فيه أنه اشترك فى حرب الاستقلال . وقد كرس نفسه بعد حرب سنة ١٨١٢ للأعمال السبلية التى وجدها أتد خطورة من الحرب : فقد سقطت عليه شجرة كسرت وجهه وعظم كتفه وضلوعه من ضلوعه ، وكسرت بندقيه ساقيه فى استعراض عسكري . ومع ذلك فقد تزوج أربع مرات وأنجب ٢٢ طفلا . وعندما بلغ سن التاسعة بعد المائة استقر فى شيكاغو حيث عاش على ما كان يتقاضاه من معاش عسكري حتى سنة ١٨٥٢ . وقضى السنين الأخيرة من حياته فى متحف وشيعة جازته باحتفال عام بعد وفاته .

ليسوا من صنعى . انهم ليسوا ابنائى ، بل أبناء الروح الشريرة . لقد نشأوا من حثالة المياه العظيمة التى عكرتها الروح الشريرة ودفعت رياح شرقية عاصفة الزيد الى الغابات انهم كثيرون ولكنى أكرهمم » (x) .

وإذا كانت الروح الكبيرة تحب الهنود بصفة خاصة ، فقد كان لديها من الاسباب ما يدعوها الكراهبة الأمريكيين . ومع ذلك فأنا إذا نظرنا الى الامر من ناحية تقدم المدنية البشرية يصعب علينا أن نتصور ما اذا كان يمكن عمله مما يتفق والعدالة الانسانية . فليس فى وسعنا أن نأسف لأن الولايات المتحدة يقطنها المتحضرون . ولم يكن هناك بد من أن يقاسى الهنود ما قاسوا اذا أريد أن يقطنها متحضرون . كما يقول توكفيل :

« من أية زاوية نظرنا الى مصائر سكان أمريكا الشمالية الاصليين فان ما حاق بهم من كوارث يبدو لا مندوحة عنه ، فاذا استمروا على حالتهم الهمجية فلا بد لهم من الانزواء ، واذا حاولوا أن يتحضروا اخضعهم احتكاكهم بمجتمع أكثر منهم مدنية لحالة من الظلم والفقير المدقع .

وهم لا بد هالكون اذا ظلوا ينتقلون من أرض بور الى أخرى مثلها ، واذا حاولوا أن يسبقوا فلا بد لهم أيضا أن يهلكوا ، ومعونة الاوروبيين لهم ضرورية اذا أريد تعليمهم ، ولكن اقتراب الاوروبيين منهم يفسدهم ويدفعهم الى الحياة الوحشية . وهم يأبون أن يبدلوا عاداتهم ، ما داموا محافظين على عزلتهم ، واذا ما أرغموا على الخضوع للبيض كان وقت تبديل هذه العادات قد مضى وانقضى . »

« ان الاسبان يطلقون كلاهم المتوحشة خلف الهنود كما يظفونها خلف الوحوش الضارية . واجتاحوا العالم الجديد سلبا ونهبا بدون رحمة أو شفقة كما لو كانوا يعصفون بمدينة استولوا عليها عنوة : ولكن الدمار يجب أن يوضع له حد والجنون لا بد أن ينتهى ، وقد اختلط من بقى من الهنود بعد المذبحة بغزاتهم واعتنقوا آخر الامر دينهم وطبائعهم . غير أن تصرف الأمريكيين فى الولايات المتحدة حيال الاهالى الاصليين يتميز من ناحية أخرى بالتزام لشكلية القانون التزاما فريدا فى نوعه . ذلك أن الأمريكيين يتركون الهنود وشأنهم ما داموا محتفظين بهمجتهم ، ويعاملونهم فى هذه الحالة معاملة شعب مستقل ، ولا يستولون على مناطق صيدهم الا بمعاهدة تنقل ملكيتها اليهم . واذا وقع على أحد الشعوب الهندية افتئات شديد بحيث يتعذر عليه البقاء فى أرضه فانهم يمدون له يد العون فى الانتقال الى قبر بعيد بعيدا كافيها عن أرض أجداده .

ومع هذا فلم يستطع الاسبان استئصال الهنود بمعاملتهم التى بلغت فى

تسوتها ووحشيتها جدا لم يعرف له مثيل والتي تسمهم بالعار الابدى ، كما لم ينجحوا أبدا في حرمانهم من كل حقوقهم ، ولكن أمريكيى الولايات المتحدة حققوا الغرضين معا ببساطة فريدة وهدوء وفي حدود القانون بطريقة مظهرها القانون وحب الانسانية ودون اراقة دماء أو انتهاك لمبدأ أخلاقي سامى فى نظر العالم . انه لمن المستحيل القضاء على بشر باحترام أكثر من ذلك لقوانين البشرية (X) .

وحتى اذا صرفنا النظر عن الهنود ، فقد كانت حياة الرواد الاول مليئة بأشد الصعاب ولم يكن يعينهم عليها فى المراحل الاولى سوى الحرية والامل . وكثيرا ما تبين آخر الأمر أن الأمل لم يكن سوى وهم وخداع . وكانت مشاق الحياة فى الشمال أكثر منها فى الجنوب بسبب الشتاء القارس من ناحية وعدم وجود عبيد من ناحية أخرى . ورغم ذلك فقد كان الشمال خيرا من الجنوب للمفقر الذين لا يستطيعون اقتناء العبيد ، لانهم كانوا يعتبرون فى الجنوب أقل شأنا من الناحية الاجتماعية من ملاك العبيد . فأبو لنكولن انتقل فى سنة ١٨١٦ من كنتكى الى انديانا وابتعد بذلك عن حياة الحدود ، وقد بنى لذلك الغرض طوفا حمل عليه كل ما ملكت يده وكان هذا يتكون من حقيبة أدواته وأربعمائة جالون من الويسكى . وانقلب الطوف ولكنه استطاع انقاذ معظم حمولته . وتوغل فى الغابة من آخر منزل من منازل المستوطنين ، وشسق لنفسه طريقا بين الاشجار حتى وصل الى بقعة أعجبتة فوضع أدواته والويسكى ، ثم لحقته زوجته وولده بعد فترة ومعهم بعض الفراش والاوانى . وعاشوا ثلاثة أيام فى كوخ ذى ثلاثة جدران تهب عليهم الرياح وتهطل الامطار والثلوج من الجانب الرابع . ومهد فى هذه الاثناء قطعة من الارض ليزرعها بعد أن قطع أشجارها وأقام كوخا خشبيا صالحا للسكنى ، « وان لم ير من الضرورى أن يزوده بنوافذ أو أبواب أو حتى بأرضية صالحة » . ويقول نيكولاى وهائى : ان كوخة كان مثل أكواخ غيره من الرواد يحتوى على بضعة مقاعد ذات ثلاث فوائم ، وسرير من فوائم ثبتت فى جدران زاوية من زوايا الكوخ ويرتكز طرفه الخارجى على عصا غرست فى الارض ، والمنضدة وهى قطعة ضخمة من الخشب تقوم على أربعة فوائم ، وبعض الاوانى من القصدير . وهذا هو كل ما كان يحتويه الكوخ . وكان الصبى ابراهام يتسلق الى فراشه فى أعلى الكوخ على سلم مكون من أوتاد خشبيه ثبتت فى الجدار » . وهنا ماتت أم ابراهام بعد أن أصيبت بالحمى كما مات الكثيرون غيرها فى هذه المنطقة .

ذلك أن الملاريا ، وغيرها من الحميات ، كانت منتشرة جدا فى الغرب . ويعزز نيكولاى وهائى بعض كآبة لنكولن الى هذا السبب . فهما يقولان : « ان هذه الكآبة التى لازمتها لم تكن شيئا تفرد به لنكولن ، ونستطيع ان نقول انها

(X) حين يقول ده تكليل « دون اراقة دماء » فانه يجانبه الصواب .

كانت وباء مستوطنا بين المستعمرين الاوائل في الغرب . وهى ترجع بعض الشيء الى ظروف حياتهم ، والوحدة الكثيية والمشقة التى كانت معظم الوقت طابع كفاحهم فى سبيل البقاء . . . والى جانب ذلك النزوع الى الكتابة الذى كان عاما بينهم ، تعرض عدد كبير منهم للملاريا فى مستهل حياتهم وظلت آثارها فيهم الى آخر أيامهم . . . وقد مات الكثيرون منهم ، أما من بقى على قيد الحياة فقد ظل عدد كبير من بينهم بعد أن تخلص من آثار الملاريا المباشرة يعانى الآثار السيئة للمرض الذى أصيب به فى طفولته فى صورة اضطرابات عصبية من جميع الأنواع « (١) » .

وكانت حياة الرواد فى الجنوب سهلة نسبيا . فقد استطاع أندرو جاكسون ، الذى لا يوجد دليل على انه كان ماهرا فى ميدان الاعمال ، ان ينتقل بسرعة من اليأس الى حالة أصبح فيها صاحب أرض واسعة وعدد من العبيد . وقد حقق ذلك عن طريق اشتهاله بالمحاماة (٢) - ولم تكن مؤهلاته تتضمن المعرفة القانونية - واستثمار اتعابه فى الارض . وذهب الى تينسى سنة ١٧٨٨ شابا فى الحادية والعشرين من عمره لا يملك شروى تفر ، « وبعد ثمان سنوات من وصوله صار من أغنى الرجال فى المنطقة » (٣) . وكانت الصعوبات الرئيسية فى الجنوب هى الهنود والاسبان والحمى . ولكن الامر لم يكن يتطلب من الانسان قدرة فى التحمل الجثمانى بمفرده كما كان يتطلبه الشمال .

ونشأ بالضرورة عن ظروف الحياة على الحدود هبوط مؤقت فى المستوى الثقافى للرواد وأطفالهم . فلم تكن هناك مدارس ولا كنائس ولا رجال تعليم ، الى جانب النضال المرهق مع المجاهل وقلة الكتب وكثرة الويسكى ، وقد جعلت كل هذه الاشياء الرجال ينسون ما كانوا يعرفونه ويعجزون عن تعليم أطفالهم شيئا من معرفتهم السابقة . وعاد الاعتقاد فى السحر والغال الى الظهور ، فالاسوار تقام عندما يكون القمر باديا ، ولكن البطاطس تزرع عندما لا يكون القمر فى السماء (٤) وكان معظم الرواد وخاصة النساء شديدى التدين ، وكان عدم وجود الكنائس يضايقهم . فكانت تعقد اجتماعات فى العراء من وقت لآخر يعظ فيها رجال دين متجولون ، وهذا كل ما كان هنالك لسد الحاجات الروحية للمناطق القليلة السكان . وكان المجتمعون يجيئون من دائرة قطرها خمسون ميلا تدفعهم الحماسة الدينية والرغبة فى التخلص من الوحدة ، وتظهر عليهم أغرب الاعراض الهستيرية - ويتمرغون على الارض ويطلقون صيحات غريبة ويصابون بالغيوبة . وهذه الظاهرة كلها من سمات السكان الزراعيين الذين يعيشون فى عزلة ، فقد كانت موجودة فى ألمانيا فى

(١) ابراهام لتكوين - تاريخه الجزء الاول ص ١٨٩
(٢) يقول كانت سيرته باسست فى كتابه « حياة أندرو جاكسون » انه مما لاجدال فيه ان معلوماته فى القانون كانت قليلة

(٣) نفس المرجع ص ١٧

(٤) نيقولا هاى - المرجع - السابق - الجزء الاول ٤٦ - ٤٢ .

القرن السادس عشر وفي انجلترا في القرن السابع عشر وفي سيبيرية راسبوتين
في القرن العشرين . ولكنها ادهشت مسز ثرولوب لتي وصفتها وصفا شيقا
واضحاً كل الوضوح (X) .

وليس ما يدعو الى الدهشة في فتح الغرب هو أن هذا الفتح قد صاحبه
هبوط مستوى الثقافة مؤقتاً بل هو السرعة التي عوض بها هذا الهبوط بعد
أن مرت مرحلة الرواد الاولى . ويرجع ذلك الى عدة أسباب يبدو أن أهمها كان
النساء والقانون والسياسة . هذا فضلا عن اخلاق الناس بوجه عام .

وكان تأثير النساء في الولايات المتحدة ، ولم يزل حتى الآن - أكبر منه
في أى بلد آخر ، وكان تأثيرهن في المجتمعات التي عاشت على الحدود من عواهل
نشر المدنية . ويرجع ذلك الى انهن لم يكن يشربن الويسكى ، والى رغبتهن في
التفوق الاجتماعي ، وعظفهن الاموى ، والى انهن كن أقل تشبعا من أزواجهن
برغبة في المخاطرة العنيفة وفي التخلص من قيود المجتمع المصطنع غير الطبيعي .
وكان النساء على الحدود بطبيعة الحال أقل من الرجال وقد ساعدهن ذلك على
أن يلزمن الرجال باحترامهن . وعلى الرغم من أن الاجتماعات في العراء كانت
عاصفة فإن الدين كان في الغالب من عناصر التهذيب ، وكان النساء في
المتوسط أسد تدينا من الرجال . ولكل هذه الاسباب حافظت النساء على جذوة
الرغبة في كيان منظم حتى في ظل ظروف جعلته ، بصفة مؤقتة ، مستحيلا .

ويمكن تصوير هذا التأثير المتمدين بزوجة أبى لنكولن التي تزوجها
وابنه في العاشرة من عمره . ولعلنا نذكر أن الكوخ الخشبي ترك بلا نوافذ
ولا أبواب ، فأصلح ذلك على الفور . وأحضرت السيدة أسرة وملايس للاطفال ،
وانضم زوجها الى الكنيسة المعمدانية ، وحظى ابراهام بالقدر الممكن من التعليم
في الجهة ، ولم يكن ذلك كثيرا ، لأن الدببة كانت هناك أكثر من المدرسين .
فهو لم يقض في حياته كلها سوى سنة واحدة في التعليم ، ولما أن بلغ أشده
جعله أبوه يعمل في الحقل . وفي المساء كان يقرأ الكتب الوحيدة التي استطاع
الحصول عليها : الكتاب المقدس وخرافات ايسوب وروبسون كروزو ورحلة
الحاج وحياة واشنجتون ودستور انديانا المنقح . وكان
عليه فيما عدا ذلك أن يعتمد على مجهوداته الخاصة ، ولكن الخطوات الاولى ،
التي خطاها عندما كان أصغر من أن يعتمد على نفسه ، كان مدينا بها لزوجة
أبيه .

ربما هو جدير بالملاحظة أنه يقول في خطاب الى احدى الجرائد كتبه في
حملته الانتخابية سنة ١٨٣٦ ما يأتي : « انى أزيد منح حق الانتخاب لجميع
البيض ممن يدفعون ضرائب أو يحملون السلاح (دون استبعاد النساء بأية
حال) » . وقد كان هذا الرأي عجيبا حقا منذ مائة عام .

وقد بلغت الحركة التي تهدف الى منح النساء حقوقهن مرحلة السياسة العملية أولا في غرب أمريكا . ففي سنة ١٨٤٦ تضمن اقتراح دستور لولاية وسكونسن حق المرأة المتزوجة فيما تملكه ، ورفض ذلك ، ولكن تقرر لهن نفس الحق في تكساس في السنة ذاتها وفي كاليفورنيا في سنة ١٨٤٩ (X) . وكانت أول ولاية منحت النساء حق التصويت ولاية وايومنغ في سنة ١٨٩٠ . ولم يتم ذلك في أوروبا وفي شرقي الولايات المتحدة الا نتيجة للحرب الكبرى .

وكان القانون والسياسة عاملين قويين في تنمية الاتصال بين المستعمرين في الغرب والمفكرين في الشرق . فقد أثار الدستور وقانون سنة ١٧٨٧ تكهنات كثيرة فيما يتعلق بمستقبل الولايات والاقاليم . ونشأ بسببها في كل مكان وجد فيه عدد كاف من السكان حكم ذاتي يهذبه الدستور كما فسرتة المحكمة العليا . وهبأ الحكم الذاتي فرصه للتربية السياسية ، كما نهبت الحملات الاتحادية الناس الى آراء المناطق الاكثر استقرارا في مسائل ذات أهمية قومية . وكانت بعض القضايا تنظر في ظروف خاصة أمام المحكمة العليا ، كما أن قضايا كثيرة كانت تتضمن حقوقا مهمة ويحتاج النظر فيها الى مهارة قانونية كبيرة . وكان معظم الرجال النابهين في ولايات الحدود من المحامين ، كما أن الحاجة الى محامين كانت هي السبب الاساسي في أن رجال التعليم استقروا في أول الامر على حدود المدينة . وكان للقانون شأن كبير في حياة المدن وكان ينفذ عادة بطريقة قاسية عاجلة على يد الرواد أنفسهم . فكانت المحاكم تعقد غالبا في كوخ خشبي ينسحب منه المحلفون الى طريق جانبي مجاور حيث يتداولون في الحكم . وكانت رغبة الاشتراك في ادارة الشؤون المحلية عامة ، وكانت هي الباعث الرئيسي على تحصيل المعرفة .

وقد أدرك الناس في أمريكا أهمية المدارس والجامعات في وقت مبكر . ففي سنة ١٧٨٠ قرر المجلس التشريعي في فرجينيا ، وهو في خضم مشاكل حرب الاستقلال ، منحة مالية لانشاء جامعة كنتكي « لأن مصلحة هذا المجتمع أن يشجع ويؤيد كل مشروع يهدف الى تنوير العقول ونشر المعرفة المفيدة حتى بين المواطنين الذين يعيشون في الاماكن المتطرفة ، والذين قد يجعلهم وجودهم وهي ذلك العصب الحقي الذي يكسب الاطار كله حيويته » (X) . أن في هذا ما يشتم منه رائحة جفرسون ، وعلى الرغم من لفظ « المعرفة المفيدة » الذي جاء ذكره فان الفرار كان أقل اهتماما بالفائدة من الدعوة الى التعليم التي جاءت في عهد لاحق . ولكن هذه السياسة اتبعت في أساسها حيثما أمكن تحقيقا وانتهت الى نظام جامعات الولايات في ولاية .

(X) تاريخ شعب الولايات المتحدة « ماك ماستر الجزء السابع ١٨٤ - ٢٠١ ، ٩١١

(X X) نيقولا وهاي ، المرجع السابق الجزء الاول ١٥ - ١٦ .

وكانت مشكلة المدارس مشكلة صعبة ، ولم يكن سبب صعوبتها قلة السكان فحسب ، بل أيضا بسبب الهجرة الاجنبية . فقد كان في الولايات المتحدة من الاميين في سنة ١٨٥٠ ضعف ما كان فيها سنة ١٨٤٠ ، اذ أنهم كانوا في سنة ١٨٤٠ بنسبة شخص واحد في كل واحد وثلاثين شخصا من مجموع السكان ، بينما صاروا في سنة ١٨٥٠ بنسبة شخص واحد الى كل أربعة وعشرين (١) . ومن الطريف أن نذكر أن روبرت أوين ابن أوين كان أكثر المطالبين بالتعليم العام نشاطا (٢) . وكانت المدارس في الشمال خيرا منها في الجنوب حتى في المناطق الاقل سكانا . « لقد كانت متشيجان من وجوه عدة نموذجاً لولايات الحدود في الشمال الغربي . ومع ذلك فقد كان في سنة ١٨٥٠ مكتبات أكثر ، وجرائد ودوريات أكثر ، ومدارس عامة أكثر من أركنساس وميسوري ، وكان الاميون من البيض فيها أقل منهما (٣) » . فكانت هناك مدارس في كل القرى تقريبا ، الا أن المدرسين كانوا يتقاضون مرتبات ضئيلة : فقد كان المدرس من الرجال يتقاضى خمسة عشر دولارا في الشهر وكانت المدرسة تتقاضى دولارا وربع في الاسبوع . وكانت المدارس مجرد أكواخ خشبية ، ولكنها كانت تكفي لان تعلم كل الاطفال تقريبا القراءة والكتابة .

وحدثت مع ذلك خسارة دائمة في نوع الثقافة ، كما يحدث دائما عندما تقع أحداث تقطع السير العادي للامور . فالثورة الفرنسية أنزلت بالثقافة الفرنسية ضربة لم تقف منها كل الافاقه قط ، وأكبر الظن أن هذا بعينه قد حدث في روسيا . وكان مؤسسو الولايات المتحدة يقفون من التراث الفكري موقف القوم المتحضرين ، وهو موقف طبيعي ومقصود في وقت واحد ، وقد كان فرانكلين وجفرسون يعاملان باحترام في باريس في أكثر الاوساط الاجتماعية التي عرفها الانسان ذكاء . وكانت المدينة التي ظهرت في كل مكان من الغرب انقضت فيه فترة الرواد الاولى أكثر وعيا بذاتها ، وليست لها جذور كافية من التقاليد ، وأقرب الى أن تكون آلية ، كما أنها كانت نفعية أكثر مما يجب وذلك لانها كانت مضطرة لأن تبرر نفسها أمام ديموقراطية فجأة بعض الشيء . ان ذلك النوع من التعليم الذي يمكن اثباته بالشهادات والدرجات مرغوب فيه جدا ، ولكن أساتذة الجامعات يتمتعون باحترام أقل من زهلائهم في أوروبا : فهم في الجامعات الحاضرة لسلطان الدولة معرضون لأهواء دافعي الضرائب ، وفي الجامعات الاخرى يخضعون للمصالح المالية لمجلس ادارة مكون من رجال الاعمال . ونتيجة ذلك أن علوم الدين في الجامعات الاولى والاقتصاد في الثانية لا يعالجان بالامانة الكاملة . ولسنا ننكر أن هذه الشرور وأمثالها

(١) تاريخ الولايات المتحدة شانج ص ٢٧١

(٢) نفس المرجع ص ٢٥٠

(٣) مالك ماستر - المرجع السابق ص ١٩٩

موجودة في غير أمريكا ، ولكنها ضرور ما كان يجب أن تقوم لها في أمريكا :
قائمة لانها تناقض التقاليد الجفرسونية ، وما كانت لتوجد لو أن الايمان
الجفرسونى بالحرية العلمية ظل باقيا .

وهناك أثر آخر لمرحلة الرواد الاولى ، هو أن النواحي غير النفعية في
الثقافة أصبحت تعتبر من شئون النساء وحدهم أو يكاد يكون كذلك . ولما
كانت الغالبية العظمى من النساء لم يدرسن التصوير أو الادب أو الفلسفة
دراسة المحترفات ، بل اهتمن بها جميعا اهتمام هواية ومتعة عقلية لأكثر ،
فقد نشأ عن ذلك أن اتسمت كل هذه النواحي بالسطحية واقترنت دراساتها
على المحاضرات العامة منذ وقت مبكر . وقد ترك الشرق ، بقدر ما ترك الغرب
تقريبا ، الثقافة للنساء ، لأن الأعمال المالية والتجارية كانت تستغرق مجهود
الرجال ، ولكن العمل الذى استغرق اهتمامهم كان متصلا الى حد بعيد بفتح
الغرب . ويشتهر ماك ماستر (X) بنبذة من جريدة « فلادلفيا لوجر » عن
وسائل التسلية الفكرية التى حدثت في فلادلفيا خلال ثلاثة أيام من سنة ١٨٤٢ :

« موعظة ألقاها أحد كبار المورمون ، محاضرة في الجيولوجيا القاها ليل ،
محاضرة في الزواج والحطبة القيت في مؤسسة ويلبرفيسك الأدبية ، محاضرة
عن الهيغونوت في معهد وليم وست ، وعن الاشتراكية في قاعة الاخوان المتحدين
للتقدم الانساني ، وعن وجود الأشباح في اللوفيون الجنوبي ، وعن المغناطيسية
الحيوانية أمام جماعة مكتبة جفرسون والجمعية الأدبية ، وعن نابليون في معهد
رشموند ، ومناقشة موضوع (هل يجب القاء عقوبة الأعدام ؟) في معهد كارول»

وقد ظل الأمريكيون حتى يومنا هذا شعبا من المستعمرين في ميدان الثقافة ،
وخاصة نساؤهم ، أما في الجانب النفعى فقد حققوا تفوقا ممتازا . فقد تفوقت
أمريكا في الطب والقانون والهندسة المعمارية والاختراعات الميكانيكية ، ولكن
معظم التقدم في دراسات مثل العلوم الرياضية والنظريات الطبيعية كان أوروبيا .
ويقول كاتب انجليزى في سنة ١٨٢١ في وصف آمال الأمريكيين في المستقبل :
« ان الشعوب الأخرى تفخر بحاضرها أو بماضيها ، ولكن المواطن الأمريكى
الحقيقى يرفع رأسه في السماء متأملا العظمة التى ستكون عليها بلاده في
المستقبل . ويطالب الآخرون بالاحترام والمجد لما حققته سلسلة طويلة من
الأجداد ، ولكن الأمريكى يجد مجده فيما سيحققه أحفاد أحفاده في المستقبل
البعيد . ان غير الأمريكين يرجعون الى التاريخ ، ولكن الأمريكى يلجأ الى
النبوءات ، وهو يتحدانا بجرأة ، وفي احدى يديه كتاب مالتس وفى الأخرى
خريطة لمجاهل أمريكا ، ان نعقد مقارنة بين بلادنا وأمريكا كما ستكون ،
ويضحك فى سرور لما تضيفه النسبة الهندسية على مستقبل بلاده من روائع
وهذا التطلع الى المستقبل هو مصدر لا ينقطع لشعوره بالتفوق . . . واذا تدمر

سماح انجليزى من الفنادق وأشار الى نفوره من النوم مع ثلاثة آخرين فى قراش واحد ، اتهم أولا بأنه معتاب تمام ثم قيل له أن ينتظر مائة سنة ثم ينظر الى تفوق الفنادق الامريكىة على البريطانىة . واذا ذكر شكسبير وملتون ونيوتن ، قيل له مرة أخرى (انتظر حتى تنتهى من تنظيم أرضنا ويصبح لدينا وقت فراغ للاهتمام بالمسائل الأخرى ، انتظر حتى سنة ١٩٠٠ ثم انظر الى أى حد يتفوق شعراؤنا « وعلماؤنا ونظاراتنا المقربة على أى شىء تستطيع بلادكم العجوز القانبة أن تنتجه (X)

وقد صدقت النبوة فيما يتعلق بالفنادق والنظارات المقربة ، فأمرىكا الآن متفوقة فيها على أى بلد آخرى فى الدنيا . أما فيما يتعلق بشكسبير وملتون فلم تصدق النبوة . فشكسبير وملتون لم يرس لهما نظير فى الدنيا الجديدة ، أما نيوتن فان أقرب نظير له أوروبى وليس أمريكى .

ولم يتم احتلال الأرضى الحرة فى الغرب حتى قرابة عام ١٨٩٠ - باسمثشاء اكلاهوما التى ظلت مدة طويلة اقلما هندية ، الا أن مصاعب الحياة على الحدود قلت كثيرا بعد انشاء السكك الحديدية ، واضطر الرواد لمواجهة مشاكل جديدة ، ان الميسيسيبى وروافده ، نجرى بصعة عامة من الشمال الى الجنوب ، بحيث كانت أهم صلات لآى منطقة من مناطق الغرب تتم مع مناطق تقع الى جنوبها طالما بقيت وسائل النقل الرئيسية هى الماء ، غير انه بعد انشاء السكك الحديدية أخذت وسائل الانتقال تجرى بين الشرق والغرب . بل ان هذا قد بدأ قبل السكك الحديدية عندما فتحت قناة ايرى سنة ١٨٢٥ ، ولكن الغرب ظل يعتمد أساسا على الميسيسيبى حتى عهد السكك الحديدية .

وكان الانتقال عبر النجبال والودية ينسجم فى الأيام الأولى بالاعتماد على الغريزة فى السير كما كان الجرمانيون القدماء لا بد يفعلون فى هجرتهم . وقد غارض جورج الثالث الهجرة ، ولم ترحب بها فى أول الأمر الولايات الشرقية التى كان هذا الانتقال يخليها من السكان . ولم يشغل المستوطنون الأوائل بالتجارة الا قليلا ، فقد كانوا ينتجون حاجاتهم بأنفسهم - غاللا لغذائهم وجلود الغزلان للابسهم ، وكنلا خشبية لمساكنهم . ولم يطلبوا الى العالم شيئا الا أن يتركهم وشأنهم . ثم حدث تغيير كبير عندما انتقلت الحدود من منطقة الغابات الى منطقة البرارى ، لقد أصبح الاقتصر على زراعة الحبوب وارسالها بالسكك الحديدية الى الشرق للسكان الجائعين فى أوروبا مقابل الحاجات الضرورية للحياة وقدر متزايد من الكميات ، أصبح هذا أعود عليهم بالريح ، ولكن واجهت الرواد فى هذه المرحلة صعوبا لم يكونوا أكفاء لها من ذلك أنه على الرغم من أنهم كانوا يستطيعون زراعة الحنطة كما يشاؤون فانهم ماكانوا يستطيعون نقلها وتصديرها الا بالسكك الحديدية . وحيرتهم القوى

الاقتصادية المنظمة الهائلة • وحتى قبل السكك الحديدية وضعتهم المصارف المالية أمام المشكلة نفسها • وبين هجوم جاكسون على مصارف الولايات المتحدة وحملة « الفضة الحرة » التي قام بها برابان ، كافح الغرب كفاحا أعمى لاجدوى منه للسيطرة على المشروعات الكبرى مستعينا بمبادئ ديمقراطية فردية •

ولقد كان الرجال الذين غزوا الغرب يتحلون بالشجاعة والصبر والصلابة والامل والاعتماد على النفس وكانت لديهم غريزة أساسية تدفعهم نحو المجتمع المتمددين • ولكي نفهم ما حققوه ينبغي أن نقارنه بما حدث في معظم أنحاء أمريكا اللاتينية ، حيث ضاع خيط رفيق من الدم الابيض بين الهنود والزنج تاركاً الغابات الاولية على توحشها ، بينما ظلت الحكومات القائمة هناك مزيجاً من الفوضى والاسمبنداد • وكانت تضم المستوطنين في غرب الولايات المتحدة أغراض جماعية معينة لم يكن هناك ضرورة لذكرها لانها كانت عريضة يشترك فيها الجميع • لقد كانت رغبتهم الاولى والاساسية غزو الارض ، ولما تم لهم ذلك ، أرادوا مجتمعا من المواطنين الاحرار المتساوين يخضعون لحكم الاغلبية عندما نكون هناك ضرورة لحكم ، ولكنهم يظنون بعبيدين عن تدخل الحكومة بقدر الامكان • وقد نجحوا في غزو الارض ، ونجحوا في المحافظة على الحرية السياسية ، ولكن الحرية الاقتصادية ضاعت بطريقة نستطيع ان نرى الآن أنها كانت حتمية • لقد قاموا بعملهم خير قيام ، ولكن فلسفتهم كانت تعتمد في نجاحها على المساحات الحالية الواسعة ولا تستطيع حل مشاكل عالمنا الاكثر عنفاً ازدحاماً •

٣ - ديموقراطية جاكسون

الفصل الثالث والعشرون

ديموقراطية جاكسون

استولى الغرب لأول مرة على السلطة السياسية عندما انتخب أندرو جاكسون رئيسا للجمهورية سنة ١٨٢٨ . وظهر في عهده نوع جديد من الديموقراطية ، أكثر ديموقراطية من التي نادى بها جفرسون . وكان رؤساء الجمهوريات حتى ذلك الوقت أربعة من فرجينيا - واشنطن وجفرسون وماديسون ومونرو ، واثنين آخرين هما آدامز الاب وآدامز الابن . وكانوا كلهم من الشرق ، وجميعهم متعلمون ومن ذوى الثقافة التقليدية ، وهم من ذلك النوع من الرجال الذين ربما كانوا خليقين بأن يحكموا الولايات المتحدة لو أن ديموقراطيا كان أرستقراطيا . وكان ماديسون ومونرو أصدقاء حميمين لجفرسون ، وبدأت «الاسرة الحاكمة الفرجينية» تبدو قوة ثبتت دعائمها فى الشؤون السياسية . ومع ذلك فقد انقضت الاسرة الحاكمة وحصل جاكسون وهو جنوبى ، على تأييد الجنوب كما حصل على تأييد الغرب . هذا بالإضافة الى أن الشعور الديموقراطى النامى فى بنسلفانيا ونيويورك حول الغالبية فى هاتين الولايتين الى جانبه ضد ج . ك . آدمز الذى كان القوم يشعرون بأنه يمثل التقاليد القديمة ومبادئ نيو إنجلند المحافظة . وبينما لم يكن رجل يستطيع أن يصير رئيسا فى ذلك الوقت بمؤازرة الغرب وحده ، فإن جاكسون أدخل المثل والمشاعر الغربية فى الحكم ، ولكنها كانت مثل الجنوب الغربى حيث كان يوجد أرق وكانت تختلف عن مثل الشمال الغربى التى تمثلت فى إنكولن فيما بعد .

وكان (x) أبو جاكسون إيرلندا من أتباع الكنيسة المشيخية ، هاجر الى كارولينا الشمالية مع زوجته وابنيه سنة ١٦٧٥ . وفشلت جهوده فى أن يكسب عيشه عن طريق الزراعة ، ومات سنة ١٧٦٧ وولد ابنه اندرو بعد ذلك بقليل ، وان لم يعرف آكان مولده فى كارولينا الشمالية أم فى كارولينا الجنوبية . وعملت الارملة ، التى تركها زوجها فى فقر مدقع ، مديرة لمغزل شقيقتهما التى كانت على شىء من اليسار ، فقد كان زوجها مزارعا ضمن جماعة من كارولينا مكونة فى الغالب من مهاجرين بروتستانتيين من شمالى إيرلندة . وكانت رغبة أم أندرو أن يصير ابنها رجل دين ولكن ميوله كانت فى اتجاه آخر . ويقول مترجم حياته : لقد كان أندروز بين الفتيحة الجامحين فى الجيرة أكثرهم جموحا . فقد أغرم بسباق الخيل وقتال الديكة والشجار العنيف مع

(x) المعلومات التالية المتعلقة بحياة جاكسون معقلها مأخوذة من كتاب «حياة اندرو جاكسون» ١٩١٦

الصبية الآخرين . أما من حيث التعليم فلم يكن مجدا أو قابلا له ، وأكثر ما استطاعه أن يعرف القراءة والكتاب والعمليات الحسابية السهلة ، ولكنه ظل حتى آخر حياته لا يستطيع الهجاء الصحيح ولا اتباع قواعد النحو في الكتابة .

وفي نفس الوقت كانت حرب الاستقلال مشتتة الاوار بالقرب من موطنه . وقتل أحد أخويه في المعركة ، ومات الثاني اما من الجدري أو من جروحه ، وماتت أمه من حمى أصابتها وهي تقوم بتمريض الجنود المرضى . وقد مات هؤلاء جميعا في سنتي ١٧٨٠ و ١٧٨١ . وقاتل الفتى آندرو خلال هذين العامين الانجليز على الرغم من أنه لم يكن قد تجاوز الثالثة عشرة من عمره ، وأسر في سنة ١٧٨١ ، وأمر الضابط البريطاني الذي كان يتولى القيادة « الفتى آندروز بأن يسمح خذاه . فرد الفتى ، ونستطع أن نتصور بآية لهجة ، بأنه أسير حرب وليس خادما . وكان الرد على ذلك ضربة من السيف موجهة الى رأس الاسير الصغير ، ولكنه حمى رأسه بذراعه . وقد ظلت يده ورأسه يجملان أثر الضربة حتى وفاته » . وبعد أن أطلق سراحه في عملية من عمليات تبادل الاسرى ، ترك معتمدا كل الاعتماد على نفسه ، فعبر الجبال الى شارلستون حيث صادق فتيناغا أغنياء يهتمون بسباق الخيل ، ويبدو أنه كان يعيش من المراهنة . ولم يذكر مترجم حياته أنه كان « سمسار مراهنات » ولكن الامر يبدو كأنه يوحى بذلك . كما أن هناك ما يدل على أنه اكتسب ذلك الاسلوب المهذب في السلوك ، الذي بهر به واشنطنون في الظروف المناسبة بعدئذ ، من مخالطته بعلىة القوم من المهتمين بالسباق في شارلستون .

غير أن شارلستون لم تنفق وميوله ودفعه طموحه الى اتخاذ مهنة أكثر جدية . وقرر في سن السابعة عشرة أن يشتغل بالقانون وصار يدرس القانون في مدينة تدعى سالسبورى حيث كان على ما يقول أحد من عرفوه في ذلك الوقت « أشد من عرفته سالسبورى طوال تاريخها صخبا وجموحا وأكثرهم شغفا بصراع الديكة ولعب الورق ، وأشدهم خبثا ورغبة في الاذى » . وبعد مضي ثلاث سنوات بدأ في سنة ١٧٨٧ يمارس الاشتغال بالقانون في كارولينا الشمالية ، ولكن لم يمض عليه اننا عشر شهرا حتى كان قد قرر أن ينتقل غربا ، واستقر في ناشفيل في تينسي التي صارت موطنه بقية حياته الطويلة .

وكان وادي كمبرلاند الذي يضم ناشفيل ما زال حتى سنة ١٧٨٨ في حالة غير مستقرة . فقد كان الهنود ، يثيرهم الانجليز أولا ثم الاسبان بعد ذلك ، لا يفتأون بهاجمون الامريكيين كلما لاحت فرصة . وهزمهم الامريكيون في سنتين متتاليتين ١٧٩٣ و ١٧٩٤ ، وفي سنة ١٧٩٥ أبرمت معاهدة مع أسبانيا فتفتحت للولايات المتحدة طريق الملاحة في الميسسبى . وكانت هذه الاحداث سببا في ازدهار تينسي وأصبحت ولاية في سنة ١٧٩٦ بعد معارضة شديدة في مجلس الامة من جانب الاتحاديين .

وفي نفس الوقت زاد جاكسون ثراء مع زيادة الرخاء في المنطقة .
فعندما وصل الى ناشفيل لم يجد فيها الا محاميا واحدا استقر فيها قبله ،
وكان هذا المحامى وكيفا باستمرار عن المدينين فى البقاع المجاورة ولهذا لم
يستطع الدائنون أن ينالوا العدالة . فالتجأوا الى جاكسون الذى نجح فى
قضاياهم . وكانت وسائله فى ممارسة عمله مختلفة بعض الشيء عن الوسائل
التي يتبناها كبار المحامين فى مدن أكثر من مدينته استقرارا .

« فقد كان المدعى عليهم ينزعون الى المشاغبة وكثيرا ما كانت تؤيدهم
عصابات من رفاقهم يجعلون حياة المدعى شاقة ومحفوفة بالمخاطر ، وكانت
شجاعة جاكسون المادية لا تقل عن شجاعته الادبية . . ولم تكن اللغة الريدئة
والنطق غير السليم والاتهامات العنيفة لتروع القضاة والمحلفين أو تجعل أذهانهم
تحيد عن الحقيقة » . وكانت تصرفاته فى أوقات فراغه تدعو أيضا الى الإعجاب ،
« فقد كانت جياده أسرع الجياذ ، وديكته أشهر الديكة ، ولم يكن يخاصم
سوى النابهين من الرجال ، وكانت عباراته النابية تقذف اليأس فى قلوب
جميع شبان الوادى » . واختاره جيرانه أول ممثل لهم فى مجلس الامة سنة
١٧٩٦ اعترافا بفضائله المختلفة . وصار فى العام التالى عضوا فى مجلس
الشيوخ ، وفى العام الذى تلاه صار قاضيا فى محكمة تنسى العليا . وقد قام وهو
فى منصبه هذا بالقبض شخصيا على مجرم شرير كان يتحدى الأمور وأعوانه .
ذلك أنه لم يكن من الخير لانسان ما أن يكون متخصصا جدا فى مدينة من مدن
الحدود ، وكان جاكسون يستطيع أن يقوم بعمله بنفسه أيا كان نوع هذا العمل .
وكان مظهره يوحى بالرهبة كما توحى بها غداراته : فقد كان طويلا منتصب
القامة أصفر اللون وكانت عيناه شديدتى الزرقة نفاذتين .

ولم تكن مطالب مهنته كثيرة بحيث لا تترك له وقتا للحب . فقد أسس
مستعمرة كمبرلان ، التى صارت فيما بعد تنسى ، رجلان - روبرتسون
ودونلسون . ومات ثانيهما قبل أن يصل جاكسون الى ناشفيل « مات فعلا
ضحية لانquam الهنود الحمر وكانت زوجته تؤجر غرفا فى منزلها للراغبين فى
السكنى » . وكان جاكسون أحد السكان عندها . وكان للأرملة ابنة لها
زوج ، وكان الزوج منحطا دنيئا فجات الابنة لتسكن مع أمها . واصطلح
الزوجان صلحا ظاهريا وجاء الزوج ليعيش فى ناشفيل . ولكنه بدأ يشعر
بالغيرة من جاكسون على الرغم من أن جاكسون أكد له أن غيرته لا أساس لها .
ورحل الزوج مقسما أن ينتقم لنفسه ، وخيم الحزن على السيدة وأحبها جاكسون
وفى سنة ١٧٩١ بلغه أن زوجته حصل على اذن بطلاقها فتزوجها ، ولكن
الحقيقة أن الزوج لم يحصل على الطلاق الذى لم يتم الا بعد ذلك بستتين وعلى
أساس أنها ارتكبت جريمة الزنا مع جاكسون . فلما عرف الامر تزوجها
جاكسون ثانية . وعاشا سعيدين أتم السعادة حتى وفاتها التى حدثت بعد
انتخابه للرئاسة مباشرة . وقد كان خصومه طرأا المعركة الانتخابية بشيوعون

بأنه رجل لاخلاق له وأنه كان يعيش مع امرأة متزوجة بالآخر ، وحال جاكسون .
بشهامته بين هذه الاشاعة وبين أن تبلغ مسامعها . ولكنها اكتشفنها بطريق
الصدفة ، ويقال ان ذلك كان مما عجل منيها .

وكان حظه في أصدفائه أقل من حظه في الحب . فقد كانت شخصيته .
تشبه شخصبة الملك نير : فلم يكن يستطيع التمييز بين الاصدقاء الحقيقيين .
والمداهنين ، وكان يستشيط غضبا عندما يتيين أنه منح الخونة عواطفه . وكان
مولعا بالشجار على الدوام ، ولم يكن بأى حال من الاحوال حكيما في اختيار
من يصب عليهم جام غضبه . مثال ذلك أنه بعد أن سئم المحاماة أصبح قائدا
عسكريا يتحرق شوقا الى الرقى فى سلك الجندية فى لحظة بدت الحرب فيها
وشبكة الوقوع (سنه ١٨٠٧) ، ولكنه اختار هذه اللحظة بالذات ليواجه وزير
الحربية ويربورن بحقائق قاسية خاصة بالشئون الداخلية . ذلك أن جاكسون
كان فى ذلك الوقت صديقا لآرون بير الذى كان مشتركا فى مؤامرة اعتيرتها
الحكومة خيانة ، وكنت ويربورن خطابا الى جاكسون فى هذا الصدد ، ولم
يرق الخطاب لجاكسون فأرسل اليه الرد التالى :

« ان الواجب الاول من واجبات الجندى أو المواطن الصالح هو الاهتمام
بسلامة بلاده ومصالحها . وواجبه الثانى أن يهتم بمشاعره عندما يعندى عليه .
بغلظة وبغير حق . وتلك هى لهجة خطابك وتلميحاتك فيه نزعجتى ، فأراؤك
وتلميحاتك تخالف مايجب أن ينصف به الجندى ، قصص يشار اليها وتاميمات
عن تصرفات خلقية فيها انحطاط . بأخلاق قائد عسكري الى أخلاق قاتل
مشاحن . (ثم بعد ذلك) . سببى : سأرسل لك مع هذا صورة خطاب من
الحاكم كالبيرون يبين لك أنى لم أحد أبدا عن واجبى الصحيح نحو بلادى ،
حتى عندما أظن أنها أساءت الى .

مع احترامى وتمنياتى لك بالصحة .

أندرو جاكسون ،

ثم أضاف بعد ذلك حاشية (لعله لم يرسلها مع الخطاب) :

« لقي الكولونيل ب فى منزل كل ما يستحقه وطنى منفى من بلاده من
اكرام . لقد كنت أعقد وقتئذ أنه وطنى نفى من بلاده لأسباب يأسف لها
كل رجل شريف ، وكذلك العنف الذى استعمل فى مطاردته . . وكان كل
حديثه معى يدور حول حبه لبلاده وطاعته للقانون ولاوامركم . وبعد هذه
التصريحات وبعد أن أخلى سبيله محلفون محترمون فى محكمة كنتكى تبذرت
كل شبكوكى فيه ، وقد أمددته فعلا بقاربين ، ولو أنه طلب الى اثنين آخرين
لأعطيته إياهما بنفس الشروط ، منأثرا بما انطبع فى ذهنى عنه ، لو أننى
كنت أمتلكهما . ولكنى يا سيدى لو تبيين لى بالدليل أنه خائن لكنت قطعت

رقيبته بالسيف بنفس السرور الذى كنت أقطع به رقيبتك أنت لو أننى جاءتنى .
فيك نفس البينة » .

وسوى هذا الحسام بين الرجلين بالصلح ، ولكن حدثت بين الرجلين
منازعات أخرى كانت خاتمتها مفجعة . ففي سنة ١٩٠٦ تحدى للمبارزة رجلا
اسمه دكنسن كان يعتبر أمهر الرماة فى الغرب . وكان سلاح المبارزة الغدارة
وحددت المسافة بينهما بثمان ياردات ، وكان كل منهما ينوى قتل غريمه .
وأطلق دكنسن الطلقة الاولى . ووضع جاكسن يده على صدره ولكنه لم يتحرك .
حركة أخرى . فصاح دكنسن : يا الهى - هل أخطأته ؟ وتملكه الرعب .
ولكن زميل جاكسن صاح به فى حدة يذكره بقانون الشرف ، فوقف ينتظر
مصيره -

وكان غريم جاكسن الآن تحت رحمته . فوقف برهة ينظر إليه ، ثم
رفع ذراعه الذى يحمل الغدارة ببطء الى مستوى أفقى . وارتعد ديكسن
وحول رأسه الى ناحية أخرى . وصوب جاكسن غدارته بعناية عامدا ثم ضغط
على الزناد . ولكن الرصاصة لم تنطلق وتبين بعد بحث سريع أجراه زميلا
المتبارزين أن الزناد لم يكمل دورته ، وكانت هذه لا تعتبر طلقة تبعا للقواعد
المتفق عليها . ومنح جاكسن الحق فى طلقة أخرى . وهرة أخرى صوب
غدارته بعناية نحو ضحيته المسكينة الذى ظل طول الوقت واقفا ينتظر
مصيره . وانطلقت الرصاصة فى هذه المرة . وقطعت هذه الرصاصة سريانا
كبيرا ومات دكنسن فى تلك الليلة . وسار جاكسن منتصرا الى خارج الميدان
وهو حريص على أن يخفى عن مرافقيه أنه أصيب ، لانه أراد أن يعتقد غريمه
المحتضر أن طلقاته خابت . وقال جاكسن مرة : انى كنت سأصيبه حتى لو
كانت طلقاته اخترقت مخى .

وكان جاكسون فى عمله هذا كما كان فى منازعاته الاخرى مسرفا فى
تهوره أكثر مما تحتمله حتى تنسى فى تلك الايام ، وكانت النتيجة أنه اضطر
الى الانزواء بعض الوقت بعيدا عن الحياة العامة . وأنقذته من هذا الموقف
حرب سنة ١٨١٢ التى كان يعتقد أنها ستتهيبه فرصة للاستيلاء على فلوريدا
التى كانت وقتئذ أسبانية . وكانت فلوريدا تمتد على الساحل جنوبى تنسى
مباشرة ، وكان ذلك مصدر متاعب ، هذا الى أن الاسبانيين والانجليز كانوا
يتهمون بأنهم يعملون على إثارة الهنود على الامريكيين . وتظهر مشاعر جاكسون
فى نداء وجهه الى جنوده فى ٢١ يولييه سنة ١٨١٢ :

« انكم تتحرقون شوقا لمعرفة الميدان الذى سنجد فيه أسلحتكم عملا
لها . اتجهوا بأبصاركم اذن الى الجنوب ! انظروا الى ولاية فلوريدا الغربية ،
فهى اقليم لا غنى للشرق الغربى من ولايتنا عن أنهاره وموانيه ، والشق
الشرقى أحوج اليها من الشق الغربى . انظروا هناك أيضا المقر الذى تثير
منه الايدى الاثيمة الهمج المتوحشين وتدفعهم الى النهب واراقة الدماء ، أولئك

المتوحشين الذين لوثوا حدودنا بالدماء والذين سيجددون هجماتهم فى اللحظة التى تظهر فيها قوة انجليزية فى خليج بنساكولا ، هناك ينتظركم عمل يتفق وبسالتمكم وحماسبتكم ، وستحسون برضاء فريد وأنتم توسعون فى هذه الجبهة حدود الجمهورية الى خليج المكسيك وتسدون أبدا الى هذا الجزء من الاتحاد الذى تنتمون اليه مباشرة » .

وقمت بصاعب دبلوماسية وسياسية ، وتلقى جاكسون أوامرا بأن يقتصر فى قتاله على الهنود ، فلم يثبت أن هزمهم وطاردهم الى الممتلكات الاسبانية . ولكن الحادث الذى جعل منه معبود أمته كان هو الهزيمة التى أنزلها بالبريطانيين فى نيو أورليانز فى ٨ يناير سنة ١٨١٥ ، بعد أن كان الصلح قد أبرم فعلا وان لم يعرفه الطرفان المتقاتلان . وكانت هذه المعركة العديمة الجدوى نموذج لما كانت عليه الحرب من سخف ، فقد انتهت هذه الحرب دون أن تبت فى أى من المسائل التى قامت من أجلها ولكنها جددت ذلك العداء ضد الانجليز الذى نشأ ابان حرب الاستقلال وجعلته يستمر طوال المائة العام التالية . لقد خسر العالم الشئ الكثير من جراء حماقة انجلترا ، ولكن القائد جاكسون أفاد منها كثيرا .

وعندما استولت الولايات المتحدة على فلوريدا فى سنة ١٨٢١ عين جاكسون حاكما عليها ، ولما احتل بنساكولا أبدت مسز جاكسون المهامن طريقة الاسبان فى اتخاذ يوم الاحد يوم لهو ومتعة ، وعملت على أن يعرف الاهالى أنه قد بدأ عهد أكثر طهرا ونقاء من العهد السابق . فقد كتبت تقول : أرسلت الصاغ ستانتون ليبلغهم أن الاحد النالى سيحتفل به بطريقة أخرى . . . وقد أسعدنى أن أرى بالامس أن ما قلته قد تحقق . فقد حافظوا على النظام التام وظلت الابواب مغلقة وهدمت بيوت الميسر ولم يعد يسمع صوت الرقص والعزف فى يوم الرب ، كما لم تسمع الفاظ السباب واللعنات » . وعندما زرع العلم الأمريكى قام أحد أتباع الكنيسة النظامية يوزع النشرات رغم احتجاج القسس . وأحاط طلاب الوظائف بكل من الحاكم وزوجته يلاحقونهما برغباتهم الملحة فى وظائف الاقليم الجديد . ووقع شجار عنيف جدا بين جاكسون والحاكم الاسباني المنسحب كان الطرفان فيه سخيفين، وان كان الاسباني أكثر سخفا . وبعد عدة مصادمات أخرى استقال جاكسون اشمزازا وعاد الى ناشفيل . وكان منزله « الصومعة » رحبا مريحا كما كان يملك ضيعة لا بأس بها وعددا كافيا من العبيد ، وكان لجاكسون « عربة جميلة يجرها أربعة جياد شهباء ويتبعه بعض الخدم فى زيهم المعروف » .

ومع ذلك فقد كان يعتبر أكثر من جفرسن ديموقراطية ، ومما لا ريب فيه أن السبب فى ذلك يرجع بعضه الى نشأته ، ولكن السبب الرئيسى فى ظنى كان افتقاره الى التعليم .

وسقط جاكسون في انتخابات الرئاسة سنة ١٨٢٤ بأصوات قليلة جدا ، ولكنه نجح فيها عام ١٨٢٨ بأغلبية ساحقة ، ثم أعيد انتخابه للرئاسة في عام ١٩٣٢ . ويعزو الناس إليه عادة أنه صاحب نظام الاسلاب (X) ، وان لم يكونوا في ذلك منصفين كل الانصاف ، وهو نظام تخصص بمقتضاه كل وظائف الحكومة ، حتى وكلاء مكاتب البريد ، لرجال الحزب الذى يتولى الحكم ويتغيرون بتغير الحزب الحاكم . وعلى الرغم من أن جاكسون ليس مبتكر هذا النظام فانه قطعاً بالغ فى تطبيقه . وكان هذا مثلاً من ديموقراطيته ، وكان المثل الآخر قضاؤه على بنك الولايات المتحدة . والامران ينبعان عن نظرية واحدة فى الحكم - وهى النظرية التى تذهب الى أن المطلوب فى الموظف ليس المهارة بل الامانة ، وان دليل الامانة هو الانتماء الى الحزب الذى يفضله الناس أكثر من غيره .

وقد كتب الرئيس الجديد فى مسودة الخطاب الافتتاحى ما يأتى :

« سأعنى عناية خاصة بأن أملأ المناصب المختلفة التى تحت تصرف السلطة التنفيذية بأفراد يجمعون بقدر الامكان بين صفات العقل والقلب ، واضعاً نصب عيني دائماً أنه يجب فى الحكومة الحرة أن تفضل الصفات الخلقية على المواهب . ذلك أن من السهل أن ندرك أنه فى صور الحكم التى لا يعتبر الشعب فيها صاحب السيادة يعتمد أمن الامبراطورية أساساً على المهارة التى يستمد بها صاحب العرش خضوع رعاياه المفتونين به . ولكن الامر عندنا يختلف عن ذلك . فهنا تسيطر ارادة الشعب كما عبر عنها فى دستور اختاره بنفسه على خدمات الموظفين العموميين ، ويهتم الشعب غاية الاهتمام بالمحافظة على تلك الصفات التى تتضمن الاخلاص والامانة والولاء لمصلحه » .

ولكن تطبيق هذه النظرية لم يأت دائماً بنتائج طيبة . فمثلاً أعطى منصب المحصل فى ميناء نيويورك الى رجل اسمه سوارثووث بدا للرئيس أنه « يجمع بين صفات العقل والقلب » . ولكن هذا الرجل الحكيم الطيب اتخذ مركزه ، من أول لحظة تقريباً ، وسيلة لجمع المال ، وعندما اكتشفت سرقاته بعد أن اعتزل جاكسون الرئاسة تبين أنها بلغت مليوناً وربع مليون من الدولارات .

وكان جاكسون مخلصاً كل الاخلاص فى ايمانه بنظام الاسلاب ، ولم يكن هذا النظام فى رأيه وسيلة لمكافحة أصدقائه السياسيين . وشاهد ذلك ما كتبه بعد أن تولى الرئاسة بشهرين أو ثلاثة أشهر فى مذكراته الخاصة :

١

(X) يقول شاننج فى كتابه « تاريخ الولايات المتحدة » المجلد السادس ص ١٢٣ « كان الرئيس . واشتجتن هو الذى بدأ نظام الاسلاب .. »

« نقد ثارت ضجة كبيرة حول الإقالات • وسيعرض الامر على مجلس الامة لاصدار قانون يقضى باخلاء المناصب بصفة دورية - وعندئذ يعاد تعيين الصالحين وينترك غير الصالحين والمفصرين دون ضجة • ان كل رجل يلى منصبا يضع سنوات يعتقد أن المنصب أصبح ملكه طول الحياة وأنه حقه المكتسب ، وأنه اذا ظل فى منصبه عشرين سنة أو أكثر ، فليس حقه فيه ثابتا فحسب ، بل انه ينبغي أن يحتفظ به لاولاده فلاقرب أقربائه • ليست هذه مبادئ حكمنا • بل ان هذه الدورة فى ملء المناصب هى التى مستحق بلربتنا الدوام » •

ولم تكن قد تكونت لدى أمريكا وقتئذ فكرة عن الخدمة الحكومية غير الحزبية ، بل ان فكرتها عنها فى الوقت الحاضر لا تزال غير كاملة • فقد كان الاعتقاد السائد أنه اذا لم يتغير شأغلو المناصب بتغير الحكومة فان هذه المناصب تصبح ملكا لطبقة من الموظفين يتوارثونها • وتدين إنجلترا الى الراديكاليين الفيلسوفين بوجود أداة حكومية دائمة يتم اختيارها عن طريق الامتحان ، فهم الذين اصلحوا الفساد الارستقراطى الذى كان سائدا فى القرن الثامن عشر دون أن يقيموا محله الفساد الديمقراطى الذى نجم عن نظام جاكسون •• ولو أن شخصا اقترح على جاكسون ، الذى كان يعتقد أن الوظائف الحكومية تتطلب الفضيلة أكثر مما تتطلب الذكاء ، أن يشغل المناصب المنفوقون فى الدراسات العلمية لراعاه ذلك • وليس فى ذلك غرابة فقد كان هر نفسه قاضيا ناجحا دون معرفة بالقانون ، وقائدا حربيًا موفقا دون أن يدرس العلوم الحربية والفنون والحركات العسكرية ، فمن ثم كان طبيعيا أن يفضل فلجا طبييا على رأس مفكر لأن العلب الطيب فى نظره هو المؤهل الحق لشغل المناصب العامة •

على أننا ينبغي ألا نعزو نظام الاسلاب الى جاكسون منفردا ، بل انه كان نتاجا لا مفر منه للديموقراطية كما فهمها الأمريكيون • وفى ذلك يقول تشاننج « ان التحول من النظام الاستعمارى القديم الذى يقضى بتعيين الموظفين فى المناصب العامة بصفة دائمة الى الطريق الاكثر ديموقراطية التى تقضى بشغل الوظائف العامة بصفة دورية على أساس سياسى ، ان هذا النمو كان أمرا لا مفر منه (X) » • وعندما كان لنكولن صغيرا كان الناس فى ايلينوي يرون أن تناوب الزعماء السياسيين فى كل حزب عضوية مجلس الامة أو شغل أى منصب مرغوب فيه بصفة خاصة اجراء سليما • وصحيح أن هذا كان يحدث داخل نطاق السياسة الحزبية ، ولكنه يبين نفس وجهة النظر التى أوجت بنظام الاسلاب ، وهى أن الوظائف العامة لا تتطلب مهارة خاصة ، وأن من العدل تبعا لذلك أن توزع المزايا بالتناوب على جميع الرجال الطيبين •

وكانت النتيجة النهائية للاعتقاد بأن عمل الحكومة لا يتطلب مهارة أن تحولت المهارة إلى المشروعات الخاصة . وفى مسائل كثيرة كانت نتيجة نظام جاكسون أن قام بدلا من حكم الشعب حكم المصالح المالية . لقد ظلت روح هاميلتون حية فى أمريكا ، وكالما اشمنت هزيمتها فى الظاهر ، زاد انتصارها فى الحقيقة . وقد بلغت فكرة الديموقراطية من الفردية حدا تركت معه كل المشروعات التى تتطلب تعاونا من عدد كبير من الناس ، باستثناء الحرب ، للابتكار الخاص وأديرت بحيث تدر أولا على القائمين بها ربحا ، أما فائدة المجتمع فنأتى عرضا .

غير أنه يجب أن نعترف مع ذلك بأن لنظام الخدمة العامة الحزبى بعض المزايا من الناحية الحكومية ، وأنه أمر لا مفر منه تقريبا فى بعض الظروف الخاصة . فقد وجد جفرسن إبان رئاسته جون آدمز أنه من الضروري أن يكون حريصا جدا فى استخدام البريد ، لأنه كان يعتقد أن رسائله كان يعبت بها (X) . كما أن لنكون صدفته ظروف استغل فيها وكلاء مكاتب البريد فى ايلينوى مراكزهم لصالح الحزب الديموقراطى وذلك بإغفال تسليم الجرائد التى تؤيد الاحرار (X X) . وفى مثل هذه الحالات ترجح الاضرار التى نصيب الجمهور لمزايا التى تجنيها الحكومة ، وإن كان وجود هذا النظام يجعل من الطبيعي أن يفصل الحزب المنصر الموظفين العمامين الذين وقفوا فى سبيله . إن الخدمة الحكومية غير السياسية ليست ممكنة إلا فى الاوقات التى يسودها الهدوء النسبى ، فقد كانت مثلا مستحيلة كل الاستحالة فى روسيا سنة ١٩١٨ . إلا أن الانقسامات الحزبية فى أمريكا لم تكن من الشدة بحيث يستحيل معها قيام خدمة حكومية غير حزبية ، باستثناء فترة الحرب الاهلية . وكان الذى جعلها مستحيلة فى عهد جاكسون هو عدم الاستعداد للاعتراف بأن الوظائف الحكومية تتطلب مهارة . ذلك أن المهارة شئ لا يتمتع به الجميع ومن ثم كان الاعتراف بالحاجة اليها يبدو خيانة للإيمان بالديموقراطية .

وقد هاجم جاكسون مصرف الولايات المتحدة تحدوه نظرة مماثلة لهذه النظره . وقد كان هناك قبل ذلك مصرف للولايات المتحدة أنشئ فى سنة ١٧٩١ ، بدأه هاملتون وعارضه جفرسن ، وأقره واشمنجتون بعد شئ من النردد فيما يتعلق بدستوريه . وكان لهذا المصرف امتياز انتهى فى سنة ١٨١١ ولم يجدد ، وكان بعض السبب فى ذلك أن ثلاثة أرباع أسهمه كانت فى أيد اجنبية معظمها من الانجليز . وأنشئ المصرف الثانى للولايات المتحدة سنة ١٨١٦ ، وكان أكبر أهدافه اصلاح العملة . وكان امتيازته ينتهى فى سنة ١٨٣٦ إلا اذا جدد . ولم يكن شعور الناس نحوه طيبا من صبدأ الامر ، وعندما

(X) تاكر « حياة جفرسون » جزء ٢ ص ٦٤
(X X) نيقولاى وهامى - نفس المرجع ص ١٨٣

طالب جاكسون خلال حملته الانتخابية للرئاسة سنة ١٨٣٢ بتأييد الجماهيره
في معركته ضد هذا المصرف منحه الجمهور تأييده بحماسة ، وخاصة في
الجنوب والغرب .

وكانت الحالة المصرفية في أمريكا قد ظلت فترة طويلة في فوضى
ميثوس منها . فقد كان فيها الى جانب مصرف الولايات المتحدة مصارف
الولايات والمصارف الخاصة . وأفلست عادة هذه لآخيرة ، التي كانت تسمى
مصارف القطط البرية ، وكان جميع المصارف تصدر أوراقا نقدية ، بل أن
مصارف القطط البرية نفسها كانت تقوم بلا رصيد آخر تقريبا . ولم يكن في
الغرب الا قدر صغير من المسكوكات . وكان النقد في الغرب في الفترة التي
بين مصرف الولايات المتحدة الاول ومصرفها الثاني يتكون اما من أوراق
نقدية أصدرتها مصارف القطط البرية او مصارف الولايات . وكانت قيمة
الاوراق التي تصدرها الاولى مشككة في كل مكان ، والثانية كانت تفقد
بعض قيمتها كلما ابتعدت عن مصدرها الاصلى . وكان الغرض من مصرف
الولايات المتحدة توحيد النقد في البلاد كلها ، ولكن البنك صادف أوقاتا
عصيبة ، وبدا كأنه يزيد الحالة سوءا . وحاولت أوهيو أن تفرض عليه ضريبة
فأصدرت المحكمة العليا قرارا بأن الولايات لا تستطيع أن تفرض عليه
ضرائب . وأعلنت أوهيو أن حق الولايات في تفسير الدستور لا يقل عن حق
المحكمة العليا ، وجببت الضرائب بالقوة من فروع المصرف في أوهيو وأعلنت
أن أى شخص يستطيع أن يسرق البنك دون عقوبة . وحدثت متاعب مماثلة
لهذه في عدة ولايات أخرى . فقد كان كل شخص في الغرب يقترض لاصلاح
أكبر قدر ممكن من الارض ، ولم يستطع عدد كبير جدا من المفترضين الوفاء
بديونهم . وكان أغلب الدائنين من الشرق ويمثل المصرف مصالحهم . وطبعي
أن يكون لدى المدينين في كل مكان من الاسباب ما يجعلهم يعارضون المصرف ،
وكان لدى المدينين في الغرب سبب اضافى ، يدعوهم الى هذه المعارضة ، وهو
سبب جغرافى ، فقد بدا كان المصرف يعرقل ذلك العمل العظيم وهو تقدم
الغرب ونماؤه .

وحيرت عمليات نظام الائتمان فكر الرواد الغربيين ومن بينهم جاكسون ،
فقد كانت تحذوهم جميعا رغبة ملحة في استقلال المصارف في الاستحواذ
على أرض أكثر واصلاحها ، ولكن لم يبد لهم أن المصارف تقوم بأى عمل مهم
حين تقرضهم المال . فقد كان عملها كله يتم على الورق : فصاحب المصرف
لم يتصعب عرفا كالرجل الذى يقطع شجرة أو يصلح أرضا بكرا . وكان
صاحب المصرف يحصل على امتيازات يمكن بمقتضاها أن ينزل الحراب برجل
نشط مقابل وثيقة لا أكثر ودون عمل جدى . فاذا عجز المحصول او انخفضت
الاسعار أو حتى اذا حدثت أزمة نقدية في الشرق أو في أوروبا فان للمصرف
أن يقتضى دينه ، واذا لم يستطع المزارع أن يجد مالا أصبح كل نتاج جهوده .

ملكا للمصرف . ان الائتمان أسببه بخزان يصب فيه عمل المجتمع كله ، انه نتاج جماعى وليس نتاجا فرديا . غير أن النواحي الجماعية فى الاقتصاد لم تكن مفهومة لرجل الغرب الذى لا يعتمد الا على نفسه ، ومن ثم كانت مصدرا لفضبه . وقد سمحت كل المجتمعات المتمدينة ، ولم يكن فى سماحها هذا حكمة ، لافراد معينين بأن يستحوذوا على أعمال الائتمان على الرغم من أنه يقوم على مجهود المجتمع كله ، كما سمحت لهم بأن يستخدموه فى اقتضاء المال ممن هم فى حاجة الى الاقتراض . وصارت المعارضة فى الارباح التى يجنيها هؤلاء الافراد معارضة لنظام المصارف كله فى عهد جاكسون ، وخاصة لاقبل صورها ضررا لانها كانت أكثر الصور تركيزا . والواقع أنه يجب أن تكون هناك مؤسسات للاشراف على الائتمان فى أى مجتمع متمدين يسمح بقيام المشروعات الخاصة ، غير أن هذه المؤسسات اذا تركت فى أيد خاصة تزداد قوة بحيث تسيطر سيطرة تكاد تكون استبدادية على كل ألوان النشاط الاقتصادى . وكان جاكسون ومؤيدوه يريدون الافادة من فرص الثراء التى كان الغرب يتيحها : فالذين يملكون عبيدا لم يروا شيئا غير سليم فى الاستيلاء على نتاج عملهم ، والذين كانوا يضاربون فى الارض لم يعزفوا عن فرصة للربح عندما ترتفع أثمان أراضهم نتيجة لمجهود جيرانهم . وطالما ظلت أنواع الربح التى يرغبون فيها لانفسهم مسموحا بها فإن أرباح أصحاب المصارف تظل مسموحا بها أيضا . ومن ثم لم يكن جاكسون يستطيع الا أن يقرر أن المصارف الخاصة تدار بطريقة سيئة ، ولم يكن يستطيع أن يذهب الى وجوب الغائها . ذلك ، أن الديمقراطية أرادت أن تهيب حربة واسعة للراغبين فى الثراء ، ولكنها أرادت أيضا فى نفس الوقت أن تحسد من نجحوا فى الحصول على الثراء . وقد جعلها ذلك غير متسقة منطقيا ومن ثم غير قادرة ، بطبيعته الحال ، على النجاح .

ولم يستطيع جاكسون أن يقضى على كل المصارف رغم أنه كان يود أن يفعل ذلك . وقد قال مرة لبدل رئيس مصرف الولايات المتحدة : « انا لا أكره مصرفك أكثر مما أكره أى مصرف آخر ، ولكننى قرأت تاريخ مشروعات (البحر الجنوبى) الموهومة وأنا أخشى المصارف » . وقال فى مناسبة أخرى ، « ان كل من يعرفنى يعرف أنى كنت دائما معارضا لمصرف الولايات المتحدة ، بل لكل المصارف » . وهو عندما يقول « انى أخشى المصارف » فهو انما يعبر عن جوهر احساسه . ذلك أن المصارف محيرة وغامضة ، ولا يستطيع مواطن أمين لم يصب حظا من التعليم أن يعرف أولها من آخرها . ولها من القوة ما يجعلها عظيمة الاهمية من الناحية السياسية ، غير انه يجب على كل مواطن بالغ عاقل فى أية ديمقراطية أن يكون قادرا على الحكم على كل المسائل السياسية . ومن ثم فإن أى شىء يصعب على الرجل العادى فهمه يعد فى رأيه مناهضا للديموقراطية ، ومن ثم فهو مضر ، ولما كان مصرف الولايات المتحدة أقوى من أى مصرف آخر فهو لذلك أكثرها ضررا ، ولما كنا لا نستطيع

الغاء كل المصارف ، فان من واجبتنا على الاقل أن نلغي أكرها ضررا . هذا على ما اعتقد ما كان يدور بخلد جاكسون في هذا الموضوع ، وهو اذ يفكر على هذا النسق انما يعبر بأمانة عن ارادة الشعب .

وكان جاكسون وطنيا غيورا ، وهو أمر لم يكن منه مفر بالنسبة لخلقه . وتاريخ حياته ولبننا نعتى بقولنا أنه وطنى غيور انه يجب بلاده فحسب ، بل تتملكه نزعة الاستعمار والحرب ، فهو يقول فى سنة ١٨٢٩ فى معرض حديثه عن الميسيسيبى : « ان اله ألكون قد أراد أن يكون هذا الوادى الكبير ملكا لأمة واحدة » . وقد تحققت ارادة الله حتى قامت حرب السبع سنوات حين كان الوادى كله لفرنسا ، ولكن يبدو أنها قد نسيبت بعد ذلك الوقت وظلت كذلك حتى جاءت حكومة الولايات المتحدة وعرضت الامر على حكومة الكون !! وكان حقد جاكسون على الانجليز أما طبيعيا بالنظر الى ما عاناه فى حرب الاستقلال وانتمضاره فى حرب سنة ١٨١٢ ، ولكن حقه على الاسبان لم يكن له ما يبرره بهذا القدر . ولقد كان كل الجنوبيين فى أيامه تراودهم الرغبة فى الفيضام بغزوات فى الجنوب . وقد ضمت لويزيانا وفلوريدا وتكساس على التوالي إبان حياته ، وتم ضم فلوريدا بالطريق الدبلوماسى لبالحرب على الرغم منه . وقد كتب فى سنة ١٨٤٣ ، بعد فترة طويلة من تقاعده ، خطابا عنيقا يبحث فيه على ضم تكساس حتى لا يستولى عليها الانجليز ، وقال فيه :

« لقد أبرمت بريطانيا العظمى فعلا معاهدات مع تكساس ، ونحن نعلم أن تلك الامة بعيدة النظر لا تفوتها فرصة فى علاقاتها الكثيرة مع العالم يمكن أن تستفيد منها فى زيادة عواردها العسكرية . فهل هناك ما يمنع ان تتحالف مع تكساس ، فتستبقى ، وهى لا شك فاعلة ، بمشكلة الحدود الشمالية الغربية لمنحدها حجة لاعلان الحرب علينا فى اللحظة التى تختارها - ولنفترض أننا سنضطر الى محاربتها بوصفها حليفة لتكساس . وسترسل هى استعدادا لهذه الحرب عشرين أو ثلاثين الفا من رجالها هناك ، ثم تنظمهم فى الساباين حيث يمكن تخزين المؤن والاسلحة حتى قبل أن ندرك نواياها ، ثم تحتل موضعا على الميسيسيبى وتشير الزنوج وتدفعهم الى التمرد ، فيسقط الجزء الجنوبى ومعه نيوأورليانز . وتشتهل أوار حرب العبيد ضد ساداتهم فى جميع أنحاء الجنوب الغربى (X) » .

وأرضت نزعته الاستعمارية الجنوب كما أرضت وطنيته جميع الولايات واستثناء كارولينا الجنوبية ، حين أرادت هذه الولاية أن تنفصل ووقف هو يدافع بشدة عن الاتحاد . وكانت قوميته من النوع الذى تحبه الجماهير فى الديموقراطيات اذا كانت قوية . ولكن حب الفتح فى الجنوب صار فى الفترة الاخيرة من حياته غير مرغوب فيه لدى الشماليين بسبب مشكلة الرق . فعندما

كان رئيسا ، كانت التعريفة الجمركية ، لا الرق ، هي التي فرقت بين الشمال والجنوب ، وكان التوفيق في هذه المشكلة مستطاعا ، إذ كانت الاحزاب السياسية قد بدت تنقسم على أساس الاقاليم ، فلم يكن تأييده مقصورا على الجنوب ، بل ان الشمال الغربي وبنسلفانيا كانا يؤيدانه كما كانت تؤيده أغلبية في ولاية نيويورك . فقد كان موضع الاعجاب لوطنيته وبطولته الحربية بقدرما

كان موضع الاعجاب بسبب ديمقراطيته . وقد تعلم الرجل العادى بارشاده أن يحتقر أوروبا ، وأن يحتقر أيضا الكثير مما له قيمة في بلده نفسه . ولو أن تأثيره كان هو العامل الكبير الاخير في تكوين الشخصية الامريكية ، لصارت الديموقراطية الامريكية مرتبطة بالجهل والتهور والعنف . ولكن كان من حسن الحظ أن ظهرت في الجيل التالي مشكلة جديدة مهدت السبيل لتأثير جديد أصبحت أمريكا عن طريقه أكثر جدارة بمالها من سلطان على مصير البشرية .

الفصل الرابع والعشرون

الرق والانفصال

ان الولايات المتحدة ، كما يدل اسمها ، اتحاد يحدد فيه سلطات الحكومة الاتحادية الدستور كما تفسره المحكمة العليا . وكانت الولايات الثلاث عشرة موجودة قبل اتحادها وكان بينها اختلاف كبير في الدين والمناخ والتاريخ . وكانت مصالحتها الاقتصادية أيضا مختلفة وفي نواح كثيرة متضاربة ، وظلت علاقاتها الاقتصادية مدة طويلة مع أوروبا أكثر مما هي مع بعضها البعض . فلم يكن هناك مثلا تقارب طبيعي بين ماساشوسستس المتطهرة ، التي كانت تعيش أساسا على التجارة البحرية والصناعة ، وفرجينيا المشيخية حيث كان أصحاب الاراضي الكبار يزرعون الطباق معتمدين على مجهود العبيد . وجاء الاتحاد نتيجة لحرب الاستقلال ، ولكن حرب ١٨١٢ كادت تقضى عليه ، لان الشمال لم يكن يحب أن تتعطل التجارة . ولما أقر الاتحاديون في سنة ١٧٩٨ قوانين « الشغب والدخلاء » اصدرت كنتكي قرارات كتبتها جفرسن تنص على أن هذه الولاية ترى أن تلك القوانين غير دستورية ورفضت تنفيذها ، وحدثت فرجينيا في ذلك حنوها . ولم يكن الجميع يعترفون في تلك الاونة بأن تفسير المحكمة العليا للدستور ملزم للجميع . وفي سنة ١٨٣٢ كادت كارولينا الجنوبية أن تنفصل بسبب عدم رغبتها في التعريف الجمركية . وحتى في سنة ١٨٤٣ هدد ثلاثة عشرة رجلا من رجال مجلس الامة وعلى رأسهم الرئيس السابق ج.ك آدمز بانفصال ولاياتهم اذا ضمت تكساس الى الاتحاد ؛ وكانت جميع الولايات في الشمال والجنوب القديمين ترى الانفصال أمرا محتمل الوقوع دائما .

ثم أصبح العامل الاساسي في الانفصال على مر الزمن هو مشكلة الرق . ولهذه المشكلة تاريخ طويل لا يمكن فهمها بدونها .

أدخل الاوروبيون الرق في جميع أنحاء العازة الامريكية . نعم ان الحكومة الاسبانية سجننت كولبس لانه استرق بعض الهنود ، ولكن هذه الظاهرة لم تدم طويلا . ولما كان الهنود لا يصلحون رقيقا فقد جرى بالزواج من غربي افريقية بأعداد كبيرة . وكان الرق مشروعا في عهد الاستعمار في كل مكان من أمريكا ، الا أنه لم يكن في وقت من الاوقات ذا شأن في الشمال . وأقر مجلس فرجينيا اجراءات تهدف لالغاء تجارة الرقيق اعترض عليها جورج الثالث وأبطالها . وكان هذا أحد الاسباب التي بنى عليها جفرسون اتهمه لهذا الملك الطائش في المشروع الاصلى لاعلان الاستقلال ، ولكن هذه الفقرة

استبعدت فيما بعد لانها لاتصلح أساسا للشكوى . ومع ذلك فقد ألفت
تجارة الرقيق بمقتضى اتفاق مع الانجليز فى سنة ١٨٠٨

وفى سنة ١٧٨٤ اقترح جفرسن إلغاء الرق فى الشمال الغربى ، وعلى
الرغم من أنه هزم فى تلك المرة فقد نجح فى سنة ١٧٨٧ عندما وافق المجلس
القارى بالإجماع على إلغاء الرق فى الأقليم الذى يقع شمال نهر أوهيو—و
غربه . وقبل أن ينتهى القرن الثامن عشر كان الرق قد أُلغى فى كل الولايات
الشمالية وكانت الولايات الجنوبية فى ذلك الوقت تتطلع بسرور الى انقراض
الرق تدريجيا ولم يكن هناك حتى ذلك الوقت أى شعور عدائى بين الشمال
والجنوب بسبب هذه المشكلة .

وتغير مجرى التاريخ فى أمريكا ، كما تغير فى انجلترا المعاصرة ، بسبب
اختراع الآلات التى توفر العمل . فقد جعلت المخترعات فى انجلترا فى وسع
الشخص أن يفزل وينسج قدرا يساوى ما كان يقوم به خمسون شخصا فى
نفس الوقت ، وكانت نتيجة اختراع هذه الوسائل (التى توفر العمل) أن
اضطر الاطفال الصغار الى العمل خمس عشرة ساعة يوميا . وكان من نتائجه
الآخري أن زاد الطلب على القطن الخام . وجعلت آلة الخليج التى اخترعها هوبنى
سنة ١٧٩٣ فى استطاعة الزنجنى أن ينظف خمسين رطلا من القطن فى اليوم

بدلا من رطل واحد . ونجم عن كل هذا أن اتسعت زراعة العطن بسرعه فى
الولايات التى تقع فى أقصى الجنوب . وكانت زراعة مربحة جدا وهى تعتمد
على مجهود الرقيق . ومن ثم بدأت منطقة العطن تهتم بموضوع الرق . هذا
ألى أنه لما كان الجو فيها غير صحى وكانت تجارة الرقيق قد توقفت ، فقد
نشأت الحاجة الى استيراد الرقيق باستمرار الى منطقة القطن من الولايات
الجنوبية الغربية من الشمال ، ومن ثم ارتفعت أثمان الرقيق فى كل مكان
وعلا شأن فرجينيا وكارولينا الشمالية باعتبارهما حقلًا لتربية ضحبايا
المستقبل لدودة الانكلستوما والملاريا والحمى الصفراء . وتحول شعور الجنوب
كما تحولت حياته الاقتصادية ، وصار الدفاع عن الرق بالنسبة له دفاعا عن
مصلحة حيوية .

وحدث أول صدام خطير بين الشمال والجنوب سنة ١٨٢٠ وانتهى باتفاق
ميسورى . ذلك انه منذ أن ألغت الولايات الشمالية الرق أصبح عدد الولايات
الحرة وولايات الرق متساويا ، وظل كذلك لان الولايات الثمان الجديدة كان
نصفها حرا ونصفها يبيح الرق . ولما كان مجلس الشيوخ مكونا من ممثلين
اثنين لكل ولاية فقد ظل التوازن محفوظا طالما بقى عدد الولايات فى الناحيتين
متساويا وكان فى انضمام ميسورى ترجيحاً لكفه الجنوب . فقامت معارضة
عنيقة وجهت الأنظار الى خطورة الأمر فى المستقبل ، ووصفها جفرسون بأنها
كناقوس الحريق يدق فى جوف الليل ، وأخيرا تقرر المحافظة على التوازن
بانشاء ولاية مين ، كما تقرر انه عندما تنشأ ولايات جديدة فى الغرب مستقبلا

تكون الولايات التي تقع شمال خط عرض ٣٦ر٣٠ درجة خالية من الرق والتي تقع جنوبه تبيع الرق . وظل هذا التراضي يسيطر على سياسة الحكومة الاتحادية مدى جيل من الزمان .

وكان الأثر النهائي لذلك دفع الجنوب الى وضع خطط للتوسع بالاستعماري ولم تعد هناك بعد الاستيلاء على فلوريدا أقاليم تصلح لإنشاء ولايات جنوبية جديدة ، بينما ظل انشاء عدد كبير من الولايات التي لا تبيع الرق مستطاعا في الشمال الغربي . غير أن المكسيك كانت ضعيفة ، وكان يقال أن «الأقدار» التي لا يخفأ فيها «تتطلب أن تستولى الولايات المتحدة على كل ما ترى أنه من الموافق الاستيلاء عليه من الأراضي المكسيكية في أي وقت . وعملاً من المغامرون الأمريكيون ، بتشجيع من الولايات الجنوبية ، على أن تعلن تكساس استقلالها عن المكسيك وتعيد الرق الذي كانت المكسيك قد انقضته . وأرادت حكومة تكساس ، التي كانت مكونة من مهاجرين من الولايات المتحدسة ، الانضمام الى الاتحاد ، وتم ذلك في سنة ١٨٤٥ . وأتاح هذا لولايات الرق اغلبية ولاية واحدة .

وكانت المكسيك في هذه الاثناء قد جرؤت على الاحتجاج ، ومن ثم هبأت الفرصة للحرب المكسيكية . وانتهت الحرب بضم إقليم يتكون الآن من ولايات كاليفورنيا ونييفادا ويوتاه وأريزونا وأجزاء من نيومكسيكو وكنوزادو ويومنج . ولكن النتيجة لم تكن كما يأمل الجنوب . ذلك أن الجزء الوحيد الذي كان يسكنه عدد من الأهالي يكفي لأن يجعله ولاية هو كاليفورنيا ، وكان نصفها شمال خط اتفاق مسوري والنصف الآخر جنوبه ، إلا أنها قررت عدم إباحة الرق . وأدى ذلك إلى موقف عسير وضع له حد ، لبضعة سنين فقط ، باتفاق جديد هو اتفاق سنة ١٨٥٠ . وكان عدد الولايات التي تبيع الرق والتي لا تبيحه قد تساوى مرة ثانية في الوقت الذي تم فيه هذا الاتفاق وذلك بانضمام ويسكونسن سنة ١٨٤٨ ، ولكن الاقتراح بعدم إباحة الرق في الأقاليم الجديدة هزم .

ولم يتم اتفاق سنة ١٨٥٠ إلا بعد مداوات طويلة شاقة مضحوبة بالتهديد بالانفصال . وكما هذا الاتفاق يحتوي ثلاث شروط ترضى الشمال وشروطين يرضيان الجنوب . فلأرضاء الشمال ضمت كاليفورنيا دون تجزئة لتكون ولاية خالية من الرق على الرغم من أن نصفها تقريبا واقع جنوب خط اتفاق مسوري ، ونظمت كل من نيومكسيكو ويوتاه ولايتين خاليتين من الرق ، وحرمت تجارة الرقيق في مقاطعة كوليبيا . ولأرضاء الجنوب صدر قانون جديد أكثر شدة لمعاقبة الأرقاء الفارين ، ومنحت تكساس عشرة ملايين دولار . ويفول نيكولاي وهاي عن هذا الشرط الأخير : « لقد قيل بجد أن هذا التعويض ، الذي قدره عشرة ملايين دولار والذي يضاعف فجأة قيمة

دين تكساس ثلاث مرات ومن ثم يهيء فرصة لم يسبق لها مثيل للمضاربة في سندات دين هذه الولاية ، كان هو القوة المحركة التي أجازت هذه الفوائين في مجلس الامة على الرغم من المتعقدات الاصلية لغالبية الاعضاء ، وهما لا يؤيدان هذا الرأي كل التأييد ، ولكن من العسير أن يشك المرء في أن عشرة ملايين دولار ليس لها تأثير على « المتعقدات الاصلية » لبعض الناس .

وانهار اتفاق سنة ١٨٥٠ لعدة أسباب ، على الرغم من أنه كان يرجى أن تكون مشكلة الرق قد سويت نهائيا ، وكان لعودة النزاع سببان هما : (١) أن الشمال كان يكره قانون الرقيق الفارين وقاوم تنفيذه . (٢) أن الجنوب وقد رأى أنه لم تعد هناك فرصة لانشاء ولايات جديدة تبيع الرق جنوب خط عرض ٣٦٣٠ درجة اضطر الى الغاء اتفاق ميسورى . وأخذت هوة الخلاف تتسع من هذين المصدرين حتى لم يعد هناك نتبجة له الا الحرب .

وقد أثبتت مشكلة قانون الرقيق الفارين ، ولعلها أثبتت أكثر من أى شىء آخر ، صحة عقيدة لنكون القائله أن الاتحاد لا يمكن أن يعيش ونصفه يبيع الرق والنصف الآخر لا يبيعه . وعندما أعلن لنكون أول مرة هذا الرأي فى سنة ١٨٥٨ اعترت الدهشة لكثيرين ، وكان اعلانه هذا أساسا لحجج دوغلاس ضده فى المناقشات الكبيرة التى دارت بينهما ، ولما أن أخذ الارقاء فى الجنوب يهربون الى الشمال ، وكان الجنوبيون يطالبون زورا وبهتانا بالزواج الاحرار المقيمين فى الشمال على أنهم رقيق ، اضطر سكان المناطق التى تكره الرق اما الى الخروج على القانون أو أن يصبحوا شركاء فيما كانوا يعتقدون انه وسوء لا يمكن الدفاع عنها . ولم يستطع كثير من الرجال الذين لم تكن الحجج اللفظية المجردة التى يسوقها دعاة الالغاء تحركهم ، ان يقتنعوا أنفسهم بوجوب تسليم زنجى يرونه فعلا أمام أعينهم ، ذلك أنه لم يكن فى مقدورهم أن يفاوضوا ، وقد وضع القانون الامر أمام ضمائر أهل الشمال بطريقة لم يكن يستطيعها أى خطيب معارض للرق .

ويبدأ التشريع الخاص بالرقيق الفارين فى الولايات المتحدة بالدستور الذى وضعه رجال يحرسون أشد الحرص على جميع حقوق الملكية . وكان الدستور ينص على أن الرقيق الفارين يجب تسليمهم لسادتهم حيثما كانوا فى داخل الولايات المتحدة ، وكان ذلك أحد المزايا التى استمدتها الجنوب فى تلك الآونة من قبوله الاتحاد الفدرالى . ووضعت هذه المادة من الدستور موضع التنفيذ بقانون أقر فى سنة ١٧٨٣ ، وكان من حق المالك أو وكيله بمقتضاه أن يقبض على الرقيق الذى يزعم ملكيته ويسوقه أمام القاضى حيث يثبت ملكيته له اثباتا يرتضيه القاضى ويحصل منه على شهادة بذلك ثم يأخذ الرقيق معه ويحكم على أى شخص يعترض سبيله فى هذا الاجراء بغرامة قدرها ٥٠٠ دولار .

ولم يكن مسموحا للزنجي ، والمفروض أنه رقيق ، بأن يدل بأي دفاع عن نفسه . وكان أصحاب الرقيق الهاربين يستخدمون قناصي الرقيق المحترفين ، ووجد هؤلاء أنه أيسر لهم أن يقبضوا على أي زنجي حر ويفسّموا على أنه الرجل المطلوب من ان يبخنوا عن الرقيق الفار الذي يفترض انهم يبحثون عنه ، وكانت النتيجة أن الزنجي لا يكون في مأمن حتى يصل كندا . ويصف دكنز في كتابه « مذكرات أمريكية » الاجراءات القانونية العملية في هذا الصدد كما كانت قبل سنة ١٨٥٠ فيقول :

« لقد سن الرأى العام هذا القانون . فقد أعلن في واشنطنجتون ، المدينة التى تحمل اسم أبى الحرية الامريكية ، يستطيع أى قاض من قضاة الاخطاط أن يكبل بالقيود أى زنجي في الطريق ويلفيه في السجن : وليس من الضروري أن يكون الزنجي قد ارتكب أى ذنب . ويقول هذا القاضى : « لقد ارتأيت أن أعتقد أن هذا الرجل رقيق فار » . ثم يزجه في السجن . ويخول الرأى العام لرجل القانون بعد ذلك حق الاعلان فى الجرائد عن الزنجي ، منذرا مالكة أن يحضر ليتسلم عبده والا يبيع الرقيق للوقاء بنفقات سجنه . ولكن لفترض أن الزنجي حر وليس له مالك فمن الطبيعي أن نعتقد أنه سبطلق سراحه ، ولكن هذا لا يكون : انه يباع ليعوض سجنه عن النفقات التى صرفت عليه . وقد حدث ذلك المرة بعد المرة لليس لدى الزنجي من وسيلة يشتم بها . انه حر ، فليس له محام أو رسول يقوم بتوصيل رسائله ولا يجد أية معونة من أى نوع كان ولن يفحص عن أمره أو يحقق فى قضيته . فيلقى الرجل ، وهو الحر الذى قد يكون عمل سنوات طوال وأشترى حريته ، فى السجن دون أى اجراء قانونى أو بسبب أية جريمة ارتكبها أو حتى بعد الادعاء بأنه ارتكب جريمة ، ثم يباع ليفى بنفقات سجنه »

ان دكنز يتحدث عما كان يقع فى مركز كولومبيا . ولكن الولايات التى تقع الى الشمال منها أصدرت قوانين لمنع خطف الزوج الاحرار ، ولتتمكن السلطات القضائية فى الولاية من طلب الأدليل على أن الزنجي رقيق قبل أن يسمح بنقله ، ولكن المحكمة العليا ، التى كانت تعمل دائما على تثبيت نظام البرق طالما كان قائما ، قررت أن أى تدخل من الولايات فى اجراءات قانون الرقيق الفارين مخالفة للدستور ، فمالك الرقيق يستطيع ، كما يبدو من قرار المحكمة العليا ، أن يقبض على أى زنجي فى أى مكان وليس مطالبنا بإثبات ملكيته حتى يصل به الى ولايته التى تبيح الرق .

كانت هذه هى الاوضاع الخاصة بالقانون فى سنة ١٨٥٠ عندما طالب الجنوب بتشديده . وقد وافق على هذا الطلب ليكون جزءا من الترضية . فقد ظنت جميع الاجراءات الحسنة التى اتسمت بها الفوانين القديمة قائمة وبمقتضى هذا القانون الجديد ، وأضيف اليها ما يقضى بتشديد العقوبة على من يساعد الرقيق الهارب بأية صورة وجعلها ١٠٠٠ دولار والسجن مدة متصل

الى سنة أشهر . كما تقرر الى جانب ذلك أنه يمكن الاستعانة بالاهلين المتطوعين في القبض على الرقيق المزعوم، بحيث يحتمل أن يجبر أهل الحي كلهم على الاشتراك في تنفيذ هذا القانون البغيض ، فعندما يهرب جواد أحد الجنوبيين لم يكن أمامه إلا أن يعتمد على جهوده الخاصة في القبض عليه ، ولكن عندما يهرب عبده فإنه كان يستطيع أن يطلب الى جميع السكان في مقاطعة شمالية أن يساعده على استعادته ، وأى شخص يرفض الاستجابة اليه معرض للمقاب.

وكانت نتيجة هذا القانون في الشمال كارثة على قضية الجنوب . فقد أدى القبض على أحد الرقيق في بسطن الى حدوث هياج استدعت له قوة كاملة من الجيش وسيقى الرقيق بين صفوفها الى فرقاطة أمريكية تولت نقله الى الجنوب عن طريق البحر . وفي أوبرلين ، أهيرو ، حدث أن أنقذ جماعة من السكان رقيقا هاربا فالتى بأساتذة جامعات ورجال دين في غيبة السجن وفي مناسبات أخرى مماثلة وقع بعض النابيين من الكويكرز في متاعب جملة لهذا السبب عنه ، وشكوا الجنوبيون من أنهم يمرضون حياتهم للخط رفى محاولة القبض على العبيد الفارين . وفي الشمال ، حيث كان الناس ينظرون الى الرق في الجنوب بدون مبالاة ، دفعتهم اجراءات تنفيذ قانون العبيد الفارين الى أن ينظروا الى الامر على أنه موضوع يستجيب على المرء أن يقف منه موقف المحايد أو غير المبالي . وكان المشعور المناصر للإلغاء لا يزال ضعيفا ، ولكن معاقبة مواطنين محترمين لانهم ساعدوا زوجا بائسين على الهرب من الاسترقاق كان أمرا لا يحتمل . ولم يكن اصرار الجنوبيين على بقاء القانون وتشديده يتمم بالحكمة بالنظر الى قلة عدد الارقاء الفارين . فقد كان كل من فقدتهم كارولينا الجنوبية ٢٣ رقيقا في سنة ١٨٦٠ أى بنسبة واحد الى كل ١٧٥٠١ من الارقاء . ولم يفقد الجنوب كله الا ١/٥٠٠٠ من مجموع الارقاء وكانت الثورة على أشدها في ولايات أقصى الجنوب وهي أقل الولايات خسارة في الرقيق (٥)

وأخذ دعاة الإلغاء في الشمال في الزيادة من ناحية العدد وقوة الشعور المعارض طول الثلاثين عاما السابقة على الحرب الأهلية . ونستطيع أن نقول أن حركة الإلغاء أصبحت قوة في الحياة العامة ابتداء من سنة ١٨٣١ عند ما بدأ وليام لويده جريش اصدار جريدته « المحرر Liberator » وقال في أول عدد منها ما يأتي :

« انى سأطالب بلا هوادة بتحرير الرقيق من سكننا فورا . . . ولست اريد أن أتحدث أو أكتب أو أفكر في هذا الموضوع باغندال . كلا ! ثم كلا ! ان لك أن تطلب الى رجل اشتعلت النار في بينه أن يدق ناقوس الحريق

باعتدال ، وأن ينقذ زوجه ممن يعتدى على عرضها باعتدال ، أو أن تطلب إلى أم أن تنتزع طفلها من الدر التي سقط فيها بالترديج . ولكن لاتطالبوني بالاعتدال في قضيه مثل قضيتنا هذه . اننى جاؤ - ولن أغفر لاحد ذنبا - ولن أترجع خطوة واحدة - وسيستمع الى الناس حنما » . واستمع اليه الناس فى الجنوب :

« أعلن المجلس التشريعى فى جورجيا عن مكافأة قدرها ٥٠٠٠ دولار لآى شخص يخطف جريش أو أى شخص يقبض على من تثبت عليه تهمة نوزيج « المحرر » فى الولاية » . لقد كان العاملون الأول فى سبيل هذا الإصلاح العظيم ممن لا يعرفهم أحد من جيرانهم سوى قلة ضئيلة حتى أن عمده بسطن لما تلقى احتجاجات بعض الولايات الجنوبية على النشرات المنتهبة مثل « المحرر » استطاع أن يقول : انه لبس من بين اعضاء الحكومة فى المدينة ولا من بين معارفه الشخصيين من سمع بهذه الجريدة أو بمحررها ، وأنه قد تبين بعد البحث أن « مقر عمله ليس سوى حجر مهجور وأن معاونه الوحيد صبي زنجى ، وأن مؤبديه قلة لاقيمة لها من أشخاص من جميع الألوان » .

واسنكر الرئيس جاكسن الدعاية المضادة للرق ، وأغرب عن رغبته فى أن يحرم مجلس الامة أعمال الاثارة « التى يقصد بها دعوة الرقيق الى التمرد وخلق كل الآثار الفظيعة التى تتزنب على حرب أهلية » . وعندما سمعت بسطن عن جريش نفرت منه فى مبدأ الامر . وحدث مرة أن هاجمه الغوغاء ولم ينقذه من أيديهم الا زجه فى السجن . وفى البنوى عام ١٨٢٧ قتل موعاء أحد رجال الدين من دعاة الالغاء اسمه اليجا لفجوى كان يحرق جريدة يدعو الى الالغاء .

ولكن دعاة الالغاء أخذوا يسنلفتون الانظار شيئا فشيئا وخاصة فى ماساشوسستس وينبغى ان نقول ان تصبهم قد اضر بقضيتهم أكثر منما أفادها وانه كان من أسباب التجاء الجنوبيين الى العنف . فقد كانوا يدعون الى قتل كل من يحاول القبض على عبد فار . كما دعوا الى حل الاتحاد لاعتقادهم أن الاتصال بهذا « النظام الملعون » بأية صورة خطيئة - وان لم تكن فائدة العبيد من ذلك الالغاء واضحة . قال جريش فى سنة ١٨٤٣ : « ان الاتاق القائم بين الشمال والجنوب هو ميثاق مع الموت واتاق مع الجحيم - يسوق الطرفين الى الاجرام البشع ويجب الغاؤه فورا » . وظل المتطرفون من دعاة الالغاء يطالبون بحل الاتحاد حتى بعد أن نشبت الحرب الاهلية - وهو طلب يصعب فهمه اذا كانوا يريدون خيرا للزوج حقا . كما انهم بتصميمهم ساعدوا على اثاره الجنوبيين الى القيام بأعمال عداينة .

وكان لغاء اتفاق ميسورى أول نقض سياسى روعى فيه صالح الجنوبيين لاتفاق سنة ١٨٥٠ . وكانت المشكلة قد نشأت بشأن ولاية كنساس التى تقع شمال خط اتفاق ميسورى ولكنها تجاور ولاية ميسورى التى كان بعض أهلها يريدون أن يحتلوها باعتبارها اقليما يباح فيه الرق .

وفي سنة ١٨٥٤ تقرر بمقتضى قانون نبراسكا أن تبيح كنساس ونبراسكا الرق أو تحرمانه كما تشاءان ، وكان معروفاً فيما يتعلق بنبراسكا انه سميتقرر عدم اباحه الرق ، أما فى كنساس فقد كان الأمر موضع شك .
فسرعان ما أصبحت كنساس من أجل ذلك ميدان قتال فدخلها الجنوبيون مخترفين ميسورى والشتماليون مخترقين أيوها . وأقام كل من الجانبين حكومة ادعى أنها السلاطة الشرعية السى تقرر موضوع الرق . واشتملت نار الحرب الاهلية وسارع الطرفان الى الالتجاء الى واشنطن . وعلى الرغم من أن واشنطن ظاهرت الجنوبيين ، فإن الشمال انتصر بكثره العدد ، وضمت كنساس باعتبارها ولاية حرة فبيل الحرب الاهلية مباشرة .

وأدى اعتداء الجنوب كما ظهر فى الغاء اتفاق ميسورى الى تكوين الحزب الجمهورى الذى عقد أول اجتماع قومى له فى فيلادلفيا سنة ١٨٥٦ .
وكانت سياسته الحزب الجديد تهدف الى الغاء الرق فى جميع أنحاء البلاد ، كما اعاد الحزب فى النقط الاخرى من نواحى أخرى بمبادئ الاحرار ، وأهمها رفع التعريفه الجمركية . وقسّل الحزب فى أول انتخابات للرئاسة دخلها الا أنه مع ذلك حصل على نتيجة تدعو الى الدهشة . فقد حصل المرشح الديموقراطى . النجاج (بوكان) على ١٦٩ر١٨٢٨ صوتاً بينما حصل فيرهونب الجمهورى على ٢٦٤ر١٣٤١ صوتاً - وكانت جميع الاصوات التى حصل عليها فى الولايات الحرة ، ومن بين هذه الولايات منحتة احدى عشر ولاية أصواتها بينما منحت الخمس الاخرى أصواتها لبوكانان ، وكانت ايلينوى ولاية لتكولن واحدة من هذه الخمسة .

وبدأ الحزب الديموقراطى حياته بجاكسن ، وظل فى الحكم من سنة ١٨٢٩ الى سنة ١٨٦١ باسمنشأه فنرتى سنة ١٨٤١ عندما انتخب هاريس وسنة ١٨٤٩ عند ما انتخب تيلور للرئاسة . وكانت فترة سنة ١٨٤١ ضعيفة الاثر لأن هاريس مات بعد شهر من توليه الرئاسة ، وانضم تيلور ، الذى كان نائباً للرئيس ومن ثم تولى الرئاسة بعد وفاته ، الى الديموقراطيين فى أغلب تصرفاته . وكان موضوع التعريفه أهم مشكلة انقسم فيها الحزبان حتى ظهور مشكلة الرق . فكان الديموقراطيين فى جانب التعريفه المنخفضة ودعوا معارضوهم ، الاحرار ، الى التعريفه المرتفعة . وكان الجنوب من أنصار حربة التجارة ، وكانت نيو انجلاند من أنصار الحماية الجمركية . وكانت ولاية نيويورك ديموقراطية عادة ، بينما كان الشمال الغربى يتراوح بين هذا وذلك . ولما كانت التعريفه هى موضع الخلاف الاساسى ، وكان الجنوب متحدا فيما يتعلق بها والشمال منقسماً على نفسه ، فإن الجنوب كان عادة هو المسيطر على ادارة البلاد ، فمن سنة ١٧٨٩ الى سنة ١٨٦١ لم يحكم الشماليون سوى اثنتى عشرة سنة . وأشعر ذلك الجنوبيين بأن من حقهم أن يتولوا الحكم . ولما كان الشمال يزيد على الجنوب فى المساحة وعدد السكان

والثروة ، فقد وضع شيئا فشيئا أنه لا بد سائد في النهاية . وقد بدا ذلك شيئا فظيما في نظر قوم تعودوا أن يحكموا . فكفروا في غزو المكسيك وكوبا وأمريكا الوسطى ، وراودهم حلم ادخال الرق في جميع أنحاء الغرب . وكانت عقليتهم عقلية أرسطوطين مهاددين ، وأحسوا بأن في الأمر شيئا غير عادي اذ يتوقع منهم أن يخضعوا للأغلبية العددية دون سبب آخر يدعو الى هذا الخضوع ، وبدلا من أن يتجهوا الى التوفيق عندما اقتربت الازمة ، صاروا أكثر ضجيجا ووعيدا ، وأرادوا أن يخيفوا الشمال ، الذي ظنوه جبانا ، بالإعلان عن أنفسهم بالصياح والتهديد .

واحتفلت المحكمة العليا ، التي كانت أغليبتها من الجنوبيين ، بتولى بوكاتان السلطة بأن أعلنت بعد يومين من توليته (٦ مارس سنة ١٨٥٧) . قرار «درسدكوت» الشهير الذي نفض ما كان مفروضا من قبل انه العانون . فقد صدر قرار قضائي يقول ان الزوج « لا يمكن أن يصبحوا من مواطني الولايات المتحدة وليس لهم حق التقاضي أمام المحاكم الاتحادية . . وأن دستور الولايات المتحدة يعترف بأن العبيد من الممتلكات ويهيب بالحكومة الاتحادية أن تحميها ، وأن قانون اتفاسق ميسوري والقوانين الأخرى التي تحرم الرق ليست دستورية » . ونص صراحة على أن ما جاء في إعلان الاستقلال ، من أن كل الناس يولدون متساوين ، لم يكن مقصودا به أن يطبق على الزوج . .

ورحب الجنوب بهذا القرار في ابتهاج ، وسكت الشمال الذي لم يكن يريد تعريض المحكمة العليا للاذراء . وقال لنكولن ، الذي لم يتردد يوما ما في احترام الدستور ، ردا على خطاب ألقاه دوجلاس :

• « والآن فلنتحدث عن فرار « درسدكوت » : ان هذا القرار يعين فصيلتين - الأولى ان الزنجى لا يستطيع التقاضي أمام محاكم الولايات المتحدة ، والثانية أن مجلس الامة لا يستطيع تحريم الرق في أى أفليم . وقد أصدرت هذا القرار محكمة منقسمة على نفسها ، مختلفة في انقسامها فيما يتعلق بالنقط المختلفة . ولا يناقش القاضى دجلاس مزايا القرار ، وسأخذو حذوه في هذا الشأن لانى أعتقد أن عدم قدرتى على اضافة شيء الى ما قاله ماكين وكوتس في الموضوع يعادل عدم قدرته على اضافة شيء الى ما قاله فاني . لوهو يهاجم كل من يشك في صحة هذا القرار على أساس انه يقاومه بالعنف . ولكن من الذى يقاومه ؟ من الذى تحدى هذا القرار وأعلن أن درسدكوت خر وقاوم سلطة صاحبه عليه ؟ ان للاحكام القضائية كلها فائدتان . الأولى انها تقرر بصفة نهائية إلهكم فى القضية المعروضة ، والثانية انها تبين للناس كيف يحكم فى القضايا الأخرى الماثلة عندما تعرض . وتسمى الاحكام القضائية فيما يتعلق بفائدتها الثانية «سوابق» و «مراجع» .

وانا لنؤمن قدر ما يؤمن القاضى دجلالاس ، وربما كنا نؤمن أكثر منه .
بالطاعة والاحترام الواجبين للسلطات القضائية فى الحكومة . ونعتقد أن
أحكامها فى المسائل الدستورية ، عندما تنتقر بصفة نهائية ، يجب أن
تسيطر على سياسة البلاد كلها لا على القضايا المحكوم فيها فقط ، وانه
لا يحق لاحد نقضها الا بتعديل الدستور بالطرق التى جاءت فيه هو نفسه .
وأكثر من ذلك يعد ثورة . ولكننا نعتقد أن الحكم فى قضية دريسكوت
حكم خاطئ . ونحن نعتزف أن المحكمة التى أصدرته كثيرا ما نقضت
أحكامها بنفسها ، وسنعمل ما فى وسعنا لان نجعلها تنقض هذا الحكم .
ونحن لا نقاومه ، لان الاحكام القضائية تعد مراجع الى حد ما بوصفها
سوابق تبعا للظروف . وهذا الوضع يفتق مع كل من الادراك السليم
والمعنى التقليدى لمهنة القانون . فاذا كان هذا الحكم الهام قد صدر باجماع
القضاة ، ودون تحيز حزبي ظاهر ، ومتفقا مع ما يتوقعه جمهور المستعزبين
بالقانون ، وما جرى به العمل باستمرار فى المحاكم طول تاريخنا ، ولم
يكن بأى شكل قائمة على وقائع تاريخية ليست فى الواقع حقيقية ، أو اذا
كان ينقصه بعض هذه العناصر - مما جعله يعرض على المحكمة أكثر من
مرة ، وتؤكد الحكم المرة بعد المرة على طول السنين ، فعمله يكون عندئذ
بل انه ليكون قطعا ، فى حكم التخريب بل الثورة ان لا نرضى به وننتخبه
سابقة . ولكن عندما نجد ، كما هو الحال ، أن كل هذه العناصر التى
تجعلها جديرا بنقطة الشعب تنقصه ، فان اعباراه مبدأ لم يستقر بعد فى
هذه البلاد لا يعد مقاومة ولا يعد تمردا ولا حتى عدم احترام » .

غير أنه بينما كان الامر المباشر للحكم فى قضية دريسكوت أنه بعث فى
الجنوب ثقة وأشاع الحيرة فى الشمال ، فان أثره النهائى كان مختلفا عن
هذا كل الاختلاف . فقد أصبح يبدو ، والحالة على ما هى عليه ، أنه لم
تعد هناك من وسيلة قانونية يمكن بمقتضاها تحريم الرق فى الاقاليم
الشمالية الغربية . ولم تكن هناك حاجة الى الغاء قانون انفاق ميسورى
ما دام هذا القانون غير دستورى ، أما قانون نبراسكا الذى عارضه
الشماليون بشده فكان يمنح الولايات الجنوبية أقل مما كان الدستور قد منحه
نهما من قبل . فكان المحكمة العليا قد قالت لهم : « انكم قد تكونون نافرين من
الرق ، وقد ترفعون من قدر الزنجى فى أنظاركم أكثر مما كان الناس
يفعلون فى سنة ١٧٨٩ ، ولكن مشاعركم وآراءكم لاجدوى ترجى من ورائها
فى مقاومة كلمات قررت فى ذلك العهد . قد تعتقدون أنكم تعيشون فى
ظل ديموقراطية ، ولكنكم مخطئون : انكم ما زلتم تحكمون بما تقرر منذ
سبعين عاما تقريبا ، وستظلون فى قبضة اليد الميتة حتى يوافق ثلاثة أرباع
الولايات المتحدة على اطلاق سراحكم . وسأنقل هنا بعض الفقرات التى جاءت
فى الحكم نفسه ، وحتى لا يعتقد البعض أن هذا الشرح مضلل :

« ليس هناك على ما نعتقد من يفترض أن أى تغيير فى الرأى العام أو الشعور العام فيما يتعلق بهذا الجنس البائس عند الامم المنمدينه فى أوروبا أو فى هذه البلاد ما يجب أن يحمل المحكمه على أن تضىء على كلمات الدستور معانى أكثر تحررا لمصلحة الزوج مما قصد بها عندما وضع الدستور وأقر . . ان الدستور ليس هو نفسه فى الفاظه فقط ، بل فى معانيه أيضا ، وفى السلطات التى يخولها للحكومة ، ويصون نفس الحقوق والامتيازات للمواطنين ويؤمنها لهم : وطالما بقى فى صورته الحالية ، فإنه لا يتحدث بنفس الالفاظ فقط ، بل أيضا بنفس المعانى والاعراض التى تحدث بها عندما خرج من أيدي واضعيه واقترح عليه شعب الولايات المتحدة وأقره » .

وكان واضحا أن غالبية المواطنين فى الولايات المتحدة لا يريدون اباحة الرق فى الاقاليم الشمالية الغربية . وأعلنت المحكمه العليا انه ليست هناك وسيلة لدى الغالبية لنجعل ارادتها تسود فى هذا الموضوع .

وكان هذا أمر غير محتمل ويدفع الى الحرب . ولو أن الجنوب كان أكثر صبرا ، لكان من الجائز أن يضطر الشمال الى القيام بعمل غير دستورى دفاعا عن حق الاغابيه فى الحكم . ولكن الجنوب كان أكثر تهجما وأقل تسامحا من الشمال ولهذا كان أول من التجأ الى القوة ، وكانت النتيجة أن الشمال ، بينما كان يدافع عن الدستور ، كسب أكثر مما كان يطالب به

وكان الجنوب والادارات التى تمثل مصالحه متعسفين غير مباليين بحقوق الآخرين فى العلاقات الخارجية وفى العلاقات الداخليه جميعا . وقد ضرب جاكسون فى معاملته للاسبانيين مثلا احذاه من جاءوا بعده على نطاق أوسع فى الحرب المكسيكيه . فقد كان الرئيس بيرس يبيحث عن أراض جديدة للرق يضمها ، لواعتقد أن كوبا تصلح لهذا الغرض . فحاول أن يشتري الجزيرة من أسبانيا ، ولكن أسبانيا بلغت بها القحة أن رفضت بيع الجزيرة من ثم اجتمع فى سنة ١٨٥٤ وزراء أمريكا فى مدريد ولندن وباريس واصدروا ما عرف باسم « بيان أوستند » ، الذى تضمن أنه اذا لم تقبل أسبانيا بيع كوبا ، فإنه يجب ضمها بالقوة ، وخلف بوكانان أول الموقعين على هذه الوثيقة الغربية بيرس فى رئاسة الجمهوريه . واستمر وهو فى هذا المركز يتحين الفرص لضم كوبا ، وكان الحزب الديموقراطى كله يؤيده فى ذلك . وعندما تولى الرئاسة قال « اذا نجحت فى تسوية مشكله الرق على أساس الشروط التى ذكرتها ثم ضم كوبا الى الاتحاد ، وكنت وقتئذ رئيسا ، فأبى سأكون على استعداد لان اسلم الروح وأترك الحكم لبريكتريديج » وكانت رئاسة الحزب الديموقراطى تدعو الى : « أن يبذل كل مجهود مناسب لتأكيد تفوقنا فى خليج المكسيك » . وتقابل الجهود التى تبذل « لاصلاح » أمريكا الوسطى بالاستحسان .

وعندما قرر الجنوب الانفصال لم يتخل عن خطة الفتح والتوسع في أمريكا اللاتينية ، وتضمن كتيب نشر في سنة ١٨٦٠ أن ملاك الرقيق سيحققون ما رسمته العناية الالهية وينشئون جمهورية غنية واسعة سعيدة مجيدة تمتلك الرقيق وتضم جميع أمريكا الاستوائية - وستقوم الاجيال القادمة وتستمطر علينا الرحمة والبركة » ، ويقول شانتج : « ان هذه الصورة لامبراطورية أو جمهورية تبيح الرق وتمتد من جبل فيرنون الواقع على نهر البوتوماك الى قصور مونتزوما بالقرب من موقع بركان بوبوكتابشل تطالعنا ثارة بعد المرة في كتب الجنوبيين » (١) .

وكانت نظرة سياسيي الجنوب هي النظرة التي ألفناها في انجلترا عند الاستعماريين من رجال الطبقة العليا ورجال المال الذين يوحون اليهم بأرائهم فتراجع الديمقراطية لتنزوى ويسود شيئا فشيئا حكم أقلية يقوم على السلب والنهب وتسيطر على الموقف سيطرة تتزايد على مر الايام ، ان ما يميز أمريكا في تاريخ العالم لم يكن يوجد في الجنوب بين سنة ١٨٥٠ وسنة ١٨٦٠ .

وكان الجنوبيون البارزون في علاقاتهم الشخصية، كما كانوا في علاقاتهم السياسية الكبرى ، منغطرسين قساة ، وشاهد ذلك أن سمنر عضو مجلس الشيوخ عن ماساشوسستس ، وهو رجل ممتاز ألقى خطابا في المجلس هاجم فيه تيلر عضو الشيوخ عن كارولينا الجنوبية فقال :

« انه ليؤسفني أن أعود مرة أخرى للحديث عن عضو الشيوخ عن كارولينا الجنوبية الذي أثبت وجوده تماما في هذه المناقشة ، واعتدته ثورة غضب للاقتراح البسيط الذي تقدمت به كنتساس لتكون ولاية في الاتحاد ، فأطلق العنان لالفاظه المفككة يهدفها في وجه ممثلها تارة وشعبها تارة أخرى ، ولم يترك حماقة من حماقات المناقشات البرلمانية القديمة الا أعادها ، أو التسواء في الحقيقة لم يستعمله ، ويسرني أن أضيف أنه كان يفعل كل ذلك بانفعال بالغ ينفي عنه شبهة التضليل المفضود ، ولكن الشيخ لا يمس شيئا الا شوهه - بخطأ في المبادئ وفي الواقع تارة أخرى وهو يظهر عجزا عن التزام الدقة سواء في ذكر الدستور أو في ذكر القانون ، وسواء في تفاصيل الاحصاءات أو في أفساد المصرفة ، انه لا يستطيع أن يفتح فاه الا لتخرج منه غلطة » .

وبعد يومين اعتدى شيخ جنوبي شاب اسمه بزوكس ، وهو ابن أخي تيلر عامدا على سمنر ، وهو جالس الى مكتبه فضربه أكثر من مرة على رأسه بعضا من المطاط ، وظل سمنر بعض الوقت لا يستطيع القيام لأن المكتب كان

يعوقه • فاستمر بروكس يضربه حتى فقد وعيه وسقط على الارض • وكانت العصا قد تناثرت قطعاً • وحال شيخ آخر من كارولينا دون وصوله من ارادوا التدخل لانقاذ سمير • وقد رفض مجلس الشيوخ لوم بروكس بأية صورة كانت • ولكن مجلس النواب ، الذى كان يضم أغلبية شمالية ، لام بروكس فاضطر للاستقالة ولكن أعيد انتخابه فوراً • وأعيب سمير نتيجة لهذا الاعتداء بعاهة فى العمود الفقرى لم يشف منها الا بعد سنين ظل خلالها غير قادر على العمل • وليس هذا سوى مثل واحد لعنف الجنوبيين الذى جعل واشنطن مكاناً غير أمين للشماليين •

وكانت الروح السائدة فى الجنوب تهدف الى اعادة تجارة الرقيق • وكان قدر معين من هذه التجارة يتم سرا فى السنين السابقة على الحرب الاهلية مباشرة ، الا أن من العسير معرفة الحقائق معرفة أكيدة بطبيعة الحال • وقد ذكر السناتور دوجلاس فى سنة ١٨٦٠ ان عدداً من الرقيق تم استيراده خلال سنة ١٨٥٩ أكبر ممن استوردوا فى أية سنة سابقة حتى عندما كانت تجارة الرقيق مشروعة • وفى سنة ١٨٥٨ وصل يخت اسمه « الواندرار » الى نهر شافانا وعليه حمولة من الرقيق جلبوا من أفريقيا • وقد تظاهر اليخت بأنه من يخوت النزهة وصادف صاحب ضبط المركب الحربية البريطانية « مدوز » التى كانت تبحث عن سفن تجار الرقيق • وبعد تبسادل المحاملات توجه اليخت الى الكونجو وشحنه بعدة مئات من الزنوج وذهب بهم الى كارولينا الجنوبية ووزعهم فى الجنوب ، ثم قبض على قبطان اليخت وبخسارته ، ولكنهم برئوا من التهمة ، وصودر اليخت ، الا أن شريك صاحبه ، وهو رجل اسمه لامار ، اشتراه ثانية • « وأبلغ الحاضرين فى المزاد أن اليخت كان ملكه وأنه أخذ منه بغير وجه حق وطلب اليهم الا يزايدوا عليه • فلم يشترك فى المزاد أحد سوى حارس السجن ، فاعتسدى عليه لامار فى نهاية المزاد بسبب عمله هذا » (X) • غير أن صاحب اليخت لم يفلت من العقاب فقد طرد من نادى اليخت فى نيويورك !

وقد وقع حادث آخر قبل ذلك بفترة قصيرة كانت نهايته أسوأ من ذلك بالنسبة لتجار الرقيق • إذ ضبطت الدلفين ، وهى إحدى سفن أسطول الولايات المتحدة ، المركب « أكو » وعلى ظهرها حوالى ثلاثمائة زنجى وقادتها الى شارلستون • ترى ماذا ينبغى عمله بها ؟ نوقشت المشكلة فى عدد أول سبتمبر سنة ١٨٥٨ من جريدة « ريشموندانكووير » على الوجه التالى :

« ان القانون يقضى بأن تصادر المركب وأن يدفع أصحابها غرامة توازى ضعف ثمن المركب وحمولتها ، وأن يشنق القبطان ويعسّد الزنوج الى

أفريقيا . ولكن من يعلم من أى جزء من أجزاء أفريقيا جاؤا ؟ إن القاءهم على الساحل أمر مشكوك فيه من الناحية الانسانية . وتركهم أحرارا فى كارولينا الجنوبية مستحيل . فلم يبق اذن الا البحث عن سادة طبيين لهم يستطيعون تحويلهم من برابرة لا فائدة فيهم الى عمال مفيدين . وتسأل أحد مواطني شارلستون قائلا : لماذا تعيدونهم الى بلادهم ؟ ان أصحاب المزارع فى حاجة اليهم ، ومثلهم فى ذلك المشغولون بالاعمال الميكانيكية والسكك الحديدية . لقد وصلوا الى عتمة المدينة . فلماذا نعيدهم الى البربرية ؟ لقد دخلوا نطاق التأثير بالمسيحية ، فلماذا نعيدهم الى الكفر ؟ ليس هناك من سبب لذلك سوى أن قسما آخر من البلاد ينظر باشمئزاز الى أوضاع الجنوب ويطالبونه بأن يقدم هذه التضحية لصالح الانسانية (X)

وقرر الرئيس ان الزواج يجب أن يعودوا الى أفريقيا . وسلمهم فى الوقت نفسه الى جمعية الاستعمار لتعنى بهم مدة عام . ولكنى لم أجد ما يدل على أن القبطان شنىق .

وسأل لعاب كارولينا الجنوبية عند رؤية الغنيمة التى حرمت منها ، فأصدر مجلسها التشريعى قرارات مؤداها أن التدخل فى تجارة الرقيق غير دستورى . ورفض المجلس التشريعى فى كينساس التصديق على قرار ضد تجارة الرقيق . ولكن حاكم فلوريدا وقد استنكر هذه « المشاعر المريضة السقيمة فى هذا الموضوع » ذكر صناعة تربية الرقيق الامريكية بان المنافسة الاجنبية تتعارض ومصالحهم .

وكانت كارولينا الجنوبية ، كدأبها دائما ، زعيمة الحركة وروحها . وشاهد ذلك أن أحد كبار المحلفين فى تلك الولاية تحدث عن القانون الذى يحرم تجارة الرقيق فقال انه « موضوع عام للشكوى » . وأشار الحاكم الى ضرورة اعادة تجارة الرقيق اذا أريد تجنب العمل الحر ، وذهب الى أنه لا يمكن منع النزاع بين العمل ورأس المال الا باستخدام الرقيق :

« فهو يقول انه اذا لم يتوفر الارقاء المطلوبون للعمل ، فلا بد أن ينوفع الجنوب نوعا من العمال لا يرغب فيه ، نوعا لا يتفق ونظامه : انه لخير ألف مرة للجنوب أن يقود عرباته ارقاء ويعمل فى مصانعة ارقاء ويخدم فى فنادق ويسوق قطاراته ارقاء من أن يتعرض لغزو قوم غرباء بمولدهم وتدريبهم وتربيتهم ، قوم سيؤدى وجودهم الى ذلك الصراع بين العمل ورأس المال الذى جعل من العسير الاحتفاظ بنظم حرة فى بلاد ليس فيها رقى . ففى كل الدول التى فيها رقى ينبغى للعنصر المتفوق أن يوجه والعنصر الأدنى أن يقوم بكل الخدمات اليدوية .

وقد شرح . ب . جولدن من جورجيا وجهة نظر الجنوب بوضوح يدعو الى الاعجاب في المؤتمر القومي الديمقراطي الذي عقد في شارلستون في مايو سنة ١٨٦٠ فقال :

« أقول لكم أيها الزملاء الديموقراطيون أن تاجر الرقيق الامريكى هو رجل الاتحاد بحق (هتاف وضحك) . وأقول لكم أن تجارة الرقيق فى فيرجينيا أكثر فسادا وأقل اتفاقا مع المبادئ المسيحية من أية ناحية نظرت إليها ، من تاجر الرقيق الافريقى الذى يذهب الى تلك القارة ويأتى الى هذه البلاد برجل وثنى لا قيمة له ويجعل منه رجلا مسيحيا ثم يرسله هو وذريته يتمتعون ببركات المدنية على مر الأجيال . . . لقد شاء حسن حظى أن أذهب الى هذه الولاية النبيلة القديمة لشراء بعض السود واضطرت لآن أدفع بين ١٠٠٠ دولار ، ٢٠٠٠ فى الرأس ، وكنت أستطيع الذهاب الى أفريقيا والحصول على زوج خير ممن اشتريت بخمسين دولارا للواحد منهم . . . اننى أدعو الى الغناء القوانين التى تحرم تجارة الرقيق الافريقية لآننى أعتقد أنها الدعوة الاتحادية الحقيقية . ولا أظن أن جهتين تختلف مصالحهما كما تختلف مصالح الشمال والجنوب تستطيعان أن تتحملا صدمات التعصب الا اذا كان بينهما توازن . وأنا أعتقد أنه اذا فتح الباب لهذه التجارة وجيء لنا بالزواج لتعمير هذه الاقاليم احتفظنا بالتوازن بين الشمال والجنوب » .

غير أنه يجب ألا نفترض أن الجنوب كان مدفوعا ببواعث دينية فى الدفاع عن نظام الرق ، بل على العكس ، انه كان ينفذ رغبات الخالق . وشاهد ذلك ما قاله ستيفنس نائب رئيس الاتحاد عند بداية الصراع :

« لقد كانت الآراء السائدة التى كان يعتنقها جفرسن ومعظم الزعماء السياسيين فى الوقت الذى وضع فيه الدستور القديم ، ان فى استرقاق اهل افريقيا مخالفة لقوانين الطبيعة وأنه خطأ من ناحية المبدأ ، خطأ اجتماعى وأخلاقى وسياسى . . . أما حكومتنا الجديدة قائمة على نقيض هذه الآراء على خط مستقيم ، ان قواعدها ودعائمها تقوم على حقيقة عظيمة هى أن الزنجى ليس مساويا للرجل الابيض ، وان الرق - أى الخضوع للجنس المتفوق - أمر طبيعى وعادى . وان حكومتنا الجديدة هذه لهى أول حكومة فى التاريخ تقوم على هذه الحقيقة المادية والفلسفية والاخلاقية الكبرى . . . ان الاساس الذى يقوم عليه مجتمعنا مكون من المادة التى أعدتها له الطبيعة ، وقد علمتنا التجربة أن من الخير للجنس المتفوق وللجنس الادنى معا أن يكون الأمر كذلك ، انه فى الواقع يتفق وما رسمه الخالق . وليس لنا أن نثيك فى حكمة ما قضت به ارادته أو نناقشه . فهو لحكمة يعلمها خلق الاجناس يختلف بعضها عن بعض كما جعل نجما يختلف عن نجم آخر فى سمائه . ان خير ما يحقق به الاهداف الانسانية

العظمى يكون باطاعة قوانين الخالق وأحكامه فى تكوين الحكومات كما يكون باطاعتها فى كل شىء عدا ذلك . إن تعاهدنا مؤسس على هذه المبادئ ، ومطابق كل المطابقة لهذه القوانين » .

لقد كان الصراع بين الشمال والجنوب تصادما بين مفهومين للسكان الاجتماعى مختلفين كل الاختلاف . فكان : الشمال يؤمن بالمساواة السياسية والجنوب يؤمن بضرورة خضوع العامل اليدوى الذى يجب أن يكون من جنس « أدنى » وكان التصور الشمالى تصورا حديثا يهدف الى تخفيف الرخاء للجميع عن طريق استعمال المخترعات الآلية ، وكان التصور الجنوبى عتيقا يهدف الى رضاء قلة عن طريق مجهود الرقيق . فالرق والديموقراطية لا يتفقان فى نظر الشمالى ، ولكن الرجل الديموقراطى اليونانى والرومانى كان يتفق مع الجنوب . وقصارى القول أن الجنوب كان ينتهى الى الماضى والشمال ينتهى الى المستقبل .

وحددت المصالح الاقتصادية نظرة كل من الاقسام المختلفة فى الولايات المتحدة وكانت هذه الاقسام ، فى المدة من سنة ١٨٥٠ - ١٨٦٠ ، أربعة : الجنوب الذى يزرع القطن ، والجنوب الذى يزرع الطباق والشمال القديم ، والشمال الغربى ، ولم يكن الغرب الاقصى قد أصبح ذا أهمية كبيرة الا فيما يتعلق بإنتاج الذهب .

وكان الجنوب زارع القطن هو الروح المحركة فى سياسة الجنوب خلال السنوات التى سبقت الحرب الأهلية . ذلك أن الطلب على القطن وخاصة من انجلترا زاد بسرعة عجيبة وعمل على رواجه ان انجلترا اتبعت مبدأ حرية التجارة (x) . وكان معظم العلاقات الاقتصادية لهذه المنطقة مع انجلترا عن طريق البحر ، وكانت المصنوعات البريطانية تستورد فى مقابل القطن . ومن ثم كانت هناك رغبة شديدة فى حرية التجارة . وحدث فى سنة ١٨٦١ كما حدث فى سنة ١٨٣٢ أن ذكرت كارولينا الجنوبية أن سبب خروجها من الاتحاد هى التعريف الجمركية . وكان الأثرياء من زراع القطن يحبون حياة العزلة فى مزارع القطن الواسعة ، وهى حياة لم تكن تساعد على نشر الثقافة التى امتازت بها فرجينيا فى الأيام السالفة . وحذا البيض الفقراء حذو كبار أصحاب الأراضى وأيدوا الرق لأنهم اعتقدوا الجنوب سيحل به الحراب اذا ألغى الرق ، ولانه كان من دواعى رضائهم أن يكون هناك من هم أقل منهم مرتبة لينظروا اليهم بعين الاحتقار . وعلى الرغم من أن كارولينا الجنوبية كانت تزرع القطن وأنها كانت أقل نجاحا من الولايات المطلة على خليج المكسيك ، وكان الشعور بالفضل التدريجى يجعلها فى حالة هستيرية .

(x) قدر محصول القطن سنة ١٨٥٠ بثمانية وسبعين مليوناً من الدولارات وبمائتين وثلاثين وستين مليون دولار سنة ١٨٦٠ « شاتنج » جزء ص ٢٩٧

وفقدت فرجينيا ، وهى من بين مجموعة الولايات الشمالية التى تباع الرق ، أهميتها الأولى ، ويرجع معظم السبب فى ذلك الى ارهاق الاراضى التى يزرع فيها الطباق . كما قل عدد السكان قلة شديدة فى كل من فرجينيا وكارولينا الشمالية بسبب الهجرة الى الغرب ، ولم يسدها النقص مهاجرون جدد من أوروبا . وكانت كنتكى على أوثق اتصالاً بأهيو الحرة منها بولايات الرقيق الأخرى . وكذلك كانت تنسى الشرقية أكثر ارتباطا بالشمال منها بالجنوب . وكانت ميسورى على الحدود منقسمة فى مصالحها قسامين متساويين تقريبا . غير أنه كان هناك سبب واحد يجعل ولايات الرق الشمالية شديدة الرغبة فى الاحتفاظ بالرق وذلك أنها كانت موطن تربية الرقيق . وكلمسا زادت مطالب إقليم القطن ارتفع ثمن الرقيق . فقد كان الجنوب زارع القطن غير صحى ، ولم يكن يستطيع انتاج كل الارقاء الذين يحتاجهم ويقول شاننج فى هذا :

« ان الأرباح التى كان يدرها انتاج أطفال الزوج فى ولايات الرق الشمالية كانت أرباحا ضخمة ، لأن كل زنجى يولد كان يساوى لصاحبه ٢٠٠ دولار فى وقت قصير جدا . ولسنا نجد ما يدعونا الى أن نقول أكثر من هذا . فليس على المرء الا أن يفكر فى هذا الموضوع لحظة أخرى حتى تتراءى له النتائج الكريهة التى تصيب كلا من السيد والعبد فى مثل هذه الحالة مهما حاولنا أن نقلل من شأن هذه النتائج . هذا الى أن تجارة الرقيق ، كبيرة كانت أم صغيرة ، أنشأت روابط اقتصادية بين المنطقة الشمالية التى كانت « تجيز الرق » ، اذا صح هذا التعبير ، والجنوب زارع القطن . ومن ثم عملت على تدعيم القوى السياسية والاجتماعية ربطت بين قسما ولايات الرق » .

وفى الشمال القديم ازدهرت نيو انجلند عن طريق الصناعة وظلت تدعو باستمرار الى رفع الضريبة الجمركية . وكانت الزراعة فى طريقها الى أن تفقد أهميتها بسبب نمو الغرب . وكانت مدينة نيويورك تعيش على التجارة ، بمضها مع الجنوب ، ولذلك كانت أكثر مودة للجنوب من بقية الشمال . وكانت كل المدن الكبرى فى الشرق تضم أعدادا كبيرة من المهاجرين الذين وصلوا حديثا ، وكان الايرلنديون أكثرهم عددا ، ولكن الألمان أيضا كانوا كثيرين رغم أن قسما كبيرا منهم استقر فى الغرب .

وكان الشمال الغربى بتاريخه ومصالحه الاقتصادية أكثر ارتباطا بالوحدة القومية من كل من الجنوب والشرق . وكان الدور الذى لعبه فى الصراع ، وقد تبين أنه دور حاسم ، مرتبطا بتاريخ لنكولن .

٥ - لنكولن والوحدة العربية

الفصل الخامس والعشرون

تكوين الوحدة القومية

كان للشمال الغربي ، أكثر مناطق الولايات المتحدة سرعة في النمو ، وأكثرها حيوية ، من بعض الوجوه ، مصالح اقتصادية عديدة كل التحديد ، وهي مصالح لم تكن مطابقة ، الى حد كبير ، لمصالح الأجزاء الأخرى من الاتحاد . فقد بدأ تصدير القمح يصبح ذا شأن قبيل الحرب الأهلية . وكان التصرف في الأراضى العامة فى ذلك الوقت ومراسيم حيازة الأرض والسكك الحديدية كلها أشياء يعتمد فيها الغرب على الحكومة الاتحادية أو الرأسمال الشرقى . ونجم عن الرغبة فى إيجاد ميادين جديدة للأيدى العاملة البيضاء معارضة فى التوسع فى الرق فى كنساس والأقاليم الأخرى التى كانت تناخم الشمال الغربى .

ونتج عن التاريخ وعن الظروف القائمة شعور فى الغرب يختلف كل الاختلاف عما كان موجودا فى الشمال أو الجنوب القديمين : وكان الولاء للولايات أضعف ، والولاء للاتحاد أقوى مما كان قبل ، فبينما كانت الولايات الأقدم عهدا موجودة قبل الحكومة الاتحادية ، كانت الولايات الغربية مدينة بنشأتها لهذه الحكومة . وكان المهاجرون الذين استقروا فى هذه الولايات بعضهم من الشمال وبعضهم من الجنوب وكان عدد كبير منهم مهاجرين حديثى الوصول الى أوروبا يبحثون عن الحرية والرخاء فى أرض الميعاد ، ولكنهم كانوا غير مهتمين بالانقسامات المحلية . هذا الى أن الغرب لم يكن يطل مباشرة على البحر ومنه الى أوروبا بل كانت تفصل بينه وبين البحر مئات من الأميال من الطرق أو الأنهار الأمريكية . وكان يتطلع الى الحكومة الاتحادية لتشجيع انشاء الطرق وتساعد الاحتفاظ بها حرة آمنة من اليهود ولتبقى الطرق المائية مفتوحة . وكان الشمال الغربى (*) خاصة يعتمد على الوحدة القومية أكثر من غيره . فقد كانت الطرق ، وبعدها السكك الحديدية ، وكذلك الطريق المائى عبر البحيرات العظمى وقناة ايرى تجرى شرقا وغربا ، بينهما كان الميسيسى وروافده تجرى شمالا وجنوبا . واذا غضضنا النظر عن وسائل النقل كان الاسبان فى الجنوب والانجليز فى الشمال والهنود فى كل مكان لا يريدهم فيه أحد يذكرون الغرب بحاجته الى حكومة قوية . وليس مستغربا فى هذه الظروف أن اكتسب شعور الوطنية

(*) كان الشمال الغربى فى أيام تكتون يتكون من القسم الشرقى من الأقليم الذى يعرف الآن بأقليم الغرب الاوسط .

نحو الولايات المتحدة قوة أكبر بكثير مما كان عليه في الشرق حيثما ظل الولاء القديم للولاية باقيا كما كان .

وتعرض ابراهام لنكولن ، الذي وجد الغرب فيه معبرا قويا عن سياسته ، في حدائنه للمؤثرات الخارجية التي أثرت في معظم المواطنين في ايلينوى . وقد ولد كما رأينا في كنتكى في فقر مدقع .ولسكن أسرته رحلت الى انديانا عندما كان في السابعة من عمره . ويقول نيقولاى وهاي « ان الظروف الاجتماعية في كنتكى تغيرت كثيرا عما كانت عليه أيام الرواد الاول ، وأخذت الحياة طابعا أكثر استقرارا وتنظيما . وولت المساواة البربرية القديمة ، وبدأت تظهر للعيان فوارق بين الطبقات ، فكان الذين يملكون ريفيا يتمتعون بتفوق اجتماعى واضح على أولئك الذين لا يملكون . وأدرك توماس لنكولن ذلك ، وقد انتهى الى ان كنتكى لم تعد تصلح للرجل الفقير فقرر أن يحرب حظه في انديانا » ، غير أنه لم يجد الحظ في انتظاره هناك ، وسنة ١٨٣٠ ، وهى السنة التى بلغ فيها ابراهام رشده ، قرر والده أن يتجه غربا مرة أخرى ، الى ايلينوى هذه المرة .

وقد شكلت السنوات الاولى من حياة لنكولن شخصيته . ففي طفولته « عاش حياة منفردة في الغابات يعود من العابه الصغيرة التى كان يقوم بها وحده الى منزل لا بهجة فيه . ولم يتحدث أبدا عن هذه الأيام حتى لا تقرب أصدقائه . . . ولم يكن لنكولن يعرف شيئا عن كل الوسائل التى تستعمل لتنمية عقل الطفل وروحه ، والتى يهينها كل بيت الآن لأطفاله ، مثل الكتب ، واللعب ، والمظاهر اليومية للخب الأبوى ، » ، لقد كانت بيئة مكونة من العمل الشاق وتقاليد الهنود والوحدة وسكون الغابة ، انه كان يحب المخلوقات البشرية ، ولعل بعض السبب فى ذلك أنهم كانوا نادرين فى الغابة .

وشق لنكولن طريقه الى النجاح فى ايلينوى شيئا فشيئا ، ولم يكن ذلك بنبوغه الفائق بل كل بالجد فى العمل وما كان يتحلى به من شخصية وطبع جعلاه موضع حب الناس . وصار فى سنة ١٨٣١ كاتباً ومساعداً فى متجر ، وأخذ حمولة من البضائع عن طريق النهر الى نيو أورلينز . وفى سنة ١٨٣٢ اشترك فى حرب « الصقر الأسود » . وقد هيأه ذلك فرصة فيما بعد (١٨٤٨) ليهزأ بالمجد العسكرى باعتباره ميزة سياسية يعتمد الشخص عليها ، وذلك عندما بدأ الناس يرفعون من قدر جنرال كاس بسبب خدماته فى حرب سنة ١٨١٢ ، وهى خدمات يكتنفها الغموض بعض الشيء . وفى ذلك يقول لنكولن :

« هل عرفت يا سيدى الرئيس أننى بطل عسكرى ، وفى حرب الصقر الأسود قاتلت ونزف دمي وخرجت حيا . لم أكن موجودا فى هزيمة

سبتلمان ولكنى كنت قريبا منها بقدر ما كان القائد كاس قريبا من المعركة التى سلم فيها هال : وقد رأيت ، كما رأى هو ، أرض المعركة بعد حدوثها بقليل . وما لا شك فيه أننى لم أكسر سيفى ، لائى لم أكن أملك سيفا ، ولكنى نثيت بندقيتى ثنية شديدة فى احدى المناسبات . واذا كان القائد كاس قد تفوق على فى التقاط الثوت الشوكى ، فأظن أنى تفوقت عليه فى مهاجمة البصل البرى . واذا كان قد رأى أى محارب هندى حى فانه فعل أكثر مما فعلت ، ولكنى اشتركت فى معارك دموية كثيرة مع البعوض ، وعلى الرغم من أنى لم أصب أبدا بالاعماء بسبب نرف الدماء ، فأنى أستطيع أن أقول صادقا أنى كثيرا ما أحسست بجوع شديد . واذا حدث يوما أن تخليت عن المبادئ الاقتصادية التى يفترض أصدقائنا الديمقراطيون أن رأسى ملء بها ، ومن ثم سيجعلوننى مرشحهم للرئاسة ، فأننى أطلبهم بالأى يجعلوا منى هدفا للسخرية ، مثلما جعلوا من القائد كاس ، بأن يحاولوا أن يخلقوا منى بطلا عسكريا .

وكان لنكون مرشحا للمجلس التشريعى فى ايلينوى فى الوقت الذى حدثت فيه هذه المغامرات العسكرية . وقد دخل الانتخابات على مبادئ الأحرار مؤيدا لهنرى كلاى . وقد قال : « أنا من مؤيدى انشاء مصرف قومى ، ومن مؤيدى نظام الاصلاح الداخلى ، والحماية الجمركية عن طريق التعريفية المرتفعة . وتلك هى مشاعرى ومبادئى السياسية » . ولم يحاول لنكون فى يوم من الايام أن يكسب أصواتا بالالتجاء الى الإبهام فيما يتعلق برأيه . وكانت ولاية ايلينوى تؤيد جاكسن ، وكان لنكون ضده ، فهزم فى هذه المرة .

ولما فشل فى السياسة فكر فى أن يصير حدادا ، ولكنه أصبح شريكا فى بقالة بطريق الصدفة . وأفلست البقالة وتركته غارقا فى الديون . ثم عمل فترة وكيلًا لمكتب بريد ، وبعد ذلك مساحا رسميا . ويقال عنه أنه كان محبوبا أينما ذهب ، وكان يقال هذا الحب أحيانا لأسباب غير متوقعة من ذلك . أنه كان خيرا حكم لسباق الخيل فى البلد . « أنه كان يستطيع أن يرفع برميل الويسكى من الأرض ويشرب من صمامه » . وسواء لهذه المزايا ، أو لغيرها ، وضِع فى رأس قائمة المرشحين لانتخابات المجلس التشريعى سنة ١٨٣٤ .

وكانت تصرفاته السياسية فى هذه المرة سليمة ولكنها لم تكن باهرة ، باستثناء مرة واحدة هى « احتجاج لنكون - استون » فى سنة ١٨٣٧ . وكان هذا أول اعلان لآرائه الشخصية فى موضوع الرق الذى كان قد حرم نهائيا فى ايلينوى بمقتضى اقتراح عام حدث سنة ١٨٣٢ بعد فترة من التسامح أو ما يشبهه . وعلى الرغم من هذا التصويت العام فقد كان هناك

عداء شديد نحو دعاة التحريم امتد الى جميع مواطني نيو أنجلند . فكان من الخطورة أن يعلن المرء أنه من معارضي الرق ، وصدرت قوانين شديدة تمنع دخول الزوج الأحرار في ايلينوى . وقد رأينا فيما سبق كيف أن النفس الياحجوى اغتاله الدهماء في آلتون بايلينوى بسبب دعوته لتحريم الرق في سنة ١٨٣٧ نفسها التي جهر فيها لتكولن واستون باحتجاجهما . وكان هذا الاحتجاج ضد قرارات اتخذها المجلس التشريعي للولاية ، ووافق عليها بالإجماع مجلس الشيوخ ، ولم يعارضها الا خمسة أعضاء فقط في مجلس النواب ، وهي قرارات تؤيد وجهة نظر الجنوب فيما يتعلق بالرق . وقد تضمن احتجاجهما اعتقادهما بأن « نظام الرق يقوم على الظلم وعلى سياسة خرقاء في نفس الوقت ، ولكن العمل على نشر مبادئ التحريم تجنح الى زيادة مساوئه أكثر مما تخففها » . وبمضيان قائلين ان ليس من حق مجلس الأمة ، في ظل الدستور ، أن يتدخل في مشكلة الرق في الولايات . ومما بدا على مدى تغيير الآراء بسرعة ، أن مثل هذا الاحتجاج المعتدل نفسه كان في سنة ١٨٣٧ يعتبر عملا من الأعمال التي تحتاج الى شجاعة فائقة . ويبدو من لتكولن منذ ذلك الوقت ذلك المزيج الذي ظل محتفظا به دائما ، وهو نفوره من الرق واحترامه للدستور .

وبدأ في سنة ١٨٤١ ممارسة القانون الذي دأب على دراسته سنين طويلة في أوقات متفرقة . وكان محاميا ناجحا ومحبويا ، وان لم يكن دخله من المحاماة كبيرا في يوم من الأيام : « وكانت أكبر أتعاب تقاضاها هي مبلغ خمسة آلاف دولار من سكة حديد ايلينوى المركزية ، بعد أن اضطر الى مقاضاة الشركة ليرغمها على آداؤها (X) » . وفي سنة ١٨٤٦ انتخب عضوا في مجلس الأمة ، وكان العضو الوحيد من الأحرار الذي نجح في ايلينوى وكان يعتقد أن الحرب المكسيكية لا مبرر لها . ولكنه رأى انها وقد بدأت يجب تأييدها حتى تنتهي بالنصر . وقد قال في خطبة له ألقاها في مجلس الأمة ما يأتي : « اذا كان القول بأن الحرب بدأها الرئيس بلا ضرورة تدعو اليها وبطريقة غير دستورية يعد معارضة الحرب ، فان جميع الاجراء قد عارضوها بصفة عامة . ولكن اذا كان تقديمنا لاموالنا وأرواحنا مع أموالكم وأرواحكم بعد أن بدأت الحرب وصارت قضية البلاد ، يعد تأييدا للحرب فانه ليس صحيحا اذن أننا كنا معارضين للحرب على الدوام » . وكان يذهب دائما الى أنه ينبغي للمواطن الفرد الا يقف موقف المعارضة من حكومة منتخبة بالطريق الديمقراطي الا اذا كانت تلك المعارضة بطريق المناقشة ، وكان لتكولن أحد المفكرين القلائل الذين آمنوا بالديموقراطية بصورة متسقة لا تناقض فيها مطلقا . ولم يكن يؤمن ، مثل جفرسن ، بأن يكون الحكم للشعب فقط .

بل وبالشعب أيضا ، ولم يغب عن باله مطلقا الحاجة الى السلطة والى
الخضوع للقانون .

ولم تؤدِ المدة التي قضاهما لنكولن في مجلس الامة الى زيادة اهتمامه
بالسياسة ، فعاد في سنة ١٨٤٩ الى ايلينوى والى المحاماه وفي ذلك يقول :
« مارست القانون من أول سنة ١٨٤٩ الى آخر سنة ١٨٥٤ باجتهاد ومنايرة
أكثر من أي وقت مضى . وكان اهتمامي بالسياسة قد أخذ يفتقر ، حتى
أثارني ثانية الفاء اتفاق ميسوري » . وما يجدر بالملاحظة أنه درس المنطق
خلال سني تقاعده وحفظ عن ظهر قلب كتب اقليدس الستة . ويستطيع
المرء ان نتبين أثر ذلك في خطبه ، فهو يقول مثلا : « في وسع المرء ان
يقول بكل ثقة أنه يستطيع اقناع أي طفل عاقل بأن نظريات اقليدس البسيطة
صحيحة . الا أنه قد يفشل كل الفشل مع شخص ينكر التعريفات
والبدهييات ومبادئ جفرسن هي تعريفات المجتمع الحر وبدهيياته » .
ومما لا ريب فيه ان جفرسن كان من أصحاب هذا الرأي ، وأنه كان متأثرا
باقليدس تأثرا مباشرا غير مباشر في تفكيره انسياسي . وان احلال الطريق
الامستقراطية محل الاستنتاجية اكان عملية بطيئة وتدرجية ، أدى
التقدم الذهني فيها أحيانا الى تخلف سياسي . ولعل لنا أن ننتهج أن لنكولن
ظل على الرغم من اتصاله الوثيق بالتجربة الانسانية يفكر على أساس
استنتاجي في بعض المسائل ، لأنه اكتسب عن هذا الطريق ثقة وقوة في
الاقناع .

وكان كرهه لنكولن للرق سببا في اعادته مرة ثانية الى ميدان السياسة
عندما بدأ أن هناك خطرا من امتداد الرق وكانت عودته اليها على الرغم من
سيطرته التامة على هذا الفكرة واخضاعه لاحترامه للدستور .

وكان الرجل الذي افر اتفاق ميسوري بقانون بداسكا هسو الشهير
دجلاس ممثل ايلينوى . وتقابل دجلاس هذا ولنكولن لأول مرة سنة ١٨٥٤
في مناقشة عامة في مهرجان الولاية الزراعي الذي أقيم في سبرنجفيلد ودار
النقاش حول النتائج التي أسفر عنها عمل دجلاس وزادها حدة . وقال
دجلاس في معرض دفاعه عن مبدئه الخاص بسيادة الشعب ، كما كان
متوقعا منه أن يقول . أنه لا يهتم بأن تصوت الاقاليم الجديدة مع الرق
او ضده ، وأنه يكتفي بترك الأمر لرغبات المستوطنين . وأوضح لنكولن ،
في خطاب استمر أربع ساعات ، المبادئ التي استرشد بها في كل تصرفاته
التالية :

ليس في وسعي الا أن أمقت عدم المبالاة التي أعلنت ، والتي أعتقد أنها
تخفي حماسة في تأييد التوسيع في نطاق الرق ، أمقتها لما تنطوي عليه
نظام الرق نفسه من ظلم وحش . وأمقتها لأنها تحرم المثل الجمهوري .

الذى ضربناه للعالم مما يستحقه من نفوذ فى العالم هو له بحق ، وتجعل فى وسع أعداء الأوضاع الحرة اتهامنا بالنفاق ولديهم ما يبرر ذلك الاتهام ، وتجعل أصدقاء الحرية الحقيقيين يرتابون فى اخلاصنا ، وامقتها بصفة خاصة لانها تدفع عددا كبيرا من الناس الاخيار بيننا الى اعلان الحرب السفارة على المبادئ الاساسية للحرية والمدنية والى انتقاد اعلان الاستقلال والاصرار على أنه لا يوجد مبدأ صحيح تقوم عليه تصرفاتنا الا المصلحة الذاتية ، .

ان مبدأ الحكم الذاتى سليم - سلامة مطلقة أبدية - ولكن تطبيقه كما يحاولون الآن ليس من العدل فى شىء ، أو لعلنى يجب أن أقول ، أن عدالة تطبيقه فى هذه الحالة تتوقف على نظرتنا للزنجى أهو رجل أم ليس برجل ، فإذا لم يكن الزنجى رجلا فى هذه الحالة يستطيع من هو رجل أن يفعل به ما يشاء باعتباره ينصرف فى نطاق حكمه لذاته . أما اذا كان الزنجى رجلا ، أليس فى قولنا أن ليس له الحق فى أن يحكم نفسه القضاء الكامل على مبدأ الحكم الذاتى ؟ أن الرجل الأبيض عندما يحكم نفسه كان ذلك حكما ذاتيا ، أما حين يحكم نفسه ويحكم أيضا رجلا آخر ، فإن هذا أكثر من حكم ذاتى - أنه طغيان » .

وهناك فقرة تنم بصفة خاصة على أقوال لنكولن اللاحقة :

« لقد أخذنا نتجه قليلا قليلا ، ولكن باستمرار ودون توقف ، نتخلى عن عقيدتنا القديمة ونستبدل بها عقيدة جديدة كلما تقدمت بنا السنون نحو القبر ، فمنذ حوالى ثمانين عاما بدأنا بأن أعلننا أن جميع الناس خلقوا: أكفاء ، ولكننا الآن اتجهنا من هذه البداية نحو اعلان آخر نقيض ما بدأنا به ، وهو أن استعباد انسان غيره من الناس « حق مقبس من حقوق الحكم الذاتى » ان هذين المبدئين لا يمكن أن يقوما جنبا الى جنب . انهما متناقضان تناقض الله والشيطان » .

وكان للنقد الذى وجهه لنكولن لدجلاس اثر كبير فى ايلينوى ، وانضم عدد كبير من الديموقراطيين الى الفريق « المناهض لنبراسكا » فى معارضة أى توسع فى الرق . وبدأ دجلاس ، بعيد أن أحس بقوة الرأى العام ، يعتدل بعض الشئ فى تشييعه لأصدقائه الجنوبيين . وعندما تنافس الرجلان على انتخاب مجلس الشيوخ فى سنة ١٨٥٨ ، دفعة لنكولن الى التراجع أكثر من ذى قبل وفقد بذلك تأييد ولايات أرق فى سنة ١٨٦٠ وأدى ذلك الى انقسام فى الحزب الديموقراطى كانت نتيجة انتصار لنكولن فى انتخابات الرئاسة . ذلك أن الجترب كان يحكم بمعونة أصوات الشماليين ، وكانت مناقشات لنكولن لدجلاس هى التى جعلت استمرار ذلك الوضع مستحيلا .

واتضح للنكولن أن لابد من قيام صراع عنيف في موضوع الرق قبل أن ينتضح ذلك لغيره من الرجال العامين . ولم يكن هو نفسه يريد الصراع ، وكان مستعدا لتترك الجنوب وشأنه في حيازته للرقائق ، ولكنه كان يشعر بأنه لن يكون هناك حل سلمى يقبله الطرفان . فهو يكتب لاحد أصدقائه في سنة ١٨٥٥ قائلا : « ان التجربة قد دلت ، فيما أعتقد ، على أنه ليس أمامنا أمل في انهاء نظام الرق بطريق سلمى » ، ثم يمضى قائلا : « أما مسألة تحرير الرقيق بوسيلة سلمية اختيارية ، فان حالة الرقيق من الزوج في أفريقيا ، وهى حالة اذا فكر فيها الرجل الحر هالته بشاعتها ، قد أصبحت ثابتة ولا أمل في اصلاحها أكثر من أمل الأرواح الضالة غير النادمة في الجنة . وأنه لايسر للحاكم المطلق لجميع الروسيين أن يتخلى عن عرشه ويعلن أن رعاياه جمهوريون أحرارا ، من أن يحرر ساداتنا الأمريكيون عبيدهم مختارين . »

« ان مشكلتنا السياسية الآن هى : هل نستطيع نحن بوصفنا أمة ، أن نظل متحدين والى الأبد اذا بقي نصفنا أرقاء والنصف الآخر أحرارا ، ان المشكلة أشد استعصاء على حتى لا أستطيع لها حلا ، وانى أضرع الى الله أن يلهمنا برحمته الحل (X) . »

وكانت هذه أول مرة نادى فيها بالمبدأ الذى أعلنه سنة ١٨٥٨ في النزاع الذى بينه وبين دجلاس في مجلس الشيوخ . فقد قال في معرض حديثه عن سياسة نبراسكا بعد قبوله الترشيح ما يأتى :

« اننا الآن في السنة الخامسة وقد مضى منها شطر كبير منذ أن بدأت سياسة معينة كانت تهدف صراحة وفى ثقة بالمستقبل الى وضع حد للهياج فى موضوع الرق . ولم يقتصر الأمر على أن تطبيق هذه السياسة لم يضع حدا للهياج ، بل انه زاد زيادة مستمرة . وأنا أعتقد أنه لن يتوقف الا اذا تآزم الأمر ووجد له حل . (ان منزلا منقسما على نفسه لا يستطيع البقاء) . واعتقادي ان هذه الحكومة لن تستطيع البقاء الى غير نهاية اذا كان نصفها رقيقا ونصفها أحرارا . ولست أتوقع أن يحل الاتحاد . فلست أظن أن المنزل سينهار . ولكنى أتوقع أن الانقسام سيزول . بل ستتحوّل الى هذه الناحية أو الى تلك . فاما أن يستطيع معارضوا الرق أن يوقفوا انتشاره ، ويجعلوه بحيث يستريح الرأى العام الى أنه صائر حتما الى الالفاء ، أو أن دعائه سيدفعونه الى الأمام حتى يصير مشروعا فى كل الولايات ، القديم منها والجديد والشمال والجنوب . »

وبدأ هذا المذهب فى ذلك الوقت غريبا ليس له ما يبرره : ووجد دجلاس

فى المناقشات التى دارت بينه وبين لنكولن ، التى كانت أكثر ما يثير الاهتمام فى الحملة الانتخابية كلها . نقول : ا دجلاس وجد مهاجمة لنكولن فى هذه النقطة أشد حججه أثرا . فقد افترض أن لنكولن يدعوا الى القتال باعتباره أمرا مرغوبا فيه ، وليس أنه يتنبأ بما سيقع حتما فى المستقبل تقوده حكمته العجيبة التى لا تتسم بأى دافع شخصى . فاتهم لنكولن بأنه يثير حربا أهلية ، حرب الشمال ضد الجنوب ، حرب إبادة تستمر حتى ينتهى أحد الطرفين بالخضوع الى الطرف الآخر وكانت الفكرة العامة أن دجلاس سيكون له الفوز ، بل أن الجمهوريين فى الشرق أسفوا لأنه كان يلقي معارضة . فقد غير رأيه مؤخرا الى حد ما وانضم الى الجانب الآخر فيما يتعلق بشئون كنساس ، وكان يظن أنه يستحق التأييد على هذا الأساس .

وكان مركز دجلاس حرجا للغاية على الرغم من أنه كان مناقشا ماهرا ، فاذا هو أرض الجنوب فقد ايلينوى ، واذا فشل فى أرضاء الجنوب لم يبق له أمل فى أن ينتخب للرئاسة فى سنة ١٨٦١ . وقد أرغمه لنكولن فى مناقشة جرت فى فريبورت أن يبدي رأيه صريحا فى موضوع كان يفضل فيه الابهام . فقد سأل بين أسئلة أخرى : « هل يستطيع سكان اقليم فى الولايات المتحدة تحريم الرق داخل حدود هذا الاقليم ضد رغبة أى مواطن من مواطني الولايات المتحدة قبل أن يتم وضع دستور الولايات التى يقيمون فيها ؟ » فأجاب دجلاس أنهم يستطيعون ذلك على الرغم من حكم «درسدسكوت» وهم يستطيعون ذلك بواسطة ما يسمى «التشريع العنوائى» طالما أن «الرق لا يمكن أن يبقى يوما واحدا ، بل ساعة واحدة ، الا اذا القى تأييدا من قوانين الشرطة المحلية» . وقد ارضى هذا الاتجاه ايلينوى ، ونجح دجلاس فى انتخابات مجلس الشيوخ ، ولكنه أغضب الجنوب وأحدث انقسامًا فى الحزب الديموقراطى .

ولما رشح الحزب الجمهورى لنكولن للرئاسة الجمهورية سنة ١٨٦٠ كانت هناك عدة مسائل ليست متصلة مباشرة بموضوع الرق . كان هناك موضوع تحسين الطرق المائية النهرية وموانئ الأنهار ، وكانت هناك مشكلة التعريف الجمركية وكان لنكولن دائما من مؤيدي التعريف المرتفعة ولم يكن قد غير رأيه عندما تم اختياره . وكانت هناك مسألة أخرى تتحكم فى أصوات كثيرة وهى موضوع الأراضى المجانية . وكانت مظاهرات من مؤيدي لنكولن تسير فى الطرقات مطالبة بأرض «لجميع المستوطنين فعلا» ، و « لنكولن وتوزيع الأراضى المجانية » ، « أقرؤا قانون توزيع الأراضى وسيحل ذلك مشكلة الرق » ، « لا بد لنا من المائة والسنتين فدانا » ، الولايات المتحدة الى حد يكفى لأن تعطى كذا منا مزرعة (X) . ولم يكن

تحرير الرقيق جزء من برنامج لنكولن في سنة ١٨٦٠ . لقد كان يدرك شعور الغرب وسكان وادي أوهيو ، وكان يعلم أن سكان أيلينوى وأنديانا وأهيو وحتى سكان كنتكي وتنسي الشرقية مستعدون للقتال في سبيل الاحتفاظ بالوحدة ، ولكنهم لن يحاربوا للقضاء على الرق (١) . بل لقد كان الرأي حتى في سنة ١٨٦٤ أنه «لا يوجد رجل من كل عشرة رجال في الشمال يهمة أن يكون رجلا رقيقا أو رجلا حرا (٢)

ولا ينبغي الخلط بين المعارضة في توسيع نطاق الرق والمعارضة في بقاء الرق حيث كان موجودا دائما ، ففي الشمال الغربي ، وحيثما بدأ الجو ملائما لعمل الرجل الأبيض ، كانت المعارضة من ناحية العمال ضد منافسة الزوج سواء كانوا أرقاء أو أحرارا ، وهو أمر طبيعي جدا ومن حيث صغار المزارعين لم تكن هناك رغبة في أن يطفى عليهم مزارعون أغنياء يمتلكون مئات الرقيق ويستولون على أراضي كان من الممكن توزيعها على المستوطنين . ولو لم يكن هناك شعور اخلاقي ضد الرق ، فلعله كان من الممكن أن تستمر البلاد في سلام على أساس اتفاق ميسوري . ولكن الخوف من الالغاء ، واستياء الجنوبيين من اعتقاد الشماليين أنهم أشرار ، دفعهم الى العدوان وأجبر ذلك العدوان الشماليين على الدفاع عما كانوا يرونه مناطق حرة . وكان من الممكن الوصول الى اتفاق حتى بعد انتخاب لنكولن رئيسا لو أن الجنوبيين كانوا على استعداد للعودة الى الحالة التي كانت سائدة قبل سنة ١٨٥٠ ، الا أن الجنوبيين كانوا يتصفون بالفطرسية التي ولدها طول عهدهم بالسلطة ، وكان دعاة الالغاء يشيرونهم الى حد الجنون ، واعتقدوا خطأ أن لنكولن بوصفه رئيسا للجمهورية على عاتقه الدفاع عن الاتحاد . لقد كان الرق سبب في الحرب ، ولكن الرق لم يكن المبدأ الأساسي الذي دار من أجله القتال ، بل كان هذا المبدأ الأساسي هو حق الانفصال .

وكان لنكولن بوصفه مواطنا عاديا ينفر من الرق ، أما من حيث هو رجل عام فقد وقف دائما ، وبلا تحول ، الى جانب الدستور . فقد قسّر خلال مناقشاته مع دجلاس سنة ١٨٥٨ أن للجنوبيين الحق بمقتضى الدستور في قانون يضعونه للرقيق الفارين ، وكرر هذا الرأي في خطابه الافتتاحي الذي قال فيه أيضا : « ليس لدى أية نية للتدخل في نظام الرق في الولايات المتحدة التي يوجد فيها » .

فقد استطاع لنكولن أن يقوم بذلك العمل الجليل وهو أن يقود حربا

(١) تشانج - المرجع السابق ج ٦ - ص ٢٨٨

(٢) نفس المرجع ص ٥٨

عوانا بعزيمة ماضية خلال سنوات من الصعاب والهزائم الى أن يتحقق النصر في النهاية وأن يظل طوال المدة ميالا للتفاهم هادئا واسع الافق ، ذلك عمل استطاع لنكولن أن يقوم به ، ومبلغ علمي أنه لم تقم به شخصية تاريخية أخرى . ولم يكن لنكولن ليهاجم الجنوب رغم انفصاله عن الاتحاد لولا أن الجنوب كان هو البادى بمهاجمته .

فهو يقول : « سأستخدم السلطة التي عهد بها الى للمحافظة على أملاك الحكومة واحتلالها والاستيلاء عليها لجباية الضرائب والرسوم ، وفيما عدا ما قد يكون ضروريا لتحقيق هذه الأغراض ، لن يكون هناك غزو ولا استخدام للقوة بين الشعب أو ضده في أى مكان . وحيثما يكون العداء للولايات المتحدة ، في اقليم داخلي ، قويا وعاما الى حد يمنع المواطنين المختصين من مباشرة وظائفهم الاتحادية ، لن تكون هناك محاولة لفرض غرباء مكروهين بين الناس لهذا الغرض » .

ويمضى قائلا أنه لا يعارض في تعديل الدستور على شرط ألا يكون للحكومة الاتحادية حق التدخل في الانظمة الداخلية للولايات . والشئ الوحيد الذي رفض اجابة الجنوب له هو امتداد الرق ، وهو عرض لا يستطيع الجنوب تحقيقه بالانفصال . واذا ألقينا نظرة الى الوراثة بداء الانفصال غير منطقي ، الا اذا نظرنا اليه على أنه خطوة نحو الغزو الخارجي في أمريكا اللاتينية . وأيضا كان الامر فان الفاظ لنكولن السليمة لم يكن لها اثر ما وأجبر على دخول الحرب الأهلية .

وعلى الرغم من أنه جعل من موضوع الاتحاد ، لا الرق الهدف الاساسي من الحرب فان قوة اندفاع الاحداث العسكرية أدت الى الغائه . فقد كان يعتقد أن « البناء تدريجا ، لا دفعة واحدة خير للجميع (X) » ، كما كان يفضل اتخاذ اجراء يتضمن تعويضا لاصحاب الرقيق وقواعد شبيهة بمقترحات جفرسن لالغاء الرق على درجات . وتقدم بمثل هذه الاقتراحات أولا الى دلاوير ثم الى جميع ولايات الرق التي ظلت موالية للاتحاد . وإشناز الى أن التعويض عن جميع الرقيق في دلاوير يكلف أقل من نصف نفقات حرة مدة يوم واحد ، وأن تعويض جميع ولايات الحدود لن يكلف أكثر من نفقات ٧٨ يوما من أيام الحرب . ولكن ولايات الحدود رفضت مقترحاته بازدرء مفضلة الرقيق على المال . وحرر الرقيق سنة ١٨٦٢ في منطقة كولومبيا حيث كانت الحكومة الاتحادية تتمتع بحرية التصرف ودفعت التعويض للملكية .

وأصدر لنكولن كما يعلم الناس جميعا اعلانا في ٢٢ سبتمبر سنة

١٨٦٢ يتضمن أن جميع الأرقاء في الولايات التي تظل سادرة في النصيان في أول يناير سنة ١٨٦٧ سيصبحون من ذلك اليوم إلى آخر الدهر أحرارا . وعرض تعويضات على الولايات الموالية للاتحاد والتي توافق على تحرير من فيها من الأرقاء ، وكذلك تعويضا للأفراد الموالين في الولايات الثائرة نفسها يأخذونه بعد الحرب . وقد أصدر هذا الإعلان لأسباب جريئة بوصفه القائد الأعلى للجيش ، وكان قد أبلغ « جريل » في خطابه الشهير قبل ذلك مباشرة أنه سيعالج موضوع الرق على أحسن وجه يتفق والمحافظة على الاتحاد ، وأن « هدفه الاسمي في هذا النضال هو المحافظة على الاتحاد لا القضاء على نظام الرق أو انقاذه . ذلك انه لم يكن يستطيع تبرير اعلان التحرير في ظل الدستور الا بأنه اجراء حربي موجه ضد أعداء الحكومة الاتحادية . وليس هناك شك في أن لنكونلن كان يريد تحرير الرقيق وأنه كان مستعدا لاتخاذ أى اجراء سليم لتحقيق هذه الغاية ، غير أنه لم يكن مستعدا لان يخالف الدستور لاي سبب كان أو أن يسمح لموضوع الرق أن يطغى على موضوع المحافظة على الاتحاد . وعندما تقدم باقتراح اعلان التحرير الى مجلس بوزرائه في أول الامر ، اقترح سيوارد أنه قد يكون من الحكمة أن يرجى اعلانه حتى يحرز انتصارا في إحدى المعارك فوافق لنكونلن على هذا الرأي . فلما انتهت معركة انتيام أبلغ مجلس الوزراء أن الوقت قد حان . فقد قرر أنه « اذا هبنا لنا الله النصر في المعركة المقبلة فانه سيرى في ذلك دليلا على ارادة الله ، وأن واجبه أن يسير قدما في قضية التحرير . . وكانت ارادة الله في مصلحة الرقيق (X) » .

وزاد الشعور المناهض للرق قوة خلال الحرب ، وحتى ولايات الحدود أصبحت الغالبية فيها تؤيد الالغاء . ولما عرض التعديل الثالث عشر (الغاء الرق) على مجلس النواب لثاني مرة في يناير سنة ١٨٦٥ ، أيده عضو من دلاوير وأربعة من ماري لاند وثلاثة من فرجينيا الغربية وأربعة من كنتكي وسبعة من ميسوري . وتم التصديق على التعديل الذي كان يتطلب موافقة سبع وعشرين ولاية في ١٨ ديسمبر سنة ١٨٦٥ بعد ثمانية أشهر من اغتيال لنكونلن .

وبلغت الأوضاع السياسية في الولايات المتحدة كامل نموها بلنكونلن والغاء الرق ، ومنذ ذلك الوقت ، ولقد كان أهم ما حدث من تطور في أحوال البلاد منذ ذلك الوقت تطورا اقتصاديا لا سياسيا . ولقد كانت

(X) نيقولاى وهاي ج ٦ - ١٦٠ - لم يعترف لنكونلن أبدا بحق مجلس الأمة في إصدار تشريعات في موضوع الرقيق في الولايات . كارتن تصرفه في قانون ويد - داليز - نفس المرجع - ج (٩)

الديموقراطية كما تضمنها اعلان الاستقلال هي المبدأ الذى الهم لنكولن تصرفاته ، وقد أثبت هذا المبدأ فى النهاية انه له من القوة مايكفى لتحرير الزوج . الا أنه على الرغم من أن لنكولن كان يبدو غير شاعر بأى اختلاف بين مبادئه ومبادئ جفرسون ، فإنه قد حدث تفسير مهم جدا جاء على درجات غير محسوسة بين مبادئ الرجلين . لقد صارت سلطة الحكومة الاتحادية فى المقابلة بسلطة الولايات اعظم كثيرا مما كان يظن أنها كانت فى الوقت الذى وضع فيه الدستور . ويرجع بعض السبب فى هذا الى ظروف طارئة عملية ، مثال ذلك أن جفرسون نفسه قد اضطر - رغم أنه كان يؤيد بحماسة شديدة حقوق الولايات - الى أن يخط الدستور مطا عند شراء لويزيانا . ويرجع بعض السبب فى ذلك أيضا الى أن « مارشال » الاتحادية كان يستطيع . وهو من فى المحكمة العليا ، أن يعمل على تنفيذ آراء الحزب بعد أن يكون المقترح العادى قد نسي وجوده منذ أمد طويل . ولكن التوسع الأمريكى فى الغرب كان هو العامل الاساسى فى تقوية الحكومة المركزية . ذلك أن الوطنية المحلية لا يستطيع أن تنمو بين يوم وليلة فى ولاية جديدة . كما أن انتشار السكك الحديدية هيا للناس حرية فى التنقل جعلتهم أكثر احساسا بوحدة البلاد . ولعل جفرسون كان يرى أن مطالبة الجنوب بحقه فى الانفصال عن الولايات المتحدة مساويا لمطالبة الولايات المتحدة بحقها فى الانفصال عن امبراطورية البريطانية . أما لنكولن فلم يكن يسهه أن يقف هذا الموقف فقد كانت أمريكا فى نظره وفى نظر معظم مواطنيه بلدا واحدا وكانوا مستعدين للقتال فى سبيل وحدتها .

لقد كان ابراهام لنكولن يمثل فى شخصه مشاعر الغرب وعواطفه ومصالحه وآماله وكاد فى منصبه أن يكون بعيدا عن التحيز للأشخاص . بعد القوى الطبيعية نفسها ، ومن هذه الصفة استمد قوته غير العادية . أما من حيث هو فرد عادى فقد كان يكره الرق ، ولكنه فى تصرفاته العامة كان يعارضه لا لشيء الا أنه كان يرى فيه سببا للانقسام ، وفى تلك الحدود فقط . وحتى عندما انتهى رأيه الى أن الاتحاد لا يستطيع البقاء اذا كان نصفه يبيع الرق ونصفه لا يبيعه ، فإنه كان يفضل الاجراءات المعتدلة والوسائل التدريجية فى تحرير العبيد مع التعويض وتهيئة وقت كاف لتسوية الأوضاع الجديدة . ولكن موقفه من حل الاتحاد كان موقف الرجل الشديد الذى لا يعرف مهادنة . ودليلنا على ذلك أنه عندما انفصل الجنوب أيد قسم قوى من الراى العام فى الشمال قبول الموقف على أنه حل سلمى للنزاع ، ولكن لنكولن لم يتردد لحظة واحدة فى ضرورة تأكيد السلطة الاتحادية . ووقف يناضل عن الوحدة القومية كما وقف مازينى وبسمارك ، وعمل كما عمل معظم الوطنيين لتبرير موقفه بالالتجاء الى فكرة

معنوية يجمع حولها أفكار أمته . الا أنه ، على خلاف الكثرة الفسالية من
الوطنيين كان على حق في التجائه الى هذا العمل . ذلك أن أمريكا كانت
« قد آمنت بأن كل الناس قد خلقوا أكفاء » . لكن الرق قد جعل هذه
الفكرة تبدو هزرا وسخرية . ثم أصبحت في الحرب الاهلية مرة أخرى
عقيدة خلاقة تصوغ الوقائع في قالب يجعلها أكثر انطباقا على مثل أعلى ،
وتعيد لأمريكا احترامها لنفسها واحترام الامم الاخرى لها .

المنافسة والاحتكار في أمريكا

- ١ - الفصل السادس والعشرون : الرأسمالية التنافسية
- ٢ - الفصل السابع والعشرون : الاتجاه نحو الاحتكار

..i

..o

الباب الثاني

الفصل السادس والعشرين

الرأسمالية التنافسية

بينما كان المثاليون يقتل بعضهم البعض في الحرب الأهلية ، كان العمليون من أجلهم قدرا إلى أقلهم شأنًا يبذلون كل جهودهم لجمع المال . و صدر في سنة ١٨٦٢ « قانون المزارع الجبانية (١) » الذي اعترض عليه الرئيس بوكاتان سنة ١٨٦٠ باعتباره قانونا هداما ، وقد مر هذا القانون بصورة أكثر عنفا . وبمقتضاه كان في وسع أي أمريكي أو أي أجنبي يعرب عن رغبته في التجنس بالجنسية الأمريكية أن يحصل على ١٦٠ فدانًا انجليزيًا من الاراضى العامة بلامقابل . وبدأت الادارة الاتحادية في منتصف الحزب الاهلية حربا ضد الهنود لتستولى على الاراضى التى تقع غرب المسيسيبي والتي كان جاكسن قد خصصها لهم ، وذلك لزيادة الاراضى العامة المرغوب فيها . وحدثت موجة ضخمة من الهجرة الى المزارع الجديدة ، ولم يكن المهاجرون من الضياع الشرقية وحدها بل كانوا أيضا من المدن والمصانع . ولتعويض النقص فى اليد العاملة الأمريكية صدر قانون يبيح لاصحاب الاعمال استيراد عمال يتعاقدون معهم من أوروبا . وكان تحويل الحرب فى الوقت عينه يتم بعضه عن طريق القروض وبعضه بزيادة الضرائب الجمركية التى ارتفع متوسطها من ١٩٪ الى ٤٧٪ خلال سنوات الحرب (٢)

و صدر من مجلس الامة فى سنة ١٨٦٢ الترخيص بانشاء أول خط حديدى عبر القارة ، وهو خط « اليونيون باسفيك » من أوماها الى الغرب و « السنترال باسفيك » من كاليفورنيا شرقا . وقد منح الترخيص الشركتين اثنتين وعشرين مليون فدان انجليزي من الارض وسنندات حكومية تقدر بأكثر من سبعة وعشرين مليونًا من الدولارات (٣) . وحصلت عدة شركات سكك حديدية أخرى على منح كبيرة من أرض سنندات .

وتدين الثروات الكبرى التى ظهرت فيما بعد بأصاها الى الظروف التى كانت سائدة خلال الحرب الاهلية والتي هيات فرصا فريدة للفساد .

(١) Honestead act.

(٢) بيرد «نحو المدنية الأمريكية» ، ج ٢ - ص ١٠٨ .

(٣) بوجارت « التاريخ الاقتصادى للشعب الأمريكى » ص ٦٣٤ .

والرشوة . مثال ذلك إن بييريون مورجان ، وكان يومئذ فتى في الرابعة والعشرين ، اشترى بالاشتراك مع آخرين ٥٠٠٠٠ بندقية قيل انها قديمة وخطرة من الحكومة في الشرق بسعر ثلاثة دولارات ونصف دولار للقطعة ثم باعوها للجنود في الميسسبي مقابل اثنين وعشرين دولارا للقطعة . وحققت لجنة من مجلس الامة في الموضوع « لجنة من اثنين (بالنيابة عن وزير الحربية) - وكان أحد الاثنين روبرت ديل أرون بن روبرت أرون . ورغم أن الوقائع ثبتت صحتها ، فقد قبض مورجان وأصدقائه نقودهم (X)

ولم يؤدي نجاح الحزب الجمهورى سنة ١٨٦٠ الى إلغاء الرق فقط ، بل انه أدى أيضا الى حكم الاغنياء . وكان الغرب حتى ذلك الوقت متحالفا مع الجنوب في تأييد الزراعة وحرية التجارة . الا أن رغبة الجنوب في توسيع نطاق الرق ومعارضته في « المزارع المجانية » جعل الشمال الغربى ينضم الى الشرق ويقبل سياسة قائمة على مبادئ هاملتن فيما يتعلق بالتعريفات والشئون المصرفية ، في مقابل سياسة متحررة في موضوع الاراضى الغربية . وجنى المزارعون كما كان متوقعا أرباحا طائلة من وراء الحرب ، فقد ارتفعت أسعار جميع المحاصيل الزراعية وبلغ ثمن القمح في وقت من الاوقات دولارين ونصف دولار للبوشل . وزاد الصادرات من القمح ، خاصة الى انجلترا ، زيادة غريبة على الرغم من هذه الاسعار المرتفعة . فقد ارتفع من سبعة عشر مليون بوشل سنة ١٨٦٠ الى ثمانية وخمسين مليونا في سنة ١٨٦٣ . فلا عجب والحالة هذه اذا نسى الزراع ولاءهم لمكسن وسياسته خاصة وأن السياسة الجديدة كانت تحمل معها الحرية للرقيق المضطهدين . ولم يسبق أبدا أن اتحدت الفضيلة والمصلحة الذاتية بهذه الصورة المرضية .

ولم يقتصر الامر على الزراعة وحدها في ايجاد مصادر طبيعية جديدة للثروة خلال الحرب الاهلية ، فقد اكتشف أول بئر للبترول في بنسلفانيا سنة ١٨٦١ ، واستخرج خلال ثلاث سنوات من ٦٢ - ١٨٦٥ ثلاثمائة مليون جالون من البترول . وكان أى رجل يملك أرضا في مناطق البترول أو يستطيع أن يفتح مزارعا جاهلا بالنزول له عن أرضه ، يأمل في أن يصير صاحب ملايين بين عشية وضحاها اذا خالفه الحظ ، كما أن الذهب وجد بكميات ضخمة في كلورادوا ونيفادا . وبدأت مناجم الحديد في ليك سويريور ، أكثر المناجم ربحا في العالم ، تستغل في هذه الفترة . وعرفت معظم الثروات المعدنية في الغرب في سنة ١٨٦٠ والسنوات التسع التالية .

وكان نجاح نظام الاقتصاد القومى الذى بدأه الحزب الجمهورى سنة

١٨٦١ يعتمد على تدفق اليد العاملة الرخيصة من أوروبا ، والأراضي البكر في الغرب تنتظر من يفلحها . ولولا أراضي الغرب لاضطرت هجرة العمال الأجير الأمريكي إلى أن يخفض مستوى معيشتته إلى مستوى معيشة العامل في العالم الجديد ، ولولا هجرة اليد العاملة لأرغمت أراضي الغرب أصحاب الأعمال في الشرق على رفع الأجور ولجعلت النمو السريع للتصنيع مستحيلا . وكان النظام بهذا الوضع لا يتمتع باكتفاء ذاتي ، ولا يستطيع البقاء إلا باستمرار تدفق اليد العاملة وزيادة الأراضي . وانتهت الزيادة في الأراضي أولا ، وبانتهائها تجمعت سحب التضخم وازدادت قوة حتى أدت بعد وقت قليل إلى تحديد الهجرة في حدود ضيقة جدا . وانتهت أسباب الرخاء بانتهاء اليد العاملة الرخيصة والأراضي الرخيصة ، وكان ذلك هو السبب الأساسي للركود الذي بدأ سنة ١٩٢٩ . ذلك أن نظاما اقتصاديا مكتفيا بذاته لا يمكنه أن يحتمل النقص في التنظيم الذي صاحب زيادة الثروة في أمريكا ، ولكن العادات العقلية التي تكونت خلال مائة وخمسين عاما من التقدم جعلت من العسير استيعاب الأفكار التي تتطلبها فترة بلغت فيها جهود الرواد نهايتها .

وكانت المنافسة انجيل أمريكا ، كما كانت انجيل إنجلترا الصناعية . إلا أنه بينما مارست إنجلترا مذهب المنافسة في صورة دولية عن طريق تبنيها حرية التجارة ، قصرت أمريكا ، التي كانت صناعاتها لم تزل في المهد ، منافستها إلى حد يتزايد باستمرار على داخل حدودها القومية عن طريق الضرائب الجمركية المرتفعة . فقد كان مسموحا بهجرة اليد العاملة الرخيصة من أوروبا ، ولكن البضائع الرخيصة من أوروبا كانت تفرض عليها ، بعد تحالف الغرب والشرق في الحزب الجمهوري ، ضرائب مرتفعة إلى حد جعلها بالتدريج ضرائب مانعة . ولربما ظن المرء أن العمال الأمريكيين سيحتجون على هذه المنافسة من جانب واحد ، ولكن هؤلاء العمال كانوا متجهين بكليتهم نحو امتلاك المزارع ، ورضوا أن يتركوا كسب الأجور للجانب الأخرى ، وكانت المكاسب الناتجة من التهافت على تكوين الثروات بين من لم يشتركوا في القتال كبيرة إلى حد لم يعرف من قبل ، وحتى أولئك الذين وقفوا خارج حلبة التهافت كان نصيبهم مكاسب ترضيهم ولا يستهان بها : ١٦٠ فدانا انجليزيا من أرض خصبة في منطقة كانت السكك الحديدية تتقدم نحوها بمعدل ميل في اليوم ، والمدن تنمو فيها خلال شهر ويزرع فيها القمح بمجهود قليل إلى حد لا يصدق العقل ليسد حاجة سوق تتسع باستمرار في أوروبا وأمريكا .

ولم يكن ما كان يحدث يبدو لا نظار المعاصرين تهافتا لتكوين ثروات . فقد كانت مصادر الثروة في البلاد تبدو كأنها تنادي من يستغلها ، وكان

الناس يعتقدون أن بعض العجلة في الاستجابة لهذا النداء قربانا مناسباً
يقدم الى الاله الكبير - المنافسة . وكانت روح المنافسة تفرس في نفوس
تلاميذ المدارس حيث كان الصبية يتعلمون حفظ أبيات من الشعر يمكن
ترجمتها فيما يلي :

- أين المدينة ، قريبة أو بعيدة ،
- التي لا تجد مدينة تنافسها عندنا .
- وأين الفتى الذى لم يخرج من اهابه بعد .
- الذى تقدم مثلما اتقدم أنا .
- ان هذه الافكار تلهم عقلى الصغير . .
- وتدفعنى لأن أكون أعظم الناس جميعا . .
- عظيماً ، لا مثل قيصر ، مخضباً بالدماء . .
- بل ، مثل واشنجتن ، عظيماً فى الخير . .

وقد مات واشنجتن (كما يقول تشارلز ١٠ بيرد) وهو أغنى أغنياء
بلاده . ونجح الكثيرون ممن « تجنبوا أن يخضبوا أيديهم بالدماء » أثناء
الحرب الاهلية فى أن يصيروا « عظماء مثل واشنجتن » من هذه الناحية .

وقد تكونت الثروات فى أمريكا منذ الحرب الاهلية من السكك الحديدية
والبتترول والصلب ، التي امتزجت جميعا فى النهاية ، فى بحر واحد خضم
من العمليات المالية . وانتقلت السكك الحديدية والبتترول والصلب

من مرحلة منافسة شديدة الى مرحلة من الترابط الكامل الى حد ما . وكانت
السكك الحديدية خلال الحرب الاهلية ، وفى فترة قصيرة بعدها ، أهم
المصادر الثلاثة ، وكان أبرز اسم فى عالم السكك الحديدية هو كومودر
فاندريلت .

وكان كومودر فاندريلت قد بلغ التاسعة والستين من عمره عندما دفعه
الحرب الى الاهتمام بالسكك الحديدية ، وكانت انتصاراته حتى ذلك الوقت
كلها فوق الماء . وقدرت ثروته عندما توفى فى سنة ١٨٧٧ بمبلغ
١٠٥٠٠٠٠٠ دولارا . وكان قد بدأ فى عهد المراكب الشراعية ببناء
قوارب لتجارة الشواطئ وامتلاكها . وعندما ظهرت السفن التجارية باع
قواربه وصار قبطانا لسفينة تجارية ، وما أن وافت سنة ١٨٢٩ حتى كان
قد اقتصد ٣٠٠٠٠٠ دولار استثمارها فى قوارب بخارية صنعها بنفسه .
وكان لا يقف عند حد فى منافسته ، فيعمل أحيانا على خراب منافسيه
بخفض الاسعار ، وأحيانا أخرى يتقاضى مبالغ ضخمة ليمتنع عن المنافسة .

مثال ذلك أن شركتين للسفن التجارية ، متنافستين في الظاهر ، (كان الجمهور يطالب بقيام المنافسة) نالتا منحة سنوية قدرها ٩٠٠٠٠٠٠ دولار لنقل البريد من نيويورك الى كاليفورنيا ، ولكن فاندربلت استولى من هذه المبلغ على ٨٤٠٠٠٠٠ دولار اولاً ثم ٦١٣٠٠٠٠ دولار حتى لا يرسل سفنه الى كاليفورنيا . ولما كان تسيير السفن عملاً مربحاً ، وعدم تسييرها أكثر ربحاً ، فلا عجب ان تضخمت ثروته .

وجعلت الحرب السفن التجارية غير مربحة الا اذا بيعت للحكومة . ولكن سرعاً ما حانت الفرصة للربح منها بهذه الطريقة . . . تقرر في سنة ١٨٦٢ ارسال حملة عسكرية بالبحر الى نيوآورد لينز ، وعهد الى فاندربلت شراء السفن . وطالب وكيل أعماله أصحاب السفن «بسمرة» قبل الشراء ، واتفق بعد أن تقاضى «سمرة» على أسعار خيالية لسفن كانت أحياناً مبنية للعمل في البحيرات وغير صالحة للملاحة في البحار الواسعة . وهكذا جنى فاندربلت من بيع سفنه أرباحاً طائلة ، ولم يكن وداعه للبحر خاليًا من بعض الترضية .

وكانت أولى عملياته في السكك الحديدية ، وهي نموذج لعمليات أخرى كثيرة ، تتعلق ببناء خط صغير في الضواحي هو طريق نيويورك - هارلم . وبدأ بالشراء في سنة ١٨٦٢ عندما كان ثمن السهم تسعة دولارات . وبعد أن تمت له السيطرة ارتفعت الأسعار فجأة الى ٥٠ دولاراً للسهم . وكان سبب ذلك أنه حصل على ترخيص ، بوسائل غير مشروعة ، من مجلس نيويورك المشترك لبناء خط حديدي يبدأ من نهاية الخط الاول ويمر في قلب المدينة كلها . ولكن كان له منافس رجل اسمه لو ، كانت له معه وقائع سابقة بشأن السفن التجارية . وبينما كان فاندربلت يسيطر على مجلس نيويورك المشترك ، كان لو يسيطر على المجلس التشريعي في نيويورك ، واكتشف المجلس المشترك أن المجلس التشريعي هو الهيئة الوحيدة صاحبة الحق في منح الترخيص الذي كان المفروض أن فاندربلت حصل عليه . وظن لو أن فاندربلت قد هزم وكذلك ظن أعضاء المجلس المشترك . وراوا أنهم لا يجدون سبباً يدعوهم الى التورط فيما ألم به من كارثة ، وتنبأوا بأن أسهم السكك الحديدية ستنتهار عندما تعرف الحقيقة . ومن ثم تعاقد «آباء المدينة» على البيع المؤجل ، أي أنهم تعهدوا أن يبيعوا «تحت التسليم» أسهما من أسهم شركة هارلم الى مشتريين معينين بسعر ٥٠ دولاراً أو ما يقرب من ذلك وهو سعر السهم وقت التعاقد . واعتمدوا على أنه عندما يحين وقت التسليم ستكون هزيمة فاندربلت قد عرفت ويكون في استطاعتهم عندئذ شراء الاسهم التي تعاقدوا عليها بسعر رخيص لبيعها بسعر مرتفع . الا أنهم عندما حان الوقت المحدد للتسليم وجدوا أن فاندربلت اكتشف المؤامرة وحصل من الاسهم على قدر كبير بحيث لم يبق في السوق ما يسمح لأعضاء المجلس

المشترك بتنفيذ ما تعاقفوا عليه . ومن ثم لم يكن امامهم الا ان يشتروا الاسهم منه بأى ثمن يفرضه ، وقد باعهم فعلا السهم بسعر ١٧٩ دولارا . وفى غضون اسبوع ، كما يقول مؤرخه ، ربح فاندربلت مليوناً من الدولارات من المجلس المشترك وملايين أخرى من غيرهم .

ولا سبيل الى انكار ان هذه منافسة ، ولكنها لم تكن هى بعينها المنافسة التى قصدتها كوردين ، أو المنافسة التى كان مفروضاً أن يطلب الى أطفال المدارس الأمريكية أن يعجبوا بها . كما أن هذه لم تكن آخر مرة دخل فيها فاندربلت فى منافسة لشراء أعضاء المجالس التشريعية والقضاء وسلع أخرى مشابهة لهذه السلع . والواقع أن خطته فى سكة حديد هارلم - نيويورك أصابت نجاحاً كبيراً لم يسعه الا أن يكررها بالضبط مرة ثانية فى سكة حديد نيويورك ونهر هدسن . ولم يكن ضحايها هذه المرة هم أعضاء المجلس المشترك بل أعضاء المجلس التشريعى فى البانى . وقد قال فى مباحثه : « لقد أفلسنا المجلس كله حتى أن العشرات من أعضائه المحترمين اضطروا الى العودة الى منازلهم دون أن يدفعوا نفقات اقامتهم فى الفنادق » .

وليس من العدل أن ننظر الى هذا القائد البحرى على أنه مجرد قرصان جرىء ، فسكة حديد نيويورك الوسطى التى وجه اليها اهتمامه بعد ذلك أصبحت من ممتلكاته الدائمة وانتقلت الى ورثته من بعده ، وأديرت بكفاية أعظم جداً مما كانت تدار بها قبله . وربح طبعاً خلال هذه العملية عدة ملايين عن طريق الحيل المالية المألوفة ، الا انه فى نفس الوقت خدم الصالح العام عرضاً ، كما خدم مصالحه الشخصية .

وكانت حملة فاندربلت النموذج المألوف للمنافسة بين كبار الراسماليين وكان ميدان القتال سكة حديد إيرنى وكان الذين ينازعونه فيها رجال دهاء مثله هم : دور وفسنك وجولد . وفشل لأول مرة فى أن يحقق نجاحاً كاملاً فى نضاله مع هؤلاء الثلاثة .

وحدثت واقعة إيرى فى سنة ١٨٦٨ عندما كانت عصابة « تويد » تسيطر على السياسة فى كل من مدينة نيويورك وولاية نيويورك . وكانت الرشوة تعم نيويورك منذ عهد هاملتون ، ولكنها لم تبلغ أبداً ما بلغته من قحة تحت حكم تويد . فقد كانت المدينة غاصة بالمهاجرين الذين يجهلون أمريكا ، بل أن كثيراً منهم كانوا يجهلون اللغة الانجليزية . وكان « تامانى » يتقن فن اقناع هؤلاء الناس الذين لم يتعودوا الديمقراطية ولم يكن فى استطاعتهم الصمود امام « الزعماء الموهجين » بأى حال من الاحوال . وكان الاثرياء فى طول البلاد وعرضها مشغولين بجمع المال فلم يكن ينسج وقتهم لحاربة السياسيين المخترفين . وعندما زرت أمريكا أول مرة سنة ١٨٩٦ سالت أحد الكونكرين من أهالى فيلادلفيا الاثرياء : لماذا لا يفعل شيئاً لتطهير

الحكومة في مدينته ، فأجاب بأنه كان يهتم في فترة من الفترات بحركات الإصلاح ، ولكنه وجد بعد ذلك أنه يستطيع أن يربح من اشتغاله بالمشروعات التجارية والمالية أكثر مما قد يوفره من الضرائب عن طريق اشتغاله بحركات الإصلاح ، ومن ثم أفلح « طبعا » عن أن يشغل نفسه بالإصلاح . وهذا الاتجاه الذي كان لا يزال سائدا الى حد كبير سنة ١٨٩٨ كان هو السنة المألوفة في سنة ١٨٦٨ . فقد كانت حكومة المدينة وحكومات الولايات تملك منح حقوق ثمينة جدا ، وكان السياسيون المحترفون مهرة في اقناع أصحاب الاصوات بالنزول عن هذه الحقوق بلا مقابل . وكان ما يدفع مقابل هذه الحقوق يذهب الى جيوب السياسيين لا الى الجمهور . فقضاة الولايات ، وهم منتخبون ، صنائع « الزعيم » ، ومن ثم كان فوق القانون طول مدة « زعامته » وكذلك كان المقربون اليه ، وبلغ هذا النظام اقصى درجات كماله بعد الحرب الاهلية مباشرة ، وكان عاملا مهما في تقلب الحظ في معركة ويرى .

ودرو وجولد وفيسك ثالث يشير الاهتمام . فكان درو رجلا مسنا من معاصري فاندربلت وكانت بينهما معاملات عديدة عندما كانا قبطانين لسفن تجارية ، وهو منصب وصل اليه درو بوسائل مزيفة بعد ان كان يعمل راعى بقر ثم اشتغل بعض الوقت مستخدما في حلبة ألعاب ، ثم صاحب حانة . ولم يكن مثل فاندربلت جريشا قوى الشخصية ، بل كان جبانا متذلا يحشر نفسه في كل شيء . وكان يلزم الفراش ويدعى المرض كلما فشلت خطة من خططه . وكان رجلا شديد الورع اذا نفق قلنا كبيرا من ارباحه غير المشروعة في انشاء حلقة دراسات دينية . ويبدو أنه كان يفعل ذلك راجيا أن يتخذ الله شريكا له ! وكان جولد شابا من مواليد سنة ١٨٢٦ . وكان يخفى الجزء الاسفل من وجهه خلف لحية كثة ، هادئا يميل الى السرية ، قادرا على انتزاع النصر من الهزيمة في الازمات بمهارته في خيانة شركائه ، وكان فيسك ، وهو من معاصري جولد ، متحدثا لبقا يروق في اعين النساء ، وقد بدأ حياته بائعا متجولا ، ثم ارتفع مثل جولد الى وظيفة في حلبة ألعاب متنتلة . وكان كل من فيسك وجولد فقيرين ، ويرجع الفضل في اول نجاح كبير أصاباه الى درو . وفي النهاية قتل فيسك بيد منافس في حب إحدى عشيقاته الكثيرات ، ونجح جولد في افلاس درو ، غير أنهم في نضالهم الاول ضد فاندربلت كانوا يعملون في وفاق .

وكانت سكة حديد ايرى في يد درو منذ سنة ١٨٥٧ . ولم يكن يفعل شيئا للمحافظة على الطريق والقضبان ، أو على القاطرات والمعدات ، بل انه كان يكتفى بأن يقبض القضبان الحديدية القديمة عندما يؤمر بوضع قضبان جديدة من الصلب . وكانت النتيجة أن تكرر وقوع الحوادث الخطرة . ولم يكن يتخذ ملكيته للخط الا وسيلة للمضاربة في سوق السندات . فكان

يطلق الاشاعات التي من شأنها أن ترفع أو تخفض ثمن الاسهم تبعا لمصلحته .
وكون بهذه الطريقة ثروة ضخمة خلال تسع سنوات .
وبدأت علاقة فاندربيلت بسكة حديد ايرى في سنة ١٨٦٦ عندما سيطر
عليها ، بوسائله المعتادة ، واستعد لتعيين مديرين من رجاله لها بدلا من
درو وأمهاته . ولكن يبدو أنه تأثر بالعواطف للمسة الوحيدة في حياته .
فقد ذهب اليه درو وذكره برفقتها القديمة في أيام الكفاح الاولي ، كما
ذكره بأنه أطلق اسمه على أحد أبنائه . وقال له أنه قد صار رجلا مسننا
وأن في الاخفاق بالنسبة له قضاء نهائيا عليه ، هذا الى أنه مستعد لتنفيذ
سياسة فاندربيلت بكل اخلاص وولاء . وبلغت مهارته في استئثار العطف
حدا جعل القائد البحري يوافق على أن يبقى مديرا للسكة الحديدية .
ووافق أيضا على شابين رشحهما له درو وقال عنهما أنهما ممن يستطيع
الاعتماد عليهم في تنفيذ أوامر فاندربيلت ، وكان الشابان هما جولدو فيسك
واستطاع ثلاثتهم ارضاء فاندربيلت وقتنا ما حتى اعتقد أنه أصبح آمنا في
عمله .

ولكن لم يمض وقت طويل حتى أفاق من وهمه . فشرع في الاستيلاء
على جميع أسهم ايرى ، واشترى كل ما كان يصل منها الى السوق . وأدرك
درو وفيسك وجولد أهدافه فأصدروا لأنفسهم كمية كبيرة من السندات ،
وربما كان ذلك من حقهم بمقتضى القانون . ثم اشترتوا مطبعة وشرعوا في
تحويل السندات الى أسهم ، وهو أمر كان مخالفا للقانون كل المخالفة . وباعوا
هذه الاسهم لوكلاء فاندربيلت في السوق المالية وسارع هؤلاء الى شرائها
بمجرد صدورها دون أن يرتابوا في أمرها . وسرعان ما اكتشفت الحيلة
التي لجأوا اليها بطبيعة الحال ، وشرع فاندربيلت ، وقد استشاط غضبا ،
يعمل للانتقام من الخونة . وكان في نيويورك قاض اسمه بارنارد تعود أن
يتلقى أوامره من فاندربيلت . وحصل فاندربيلت من هذا الرجل الوقور على
قرار يحرم اصدار أية أسهم جديدة . وكان لدى الناووث عدد كبير من
هذه الاسهم ينوون اصدارها ، ولكنهم أحنوا رؤوسهم طاعة لجلال القانون .
وأعطى درو وجولد هذه الاسهم بعد وضعها في حقيبة > الى صبي يعمل في
المكتب لا يدبها في خزانة . ولكن الصبي صعق اذ هاجمه رجل ضخم لم
يعرفه وانتزع منه الحقيبة الثمينة ، الا أن درو لم يثر واكتفى بأن قال له
في وداعة أن يخترس في المرة المقبلة ، لان الرجل الضخم كان في الواقع
فيسك . وكان في الحقيبة ١٠٠٠٠٠ سهم بيعت فورا وحول الثمن الى
أوراق نقدية وهرب الرجال الثلاثة ، ومعهم ستة ملايين أوسبعة من الدولارات
نقدا الى مدينة جيرس حيث لم يكن للقاضي بارنارد سلطة (x) . وتم هربهم

(x) سرد تشارلز فرانسيس دامزو ، وهو حفيد وابن حفيد لرئيس من رؤساء الجمهورية ،
قصة معركة ايرى سردا يدعو الى الاعجاب ، في مقالة « فصل من ايرى » نشر في عدد يوليو
سنة ١٨٦٩ من « ورث امريكان ويليو » ، ثم اعادت مطبعة جامعة بيل طبعه في سنة ١٩٢٩
ضمن كتاب سمي « السياسة المالية العليا والعقد السابع » .

في آخر لحظة ، اذ قبض على مديرين آخرين وسجننا .

وفقد فاندربلت ملايين عديدة وأحس بغضب مزدوج ، غضب الرجل الماهر الذي خدع ، وغضب الرجل القوي الذي عصى أمره . ولكن تبين مع الوقت أن مركز الثلاثة من الناحية القانونية لم يكن ميثوسا منه بحال . نعم انهم خالفوا قرار القاضي بارنارد ، ولكنه لم يكن القاضي الوحيد في ولاية نيويورك . فقد أصدر القاضي جليبرت قرارا مناقضا للقرار السابق يحرم على كل الاطراف في جميع القضايا الاخرى اتخاذ خطوات جديدة ، أو القيام بأي تصرف من شأنه السير بالدعوى في المؤامرة المشار اليها ، فيأمر في فقرة مديري ايرى بالاستمرار في القيام بواجباتهم متحديا بذلك تحديا مباشرا قرارا أصدره قاض آخر ، وفي الفقرة التالية يحرم على المديرين أن يكفوا عن تحويل السندات الى أسهم دون اعتبار لقرار أصدره قاض ثالث ، اذ أن القاضي بارنارد لم يكن القاضي الوحيد من بين أصدقاء فاندربلت .

وهكذا كان في استطاعة المديرين الادعاء بأنهم كانوا في وضع سييء يجبرهم على مخالفة القانون ، لان قاضيا حرم ما أمر به قاض آخر . هذا الى أن المجلس التشريعي في ألباني لا يبعد أن يتساهل مع أشخاص يملكون ستة ملايين أو سبعة نقداً . ومن ثم شرعوا في استصدار قانون يجعل تحويل السندات الى أسهم مشروعاً . غير أن الامر كان عسيراً بعض الشيء ، لانهم كانوا معرضين للقبض عليهم في ولاية نيويورك . ولكنهم قرروا أن يخاطروا رذهب جولد الى ألباني ومعه ٥٠٠.٠٠٠ دولار نقداً . فقبض عليه ثم أطلق سراحه بكفالة ، وشرع في شراء المجلس التشريعي ، وحاول فاندربلت أن يدفع أكثر منه ، ولكن دون جدوى ، مثال ذلك أن أحد ممثلي « الشعب صاحب السيادة » قبل من فاندربلت ٧٥٠.٠٠٠ دولار ثم حصل من جولد على ١٠٠.٠٠٠ دولار أخرى واقترح لصالحه . وكانت النتيجة أن القانون الذي يجعل اصدار الاسهم قانونيا من المجلس .

وحاول كل من الطرفين في هذا النزاع ، ككل نزاع آخر مشابه له ، أن يضم الرأي العام الى جانبه ، اما عن طريق تشويه سمعة الطرف الآخر أو باتهامه بأنه حاول أن يحتكر المشروع لنفسه وأن يحرم الجمهور من مزايا المنافسة . ويصف تشارلز فرانسيس ادامز تكتيك المديرين الهاربين في الحصول على تأييد الرأي العام فيقول :

« في اللحظة التي أحسوا فيها بالاستقرار في مدينة جيرسي شرعوا يعملون لاستشارة عطف الرأي العام عليهم . كان اتهام خصمهم بالاحتكار ورقة رابحة في أيديهم . ولم يكن يهمهم في الواقع مصلحة التجارة التي تتضمنها منافسة في السكك الحديدية أكثر مما تهتمهم المصلحة الحقيقية لسكة ايرى نفسها ، ولكنهم قدروا ، وكانوا في تقديرهم مصيبين ، أنه لا

حد لمدى ما يمكن أن يصل اليه خداع الجمهور . وبدأت منافسة نشطة ضد فاندربلنت فى طرق الاتصال البرية والبحرية ، وخفضت أسعار السفروالنقل على خط ايرى بمقدار الثلث فى المتوسط ، وصدرت التصريحات الرنانة ، وجاء صحفيون من نيويورك لآخذ أنحاديث صحفية ورجعوا من فندق تيلور (الذى أقام فيه المديرون) بجيوب عامرة ونفوس راضية . واهتزت ضفاف جيرسى تحت قعقة هذه المعركة الغربية . وأحدثت هذه الاساليب الفنية أثرها على الفور . وما أن حل منتصف مارس حتى كانت العرائض ضد الاحتكار قد بدأت تعم البانى (x) .

وحدث طبعا تحقيق فى تهمة الرشوة فى البانى واضطر جولد نفسه أن يدلى بشهادته فيه ، ولكن التحقيق لم يسفر عن شيء .

« اذا كان لنا أن نصدق التقارير الرسمية للجان التحقيق فان مستر جولد أصيب فى هذه الفترة بتحول نفسى غريب وأصبح فجأة أعظم البلهات الحقيقيين فى المسائل المالية ممن وقعوا فريسة فى أيدي المحتالين المخادعين . فلم يكن على المحتال الماهر الا أن يتظاهر بأن له تأثير فى عقول أعضاء المجلس التشريعى ، وهو أمر يعرف الجميع أنه غير صحيح ، حتى يستولى على مبالغ غير محدودة من — هذا الرجل الساذج الذى نشأ على أرصفة وول ستريت (x x) وبدأ غريبا أن يكون قد عاش كل هذا العمر ولم يتعلم شيئا من تجارب الحياة . وكان يتعامل فى مبالغ طائلة . فقد أعطى شخصا قال عنه : « لم أكن أعتقد ان له أهمية كبيرة » مبلغ ٥٠٠٠ دولار « لا لشيء الا ليهديء من روعه » . كان هذا الرجل قد قبض قبل ذلك بقليل ٥٠٠٠ دولار أخرى من أموال ايرى عن طريق عميل آخر من عملاء الشركة . ومن ثم فانه من الطريف أن تعرف المبالغ التى أعطاها جولد لأولئك الذين كان (يعتقد أنهم من ذوى الشأن الكبير) . وقيل عن شخص آخر أنه آخذ ١٠٠٠٠٠ دولار من أحد الطرفين (ليؤثرو فى المجلس التشريعى) ثم آخذ ٧٠٠٠٠ دولار من الطرف الآخر ليخفى بالنقود ، وهو ما نفذه فعلا وعاش بعدها حياة السادة الموسرين الذين لا يقومون بعمل ما . واتهم أحد أعضاء مجلس الشيوخ علنا على صفحات الجرائد بأنه آخذ رشوة قدرها ٥٠٠٠٠ دولار من أحد الطرفين ورشوة ثانية قدرها ١٥٠٠٠٠ من الطرف الآخر ، ولكن حالة مستر جولد العقلية المعتلة لم تسمح له الا أن يبدى (دهشته الشديدة) من تصرف هذا الشيخ وان لم يكن لديه علم بشيء عن مثل هذه الرشاوى . وحالف الحظ أعضاء آخرين من مجلس الشيوخ فأصابهم الثراء فجأة ، غير انه لم يكن هناك أقل دليل أو قرينة على الرشوة . وكان الجناح

(x) « المسائل المالية العليا فى العقد السابع » ص ٦٧٠

(x x) حق الاعمال والمال فى نيويورك (المترجم)

الذى يسكنه مستر جولد في « دلفان هاوس » عامرا دائما بصحبة طرورية صاخبة ، وكانت صكوكه كثيرة ومبالغها ضخمة * أما سبب توقيع هذه الصكوك ولما دفعها ، فيبدو أن مستر جولد لم يكن يعرف عنها شيئا أكثر من أى شخص آخر فى البانى * واستمرت هذه الحالة النفسية الغريبة حتى منتصف أبريل ، وعندئذ عاد مستر جولد لحسن الحظ الى حالته العادية - فأصبح رجل أعمال ماهر حريص نشط ، كما لم يعرف عنه انه عاد بعد ذلك الى هذه البلاهة الغريبة فى المسائل المالية « (x) » .

على أن مركز الهاربين فى مدينة جرسى ظل مع ذلك مزعجا من بعض الوجوه * فقد كانوا معرضين للقبض عليهم اذا عادوا الى نيويورك ، الا فى أيام الآحاد اذ كان ذلك محرما * كما كانت هناك عصابات من المشاكسين يظن أنهم فى خدمة فاندربلت ، يحومون حول الفندق الذى يقيم فيه درو وجعلوه يخشى على نفسه أن يخطف * ولكن نيو جرسى كانت تدرك الشرف العظيم الذى أولاها اياه وجود هؤلاء الرجال الثلاثة العظماء وما يحملوه من نقود كثيرة ، ومن ثم وضع حرس الولاية الوطنى فى خدمتهم ، ووضعت المدافع والبنادق عند معاير الانهار * ولكن درو ظل مع ذلك غير مطمئن وأدرك أن جولد و فيسك يخونانه ، وقد كانا فى الواقع يتجسسان على مراسلاته ويطلعان على برقيات قبل أن يراها * ومن ثم شرع فى مفاوضة فاندربلت وحذا حذوه زميلاه * وتم أخيرا عقد معاهدة سلام استعاد فاندربلت بمقتضاها بعض خسائره ، لا كلها ، وحصل درو على قدر من المال وتمت فيسك وجولد السيطرة المطلقة على سكة ايرى الحديدية * وحصلا على خدمات « الرئيس » تويد زميلا لهما فى الادارة ، واستمرا يجمعان المال ، ولكن دون ان يصطدما بعد ذلك صداما مريرا مع فاندربلت * ولم يلبث الرئيس تويد أن زج فى السجن عقب ثورة اصلاح * ولكن جولد أخذ ينتقل من نصر الى نصر ، وعندما مات سنة ١٨٩٢ سار ملوك المال ، ابتداء من بيرون مورجان ومن دونه ، فى جنازته الرهيبة .

أما القائد البحرى فقد أثرى أكثر من جولد ، وكانت السنوات الاخيرة من حياته أكثرها نجاحا وماتت زوجته وهو فى الرابعة والسبعين ، ولكنه تزوج مرة أخرى فى العمام التالى * وبدأ مرضه الاخير وهو فى الثانية والثمانين واستمر ثمانية أشهر مات خلالها اثنان من اطبائه * الا أن قوته الهائلة خارت أخيرا .

... كلا ولم يفلت .

رغم كل آلائه ، بل ذهب رأسا . .

مع كل عصبته النشطة ، ليبنى الطرق ، فى جهنم . .

ولقد كانت مطالبة الجمهور بإنشاء السكك الحديدية فى الغرب شديدة ملحة فى العقد السابع وأوائل العقد الثامن . وكان الزراع وأهالى البلاد الصغرى والكبرى يسارعون الى شراء الاسهم فى الخطوط التى يشرع فى بنائها ، وتمنحها الولايات والحكومة المحلية ارض واسعة ، وتقرر لها مبالغ طائلة من الاموال العامة لتسهيل عملية البناء . وكان رجال المال الذين يسيطرون على خط من خطوط السكك الحديدية يلجأون الى حيل مختلفة للاستيلاء على اموال صغار المساهمين . وكانت احدى خططهم المفضلة أن يكونوا شركة لتنفيذ عملية البناء . ويشترى مدير الخط وأصدقائهم أسهم شركة البناء جميعها . ويبرمون باعتبارهم مديرين للخط المزمع انشائه عقودا خيالية مع شركة البناء التى تزداد نراء كلما اقتربت شركة السكك الحديدية من الافلاس . ثم يتقدمون الى الحكومة المركزية أو حكومات الولايات قائلين أنه قد تبين أن العملية أكثر كلفة مما توقعوا ، ويسارع المواطنون ، الذين يتطلعون الى السكة الحديدية كما يتطلع العطشان فى الصحراء الى الماء ، الى الموافقة على اعانات جديدة تمتصها شركة البناء مرة اخرى . فاذا أوشك الخط الحديدى على الانتهاء تكون شركة السكة الحديدية قد شرفت على الافلاس . ويساق فى تبرير افلاسها حدوث أزمة مالية . ومن ثم توضع تحت يد حارس ، وهكذا ينتقل كل ما اقتصده صغار الناس الى جيب قطب من أقطاب المال . وقصارى القول أن معظم الخطوط الحديدية الامريكية أصابها الافلاس فى وقت من الاوقات ، ولكن هذا لا يدل على عدم كفاية فى الادارة ، بل يدل على نقيض ذلك فى الواقع .

وخير مثال لهذه العملية هو ما حدث فى أول خط حديدى عبر القارة الذى صدر به الترخيص فى سنة ١٨٦٢ كما سبق القول . فقد سار البناء فيه من أوماها الى الغرب ومن كاليفورنيا الى الشرق بسرعة كبيرة ، وتم الخط فى سنة ١٨٦٩ . وقام بتنفيذ أعمال الانشاء فى الجزء الشرقى شركة بناء اسمها « شركة الكريدى موبيلير الامريكية » .

واتهم القائمون بالعمل بالرشوة ، وقامت لجان مجلس الامة الامريكى بالتحقيق . وقررت أن الخط تكلف بناؤه خمسين مليوناً من الدولارات وأن « الكريدى موبيلير » تقاضت ٩٣ر٥٤٦ر٢٨٧ دولار و ٢٨ سنت . ويمثل الفرق بين المبلغين وهو ثلاثة وأربعون مليوناً ونصف مليون ما نهب من الشركة أى ما فقده الجمهور فى آخر الامر . وكان « الربح » فى حالة « السنترال باسفيك » أضخم من ذلك على ضخامته ، فقد تقاضت شركة البناء مائة وعشرين مليوناً من الدولارات لتقوم بعمل تكلف ثمانية وخمسين

مليوناً . واقترن اسم كثيرين من أقطاب السياسة بالرشاوى التي صاحبت هذا العمل ، وصار أحد هؤلاء الأقطاب رئيساً للولايات المتحدة فيما بعد ، وآخر مرشحاً من قبل الحزب الجمهورى للرئاسة .

ولم يكن النظام الذى أسسه ملوك المال مرضياً بالمرة من وجهة نظر الأجراء . فعلى الرغم من الديمقراطية ، وعلى الرغم من الحماية الجمركية ، وعلى الرغم من ثروة البلاد التى كانت تزيد بسرعة ، كانت ساعات العمل طويلة والاجور رغم ارتفاعها عن أمثالها فى أوروبا لا تمثل الا نسبة تافهة لا تذكر الى جانب أرباح أقطاب المال . وفى سنة ١٨٧٢ ، عندما كان القائد البحرى فاندربلت يقترب من مليونه المئتم للمائة ، خفض أجور صائغى خط « فورث افنيو » العلوى ومحصليه من دولارين وربع دولار الى دولارين فى اليوم وذلك فى مقابل عمل خمس عشرة ساعة يومياً . وكان القائمون بالعمل أمام أفران اللفح فى صناعة الصلب يعملون اثنتى عشر ساعة يومياً حتى عهد قريب فى القرن الحالى ، وكانوا يعملون أربعاً وعشرين ساعة يومياً مرة كل أسبوعين عند تغيير نوبتهم من النهار الى الليل . وكان انشاء النقابات أصعب منه فى انجلترا بسبب اختلاف عناصر الاهلين بين غير الحاذقين ، ولم تنشأ نقابات تذكر بين العمال غير المهرة حتى سنة ١٩٠٠ . وكان فى وسع أصحاب الاعمال أن يرفضوا التعامل مع النقابات ، وكانوا فى بعض الحالات - كما فعل كارنيجى بعد اضراب سنة ١٨٩٢ - يرفضون بناتاً استخدام أعضاء النقابات . وكان استخدام الاطفال منتشراً جداً فى مصانع القطن خاصة فى الجنوب ، وظلت المحكمة العليا ، حتى عهد قريب تبطل أن المحاولات التى تبذل فى منعه غير دستورية . ويقول بوجارت فى هذا : أن استخدام الاطفال فى الجنوب « أدى الى مشاكل اقتصادية كانت قد أصبحت موضوعات شائكة فى نيوانجلند فى منتصف القرن التاسع عشر ، وفى انجلترا القديمة فى أوائل ذلك القرن (x) » .

ودع ذلك فقد كان الاجراء يفضلون امريكا على أوروبا . فقد كانت الاجور أفضل اذا قورنت بما كانوا يتقاضونه قبل أن يهاجروا على الرغم من طول ساعات العمل . وبعثت فيهم الديمقراطية ، مع كل نقائصها ، احساساً باحترام النفس ، فلم يعودوا يشعرون بأنهم ينتمون الى طبقة دنيا ، وكانت لهم آمال واسعة . فقد بدأ كثيرون من أصحاب الملايين حياتهم اجراء ، فقليل من الاقتصاد ، واستثمار دولارات معدودة فى مشروع يخالفه الحظ ، والحصول على رضا صاحب العمل ، قد تكون الخطوة الاولى نحو تكوين ثروة طائلة . وكان كثيرون من الرجال فى صناعة الصلب يفضلون العمل اثنتى

عشرة ساعة يوميا سبعة أيام في الاسبوع على ثمان ساعات يوميا وستة أيام في الاسبوع بأجر أقل ، ولم يكن ذلك لان الاجر الاقل يعنى التعرض للحاجة ، بل لانه كان يقلل من فرص الاقتصاد ومن ثم فرص الصعود . وكان مبدأ المنافسة وانتهزاز الفرص سائدا بين جميع الطبقات ولم يكن مقصورا على الذين استفادوا منه وحدهم . وكانت الحركة النقابية ضعيفة والاشتراكية لا وجود لها . وكانت قلة تعيش في بحبوحة النجاح ، والغالبية تعاني الضنك وتعيش على الامل ، ولكن احدا لم يكن يرغب في تقليل فرصة النجاح الباهر .

ولما انتهى عهد بناء السكك الحديدية وبطولاته أصبح أقطاب السكك الحديدية أقرب الى الارستقراطيين أصحاب الاراضى أكثر منهم الى القراصنة ، فلم يمض الا عشرون عاما تقريبا حتى انتقلوا من مرحلة البارونات النورمانديين الذين عاشوا سنة ١٠٦٦ الى مرحلة سادة مجلس اللوردات في ايامنا الحاضرة . وكانوا يتمتعون بقوة هائلة . فقد كانوا يملكون مساحات شاسعة من الارض ، ولم يكن أحد يستطيع نقل منتجاته الى السوق دون مساعدتهم . ويصور توريس في قصته « الاخطبوط » تحكم السكك الحديدية في المزارعين . وحاول المزارعون بطبيعة الحال أن يردوا اللطمات بوسائل سياسية . فعادت الراديكالية الزراعية التي وضع أسسها جفرسون جاكسن الى الحياة ، لكن ذكريات الحرب الاهلية جعلت التعاون مع الجنوب عسيرا . هذا الى أن الديمقراطية الفدرية كانت عاجزة أمام المنظمات الهائلة مثل شركات السكك الحديدية الحديثة . وكان العلاج الوحيد لهذه الحال حسب الافكار القديمة هو المنافسة . ولكن حيثما كانت حركة النقل لا تكاد تكفى خطأ واحدا ، كحال الغرب في أول الامر ، كان بناء خط آخر سخفا ومضيعة للمال ، وحيثما كان يوجد خطان متنافسان في الظاهر كانا يعتقد أن بينهما عادة اتفاقات ، لانهما اذا لم يتفقا فسيقضى عليهما معا بالحراب . وكان الزارعون يستشيطون غضبا كلما اكتشف اتحاد بين شركات السكك الحديدية . وأصدرت الولايات قوانين لا أعداد لها للحد من سلطات شركات السكك الحديدية . كما أصدر مجلس النواب الاتحادي بعض القوانين لهذا الغرض . وكان الهدف اجبارها على المنافسة ، ولكن اذا لم يشأ ديكان أن يتقاتلا فليس في وسع أحد أن يفعل شيئا

ان الراديكالي الذي يؤمن بالمنافسة لابد أن يلقي الهزيمة في أى نزاع يدخله مع الاتحادات الحديثة . ذلك أن قوة هذه الاتحادات تشبه قوة الجيوش ، وتركها في أيدي أفراد يؤدي الى نفس الكوارث التي يؤدي اليها ترك الجيوش في أيدي الافراد . والمنظمات الاقتصادية الضخمة في العصر

الحديث نتيجة حتمية « للتنظيم » الفنى الحديث الذى ينزع بصورة متزايدة الى جعل المنافسة مضيعة للجهد والمال . والحل الباقى أمام الذين لا يريدون أن يقعوا فى براثن الطغيان هو ملكية الشعب للمنظمات التى تفيض على مالكيها قوة اقتصادية . لانه طالما ظلت هذه القوة فى أيدي الافراد ، فان المساواة الظاهرية التى تنشأ عن الديمقراطية السياسية ليست الا خدعة وضلالا . . .

٢ - الاتجاه نحو الاحتكار

الفصل السابع والعشرون الاتجاه نحو الاحتكار

١ - البترول

كان الامريكيون في سنة ١٨٧٠ يعززون قسما كبيرا من رخائهم الى المنافسة . غير أنه كانت هناك قوى فنية معينة كانت تعمل ، ضد ارادة كل سكان الولايات المتحدة تقريبا ، على تحويل النظام الاقتصادي من نظام تنافس فيه عدة مشروعات صغيرة الى نظام يسيطر فيه اتحاد كبير أو اتحادان كبيران سيطرة تامة تقريبا على بعض الصناعات المهمة . وكان الاشخاص الذين ساعدوا على هذا التحول هم أنفسهم الذين قبلوا الفلسفة التنافسية السائدة ووصلوا الى ما أصابوه من نجاح بالعمل ببنائها . ولكن الذين لم يصبوا نجاحا هالهم أن تبينوا أن الفلسفة السائدة تقضي على نفسها بنفسها . فقد أخذ المتنافسون يتنافسون حتى لم يبق قائما الا واحد منهم لا يستطيع بعد ذلك أن يتخذ المنافسة شعارا . وقد حدث ذلك في عدة صناعات ، ولكنى سأركز اهتمامي على أكثرها أهمية : البترول والصلب . ويأتى البترول أولا من الناحية الزمنية .

لقد كان لاثنين من الرجال اكبر الاثر في خلق العالم الحديث : روكفلر وبسمارك . أحدهما في الاقتصاد والاخر في السياسة ، وقد قضيا ، كل في ميدانه ، على حلم التجربة الذى يقيم السعادة للجميع على أساس من المنافسة الفردية ، وحللال الاحتكار والدولة الموحدة ، أو على الأقل ، الاتجاه فى هذين السبيلين محلل ذلك الحلم . ولا ترجع أهمية روكفلر الى آرائه ، وهى آراء معاصريه ، بل الى سيطرته العملية البحتة على ذلك النوع من المنظمات الذى يمكنه من الثراء . أن روكفلر كان أداة فى ظهور ثورة اجتماعية نجمت عن المامة باصنول الصناعة ، ولكننا لانستطيع القول بأنه كان يقصد النتائج الاجتماعية لتصرفاته .

ولد روكفلر فى مزرعة سنة ١٨٣٩ لآب لايفرله قراروام تقيه (X) . وكان أبوه يحتفظ بمهنته سرا . فقد كان فى الواقع طبيبا متجولا ويصنع الدواء . كان يذهب الى قرية او مدينة صغيرة ويعلن لافتة كتب عليها : « دكتور وليام . روكفلر الاختصاصى الشهير فى السرطان هنا لمدة يوم واحد فقط . كل

(X) فيما يتعلق بعائلة روكفلر انظر كتاب « ذهب الله ، لجون . ت . فلين

حالات السرطان تعالج ماعدا الحالات المزمنة جدا وهذه تتحسن كثيرا .
وكانت زوجته تعيش أثناء فترات غيابه الطويلة على ماتبتاعه نسيئة من متجر
القرية ، ولكنه في كل مرة يعود كان يحضر معه نقودا تكفى لدفع الديون وأن
يعطى كل ابن من أبنائه خمسة دولارات . وكان رجلا مرحا ضخما ذا حيوية
عاش الى السعدسة والتسعين على الاقل (تاريخ وفاته غير معروف بالضبط) .
وكان كثير المناكلك مع رجال الشرطة ، وبيعت مزرعته في احدي المناسبات
الموفاء بما عليه من الديون ، وكانت أسرته مضطرة الى التنقل كثيرا بسبب
هروبه من دائتيه . وكان فخورا جدا بدهائه ، وكثير المباهاة بمهارته في
خداع الناس . ويقول ابنه جون « انه دربنى على الطرق العملية . لقد كان
يعمل في عدة مشروعات وكان يطلعنى على هذه المسائل وعلمنى مبادئ الاعمال
وطرقها » . أما وصف الاب نفسه لتعليمه « مبادئ » الاعمال فهو أكثر بساطة
من هذا الوصف السابق : « انى اخادع اولادى فى كل فرصة تتاح لى . ذلك
أنى اريد أن أجعلهم حاذقين . انى اتاجر معهم واستولى على أكثر ما استطع
الاستيلاء عليه منهم واعمل على الانتصار عليهم كلما استطعت . ذلك أنى اريد
أن أعلمهم الحذق » .

وكانت والدة جون تقيض آبيه من عدة وجوه . فقد كان زوجها أفاقا
لا يعتمد عليه ولا يؤمن جانبه وينظر اليه جيرا نه بغير رضى ، وكان على زوجته
ابان فترات غيابه الطويل أن تقوم بالعمل بنفسها على الرغم من ازدياد عدد
أفراد الاسرة ، وكانت تكافح للتوفيق بين ايراد الاسرة ونفقاتها وتحافظ على
مظاهر الوقار رغم ما كان زوجها يفعله ، او ما كان يظن انه يفعله . وكانت
قبل زواجها فتاة مرحة ، ولكنها اصبحت مكثبة وتحولت الى التدين . وكانت
تعترض بشدة على الخمر ، ثم أصبحت تعزف عن كل مرح .

وكان جون صبيا جادا خجولا حريصا يحب أمه ويتشرب فضائلها .
وشب شديد التدين ، لا يقرب الخمر ولا يدخن ، ولم ينطق فى حياته بالفاظ
نايية مهما بلغت اثارته . وقد وصف بأنه كان طوال حياته « خفيض الصوت ،
تاعم الخطى ، متواضعا » . ولعل مما يشك فيه انه قد فعل طوال سنى عمره
الحمس والتسعين ما يلام عليه فى مدرسة الأحد . وكان يقول فى دروس دينية
يلقيها فى مرحلة متأخرة من حياته « لاتكن رجلا طيبا . انى احبب أخى فى
الانسانية واهتم بأمره اهتماما شديدا . ولكن لاتكن مغاليا فى المجاملة . كن
معتدلا . كن معتدلا جدا . ولا تدع للطيبة مجالا تسيطر فيه عليك . اذا فعلت
ذلك فأنت هالك . أنت وذريتك وأسرتك عدة أجيال مقبله . والان . . أنا
لاأستطيع أن أكون رجلا طيبا ، فأنا لم أشرب كأسى الاولى من الخمر بعد » .

وما من شك فى أن الفقر وكثرة الانتقال وحزن والدته وعداء الجيران
قد تركت جميعها أثرا كبيرا فيه ابان طفولته . فعلى الرغم من انه كان يستطيع

التصرف بجرأة في ميدان الأعمال ، فإنه كان يخشى الجهل دائماً وينزع إلى السرية بطريقة غريزية حتى عندما لا يكون له من السرية غرض يبتغيه . والرجل إلى السرية بطريقة غريزية حتى عندما لا يكون له من السرية غرض يبتغيه . والرجل الخجول الذي ينشد القوة نمط من الرجال معروف . فلويس الحادي عشر وشارل الخامس وفيليب الثاني أمثلة لذلك النوع من الرجال فهم : ورعون ، دهاة ، لاضمير لهم ، نشطون ويميلون إلى العزلة . ولكن القوة بالنسبة لروكفلر لم تكن تنال إلا عن طريق المال .

وتصور لنا واقعتان مقدار حبه للمال في صباه الباكر . فقد أخذت صورة شمسية لكل الصبية في مدرسته ، غير أنه هو وإخاه فضلاً أن يظلا خارج الصورة لان ملابسهما كانت رثة للغاية . ومع ذلك فقد حدث قبل ذلك بعام أو حوالي عام ، وكان في العاشرة من عمره ، أن سمع أن أحد جيرانه من المزارعين في حاجة إلى خمسين دولاراً وأنه مستعد لأن يدفع عنها فائدة قدرها ٧ ٪ . وكان عند جون هذا القدر من المال من مذكراته ، فأرضه الجار المحتاج بعد أن سأل عن معنى (فائدة) . ثم قال بعد ذلك (قررت منذ ذلك الوقت أن أسخر أموال خدمتي) .

وعلى الرغم من هذه الرغبة الشديدة في الاقتناء فإنه بدأ يتبرع للأعمال الخيرية بمجرد أن بدأ يكسب . وكان أول عمل شغله في سنة ١٨٥٥ ، وهو في السادسة عشرة من عمره بمرتب ثلاثة دولارات ونصف دولار في الأسبوع . وكان يتبرع بعشرة في المائة من هذا المبلغ الضئيل . وزادت تبرعاته بنفس النسبة التي زاد بها ثراؤه .

ومما لا ريب فيه أنه كان حقيقة أنه رجل فاضل . ولم تكن التصرفات التي وجه إليه النقد من أجلها من النوع الذي حذر منه في صباه ، كما أنها لم تؤدي إلى عدم رضا القساوسة عنه . ولم يؤخذ عليه أنه عصي أولئك الذين كان يحترم سلطتهم الأدبية ، ومن ثم كان مرتاح الضمير . وقد قال في أحد دروسه الدينية : « إنه لمن الخطأ أن يفترض أن أصحاب الثراء الطائل دائماً سعداء . ذلك أنه إذا عاش رجل لنفسه دون اعتبار للإنسانية ، فإنه يكون أتعس رجل على وجه البسيطة . ولن ينفعه كل المال الذي يستطيع الحصول في نسيان شقائه الرجل الذي أخبه هو الذي يعيش من أجل إخوته في الإنسانية ، الرجل الذي يعيش في وضوح قائمًا بنصيبه ساعياً للخير الإنسانية على قدر استطاعته »

وكان يبدي تسامحاً كبيراً أمام النقد : « تقال عني أحياناً أشياء قاسية تؤلم ، ولكني لم أكن متشائماً أبداً . أتؤمن بالإنسان وبالآخرة بين الناس . واني لو اتق أن كل شيء صائر إلى خير الجميع في النهاية » . وقال في مناسبة أخرى « سيعرفونني أكثر بعد أن أموت . فليس في حياتي كلها ما لا يحتمل الفحص الدقيق . . . فما هي الميزات التي كانت لدى ولم يتمتع بها أي صبي .

فقير آخر ؟ » وقال عن تيودور روزفلت الذي كان يحاول استعمال الشدة معه :

« ان رجلا مشغولا الى هذا الحد مثله لا يمكن أن يكون دائما مصيبا .
وكلنا معرضون للخطأ أحيانا وهو في ظني لا يلم على الدوام بجميع اطراف
الموضوع الذي يتناوله . وأنا أود أحيانا لو أنه كان أكثر عدلا . ولا أعنى
انه يتعمد أن يكون غير عادل . ولكنه كثيرا ما يضلل »

ولقد ورث عن أمه كل ما كان يقوله ويعتقده ويحس به ، ولكن ما كان
يفعله قد ورثه عن أبيه ، الى جانب حرص شديد نجم عما تعرض له من
مكدرات في صدر حياته . وترجع أهميته الى ما فعله .

ولم تكن حياة ركفلر حتى عام ١٨٧١ تختلف في شيء عن حياة غيره من
العصاميين الذين ارتفعوا بمجهودهم ودهائهم . فقد عمل باجتهاد ابان الحرب
الاهلية تاجرا « بعمولة » ووجد نفسه عند نهاية الحرب على قدر لا بأس به من
الثراء . وكان أول استثمار له في البترول سنة ١٨٦٢ ، وبعد الحرب حصر
جهوده في تكرير البترول ، واتخذ شريكا في سنة ١٨٦٧ هو فلادجر الذي
ظل يحتل مركزا ممتازا في شركة ستاندرد اويل طوال حياته . وفي سنة
١٨٧٠ ضما اليهما شركة ستاندرد اويل برأس مال قدره مليون دولار كان
روكفلر يملك منها ٢٢٦٧٠٠ دولار . وسارت الامور معها على اذلالها .
ولكنهما كانا يعتقدان أن في وسعهما أن يحققا نجاحا أكبر مما حققاه . وكونا
شركة مع بعض مكرري البترول في فيلادلفيا وبتسبرج ونيويورك أطلقا
عليها اسم « شركة تحسين الجنوب » ، ولو أننا لانعرف من الذي بدأ بالتفكير
في المشروع ، هما أو غيرهما . وقد ظهرت مواهب ركفلر وفلادجر في الاسلوب
الذي سار عليه العمل في الشركة .

وكانت أهم المشاكل التي تواجه مكرري البترول مشكلة النقل . فقد
كانت انابيب البترول في ذلك الوقت مقصورة على نقل البترول الى أقرب
خط حديدي ، ولم تكن الانابيب التي تمتد مساحات طويلة قد صنعت بعد .
ومن ثم كانت السكك الحديدية تتحكم في النقل . وكانت الشركات التي
تستطيع نقل بترولها أرخص من غيرها تتمتع بمزايا . وحصلت «شركة تحسين
الجنوب» في سنة ١٨٧٢ على عقود من نيوبيورك سنترال وسكة حديد امري
وسكة حديد بنسلفانيا وخطين آخرين كان بترولهم بمقتضاها ينقل بأسعار
أقل من بترول الشركات الاخرى . ولم يكن هذا كل شيء ، بل اتفق على أن
الزيادة التي تدفعها الشركات الاخرى تذهب الى «شركة تحسين الجنوب» ولا تؤول
الى شركات السكك الحديدية . وثمة فائدة أخرى جاءت عرضا وهي أن
الحصول على هذه الزيادة جعل شركة تحسين الجنوب تطلع على كميات البترول
التي ينقلها منافسوها المختلفون بالضبط من أية نقطة والى أية نقطة على هذه
الخطوط الخمسة .

ولنضرب مثالا بصور الموقف : كان سعر نقل الزيت الخام من مناطق البترول الى نيويورك دولارين وستة وخمسين سنتا ، ولكن شركة تحسين الجنوب كانت تدفع دولار وستة سنتات فقط ، وكان انقاص اجر النقل بهذه الطريقة يقلل من نفقاتها . ولكن الدولار والنصف الذي كانت تدفعه الشركات الاخرى المنافسة والذي كانت شركة تحسين الجنوب تأخذه كان يرد لهذه الشركة نفسها . هكذا حصلت الشركة على ميزة مزدوجة بالنسبة لكررى البترول الاخرين .

وقد أبرم خمسة من رؤساء شركات السكك الحديدية عقودا من هذا النوع مع شركة تحسين الجنوب : هم وليام فاندريلت « ابن أمير البحر » نيابة عن النيويورك سنترال ، وجاي جولد عن ايرى ، وتوم سكوت عن بنسلفانيا ، والقائد ج . ب . ماك كلان عن ليك شور وميشيجان الجنوبية . واتفق شفويا على دعوة كل مكررى البترول الى الانضمام الى هذا الاتحاد ، وقد عارضت شركات السكك الحديدية فى الاتفاق حتى بدلت لها شركة تحسين الجنوب هذا الوعد (X) ، ولكن لم يبذل أى جهد للوفاء به . وقد أحيط الموضوع بسرية تامة ، وكان على الشخص أن يفسم على المحافظة على السرية التامة قبل البدء فى المفاوضات ثم الاتفاق أو لم يتم .

ولم يكدر كفلر يبرم العقود مع شركات السكك الحديدية حتى شرع فى الاتصال بمكررى البترول الاخرين فى كليفلاند وعرض عليهم شراء معاملهم بالسعر الذى يقدره هو . وغضب بعضهم ممن أصابوا نجاحا فى عملهم على ما اعتبروه فى أول الامر اهانة لهم ، ولكن روكفلر كان ينصحهم بالبيع فى وداعة ورفق كما لو كان شديد الاهتمام بمصلحتهم . فكان يقول لكل منهم : ان تشترا اسهما من شركة ستاندرد أويل فلن تعرف أشرتك الحاجة بعد ذلك أبدا ، واذفسلت هذه الحجة فى اقناع الشخص المقصود ، كان يضيف فى شىء من الغموض : « ان لدى وسائل للربح لا تعرف عنها شيئا » . واستسلم المكرون واحدا بعد الآخر وهم كالمسحورين من فرط الرعب . وقد عبر أحدهم عن ذلك بقوله : « لقد كنا نحس بضغط يسلط على عقولنا » . وقال أحدهم ، اسمه حنا ، لروكفلر أنه قرر الا يبيع ، « فرفع روكفلر حاجبيه وهز كتفيه كما لو كان معمل حنا قد قضى عليه (X) » ، وقال له « انك ستقرب وحدك ولن يستطيع معملك أن يربح قرشا واحدا بعد ذلك فى

(X) اوردت ابداتاويل نص العقد المبرم مع سكك حديد بنسلفانيا بالكامل فى كتابها « تاريخ شركة ستاندرد أويل » الجزء الاول ص ٢٨١ وما بعدها .
(X) جون . ت . فلين « ذهب الله » ص ١٥٩ .

كليفلاند • وليست هناك جدوى من منافسة شركة ستاندرد أويل ، فانك اذا فعلت ستصاب حتما بالخراب « فسلم حنا •

وعامل روكفلر شقيقه الاصغر فرانك ، وهو الشاة السوداء فى الأسرة الذى استمر طوال حياته يعارض جون ، بطريفة أكثر عنفا • فقد أبلغ بدون مواربة أن ستاندرد أويل تزعم شراء جميع معامل التكرير فى كليفلاند وأن أصحاب المعامل الذين يرفضون سيجدون معاملهم وقد أصبحت بلا قيمة ويصيبهم الخراب • فاستشاط فرانك غضبا وأراد أن يقاتل ، ولكن شركاؤه تغلبوا عليه وفرروا البيع •

ولم يمض الا شهر حتى استطاع روكفلر وفلادجر الحصول على احتكار يكاد يكون كاملا لكل معامل التكرير فى كليفلاند •

وظلت الامور تسيير بطريقه مرضية الى أن عرف منافسوا شركة تحسين الجنوب عن طريق خطأ وقع من كاتب احدى شركات السكة الحديدية بما تحصل عليه الشركة من خصم واسترداد • واستشاط الناس من فورهم غضبا وخاصة فى مناطق البترول حيث عقدت اجتماعات احتجاج • وبدأ الفزع ينتاب شركات السكك الحديدية وشرعت تفكر فى التلمص من العقود • وقررت برقيتان فى اجتماع كبير عقد فى منطقة البترول (X) :

« لا شركة الاطنطى ولا شركة الغرب الكبرى ولا أى من موظفيهما له علاقة بشركة تحسين الجنوب • ان سياسة الشركتين هى بطبيعة الحال تسهيل الامور للمصالح البترولية •

ج • ب • ماك كلان

فارتفعت الاصوات بالهتاف • ولكن البرقية الثانية التى قرئت فى الاجتماع كانت :

« العقد مع شركة تحسين الجنوب وقعه جورج • ب • ماك كلان رئيس شركة الاطنطى وشركة الغرب الكبرى • لم أوقعه الا بعد أن وقع جميع الاطراف قبلى •

جاي جولد

وحتى أمير البحر العجوز استولى عليه الفزع ، وقال للجنة من « اتحاد المنتجين » وهى هيئة تأسست لمقاومة الشركات المتحدة : « لقد فلت لبيل (ابنه) ألا يشترك فى ذلك المشروع بأى شكل كان » • وقررت هذه الهيئة ألا تباع البترول الخام للشركات المتحدة ما دامت عقودها مع شركات السكك ،

الحديدية قائمة . وبلغ اتحاد المنتجين من القوة ، والرأى العام من الثورة .
حدا لم تجد معه السكك الحديدية والشركات المتحدة بدا من التراجع . وألغيت
العقود فى مارس سنة ١٨٧٢ بعد مرور شهرين اثنين على توقيعها ، ثم ألغى
امتياز شركة تحسين الجنوب بعد ذلك مباشرة .

وبدا أن فى ذلك انتصارا عظيما للحرية . إلا أن روكفلر احتفظ بممتلكاته
فى كليفلاند ، كما عرف وسيلة يمكن أن يعود إليها عندما تهدأ العاصفة .
وقد يتطلب الأمر عندئذ قدرا أكبر من الحذر واحتياطات أتم للسرية ، ولكن
النجاح يكون محققا أكثر من ذى قبل .

وأكد مديرو السكك الحديدية فى ٦ أبريل أنه لم يعد بينهم وبين روكفلر
وجماعته أية عقود خاصة ، وأيد روكفلر ذلك فى ٨ أبريل . ولكن شريكه
فلاذجر أقسم بعد ذلك بمدة أن مؤسستهما كانت تتمتع بخصم من أول أبريل
الى منتصف نوفمبر سنة ١٨٧٢ (X) . ولم ينقطع روكفلر فى الواقع عن
الاستفادة من الخصم فى أى وقت من الاوقات ، بل انه كان يستفيد أحيانا
من الخصم والاسترداد معا .

وقد كان ماعملته شركات السكك الحديدية هو منحها أسعارا مخفضة
لا أكبر عملاتها ورغبتها فى تركيز عملية التكرير فى عدد قليل من المؤسسات
الكبيرة ، عملا منطقيا من وجهة نظرها هى . فقد كان روكفلر وفلاذجو فى
سنة ١٨٧٢ يستطيعان ارسال قدر من البترول من كليفلاند الى نيويورك يكفى
لملء قطار مكون من ستين عربة كل يوم . وأوضحت السكك الحديدية أنه
إذا قامت عربة بالرحلة كلها دون توقف فى الطريق لاأخذ حمولات جديدة
فانه يمكن اعادتها الى كليفلاند فى عشرة أيام، ولكنها اذا كانت ضمن قطارات
البضاعة العادية فانها لا تستطيع العودة فى أقل من ثلاثين يوما ، وعلى هذا
فان ما طلبه روكفلر من تخصيص ستين عربة يوميا يمكن اجابته بواسطة
٦٠٠ عربة فقط ، بينما يتطلب نقل هذا القدر نفسه موزعا على عدة منتجين
صغار ١٨٠٠ عربة . ولما كانت كل عربة تتكلف ٥٠٠ دولار فان هذا
يعنى أن اجابة طلب روكفلر يكلف السكك الحديدية ٦٠٠.٠٠٠ دولار أقل
مما يتكلفه نقل الكمية نفسها موزعة على عدة شركات (X X) . وعلى هذا
كانت العوامل الفنية تعمل الى جانب التركيز الذى يمثل الاقتصاد فى الانتاج
والتوزيع - وهو اقتصاد كان بلا ريب هدف شركة ستاندرد أويل أن
تحتفظ به فى يدها أربابا ، لا ليذهب الى المستهلكين فى صورة تخفيض
فى الاسعار .

(X) تاريل « المرجع السابق » - ج ١ ص ٩٦ - ١٠٠

(X X) تاريل « المرجع السابق » ج ١ - ص ٢٧٨

ويمكن تقسيم أعداء روكفلر الى ثلاثة مجموعات : المنتجين والمكررين
المستقلين والمستهلكين في مجموعهم . فالمنتجون كانوا يريدون التعاون فيما
بينهم والمنافسة بين المكررين الذين كانوا عملاءهم . وكان الجمهور يريد
المنافسة بين الجميع بوصفها مبدأ من ناحية ، وحتى تنخفض أسعار البترول
من ناحية أخرى . وكان المكررون المستقلون فريقين ، فريقا ينتظر شروط
أفضل حتى ينضم الى روكفلر وفريقا يعترض على الاحتكار من حيث المبدأ
ويعتز بمؤسساته التي بناها بنفسه . وكان لكل من هذه الجماعات ناحية
ضعف خاصة بها . فالمنتجون كانوا يبذلون الجهد في سبيل اتحادهم للحد
من الانتاج - ومما يدعو الى العجب ، أن الكتاب الذين يناهضون استنادارد
أويل كانوا يرون أن هذا الهدف مما يستحق التأييد في هذه الحالة . ولكن
جهود المنتجين منيت بالفشل باستمرار . فقد كان عدد كبير منهم ينتج
بتروله بترخيص من مزارعين كانوا في المنطقة قبل ظهور صناعة البترول ،
وكانت هذه التراخيص تقوم على أساس نسبة معينة يتقاضاها المزارع من
الانتاج ، ولذلك لم يوافق المزارعون على عدم استغلال الآبار للحد من
الانتاج ، وكون المنتجون أيضا اتحادا لمقاومة روكفلر وجماعته . الا أنهم بعد
انتصارهم الاول على شركة تحسين الجنوب منوا بالهزيمة المرة بعد المرة بسبب
خيانة بعض الافراد وحصول أصدقاء روكفلر على أسهم ، أو عن طريق
مستقلين مزيفين باع لهم المنتجون البترول دون أن يعزفوا أنهم يعملون
لحساب شركة ستاندر أويل . ولهذه الاسباب المختلفة كان مصير كل
الوسائل التي اتبعها المنتجون هو الفشل دائما .

وكان موطن الضعف في مركز المكررين أن مصالحهم الاقتصادية لم تكن
بالضرورة متعارضة مع مصلحة استنادارد أويل . فعرض روكفلر على أقردهم
شروطا حسنة لينضموا اليه ، وأخذوا ينضمون شيئا فشيئا باستثناء عدد
قليل لا يكاد يذكر . أما الذين لم يقدم لهم عروضاً مغرية فقد كانوا من
اعتبرهم غير ذي كفاية ، وهؤلاء قضى عليهم . ولم يبق بعد ذلك سوى
مجموعة صغيرة يدفعها تمسك غير عادي بالمبادئ أو درجة غير عادية من
التصليب . واستعملت ستاندارد أويل ضد هؤلاء كل وسيلة من وسائل
المنافسة تخطر على بال . فأينما ذهب بترولهم أبلغ الجواسيس ذلك لشركة
ستاندارد أويل فترسل بترولا بأسعار أقل من سعرهم . وكان أصحاب
الحال الذين يتعاملون في بترول مستقل يجدون أنفسهم مهددين بالمنافسة ،
لا في البترول فحسب ، بل في كل سلعة أخرى يتعاملون فيها ، وإذا لزم
الامر أنشئت مجال على مقربة تباع فيها جميع السلع بأسعار رخيصة جدا
قضت على التجار العصاة . وعندما أراد المستقلون أن يتخلصوا من طغيان
شركات السبك الحديدية التي كانت ما زالت تحارب جماعة روكفلر وأنشأوا
لهذا الغرض خطأ من الانابيب الى البحر وجدوا أنفسهم مرغمين على أن يعبروا

خط ايرى فى بقعة اسمها هانكوك . وأرادوا أن يعبروا عن طريق نهر تحب
جسر ، ولكن القانون لم يكن واضحا فى هذه النقطة . ولم ينتجى أى من
الطرفين الى القضاء .

« فى مساء السبت الاخير من نوفمبر سنة ١٨٩٢ قطع هـدوء هانكوك
وصول مائة رجل مسلح من رجال السكك الحديدية على قطار خاص . وأنزلوا
من القطار مدفعا ، وأقاموا نوبة حراسة ليلا ونهارا وبنوا مركزا للانداز تعلقه
شعلة قضاء طلبا للنجدة عند الحاجة كما بنوا ثكنات وتركوا عشرين رجلا
وأقام الباقون فى الثكنات المدة الباقية من الشتاء . وكان الديناميت جزءا من
عهدتهم وكان منها أيضا الأهاب والخطاطيف وغيرها من الادوات اللازمة لخلق
الانابيب اذا وضعت . وكانت المدافع من الادوات التى تستخدمها الشركة
وتستعملها فى ثقب الصهاريج التى ينقل فيها البترول اذا اشتعل . وحتى
يعرف المسفلون ماذا ينتظرهم أطلق المدفع فى الساعة العاشرة مساء وأحدث
دويا وهز الناس والنوافذ فى دائرة قطرها عدة أميال . وكان أعداء المنافسة
على استعداد للقتل دفاعا عن حقوق كانت موضع شك ، ولم يكن هناك من
يدعى أن المحاكم لن تقضى بترضية كاملة اذا وقع ضرر ، (X) .

ووجد خط أنابيب المستقلين طريقا آخر للمرور وتم بناء الخط ، ولكن
ستاندارد أويل سيطرت عليه فى النهاية .

وقام الجمهور ممثلا فى المحامين والمجالس التشريعية فى الولايات بعدة
هجمات على الاحتكار وحاول أن يثبت الحياة فى المنافسة بعدة وسائل منها ما
حدث فى سنة ١٨٧٤ اذ ذهبت لجنة ويندوم من مجلس الامة ، وهى اللجنة
التي عهد اليها بالتحقيق فى مخالفات السكك الحديدية ، الى حد أن دعت الى
انشاء عدد من الخطوط الحديدية تملكها وتديرها الولايات أو الدولة ، ولم يكن
الغرض من انشائها الحصول على ميزات الاحتكار لصالح الجمهور كما قد
يتبادر الى الذهن ، بل كانت على النقيض من ذلك ، لضمان وجود منافسين
لا يقبلون الانضمام الى مشروعات موحدة وعمليات الخصم والاستيراد وما
اليها .

وكتبت اللجنة فى تقريرها تقول ان « الوسيلة الوحيدة لضمان قيام
منافسة فعالة يعتمد عليها من السكك الحديدية والمحافظة عليها هى بناء خطوط
تملكها الدولة أو الولايات ، أو السيطرة على خط أو أكثر لا يمكن أن تشترك
فى تكتلات وبذلك تكون أداة لتنظيم الخطوط الاخرى » .

ولكن هذه التوصية لم توضع مطلقا موضع التنفيذ .
وكان قانون التجارة بين الولايات الصادر فى سنة ١٨٨٧ وقانون شرممان

المناهض للموثقات الصادر في سنة ١٨٩٠ محاولة لاتقاء شرور الاحتكار في السكك الحديدية وغيرها من المنظمات الاقتصادية . واستفاد المحامون من القانونين ، لانهما كانا يورطان رجالا أغنياء في نزاع معقد كثير الكلفة ، ولكنهما لم يخرجا أى غرض مهم آخر . وقررت المحكمة العليا أن القانون المناهض للموثقات لا يمكن تطبيقه على النقابات واستغلاله في القاء زعمائها في السجون .

نعم ان موثقة ستاندارد أويل حلت بالاسم سنة ١٨٩٢ نتيجة لحكم أصدرته عليها المحكمة العليا في أوهيو . ولكن حل الموثقة لم يكن قد نفذ بعد ست سنوات من ذلك الوقت ، ووجه النائب العام في أوهيو تهمة عدم احترام القانون الى الموثقة . وصدر قرار المحكمة في الموضوع بأصوات متساوية - ثلاثة ضد ثلاثة - وأنفذت الموثقة من نتائج الحكم . الا أن النائب العام لم يعد انتخابه وكان خلفه أكثر ودا نحو ستاندارد أويل . ففقد كانت الشركة جد خبيثة بتوجيه السياسة في أوهيو . مشال ذلك أنها استطاعت أن تجعل « باين » والد صراف الشركة أحد عضوى مجلس الشيوخ عن أوهيو . وأثار عضو الشيوخ الآخر والمجلس التشريعى تهمة وقوع تزوير في الانتخابات وطالبا بتحقيق يجريه مجلس الشيوخ . ولم يبد باين تحمسا لفكرة التحقيق ولم يحرك ساكنا في الموضوع .

ومع ذلك فقد حلت موثقة ستاندارد أويل في النهاية وحلت محلها « شركة ستاندارد أويل لنيوجرسي » التي قامت بالعمل نفسه في خدمة الأشخاص أنفسهم . وقد حلت هذه الشركة هي الأخرى بناء على حكم أصدرته المحكمة العليا في سنة ١٩١٠ باعتبارها منظمة تعرقل التجارة . ومنذ ذلك الوقت أصبحت ستاندارد أويل تتكون من عدة شركات في ولايات مختلفة مستقلة في الظاهر ، ولكن التغيير لم يؤد الى نتيجة ملحوظة .

ولم تصب حملة الشعب ضد حكم الاثرياء ، التي قامت على وجهة نظر تحررية عميقة ، بالتاكيد نجاحا كبيرا . وكانت النتيجة النهائية لاربعين عاما من التهيج المستمر ضد الاغنياء هي القاء أحد زعماء الاشتراكية - يوجين ف. دير - في السجن . وكان أقطاب ستاندارد أويل في الوقت عينه يستطيعون ارتكاب جريمة الحنث في الايمان دون أن ينالهم عقاب ، فقد أقسم روكفلر مثلا في مناسبتين مختلفتين ، ليس بينهما غير بضعة أشهر ، أنه كان وانه لم يكن ، على علاقة بشركة تحسين الجنوب (X)

وكان النزاع مع مكررى البترول الاخرين أكثر صعوبة منه مع المنتجين .

أو الجمهور . وكانت السكك الحديدية في هذا النزاع هي الحليف الرئيسي لستاندارد أويل والعامل الأكبر في نجاحها . وكانت المؤسسات الجديدة التي تنضم إلى التكتل تستمر في العمل على أساس أنها منفصلة في الظاهر وتتخذ احتياطات شديدة لإخفاء حقيقة انضمامها . مثال ذلك أنه عندما سيطر روكفلر في سنة ١٨٦٧ على مؤسسة سكوفيلد وشيرمان وتيجل ، « أحبط إبرام هذا العقد وتنفيذه بكل السرية التي تميزت بها مغامرات مسنر روكفلر في ميدان الأعمال » . وبناء على شهادة أحد موظفي المؤسسة أدلى بها في كليفلاند بعد ذلك بعدة سنوات ، تم توقيع العقد ليلا في منزل مسنر روكفلر في شارع أفليدس في كليفلاند حيث طلب إلى السادة الحاضرين ألا يخبروا أحدا ، حتى زوجاتهم ، عن التنظيم الجديد ، وأنهم إذا أصابوا من ورائه أرباحا طائلة يجب عليهم إخفاؤها - ولا يركبوا عربات تجرها خيول سريعة أو يظهروا بمظهر شراء المفاجيء ، أو يفعلوا أى شيء من شأنه أن يجعل الناس يظنون أنهم جنوا أرباحا كبيرة من تكرير البترول . لأن ذلك يؤدي إلى المنافسة . وأبلغوا أن جميع الحسابات يجب أن تظل سرية . واستعملت أسماء مستعارة في المراملات كما استعمل صندوق بريد خاص لهذه الأسماء الموهومة . والحق أن المهربين والنصوص لم يحيطوا أعمالهم بسرية أكبر من التي استخدمها روكفلر وأعوانه « (X) » .

ولم يحدث أن قام نزاع بين ستاندارد أويل وأى شركة من شركات السكك الحديدية إلا مرة واحدة لم تتكرر ، وكان ذلك مع سكة بنسلفانيا الحديدية . وكان ذلك في سنة ١٨٧٧ عندما أصبحت خطوط أنابيب البترول ذات أهمية وكان روكفلر يحاول السيطرة عليها جميعا . إلا أنه كان خط من الانابيب تملكه سكة بنسلفانيا الحديدية هو خط شركة النقل الامبراطورية » . وبدأ أن هذا الخط في طريقه إلى أن يصير عديم القيمة باستيلاء روكفلر على جميع معامل التكرير واقتصراره في نقل البترول على خطوط الانابيب التي يملكها والسكك الحديدية التي بقيت مواتية . ومن ثم قرر سكوت أن يبني معامل لتكرير البترول في نيويورك تستعمل الزيت الخام الذي تنقله خطوطه . وعند ما عرف الأمر حاول روكفلر أن يقنع سكوت بالعدول وكذلك فعلت شركتنا ! يرى ونيويورك سنترال . ولكن سكوت قرر أن يقاتل ، وبدأت حرب تخفيض الاسعار التي بلغت في وقت من الاوقات حدا كان الزيت فيه ينقل من مناطق البترول إلى نيويورك بخسارة ثمانية سنتات للطن . وقد كل من له علاقة بموضوع ملايين الدولارات ولكن النتيجة ظلت مشكوكا فيها حتى بدأ اضراب ، من أشد الاضرابات في أمريكا ، بين عمال شركتي بلتيمور وأوهيو وامتد إلى شركة بنسلفانيا . ووقعت معارك شديدة بين الجنود والمضربين

أسفرت عن عدة قتلى وتدمير الكثير من ممتلكات السكك الحديدية . وأدى هذا الاضراب الذى وقع فى أكثر الاوقات مناسبة الى انتصار روكفلر . وباعت شركة بنسلفانيا ، التى لم تدفع لاول مرة أرباحا لحملة أسهمها ولم تعد تستطيع مواجهة أى خسائر أخرى ، معامل التكرير وخط أنابيب شركة النقل الامبراطورية الى ستاندارد أويل . ولم تستمع شركات السكك الحديدية منذ تلك اللحظة الى أى اقتراح فيه عدااء لروكفلر، بل كانت تجيب دائما بأنه الرجل الوحيد الذى يستطيع المحافظة على السلام بين الخطوط المختلفة . ولم يعد حتى أقدر الناس وأغناهم بعد هزيمة سكوت ، يعتقدون أنهم يستطيعون الانتصار على ستاندارد أويل . وقد عبر و . ه . فاندربلت عن هذا الرأى فى شهادة أدل بها أمام لجنة من « جمعية نيويورك » سنة ١٨٧٩ فقال :

س - هل تستطيع أن تمزو ، أو هل أنت تعز فعلا فى تفكيرك وجسود شركة واحدة للتكرير الآن بدلا من خمسين شركة الى أى سبب عدا ضخامة رأس مال شركة ستاندرد أويل ؟

ج - لذلك عدد كبير من الاسباب ، ان رأسمالهم ليس الاساس الوحيد الذى بنوا عليه مؤسستهم ، فليس هناك شك فى أن هؤلاء الرجال أكثر دهاء منى فيما أعتقد ، أكثر كثيرا جدا ، ولو أنكم اتصلتم بهم فانى أعتقد أنكم ستخرجون بنفس النتيجة التى وصلت اليها من زمن بعيد ، انهم رجال اذكياء مغامرون ، ولم يحدث أن اتصلت بطبقة من الرجال فى ذكائهم وقدرتهم فيما يتعلق بأعمالهم ، وأنا أعتقد أن الكثير من نجاحهم يرجع الى هذا السبب .

س - هل يؤدى هذا وحده الى احتكار عمل من هذا النوع ؟
ج - انه يساعد كثيرا فى بناء الاحتكار ، وما كانوا يستطيعوا الوصول الى المركز الذى يحتلونه الان لو لم يكونوا على درجة كبيرة من الكفاية ، ولا يستطيع رجل واحد أن يفعل ذلك كله ، انهم مجموعة من الرجال .

س - ألم تكن مجموعة ضمت الرجال الاذكياء فى السكك الحديدية والرجال الاذكياء فى شركة ستاندارد ؟

ج - انى أعتقد أن هؤلاء السادة بذكائهم استطاعوا الاستفادة من المنافسة التى كانت قائمة بين شركات السكك الحديدية لمصلحة مؤسساتهم فى نموها ، وليس ثمة شك فى أنهم أفادوا من ذلك .

س - الا تعتقد أنهم استطاعوا أيضا اكتساب ولاء شركات السكك الحديدية وولاء موظفيها ؟

ج - لم أسمع أن أى من موظفى شركات السكك الحديدية قد اتهم بأن له مصلحة فى أى شركة من شركاتهم سوى ما كنت أقرأه منذ سنوات فى الجرائد من أن لى أنا مصلحة فيها .

س - ان مصلحتك فى سكك الحديد كبيرة الى حد أنه لا يوجد شخص يتصور أنه قد يكون لك مصلحة شخصية مضادة لمصلحتك فى خطوطك الحديدية . أليس كذلك ؟

ج - عند ما جاءوا ليتعاملوا معنا على نطاق كبير ، كان هذا هو السبب الذى جعلنى أتخلى عن مصلحتى .

س - وهذه هى الطريقة الوحيدة ، فيما نرى ، التى تُفسر بها تكوين هذا الاحتكار الضخم ؟

ج - نعم ، انهم رجال مهرة أذكىاء ، وأنا لا أظن انكم تستطيعون القضاء على رجال مثلهم بأى تشريع أو أى شىء آخر ، عن طريق أية ولاية أو عن طريقها مجتمعة ، انكم لن تجدوا الى ذلك سبيلا ، انهم سيتفوقون باستمرار ، والايام بيننا .

س - هل تعتقد أنهم يسيطرون على السكك الحديدية ؟

ج - نعم ، ويسيطرون على كل شخص يتصل بهم ، أنهم أمهر من أن أقف فى سبيلهم (X) .

ويقول روكفلر ان الله قد وهب له ماله . واذا كان الله يعمل عن طريق التوى الاقتصادية ، فقد يكون ذلك الرجل العجوز على حق . ومهما يكن من أمره فإنه قد ربح بعد تقاعده أربعة أمثال ما ربحه خلال عمله وفى نصف الوقت . فقد كان البترول مطلوباً فى أول الامر للإضاءة ، ولما فقد أهميته فى هذا المجال جاءت السيارات . لم يكن هناك شىء يستطيع وقف سبيل الثروة المتدفق . وقد تبرع بمبالغ لا حصر لها جعلت العلماء فى أمريكا والصين ، وكذلك القسم الأكبر من علماء البلاد الأخرى ، يفيدون من تبرعاته الخيرية ، ومع ذلك فقد ظل يزداد ثراء . وقد أدى اكتشاف البترول فى مناطق أخرى من العالم الى احياء المنافسة بالرغم من جهوده ، تحمل معها ، الا الحيرات التى كان أعداؤه يتوقعونها ، بل الحرب وأشاعات الحرب ، ومع ذلك فقد ظل يزداد ثراء .

« أنا لا أظن انكم تستطيعون القضاء على رجال مثلهم بأى تشريع أو أى شىء آخر عن طريق أية ولاية أو عن طريقها مجتمعة ، انكم لن تجدوا الى ذلك سبيلا ، انهم سيتفوقون باستمرار . » كان هذا رأى وليام فاندربلث ، ويبنو أن الامر كذلك طالما ظل داخل النظام الرأسمالى .

ب - الصلب

يقول المؤرخ الاقتصادي « ان انتاج الحديد والصلب هو الصناعة الرئيسية في الأمة ، وهو الذي يحدد تقدم الفروع الأخرى (X) » وكانت بريطانيا العظمى أيام الحرب الأهلية متقدمة على سائر الدول في صناعة الحديد والصلب ، ولكن أمريكا لحقت بها في سنة ١٨٩٠ ، وما أن جاءت سنة ١٩٠٠ حتى كانت تنتج ضعف ما كانت تنتجه إنجلترا واسكتلندا مجتمعين . ففي سنة ١٨٦٠ كان انتاج الحديد والصلب في أمريكا يقدر بنصف مليون طن ، وفي سنة ١٩٠٠ كان يقدر بتسعة وعشرين مليوناً من الأطنان ، وفي سنة ١٩١٠ بخمسة وسبعين مليوناً ، وفي سنة ١٩٢٠ بمائة وأربعة عشر مليوناً . وبينما زادت كمية الحديد والصلب مائتي مرة وثلاثين فيما بين سنة ١٨٦٠ وسنة ١٩٢٠ ، كادت قيمتها تزيد مائة مرة بالضبط . هذا إلى أن أمريكا لم تنتج في سنة ١٨٦٠ إلا قدراً ضئيلاً جداً من الصلب بينما كان انتاجها في سنة ١٩٢٠ كله تقريباً من الصلب . وقد نذهب بناء على ذلك إلى أن الطن من الصلب في سنة ١٩٢٠ كان يتكلف حوالى نصف ما يتكلفه انتاج طن من الحديد سنة ١٨٦٠ . ان هذا يمثل إلى حد ما على ما بلغه التقدم الفنى خلال هذه الأعوام الستين ، ولكنه تقدير غير دقيق ، لان مستوى الاسعار العام في سنة ١٩٢٠ كان أعلى منه في سنة ١٨٦٠ .

وكانت أهم شخصية في نمو صناعة الصلب هي شخصية أندرو كارنيجى ، وهو رجل كانت حياته نقطة الالتقاء لكل مراحل التصنيع من أقدامها إلى أحدثها . كانت أسرته منذ عدة أجيال من أصحاب مصانع النسيج اليدوية في اسكتلندا ، وكانوا في سنة ١٨٣٥ عندما ولد أندرو على وشك الانسقوط في وهدة الفقر بسبب منافسة الآلات . وكان معظم أقاربه من الرجال عهديين متحمسين تحدوهم كراهية شديدة للملك واللوردات ورجال الدين . وكانت أمه من أتباع سويدبورج أما هو فكان من المتحررين من قواعد الدين - أولاً بالطابع الثورى الذى اتسمت به الطبقة العاملة فى العقد الخامس ، وبعد ذلك بصورة أكثر اعتدالاً جعلت هربرت اسبنسر يعجب به وأدت إلى صداقته مع جون مورلى . وهاجرت الأسرة إلى أمريكا ، وهناك مر بكل مراحل المنافسة وانتهى به الأمر إلى بيع مؤسسته ليكون نواة أضخم من الاتحادات جميعاً ، اتحاد الصلب فى الولايات المتحدة . وكرس نفسه بعد تقاعده فى سنة ١٩١٠ للتخلص من أمواله . ولما توفى سنة ١٩١٩ وهو فى الثالثة والثمانين من عمره كان قد نجح فى التخلص من تسعة أعشارها . لقد عاش حتى هنا ويلسون على معاهدة فرساي ، ولكنه لم يطل عمره حتى يعلم انها تهنئة لا يستحقها .

وكان عم الفتى كارنيجى الذى يعجب به ويحتذيه ، واسمه لودر ،

متحمسا لأمريكا مثل معظم المهديين واتخذ واشنطن وجفرسن وفرانكلين مثله العليا . ومن ثم كان لدى الصبي عندما وصل أمريكا أمل طيب نحو البلاد الجديدة . وهو يذكر في خطاب طويل أرسله الى عمه سنة ١٨٥٢ أنه ديموقراطي من أنصار الارض المجانية ، وأنه يأمل في أن يتم القضاء على الرق في فرصة قريبة ، ويأسف لأن كلا المرشحين للرئاسة رجل عسكري ، ويؤكد أن أعظم اصلاح في العصر الحاضر هو « قانون المزارع المجانية » وأنه مسرور لأن « مين » قد أخذت ببدءاً بتحريم الرق - وهي خطوة سبقتم بها على أى الاحوال » . لفذ أصبح أمريكا متحمسا ، ومع ذلك فإنه لم تكن ظروفه تسمح له بمغادرتها حتى كان يقضى وقت فراغه في اسكتلندا .

ولما وصلت أسرته الى بتسبرج كان عليها أن تكافح في حصيل العيش واضطر هو للعمل في مصنع قطن عند ما كان في الثالثة عشرة من عمره لقاء دولار وعشرين سنتا في الاسبوع لا أكثر - وكره العمل كره العاجزين عن ممارسته . وعلى الرغم من أنه أخذ يقوى عزيمته بتذكر الابطال الاسكتلنديين فان الروائح كانت تسبب له الغثيان ، وكانت توقظه في منتصف الليل كواييس تصور أنه أخطأ في ادارة الآلة التي كان يعمل عليها . ويقول : « لم أنجح أبدا في التغلب على الغثيان الذي كان يصيبني من رائحة الزيت . وحتى والاس وبروس لم يفيداني في هذا الصدد » . يمكن أن يقال بوجه عام أن أكوخ الفقراء تضم سعادة حقيقية أكبر وحياة أوفى وأكثر غنى مما تضمه قصور الاغنياء » . ومع ذلك فقد ترك الكوخ الى القصر بأسرع ما استطاع .

وسرعان ما بدأ النجاح يحالف كارنيجي . فبعد حوالى سنة قضاهما في المصنع عمل « ساعى تلفراف » ، وكان ثانيا صبي في بتسبرج يقوم بهذا العمل ، ولكن عددهم أخذ يزداد بسرعة . وبدأ الرجل الذى ظل يدعو للمنافسة طول حياته بخنق المنافسة فورا بين « سعاة التلفراف » . فقد كان الصبي منهم يتلقى عن كل برقية يسلمها خارج حدود المدينة هبة مقدارها عشرة سنتات ، فعمل كارنيجي على ايداع كل المبالغ المتحصلة عن هذا الطريق في رصيد مشترك يوزع بينهم جميعا بالتساوى فى نهاية كل أسبوع . ويقول مؤرخ حياته فى هذا الصدد : « ونفذت الحطة وقضى على المنافسة ، وعاش سعاة التلفراف غنى وود وصداقة منذ ذلك الحين » (X) .

وأصبح فى عام ١٨٥١ عامل تلفراف مرتبة أربعة دولارات فى الاسبوع زادت فى العام التالى الى خمسة وعشرين دولارا فى الشهر ، وكان لا يزال فى السابعة عشرة عندما حالفه الحظ فاسترعى انتباه سكوت الذى كان يعمل فى سكة بنسلفانيا الحديدية ، وكان سكوت نفسه فى ذلك الوقت شابا

يرقى مدارج الرقى بسرعة ، ومن ثم الحقه بخدمة الشركة بمرتب قدره خمسة وثلاثون دولارا فى الشهر ، وبقي فى الشركة متنقلا فى وظائف مختلفة اثنى عشرة سنة أى الى نهاية الحرب الاهلية .

ولم يتطلب منه الامر مدة طويلة ليدرك أن العمل ليس هو الطريق الوحيد لتكوين الثروة . فقد عرض عليه سكوت فى يوم من الايام عشرة أسهم من شركة « آدامز اكسبرس » ثمنها ٥٠٠ دولار ، وحصل على المبلغ المطلوب باقناع أبويه برهن منزلهما . وفى مناسبة أخرى عرض عليه وودراف - مخترع عربات النوم - نصيبا فى مشروعه وكانت العربات لم تزل بعد فى مرحلتها التجريبية . (الا ان امر الدفعات الشهرية التى يجب على أن أؤديها كان يزعجنى - فقد كانت أول دفعة شهرية مائتين وسبعة عشرة دولارا ونصف . ولم يكن لدى هذا المبلغ ولا أعرف وسيلة للحصول عليه . وأخيرا قررت أن أزور مدير المصرف المحلى وأسأله قرضا أردته بواقع خمسة عشر دولارا فى الشهر . ووافق مدير المصرف فورا على منحى القرض المطلوب ، وهذا هو السر فى الطريق الى الثراء : كان بحيث اذا سألت مصرفا منحك اياه . وبلغت أرباحه من الاسهم التى حصل عليها خمسة آلاف وخمسين دولارا فى سنة ١٨٦٣ . وكان مجموع دخله فى هذه السنة ٤٧٨٤٦ دولارا وسبعة وستين سنتا لم يكن مرتبه منها يزيد على ٢٤٠٠ دولار ، والباقى كان نتيجة استثمارات استخدم فيها ذكاه وفظانته . وارتفع استثماره الاول فى شركة « آدامز اكسبرس » من ١٢٠ دلارا سنويا حين ابتاع أسهما فيها الى ١٤٤٠ دولارا . وكان قد اشترى بالمبالغ التى اقتصدها مزرعة فى منطقة البترول بالاشتراك مع بعض أصدقائه ، ارتفع ثمنها الى ٥٠٠٠٠٠ دولار ، الا انه كان قد بدأ يوجه اهتمامه الى الحديد .

وترك كارنيجى العمل فى السكك الحديدية بعد الحرب الاهلية وعمل فى صناعة الجسور الحديدية ونجح فيها من مبدأ الامر أعظم النجاح . وحولت عملية « بسمر » التى اخترعت سنة ١٨٥٦ وحدثت انقلابا فى صناعة الصلب انتباهه من صناعة الحديد الى صناعة الصلب . وقد تأخر استعمال هذه الطريقة بسبب عدم صلاحيتها الا فى الحديد الخام المستخدم فى انجلترا وأمريكا فى ذلك الوقت يحتوى على نسب أعلى من هذه . غير أن حديد ليك سوييرور (البحيرة العليا) ، الذى علم الرجال البيض بوجوده سنة ١٨٤٠ عن طريق هندي متطير يدعى ماجيجى جيج قال لهم : « جبل الحديد - الهندى لا يذهب قريبا منه ، الرجل الابيض يذهب » ، ثبت أنه صالح لطريقة بسمر واكتسب بذلك أهمية جديدة . ويرجع الفضل فى تفوق أمريكا فى صناعة الصلب الى حديد بحيرة سوييرور وعملية بسمر . فقد استطاع بسمر واجيجى ميج أن يقضيا على ما كانت تحلم به بريطانيا من التفوق على سائر الاقطار فى الصناعة الى أبد الدهر .

وفي سنة ١٨٧٢ اشتغل كارنيجي بصناعة قضبان الصلب نتيجة لمقابلة بسمر ومشاهدته «الحول» الذي ابتكره وهو يعمل • وصنع بسمر القضبان الصلب أولا للسكك الحديدية الانجليزية في سنة ١٨٦٥ ، ولكن القضبان الحديدية ظلت حتى سنة ١٨٧٢ تستعمل في أمريكا في كل مكان •

وبنى كارنيجي مصانعه في البقعة التي شهدت المعركة التي حلت فيها الكارثة بالقائد برادوك سنة ١٨٥٥ ، وأصاب نجاحا من مبدأ الامر • وسببت أزمة سنة ١٨٧٣ كسادا استمر مدة طويلة في صناعة الصلب ، ولكن مصانعه ظلت تتسع • فقد كان مبدؤه طوال حياته العملية أن يزيد من انتاجه في الازمات استعدادا لأوقات الرخاء اذا أقبلت • وقد قال بعد ذلك بمدة : « ان الرجل الذي لديه مال خلال الازمات لهو المواطن الحكيم ذو القيمة » • وكان هو دائما ذلك الرجل • وقد كان لفترات الذعر المالي شأن كبير في تكتل رأس المال ، لانها تجعل في وسع المؤسسات القوية أن تستولى على الضعيفة أو تطردها من ميدان العمل • ولم يقرب كارنيجي المضاربة ابدا ، كما لم يكن يعوزة النقد في أي وقت من الاوقات • وما أن صار سيد نفسه حتى شرع يكره الشئون المالية أشد الكره وابتعد كل الابتعاد عن سوق السندات وعملياتها • ووضع قاعدة لا يجيد عنها تقضى بالأا يقرب أحد من شركائه المضاربة اذا استطاع منعه من ذلك • وكان شديد الصلابة في هذا الموضوع حتى مع أخلص موظفيه وأكثر موضعا لبقته • لقد كان رجل صناعة فحسب • وكان يجمع ثروته عن طريق صناعة منتجات الصلب وبينها ، لا عن طريق المضاربات المالية •

وكان كارنيجي جمهوريا في السياسة ولكنه كان ملكيا في عمله • فقد كان في مصانعه حاكما مطلقا ، ولم يقبل أبدا الدخول في تكتلات أو اتفاقات من أي نوع كان مع مؤسسات منافسيه • فقد كانت المنافسة مصدر متعة له كان شديد الوطأة في معاركه لا يقف فيها عند حد • وفي داخل مصانعه كانت عينه الفاحصة تبحث عن كل من يبشر بمستقبل من موظفيه ويدفعهم الى المنافسة في سبيل ارضائه ، ثم يتخذ من أكفاهم شريكا له • وقد قال مرة : « ان مستر مورجان يشتري شركاء أما أنا فأربيهم » •

وكان نجاحه يعتمد على التفوق الفني • فقد كانت قضبان الصلب نباع عندما بدأ صنعها بسعر مائة وستين دولارا للطن • وفي سنة ١٨٩٨ كان سعر الطن سبعة عشر دولارا ، وانتجت مصانعه في سنة ١٩٠٠ ، وهي آخر سنة له في العمل ، أربعة ملايين طن من الصلب ، وهو ما يساوي تقريبا انتاج بريطانيا العظمى ونصف انتاج الولايات المتحدة كلها • وكانت أرباح مؤسساته أربعين مليوناً من الدولارات نصيبه منها أقل قليلا من خمسة وعشرين مليوناً • وربح مبلغ ٥٠٠٠٠ دولارا استثماره أحد الشركاء

في المؤسسة سنة ١٨٨٣ ثمانية ملايين دولار في سنة ١٨٩٨ . وأغرب ما
نرى الأمر أن ذلك كله قد تحقق دون أن يبذل كارينجى في تحصيله مجهودا
شاقا . فقد كان منذ سنة ١٨٦٥ يقضى نصف السنة في أوروبا ، معظمها في
اسكتلندا ، ومع ذلك فإن إشرافه على العمل ظل كاملا لم يخرج قط من بين
يديه . وقد قال مرة مفاخرًا لأحد زواره أثناء مشاهدته للمصانع : « اننا
عنا أسرة واحدة سعيدة ، كلنا مجتمعون على رأى واحد بالاجماع » فغمغم أحد
شركائه : « ليكن الله فى عون من يخرج على هذا الاجماع » .

وكان هناك شخص واحد لا غير يقف منه كارينجى موقف الرهبة ،
وهذا الشخص هو أمه . وقد كانت بلا ريب سيدة رهيبة حقا . فعندما
ألقى ماينو آرنولد أولى محاضراته في أمريكا تحت رعاية كارينجى فشلت
المحاضرة فشلا ذريعا . وحاول كل شخص بعدها أن يبلغه ذلك بلهجة مختلفة
الدرجات . وأخيرا تحول الى والدة مضيفه لعلها تقول له شيئا رقيقا يخفف
عنه آلام الاخفاق ، وكان كل ما قالته : « كانت المحاضرة أشبه بموعظة دينية
يا مستر آرنولد ، موعظة دينية أكثر مما يجب » . وكان من عادة كارينجى
أن يركب عربة ذات أربعة جياذ مع بعض أصدقائه ويطوف بها اسكتلندا ،
وكانت أمه تجلس دائما بجانبه لتحول بينه وبين الفتيات اللاتي ينشدن
زوجا . وتوفيت سنة ١٨٨٦ عندما كان فى الواحدة والخمسين من عمره ،
لم يرض أن يتزوج حتى ماتت ، وأنه كان قد عقد خطبته . وظل بعد موتها
عدة سنوات لا يتحدث عنها ، وأزال صورها التي كانت على مكتبه وعلى
الجدران . وأخيرا أعادت زوجته صورة مصغرة لأمه الى مكتبه ، وأخذ بعد
ذلك يتحدث عنها كثيرا .

وحدث فى جنيف سنة ١٨٩٣ خلال فترة من فترات غيابه الدورية
أضراب كبير فى مصانعه . واستاجر فريك ، الذى كان يشرف على العمل فى
غيابه ، رجال بنكرتون لحماية العمال الذين لم يشتركوا فى الأضراب ،
ودارت معركة تفوق فيها المضربون على رجال بنكرتون ، وجرح فريك جرحا
بليغا . وان كان غير قاتل بيد الفوضوى بيركمان ، وتغلبت فرقة من ثمانية
آلاف جندى مسلحين بالمدافع على الفوضويين واحتلت المصانع ، ولم يستخدم
كارينجى منذ هذه اللحظة أحدا من أعضاء النقابات . وقد حدث الأضراب
احتجاجا على تخفيض فى الأجور بلغ بين ١٥ و ١٨ فى المائة . وكان كارينجى
فى ذلك الوقت قد شرع ينسى أعمامه العهدين وتضاءلت نزعتة التحريرية الى
أن صارت مقصورة على « ترثرة » ولى عهد انجلترا والقيصر عن المزايا النسبية
للملكيات والجمهوريات ، وكتابة مقالات عن مباحج الفقر .

وكان كارينجى من مبدأ الأمر يصنع الجسور والقضبان ، ولكن عمله
الأساسى كان مصنع الصلب . وسادت فى أخريات أيام حياته العامة فى

صناعة الصلب فكرة جديدة هي « التكامل » ، وكانت تعنى أن كل المواد الخام وجميع العمليات الصناعية التي لا بد منها حتى تصير المنتجات في صورتها النهائية ، يجب أن توضع تحت إدارة واحدة ، وكان لذلك أسباب فنية ، فقد وجد مثلا أن من الخير ألا يترك المعدن حتى يبرد أبدا ، من أول مرحلة يتلقى فيها العمال المادة الخام حتى آخر مرحلة . واضطرت هذه الحركة كارينجي الى الاتصال برجلين بلغا من القوة مثلما بلغ : روكفلر وبيربون مورجان .

وكان كارينجي قد ضمن حاجته من الفحم الكوك باتفاق مع فريك ، الذي صار بعد ذلك شريكه ، وكان فريك يتحكم في كوك المنطقة كله . أما الحديد الخام الذي كان يجلب من منطقة ميزابي عند ليك سوبيربور فقد كانت السيطرة عليه أكثر صعوبة . ذلك أن روكفلر قد حصل على مساحات شاسعة من الارض خلال الذعر المالى الذي وقع في سنة ١٨٩٣ عندما اضطرت كثير من صفار المتعاملين للبيع . وبدا بعض الوقت أن روكفلر في سبيله الى تحدى كارينجي في تفوقه في صناعة الصلب . ولكنه قرر أن يقتصر على البترول . فأجر أرضه المحتوية على الحديد الخام الى كارينجي وأبرم معه عقودا لنقل الحديد نسكة الحديدية وبواخره الاثنتى عشرة التي كانت تعمل في البحيرة . وتعهد كارينجي ألا يشتري الحديد الخام من أحد غير روكفلر ما دام في مقدور روكفلر أن يوفر له مطالبه منه ، وكان مفهوما أن روكفلر لن ينتج صلبا بنفسه .

الا أن وقف كارينجي في الطرف الآخر كان أضعف من هذا . نعم انه كان واثقا من المواد الخام التي يحتاجها ، وكان يستطيع صناعة الصلب بتكاليف منخفضة يتفوق بها على أى منافس . غير أن الذين كانوا حتى تلك اللحظة يشترون منه الصلب للاغراض الصناعية المختلفة بدأوا يفكرون في انه ادعى لربحهم أن يصنعوا ما يلزمهم من الصلب بأنفسهم .

قد أدى هذا الى تبدل في الموقف تجلى بوضوح في يونية ويولية سنة ١٩٠٠ . فقد أبلغ مستر جون وجيتس رئيس شركة « الصلب والاسلاك الامريكية » مستر سكواب أن في وسعه انتاج ما يحتاجه من صلب في المستقبل ومن ثم فان العقد الذي بينه وبين شركة كارينجي يعتبر مفسوخا ، وأرسل أبناء مور المسيطرون على شركتى « أطواق الصلب » و « ألواح الصلب » خطابا يتضمن نفس المعنى . وانتهت بذلك عقود عديدة كانت مبرمة مع مصانع كارينجي واختفى عميل كان يشتري ٢٠٠٠٠ طن في الشهر . وأهم من ذلك كله وأدعى الى العمل أن ج . ب . مورجان وشركاه أنشأوا مؤخرا شركة اسمها « ناشيونال تيوب » (شركة الانابيب الاهلية) مكونة من تسع عشر مصنعا . كانت قبل ذلك تتنافس فيما بينها وكانت

جميعها تحصل على ما تحتاجه من صلب من كارينجى من عدة سنوات .
وأصبح فى وسع هذه الشركة ايضاً أن تستغنى فى المستقبل عن خدمات
مصانع كارينجى . وبني ماكينزبورت وفى أماكن أخرى عدد كبير من
أفران الصهر و « مجموعات التحويل » تؤكد فى تعال اعلان الاستقلال .
ومنشأة أخرى من منشآت مورجان هى شركة « الجسور الامريكية » ، كان
عملها فيما مضى مقصوراً على « التجميع » فكانت تشتري ماتحتاجه من صلب
من كارينجى ثم تقوم « بتجميعه » وتخرجه الى العالم فى صورة منتجات
تامة الصنع ، ثم أصبحت تقابل تجار بتسبرج الآن ببرود هى الاخرى ،
فقد كانت هذه المؤسسة التى خلقها مستر مورجان فى طريقها الى انتاج
ما تحتاجه من صلب بنفسها « (x) .

وكان كارينجى قد تعب من جمع المال ورغب فى التقاعد فى قلعه
باسكتلندا حيث يستطيع التمتع بالحديث مع الفلاسفة وتكريس مجهوده
لانفاق ثروته كلاً كرسه لجمعها . الا أن اعتداده بنفسه كان يتطلب
منه ألا يترك العمل وفوق رأسه هالة المجد لا رجلاً يخشى المنافسين الاقوياء
. وكان يملك فى كانتون على ساحل بحيرة ايرى مرفأً بأكمله فى نهاية
سكة بسمر الحديدية التى بناها من قبل ليوقف سكة حديد بنسلفانيا عند
حدها . وعند هذا المكان اشترى وكلاء كارينجى خمسة آلاف فدان انجليزى
تمتد على البحيرة مسافة ميل ، وهناك كان كارينجى يزمع بناء مصنع
للانايببتكلف ١٣٠.٠٠٠.٠٠٠ دولار . وكانت هذه العملية هى الخطوة
الاولى . فقد اشترى مساحات شاسعة من الارض لبناء مصانع أخرى
« تكميلية » - صفائح القصدير ، وأسلاك شائكة ، ومسامير ، وما إليها .
ومعنى هذا بعبارة أخرى أن شركة كارينجى تستعد لصنع الادوات التى
كانت تقتصر فيما مضى على انتاج الصلب الخام اللازم لصنعها ، فتسعيد
بذلك السوق التى أخذت تقلت من يدها . لقد كانت الاستعدادات قائمة
لبناء مدينة صلب ضخمة لا تختلف عن المدينة التى بنيت فيما بعد فى جارى
بانديانا « (x x) .

وبعثت هذه الاستعدادات التى قام بها كارينجى الاحترام فى نفوس الذين
قد يفكرون فى محاربتة . وكان مورجان يريد تنظيم صناعة الصلب ، ولا بد
له لتحقيق هذا الغرض من أن يشتري مصانع كارينجى ، وكان كارينجى يريد
البيع ولكن بشروط تبين بوضوح متانة مركزه . وقام الرجلان بجس النبض
فى حذر عن طريق وسطاء . وأخيراً حصل سكواب ، شريك كارينجى الاصغر
من مورجان على عرض هذا نصه : « إذا كان آندى يريد البيع فسأشترى

(x) هندريك « حياة آندو كارينجى » ص ٤٧٧ .

(x x) المرجع السابق - ص ٤٨١ .

اذهب اليه اعرف سعره ، وذهب سكبوا الى كارينجى الذى اخذ ورقة وكتب عليها « ٥٠٠.٠٠٠.٠٠٠ دولار » وقال : « هذا هو السعر الذى ابيع به » . واخذت الورقة لمورجان الذى قبل السعر فوراً . وتقابلا بعد ذلك لأول مرة .

« ودق جرس تليفون كارينجى فى يوم من الايام بعد عدة اسابيع من انتهاء المفاوضات ، وسأله المتحدث : هل يسمح بالذهاب الى ملتقى وول ستريت وبرود ستريت لمحادثة قصيرة ؟ ولما كان كارينجى اكبر سناً من مورجان فقد بدت هذه الدعوة غير مناسبة ، ومن ثم اجاب : « يا مستر مورجان ان المسافة من وول ستريت الى الشارع الحادى والحسين هي نفس المسافة من الشارع الحادى والحسين الى وول ستريت . يسرنى ان اراك هناك فى أى وقت » . وبعد فترة قصيرة كان مورجان فى منزل كارينجى . كانت المحادثة التى تمت بينهما لطيفة ومرضية . وأشرف مستر جيمس برترام سكرتير كارينجى على توقيت الزيارة . وعندما حان موعد نهايتها اخرج ساعة من جيبه . وخرج مورجان من منزل كارينجى بعد خمس عشرة دقيقة بالضبط . الا ما اقرر الذى تطلبته مناقشة موضوع يتعلق بـ ٤٠٠.٠٠٠.٠٠٠ دولار من رجلين عظيمين !

وكان الفراق لطيفاً . فقد شدد مورجان على يد كارينجى عند الباب وقال :

« مستر كارينجى ، انى اريد ان اهنئك أنت اغنى رجل فى العالم (x) .

وانضمت مؤسسة كارينجى ، مع كثير غيرها ، الى منظمة مورجان العملاقة « اتحاد الصلب فى الولايات المتحدة » التى تكونت سنة ١٩٠١ ، وكانت تعرف لدى الجمهور باسم « اتحاد البليون دولار » غير ان رأسمالها فى الواقع كان اكبر من ذلك : ١٣٠.٠٠٠.٠٠٠ دولار . ولم تكن هذه المنظمة تحتكر صناعة الصلب ، بل انها حرصت على ارضاء الرأى العام ، ولذلك أعلنت انها لا تنشأ احتكار هذه الصناعة . وكانت وقت انشائها تسيطر على ٥٠ فى المائة من مجموع الإنتاج (x x) . وكانت المنظمة من صنع مورجان ، فهو الذى اختار لها المديرين وعين لها القاضى جارى رئيساً . ولم يكن للمضاربات المالية شأن فى أعمال كارينجى فى عهده ، ولكن المضاربات كانت تعنى الفرق بين النجاح والفشل فى « اتحاد الصلب فى الولايات المتحدة » . ولم تعبد العمليات الفنية فى الصناعة هى التى تسترعى الانتباه . لقد حدث مصادفة أن أنتج الصلب ، وما كانت الامور لتتغير لو أن الإنتاج كان أى شئ آخر . لقد بدأت مرحلة أكثر تجرداً فى تنظيم النشاط الاقتصادى . فان الجانب المالى لا يختلف وجوهه باختلاف المشروعات ، وقد احتل هذا الجانب مركز الصدارة احتلالاً متزايداً بعملية تطور طبيعى . ولم يكن فى الاستطاعة عن طريق

(x) المرجع السابق - ٤٩٦ .

(x x) ايلمانديل « حياة البرت جارى » ص ١٣١ .

« العمليات المالية » نوع واحد من المشروعات مثل الصلب أو البترول فحسب بل أصبح مستطاعا أيضا تكتيل جميع الصناعات الكبيرة المتقدمة . وكانت هذه هي الخطوة التالية في نمو الرأسمالية .

ج - المال

ليست قوة السوق المالية شيئا جديدا ، الا أنها زادت مع كل مرحلة من مراحل نمو الفن الرأسمالي . ولم تكن قوة المال ، كما رأينا ذات شأن كبير في نجاح أقطاب مثل ركفلر وكارينجى ، ولكن مرحلة جديدة بدأت بنقء-سد كارينجى وكانت الشخصية المسيطرة في هذه المرحلة هي شخصية ج . بيرون مورجان الكبير . كان أبوه ج . س مورجان رجلا نابها في انجلترا يعمل وسيطا بين المشروعات الأمريكية والمستثمرين البريطانيين . . كانت صلة بيرون مورجان بأوروبا ، عن طريق أبيه ، أو تقريبا أتيح منها لآى من سابقيه في المشروعات الأمريكية الكبرى . وكانت أوروبا ، وخاصة إنجلترا ، حتى الحرب اعظمى ، تستثمر مبالغ طائلة فى السكك الحديدية الأمريكية ، ولكنها بصفة عامة لم تكن تحصل على عائد مجز . ويظهر حملة الاسهم البريطانيون بصفة دورية طوال أبعارك التنى قامت بين درو وجولد وفاندربلت من أجل سكة حديد ايرى ، ولكنهم كانوا عاجزين عن الخيلولة دون وقوع ما يجعل استثماراتهم عديمة القيمة . كان ما ينطبق عليهم ينطبق أيضا على صغار المساهمين فى الولايات المتحدة . فلم يكن فى وسعهم شىء سوى ان يقفوا مكتوفى الايدى يشاهدون مخدراتهم تذوب فى معركة العمالقة .

وكان بيرون مورجان ، أول من استخدم قوة مصالح صغار المستثمرين ودافع عنها ، رجلا مختلفا كل الاختلاف عن أمير البحر أو ركفلر أو كارينجى فهو على نقيضهم مولود فى القصور ، وكان من أنصار مذهب الشيخوخة ، وينحدر من أسرة قديمة فى نيو انجلاند . وكان منذ صباه ذا خبرة واسعة بالشئون المالية والحكومية فى أوروبا وكان نصيرا للفن تبدو عليه مسحة من أبهة أباطرة الرومان ، يجمع الصور والقصور والنساء بعد أخذ رأى الخبراء (على الأقل فى الأولى منها) بأقل من قيمة التكلفة . وكان يذهب الى اجتماعات الكنيسة حتى فى أكثر أوقاته انهماكا فى العمل . كما كان يقضى أوقات فراغه فى الكنائس الخالية ويرتل الترانيم منفردا . وكان يحتقر كارينجى ويراه شخصا عاميا وضايقه أن سمع « المحدث » الوقح يتحدث عنه باسم بيرون . وكان يكره ركفلر ويراه معمدانيا متعجرفا . وقد قال له جارى مرة أثناء انشاء موثقة الصلب « يجب أن نحصل على حديد ركفلر الخام » . فأجابه مورجان : « وكيف السبيل الى ذلك ؟ » . فرد جارى « يجب أن تذهب الى ركفلر وتحادثه » . فكان الجواب « مستحيل ، أنا لا أحب هذا الرجل » . ومع ذلك فقد ذهب اليه صبيحة اليوم التالى واشترى الحديد الخام فى آخر الامر بمسء

أن دفع فيه خمسة ملايين دولار وأكثر من السعر الخارجى الذى كان جارى
يعتقد أنه ما يجب دفعه (x) .

وتكاد المرحلة الاولى من نشاط مورجان تكون محصورة فى السكك الحديدية،
ولم يكن ذلك فى محاولات لانتزاع السيطرة من رجال آخرين أقوى ، بل كان
همه منصرفا الى تجنب المنافسة العنيفة القاتلة . وكان سبب شهرته الاولى
سنة ١٨٦٩ عن طريق تنظيم الدفاع عن سكة البانى وسسكهانا الحديدية ضد
جولد وفيسك اللذين كانا يحاولان الاستيلاء عليها لصالح شركة سكة ايرى
الحديدية . وهذه القصة مليئة بالحوادث تصور ما كان هذان السيدان
يتبعانه من وسائل وما كان يمكن أن يدخله فى تاريخ العمليات المالية المقم
بالاقتدار . فقد حاولا الهجوم على اجتماع لجنة الاسهم بعصاه من القوغاء
المشاغبين جمعها من أحقر احياء نيويورك مع كل منهم عصا غليظة ، الا أن
مورجان ورامس ، رئيس السكة الحديدية ، كانا قد استعدا لهما بعصاه من
عمال القطارات . وقذف رامس فيسك من أعلى الدرج الى أسفله حيث «قبض»
عليه أحد رجال الشرطة ، واختفى بعد ذلك . وحدث بعدئذ ان اصطدم قطار
من قطارات ايرى وآخر من قطارات البانى وسسكويهاانا ، كلاهما مملوء
بمقاتلين أشداء ، عند مدخل نفق لأن كلا من القطارين رفض أن يقسم طريقا
للاخر . وقفز الرجال من القطارين وتقاتلوا حتى حضر حرس الولاية الوطنى
وأعاد النظام . وكان هناك فى نفس الوقت جيش القضاء المألوف كل منهم
يصدر أحكاما متناقضة يفرضها على جميع الاطراف . وهزم جولد وفيسك فى
آخر الأمر . وأثبت مورجان أنه رجل نافع فى جانب المعاملات المالية المحترمة

وفى سنة ١٨٧٧ بعد وفاة كومودر فاندربلت ، رأى ابنه أنه أمام مجلس
تشريعى فى الولاية أقل استجابة لرغائبه مما كان فى عهد تويد ، فقرر أن من
الحكمة أن يتخلص من جزء كبير من حصنه فى النيويورك سينترال التى كانت
تبلغ ٨٧ ٪ من رأسمالها . واستشار مورجان فى طريقة تنفيذ ذلك العزم دون
خسارة . وتعهد مورجان بأن يشتري الأسهم بسعرها فى السوق ويوزعها
فى انجلترا بشرطين : أن يعين مديرا وأن يضمن لمشتري الاسهم عائدا قدره
٨ ٪ مدة الخمس السنوات التالية . وقبل فاندربلت هذه الشروط وتم بيع
الاسهم فى انجلترا بنجاح ، وأتاب المساهمون الانجليز مورجان عنهم فى
اجتماعات الشركة . وبهذه الطريق اكتسب دون أن يستثمر هو شخصيا
مبلغا كبيرا ، نفوذا فى السكك الحديدية باعتباره المدافع عن مستثمرين
حقيقيين ، ولم يكن هذا منه عملا خيرا خالصا ، لان أرباحه الشخصية بلغت
ثلاثة ملايين دولار .

وكان مورجان يدرك أن المنافسة بين اقطاب السكك الحديدية ، متلفة

وتؤدي الى الخراب، وفي سنة ١٨٨٥ كانت شركتنا النيويورك سنترال وخطوط بنسلفانيا - أو بالاحرى كان وليام هـ • فاندربلت وجورج هـ روبرتس مدير بنسلفانيا - على وشك الاشتباك فى حرب طاخنة أحدهما مع الاخرى • وكان خط بنسلفانيا الجنوبية يعمل لصالح فاندربلت ضد روبرتس، بينما كان خط الساحل الغربى يعمل ما فى وسعه للاضرار بالنيويورك سنترال بتأييد من روبرتس ، فأخذ مورجان الرجلين معه فى رحلة على ظهر يخته وظل يقنعهما حتى اتفقا على أن يأخذ روبرتس خط بنسلفانيا الجنوبية ويأخذ فاندربلت خط الساحل الغربى حتى يتخلص كل منهما من المنافسة • وكان روبرتس عسير الاقناع ، ولكن مورجان أسدى له خدمة بعد ذلك بعامين ، فقد استعمل نفوذه فى الحيلولة دون دخول خط بلتيمور وأوهيو فى نيويورك •

وفى سنة ١٨٨٩ كون مورجان « اتحاد السكك الحديدية بين الولايات » من ثمانية عشر رئيسا من رؤساء شركات السكك الحديدية وممثلين للمصارف الرئيسية التى تهتم باصدار الأسهم الجديدة • وكان هدفه هنا أيضا هو منع المنافسة وحماية المستثمر الحقيقى الذى كانت مصالحه تهم مورجان بسبب صلاته بأوروبا • وبعد أن قدم لكل هؤلاء الاقطاب عشاء ممتازا افتتح المشروع بخطاب قصير جدا :

« أن الغرض من هذا الاجتماع هو منع الحاضرين من أن يتولوا تنفيذ القانون بأنفسهم عندما يعتقدون أن حقوقهم قد اعتدى عليها ، كما جرت العادة كثيرا من قبل ، ان هذا امر غير مألوف فى أى مكان آخر فى المجتمعات المتمدنية ، ولا يوجد سبب وجيه يدعو لأن تستمر هذه الطريقة بين السكك الحديدية (x) »

وكان قوة المال هى التى امكنته من أن يتحدث بهذه اللهجة الى مجموعة من الرجال الاقوياء الذين لا يميلون لان يملى عليهم أحد شيئا بأى حال من الاحوال وقد احتج أحدهم وهو ماك لويد قائلا :

« انك لا تستطيع أن تملى على راىك • انى أفضل أن أبيع فى (كسك جرائد) على أن أتلقى أوامر من أى مالى • • ولم يمض وقت طويل حتى أصبح فى عداد الفقراء ، ولكن أحدا لا يعلم هل لجأ الى البيع فى « كسك جرائد » أو لم يلجأ اليه •

وكانت قوة مورجان تعتمد على عملية أطلق عليها اسم « موثقة الاقتراع » • وتفصيل ذلك انه عندما كانت شركة من شركات السكك الحديدية تتعرض لازمة كانت تلجأ اليه ليعاونها فى إعادة تنظيم أمورها ، وكان ينجح فى الحصول على هذه التوكيلات لأن التجربة دلت على أنه يستطيع النهوض حتى

(x) جو كندى وينكلر « حياة ج بيرون مورجان له ص ١٢٧-٦ »

ياسوا الخطوط الحديدية حالا بحيث تجنى منها أرباح، وزاد الذعر المالى الذى حدث فى سنة ١٨٩٣ من قرصه ، وفى سنة ١٨٩٨ كان يسيطر على سدس السكك الحديدية فى الولايات المتحدة كلها برأس مال قدره ١٠٠.٠٠٠.٠٠٠.٠٥٠ دولار . ولم تكن قوته مستمدة من مال يملكه فعلا ، بل كانت أشبه بالقوة السياسية ، لأنه كان الممثل المختار لاصوات مبعثرة لحملة اسهم لا عداد لهم وشرع عندئذ فى الاتجاه الى ميادين أوسع . وفى سنة ١٨٩٥ « انقذ البلاده باتفاق مع الرئيس كليفلاند فى وقت كانت الحزينة فيه جأوية بسبب نزوب معين الذهب . فقد أخذ على عاتقه أن يجمع خمسة وستين مليوناً من الدولارات ذهباً نصفها من أوروبا وأن يستعمل كل نفوذه المالى فى الاحتفاظ بها فى الولايات المتحدة . وأصبح « انقاذ البلاد » عادة لديه ، فقد قام بهذه العملية مرة أخرى سنة ١٩٠٧ . الا أنه ، وقد مات سنة ١٩١٣ ، فاتته فرصة « انقاذ العالم كله » ، وهى المهمة التى تركها لابنه خلال الحرب العظمى .

وكان « اتحاد الصلب فى الولايات المتحدة » الذى تكون سنة ١٩٠١ أضخم عمليات مورجان من الناحية المالية . وكان سبب تكوينها أن معارضته للمنافسة كانت تعمل منذ زمن طويل على إثارة شعور العداء لدى الرأى العام ، كما أن جهوده فى انشاء أضخم الموثقات كانت تزيد أعداء « المشروعات الكبرى » انزعاجا . وحدث فى ذلك الوقت بالذات أن اغتيل الرئيس المحافظ ماكينلى وأصبح روزفلت بسياستته التحررية رئيسا . وبدأ ، يؤيده المواطنون العاديون بحماسة شديدة ، باتخاذ الاجراءات ضد عدة اتحادات عملا بقانون شرمان المناهض للموثقات . وكانت أولى ضحاياه شركة الائتمان الشمالية التى أسسها مورجان وهيل للسيطرة على سكك الشمال الغربى الحديدية . واستشاط مورجان غضبا فذهب الى واشنطن وسلق الرئيس بلسان حاله ، وكان مورجان قويا فى غضبه : فاذا تطاير الشرر من عينيه تهاوى أمامه الرجال . ولكن روزفلت كان ندا له فى قوة الشخصية ، وافترقا فى ثورة الغضب . وقال مورجان « ان هذا الرجل مجنون ، انه ألعن من الاشتراكيين » وقال روزفلت « أن مستر مورجان لا يسعه الا أن ينظر آلى على أننى منافس كبير له ينوى أن يقضى على كل مصلحة ان يمكن اقناعه بالاتفاق على عدم المساس بأى من هذه المصالح » . ورد مورجان قائلا « انى على استعداد حتى للتصويت الى جانب الديمقراطية كى أخرج هذا الرجل من البيت الابيض »

وكانت المحكمة العليا قد أصدرت قبل ذلك حكما فى قضية نايت ، لو أنه اتخذ سابقة لكان فيه حماية لشركة الائتمان الشمالية ، ولكن المحكمة العليا ليست فوق التراجع أمام الضغط ، واستعمل الضغط . وقال روزفلت : « لقد كان من الضرورى نقض الحكم الذى صدر فى قضية نايت لصالح

الشعب ضد الاحتكار والامتيازات ، كما كان من الضروري قبل ذلك نقض الحكم في قضية درد سكوت لصالح الشعب ضد الرق والامتيازات ، وقررت المحكمة العليا بأغلبية خمسة ضد أربعة حل شركة الائتمان الشمالية ، ومما هو جدير بالذكر أن القاضي هولمز ، أكثر أعضاء المحكمة العليا راديكالية ، صوت ضد الحكومة .

ونجت موثقة الصلب من الحل بمقتضى القانون . ذلك أن مورجان كان حكيما فاختار لها رئيسا هو البرت ، جراى ، وهو محام تقى من شيعة النظاميين ، راعته تصرفات الرجال الكبار الذين أصبح على صلة بهم ، وعقد جراى أواصر الصداقة مع روزفلت رغم معارضة زملائه المديرين الشديدة ، وكان يتردد كثيرا على واشنطن ليشيد بعمل روزفلت فى سبيل الصالح العام . وعندما أرادت الموثقة أن تشتري شركة ينسى للفحم والحديد والسكك الحديدية حصل على موافقة روزفلت مقدما . وقال عنها انها ليست مثل بقية الموثقات ، مما دعا مارك توين أن يقول له عندما قابله أول مرة « أوه . . انى أعرفك . أنت الموثقة الطيبة » . وهكذا حصل مورجان على جائزته وتركت موثقة الصلب دون أن تمس بسوء . غير أن تافت ، بعد أن ظل فى الرئاسة مدة تكفى للدخول فى نزاع مع سلفه ، قرر أن يظهر استقلاله بأن يعكس سياسة الحكومة ، وعلى الرغم من أنه كان أكثر ودا نحو المشروعات الكبيرة من روزفلت ، فانه رفع قضية ضد « اتحاد الصلب فى الولايات المتحدة » فى أكتوبر سنة ١٩١١ . وفى ابريل سنة ١٩١٥ أصدرت محكمة الولايات المتحدة الاستثنائية قرارها ضد الحكومة ، وبذلك انتقلت القضية الى المحكمة العليا . وانقسمت المحكمة على نفسها بالتساوى فى مارس سنة ١٩١٧ وحكم بإعادة مناقشة القضية . غير أن دخول أمريكا الحرب ، التى كان فيها موثقة الصلب فيها شأن كبير ، كان سببا فى التأجيل . وفى سنة ١٩١٩ أصدرت المحكمة العليا فى النهاية قرارها فى صالح الموثقة ، وهكذا انتصرت فضيلة جارى .

لقد كان تشعب قوة مورجان لا نهاية له . فقد كان يسيطر على شركة آرمور فى شيكاغو . وعن طريقها كان يتحكم فى حياة تجارة الماشية فى الأرجنتين . وكان اتحاد النقل البحرى الذى كونه يضم معظم السفن التى تعمل فى الاطلنطى . واستقبله ادوارد الثالث وقيصر المانيا والبابا كما لو كان زائرا ملكيا . ونشرت مجلة لايف موعظة هزلية : « من الذى خلق العالم بإشارل ؟ الاجابه : صنع الله العالم سنة ٤٠٠٤ قبل الميلاد ولكن جيمس هيل وج بيربون مورجان وجون د ركلر أعادوا تنظيمه فى سنة ١٩٠١ » .

ولم يكن مورجان على الرغم من قوته الهائلة أغنى رجل فى عصره بحال من الاحوال . فقد توفى عن ثمانية وستين مليونا من الدولارات . ولم يحكم عالم

المال عن طريق ما كان يملكه هو بقدر ما كان يحكمه عن طريق قدرته على بث الثقة في نفوس غيره . لقد كان الائتمان ممثلا في شخصه . ولقد قام في أول الأمر بتنظيم قوة المال في أمريكا وأجزاء كبيرة من أوروبا حتى يهيىء جوا من العمل المنسق لصالح رأس المال . وحاول روزفلت والمصلحين ، مقتفين أثر تقاليد جفرسن-جاكسن ، أن يعيدوا الفوضى القديمة عن طريق القانون الا أن نجاحهم واخفاقهم في قضاياهم الضخمة التي بدأت في جيل وانتهت في الجيل التالي قلما كان يهتم ملوك المال . وكان هؤلاء الرجال يقومون بعمل نافع ضرورى في قتالهم ضد الفوضى : فقد كانوا يقللون من «الاتلاف»، وكانوا يثرواتهم الطائلة يشبتون بالدليل الواضح ما تستطيع القدرزة الانتاجية للعمل الحديث تحقيقه . وقد كانوا على صواب فى كل ما يتعلق بالانتاج ضد ما ذهب اليه دعاة المنافسة . نعم انهم لم يستطيعوا حل مشكلة التوزيع ، الا أن هذه المشكلة كانت تحير خصومهم أيضا . كما لم يستطيعوا أن يقترحوا قط من المساواة : فقد جمع كارينجى ملايينه الاربعمائة عن طريق المنافسة .

لقد بدأت الولايات المتحدة بتراض غير يسير بين هاملتن وجفرسن . ثم دفعت العناصر الجفرسونية بالتدرج نحو الغرب . بينما حكمت العناصر الهلثونية الشرق . وكان للغرب نفوذ كبير طالما كان يعمل فى توافق مع الجنوب غير أنه بعد الحرب الاهلية لم يعد لأعضاء حزب الأئمة المزارعين السرية واتباع برايان رغم حيويتهم وحماستهم . وصارت الولايات المتحدة كلها فى النهاية، فيما يتعلق بحاجتها الاقتصادية ، وحدة منظمة يحكمها عدد صغير من الاغنياء لا مثيل لهم فى الماضى لمصلحتهم الخاصة . ان التنظيم من حيث هو تنظيم كانت له قيمته ، ولكن العيب كان فى الغرض منه . فهو لم يكن يهدف الا الى جعل بعض الرجال الاغنياء أكثر غنى . وقد كان ملوك المال على حق فى رغبتهم فى القضاء على المنافسة ، كما كان خصومهم أيضا على حق فى المطالبة بمراعاة مصالح المواطنين العاديين . ولم يكن الحل لىوجد فى حكم مطلق بصورة أوسع لجماعة الاغنياء ولا فى العودة الى الفوضى الاقتصادية ، ولكن فى الملكية العامة والسيطرة على الاداة التى خلقها سادة المال .

وتحقيق ذلك يتطلب فلسفة شعبية جديدة ، وأداة حكومية جديدة ، ونوعا جديدا من الادراك الديمقراطي . وتبذل الآن محاولة لخلق هذه كلها فى أمريكا فى هذه اللحظة .

١ - مبدأ القومية

القسم الرابع

القومية والامبريالية

الفصل الثامن والعشرون

مبدأ القومية

١ - النزعة التحررية فى أوروبا

كان فى العالم ثلاثة أنواع مختلفة من التقدميين فى الفترة الواقعة بين سنة ١٨١٥ و سنة ١٨٤٨ : الزراعيون الديمقراطيون فى أمريكا ، والراديكاليون الفلسفيون ، والآحرار . وكانت العلاقات بين الفئتين الاخيرتين فى المقارة معقدة بعض الشيء . ذلك أنه لما كان الفريقان من التقدميين فقد أحسا بأنه يجب أن يقوم بينهما تعاون ، غير أن وجهتى نظرها كانتا مختلفتين الى حد جعل التعاون بينهما عسيرا منذ البداية ، ومستحيلا فى النهاية .

فقد كان الراديكاليون الفلسفيون ، الذين استمدوا معظم آرائهم من فرنسا كما كانت فى القرن الثامن عشر ، يعتقدون أن كل الناس متساويون من الناحية الخلقية ، ويمزون كل ما هنالك من فروق بين الكبار الى التربيئة والبيئة . أما فيما يتعلق بالدين فكانوا من المتشككين ، وفى الاخلاق كانوا يرون أن السعادة هى الحد النهائى الوجودى . وأن المصلحة الذاتية هى الدافع الاساسى للنشاط ، وأن العقل أداة تمييز المصلحة الذاتية وأن الحكم هو فن التوفيق بين المصالح المختلفة للأفراد . وكانوا عالميين وعقليين كما كانوا أكثر ميلا الى الديمقراطية وكان الرخاء ونشر المعرفة فى نظريتهم الهدفين السلميين للحكم ، وكان الاقتصاد أهم ما يشغلهم فى الشؤون العملية .

وسيطر الراديكاليون الفلسفيون على انجلترا عن طريق كيدن ، وكان لهم عن طريق انجلترا نفوذ كبير فى القارة مدة من الزمان .

آلا أن نظرياتهم أخذت صورتين منذ أيام أون ، احدهما لصاحب العمل والاخرى للاجير ، ولقد ظلت كل مبادئهم التى تميزوا بها كلها تقريبا حية فى الماركسية : الاعتقاد بأن الناس خلقوا متماثلين ، والايان بالعرفى ، والعملية ، وآلتجاء الى المصلحة الذاتية ، والاهتمام بالرخاء المادى . وكانت تعاليمهم هى مصدر الاشتراكية الدولية ، كما كانت هى بعينها مصدر الرأسمالية الدولية ، وقد ثبت على مر الايام أن الصورة الاشتراكية

للمراديكالية الفلسفية أكثر صور هذه الفلسفة دواما . فقد مضى عهد كيدس ولكن عهد لينين ظل باقيا .

وكان الاحرار فى الفترة التى أعقبت سقوط نابليون يختلفون كل الاختلاف عن اتباع بنتام . وحقيقة انهم أيضا كانوا مرتبطين بفرنسا كما كانت فى القرن الثامن عشر، ولكن كانوا مرتبطين فيها بروسو لا بالموسوعيين الاقتصاديين الطبيعيين (الفيزيوقراطيين) فقد كانوا اهل وجدان أكثر منهم اهل تفكير . يتطلعون الى العاطفة لازالة ما يعانىه الضعفاء والمضطهدون . وكانت تسيطر عليهم بعض الالفاظ البليغة العتيقة ، كالطغاة والعبيد والحرية . ويبدو انهم لم يسمعو أبدا هذه الالفاظ دون أن تثير فيهم الانفعال المناسب لها . والحقيقة أن المرء لا يستطيع دائما أن يتأكد من هو الطاغية ومن ليس طاغية ، وفى انجلترا كان هذا الوصف ينطبق على نابليون « جاء طاغية ، وقاتلته فرصة قدسية » كما يقول ودزورث فى خطابه للحرية . أما فى ايطاليا فقد انعكست الآية فكان نابليون محررا كما يبدو من أغنية مانزونى المعروفة للموت . وفى المانيا كان الاحرار منقسمين فى الرأى ، فكتب هاين كتابه ليمجد نابليون ، بينما كان الوطنيون فى سنة ١٨١٣ يكرهونه ، وحافظ جوته على حياد كحياد أرباب الالوب يليق بحكيم مثله .

وكان الاحرار فى البلاد الكوثوليكية مناهضين للكنيسة . وكانوا فى كل مكان من أنصار التسامح الدينى الذى لم يكن له حتى ذلك الوقت وجود فى انحاء كثيرة من القارة . واعتقد الكثيرون أن الله يتجلى مباشرة للقلب ، خاصة عندما يكون قلب فلاح غير متعلم وأن الدين حماقة ابتكرها القساوسة لاستبعاد الروح البشرية ، وأدى بهم ذلك الى ضرب من التدين الفامض غير الحزبى مثل دين روسو . وكان آخرون من المؤمنين بوحدة الوجود وخاصة أولئك الذين كانوا متصلين بالماسونية الحرة التى بدأت اتجاهاها التحررى قبيل الثورة الفرنسية .

وكان المتحرر النموذجى فى القارة من أنصار المبدأ الجمهورى وكفاهم لذلك سببا أن أثينا وروما أيام مجدهما كانتا جمهوريتين ان لم يكن هناك سبب آخر . غير أن كثيرا من الاحرار كانوا على استعداد لقبول ملوك على شرط أن يمنحوا شعوبهم دساتير ، ويحرروا رقيق الارض ، ويطلقوا حصرية الدين وللصحافة . وكان بعضهم معارضا للارستقراطية ، ولكن كثيرين منهم لم يكونوا من هذا الرأى ، وكانوا يعتقدون - كما يعتقد تاسيوس - أن روما كانت تتمتع بالحرية فى ظل حكم أقلية مجلس الشيوخ ، ولكنها فقدتها فى حكم الاباطرة الشخصى . وأجمعوا كلهم ، بتأثير روسو ، على أن الثراء ذو اثر مفسد ، وآمنوا بفضائل الفقر البسيطة .

وخير ما يمكن أن نحدد به وجهة نظر الاحرار من ناحية السياسة العملية

هو ما يحبون وما يكرهون : لقد كانوا يكرهون « الحلف المقدس » ويعتبرون مترنيخ خلاصة الشر المجسم . وكانوا يحبون فرنسا بسبب ثورتها وتفكير فلاسفتها الحر . وكانوا يكرهون آل بوزبون وفرنسا وأسبانيا ونابلي وبيرون أنهم رمز انتصار الرجعية . وكرهوا الاتراك لانهم يضطهدون اليونانيين، ومن ثم لم يكرهوا القيصر حتى سنة ١٨٤٨ . ولعنوا ذكرى كاسلرى وبت، ولكنهم كانوا يعجبون بكاننج إعجابا لعله فوق ما يستحق .

وكانوا فوق كل شيء يعبدون بيرون .

وكان الإعجاب ببيرون في القارة شيئا يفهم معاصروه أسبابه، وكان الراديكاليون الانجليز يفضلون عليه شلي وكانت قصائده الثورية تلقى في اجتماعات العرائضين ويقراها العمال من أتباع أون . ولكن بيرون كان يعد في خارج بلاده أعظم شعراء عصره مع جواز استثناء شاعر واحد هو جوته . فقد كان كل شيء حول بيرون يناسب المزاج الوجداني الإبداعي . فقد كان لوردا ومع ذلك كان طريداً منبوذاً ، وكان رجلاً غنياً ومع ذلك كان يدافع عن المظلومين، وكان في الظاهر ساخراً عديم المبالاة ولكنه يخفي (في غير نجاح) قلباً يدمي أسي لمصائب الناس . وكانت اليونان أكثر قضايا العصر اجتذاباً لآخيلة الجماهير ، ومات بيرون من أجل اليونان . وقد مجد « سجين شيون » الذي أضطهد من أجل المبدأ الجمهوري في القرن السادس عشر . كما كذب عن واشنطن عدو انجلترا الناجح ، يقول :

ترى أين تقع العين المتعبة

حين تحديق في العظيم

حيث لا يتوهج المجد الأثيم

أولا يتلاؤ ذو المقام الكبير ؟

انها تقع على واحد - هو الاول - والآخر - وخير الناس جميعا .

هو مستأنس الغرب

الذي لم يجرؤ حاسدوه على أن يكرهوه

وخلف وراءه اسم واشنطن

كي يستحي للناس حين يدركون أن ليس بينهم

الا واشنطن واحد .

وكان أسلوب العصر أن يكون المرء متعباً تحزن في قلبه أحزان خفية ، وأن يحتقر العالم وينشر الحرية في العزلة . وكان قراصنة بيرون وزنادقته يناسبون المزاج الارستقراطي المتمرد . وقد وضع هو القاعدة التي يبرر بها من يحبون الانسان ويكرهون الرجال فرادى موقفهم هذا . ولم يغفر مانزيني للانجليز

اهمالهم بيرون وأبى أن يصدق أنه عامل زوجته معاملة سيئة . وكان بسمارك فى صباحه .مدأوما على قراءته « وكان يذهب أحيبـسانا لصيد البط فى زورق وزجاجة خمر قريبة من يده دائما ، ويقرأ بيرون بين الفنية والفنية » وعندما عقد خطبته وأرسل الى خطيبته نسخا من أشعار بيرون ، ولكنه كتب عليها : « كلها هراء » ولعله كان يفعل ذلك خشية أن يصدم ورعها . بل أنه فكر فى أن يقوم برحلته حول العالم على نمط ما فعله تشايلد هارولد .

وكان لقصائد بيرون أثر كبير فى اذاعة مبدأ القومية ، وعندما كتب عن جزائر اليونان حيث عاشت سافو وغنت وهى تحترق « كان يوصى » ولعله كان يعتقد أنه اذا طرد الاتراك فان سافو جديدة ستعيش وتغنى . وبينما كان مترنخ يحاول اقناع الاسكندر بان يطيل عبودية الشعب اليونانى كان بيرون يكتب قصيدته الرائعة عن اليونان التى يقول فيها :

الى روح الحرية : نك حين جلست على جبهة قبل

فى صحبة شرازيبولوس واتباعه

هل كان فى وسعك أن تنذرى الناس بالساعة المخربة

التي تغشى الآن جمال سهل أتيكا ؟

ليس الذين يكيلونك بالاغلال الآن ثلاثين طاغية

بل أن كل سوقى حقير يفرض سلطانه على أرضك

وأبناءؤك لا يستطيعون النهوض . بل يتحدثون عينا

وهم فى دورهم قالبون ، يرتجفون من وقع سياط الاتراك

مستعبدون من يوم يولدون حتى يواروا الثرى

وقصارى القول فى الحق قد فقدوا رجولتهم

ألا ما أشد ما تغيرت فى كل شىء الا فى شكلك ، منذ الذى

ليعبر اللهب الذى لا يزال يتوهج فى كل عين

نشم لا يحكم بأن قلوبهم قد أخذت تشتعل من جديد

بأشعة الحرية الضائعة التى لم يطفأ لظاها

وما أكثر من يحملون مع ذلك بأن الساعة آتية عما قريب

وأنها سوف ترد اليهم ثرات آبائهم .

أنهم يتطلعون فى شوق الى أسلحة الاجانب ومعونتهم .

لا انهم لا يجرون وحدهم على أن يلاقوا غضب أعدائهم

ويمحوا اسمهم الذى لوئته صفحة الاستعباد المحزنة

ألا أيها المستعبدون أبا عن جد ألا تعلمون
أن من ينشدون الحرية يجب أن يقاتلوا في سبيلها ؟
وأنهم يجب أن ينالوا النصر بسواعدهم اليمنى ؟
أو هل تظنون أن الفرنسيين أو المسكوف سيردون عنكم الظلم ؟ لا
نعم انهم أن يلقون بناهيكم في الرغام
ولكن مشاعل الحرية لن تضاء لكم
يا أبناء سوقة اسبارطة انتصروا على أعدائكم
ويابلاذ اليونان ، بدلى ساداتك ، فلا تزالين كما كنت
وقد انقضت أيام مجدك ، ولكن سنى عارك لم تنقض بعد .

وكانت الحرية كما تبدو في شعر بيرون وفي آمال الاحرار تختلف كل
الاختلاف عنها عند الرازيكاليين الفلاسفة . ولما كان بنتام وأتباعه من أصحاب
مذهب النفعية فانهم لم يعتقدوا بوجود ما يسمى « حقوق الانسان » المطلقة ،
وان كانوا من الناحية العملية يعتقدون أن من الخير عادة أن يترك الانسان حرا
يفعل ما يشاء في حدود . وكانوا يقدرون حرية الرأي لانهم يعتقدون أنه اذا
ترك كل انسان حرا في عرض قضيته فان خير قضية ، ستسيطر لا محالة
على الرأي العام . وكانوا يقدرون حرية التبادل التجارى لانها تزيد منتجات
العمل وكانوا متميزين بصفة عامة ضد الحكومات لانها كانت مكونة من
ارستقراطيين يحفظون هواوس عن ظهر قلب ولكنهم لا يعرفون شيئا عن
لتجارة . وكانت الحرية التي يريدونها هي حرية الفرد والقيام بنشاط
اقتصادي من النوع الحديث الذي لم يذكر فرجيل وهوميروس عنه شيئا .

وكانت الحرية كما يدركها الاحرار شيئا أروع من حق مبادلة قطن مانشنسر
بالقمح البولندي ، أو تشويه منظر الوديان بالمناجم والمدخن . فقد كانت
الحرية عند الاحرار حقا لا بد منه لكرامة الانسانية . وكانوا يذهبون مع
البروتستانت الى انه يجب ألا يكون هناك وسيط بين الروح والله ، وأنه ما من
سلطة خارجية تستطيع أن تعلم الانسان شيئا يتعلق بواجبه . فاذا كان هناك
ايطالى يشعر بأن ولاءه يجب أن يكون لبلاده لا لحاكم قام عرضا ليحكم جزءا
صغير منها ، فان من واجبه أن يتصرف تصرف الوطنى ولو أدى ذلك الى نبذ
الحق الالهى لملك نابلي أو مطالب البابا الدينية المقدسة . وهكذا كان للامم كما
للأفراد حق فى أن تكون «حرة» ، أى ألا يحكمها أجانب أو قساوسة أو ملوك
ذو سلطان مطلق . وكان الاعتقاد بأن الامم يجب أن تكون حرة من حيث المبدأ
أهم جزء فى مذهب الاحرار من الناحية العملية . فقد نما هذا المبدأ الى أن صار
هو مبدأ القومية ، أو مذهب تقرير المصير ، الذى سيطر على شئون أوروبا
عامة من سنة ١٨٤٨ الى سنة ١٩١٩ .

ومن الصعب أن نحدد بدقة معنى مبدأ القومية ، فهو بوجه التقريب المبدأ الفائل بأن أية مجموعة جغرافية تريد أن تكون وحدة حكومية من حقها أن تكون دولة مستقلة قائمة بذاتها ، غير أن للمبدأ من الناحية العملية حدودا . ففي سنة ١٩١٧ عندما أعلن منزل واحد في بتروجراد استنادا الى هذا المبدأ أنه أمة من حقها أن تكافح في سبيل حريتها ، أحس الناس بأن الامر تجاوز الحدود المعقولة ، وحتى الرئيس السابق ولسون نفسه لم يشجع هذا الاتجاه أما إيرلندا فقد اعترف لها بحق الاستناد الى هذا المبدأ ضد إنجلترا ، وكذلك كان للجزء الشمالى الشرقى من الستر هذا الحق نفسه ضد بقية الستر ، ولكن مفاطعتى فرمناه وبترون لم يسمح لهما بتطبيق هذا المبدأ فى صالحهما ضد بقية الستر الشمالى الشرقى من اقليم الستر . هكذا كان من قيود المبدأ الا يكون الاقليم الذى يتعلق به الامر صغيرا جدا . وقيد ثان هو الا يكون الاقليم فى آسيا وافريقيا ، وكان هذا واضحا لكل الناس حتى وقعت الاسباب الهزيمة بروسيا . وكان ثمة قيد آخر ألا يكون الاقليم ذا أهمية دولية خاصة مثل قناة السويس وبناما (١)

ولم تكن هذه القيود واضحة للاحرار حتى سنة ١٨٧١ لان مفهوم الامنة كان بالنسبة لهم شيئا يحوطه الغموض وله روح ، مثل أى فرد آدمى . وكان من رأيهم أن ارغام قوم على أن يعيشوا فى ظل حكومة ليست منهم كارغام امرأة على أن تتزوج برجل تبغضه . ان عاطفة المرء نحو بيته وحب لاسرته يقومان على أساس من الغريزة، وهما معا يكونان أساس حب الوطن باعتباره عاطفة من المواطنين ، وكان وجود هذه العاطفة هو الذى يضى على مبدأ القومية ماهو شرعى فيه .

وللامة ، على خلاف الطبقة ، تعريف غير اقتصادى . فنستطيع أن نقول انها جماعة جغرافية تحس بالتضامن . فهى من الناحية النفسانية تشبهه فوجا من الخيول أو قطيعا من الماشية أو سرابا من الغربان . وقد يكون مصدر التضامن اتحادا فى اللغة ، أو فى أصل مفروض أنه مشترك ، أو ثقافة ، مشتركة . أو مصالح مشتركة وخط مشترك . ولعل هذه العناصر عادة شأن كبير فى نشأة العاطفة القومية ، الا أن هذه العاطفة ، أيا كان مصدرها ، هى العامل الوحيد الجوهرى فى وجود أمة . ويميل دعاة القومية الى التفكير فى الامة باعتبارها عنصرا بالمعنى البيولوجى بدرجة أكبر كثيرا مما تبرره الوقائع . فشكسبير يصف الانجليز بقوله : « هذه السلالة السعيدة من الرجال » ، وتبعه فى ذلك من جاء بعده من مواطنيه ، ولما كانت الامم تعتبر

(١) يريد الكاتب يقول ان هذا هو الاعتقاد السائد فى ذلك الوقت وان لم يكن هو الاعتقاد التصحيح أو العادل (المترجم)

أجناسا فقد ساد الاعتقاد بأن الفروق التي بينها خلقية الى حد ما ، على الأقل ، وهكذا أدى الامر بالاحرار الى توكيد الاختلافات بين الافراد والاجناس ، على نفيض الراديكاليين الفيلسوفيين ، وأن يعزوها الى عوامل أخرى غير التربية والبيئة . وشجعت الدورانية عندما ظهرت هذا الاتجاه كثيرا - لسنا نعلم الدارونية في صورتها العلمية طبعاً ، بل في الصورة التي رأى السياسيون أنها تخدم أغراضهم .

وبدأت القومية في صورتها الحديثة في إنجلترا أيام آل تيودور ، اذ أثارها هنري الثامن في الدين واليزابيث في التجارة ، وأضفت عليها البروتستانتية قداسة كما أضفت عليها هزيمة الارمادا مجدداً ، وحققت لها التجارة عبر البحار ونهب السفن الاسبانية كسباً . وقد ضعف أثر هذه العوامل الثلاثة ، التي تعمل على توليد شعور قومي قوى ، بصفة مؤقتة ابان النزاع مع آل استيوارت ، ثم عادت مرة أخرى بعد سنة ١٩٨٨ ، وأدت الى النصر بقيادة مارلبوه وبنت الاكبر ونلسون . واستقر الانجليز بعد معركة ووترلو وقد رضوا عن انفسهم معتقدين أنهم متفوقون على سائر الامم في الفضيلة والذكاء والبسالة وألمهارة التجارية . وفوق كل شيء اخر أحسوا ، كما يقول ملتن عن اليهود بأنهم يفهمون « القاعدة الراسخة للحكم المدني » . وكانت أول صدمة لهذه الحالة من الرضا الذاتي هي نمو الصناعة الالمانية والامريكية في أواخر القرن التاسع عشر ، ونشأ عن هذه الصدمة رد فعل يتمثل في نزعة رديارد كبلنج وسيسيل دودس الاستعمارية الهستيرية .

وكانت القومية الانجليزية قومية حرة بالنزعة حتى الثورة الفرنسية لانها كانت تؤيد الحكم البرلماني ضد الحكم الملكي المطلق القائم في أستراليا وفرنسا . وأدت معارضة إنجلترا للاراء الثورية من سنة ١٧٩٢ حتى وفاة كاسلري الى جعلها دولة رجعية ، ولكن سياستها الخارجية من عهد كاتنج حتى سقوط جلادستون سنة ١٨٨٦ ظلت سياسة حرة باستثناء فترات قصيرة قليلة .

وتبدأ القومية الفرنسية بالدفاع عن الثورة ضد تحالف الملوك ، ويتمثل الشعور القومي ، وفي النشيد الوطني « المارسييز » ، وقادت فرنسا حركة التحرر في أوروبا سنة ١٧٨٩ و ١٨٣٠ و ١٨٤٨ ، حتى في سنة ١٨٧٠ بعد سقوط نابليون الثالث رأى رجال من أمثال غارibaldi وباكونيه ان من الخير أن يتطوعوا للدفاع عن فرنسا وكانت الوطنية في فرنسا تبدو دائما ، حتى لغسير الفرنسيين ، شيئا ليس قومياً بحتاً ، ولكنه جهاد مقدس في سبيل انتصار آراء الثورة في العالم ، وكان أكثر العناصر تحرراً في فرنسا أكثرها وطنية ، بينما كان ملوك آل استيوارت بعد أن عادوا الى العرش بعد الثورة الانجليزية أكثر الناس استعداداً للخضوع لامر الأجانب .

وتدين القومية الالمانية بنشأتها الى نابليون ، فقد بدأت بعد معركة جينا

ووجدت من نفسها عنيقا في حرب التحرير سنة ١٨١٢ . وكان لها ، ككل القوميات ، مثلها الأعلى : فقد كانت تهدي إلى تخليص العالم من « القسود الخلقى » الفرنسي وإعادة المثل العليا البسيطة مثل « الواجب » في عصر أفضل . وكان الايطاليون ، الذين استبد بهم وفرق بينهم القساوسة وال بوربون هابسبرج ، يراودهم الامل : إذا نالوا حريتهم في أن يقودوا العالم مرة أخرى ، الى النزعة الانسانية والحياة الروحية كما فعلوا منذ القديس فرانسيس الى ميكل :نجيلو . وادعى الصقالية ، الذين تبنت قومياتهم المختلفة لأول مرة في سنة ١٨٤٨ ، لانفسهم :دراكا غامضا لله وصعوا بالانه من أعماق غاباتهم المظلمة ، يمنحهم حكمة تفوق حكمة الاجناس الاخرى الأكثر منهم وضوحا .

وكان الرجل الحر الحقيقي الكامل يؤمن بكل هذه الضروب المختلفة من التفوق القومي ، ويذهب الى أن الامم الحرة التي تحترم في نفس الوقت حرية غيرها ، يجب أن تنمي كل منها فضيلتها الخاصة بها ويتكون منها جميعها عالم يسوده الوفاق والتناسق الجميل .

غير أن ماحدث فعلا كان لسوء الحظ مختلفا عن ذلك كله .

ب - القومية الإيطالية

رحب الايطاليون ، الذين أخدمت قوميتهم بعنف في القرن السادس عشر ، بناپليون باعتباره موأطنا ومحزرا . وقد خضعت لإنفوذه كل الاراضي الإيطالية . وبقيت صقلية وحدها على ولائها للرجعية والهمجية تحت تأثير نلسن وليدى هملتن ، وكان الحكم الفرنسي في إيطاليا مصحوبا باصلاحات حرة النزعة ، وشجع مورا الشعور بالوحدة الإيطالية وان ظلت هذه لوحدة غامضة بعض الشيء .

ووضع مؤتمر فينا حدا للنزعة الحكومية الحرة في إيطاليا . فأعيدت سلطات الكنيسة والارستقراطية ، غير أن المدن التي قامت فيها حكومات جمهورية مدى الف عام قبل الفترة النورية مثل البندقية وجنوا ، لم تعد فيهما الحال الى ماكانت عليه . وقد رأينا في فصل سابق ماكان تاليران يعتفده في مطالب أهل جنوا . فكلما زادت رغبتهم في الاحتفاظ باستقلالهم القديم زاد اهتمام المؤتمر بأن يجعل منهم مثلا يوضح ضالة شأن رغبات الشعوب التي يتعلق بها الامر وأثرها في توزيع الاقاليم . وعلى هذا سلم أهالي جنوا الى حكم بيت ساقوى المطلق ، على الرغم من وعود لورد وليم بننك الصريحة .

ومن جنوا هذه جاء الرجل الذي عمل أكثر من أى شخص آخر على اشعال جذوة الوطنية الإيطالية والرغبة في الوحدة ، وكان من الطبيعي أن يأتي من هذا البلد - ونعنى جيسيبى مانزيني الذي ولد في سنة ١٨٠٥ . وكان والده

قد رحب النزعة الجمهورية الفرنسية واحتفظ في مخبأ خلف كتبه ببعض صحف الجيرونديين القديمة ، ولو أن أمرها اكتشف لأدت به الى الوقوع في مناعب مع الشرطة . وكانت دراسة التاريخ الروماني في المدارس تعمّل على إثارة روح الوطنيّة والنزعة الجمهوريّة معا : فقد تعلم مانزيني أن يعجب بكاتو الأصغر وبروتوس الأصغر والأكبر اعجابا أكثر مما ينبغي لأن هذه الدراسة قوت فيه حب التآمر طوال حياته . وكان للثورة الفرنسيّة في سنة ١٨٣٠ أصدقاء في إيطاليا ، ونفى مانزيني ، لأنه اشترك فيها ، الى خارج البلاد وقضى معظم حياته الباقية في إنجلترا ، ومع ذلك فقد ظل زعيم إيطاليا الثوريّة ومصدر وحبها .

« وكان مانزيني رجلا عميقا ، ولكنه وقع أكثر مما يجب تحت تأثير فكرتين مجردتين ، الله ومبدأ القومية » . هذا ما قاله أحد رجال الدين بنجامين جويت الذي كانت تبدو له الفكرتان ، كما يجب أن نفترض ، غير ذاتي أهمية . أما مانزيني فكانت الفكرتان عنده متصلتين اتصالا وثيقا : فمبدأ القومية عنده لم يكن إيطاليا بحثا ، والهه لم يكن مجرد معبود قبل .

فهو يقول : « إن القومية مقدسة في نظري لاني أرى فيها أثر العمل لخير الناس كلهم وتقدمهم . إن البشرية جيش يجب يسير لفتح أرض مجهولة ضد أعداء أقوياء دهاء معا . والشعوب هي فرق هذا الجيش ولكل منها عمل خاص يقوم به ، ويتوقف النصر المشترك على الدقة التي ينفذ بها كل عمل من الأعمال المختلفة .

لقد كتب الله سطرًا واحدًا من أفكاره على عهد كل شعب . . . ويمدو لي أن السمات الأساسية للقومية وهي السمات التي لا تخطئ هي المصالح الخاصة ، والقدرات الخاصة ، وفوق كل شيء الوظائف خاصة والمهام الخاصة والعمل لكل منها تقوم به في سبيل فضية البشرية » ثم مضى يذكر لكل شعب عمله . فعمل إنجلترا الصناعة والمستعمرات ، وعمل روسيا أن تمدد أسيا ، وعمل بولندا أن تنزع الجنس الصقلي وتدفع عنه ، وعمل ألمانيا أن تفكر ، وفرنسا

أن تعمل ، وإيطاليا أن تجمع بين الفكر والعمل « فبينما الألماني يسير على الأرض وبصره تائه في أعماق السماء ، وعينا الفرنسي قلما ترتفعان عن الأرض أبداً بل يجولان في سطحها تنقبان ببصرهما النفاذ الذي لا يقر له قرار ، فإن الروح غير البشرية التي تخرس مصائر إيطاليا من دأبها أبداً ان تنتقل في لمح البصر من المثل العليا الى الواقع تسمى منذ القدم لتجمع بين السماء والأرض » .

وليس واضحا تماما ما اذا كان مانزيني يريد أن يفعل بفرنسي يريد أن يفكر أو ألماني يريد أن يعمل ، كما أنه ليس من المحتمل أن وافق رجل غير إيطالي بالدور الرئيسي البارز الذي أسنده الى إيطاليا . وقد نبذ مانزيني

ما يطلبه الايرلنديون من اعتبارهم لانهم لا « يستندون الى أى مبدأ واضح من مبادئ الحياة أو أى نظام تشريعى مستمد من خصائص وطنية مميزة لهم ويتعارض بشدة مع رغبات الانجليز ومطالبهم » . أو هذا على الاقل ما ذكره . غير أنه يجدر بنا أن نلاحظ أن الايرلنديين كانوا يعارضون مانزيني دائما باعتبارهم عدوا للبابا ، ولعلمهم لو كانوا أكثر زدا له لكنت لهم رسالة فومية .

وكان مانزيني يرى أن للحركة الصقلية أهم حركة فى أوروبا بعد الحركة الإيطالية ولاحظ ، وكان على حق ، أنها ستقضى حتما على النمسا وتركيا . وكان هدفه النهائى قيام ولايات أوروبية متحدة تحكمها عصبية يجب أن يكون مركزها فى روما تحت زعامة إيطاليا . ويبدو أن مبدأ القومية عنده لا ينطبق فى خارج أوروبا ، فآسيا فى دأبه يجب أن تكون مجرد منطقة تابعة لأوروبا ، ولم يسند الى الولايات المتحدة دورا فى هذه العصبية الدولية . وكانت الأمم فى رأى مانزيني تقوم على شعرائها وفلاسفتها ، فقد كان يعرف شعراء بولندا وفلاسفتها ولكنه لم يكن قد سمع عن هؤلاء واولئك فى بلاد الصين .

مما لا ريب فيه أن مانزيني كان يقصد أن يكون عادلا فى نظره الى الأمم ، الا أن تحيزه لبلده لم يكن يفارقه أبدا . فكان يقول عن ايطالية أنها « متألقة طهرتها بالام تننتقل كملك من النور بين الأمم التى اعتقدت أنها (ايطاليا) قد ماتت » .

وقال : « ان مصير ايطاليا هى مصائر العالم » وقد رأينا فيما سبق الدور الذى عهد به الى ايطاليا فى انشاء ولايات أوروبا المتحدة وحكمها من روما . وهو يقول فى ذلك أنها « الارض التى قدر الله لها أن تقوم بالرسالة العظيمة وهى منح أوروبا وحدتها المعنوية . ومنح الانسانية عن طريق أوروبا هذه الوحدة » . ولم تكن الأمة بالنسبة له مجموعة من الافراد ، بل هى فى نظره ذات ذاتية غامضة لها روح خاصة بها . وقد لزم كارليل مع اطنابه الذى لا مبرر له فى بطولة الفرد مقابل حياة الجماعة . ويقول : « أن حياة الأمة ليست ملكا لها ، ولكنها قوة ووظيفة فى النظام العام الذى وضعته العناية الالهية » . فالله « قسم الانسانية الى مجموعات مميزة أو نوبس متعددة على وجه الارض ، وبذلك خلق بدور القوميات . وقد عملت الحكومات الشريرة على تسويه الحطة الالهية ، مع ذلك فانك ما زلت تستطيع أن تتبين حدودها بوضوح - على الاقل فيما يتعلق بأوروبا - فى مجارى الانهيار الكبيرة اتجاه الجبال العالية وغيرها من الاحوال الجغرافية » . ونسى مانزيني لسوء الحظ أن يخبرنا ماذا كانت الحطة الالهية فيما يتعلق بالدانوب ، فلعل معرفة هذا الموضوع كانت تحول دون وقوع الحرب الكبرى .

ولا يقتصر الامر على الامة وحدها ، بل ان الاسرة أيضا عند مانزيني تتسم بقدسية الجماعة الطبيعية التي هي أكثر من مجموع أفرادها فهو يقول « ان الاسرة هي قلب الوطن » وفي الاسرة ملك يتمتع بتأثير غامض من الرحمة والحلاوة والحب ، ملك يجعل واجباتنا أقل جفافا وأحزاننا أقل مرارة . . . وملك الاسرة هذا هو المرأة ، . . . وكان مانزيني أعزب . . . وكان ينظر الى كل من الاسرة والوطن بخيال الرجل المنفى « ان فكرة الاسرة ليست فكرة بشرية ، بل الهية ، وليس من قوة بشرية تستطيع القضاء عليها ، فالاسرة كالوطن ، بل أكثر من الوطن ، عنصر من عناصر الوجود »

وكان الراديكاليون الفلاسفيون ينظرون الى الناس على أنهم أفراد ، ولا يهتمون الا بالتكتلات التي تنشأ من وحدة المصالح الاقتصادية . . . وكان مانزيني يهتم بالجماعات التي ترجع الى مصادر بيولوجية أو عاطفية أو جغرافية . . . وكانت الوحدات الاجتماعية التي تنشأ بهذه الطريقة ، وهي الاسرة والامة والانسانية عامة ، تبدو له غاية في الاهمية ويراهها مصدر ضروب الخير التي توجد في الافراد وجعله ذلك شديد العداء نحو كبدن وماركس .

فكان يعترض على كبدن بسبب مبدئه القاضى بعدم التدخل فى الشئون الاوروبية العامة الى جانب اعتراضات أخرى تقوم على أسس أكثر عمومية . . . وكان مانزيني يعتقد أن الحيايد عمل دنيء اذا كان موضوع النزاع قضية من قضايا الاخلاق . . . وصدقا ذلك أن الوحدة الايطالية تمت بفضل التدخل المسلح من جانب فرنسا فى سنة ١٨٥٩ ، ومن جانب بروسيا فى سنة ١٨٦١ و١٨٧٠ ، وكذلك بعطف انجلترا الدبلوماسى سنة ١٨٦٠ ، وكان يحس بأن طريق المسألة الذى ينادى به كبدن لو اتبع لآدى الى بقاء ايطاليا فى العبودية الى الابد . . . ومع انه كان مثل كبدن لا يحبذ حرب القوم فإنه ظل يقول : « ان رجال السلام لا مبدأ لهم » . . . ويبدو أنه كان يرى أن من واجبتنا أن نحارب كلا من روسيا وتركيا معا لان كليهما كانت تضطهد شعوبا أخرى . . . ولم يخطر بباله أبدا ان عادة شن هذا النوع من الحروب المقدسة فى جميع انحاء العالم سرعان ما تؤدي الى السيطرة والاستعمار .

وكانت الفلسفة النفعية بغيضة كل البغض له لان الناس فى رأيه يجب أن يعيشوا للواجب لا للسعادة . . . وقد امتدح كارلايل لانه عارض « المادية العنيفة التى ظلت تدعو الى الاعتصاب التقدمى تارة فى كتابات لوك أو بولنجبروك أو بوب وطورا فى كتابات سميث وبنتام ، وعملت بمبادئهما فى المصلحة الذاتية والرماء المادى على رفع الانانية الى التربع فى قلوب الرجال . . . ولم تستطع حركة المدنية الصناعية كلها التى طغت على المدنية الفكرية والاخلاقية أن تصم أذنيه (كارلايل) . . . وكان يرى أن الذين يعتنقون مبدأ النفعية « ينصرفون شيئا فشيئا عن تنمية أسمى وأقدس وأخلد ما فى الإنسان ، ويتهكمون فيما يسمونه مفيدا . . . ليس هناك شيء نافع الا الخير وما ينشأ عنه ، فالمنفعة نتيجة تتوقع وليست مبدأ يستهدف » . . . وليس شغلنا الشاغل على هذه الارض أن ينشد السعادة . . . بل أن نصبح خيرا مما نحن ، وليس فى الحياة الانسانية هدف آخر سوى أن نكتشف بمجهودنا الجماعى ، وان ننفذ ، كل منا لنفسه شريعة الله دون اعتبار للنتائج الشخصية » . . . وانتهى الى أنه يجب ألا يبقى

في الجامعات من أساتذة فلسفة الا الذين يتفقون معه في مذهبه ، وهو يقول عن الهيجليين الذين ينفر منهم ، « سيأتي يوم من الايام الجميلة نمحو فيه كل هذا الهراء » . وذهب أيضا الى أنه « ليست هناك سيادة للفرد أو المجتمع الا في حدود ما يتفق والشريعة السماوية وما رسمه الله » . ان صوت الاغلبية وحده لا يتضمن سيادة اذا تبين انه يتعارض من القواعد الاخلاقية العليا . « فإرادة الشعب مقدسة اذا كانت تعبر عن القانون الاخلاقي وتطبقه ، وهي تكون عديمة القيمة عديمة الجدوى عندما تقطع صلتها بالقانون ، ولا تمثل في هذه الحالة سوى النزوات » . وقد اعتنق موسوليني هذه المبادئ وطبقها .

ان القول بأن « ينفذ كل منالنفسه شريعة الله » لا شك مبدأ خليق بالاعجاب . بل ويمكن أن يصير قاعدة للحكم في رأى الكاثوليكى الذى يعتقد أن الكنيسة تعرف شريعة الله . وقد لا تكون النتائج ، كما رأينا فى الاقاليم التى تحت الحكم البابوى ، مرغوبا فيها فى نظر غالبية المحدثين ، مثال ذلك أن محكمة التفتيش ظلت تمارس الاضطهاد وتصدر قرارات الادانة حتى سنة ١٨٤١ « وتأمّر جميع الناس أن يبلغوا عن الكفرة واليهود والسحرة ، وأولئك الذين يعرفون أعمال المحكمة المقدسة أو الذين يذكرون البايا أو رجال الكنيسة بسوء » . بينما حرم فى سنة ١٨٥١ انشاء خط حديدى عبر الرومانيا بحجة « أن السكك الحديدية تنشر التجارة وان النجارة تنشر الحطية » . تلك آراء قد تبدو غريبة ولكنها على الأقل ليست فوضوية ، ما دامت نعترف بأن شريعة الله تتكشف للكنيسة . ولكن ماتزيني مع ذلك لم يقبل سلطة البابا ، فشريعة الله كانت فى نظره ، كما هى فى نظر البروتستانت ، يوحى بها مباشرة لضمير كل فرد . ولكن هذا الوحي كان لسوء الحظ يظهر بشكل مختلف لكل فرد . فضمير ماتزيني أملى عليه أن انجلترا يجب أن تتدخل فى شؤون القارة بقوة السلاح لتحرير الشعوب المضطهدة ، لكن ضمير كبدن أملى عليه نقيض ذلك تماما . وكان كلاهما جادا ورجل أخلاق سامية ، ان رجلين يعتقدان المذهب النفعى يستطيعان مناقشة خلافاتهما العملية ، لان لهما مقياسا مشتركا يتناقشان على أساسه ، ولكن اثنين يعتقدن كل منهما « شريعة الله » ثم وجدا أنهما مختلفان . لاسبيل أمامهما الا أن يتهم كل منهما الآخر بالمروق وأن يتقاتلا حتى يتم النصر لاحدهما ، وهكذا تصبح مبادئ ماتزيني « الاخلاقية » التى تبدو أنقى كثيرا من مبدأ السعادة الذى يقول به بنتام ، يصبح عند التطبيق العملي مجرد قانون ولا فرق بينه وبين حكم السيف والمدفع . أن الرجال الذين يعتقدون أنهم يتلقون تباشرة تعاليم السماء قد يصبحون مصدر أزعاج ، ومبادئ ماتزيني لا يمكن أن تنتهى الا الى حرب دائمة أو الى طغيان حديدى .

واعترضاته على الاشتراكية من النوع الذى تتوقعه من طبيعة اعتراضاته على بنتام . فقد كان يكره مادية ماركس ويؤمن بالدعوة الى حرب الطبقات وكان على اتصال فى أول الامر « بالدولية » ، ولكنه قطع صلتها بها بمجرد أن تبين انه لن يستطيع تحويلها من الاشتراكية الى الدفاع عن الشعوب المظلومة . وكان يعتبر الدين ، لا الاقتصاد ، عاملا أساسيا فى تفسير التاريخ ، كما كان

(x) بولتون كنج « تاريخ الوحدة الإيطالية (١ ص ٧٩)
(x x) سمبسون لويس نابليون واتشاش فرنسا ص ٤٨

يذهب الى أن البيئة الاجتماعية والاقتصادية « تعبير عن معتقداتها الدينية » ،
وهي وجهة نظر متناقضة تماما لما ذهب اليه ماركس من أن الناس نتاج بيئتهم .
وان كان يؤيد بعض التشريعات التي تتضمن شيئا من الاشتراكية ، وكانت
نظرته الفلسفية تناقض نظرة ماركس كل المناقضة ، وكان يفرد للإرادة أهمية
كبرى في كل شيء ويعارض جبرية هيغل ، وبالتالي ، وبصورة أشد ، جبرية
ماركس التي كانت تتضمن رذيلة أخرى هي المادية .

ولم يتمتع ماتزيني طوال حياته الثائرة ، الا بفترة واحدة قصيرة من السلطة
غير المستقرة ، وكان ذلك في جمهورية روما سنة ١٨٤٩ التي قضى عليها
لويس نابليون ، بعد بضعة شهور من قيامها ، وكان قضاؤه عليها خطوة
أولى نحو اكتساب هالة من الاحترام .

أما حركة توحيد إيطاليا النالية التي أصابت قدرا أكبر من النجاح فقد
اهتدت بسياسة كافور الماهرة ، وأضيفت الاقاليم الجديدة كلما تم غزوها الى
أملاك بيت سافوي . وقد ظل ماتزيني طول حياته جمهوري النزعة ولم يكن
راضيا عن تكوين مملكة إيطاليا . الا أن دعوته هي التي ولدت الحماسة التي
استغلها غاريبالدي وكافور . أن مبادئ ماتزيني هي التي جعلت إيطاليا كما
هي الآن .

ج - القومية الألمانية

كانت حركة التحرر الألمانية ، خلال السنوات الستين من معركة حينا الى
البروسية النمساوية سنة ١٨٦٦ ، خليطا غامضا الى حد ما من ثلاثة عناصر
مختلفة ، ففي الغرب كان يوجد عنصر موال لفرنسا تعجب بالاصلاحات التي
قامت بها حكومات الثورة ، ويرى أن ألمانيا بلد متأخر وان الهدف الذي ينبغي
تحقيقه هو اقامة جمهورية ديموقراطية وان الثورة هي الوسيلة التي لا مناص
منها لبلوغ هذا الهدف . وكانت توجد بين التجار وأرباب الصناعة ، وكذلك
بين الموظفين البروسيين ، حركة متأثرة بالأراء الانجليزية الخاصة بحرية العمل
التي كان يطلق عليها في الايام الاولى « السمينية » وبعد ذلك « المانشستيرية »
وكانت هذه الحركة في ذروة قوتها في أوائل العقد السابع عندما كان كبدن
في أوج شهرته . وكان العنصر الثالث في الحركة التحررية الألمانية هو الرغبة
في الوحدة القومية ، وكان لابد لهذا الشعور الوطني البحت أن يأخذ صورة
تحررية فقد كان يبدو أن الوحدة لا يمكن أن تتم الا رغم الامراء ودولة النمسا .
وكانت حركة الوحدة الألمانية على عداء مع الفرنسيين ، ومن ثم كان عسيرا عليها
أن تتعاون مع الحركة التحررية الفرنسية التي ماتت عندما وجد بسمارك طريقة
« محافظة » لتحقيق الوحدة ، ولم تعد الحرية سمة الوطنية الألمانية . وانقلبت
الصناعة في العقد الثامن ضد حرية التجارة ولم يعد لنزعة كبدن التحررية
نفوذ في الماضي كما لم يبق من الراديكالية الفلسفية الا ما تضمنته الديمقراطية
الاشتراكية عن طريق ماركس .

وبينما فشلت النزعة التحررية الفرنسية والانجليزية في أن تترك أثرا
عميقا أو دائما في ألمانيا كما رأينا ، فان الحركة التحررية في صورتها القومية
ما لبثت أن عمت البلاد كلها باستثناء الاشتراكيين . وجاء أول تعبير أدبي

عنها في أقوال فجته « خطابات موجهة الى الامة الالمانية » وهي محاضرات ألقاها في برلين في شتاء ١٨٠٧ - ١٨٠٨ . وكانت معركة جينا وصلح تلزت قد أذلا بروسيا ، بينما بدا أن لا سبيل الى هزيمة نابليون بعد أن كسب صداقة الاسكندر . وكان فجته فيلسوفا جادا لا تهمة له الدنيا ، وكان خليفته كانت والرعيم المعترف به للميتافيزيقية الاستشرافية التجريدية ، وقد اتهم بالاحاد لانه وحد بين الله والنظام الاخلاقي في العالم « وأرغم على الاستقالة من منصب الاستاذية في جامعة جينا ، الا أن الحكومة البروسية عطفت عليه فذهب الى برلين ، وصار في آخر الامر (سنة ١٨١١) مديرا للجامعة . وكانت فلسفته التي اطلق عليها « المثالية » تعلق أهمية كبرى على الذات . وكان سلوكه يتفق أحيانا مع معتقداته حتى أن جوته وشيلر ، اللذين كانا يكرهانه ، أطلقا عليه اسم « الذات المطلقة » . وعملت معتقداته وشخصيته مجتمعتين على الإيحاء بالمبادئ التي جعلته مؤسس القومية الالمانية .

ويبدأ فيجته « خطاباته » بقوله انه يوجه كلامه الى الامة الالمانية كلها ، وانه يفصل كل الاعمال جميع سمات الفرقة التي خلفتها في هذه الامة الواحدة أحداث يؤسف لها اسنمرت قرونا . فقد تلوثت ألمانيا ، من مصادر أجنبية ، بداء الانانية الفردية ، ويجب بناء ألمانيا من جديد على أسس أخلاقية أسمى ، وأول ما يتطلبه تحقيق ذلك الغرض نظام جديد في التربية . « اننا نريد أن نصوغ الالمان ، عن طريق التربية الجديدة ، في كيان متحد كل أفراده تحدوهم مصلحة واحدة يدفعون الى تحقيقها . ويقول ان الإرادة « هي المصدر الاساسي في الانسان » . ثم يمضي مباشرة فيقول « ان التربية الجديدة يجب أن يكون هدفها الاساسي تدمير حرية الإرادة تدميرا تاما في التربة التي تنعدها وان تدخل عنصر الضرورة الحتمية في قرارات الإرادة وعكس ذلك مستحيل . ان مثل هذه الإرادة يمكن بعد ذلك الاعتماد عليها في ثقة واطمئنان » . ويجب أن يجعل التلاميذ ينصرفون عن الاهتمام برفاهيتهم المادية ، وان « نصوغ الرجال الذين هم في أعماقهم وفي كيانهم الداخلي صالحين لان الامة الالمانية لن يقبض لها بقاء الا عن طريق هؤلاء الرجال وحدهم » . وهذا فيما يبدو ، هو السبب في تفضيل الرجال الصالحين على غير الصالحين .

ويجب ألا تكون هناك صلة ايا كان نوعها مع العالم خارج المدرسة خلال فترة التعليم « ويجب أن يظل التلميذ من مبدأ الامر تحت تأثير هذه التربية باستمرار ، وان يفصل كل الانفصال عن المجتمع ويمنع من الاتصال به بأية صورة من الصور . ويجب ألا يسمع بأن نزعاتنا وتصرفاتنا يمكن أن توجه نحو رفاهيتنا أو المحافظة على حياتنا . وهذا يعني فيما أرى أن الصبية لهم أن يأكلوا لا لانهم يحسون بالجوع ، بل لان الطعام ضروري حتى يستطيعوا العمل على المحافظة على الامة الالمانية .

وتعليم الالمان في رأيه مهم للعالم لا لبلادهم وحدها ، لان الالمان هم أول من يدعون في العالم للبدء بالعهد الجديد ليكونوا روادا ونموذجا لبقية الجنس البشري . ويدل على ذلك اعتبارات متعلقة باللغة . والفرنسيين والاسبان والاطالين يعتبرون في نظر فجته من أصل تيوتوني الى حد ما ، ويعترف بأنه حدث اختلاط كبير في ألمانيا بين الالمان والجنس الصقلي ، ومن ثم فإن الالمان

ومنهم الاسكندناويون أنقى من الامم التي تتكلم لغات مستمدة من اللاتينية ،
لا على أساس عنصري ، بل على أساس لغوي ، ذلك أن هذه الامم أصبحت منهكة
ومنحطة لانها مدينة بأصلها الى محاولات قام بهما جرون للتحدث بلغة وضيعة .
لقد كانت اللغتان اللاتينية والاغريقية لغتين نقيتين ، وكذلك الالمانية ، ولكن
اللغات الرومانسية* ليست نقية . .

من هذا يستنتج أن الالمانى اكثر جدية وأكثر عمقا من الاجنبى ، ويستنتج
ايضا أن الفرق بين المتعلم والجاهل فى ألمانيا أقل منه فى البلاد اللاتينية ، لانه
لا يستطيع ادراك المعانى الاصلية للكلمات المستعملة فى هذه البلاد الا الذين
يعرفون اللاتينية (x x) .

ومن ثم فان مفهوم كلمة « النقافة » ليس ألمانيا ، وأن الالمانى الذى يريد
أن يعرف عنه انه منقذ انما يفقد الاجانب . ولكن تبين أن هذه الرغبة فى
محاكاة الاجانب تجلب الكوارث ، ان كل الشرور التى أحلب بنا الدمار حتى
الآن ذات أصل أجنبى . وطبيعى لأن هذه الشرور لم تكن لتجر فى أذيالها
الدمار حتما لولا اتحادها بالحيوية الالمانية والنفوذ الالمانى فى الحياة .

ان ابحاث الاجانب أو الالمان الذين وقعوا تحت تأثير أجنبى ، كالماتاريخية
بحثة ، أما ابحاث الالمانى الحالى فلسفة حقيقية . ان العبقرية الاجنبية
يمكن مقارنتها بنحلة تجمع العسل ، وتودعه بتنسيق جميل فى خلايا ذات
بناء منتظم . ولكن الروح الالمانية نسر يندفع بجسمه الهائل ويخلق على
جناح قوى مدرب فى السماوات العلا حتى تقرب من الشمس التى يحلو له
أن يتطلع اليها .

ويتحدث فجنه عن ألمانيا فاعتبارها « الوطن الاصيل » ويعتبر بقية العالم
الى حد ما مستعمرات خانت العهد ، وظيفتها الوحيدة أن تنقل الى ألمانيا
ثقافة اليهود القديمة التى لا يفهمها أهل هذه المستعمرات لسطحيتهم الشديدة
ولو دمر الاجانب ألمانيا « فان نمو الجنس البشرى الذى ظل مطردا حتى
الآن سينتهى ، وتبدأ البربرية ثانية وتظل ابد الأبدى دون أمل فى
الخلاص حتى نصبح جميعا مرة أخرى من ساكنى الكهوف مثل الحيوانات
المتوحشة ، ونصير مثلهم أيضا يحاول كل منا أن يلتهم الآخر . ولايستطيع
أن يتبين صحها ذلك وحتمية وقوعه الا الالمانى بطبيعة الحال »

(x) الاسبانية والفرنسية والاطالية .

(x x) هذا صحيح الى حد كبير ، قارن مثلا كلمة هدنة Armistice الانجليزية
وكلمة Waffenstillstand الالمانية تجد ان الكلمة الالمانية معناها العرفى «الاسلحة
لانزال لائمة» .

وكلما تقدمت المحاضرات أصبحت ميزات ألمانيا المتفوقة أكثر وضوحاً . .
فهو يقول لنا « ان الأمة الالمانية هي الامة الوحيدة بين الشعوب الارببية الحديثة
التي أثبتت عملاً ، بواسطة المثل الذي ضربته طبقة المواطنين الاحرار
عدة قرون ، أنها تستطيع الاستمرار في ظل دستور جمهورى . » لقد اطلقنا
على الايمان بالموت ، بمقارنته بشعب أصيل حى ، اسم الروح الاجنبية . .
وعندما تظهر هذه الروح الداخلية بين الالمان . . فانها ستظهر من فورها
في صورة اعتراف . . بالاعتقاد بخطيئة الجميع بدرجة متساوية . . وقد
وصفت هذا الاعتقاد بما فيه الكفاية في مكان آخر - انظر (دليل الحياة
الموفقة) المحاضرة الثانية . وأخيراً يتبين أن كلمة ألماني لم تأخذ صبغتها
الجغرافية أو العنصرية إلا عرضاً ، وان لها في الفكر التيوتونى العميق
معنى آخر أكثر روحانية .

« ومن ثم فسأضع أمامكم بكل وضوح ماذا كنت أعنى بكلمة (ألماني) كما
وصفناهم حتى الآن . ان المييار الحقيقى هو هذا : هل تؤمنون بوجود
شئ أولى مطلق وأصيل في الانسان نفسه ، هل تؤمنون بالحرية والتقدم
الذى لا ينفك عند حد ، التقدم الابدى لجنسنا ، أو هل لا تؤمنون بشئ من
هذا كله بل تتصورون أنكم تدركون بوضوح وتعرفون أن نقيض ذلك هو
ما يحدث ، وكل الذين هم أنفسهم أحياء خلاقون ومنتجون لأشياء جديدة
أولئك الذين ، اذا لم يكن ذلك نصيبهم ، فانهم على الاقل يبنون الشر
ويتطلعون في انتباه الى تيار الحياة الاصيلة يحدوهم الامل ان يجرفهم
معه ، أو الذين ، اذا لم يكونوا قد بلغوا حتى ذلك الحد من التفوق ،
يتوقون على الاقل الى الحرية ولا يكرهونها أو يفزعون منها ، بل على العكس
يحبونها - كل هؤلاء رجال فهم اصالة ، وهم عندما تنظر اليهم على انهم
شعب تراهم شعباً أصيلاً ممتازاً . فهم ألماني وكفى . وكل الذين يستكينون
ويقتنعون بمرتبة ثانوية ويعتقدون انهم ينتمون الى أصول أخرى ويعرفون
ويفهمون بوضوح انهم كذلك ، هم في الواقع كما يعرفون عن أنفسهم ،
ويزيدهم تعمقاً في هذا بسبب ذلك المعتقد ، أنهم يقفون على هامش الحياة
التي تتفاعل من تلقاء نفسها أمامهم أو بجانبهم ، وهم صدى لصوت يتردد
من الصخور ، صدى لصوت ميت فعلاً ، انهم يعتبرون شعباً خارج الشعب
الاصيل ، وهم بالنسبة لهذا الشعب الاصيل اجانب ذلاء »

وقد أجاز ماتزيني لكل شعوب أوروبا ، عدا الابرلنديين ، أن تكون لها
وطنتها الشرعية الخاصة بها واسهامها في التقدم البشرى المنسق . أما
فنجته فكان أدق منه وأكثر تعمقاً فهو يقول :

« ان الالمانى وحده - الرجل الاصيل الذى لم يصبح جزءاً ميتاً من منظمة
تحكيمية - هو الذى ينتمى حقيقة الى شعب يحق له أن يعتمد عليه ، وهو

وحده الذى يحق له أن يجب أمته حبا صادقا يقوم على العقل . « والحق »
ان كونك على جانب وكونك ألمانيا شيء واحد »

وعندما نهبط من هذه القمم الغيبية الى الشئون الدنيوية فى السياسة
العملية ، نعلم أن ألمانيا ينبغي ألا تتجر مع العالم الخارجى بل أن تكون
دولة مغلقة من الناحية التجارية وقد كتب فخته عن هذا الموضوع كتابا فى
سنة ١٨٠٠ ، ان الالماني لن يحتاج أبدا الى حرية البحار ، لأن « موارد
الثروة المتوفرة فى بلاده وما يتمتع به من ماثرة يكفلان له كل ما يحتاجه
الرجل المتمدين فى حياته »

الا انه يجب ألا نفترض أن الدولة الالمانية ستكون مسالمة ، ذلك ان
السلام هو المثل الاعلى للذين يحبون «الراحة المادية

أما الدولة فلها هدف أسمى من ذلك الهدف العادى الذى يرمى الى المحافظة
على الامن الداخلى والملكية والحرية الشخصية وحياة جميع سكانها ورفاهيتهم
ولتحقيق هذ الهدف وحده ، لا لأمى غرض آخر كتنشئ الدولة قوة مسلحة .
والا فإى روح ينبثق منها الحق الذى لا ينازع فى أن تستدعى كل من له
صلة بها وتأمره ، سواء كان هو نفسه مستعدا أو غير مستعد ، على
التضحية بكل شيء حتى الحياة وأن ترغم على ذلك كل من يقاوم هذه الدعوة
انها ليست روح حب المواطن المسالم للدستور والقانون ، بل هى شعلة
الوطنية السامية التى تشتعل فى صدور أبنائها وتشتعل الامة كلها وتكسوها
حلة أبدية ، والتى يضحي من أجلها الرجل النبيل الفكر بنفسه راضيا ،
ويضحي بنفسه أيضا الرجل التافه الذى يعيش لخدمة غيره من الناس .

ان الرجل التافه انما يعيش لخدمة غيره فقط ، مبدأ يتضمن انكار
حقوق الانسان والمذهب النبى ، لان نيقام يذهب الى أن سعادة كل الناس
متساوية فى الاهمية أما فخته فيقرر أن الرجل التافه ينبغي أن يضحي به ،
ومنذا الذى يقرر من هو الرجل التافه ، انها الحكومة بلا ريب . ومن ثم فان
كل طغيان عمل مشروع ، ويمكن استئصال الخصوم السياسيين باسم
النبيل القومى .

وصارت « الخطب الموجهة الى الامة الالمانية » كتاب الوطنيين الالمان المقدس
وحتى فى سنة ١٩١٩ قال الديمقراطى الاشتراكي « ويبرت » أول رئيس
للجمهورية الالمانية بعد أن أعلن سياسته : « وهكذا سنحقق ما قال فخته من
انه واجب الامة الالمانية »

ولم يقتصر الاعجاب على ألمانيا وحدها . فقد مجده كارلايل ، وعلمت . ه
جرين جيلا بأكمله فى اكسفورد أن ينظر الى فخته باعتباراه النقاء الاخلاقى

الكامل مجسما . ومع ذلك فليس نفي العالم الحديث أية قسوة في الحكم أو طغيان كريبه لا تبرره مبادئ هذا الاستاذ الفاضل .

لقد حاول الملوك و « ذلك الحقيقير ، أداة الطغيان الدموية ، وليم بت » القضاء على الثورة الفرنسية فنتج عن ذلك نابليون . وحاول نابليون أن يقضى على بروسيا . فنتج على ذلك فجته الذي أدى الى ظهور بسمارك . وجعل بسمارك بمحاولته تدمير فرنسا ، « الانتقام » أمرا لا بد منه ، وادى « الانتقام » الى ظهور هتلر .

ولعل مذهبا اخلاقيا أساسيا تسانده الحراب ليس خيرا وسيلة تؤدي الى سعادة البشر .

واذا كانت الوطنية الالمانية ، كما بدأها فجنه ، تبدو أكثر وحشية وحباً للسيطرة واعتدادا من وطنية ماتزيني . فالسبب في ذلك واضح . فايطاليا لم تأمل تحقيق وحدتها بدون مساعدة اجنبية ، ومن ثم كان عليها أن تجعل دعايتها من النوع الذي ترضى عنه العفول المتحررة في البلاد الأخرى . ولكن بروسيا كانت على النقيض من ذلك لا تزال تذكر أمجاد المقاومة التي أبداها فردريك الأكبر ضد العالم كله مسلحا ، ونسيت الدور الذي لعبته إنجلترا حليفته في ذلك الوقت والتحول المفاجيء في موقف بروسيا الذي أنقذه في النهاية .

وكان الالمان يحسبون بأن المانيا متحدة تستطيع أن تقف وحدها . والمعتقدات القومية لا تكون عادة مما يرضى الاجانب عنه الا بالقدر الذي تستلزمه الاعتبارات الدبلوماسية والحربية . واذا كان فجنه قد دعى لألمانيا أكثر مما طالب به ماتزيني لايطاليا . فالسبب في ذلك أن في مقبور ألمانيا أن تكون أقوى من ايطاليا .

وعندما ثار الالمان ضد الفرنسيين في سنة ١٨١٣ كان يدفعهم الى ذلك عاملان ، وطنية كذلك التي بشر بها فجنه ، والرغبة في دساتير برلمانية على النمط الانجليزي .

وقد أدخل شتاين ، الذي كان يمثل اتحاد الوطنية والتحررية في بروسيا عدة اصلاحات من بينها إلغاء رق الارض ، ووعد ملك بروسيا ومعظم الحكام الالمان الآخرين ورعاياهم دساتيرا بعد التخلص من نابليون . الا أن النمسا كانت تعارض في الاتجاه الدستوري وفي الرغبة في وحدة ألمانيا التي كانت قوية بصفة خاصة في بروسيا . وقد توجهت لكل الحركات القومية بتأثير نفوذ مترنيخ وحرمت قراءة « خطب » فجنه .

وأحدثت ثورات سنة ١٨٤٨ تغييرا استمر بعض الوقت . فكان الرجال

الذين احتلوا مركز الصدارة دستوريين أحرارا ودعاة وطنيين للوحدة الألمانية ، وحاولوا في « جمعية فرانكفورت » أن يضعوا مشروع دستور لألمانيا ولكنهم لم يستطيعوا التغلب على مشكلة النمسا . فقد كانت النمسا الأصلية ألمانية وأحسوا أنه ينبغي أن تضم الى الاتحاد الألماني الجديد ، الا أن الكثرة الغالبة من سكان الامبراطورية النمساوية الهنغارية كانوا مجريين أو صقالبة ممن لا يرغب الوطنيون الالمان في ضمهم الى الاتحاد .

وعرضت « جمعية فرانكفورت » بعد هزيمة أقلية جمهورية من أعضائه تاج ألمانيا المتحدة على ملك بروسيا ، ولكنه رفضه . واستعادت النمسا مركزها ، وأذلت بروسيا نم شرعت تعمل للقضاء من جديد على كل آمال الوحدة والحكم الديمقراطي .

ومما يدعو الى الدهشة أن نرى العدد الكبير من الالمان الذين أصبحوا من مؤيدي حكومة بروسيا بعد التخلص من نفوذ النمسا كانوا منفيين خلال السنوات التي أعقبت فشل حركات سنة ١٨٤٨ . فلم يقنصر الامر على أن الراديكاليين من أمثال هاين وماركس وليبخت قد أرغموا على الحياة في خارج البلاد ، بل إن رجالا مثل مومش ورتشارد فاجنر والرجلين اللذين صاروا فيما بعد أمماء لبسمارك وأخلص أصدقائه ، لوتار يوخر وموريتز يوخ قد نفوا أيضا . ولم تصبح الوطنية الألمانية محافظة خليقة بالاحترام الا عن طريق بسمارك ، ونجم عن ذلك أن كثيرين ممن كانوا متحررين لأنهم وطنيون أصبحوا محافظين للسبب عينه .

واستكمل ما كان يطلق عليه أسطورة الوطنية الألمانية ، مقوماته في عهد بسمارك على يد عدد من الاساتذة لعل أهمهم المؤرخ ترينشكه : فتراه في كتابه « تاريخ ألمانيا » في القرن التاسع عشر يعرض الاحداث بصورة قصد بها استشارة الكبرياء القومية دون تقييد بالدقة الضيقة الافق . وكانت آراؤه عنصرا مهما في تكوين وجهة النظر الاولى في عهد وليم الثاني ، وسأوضح ما أقول ببعض المقتطفات :

فهو يقول عن الادب في سنة ١٨١٣ « لقد تغنى شعراء الكفاح الشعبي العظيم بالحرب ، وهي الضرب الوحيد من ضروب النشاط السياسي الذي يتناسب مباشرة مع التعبير الفني . وأيقظت خماساتهم الوطنية تلك المشاعر الابدية التي يتميز بها الانسان ، وهي الاحساس بالبهجة في المعركة ، والغبطة في النزال ، والامل والسرور بالانتصار . لقد كانوا ينشدون هدفا محددًا ، هدفا يفهمه الناس البسطاء ، ألا وهو تحرير أرض الوطن من نير الاضطهاد الاجنبي »

ولاحظ بأسف « انه قد نشأ في العقد الخامس جنون بالسكك الحديدية والمصانع ، وان ميلا الى تفضيل العلوم على اللغتين اللاتينية والاعريقية استولى على كثير من الالمان وخاصة من عاشوا في انجلترا وأمريكا .

ويقول في هذا « ان من بين انواع النشاط المختلفة للاقتصاد السياسي الحديث نوع تقدم الى مركز الصدارة بسرعة طائفة من الاشخاص تعصبوا للنفعية والتقدم العام ، وهم سلالة لم تكن ألمانيا الهادئة تعرفها في العهود الاولى ، وانماط من الناس سخر منهم فنانو ميونيخ في مواكبهم المقنعة وصحفهم الهزلية باسم « مستر فوارارتز » .

وقد زار جميع هؤلاء الاشخاص انجلترا أو أمريكا ، واهتموا بكل شركة سكك حديدية جديدة أو مشروع لمصنع جديد (وكانت هذه في الغالب مشروعات وهمية للاحتيال) ولم يكونوا يرون لشيء ما قيمة الا اذا أمكن عده أو وزنه أو قياسه .

ومن هذه الاوساط جاءت لأول مرة الصيحة التي ردد صداها بحماسة بعض الصحفيين الجهلة والتي ذهب الى أن التدريب في العلوم الطبيعية يجب أن يصبح الاساس العام للثقافة ، واو تعليم اللغات والتاريخ ، الذي قامت عليه جميع الامم المتعدنة لدى آلاف السنين ، يجب انزاله فورا من المكانة العالية التي يحلها

وكان من حسن الحظ أن جاكوب جريم قد أوضح خطأ هذه النظرة العلمية « لقد أوضح أن العلوم الراحية لابد أن تكون هي الاساس الذي تقوم عليه الثقافة العامة لانها وحدها تضم الحياة الانسانية كلها ، بما فيها عالم الخيال وعالم القلب .

واتجه هذه الوجهة نفسها كبار رجال العلم من أمثال ماير وهامهوتز . . . « لقد ظلت المثالية الالمانية القديمة الرائعة حية في كل هذه الميادين الجديدة في العلوم الطبيعية . . . وترك الانزلاق في الغباء المادى للرجال الاقل قيمة الذين جاءوا بعدهم »

وتتبع تريتشمك النزاع بين الحماية وحرية التجارة الى أصله الاول ، وهو النزاع الذي بدأ من الناحية النظرية في سنة ١٨٤١ بكتاب ليست « النظام القومي في الاقتصاد السياسي »

« لم تحظ الفلسفة الحسية الاسكتلندية في أي وقت من الاوقات بالانتشار في بلادنا ، وقد اثبت « كانت » خطأها . ومع ذلك فقد ظل مذهب آدم سميث في العلوم الاقتصادية سائدا في ألمانيا ، وهو المبدأ الذي يرتبط نجاحه وفشله بالمذهب الحسى . وقد أعاد ريكاردو وسناي بناء هذا

المذهب من جديد والنزما فيه وجهة نظر واحدة تماماً ، وعملت كتابات باسنييا العنيفة على ترويجه بين الجماهير .

وقد ثبت ان هذا المبدأ قوة من قوى التحرر عندما كانت قضية الساعة هي القضاء على النظام الأقطاعي في المجتمع ، ولكن بفي يتلدا حتى الآن في الجامعات الالمانية لا لشيء أكثر من انه تقليد . وأصبح من عادة رجال الاقتصاد السياسي أن يتبعوا هذه الطريقة المتحجرة ، طريقة معلمى القانون الطبيعي القديم ، التي هجرها كل رجال القانون الاكفاء منذ أمد بعيد ، أن يستنتجوا قضاياهم باعتبارها استدلالاً منطقياً من التصورات المجردة للرجل الاقتصادي الذي يشتري في أرخص الاسواق ويبيع في أكثرها ارتفاعاً . أما التنسيق بين المصالح المختلفة جميعها وتنظيم المجتمع تنظيمًا عادلاً يقوم على العقل فقد نشأ من الصراع بين أنانية هؤلاء الرجال الاقتصاديين ، انهما نتائج التفاعل الحر للقوى الاجتماعية ، وقد قرر للنزعة الانانية الحيوانية أن تأتي بمعجزة من المعجزات ، فترفع الرجال فوق مستوى الوحوش . . . وكان الأشخاص ذوو الاحساسات المرهفة الذين يستطيعون أن يدركوا أن هذا المذهب غير الماني ، كانوا مع ذلك على استعداد لأن يرجعوا أصل هذه القدرة في صنع المعجزات الى الانانية المنورة . وذلك لانهم قد فاتهم أن يدركوا أن الانانية لا يمكن أن تكون منورة ، ولا تستطيع ، من المستوى المنحد الذي توجد فيه بالضرورة ، أن تكسب نظرة عميقة تشمل الافاق الواسعة للحياة القومية . ان هذه النظرية تقوم على تفاؤل لا يؤيده مجرى التاريخ وينجاهل الى أقصى حد القوتين الكبيرتين في التاريخ العام ، قوة البغاء وقوة الاثم .

ان في هذا النقد بعض الحقيقة وشاهد ذلك أن البنناميين لم يهتموا اهتماماً كافياً « بقوة البغاء وقوة الاثم » وهما القوتان اللتان ثارتا لنفسيهما بظهور رجال مثل تربتشكة ونمو حركة القومية في العالم كله . ولكنه عندما يقول بعدئذ ان من الخطأ أن نفترض « أن التعمق في فهم المصلحة الذاتية يكفي وحده لوضع حد للجريمة يرد عليه بأن من المشكوك فيه جدا ان أية قوة أخرى يمكن أن يكون لها هذا الاثر .

ان السياسة قوى أخرى كبيرة الى جانب المصلحة الذاتية ، ولكنها بصفة عامة أسوأ منها : انها قوى الحسد والاعتداد والقسوة وحب السيطرة . ويمكن أن نطلق على هذه القوى كلها « البغاء والاثم » . الا أنها في الواقع هي نفس القوى التي يطلق عليها المثاليون اسما نبيلة مثل الوطنية والروح التقدمية واحتقار الاهداف المادية البهتة وما الى ذلك .

ولا ريب في أن هناك جرائم كبرى تنشأ من الانانية المنورة ، مثل ادانة الملك ليوبولد للكونجو ، الا أن وقوعها يتوقف على عدم استشارة

ضحايها . ومحالا لا ريب فيه أيضا أن هناك دوافع أفضل من المصلحة الذاتية ولكنها دوافع لا تبلغ من الانتشار حدا يجعلها ذات قوة سياسية .

ويبدو أن تريتسكه ينهب الى انه يجب على الالمان ألا يأخذوا في الاعتبار مستوى مصلحه ألمانيا على حين أن رجال البلاد الاخرى يكونون أشرارا اذا هم عملوا على تحقيق أهداف قومية خاصة بهم . فهو يصف التحالف الفرنسي الروسي بأنه « خطة سياسية خبيثة » ويرى أن القومية الصقلبية « أحلام بخيالية » ، غير أن أبفض الاشياء اليه هو النظرة العقلية النفعية فهو يشكو من أصحاب الاراضي التي أنجلتروا الذين نزلوا الى ميدان التجارة عندما انخفضت ممتلكاتهم بسبب حرية التجارة ولم يموتوا جوعا كما يجب على السادة أن يفعلوا .

والآن ، فد أصبحت الارض لا تغل ريبا كافيًا ، بدأ أصحاب الاراضي يهنمون بالسكك الحديدية والمصارف المالية ، والمشروعات الصناعية على اختلاف انواعها . وسيصبح في وسع ابن ذوق أرجيل قبل مضي وقت طويل أن يدير محلا مربحا لتجارة الحمور دون أن يهبط بسبب ذلك من المستوى الاجتماعي الذي ينتمي اليه .

فبينما ظل سادة ألمانيا فقراء ولكنهم سادة فرسان في نفس الوقت ، انقلبت المفاهيم الانجليزية القديمة عن الشرف والتمسك بنظام الطبقات الاجتماعية رأسا على عقب والسبب في ذلك هو قوة المال ، فقد اجتاحت حياة الامة كلها ربح تجارية . وعفى الدهر على المبارزة ، وهي الملاذ الاخير الذي لا يمكن الاستغناء عنه للمحافظة على المجتمع من الانحطاط وسرعان ما أصبحت في خبر كان .

ويقول عن كيدن :

« انه ينظر الى المجتمع نظره الى شركة تأمين أسستها ادارة الافسراد بطريقة تحكمية . ويرى أن الوظيفة الوحيدة لهذه المؤسسة هي أن تحمي التجارة والعمل ضد القلقلة العنيفة وأن تعمل على أن تظل أفنساط المؤمنين عند الحد الادنى . وكانت المصالح الاقتصادية عنده هي كل ما تضمنه الحياة البشرية ، بينما الرحلات السريعة يقوم بها الوكلاء التجاريون . وانتاج المصنوعات القطنية الرخيصة هي اسمى الاهداف المدنية . وقد كان جادا كل الجد عندما قال ان وات واستيفنسون أعظم أهمية في التاريخ من قيصر او نابليون . »

ولم يكن هذا يعنى في نظره أن كيدن رجل سوء محض . انه يفهم الشعوب الاجنبية خير مما يفهم معظم مواطنيه ، وكان يعجب ببروسيا . ومع ذلك فقد كان له في بروسيا أسوأ الاثر وادعاه للرتاء .

وكان تربتشكه أكثر عداً لما هو فرنسي منه لما هو انجليزي . فهو يصف الادب الفرنسي الذي يقرأ في ألمانيا بأنه « يتكون من أقذار ودماء » يصطبغ في وضوح بآراء دنيوية مستمدة من قلب الافكار القديمة رأساً على عقب وتقول ان « الله خطيئة » ، والزواج فجور والملكية نهب . ثم يقول لنا أن بعض الكتاب الفرنسيين يذهبون الى حد القول بأنه قد يوجد هومسات فضليات .

ونظرية الى اليهود لا تقل عن ذلك سوءاً . فيقول لنا أن منتخب هيس منح اليهود المساواة في الحقوق لسنة ١٨٣٣ قبل أي حاكم آخر بسبب علاقته الوثنية بتشيل روتشيلد « وكانت نتيجة هذه التجربة غير مرضية بالمرّة . فقد ثبت بوضوح ان آثام النهب والخيانة لم تكن نتيجة للافتقار الى الحرية فحسب بل انها فوق ذلك نقائص متأصلة الجذور في الشعور القومي عند اليهود ، نقائص يصعب استئصالها . ففي هيس حيث يستطيع اليهود الآن أن يعملوا في أية مهنة يختارونها ، أثبتوا انهم مصاصو دماء قساة يستغلون الريفيين المساكين وكانت النتيجة أن مهد تحرير اليهود في ألمانيا أصبح بؤرة للكراهية المتعصبة ضدهم ،

ومنذا الذي يتصور ، بعد قراءة هذه الفقرة ، أن طبقة النبلاء البروسيين القدماء الذين كانوا موضع إعجاب تربتشكه والذين يضعهم فوق الجنس البشري كله ، كانت تحصل أعلى كل قرش من دخلها عن طريق كون افرادها « مصاصي دماء قساة يستغلون الريفيين المساكين » وانهم لم يبدأوا تحرير رقيق الارض إلا نتيجة لهزيمتهم على أيدي الفرنسيين ؟ لقد صدر قرار تحرير رقيق الارض في سنة ١٨٠٧ - ١٨٠٨ بعد معركة جينا ، وفي سنة ١٨١٦ بعد معركة ولترلو قصر التحرير على الفلاحين الذين يملكون ثيران حرت ونصيباً من حقول القرية . وظل القانون على هذه الحال حتى سنة ١٨٥٠ .

اننا عندما نكون حكماً على ألمانيا نجد انه من الصعب أن نتذكر الالمان الذين قادوا العالم في ميدان العلم وكانت لهم احدث الافكار في الفن الجميل والفنون الصناعية بدأوا نموهم السياسي بعد فرنسا وانجلترا بوقت طويل لقد كان فردريك الأكبر حاكماً مطلقاً أكثر من هنري الثامن ، وكان الفلاحون أقل حرية عند وفاته مما كانوا عليه في انجلترا منذ « أيام الموت الأسود » سنة ١٣٤٩ . ولم تكن النظم البرلمانية ، التي تأسست تدريجاً خلال القرن التاسع عشر تتمتع في سنة ١٩١٤ إلا بقدر مماثل ما كان في انجلترا أيام اليزابث . وكانت بروسيا ، أكبر الولايات شأناً ، أقواها نزعة عسكرية ، كما كانت توجد في القسم الشرقي منها طبقة من السادة النبلاء الاقطاعيين الذين جاءوا أصلاً غزاة دخلاء على الاهالي الصقالبة . هذا الى أنه لم يكن

لطبقة السادة في إنجلترا أى تأثير في الحكومة التي كانت مفسمة بين كبار المالكين وأسر الأحرار وكلاهما نفوذ متحرر ، بينما نجد السيد بسمارك وجيرانه هم الدعامة الأساسية للعرش في بروسيا .

وكان عدم الأهمية النسبية للتجارة سببا آخر من أسباب ضعف الآراء الحرة في ألمانيا إذا قورنت بإنجلترا . فقد اختفظت مدن هانسا ، التي كانت تعيش على التجارة طوال القرن التاسع عشر بنظرة تماثل نظرة كبدن ، وفي سنة ١٨٧١ ظلت هامبورج وبرلين خارج نطاق الوحدة الجمركية (الترلفرين) لأنهما تمسكتا بحرية التجارة . والنزعة هي أساسا نتاج للتجارة ، فبعد كانت موجودة في المدن التجارية في اليونان القديمة وفي إيطاليا في العصور الوسطى ، وفي الدولتين التجارييتين هولندا وإنجلترا . وكان فجنه كما رأينا ، يرغب في أن لا تكون لألمانيا تجارة خارجية ، ويحتفظ أتباعه الحديتون بهذا الاتجاه بالقدر الذى يسمح به العصر . وان ما يبدو لنا متأخرا في وجهة النظر الألمانية ليرتبط بهذا التهوين من قيمة التجارة .

وتوجد في كتابات كارلايل جميع المذاهب التي اتسمت بها القومية الألمانية : وهى الاعتقاد بأهمية الإدارة أكثر من المعرفة والايان أكثر من العقل ، والواجب أكثر من السعادة وعبادة الدولة والاعجاب بالحكم الاستبدادى لقوى ، وتأكيد العنصرية والبطولة الفردية وكرهية التصنيع كراهية مستترة في صورة الشفقة بالبروليتاريات الصناعية . ويوجد كثير من هذا أيضا عند دزرائيلى ، كما وجدت أكل الغرائز التي تبدو بغیضة في القومية الألمانية متنفسا لها في النزعة الاستعمارية البريطانية كما تمارس في آسيا وإفريقيا . وتعتمد الامبراطورية البريطانية ، ولا تزال ، البالوعة التي تصب فيها سموات الخلق البريطانى ، ولم يكن لألمانيا مثل هذا المتنفس ، وكان لابد لها أن تتحمل استبداد حكامها العتاة في داخل حدودها . وقد قال بسمارك في شبابه : لقد كنت أريد أن التحق بالخدمة تحت العلم الانجليزى في الهند ، ثم قلت أخيرا في نفسى : وما الذى أصابنى من ضر على يدى الهنود ؟ . ان الرجل الانجليزى الفاضل ليحسن صنعا اذا فكر مليا في ذلك القول .

٢ - بسمارك والوحدة الألمانية

الفصل التاسع والعشرون

بسمارك والوحدة الألمانية

أصيب مبدأ القومية والحركة التحررية بهزيمة مشتركة في سنة ١٨٤٨ ، غير انهما سرعان ما عادا الى الحياة . فقد حققا متحالفين نصرا باهرا في ايطاليا في سنة ١٨٥٩ ، سنة ١٨٦٠ بتوحيد البلاد كلها تقريبا وقيام حكومة برلمانية تحت حكم فكتور عمانويل الدستوري (ضمت البندقية في سنة ١٨٦٦ بروما في سنة ١٨٧٠) .

وكان متوقعا أن يحدث تطور مماثل له في النزعة التحررية - القومية في ألمانيا حيث لم يبد محتملا أن يدوم انتصار الرجعية بعد سنة ١٨٤٨ ولكن مجرى الاحداث في ألمانيا لم يسر طبقا للخطة المرسومة . فقد نبذت حكومة بروسيا المحافظة مبدأ الشرعية ، وهو المبدأ المعرقل الذي خلفه مؤتمر فيينا ، وعملت على ارضاء القومية الألمانية بالقليل من الاصلاحات التحررية فقط . وكان الفصل بين القومية والتحررية ، وبين المحافظة ومبدأ الشرعية حدثا مهما ترك أثرا كبيرا في تطوير أوروبا . ويرجع معظم الفضل في ذلك الى بسمارك الذي يجب أن يعد لهذا السبب من أكثر الرجال نفوذا في القرن التاسع عشر .

وكان بسمارك سييدا ريفيا وظل طوال حياته ريفيا الى حد ما ، وكان أسلافه اشرافا من ملاك الاراضي في براندبرج حيث عاشوا خمسمائة سنة أو أكثر قبل ال هوهنزولون بكثير كما ذكر هو في احدي المناسبات . وكانوا ذوى كبرياء وصلابة ، فجده كان من أتباع روسو وجلب بذلك على نفسه غضب فردريك الاكبر ، وكان أبوه رجلا هادئا غير طموح التحق في شبابه ضابطا بالجيش وهو أمر لا مفر منه ، الا انه تقاعد وعاد الى ممتلكاته بمجسرد أن استطاع الى ذلك سبيلا ولم يشترك في حرب ١٨٠٦ أو ١٨١٣ . وقد ظلت أجيال عديدة من أسلافه تأكل بشهية وتشرب كثيرا وتزرع ارضها وتصطاد فيها ، وتلد أطفالها وتهرم ثم تموت ، بنظام ثابت لا ترتيب كنظام فصول السنة .

وقد تركت هذه القرون من الوجود المستقر بين أرقاء مطيعين أثرها في أسس تفكير بسمارك وشعوره وجعلته محافظا لا يتحول أيا كانت الظروف . وقد قال مرة « انى أحب الاشجار الكبيرة ، انها جدود » . وحدث مرة أن أحد زواره كان على وشك دخول الغابة ليتجول فيها بعربته وعلى رأسه قبة عالية فقال له : « وفر على أشجارى منظر هذا الشيء ! » ولم تكن تروق له فكرة

دفنه في تابوت تحت الارض ، فأشار ذات مرة الى شجرتي صنوبر ضخمتين . وقال « هناك بين هذه الاشجار ، عاليا في هواء الغابة الطلق ، أود أن يكون مرقدى الاخير حيث تستطيع أشعة الشمس والنسيم الصافي أن تصل الى »

وقد ورث عن أمه ، لا عن أبيه ، الذكاء وعدم الاستقرار . ولم تكن أسرة أمه ، آل منكز ، من الاشراف بل كان أفرادها من الاساتذة والموظفين الحكوميين ، وكان جده لأمه من وزراء فردريك الاكبر ، وأقاله خلف فردريك بحجة انه يعقوبى ، وأعاده فردريك وليام الثالث باعتباره حليفا لاشتاين . وكانت أمه نفسها مثقفة من أهل المدن طموحة وعصرية . ولم ترض عن زوجها لعدم مبالاته بالنجاح .

وكانت الأسرة تقيم في برلين شتاء ، وفي الصيف وهو الوقت الذى كان يفضل فيه العودة الى مزارعة كانت تدعى المرض وتصر على الذهاب الى احدى مدن المياه المعدنية الراقية ، وقد حرمت هذه العادة أولادها من قضاء عطلاتهم الصيفية فى الريف . فكانت تزعج من حولها بتبرمها وذكائها وشغفها بالمدينة وأصواتها ، ولم تكن تستطيع القناعة بطريقة الحياة التى ارتضاها آل بسمارك خمسة قرون .

وأحب الصبى أوتو ، الذى ولد سنة ١٨١٥ ، وإليه والريف وكره المدينة وأمه . وكان فى صباه المبكر سعيداً فى مزارع والده فى بنهوف فى بومرانيا يصادق رعاة البقر وحراس الصيد والحياد والكلاب . وكان والده يذكر له عندما يأخذه الى القرية انها ملك لهم كلها . وحان الوقت لأن يذهب الى المدرسة واختارت له أمه ، التى كانت تتابع احداث التطورات الاجتماعية مسكنا تفخر بأنه يجرى على أحدث أساليب بستالوتزى . وهناك عانى أوتو من جراء الطعام السيء والنظام الصارم وطول حياته يشكو منه قائلا انه كان يوقظ كل صباح بوخز من سيف . وفى فترة المراهقة اتهمته تقارير المدرسة « بالبلف والادعاء » وانه لايعرف شيئا عن « الاحترام والواجب نحو مدرسيه » ولم يكن الاحترام فضيلة من فضائله .

ولما بلغ السابعة عشرة من عمره والتحق بجامعة جوتنجن وقد تشبّع برومانسية بيرون واعتقد انه جمهورى ملحد ، وسرعان ما اكتسب فى الجامعة احترام زملائه باستعداده للمبارزة وانتصاره فيها عندما كان يجد من يقبل تحديه . وعقد أواصر صداقة مع موتلى المؤرخ الذى كان طالبا فى الجامعة فى ذلك الوقت أيضا ، وقد قال عنه موتلى انه « لم يتحدث حديثا معقولا الا عندما يكونان معا على انفراد » وفيما عدا ذلك كان بسمارك يقضى معظم وقته فى الشجار . وقد قال مورلى عنه فى ذلك الوقت « هنا توجد المادة التى يصنع منها الابطال فى طريقها الى النضوج » .

وتورط بسشارك في الدين كما كان متوقعا وكتب ل'خيه يقول « حدثت بيني وبين الرجل العجوز (والده) مشادة اكثر من مرة لانه رفض أن يسدد ديونى . ولا يهمنى ذلك كثيرا لان لدى من « الائتمان » قدرا كبيرا يمكننى من أن أعيش حياة خليقة ونتيجة ذلك أن أبدو عليلا ضعيفا وعندما أعود الى المنزل فى عطلة رأس السنة سيعزرو أبى ذلك الى سوء التغذية طبعاً . وسأقف موقف المتشرد وأقول انى أفضل أن أصير ملحدا على الاستمرار فى معاناة هذا الجوع ، وعندئذ سأحصل على ما أريد . ويقول ل'خيه « ان محكمة ينيهوف (والده) يسهل اقناعها بالدبلوماسية الماكرة والكذب اكثر مما يسهل ذلك بالفاظ القتال الرنانة »

وعين فى سن الحادية والعشرين فى منصب دبلوماسى فى اكس لاشابل ولكن واجباته لم ترق له وذهب يطوف اوربا خلف فئاة انجليزية كان يريد الزواج منها . ولما عاد وجد بطبيعة الحال الا هفر له من الاستمالة . واعطى فرصة أخرى ، الا انه لم يستطع الاستقرار فى رتبة حياة الموظف ، وقررت الاسرة ، لاسباب مالية من بينها ديونه ، أن يقيم فى نييهوف لادارة ممتلكاتها ولم يعترض هو على ذلك لاسباب وضحها لاحد أقاربه : « ان الخدمة الحكومية زالشئون الدبلوماسية لاتلائمنى مطلقا ، ولست أرى نفسى سعيد الحظ اذا اصبحت موظفا حكوميا او حتى وزيرا ، واعتقد أن الزراعة لا تقل مكانة عن كتابة الخطابات الرسمية ، بل ان الزراعة فى بعض الظروف أكثر من هذه الخطابات فائدة ، وأنا أكثر ميلا الى اصدار الاوامر منى الى تلقيها . هذه حقائق أستطيع تحليلها بأكثر من انها مسألة مزاج . ان مثل الموظف البروسى كمثل لاعب فى فرقة موسيقية عالمية . ان يستعمل آتته طبقا لما تمليه القطعة الموسيقية سواء كان لاعب على الكمان أو على المثلث (X) . أما أنا فأريد من أن اعزف الموسيقى التى تروقنى ، أو لا اعزف على الاطلاق .

ثم يقول : « لقد كانت الوطنية هى الدافع الذى حدا ببعض الساسة النابهين للدخول فى الخدمة العامة خاصة فى البلاد ذات الحكم المطلق ولكن الذى يحدث غالبا هو أن الدافع الاساسى هو الطموح والرغبة فى اصدار الاوامر واكتساب الاعجاب والشهرة . ولا يسعنى الا أن أعترف بأنى لست مجرأ من هذه العاطفة . ان كثير من ضروف التفوق كالتى يصيبها الجندى فى الحرب أو السياسى فى ظل دستور حر ، والتى امتاز رجال مثل بيسل وأوكوتل وميرابو ومن اليهم من رجال لعبوا دورهم فى حركات سياسية قوية - يجذبنى هذا النوع من التفوق بشدة تطغى على أى اعتبار آخر ، ولعنه يجذبنى يوما كما يجذب اللهب الفراشة .

انى أقل تأثرا بالنجاح الذى قد أصيبه بالطريق المألوف ، بالامتحانات

والنفوذ ودراسة الوثائق والاقدمية وحظوة الرؤساء . ومع ذلك فاني لتمر بي لحظات لا أستطيع فيها الا أن أحس بالاسف لكل ما فاتني ممسا يرضى خيلائي وكان ينتظرني في الوظائف الحكومية ، الرضاء الذي أحس به حين أقدر رسميا بالترقية السريعة . والشعور بالسرور حين أعرف أن الناس يرونني شخصا قديرا نافعا ، والمجد الذي يحيطني ويحيط اسرتي - كما ان هذه الاعتبارات تبهرني عندما اشرب زجاجة خمر . ويتطلب مني الامر تفكيرا حادا واعيا كي أقنع نفسي ان كل هذه الاشياء ليست سوى بيوت عنكبوت تنثرها الخلاء الحمقاء وانها أشبه بزهو المختال بجمال لباسه وفرحة البخيل بنقوده وان ليس من الحكمة أو الفائدة في شيء أن نبحث عن السعادة في اراء غيرنا فينا ، وان الرجل العاقل هو من يحيا حياته طبقا لما يعتقد انه صواب وحق ولا ينفاد وراء الانطباعات التي يتركها في نفوس غيره أو يعتقد ان الناس سيتحدثون به عنه قبل موته وبعده .

وملاك القول أنني لا ينقصني الطموح ، وان كنت أرى أنه لا يقل ذم المشر عن غيره من الصفات بل واكثر منها حماقة ، لاني ان سلمت قيادي للطموح فسينطلب مني ذلك التضحية بكل قواي واستقلالى دون أن يضمن لى شيئا من الرضاء الدائم حتى في أحسن الظروف . ولن يكون لى دخل يكفينى وأستطيع به أن أقيم بيتا في المدينة الى أن أبلغ الاربعين وأكون قد وصلت الى مركز كبير حتى لو اصبحت نجاحا مابعد نجاح . وعندئذ سيكون قد أصبحت كالعود الجاف سوداوى المزاج وقد أتلف الكسمل صحتى ولا أحتاج الى زوجة الا لكي تكون ممرضة .

ان هذه الميزات البسيطة : ارضاء كبريائى بما يطرق اذنى من ألفاظ الاحترام توجه الى باعتبارى « السيد الرئيس » والشعور بأنى لا أفيد البلاد بقدر ما أكلفها الا فيما ندر ، وانى أعرقل شئونها بين الفينة والفينة واصيب مصالحها بالضرر ، ان هذه الميزات لا تستهوينى . ولذلك أستقر رايى على الاحتفاظ باستقلالى وعدم التضحية بقواى الحيوية طالما كان هناك آلاف من الناس (بعضهم ممتازون كل الامتياز) يشغفون بمثل هذه الاشياء ويسعدهم أن يملأوا المكان الذى اتركه خاليا لهم .

وعاش بسمارك من سنة ١٨٣٩ الى سنة ١٨٤٧ عيشة النبيلى الريفى الشاب ، فكان يقضى وقته فى الصيد والشراب (المكون من خليط من الشمبانيا والنبيذ عادة) وكان له عدد لا يحصى من المغامرات الغرامية واشتهر بأنه منهور حتى ان الامهات كن يبعدن بناتهن عنه . ولكنه درس الزراعة دراسة جدية نظريا وعمليا ، وقرا كثيرا من الشعر والتاريخ بالفرنسية والانجليزية والالمانية . وعندما بلغ السابعة والعشرين قام برحلة الى انجلترا التى أحبها

لان اهلها مؤدبون ولان نبلاءها يعودون الى منازلهم من مجلس اللوردات على ظهور الجياد ، ولان جياد فرسان الحرس مخصص لها « تعيين » يومية قدره « بوشل » من الشعير واثنا عشر رطلا من الدريس ، ولان مطاعهما كانت تسمح له بأن يقطع شرائح اللحم ويأخذ منها كل ما يريد .
وعندما عاد من رحلاته لم تعد حياة الريف تروق له .

« يكون مزاجى فى الصباح غير معتدل ، ولكن اكون اكثر قابلية لمشاعر أرق بعد العشاء . ان رفاقى هم الكلاب والحيل ونبلاء الريف . وأتمتع بين أولئك النبلاء بمركز ممتاز لاني أقرأ بسهولة وألبس كما يلبس الآدييون ، وأقطع لحم الحيوان المصيد بمهارة الجزار ، وأجيد الركوب وأدخن نوعا قويا جدا من اللغافات الكبيرة القوية وأستطيع أن أشرب أكثر من كل ضيوفى جميعا لأن الشراب لم يعد يؤثر فى كثيرى لسوء الحظ ، رغم انى أعرف من التجربة أن حالة السكر التى كنت أحس بها أحيانا كانت تسبب لى كثيرا من السعادة . ومن ثم فانى انمو كالنبات فى دورة منتظمة بلا رغبات ولا مخاوف ذات طابع خاص ، وهى حالة رتيبة جدا ومتعبة جدا .

والتقى وهو فى هذه الحالة المزاجية بشابة حسناء تقيية هى ماري فون تادن التى كانت خطبتها معقودة لصديقه مورينز فون بلاكنبرج ، وشرعت السيدة تعمل على هداية صديق خطيبها ، فحدثته (هى وبلاكنبرج) عن فتاة مصدورة على وشك الموت تحبه الا انها لن تموت سعيدة الا اذا عرفت انه اهتدى . وعندما ماتت قالوا له انها ألهمت الهاما اكيدا بأن روحك لن تضل « آه لو علمت فقط كم صلت المرحومة من أجلك » . فتأثر بسمارك جدا وترقرقت الدموع فى عينيه ولكنه لم يهتد بعد . وأيا كان الامر فقد قابل فى منزل ماري وبلاكنبرج بعد أن تزوجا بصديقة لها اسمها جوهانا فون بوتكامر وتابعت هذه الصديقة عملية هدايته وكان حظها من النجاح أكبر فقد أبصر النور وتزوج السيدة . وكان زوجها مثاليا ، عطوفا رقيقا قويا يهتم بالتفاصيل الدقيقة اهتماما يقارب اهتمام المرأة ، شفوقا بأولاده وينزعج أشد الانزعاج كلما أصابهم أقل وعكة .

ولعل هوايته لم تكن قد بلغت حد الكمال كما أوهم خطيبه فقد كتب الى أخيه يقول :

« نحن نختلف فى مسائل الدين بعض الشيء ويزعجها ذلك أكثر مما يزعجنى ومع ذلك فان الفرق بيننا ليس كبيرا الى الحد الذى تصوره ، لأن أحداثا كثيرة خارجية وداخلية قد بدلتنى أخيرا بحيث أصبحت أعد نفسى بحق من بين الذين يؤمنون بالدين المسيحى (وهو أمر جديد كما تعلم) ومع انى فيما يتعلق ببعض العقائد ، ولعلها هى التى يراها المسيحيون بصفة

عامة غاية في الاهمية ، لم أستطع - بالقدر الذى أستطيع أن أرى فيه هذه الآراء بوضوح - أن أحمل نفسى على التسليم بوجهة النظر المسيحية . فقد عقدت بينى وبين جوهانا ، بطريقة ضمنية ، اذا صح هذا التعبير ، معاهدة تشبه معاهدة باساو . هذا الى أنى أحب التدين فى النساء وأكره الاناث اللاتي يعرضن علمهن على الملا .

وكان بسمارك دائما يؤمن بالخرافات ، ولكنه لم يكن متدينا . وقد استغل الدين فى السياسة عندما وجد فى ذلك فائدة ، وان يكن قد فعل ذلك بطريقة تكاد تكون لا شعورية . وقد قال ذات مرة : « اذا أزلنا الاساس الدينى للدولة فلا يبقى منها الا مجموعة من الحقوق تضمها المصادفة ، اى انها نوع من الضمان ضد قيام حالة من الحرب يقا تل فيها الناس جميعا بعضهم بعضا . » ولست أرى بوضوح كيف يمكن مثل ، فى مثل هذه الدولة دحض حجج الشيعيين الخاصة بأن الملكية لا سند لها من الاخلاق . وهذا الضرب من الحجج قد جعله يحس بأن الدين يفيد . ولكن شعوره الدينى الشخصى ، الى الحد الذى كان يشعر به من تدين ، كان نوعا من وحدة الوجود الغامضة المتصلة بالاشجار الكبيرة والريف .

وكانت خطبته وكان زواجه فى سنة ١٨٤٧ . وعاد فى هذا الوقت طموحه الى الظهور لاسباب خاصة وعامة معا . فصار عضوا فى الجمعية التشريعية (الانداج) ظل طوال الفترة الثورية يؤيد آراء المحافظين المتطرفة التى تليق بالسيد البروسى ويعتقد أن البروسيين هم الشعب المختار ، بل انه ذهب الى حد انكار أن الوطنيين البروسيين كانت لديهم اية فكرة عن ألمانيا موحدة فى سنة ١٨١٣ .

وقضى السنوات من ١٨٥١ الى ١٨٦٢ فى التدريب على الاعمال الرسمية . وكان فيما بين سنة ١٨٥١ وسنة ١٨٥٨ المبعوث البروسى الى المجلس الاتحادى فى فرانكفورت ، ومن سنة ١٨٥٩ الى سنة ١٨٦٢ كان سفيرا فى سان بطرسبورج ، ثم سفيرا فى باريس مدة بضعة أشهر من سنة ١٨٦٢ ، ثم رئيسا لوزراء بروسيا فى نفس السنة . وكان سياسة بروسيا منذ ذلك التاريخ حتى سنة ١٨٩٠ هى سياسة بسمارك .

وكان الموقف فى سنة ١٨٦٢ يسود ، نزاع شديد بين الملك والبرلمان . فقد كان ميزان القوة فى البرلمان البروسى وفقا لدستور سنة ١٨٥١ الذى ظل نافذا حتى الحرب الكبرى فى يد الطبقة الوسطى . فكان الناخبون ينقسمون الى ثلاث فئات : أغنياء ومتوسطين وفقراء تساهم كل فئة بنصيب فى دخل الدولة مماثل لنصيب كل من الفئتين الاخرين .

وتنتخب كل فئة على حدة عددا من المندوبين مساويا للعدد الذى تنتخبه كل من الفئتين الاخرين ، ثم ينتخب المندوبون مجتمعين الجمعية التشريعية .

وهكذا كان في وسع الطبقة الوسطى والفقراء أن يتغلبوا على الاغنياء كما كان في وسع الطبقة الوسطى والاعنياء التغلب على الفقراء . وسيطرت المبادئ التحررية الانجليزية في أوائل العقد السابع على الطبقة الوسطى بينما لم يكن لاسال أو ماركس قد أفلح في اثارة الطبقة العاملة الى التحمس للاشتراكية بعد ، فكان البرلمان في هذه الظروف تحرريا بأغلبية ساحقة وكان البرلمان يتمتع بحق الرقابة على الشئون المالية ولكن الوزارة كانت مسئولة أمام الملك وحده . واعتقد زعماء الاحرار ، الذين درسوا تاريخ الدستور الانجليزي ، انهم يستطيعون السيطرة على الهيئة التنفيذية عن طريق الرقابة المالية . وكانت مهمة بسمارك أن يهزمهم في هذه المحاولة .

وكان الجيش هو منار النزاع . فقد كان من المسلم به أن الجيش من شأن الملك . ولكن الاقتراع على الاعتمادات المالية اللازمة له من أعمال الجمعية التشريعية . وأراد الملك وليام جيشا أكبر مما كان له وقتئذ ، ووافقت الجمعية على بعض الزيادة التي طلبها الملك ، لا عليها كلها ، الا أن الاحرار أرادوا في مقابل ذلك أن تقرر جميع الضرائب بمقتضى ميزانية سنوية ، وكانوا يأملون من وراء ذلك أن يرغموا الملك على اختيار وزارة تتفق واتجاهات الاغلبية في البرلمان . وحل الملك البرلمان ، ولكن الاحرار عادوا أقوى مما كانوا في أي وقت مضى ، وارتاع الملك لهذا ونزع الى التسليم . ولو أن الملك انتهى الى التسليم لصارت بروسيا ديموقراطية برلمانية ولتغير تاريخ العالم أتم التبديل . غير أن المحافظين أفتعوه بأن يقوم بمحاولة أخيرة قبل أن يدعن . وقد يستطيع بسمارك ، الذي عرف عنه أنه رجعي جرىء حازم والذي أشار باتخاذ اجراءات صارمة في سنة ١٨٤٨ أن يجد وسيلة لهزيمة الاحرار واستدعى بسمارك من أفينيون وتمت بينه وبين الملك وليام مقابلة خطيرة . وعندما أشار بمقاومة البرلمان أبدى وليام تخوفه من أن يكون مصيره الى الجلاء مثل مصير تشارلز الاول . فأجاب بسمارك أنه من ناحيته على استعداد للقاء المصير الذي يلقيه استرפורد . وذكر الملك بالنخوة البروسية . واذن الملك الذي لم يكن قد اقتنع كل الاقتناع ، الى بسمارك مبدئيا أن يبحث الموضوع . وأثبتت الاحداث أنه لم يكن بين الاحرار « اللاندتاج » من يمائل كرومويل وأن مخاوف الملك لا أساس لها .

وبدا بسمارك بأن أبلغ البرلمان أنه سيمد العمل بالضرائب السابقة بمرسوم وأنه هميترك للمستقبل أمر اصدار قانون لتصحیح الوضع . وفي خطابه الاول في اللاندتاج تقدم بعرض للمصالحة كان قد تدرب عليه في افينيون ، ولكنه وجد أن الوقت لم يكن قد حان بعد لأن يتقدم به للمعارضة ومضى يقول :

« ان أنظار ألمانيا لا تتعلق باتجاه بروسيا التحرري بل تتعلق بعظمتها . ان بروسيا يجب أن تحتفظ بقوتها للوقت المناسب الذي فاتها فعلا .»

أكثر من مرة . والمسائل الكبرى اليوم لن تحسمها الخطب ولا قرارات الاغلبية - لقد كان هذا هو الخطأ الذى وقعنا فيه سنة ١٨٤٨ وسنة ١٨٤٩ - بل الذى يحسمها الدم والحديد .

تلك لغة لم يكن البرلمان قد ألف سماعها من قبل . وكان الرد عندها « خطبا وفرارات للاغلبية » الا أن البروسيين استمروا يدفعون الضرائب غير القانونية التى ظلت تجنى منهم ، ونفذ الملك الاصلاحات التى ارادها فى الجيش ، ونبت أن البرلمان عاجز . هذا بينما قرر بسمارك أن يتيح للبلاد شيئا آخر تفكر فيه .

ولحسن الحظ ثارت مشكلة شلترفيج وهولشتاين فى ذلك الوقت بالذات وكانت هاتان الدوقيتان تابعتين لملك الدنمارك منذ سنة ١٤٦٠ ، ولكنهما لم تكونا جزءا من مملكة الدنمارك نفسها ، وكانتا تخضعان لقانون مختلف عنها ، فى وراثة العرش . وكانت هولشتاين جزءا من الامبراطورية الرومانية المقدسة ويسودها شعور موال لالمانيا ، وكانت الغالبية فى شلترفيج أو فى الجزء الشمالى منها على الاقل ، تميل الى الدنمارك .

وكان الوريث الشرعى لهما بسبب اختلاف قانون الوراثة فيها هو دوق أوجستنبرج لا ملك الدنمارك . وكان والد الدوق أوجستنبرج قد نزل عن حقوقه فيهما مقابل مبلغ من المال ، لكن هذه الحقوق قد يستطاع احياؤها . وحدثت تعقيدات لا نهاية لها . قال بالمرسنبور : ان المشكلة لا يستطيع فهمها فى العالم الا ثلاثة - زوج الملكة ، وكان قد توفى ، وأستاذ جامعة ألماني ، وكان عندئذ فى مستشفى للمجانين ، وهو شخصيا . وقد نسى كل ما يتعلق بها . الا أنه على الرغم من كل هذه التعقيدات كان يوجد شيء واحد واضح ، وهو أن بروسيا ليس لها أى حق فى شلترفيج وهولشتاين . ولكن بسمارك قرر أن بروسيا يجب أن تستولى عليهما ، وقد أخذتهما بروسيا فعلا نتيجة لحربين . وقد قال الملك فى سنة ١٨٦٣ عندما اقترح بسمارك ضمهما « ولكنى ليس لى حق فى هذين الدوقيتين » فأجاب بسمارك : « هل كان للمنتخب الاكبر ، هل كان للملك فردريك أى حق فى بروسيا وسيليزيا ؟ لقد عمل آل هوهنزولون كلهم على توسيع رقعة الدولة » وارتاع الملك من حديث بسمارك ، كما كان يحدث كثيرا ، ولكن بسمارك نال ما أراد فى النهاية .

وكانت الخطوة الاولى عقد حلف مع النمسا اتفق الطرفان - النمسا وبروسيا - بمقتضاه على تسوية المسألة فى صالح دوق أوجستنبرج فى الظاهر . وفى سنة ١٨٦٤ استولى الطرفان على الدوقيتين عقب حرب قصيرة مع الدنمارك فأخذت النمسا وقتنا هولشتاين وأخذت بروسيا شلترفيج ، وقد عرفتنا كلاهما وقتئذ بأن مطالب دوق أوجستنبرج ليس لها أساس . واستشاطت الدول الاخرى ، وخاصة إنجلترا ، غضبا ، ولكنها لم تستطع أن تفعل شيئا .

وكانت الخطوة التالية هي التصرف مع النمسا ، وهنا كان على بسمارك أن يتغلب على الشعور بالاخوة الألمانية الذي يعد الحرب مع النمسا من قبيل قتل الاخ أخاه . وكان هناك فريقان من دعاة الوحدة الألمانية أولئك الذين يريدون « ألمانيا العظمى » التي تضم النمسا ، وأولئك الذين يريدون « ألمانيا الصغرى » التي لا تضمها . ولكن الوحدة التي تضم النمسا كانت من الناحية السياسية غير عملية بسبب ممتلكات آل هابسبورج غير الألمانية . وكانت النمسا دائما منذ سنة ١٨١٥ العقبة الرئيسية في سبيل الوحدة فكان ابعادها عن الاتحاد الألماني ضرورة أولية . وقد أدرك بسمارك ذلك ولسكن كثيرا من الوطنيين الألمان لم يدركوه . ومن ثم كان عليه أن يعمل على ضمان كل تأييد ممكن في حربه مع النمسا سنة ١٨٦٦ .

ففي ٨ ابريل سنة ١٨٦٦ عقد بسمارك حلفا مع ايطاليا تعهدت ايطاليا بمقتضاه أن تعلن الحرب على النمسا إذا فعلت بروسيا ذلك خلال الاشهر الثلاثة التالية: وتعهد الطرفان ألا يعقدآ صلحا الا مشتركين على أن تستولى ايطاليا على فينيسيا وتأخذ بروسيا غنيمة موازية لذلك على حساب النمسا . وفي اليوم التالي عمل بسمارك على أن يعرض قرار على المجلس الاتحادي يقضى بانتخاب برلمان لألمانيا كلها على أساس منح حق الانتخاب لجميع الرجال (يفهم منه ضمنا استثناء النمسا) ، على أن يقوم هذا البرلمان بوضع دستور ألماني مستعينا بمشورة من يراه من الامراء . ورفضت النمسا طبعاً هذا لإقتراح الذي لم يكن الغرض منه سوى استمالة الراغبين في الوحدة على أساس ديموقراطية . وصدرت الاوامر الى الجيش البروسي بدخول هولشتاين التي انسحب منها النمساويون دون قتال . ولما لم تغلح هذه الحطة في اثارة الحرب تقدم بسمارك الى المجلس الاتحادي باقتراح بوضع نظام جديد مستبعدا النمسا منه صراحة . فأعلنت النمسا أن بروسيا قد خرقت الدستور الاتحادي وطالبت كل أعضاء الاتحاد الألماني الآخرين بتعبئة قواهم ضد بروسيا . وردت بروسيا بانذارها نهائى وبدأت الحرب .

واستلزم الامر مداراة الملك كالعادة . وفي سبيل ذلك حافظ بسمارك على أسلوب ورع في لهجته يستعمله في هذه المناسبات ووجد أنه يترك أثره . وقد كتب خلال هذه الازمة يقول :

يا صاحب الجلالة أنه مما يتعارض مع مشاعري ، بل انى أستطيع أن أقول مع ايماني ، أن أحاول ملحا أن أوثر في سبتكم العلية فيما تتخذونه من قرارات في مسائل الحرب والسلم . وأترك الامر الى الله الأعلى القدير ليسدد خطي جلالنتكم لما فيه خير الوطن وانا لاكثر ميلا الى الدعاء منى الى تقديم النصح في هذا المجال . ولكنى لأستطيع أن أخفي عنكم انى مقتنع بأننا اذا حافظنا على السلم الآن فان خطر الحرب سيعود ، وقد يكون ذلك خلال بضعة أشهر وفي

ظروف أقل ملاءمة من الظروف الحاضرة . ان السلم لا يمكن أن يدون الا اذا كان الطرفان يرغبان فيه . . وأن رجلا مثل خادم جلالتكم المخلص الامين على صلة وثيقة بالسياسة النمساوية خلال الستة عشر عاما الماضية ، ليس في وسعه أن يشك في أن العداء في فيينا نحو بروسيا قد أصبح المحرك الرئيسي لسياسة الدولة ، بل لعل أستطيع القول بأنه قد أصبح المحرك الوحيد لهذه السياسة . وسيصبح هذا المحرك نشطا فعلا ساعة يجد مجلس الوزراء في فيينا أن الظروف قد أصبحت أكثر ملاءمة مما هي الآن . وستكون أول محاولة تقوم بها النمسا هي أن تعمل على خلق الظروف في إيطاليا وفرنسا بحيث تصبحان أكثر ملاءمة لها . »

وكتبت ودية العهد (التي صارت فيما بعد زوجة الامبراطور فرديريك) الى امها الملكة فكتوريا تصف بسمارك بأنه « الرجل الشرير » وتعبّر بذلك عن الشعور العام لدى الالمان الاحرار . ولكن بسمارك كان يعرف أن الانتصار سيجعل الجميع يعفون عنه ، وكان مولتكة رئيس أركان الحرب قد أكد له بأن الانتصار محقق . هذا إلى أنه عندما استشار الكتاب المقدس ينشد فأله فيه وقع على الفقرة التي تقول « عندما يراد أعدائى على أعقابهم فانهم سيسقطون ويبيدون في حضورك . لأنك قد حافظت على حقى وقضيتى وجلست على عرشك تحكم بالحق . » هذا ما كتبه بسمارك الى زوجته على أن هذا لم يبدد كل شكوكه ، فهو يكتب قائلا « أننا واثقون كل الثقة ولكن يجب ألا ننسى أن الله العظيم يغير الامور كما يشاء . »

ولم يستمر الحرب طويلا وانتصرت بروسيا انتصارا مؤزرا وأصر بسمارك الذى كان يعرف أنه سيحتاج الى صداقة النمسا فيما بعد، على السلام بمجرد أن أصبحت أغراضه مستطاعة . وكان الملك والقواد يرغبون فى دخول فيينا فى موكب نصر ، ولكن بسمارك دافع عن رأيه وبكى ، وكان له فى النهاية ما أراد . وحصلت إيطاليا على فينيسيا وحصلت بروسيا على شلزيغ - هولشتاين - وهانوفر ونسا وفرنكفورت وهيس - كاسل والقسم الشمالى من هيس - دارستاد . وحل الاتحاد الجرمانى القديم الذى كانت تسيطر فيه النمسا ، تكون بدلا منه اتحاد شمال ألمانيا اتفق على أن يتكون فيه رايختاج ينتخب على أساس حق الانتخاب لجميع الرجال وأن يكون رئيسه ملك بروسيا . ولم يبق بعد ذلك الا خطوة أخرى واحدة لتتم الوحدة الالمانية الكاملة . وكانت ألمانيا موحدة فعلا من الناحية المالية عن طريق الاتحاد الجمركى - باستثناء مدن الهانس - الا أن تجديد الاتحاد الجمركى بعد الحرب التى وقعت فيها معظم ألمانيا الجنوبية مع النمسا كان يتطلب معاهدة جديدة لم يوافق بسمارك على عقدها الا اذا اقترنت بتحالف عسكري كانت لبروسيا فيه اليد العليا . وقبلت ألمانيا الجنوبية شروطه مع بعض الامتناع ، وجدد الاتحاد الجمركى عن طريقه .

وانتخب لاندتاج جديد فى بروسيا خلال الحرب التى قامت فى سنة ١٨٦٤ وكانت بروسيا قد كسبت الحرب قبل أن يجتمع وأصبح بسمارك بطلا قوميا . وعندئذ حان الوقت لتقديم غصن الزيتون الذى كان بسمارك قد جاء به معه من أفينيون وأقر اللاندتاج الحكومة على جمعها الضرائب على أساس غير شرعى منذ سنة ١٨٦٢ ، وأقرها أكثر من ذلك على انشائها للجيش الذى حقق هذه الانتصارات الرائعة المحيية . وانقسم الاحرار الى فريقين ، أكبرهما الفريق الذى أطلق على نفسه الحزب الحر وكان أكثر مؤيدى بسمارك وولاء له . ومن الغريب أن بسمارك واجه صعوبة أكبر مع المحافظين الذين استشاطوا غضبا لتحالفه مع ايطاليا ضد النمسا . وكان خلافه معهم قد بدأ خلال حرب القرم عندما فضل صداقة روسيا على صداقة النمسا . وكان الذى دفعه الى ذلك أنه منذ أن ذهب الى فرانكفورت سنة ١٨٥١ أحس بأنه لا بد لبروسيا بضرورة أن تؤكد وجودها ضد الغطرسة النمساوية التقليدية . فقد كان المألوف فى اجتماع المبعوثين فى فرانكفورت ألا يدخن الا المبعوث النمساوى وحده . ولكن بسمارك أشعل لفافته بكل جراءة . وعندما قابله المبعوث النمساوى مرة مرتديا قميصه فقط قال بسمارك « نعم ، ان الجو حار » وخلق سترته . وكانت هذه التصرفات تقريرا بما سيحدث فى المستقبل .

ولم يكن بسمارك يحترم مبدأ الشرعية فى وراثة العرش . فقد كان هدفه الوحيد مصالح بروسيا ، وكان على أتم استعداد لان يصادق نابليون الثالث رجل الحطيئة ، كما كان المحافظون يسمونه ، اذا كانت صداقته تساعد على جعل بروسيا عظيمة . وقد كتب فى سنة ١٨٥٧ الى صديقه المحافظ المتطرف ونصيره السابق جيرلاخ يقول :

« ما هو عدد الجماعات التى ظلت قائمة فى عالم السياسة اليوم وليس لها جذور فى التربة الثورية ، اليك مثلا أسبانيا والبرتغال وأبرازيل وكل الجمهوريات الامريكية وبلجيكا وهولندا وسويسرا واليونان والسويد وأنجلترا ولم تزل هذه الاخيرة تعمل عن قصد حتى اليوم فى ظل ثورة سنة ١٨٦٦ المجيدة . بل أن الاقاليم التى فى يد الامراء الالمان الحاليين والتى حصلوا على بعضها من الامبراطور والامبراطورية، وعلى بعضها الآخر من نبلائها وباروناتها وعلى جزء آخر منها من ممتلكات بلادهم نفسها ، ليس لديهم ما يثبت شرعية ملكيتهم لها . ونحن لا نستطيع فى حياتنا السياسية نفسها أن نتجنب استخدام التأييد الثورى » .

ونادى قبل ذلك فى سنة ١٨٤٨ يقول : « ماذا يهمنى من أمر الدولات الصغيرة ، ان همى الوحيد هو المحافظة على قوة بروسيا وزيادتها » وقد كانت هذه فى الواقع هى وجهة نظره طوال حياته السياسية . ولم يعمل للوحدة الالمانية الا بعد أن وجد وسيلة يربط بينها وبين زيادة قوة بروسيا ولم يكن له أى مبدأ يسير عليه فى السياسة الدولية على نقيض أصحاب

مبدأ الشرعية . فلم يكن يهمه نوع الحكم الذى يختاره الفرنسيون لانفسهم . فسواء لديه أكان يحكمهم ملك من آل بوربون أم بونابارت أم كانت لهم حكومة جمهورية ، وسواء أكانت حكومتهم فاسدة أم صالحة ، وسواء أكانوا سعداء أم أشقياء . لقد كانت هذه كلها فى نظره أموراً لا يحفل بها الوطنى البروسى الا من حيث تأثيرها فى قدرة فرنسا على الاضرار بجيرانها . وهو يختلف فى ذلك عن المحافظين والاحرار على السواء ، ولكنه علم ان الدنيا أن تعتنق مبادئه . وقد أتبع القيصر مبادئه هذه وعقد فيما بعد محاولة مع حكومة فرنسا الجمهورية الملحدة دون أن يخشى شيئاً .

وبقيت مهمة واحدة يجب القيام بها قبل أن تتم وحدة ألمانيا وهى أن يشترك الشمال والجنوب فى حرب ضد فرنسا ، يجب أن يبدوانها حرب فرضنها الفطرسية الفرنسيه على ألمانيا . وكان بسمارك مقتنعا بأنه ليس هناك ثمة وسيلة أخرى تحقق الشعور اللازم لاتمام الوحدة تحت زعامة بروسيا . وكان لابد من اعداد العدة بعناية للحرب ضد فرنسا . فأما الاستعدادات العسكرية يمكن تركها باطمئنان فى يد مولتكه ، ذلك أن بسمارك كان حريصا على ألا تؤدى سياسته الا الى الحرب التى ينتق مولتكه فى أنه سينتصر فيها . وذلك على الرغم مما كان يقوم بين الرجلين من نزاع فى كثير من الاخيان . وكان مولتكه ، بعد تجربة حربين ، وبمقد حلف عسكري مع الولايات الألمانية الجنوبية ، على استعداد لأن يعده بالنصر اذا أعطى فرصة عامين أو ثلاثة أعوام ليستكمل استعداداته العسكرية . وأما المشاكل الأخرى فكانت مشاكل دبلوماسية . فقد كان من الضرورى التأكد من حياد الدول الكبرى الأخرى . وقد ضمن حياد روسيا بأن وعدما بتأييده فى إعادة النظر فى معاهدة سنة ١٨٥٦ الخاصة باغلاق المضيقين . وكان من الممكن أن تقف انجلترا الى جانب حليفها فى حرب القرم . ولكن بسمارك خدع نابليون فجعله يبدى رغبته كتابة فى ضم بلجيكا الى فرنسا ، وضمن اعلان هذه الرغبة فى اللحظة المناسبة منع انجلترا من مساعدة فرنسا . وظل موقف ايطاليا والنمسا موضع شك حتى النهاية ، ولم يضمها الى صف ألمانيا الا هزائم نابليون العسكرية . وكان يسع ايطاليا أن تقف الى جانب فرنسا لو أن الامبراطور وافق على أن يحتل فيكتور عمانويل روما ، ولكنه رفض تحت تأثير تعصب يوجينى . وهكذا ترك الامر لمواطنى لوتر فى أن يقوضوا سلطة البابا الزمنية فى معركة سيدان .

وقد عالج بسمارك المراحل الأخيرة التى أدت الى الحرب مع فرنسا بمهارة فائقة . فقد كان بسمارك ونابليون كلاهما رجلين سافلين ، غير أن أحدهما كان ماهرا وكان الآخر غيبيا ، وجعل السافل الماهر سفالة الآخرين واضحة لكل الاعين فى أوروبا وأفلح فى اخفاء سفالته هو . وكان بسمارك يفشل فى

آخر لحظة بسبب أمانة الملك وليام الساذجة ، ولكنه استطاع « بنشره » برقية
ايمن أن ينجح فى اشعال الحرب السى يريدھا فى اللحظة التى كان كل شىء
معدا لها .

وكانت نتيجة الحرب ، كما يعرف الجميع أن ضمت ألمانيا الألزاس واللورين
وتكونت الامبراطورية الألمانية ، وكانت نتيجتها بالنسبة لفرنسا أن أدت
غرامة حربية ضخمة كما قامت فيها الجمهورية الثالثة وأيدت حكومة كوميون
باريس التى قضى عليها بوحشية لا مثيل لها على يد حكومة الحزبية والمساواة
والإخاء الجديدة .

وكان للامبراطورية التى ضمت ألمانيا كلها باستثناء النمسا الجرمانية
دستور اتحادى يشبه كثيرا دستور الاتحاد الألماني الشمالى الذى أنشئ سنة
١٨٦٧ . وصار ملك بروسيّا امبراطورا لألمانيا ، ورئيس وزراء بروسيّا
مستشارها الامبراطورى ، وكان هو والوزراء الآخرون مسئولين أمام
الامبراطور فقط لا أمام البرلمان . وأنشئ مجلس اتحادى (بوندسرات) مكون
من مندوبين تعيينهم الولايات المختلفة ومجلس نواب (رايخستاج) ينتخب
مباشرة على أساس حق الانتخاب العام للرجال . وكان الرايخستاج يسيطر
على المالية وكانت موافقته لازمة على القوانين ، ولكن اقتراح التشريعات كان
من حق البوندسرات . ظل بسمارك مستشارا حتى سنة ١٨٩٠ ولم يجد
البرلمان فى الواقع من سلطته . وكانت الطبقة الوسطى قد أخضعت ولم
تواجه بسمارك بعد ذلك مطلقا صعاب مثل التى واجهها سنة ١٨٦٢
وكان عداء فرنسا الصامت مما يتفق وأغراضه لأنه كان يهيم سببا واضحا
للابقاء على القوة العسكرية الألمانية الا أنه لم يجد فرصة لاثارة حروب أخرى
لان العالم قد اقتنع بأن القتال مع بسمارك ليس من حسن السياسة .

ولعل الاعمال التى قام بها من سنة ١٨٦٢ وسنة ١٨٧١ أمهر ما عرف
من أعمال فى تاريخ الحنكة السياسية وأكثرها مدعاة للاعجاب . فقد كان
عليه أن يسيطر على الملك الذى كان ابنه وزوجته ابنة يضمرون له
خسما ، كما كان يبغيه ، وكان عليه أن يجعل القومية الألمانية قومية محافظة
لا حرة ، عسكرية لا انسانية ، ملكية مطلقة لا ديمقراطية . وكان عليه أن
ينتصر على الدانيمركيين والنمساويين والفرنسيين على الرغم من أن الدول
الكبرى الأخرى لم تكن واحدة منها تريد له النجاح . ولم يكن يستطيع أن
يسمح للملك بأن يفهم سياسته ، لأنها لم تكن من النوع الذى يرضى عنه
جندي قديم أمين . ولم يكن يستطيع أن يسمح للعالم أن يفهمها لأن العالم
كان يقضى عليها لو أنه فهمها . وكان فى كل لحظة معرضا لكارثة مدلهمة .
وكان من حسن حظه أنه لم يوجد وقتئذ فى أى بلد آخر من يفهم الأعيان .

السياسة كما كان يفهمها هو . وحتى دزرائيلي ، كان طفلا في يده كما ثبت فيما بعد ، وظلت النسا وفرنسا وآنجلترا وروسيا تنفذ مشيئته طوال السنوات الحرجة . وكان يواجه استياء شديدا ضده في كل مكان ، ولكن هذا ما لبث أن زال في كل مكان الا في فرنسا . وأصبحت ألمانيا في النهاية من القوة بحيث صارت معارضتها غير مجدية .

وتحمل أعمال بسمارك طابع شخصيته التي كانت ضخمة مهولة ومعقدة ومتعددة النواحي ، فقد كتب مرة الى زوجته ابان خطوبتها يقول بمناسبة نصيدة قرأها لها : « ان أكثر ما يسرني في ليلة كهذه أن تجيش نفسي رغبة في المشاركة في هذه المهمة وأن أصبح جزءا من عاصفة الليل ، على ظهر جواد جامع يطوى الأرض على الصخور في ظل رعد العاصفة في بلاد الراين » . وكان في صباه يفضل بيرون على كل من عداه من الشعراء ، وعلى الرغم من أنه نبذ بيرون بعد زواجه . فان خطاباته لزوجته تدل على أن هذا الجانب من طبيعته لم يزل حيا ، فهو يقول لها « ان ما هو رائع في أرضنا هذه ليسبه على الدوام ملاكا ساقطا ، فهو جميل ولكن ينقصه السلام ، عظيم في مشروعاته وجهوده ولكنه لا ينجح أبدا ، انه فخور ولكنه مكتئب حزين » . وكان بسمارك مزيجا من الوحشية والرقية : رقيق نحو الذين لا يقفون في سبيله بأي شكل من الاشكال - كزوجته وأولاده والخيل والكلاب ، وحتى مع كل من يعارضه . فقد أظهر وحشية لا مثيل لها ابان الحرب مع فرنسا ، أن كل قرية ارتكب فيها عمل من أعمال الحيانة تحرق بأكملها ويشنق كل سكانها من الرجال ، وجاءته امرأة في « كومرس » تسترحمه ليعفو عن زوجها الذي قبض عليه « استمع الوزير (بسمارك) اليها في لطف وعندما انتهت قال لها بأعظم ما يستطيع من العطف : حسنا يا سيدتي الطيبة - في وسعك أن تطمئني تماما الى أن زوجك (ورسم خطا بأصبعه حول عنقه) سيشنق في القريب العاجل » (١) . وعندما أشيع أن غاريبالدي و١٣٠٠٠ من المنطوعين وقعوا في الأسر قال : « لماذا لم يقتلوا رميا بالرصاص ؟ » وقال في مناسبة أخرى انه اذا قبض على غاريبالدي « فاننا سنعرضه على الجماهير بتذاكر وسنعلق حول رقبتة بطاقة كتب عليها (ناكر الجميل) وكان يرى أنه يجب ألا يؤسر السود بل لأبد من قتلهم ولم يكن يحس بأي عطف على الفرنسيين في محنتهم بل كان يسخر منهم جميعا ، وعندما بدأ على « فافر » أنه مريض قال عنه أنه يصطنع المرض بقصد استنثار الشفقة . الا أنه كان يشعر بقلق شديد جدا على مصير أولاده . فقد قال مرة وهو يتجول على جواده بين الجيوش بعد معركة كوننجراتير : « أن قلبي ليرتجف كلما تصورت أن هربرت قد يرقد هكذا في يوم من الايام » . لقد كانت مشاعره بدائية وقبسمت

(١) لوخ « بسمارك » ص ٢٠٧

الجنس البشرى الى فريقين ، اصدقاء وغير اصدقاء ، ولم يكن غير الاصدقاء
يثيرون فى نفسه أية اشفقة مهما حدث لهم .

وكان العالم الذى خلقه كان على منوال مشاعره . فقد كان عالما مقسما الى
ألمانيا ، التى يجب أن تزعج وتزعج ، ويقى الكرة الارضية وهو اما أن يستغل
أو يخضع . وكان هو نفسه فظا ، قلقا ، ذآ بطولة ؛ يريد أن يصوغ العالم
على منواله . وقد أنجح فى ذلك الى حد كبير لسوء الحظ .

٣ - النمو الاقتصادي للامبراطورية الالمانية

الفصل الثلاثون

النمو الاقتصادي للإمبراطورية الألمانية

كان نمو الصناعة في ألمانيا خلال الأعوام الثلاثة والأربعين ، منذ قيام الإمبراطورية إلى بداية الحرب الكبرى سريعة سرعة غير عادية وتميزت بسمات جديدة ففي إنجلترا وأمريكا كان التصنيع أمرا يتم خبط عشواء ويقوم على المشروعات الفردية وكانت الحكومة في إنجلترا حتى سنة ١٨٤٦ ، وفي أمريكا حتى سنة ١٨٦٠ ، تفضل الزراعة على الصناعة ، وأدى مبدأ حرية العمل والتجارة إلى عدم قيام توجيه مركزي في شئون الحياة الاقتصادية . فقد كان يظن أن أكثر المشروعات ربحا أكثرها فائدة من الناحية الاجتماعية ، وأن الإنانية أجستتيرة أفضل من التدخل الحكومي .

لكن هذه القواعد قد أصبحت في سنة ١٨٧١ عديمة الأثر في سياسة ألمانيا التي فبذت الفلسفة التحريرية وساد الاعتقاد بأن النشاط الاقتصادي ينبغي أن يكون بحيث يؤدي إلى الرخاء القومي ، وأن الحكومة يجب أن تتدخل إذا لم تحقق القوى الطبيعية هذه النتيجة . ونتج عن ذلك أن النمو الاقتصادي الذي كان ينظم مركزيا على نطاق قومي ، تم بمهارة وتفكير وأحست الدولة أنها شريك في كل المشروعات التي لاقت قبولا .

وهكذا استعملت عدة دوافع قديمة في اتجاهات جديدة ، فالولاء للدولة والتعاون بين المواطنين والرغبة في العظمة القومية استغللت في الحياة الاقتصادية بطريقة لم يلجأ إليها كبدن وأتباعه الذي كان كما قال بريتشكلي ، يغفل القوتين الكبيرتين في التاريخ العام ، قوة الغباء ، وقوة الحظينة ، وكان كبدن ينظر إلى القومية باعتبارها إنما أرستقراطيا يجب ألا ينغمس فيه أصحاب المصانع ، ويؤمن بأنهم ينبغي ألا يتطلبوا من الدولة كثيرا وألا يعطوها في مقابل ذلك إلا القليل . كما أن مزايا التجمع الاقتصادي لم تكن مما يروق له : فغزالوا القطن في مانشستر لم يكونوا يرغبون في امتلاك مزارع في «الولايات الجنوبية» أو سفن لنقل المواد الخام إذ لم تظهر فائدة تجميع ما كان يعتبر أصتلا أنواعا من الصناعة مختلفة كل الاختلاف ألا في المراحل الأخيرة من النمو الصناعي ، كما حدث مثلا في موثقة الصلب في أمريكا ، واستطاعت ألمانيا التي بدأت متأخرة أن تفيد من تجارب الآخرين وأمكن عن طريق الشعور القومي توجيه دافع المنافسة إلى الخارج ، ضد الأجانب بينما يسر الولاء للدولة تحقيق مزايا التعاون في الداخل ، وهو ولاء من الطراز القديم الموجه أولا إلى شخص صاحب السيادة . كان من اليسير في ألمانيا أن يرتبط الولاء بالدولة لأن الدولة كانت لم تزال صاحبة السيادة ،

أما في إنجلترا أو أمريكا فقد جعلت الثورة والروح الجمهورية ذلك مستحيلا وكان هذا الدافع مهما بصفه خاصة في تسهيل انشاء بيروقراطية قادرة أمينة ، وما كان النمو الاقتصادي في ألمانيا ليتم بدونها بالصورة التي تم بها فعلا .

ولم تكن القومية الاقتصادية مذهبا جديدا . فقد كان هذا المبدأ مسلما به في القرن السابع عشر عدا ربه الأخير . وقد أبرز آدم سميث ، أول من تحدى هذا المبدأ ، تأنيبه بأن أطلق على كسابه « ثروة الامم » ألا أن آراءه وآراء الراديكاليين الفلسفيين التي جاءت بعدها أدت الى عالمية اقتصادية بلغت ذروتها في العقد السابق . ولسنا ننكر أن نظرة أنصار حرية التجارة المناهضة للقومية لم تحظ أبدا بانتشار واسع . فقد ظل اسكندر هاملتون معاصر آدم سميث ، على ولائه للنظرة القديمة ، وتسبب بكتابه « تقرير عن المصنوعات » في أن أتبع الجزء الاقتصادي من أمريكا صورة قومية في الشؤون الاقتصادية . وتشبع فردريك ليست ، الذي عاش في أمريكا من سنة ١٨٢٥ الى سنة ١٨٣٢ بمذهب هاملتون (١) ، وعلمه للامان في كتابه « النظام القومي في الاقتصاد السياسي » الذي نشر في سنة ١٨٤١ . وكان تيار آراء كيدن غويا جدا في ذلك الوقت ، حتى ليست نفسه لم يدع إلا الى حماية « الصناعات الوليدة » بينما كان يؤمن في نفس الوقت بحرية التجارة في النهاية . الا أنه عندما أوقع بسمارك الهزيمة بالنزعة الحرة ونصر القومية تذكر الناس ليست وتبين أنه كان قد ساق حججا نظرية تؤكد ما كان ألمان العقد الثامن يريدونه . ويرجع السبب فيما كان له من أهمية الى أنه كان ينظر الى الشؤون الاقتصادية من الناحية القومية .

ومن العجيب أن نلاحظ أن اليابان بدأت ، في نفس الوقت تقريبا تنطور تطورا مماثلا لهذا يجمع بين العسكرية والتصنيع والولاء للدولة والمهارة الفنية الصناعية الحديثة ، وحدث فيها تحول أسرع مما حدث في ألمانيا تدارل عادات الناس وطريقة تفكيرهم .

ويتمثل الفرق بين بروسيا والديمقراطيات الغربية في سياسة السكك الحديدية . فمبدأ ملكية الدولة للسكك الحديدية ، الذي كان في إنجلترا وفرنسا اجراء دعا اليه الاشتراكيون ، قد سار عليه بسمارك ونفذه بوصفه جزءا من السياسة المحافظة التي كان يسير عليها . فقد كان يريد أن تكون

(١) يقول ليست في كتابه « مجمل الاقتصاد السياسي الامريكى » ما ياتى :

١ - الاقتصاد القومي ٣ - اقتصاد « الجنس البشرى »
٢ - الاقتصاد القومي ٣ - اقتصاد « الجنس البشرى »
٣ - الاقتصاد القومي ٣ - اقتصاد « الجنس البشرى »
٤ - الاقتصاد القومي ٣ - اقتصاد « الجنس البشرى »
٥ - الاقتصاد القومي ٣ - اقتصاد « الجنس البشرى »
٦ - الاقتصاد القومي ٣ - اقتصاد « الجنس البشرى »
٧ - الاقتصاد القومي ٣ - اقتصاد « الجنس البشرى »
٨ - الاقتصاد القومي ٣ - اقتصاد « الجنس البشرى »
٩ - الاقتصاد القومي ٣ - اقتصاد « الجنس البشرى »
١٠ - الاقتصاد القومي ٣ - اقتصاد « الجنس البشرى »
١١ - الاقتصاد القومي ٣ - اقتصاد « الجنس البشرى »
١٢ - الاقتصاد القومي ٣ - اقتصاد « الجنس البشرى »
١٣ - الاقتصاد القومي ٣ - اقتصاد « الجنس البشرى »
١٤ - الاقتصاد القومي ٣ - اقتصاد « الجنس البشرى »
١٥ - الاقتصاد القومي ٣ - اقتصاد « الجنس البشرى »
١٦ - الاقتصاد القومي ٣ - اقتصاد « الجنس البشرى »
١٧ - الاقتصاد القومي ٣ - اقتصاد « الجنس البشرى »
١٨ - الاقتصاد القومي ٣ - اقتصاد « الجنس البشرى »
١٩ - الاقتصاد القومي ٣ - اقتصاد « الجنس البشرى »
٢٠ - الاقتصاد القومي ٣ - اقتصاد « الجنس البشرى »
٢١ - الاقتصاد القومي ٣ - اقتصاد « الجنس البشرى »
٢٢ - الاقتصاد القومي ٣ - اقتصاد « الجنس البشرى »
٢٣ - الاقتصاد القومي ٣ - اقتصاد « الجنس البشرى »
٢٤ - الاقتصاد القومي ٣ - اقتصاد « الجنس البشرى »
٢٥ - الاقتصاد القومي ٣ - اقتصاد « الجنس البشرى »
٢٦ - الاقتصاد القومي ٣ - اقتصاد « الجنس البشرى »
٢٧ - الاقتصاد القومي ٣ - اقتصاد « الجنس البشرى »
٢٨ - الاقتصاد القومي ٣ - اقتصاد « الجنس البشرى »
٢٩ - الاقتصاد القومي ٣ - اقتصاد « الجنس البشرى »
٣٠ - الاقتصاد القومي ٣ - اقتصاد « الجنس البشرى »
٣١ - الاقتصاد القومي ٣ - اقتصاد « الجنس البشرى »
٣٢ - الاقتصاد القومي ٣ - اقتصاد « الجنس البشرى »
٣٣ - الاقتصاد القومي ٣ - اقتصاد « الجنس البشرى »
٣٤ - الاقتصاد القومي ٣ - اقتصاد « الجنس البشرى »
٣٥ - الاقتصاد القومي ٣ - اقتصاد « الجنس البشرى »
٣٦ - الاقتصاد القومي ٣ - اقتصاد « الجنس البشرى »
٣٧ - الاقتصاد القومي ٣ - اقتصاد « الجنس البشرى »
٣٨ - الاقتصاد القومي ٣ - اقتصاد « الجنس البشرى »
٣٩ - الاقتصاد القومي ٣ - اقتصاد « الجنس البشرى »
٤٠ - الاقتصاد القومي ٣ - اقتصاد « الجنس البشرى »
٤١ - الاقتصاد القومي ٣ - اقتصاد « الجنس البشرى »
٤٢ - الاقتصاد القومي ٣ - اقتصاد « الجنس البشرى »
٤٣ - الاقتصاد القومي ٣ - اقتصاد « الجنس البشرى »
٤٤ - الاقتصاد القومي ٣ - اقتصاد « الجنس البشرى »
٤٥ - الاقتصاد القومي ٣ - اقتصاد « الجنس البشرى »
٤٦ - الاقتصاد القومي ٣ - اقتصاد « الجنس البشرى »
٤٧ - الاقتصاد القومي ٣ - اقتصاد « الجنس البشرى »
٤٨ - الاقتصاد القومي ٣ - اقتصاد « الجنس البشرى »
٤٩ - الاقتصاد القومي ٣ - اقتصاد « الجنس البشرى »
٥٠ - الاقتصاد القومي ٣ - اقتصاد « الجنس البشرى »
٥١ - الاقتصاد القومي ٣ - اقتصاد « الجنس البشرى »
٥٢ - الاقتصاد القومي ٣ - اقتصاد « الجنس البشرى »
٥٣ - الاقتصاد القومي ٣ - اقتصاد « الجنس البشرى »
٥٤ - الاقتصاد القومي ٣ - اقتصاد « الجنس البشرى »
٥٥ - الاقتصاد القومي ٣ - اقتصاد « الجنس البشرى »
٥٦ - الاقتصاد القومي ٣ - اقتصاد « الجنس البشرى »
٥٧ - الاقتصاد القومي ٣ - اقتصاد « الجنس البشرى »
٥٨ - الاقتصاد القومي ٣ - اقتصاد « الجنس البشرى »
٥٩ - الاقتصاد القومي ٣ - اقتصاد « الجنس البشرى »
٦٠ - الاقتصاد القومي ٣ - اقتصاد « الجنس البشرى »
٦١ - الاقتصاد القومي ٣ - اقتصاد « الجنس البشرى »
٦٢ - الاقتصاد القومي ٣ - اقتصاد « الجنس البشرى »
٦٣ - الاقتصاد القومي ٣ - اقتصاد « الجنس البشرى »
٦٤ - الاقتصاد القومي ٣ - اقتصاد « الجنس البشرى »
٦٥ - الاقتصاد القومي ٣ - اقتصاد « الجنس البشرى »
٦٦ - الاقتصاد القومي ٣ - اقتصاد « الجنس البشرى »
٦٧ - الاقتصاد القومي ٣ - اقتصاد « الجنس البشرى »
٦٨ - الاقتصاد القومي ٣ - اقتصاد « الجنس البشرى »
٦٩ - الاقتصاد القومي ٣ - اقتصاد « الجنس البشرى »
٧٠ - الاقتصاد القومي ٣ - اقتصاد « الجنس البشرى »
٧١ - الاقتصاد القومي ٣ - اقتصاد « الجنس البشرى »
٧٢ - الاقتصاد القومي ٣ - اقتصاد « الجنس البشرى »
٧٣ - الاقتصاد القومي ٣ - اقتصاد « الجنس البشرى »
٧٤ - الاقتصاد القومي ٣ - اقتصاد « الجنس البشرى »
٧٥ - الاقتصاد القومي ٣ - اقتصاد « الجنس البشرى »
٧٦ - الاقتصاد القومي ٣ - اقتصاد « الجنس البشرى »
٧٧ - الاقتصاد القومي ٣ - اقتصاد « الجنس البشرى »
٧٨ - الاقتصاد القومي ٣ - اقتصاد « الجنس البشرى »
٧٩ - الاقتصاد القومي ٣ - اقتصاد « الجنس البشرى »
٨٠ - الاقتصاد القومي ٣ - اقتصاد « الجنس البشرى »
٨١ - الاقتصاد القومي ٣ - اقتصاد « الجنس البشرى »
٨٢ - الاقتصاد القومي ٣ - اقتصاد « الجنس البشرى »
٨٣ - الاقتصاد القومي ٣ - اقتصاد « الجنس البشرى »
٨٤ - الاقتصاد القومي ٣ - اقتصاد « الجنس البشرى »
٨٥ - الاقتصاد القومي ٣ - اقتصاد « الجنس البشرى »
٨٦ - الاقتصاد القومي ٣ - اقتصاد « الجنس البشرى »
٨٧ - الاقتصاد القومي ٣ - اقتصاد « الجنس البشرى »
٨٨ - الاقتصاد القومي ٣ - اقتصاد « الجنس البشرى »
٨٩ - الاقتصاد القومي ٣ - اقتصاد « الجنس البشرى »
٩٠ - الاقتصاد القومي ٣ - اقتصاد « الجنس البشرى »
٩١ - الاقتصاد القومي ٣ - اقتصاد « الجنس البشرى »
٩٢ - الاقتصاد القومي ٣ - اقتصاد « الجنس البشرى »
٩٣ - الاقتصاد القومي ٣ - اقتصاد « الجنس البشرى »
٩٤ - الاقتصاد القومي ٣ - اقتصاد « الجنس البشرى »
٩٥ - الاقتصاد القومي ٣ - اقتصاد « الجنس البشرى »
٩٦ - الاقتصاد القومي ٣ - اقتصاد « الجنس البشرى »
٩٧ - الاقتصاد القومي ٣ - اقتصاد « الجنس البشرى »
٩٨ - الاقتصاد القومي ٣ - اقتصاد « الجنس البشرى »
٩٩ - الاقتصاد القومي ٣ - اقتصاد « الجنس البشرى »
١٠٠ - الاقتصاد القومي ٣ - اقتصاد « الجنس البشرى »

السكك الحديدية من أملاك الامبراطورية ولكن حب التملك بين الافراد حال دون ذلك الا في الالزاس واللورين حيث صارت السكك الحديدية من الاملاك الامبراطورية بمقتضى معاهدة الصلح : الا أنه استطاع أن يشتري السكك الحديدية في بروسيا لحساب ولاية بروسيا ، وقبل أن يتقاعد في سنة ١٨٩٠ لم يعد في بروسيا الا عدد قليل من الخطوط الخاصة ، واستمرت سياسة الملكية العامة بعد سقوطه في جميع الامبراطورية الالمانية لا في بروسيا وحدها ، فلم تحل سنة ١٩٠٩ كان في ألمانيا ٦٠٠٠٠ كيلو متر من خطوط السكك الحديدية لم يكن من بينها سوى ٣٦٠٠ تملكها جهات غير عامة عدا بعض الخطوط الضيقة المحلية . وكانت ادارتها تدعو الى الاعجاب ، وخفف الدخل المتحصل منها عبء الضرائب كثيرا . ووضعت تعريفات النقل بالسكك الحديدية بحيث تعمل على تشجيع التصدير . وكانت الدولة بطبيعة الحال متيقظة للاحتبارات العسكرية واستطاعت أن تنشئ ما كانت تتطلبه الضرورات الفنية الحديثة من سكك حديدية دون أن تضطر الى مناقشة الموضوع مع هيئات الموضوع من الرأسماليين غير الرسميين .

ورسمت بيروقراطية بسمارك الاشتراكية للوقاية من اشتراكية الماركسيين البرولتارية . وقد نجحت هذه السياسة أتم النجاح في حالة السكك الحديدية ويقول كلاهام في هذا :

ورسمت بيروقراطية بسمارك الاشتراكية للوقاية من اشتراكية الماركسيين البرولتارية . وقد نجحت هذه السياسة أتم النجاح في حالة السكك الحديدية ويقول كلاهام في هذا :

« يجب ألا يغيب عنا النظام العسكري الصارم الذي طبق على موظفي السكك الحديدية » . وقد كتب الماني في ذلك يقول : لم يكن البريد والسكك الحديدية الا قسمين من اقسام الجيش . وكان مديروهما في كثير من الاحيان من قواد الجيش ، على الاقل في بروسيا . وكانت هناك حقائق أخرى أكثر دلالة من ذلك في هاتين المصلحتين . كان ثلاثة أرباع مليون رجل يقفون وقفة انتباه عسكرية عندما يخاطبهم رؤسائهم « وتفسر هذه الحقائق بعض السبب في الطريقة الممتازة ودقة المواعيد اللتين تميزت بهما ادارة السكك الحديدية . وهذه الحقائق هي السبب أيضا في عدم قيام أمة حركة عمالية بين عمال السكك الحديدية تماثل الحركات التي كانت تنمو في فرنسا وانجلترا خلال السنوات الاولى من القرن العشرين . وقد تطلب الأمر حربا دامت أربع سنوات وانتهت بهزيمة وثورة سياسية قبل أن يضرب عمال السكك الحديدية (١) .

(١) كلاهام « النمو الاقتصادي لفرنسا وألمانيا » ص ٣٤٩ .

وقد نبذ بسمارك نظرية « حرية العمل والتجارة » في سياسته الجمركية كما نبذها في السكك الحديدية . فقد جرت بروسيا على سياسة حرية التجارة الحقيقية ، واحتفظ الاتحاد الجمركي (المزلفراين) بتعريفه منخفضة قبل سنة ١٨٦٦ حتى يستبعد النمسا التي كانت تعتبر التعريف المرتفعة أمرا لا مناص منه . وكانت الصفة الغالبة على ألمانيا انها بلد زراعي وطبيعي أن تكون ضد الحماية بوصفها بلدا مصدرا للمواد الغذائية . ولم يول بسمارك المسائل الاقتصادية شيئا من العناية الا بعد انشاء الامبراطورية ببضع سنوات ، وترك هذه المسائل لرلبروك الذي كان يدين بمبدأ حرية التجارة .

وسارت الامور على اذلالها خلال العامين الاولين . الا ان الازمة العالمية التي حدثت سنة ١٨٧٣ عزيت في كل مكان الى أسباب محلية ، كما يحدث دائما في الازمات . واعتقد الكثيرون في ألمانيا ان حرية التجارة هي سبب الازمة . وكان لرلبروك قد ألغى الضرائب الجمركية على الحديد في تلك السنة وقرر الغاء الضرائب على المصنوعات الحديدية ابتداء من سنة ١٨٧٧ . واخذت الشكاوى تتزايد خلال هذه الفترة حتى اذا كان عام ١٨٧٦ قرر بسمارك ان صحة لرلبروك لم تعد يمكنه من القيام بأعباء منصبه الثقيلة .

ولم يكن ارباب الصناعة وحدهم هم الذين يريدون الحماية . فقد كانت المنافسة الروسية قد بدأت تضر بزراع القمح في الشمال الشرقي وهم طبقة النبلاء الحديثين (البنكر) التي ينتمى اليها بسمارك نفسه واشد مؤيدي الملكية البروسية . وكانت الحكومة على استعداد لان تبدي ترعاهم رعاية خاصة وكان النتيجة ان تقرر تعريف جديدة في سنة ١٨٧٩ تمنح الزراعة والصناعة حماية معتدلة . ورفع بسمارك الضرائب بعد ذلك ثم خفضها كابيرفي بعض الشيء . ولكن الضرائب رفعت مرة اخرى في سنة ١٩٠٢ الى حد كبير باستثناء المواد الخام . وحتى عندئذ ظلت الحماية في ألمانيا اقل منها في أي دولة من الدول العظمى الاخرى باستثناء المملكة المتحدة .

لقد قدر في سنة ١٩٠٤ ان ما تفرضه ألمانيا من الضرائب على المصنوعات الهامة التي تصدر لها من المملكة المتحدة يعادل ٢٥٪ من قيمة هذه المصنوعات وكان الرقم المقابل له الذي يفرض على المصنوعات الايطالية هو ٢٧ والفرنسية ٣٤ والنمساوية ٣٥ وعلى مصنوعات الولايات المتحدة ٧٣ وعلى مصنوعات روسيا ١٣١ . وهذه الارقام تقريبية ولكنها توضح الى حد ما الشدة النسبية للتعريفات الجمركية . (١)

ونمت الصناعة الألمانية نموا سريعا مستمرا من سنة ١٨٧٩ الى سنة ١٩١٤ . وسواء كان سبب هذا النماء هو التعريف الجمركية او لم يكن ولنبدأ

بأكثرها أهمية وهي الحديد والصلب . لقد كانت هذه الصناعة تعتمد أساسا على الحديد الخام المستخرج من اللورين والفحم المستخرج من وستفاليا . وكان الحديد الخام قبل سنة ١٨٧٠ ملكا لفرنسا التي كان تتفوق على ألمانيا في إنتاج الحديد في العقد السابع . وما إن حلت سنة ١٨٧٥ حتى كانت ألمانيا تنتج مليوني طن من تماسيح (١) الحديد مقابل ما يقل قليلا عن مليون ونصف تنتجها فرنسا . ثم حدث كساد يرجع بعض سببه الى الازمة العالمية وبعضه الى أن الحديد الخام الألماني لا يلائم طريقة بسمر . وقد عولج هذا النقص باختراع طريقة توماس جيلكرست واستعمالها . وقد عاصر ذلك ظهور تعريفه سنة ١٨٧٩ الجديدة . ومن هذه اللحظة تضاعف انتاج الصلب الألماني تقريبا كل عشر سنوات حتى ارتفع من مليون ونصف مليون في سنة ١٨٨٠ الى ثلاثة عشر مليونا من الاطنان في سنة ١٩١٠ . فتفوق بذلك على انتاج المملكة المتحدة في سنة ١٩٠٠ . ومن ثم بلغت قيمة صادرات ألمانيا من الحديد والصلب والمنتجات الصناعية فنهما أكثر من ١٠.٠٠٠.٠٠٠ جنيه انجليزي في سنة ١٩١٣ ، وكانت الولايات المتحدة الأمريكية وحدها هي التي ظلت متفوقة على ألمانيا في انتاج الصلب والحديد في بداية الحرب (العالمية الاولى) .

واتجهت الصناعة في ألمانيا كما حدث في أمريكا نحو الاحتكار في اثناء غائها . ولم تقع في ألمانيا تلك الاحداث الغربية في المنافسة بين أقطاب الصناعة التي تميز بها تاريخ الولايات المتحدة الاقتصادية ، وقد ادى عدم الايمان بالمنافسة الحرة الى أن تم الاحتكار باتفاقات مناسبة لم تلق من الحكومة اى اعتراض كالذى لقينه من تيردور روز بالاتفاقات المائلة لها في أمريكا . فقد ضم اتحاد الصلب الألماني الذي تكون في سنة ١٩٠٤ كل صناعة الصلب فيها تقريبا . فلم تكن مصانع كروب مثلا الا احدى الشركات التي يتكون منها الاتحاد . بينما سيطرت نقابة فحم « الراين ووستفاليا على نصف انتاج الفحم في ألمانيا . وواضح ان قوة هاتين المنظمتين العملاقتين عندما تعاونتا تكاد تكون مستعصية على المقاومة وتكون في الصناعات الاخرى نوع من التجميع اقل تماسكا من الموثقات كما عرفت في أمريكا اسمه الاتحاد الصناعي « الكارتل » لم يكن يزيد في كثير من الاحيان عن اتفاق على أسعار البيع .

وكان للاتحاد في صورة موثقة او اتحاد صناعي مميزات بالاضافة الى تلك المميزات الاخرى التي يمكن الحصول عليها في الاقتصاد العادي من الانتاج الكبير . فكان المنتجون يستغلون التعريفه في رفع اسعارهم الى اقصى حد يتفق وهزيمة المنافسة الاجنبية وبيعون سلعهم في الخارج باسعار اقل من

(١) Pig iron ويطلق هذا الاسم على الحديد حين يخرج من افران اللفج مباشرة .
Blast furnaces قبل ان ينقى .
وهذان هما الاسمان اللذان يسمى بهما في الانجليزية والعربية .

غيرها • وهذا هو ما أصبح يسمى في إنجلترا « بالاغراق » • وكان الاغراق هو المبدأ الذى سارت عليه كل الاتحادات الصناعية التى لها تجسّارة • صادرات •

وكانت هناك ميزة اخرى فى المجال السياسى • مثال ذلك ان صناعة الصلب فى العالم تستفيد من نوبات الذعر التى تجتاحه • وقد فصح لا ينجت الداشنجا فى سنة ١٩٠٣ بكشفه عن الوسائل الفاسدة التى كانت الموثقات الكبرى تتبعها فى اثاره الشعوب المتنازعة الى التسلح بعضها ضد بعض • • وتستطيع التجمعات الضخمة ان تفعل ذلك بسهولة اكثر من عدة مؤسسات منفردة اقل منها شأنًا •

• وصناعة الاصباغ والكيمياويات ميدان تفوقت فيه المانيا على غيرها والسبب الاساسى فى ذلك ارتفاع مستوى التعليم عن غيره فى البلاد الاخرى وان كان لبعض الميزات الطبيعية الاخرى بعض الاثر فى هذا التفوق • ويتمثل العامل الاخير فيما يسميه كلابهام « لالكز الذى تفردت به المانيا، هو املاح البوتاسيوم الخام » التى لم تنتج منها فى سنة ١٨٦١ غير الفى طن ، والتى ارتفع انتاجها فى سنة ١٩١١ الى تسعة ملايين ونصف مليون • وانتجت المانيا من حامض الكبريت ، الذى يعتبر عنصرا مفيدا فى صناعة المخصبات خاصة • اكثر قليلا من مائه الف طن فى سنة ١٨٧٨ ، ثم ارتفع الانتاج الى اكثر من اثنى عشر ضعفا فى سنة ١٩٠٧ • وزاد المصدر من بضائع الصباغة • التى كانت تعتمد على صناعة الكيمياويات زيادة سريعة حتى بلغت فى سنة ١٩١٣ حوالى عشرة ملايين جنيه استرلينى •

وكانت الصناعات الكهربائية ، كما يقول كلابهام « اعظم عمل صناعى قائم بذاته حققته المانيا الحديثة • ففد كان العالم يواجه طائفة جديدة من المشاكل العلمية والاقتصادية • وقد تفوقت المانيا التى أصبحت امة صناعية كاملة الاستعداد على ما عداها من الدول فى علاج هذه المشاكل كما تفوقت أيضا فى كل فروع النخصص التطبيقى للكهرباء خلال السنوات الاولى من القرن الحالى • من افران كهربائية لمصانع الصلب وغيره من فروع الصناعات المعدنية والمعادن الاخرى الى كهربية السكك الحديدية وكهربية الات الزراعة بما فيها المحاريت • والطريقة الكهربائية لانتاج النيتروجين من الهواء (١) •

وكانت هذه الصناعة مثلا من امثلة التركيز ، فقد عقده من فترة المنافسة عدة اتفاقات خلال السنوات الاولى من القرن الحالى ، حتى لم يبق فى نهاية الامر سوى مجموعتين • سيمنز والجمين الكثريريتانس - جيزلشاخت • لم تعد بينهما اية منافسة •

وقد تمت في ألمانيا في عقد او حوالى عقد مراحل من النمو اقتضت قرنا في انجلترا واربعين سنة في امريكا . وقد رأينا كيف انتقلت القوة في امريكا من ايدي رجال الصناعة الى ايدي رجال المال . ولكن القوة في ألمانيا كانت في ايدي المصارف منذ بداية الصناعة الحديدية تقريبا . فقد كان في وسع رجال مثل كارنيجي وروكفلر ان يردوا اى مبالغ اقترضوها لان ارباحهم كانت هائلة . اما في ألمانيا حيث قنع رجال الصناعة بارباح اقل . فقد ظلوا عساة مدينين للمصارف وكانت قوة « الدوتشيس بانك » بصفة خاصة كبيرة جدا لا في ألمانيا وحدها بل حيثما تسربت الاموال الألمانية . وكان له فروع في معظم البلاد من الصين الى بيرو . وكان هو الذى مول سكك شمال المحيط الهادى في الولايات المتحدة حتى سنة ١٨٩٣ . والمسيطر على سكك تركيا الحديدية . وكانت له مصلحة مالية في مشروع سكة برلين . بغداد الحديدية . واكتسب المصرف على مر الايام نفوذا متزايدا في السياسة الألمانية . غير ان هذا النفوذ كان متبادلا . فقد كان استثمار المصرف الاموال في تركيا ذا اهمية للدبلوماسية الألمانية . وكانت الوطنية والشئون المالية تسيران في تناسق ووثام . وكان من الممكن تنمية مصالح المالىين بحيث لا تتعارض مع الولاء للدولة .

وازداد التوجيه الاقتصادى تركيزا بسبب نمو هيئات الاتحاد لصناعى وزيادة قوة المصارف الكبرى . وقد كتب فنصل النمسا في برلين يقول في تقرير رسمى بعث به سنة ١٩٠٦ يقول : « لم يحدث قط فيماضى ان سيطرت جماعة من الرجال يكاد يبلغ عددها خمسين رجلا على الاقتصاد الالمانى هذه السيطرة التامة ، ولم يحدث في فترة من فترات التوسع الصناعى الماضى ان نبذت القاعدة القديمة الخاصة بحرية القوى الاقتصادية الى الحد الذى بلغه الامر في سنة ١٩٠٦ عندما كانت القرارات الخطيرة الخاصة بمدى الانتاج والمبيعات فى الخارج والاسعار ومنح الائتمان وتكوين رؤوس الاموال الجديدة وتحديد الاجور واسعار الفائدة كلها مركزة فى ايدي اشخاص قلائل يتولون المناصب الرئيسية فى المصارف الكبرى والمشروعات الصناعية الجبارة والاتحادات الصناعية الضخمة وقد فازت هذه المصالح المتحدة الكبرى بنصيب الاسبغ من الرواج الصناعى وكانت ارباحها تزيد كلما زاد تركيز الصناعات التى تمثلها فى ايدي النقابات . (١)

ولم تكن عملية التركيز قد وصلت فى الوقت الذى كتب فيه هذا التقرير الى ما وصلت اليه فى سنة ١٩١٤ . وما تزال هذا التركيز مستمرا منذ ذلك الحين . ومالم يوقف سيرها العمل السياسى فليس ثمة سبب يمنع استمراره حتى تصبح كل القوة الاقتصادية فى ألمانيا مركزة فى يد شخص واحد . بل يقال

(١) ذكرت هذه اللقمة فى كتاب دوسون « تطور ألمانيا الحديثة » ص ١٧٠

ان هذه المرحلة قد تحققت فعلا وان الرجل الذي بيده هذه القوة هو « ثيسن »
وان هتلر ليس سوى بوق له (١) .

وان النمو الحديث للصناعة الكبيرة في المانيا خلال هذا القرن ليتناقض
تناقضها عجيبا ما كان باقيا في المانيا من الاتار الاقطاعية عندما تولى بسمارك
زمام الامور فيها . فقرر ظلت « الطوائف المهنية » باقية حتى سنة ١٨٤٨ عندما
حاولت الحركة الثورية ان تقضى عليها محاولة لم تدم طويلا لان الحركة
الرجعية اعادها في العام التالي مباشرة الى ما كانت عليه . وشاهد ذلك ما
ينص عليه قانون صدر في بروسيا سنة ١٨٤٩ وهو ان السلع التي ينتجها
الصناع المهرة لا يمكن بيعها الا في متاجر يمتلكها رؤساء في الحرفة الخاصة بها
وفي ميكنبرج « احتفظت مطاحن قضاء الاخطاط القديمة حتى سنة ١٨٤٩ بحق
طحن الغلال . وكانت مدن الدوقية تستطيع ان تطلب الى اصحاب الحسانات
الريفية الا يشتروا الجعة الا من امكنة لا تبعد عن قراهم اكثر من ميلين ، وان
تشتري الجعة التي تستعمل في حفلات التعميد والزواج والجنائزات من اقرب
مدينة بينما كان صنع البيرة بواسطة الافراد مما يمكن تحريمه بأمر
المدن (٢) .

وكان اكثر اجزاء المانيا تأخرا هو ذلك الجزء من بروسيا الذي يقع
شرق نهر الألب حيث كانت توجد مزارع طبقة كبار الملاك . وكان هؤلاء الكبار
اوسع الطبقات نفوذا . وعلى الرغم من ان رق الارض قد الغى فقد صعب
الغاءه في سنة ١٨١٠ « قانون الخدم » الذي لم يكن ينطبق على الخدم بالمعنى
المعروف فحسب . بل كان يطبق كذلك على كل العمال الذين يستخدمون بصفة
دائمة ويعيشون في املاك المخدم . وهذا القانون « يلزم العمال باطاعة مخدمها
الى حد لا يكاد يختلف عن الارغام الطليق . وقيد حق الغاء عقود الخدمة تقييدا
يصعب معه القول بأن هذا الحق موجود اصلا . وحرّم كذلك على العمال
صراحة بمقتضى قانون ٢٤ ابريل ١٨٥٤ ان يضربوا اضرابا جماعيا ايا كانت
الظروف . وكانت عقوبة المخالفة هي السجن . وقصارى القول انه على الرغم
من ان عبارة « رق الارض » لم تعد تستعمل فان الرق ظل في الواقع قائما في
روحه بل في أثره » (٣) وقد ظل هذا القانون ساريا في شرق بروسيا حتى
الحرب الكبرى .

وينص قانون صدر في سنة ١٨٥٤ وظل أيضا ساريا على أن الخدم

الذين تثبت عليهم تهمة المكابرة في العصيان *gesinde*
او التمرد على أوامر مخدمهم او المشرفين عليهم ، از الذين يرفضون العمل

(١) ارنست هنرى « هتلر فوق أوروبا » سنة ١٩٣٤

(٢) دوسون « بسمارك واشتراكية الدولة » ص ٨٨

(٣) دوسون « تطور المانيا الحديثة » ص ٢٨١

أو يتركون الخدمة دون مبرر قانوني • يعاقبون بغرامة لا تتجاوز ٥٠ تال (١٥ شلن) أو بالحبس مدة لا تزيد على ثلاثة أيام اذا تقدم مخدموهم يطلب عقابهم دون ان يكون في ذلك مساس بحق مخدموهم في طردهم أو الاختفاظ بهم • (١)

ويجب أن نذكر هنا أن القضاة الذين كانوا يحكمون في هذه القضايا كانوا هم المخدمين انفسهم أو اصدقاءهم •

وليس من المستغرب وهذه الظروف ان أصبح شرقي بروسيا الزراعي قليل السكان • فقد كان الرجال يرفضون العودة الى هذه الحالة الشبيهة بالعبودية بعد انتهاء مدة خدمتهم العسكرية ويتجهون الى العمل في الصناعة • واستمر النقص في الأيدي العاملة يزيد زيادة تندر الخضر وكانت الوسيلة الوحيدة لعلاج الهجرة الموسمية الضخمة لعمال من بولندا الروسية والنمساوية كانوا يعملون بعقود ويؤجرون مقابل عمل ١٢ ساعة في اليوم •

وقد ظل عدد سكان الريف في ألمانيا ثابتا تقريبا من سنة ١٨٤٩ الى سنة ١٩١٠ بينما زاد عدد سكان المدن الى اربعة امثاله • وفي سنة ١٨٧١ كان ثلث سكان الامبراطورية الألمانية أو اكثر قليلا من ثلثهم يعيشون في مدن عدد سكانها ٢٠٠٠ نسمة أو اكثر بينما زادت هذه النسبة الى ثلاثة اخصاس في سنة ١٩١٠ • ولم يقتصر الامر على أن المدن نمت • بل ان نمو المدن الكبرى كان اكثر من غيرها • كما أن هذه المدن الكبرى حدث فيها تغيير أسرع نحو طريقة حديثة في الحياة • ويمكن توضيح ذلك بالتغيير الذي حدث في معدل المواليد • ففي سنة ١٨٧٦ كان معدل المواليد في البلاد كلها ٤١٪ بينما كان في برلين اكبر من ذلك (٤٥٤٪) ولكنه انخفض في سنة ١٩٠٥ في ألمانيا كلها الى ٣٣٪ بينما بلغ في برلين ٢٤٦٪ فقط مقابل ٢٧٪ في لندن • (١) وقد ظل معدل المواليد في انخفاض سريع منذ سنة ١٩٠٤ في جميع انحاء ألمانيا •

وصحب تصنيع ألمانيا نمو في الاشتراكية والحركة النقابية • وكانت أول حركة استهوت الطبقة العامية بصورة واضحة هي التي تزعمها لاسال في العامين الاخيرين من حياته (من ٢٨٦٢ الى ١٨٦٤) وكان لاسال يهدف الى القضاء على الرأسماليين عن طريق التعاون في الانتاج • ورأى ان اول خطوة في سبيل ذلك هي منح حق الانتخاب لجميع الرجال • ودعا الى اتخاذ هذا الاجراء في مقابلات مع بسمارك الذي رأى فيه أداة يستخدمها ضد اعدائه الاحرار • وقال عنه « انه من أهم من عرفت من الرجال ومن اكثرهم ظرفا » وكان بين لاسال وبسمارك نوع من التجاذب المزاجي • ولم يكن

المستشار يعترض على منح حق الانتخاب للرجال من حيث المبدأ كما ثبت في سنة ١٨٩٧ كما انه لم يكن عديم العطف على اشتراكية لاسال التي تتسبب بعض الشيء بالارستقراطية . الا ان الحركة العمالية وقمت اكثر تحت تأثير ماركس بعد موت لاسال وظل تأثيره هذا يزداد باستمرار . وكانت النتيجة ان تأسس الحزب الاشتراكي الديموقراطي في سنة ١٨٦٩ تحت بينل ولايبخت الاكبر . ولم يشارك هذا الحزب في الحماسة الوطنية التي كانت سائدة في تلك الفترة . واقترح ممثلاه في الرايشتاغ سنة ١٨٧١ ضد ضم الالزاس واللورين الى ألمانيا . وكان للحزب في سنواته الخمس والعشرين الاولى صيغة ماركسية خالصة جعلته موضع هجوم مرير باعتباره ضد الله والوطن . ومع ذلك فقد استمر ينمو باطراد .

واستغل بسمارك محاولتين لاغتيال الامبراطور (لم يكن للاشتراكيين اية علاقة بهما) فاصدر في سنة ١٨٧٨ قانونا يجعل الاشتراكيين جريمة تعرض مرتكبها لعقوبات مختلفة . وظل هذا نافذا حتى سنة ١٨٩٠ . وحاول المستشار في نفس الوقت ان يرضى الاحرار بما اتخذ من اجراءات للتأمين من المرض والحوادث والتقدم في السن . وهي الاجراءات التي اتخذها لويد جورج نماذج اقام عليها قانون التأمين في انجلترا . وابتكر عدد من الاساتذة مذهبا اسمه « اشتراكية الدولة » اطلق عليه اغداؤه « اشتراكية الاساتذة » وكان الهدف الذي تتبغيه هذه النظرية هو الاخذ بما هو صالح في الاشتراكية ونبد ما هو غير صالح . وكان المفروض انها تمثل المبادئ التي يسير على هديها بسمارك . وكانت الاشياء غير الصالحة في الاشتراكية هي الحادها ونزعتها الجمهورية وعالميتها ورغبتها في حرمان الاغنياء من ارباحهم التي حصلوا عليها بطرق مشروعة ورغبتها في نقل القوة الى البرولتاريات . اما الصالح فيها فكان ان نشاط الدولة يمكن ان يساعد كثيرا على زيادة الكفاية القومية . وان الانسان يجب عليه . بصفة عامة . ان يكون رحيما بالاجراء الفقراء . وان الكثيرين في سوق الاوراق المالية . وخاصة اليهود ، يستعملون في المضاربة طرقا معوجة يجسّن وضع حد لها . وقد اسنمك المسيحيون الاشتراكيون هذه النفطة الاخيرة واكدوها محاولين ان يحولوا مناهضة الرأسمالية الى مناهضة السامية . وقد آتت كل هذه المذاهب ثمارها فيما بعد ولكنها ظلت عديمة القيمة الى حد ما في تلك الايام .

ولم يفلح بسمارك بتودده ولا بوعيده في ايقاف نمه الديموقراطية الاشتراكية . وينبغي ان نذكر ان اضطهاد الاشتراكية كان أميل الى الاعتدال . ذا قورن بما حدث بعد الحرب . فقد كان الحزب لا يزال يستطيع انتخاب أعضاء في الرايشتاغ ، وسمح له في سنة ١٨٨٠ . بأن يعقد مؤتمرا اتفق فيه على اقامة الشيوعية « بكل الوسائل » وليس كما كان الامر حتى ذلك الوقت . « بكل الوسائل المشروعة » ونال الديموقراطيون الاشتراكيون في انتخابات

الرايستناغ في سنة ١٨٩٠ قبل انتهاء العمل بالقانون الاستثنائي مباشرة
١٨٤٢٧٠٠٠ صوت . ودهاون وليم الثاني الذي كان يصطنع موقف الشخص
الذي يريد أن يبدأ عهداً جديداً في تطبيق القانون ، ولكن ثبت أن الملاينة
منها كمثل الشدة ، لم تفلح في الاضعاف بالاشتراكية . فكان رايسناغ
سنة ١٩١٢ ، الذي كان قائماً عند بدء الحرب العالمية الاولى يضم ١١٢ عضواً
من الديمقراطيين الاشتراكيين من مجموع الاعضاء البالغ عددهم ٣٩٧ .
نال الديمقراطيون الاشتراكيون في الانتخابات ٤٣٥٠٠٠٠ صوت ، أي
أكثر من ثلث مجموع الاصوات ، وكانت الزيادة في عدد الاصوات التي
نالوها منذ الانتخابات السابقة التي تمت في سنة ١٩٠٧ حوالي مليون
صوت . وكانت هذه احدى الحقائق التي أفرزتها الحكومة وجعلتها تفكر في
وجوب القيام بعمل حاسم .

ويتمثل النمو السريع ، الذي تميزت به فترة ما قبل الحرب بوضوح
في نمو الحركة النقابية . وكانت النقابات في ألمانيا مرتبطة بالسياسة
منذ البداية . فكان في البلاد نقابات ديمقراطية اشتراكية ونقابات احرار
ونقابات مسيحية . وكانت نقابات الديمقراطيه الاشتراكية هي وحدها
التي تعتبر في الواقع جزءاً من حركة عمالية حقيقية . وقد ظلت المنظمات
النقابية ضعيفة حتى بداية القرن الجديد . ففي سنة ١٨٩٥ لم يكن هناك
سوى ٢٦٩٠٠٠٠ نقابي من جميع الأنواع ، ولكن عددهم بلغ مليوناً في سنة
١٩٠٢ ومليونين في سنة ١٩٠٦ ، وثلاثة ملايين في سنة ١٩٠٩ أربعة
أحماسهم كانوا في اتحادات اشتراكية .

وعاصر نمو الحركة النقابية تغيير في صبغة الحزب الديمقراطي
الاشتراكي فقد كان الحزب في أول الامر ماركسياً متشديداً يتطلع الى القضاء
على النظام الرأسمالي عن طريق الثورة ، وينظر شذراً الى جهود الاصلاح
التي تبذلها النقابات الانجليزية . الا أن الرخاء العجيب الذي عم ألمانيا قد
نقذ الى الطبقات العاملة الى حد ما ، فارتفعت الاجور وبدأت الثورة بعيادة
الاحتمال ، هذا الى أنه كان من العسير الا يسير المرء لنجاح بلاده . وعمل
الذين أطلق عليهم « أنصار اعادة النظر » على تلطيف أكثر أجزاء برنامج
الحزب صلابه ، وكان أولهم « برنشتاين » قد عاش في انجلترا وتأثر
باعتدال الحركة النقابية العمالية فيها . وانقد دعاة اعادة النظر على الرغم
من معارضة بييل والرجال القدامى وأصبح الديمقراطيون الاشتراكيون من
جميع النواحي العملية حزبا للاصلاح التحرري لا أكثر الا أقل . ومع ذلك
فقد استمر القيصر وكبار الملاك بحكم العادة القديمة ترتعد فرائصهم لفكرة
استيلاء الاشتراكيين على مقاليد الامور .

ولم يكن نمو الاشتراكية الا مشكلة واحدة من المشاكل التي نشأت عن

نمو الصناعة • وكانت مشكلة الغذاء هي المشكلة الثانية • فقد كانت ألمانيا في سنة ١٨٧١ ما زالت تملك فائضا من الاغذية تصدره الى خارج البلاد ولكن الموقف انعكس حوالى سنة ١٨٧٤ بسبب زيادة عدد السكان ، وأن لم يبدأ هذا الموقف يكون خطيرا الا بعد سقوط بسمارك • فخفض خلفه كاييرفي الضرائب على الغلال وكانت هذه الضرائب قد زادت زيادة كبيرة منذ سنة ١٨٧٩ (فقد ارتفعت مثلا على الشعير والشيلم من ١٠ سلنات للطن الى ٣٠ سلن في سنة ١٨٥٥ والى ٥٠ سلنا في سنة ١٨٨٧) • ولم تؤد حماية المحصولات الزراعية الى نفور الصناع فحسب بل كان لابد لها أن تؤدي الى زيادة انتشار الديمقراطية الاشتراكية بسبب ارتفاع اثمان الغذاء •

غير أن سياسة كاييرفي قضت عليها تعريفه بولوف الجمركية التي سنت في سنة ١٩٠٢ وأعادت الضرائب السابقة بل زادت بها • وأصبحت ألمانيا بفضل هذه التعريف الجمركية وباستعمال أحسن الطرق العلمية في الزراعة أقرب الى الاكتفاء الذاتي في السنوات الأخيرة قبل الحرب منها في سنة ١٩٠٠ • ففي سنة ١١ - ١٩١٢ كان ثلث القمح المستهلك تقريبا مستوردا من الخارج ولكن الشيلم (هو أهم من القمح في ألمانيا) كان كافيا بل فاض منه القليل للتصدير • وكان الغرض الاساسي من التعريف ، الى جانب ارضاء طبقة كبار الملاك ذات النفوذ السياسي ، هو جعل ألمانيا قادرة على انتاج ما تحتاجه من غذاء في وقت الحرب • الا أنه ثبت عند وقوع الحرب ان اعتماد ألمانيا على المصادر الاجنبية في الغذاء كان أكبر مما ظن وخاصة في المواد الدهنية • ولم تكن المشكلة سهلة الحل • فالحماية المرتفعة كانت تؤدي الى الاشتراكية والاعتماد على المصادر الاجنبية كان يستلزم تحدي الاستطول الانجليزي اذا أريد كسب الحرب • وكان الحل الوسط الذي انتهى اليه رجال السياسة يتضمن بعض مساويء كل من الامرين •

وقد ظهر النمو الاقتصادي في ألمانيا من سنة ١٨٧١ الى سنة ١٩١٤ طاقة ومهارة جماعيتين لم يسبق لاية أمة أخرى أن أظهرتهما • فقد كان الالمان أحسن تعليما من الانجليز أو الفرنسيين أو الامريكيين ، وكان لديهم عدد أكبر من الخبراء على اختلاف أنواعهم • وكان لديهم التنظيم الذي جعل مهارة الخبراء في متناول اليد بسرعة في أي مكان أشتدت فيه الحاجة اليها أكثر من غيره • غير أنه كانت هناك عوامل أخرى جعلت هذا التقدم غير مستقر على الرغم من هذه المميزات التي تدعو الى الاعجاب والتي أدت الى هذا التقدم العظيم • ذلك أن التغيير المفاجيء في عادات الحياة - من الخضوع الزراعي في بروسيا الشرقية الى التحرر النسبي للصناعة الحديثة فيما يتعلق بحالة المجموعات الكبيرة من الاجراء ، ومن الفقر التقليدي المصحوب بالوقار الى الرفاهية المفاجئة المزعجة بين رجال الاعمال ، ومن الورع والتدين اللوثرى الى حريات برلين وراثها التي كان يتمتع بهسا عبدا لا

يحصى من الاسر كانت ذلك الوقت تعيش عيشة بسيطة - كل ذلك حدث بصورة أسرع وأشمل مما يستطاع معها هضمه وتمثيله . وكانت النتيجة الكثيرة الحدوث نشوة هستيرية وايماننا بالامكانيات اللانهائية للقوة من النوع الذى أودى بنا بليون . وكان أمام من بيدهم القوة شبجان : الاشتراكية والحاجة الى الغذاء من الخارج .

ولم يستطع النظام على الرغم من نجاحه أن يواصل هذا النجاح طويلا ، بل كان لابد من حدوث انفجار من نوع ما .

٤- السياسة الاستعمارية

الفصل الثانى والثلاثون

السياسة الاستعمارية

١ - تقسيم أفريقيا

رأينا ان ذلك النوع الجديد من التنظيم الاقتصادى الذى لم يكن موجودا ابان حرب نابليون الا فى شمالى انجلترا وعلى ضفاف نهر الكلايد قد امتد فى جميع أوروبا الغربية وأمريكا الشمالية ، وبلغ فى بلدين هما الولايات المتحدة وألمانيا ، مدى من النمو أكثر تقدما مما حققته بريطانيا العظمى على أن مدى توسعه لم يقتصر على تلك الاجزاء من العالم التى يسكنها الرجل الابيض بل انه امتد بسرعة الى كل آسيا وأفريقيا . وقد غير اتصاله بالمجتمعات المتخلفة فى النمو من سماته بعض الشيء . فقد احتاج الامر أولا الى المساعدة الحكومية حينما كان لغزو أولى ضرورية للرأسمالية يضاف الى هذا أن الشعوب الملونة وخاصة فى أفريقيا ، كان يمكن اخضاعها لاستغلال أكثر بشاعة من أسوأ استقلال كان من الممكن سياسيا أن يقوم فى البلاد التى يسكنها الجنس الابيض فقط . وقد أضفى الاقتصاد الحديث القائم على أصول الفن طابعا جديدا فى السياسة الاستعمارية كما أضفت هذه السياسة الاستعمارية نفسها على التصنيع لونا سياسيا جديدا .

وكان للسياسة الاستعمارية تاريخ طويل قبل أن يبدأ عهد التصنيع . وإذا أغفلنا الازمنة القديمة فاننا نجد أن أصلها فى العهود الحديثة يرجع الى كريستوفر كولومبس وفاسكو داجاما اللذين وجها جهود إسبانيا والبرتغال أولهما الى الغرب وثانيهما الى جزائر الهند الشرقية . وجذب جبل المغامرة وبريق الذهب المكتشفين والافاقين الى بلاد الاتكا وبلاط امبراطور المقول العظيم . غير أن احتكار الاراضى الجديدة الذى منحه البابا لاسبانيا والبرتغال لم يلق من الانجليز أو الفرنسيين أو الهولنديين احتراما ، فاستحوذ هؤلاء جميعا على امبراطوريات شاسعة . وكانت نتيجة الحروب الكثيرة التى تفوق الانجليز فى الشرق بينما لم تعد القارة الامريكية ميدانا للاستعمار بعد سنة ١٨٢٤ . وكان البريطانيون منذ ذلك الوقت حتى سنة ١٨٨٠ هم الامة الوحيدة التى تملك امبراطورية واسعة بعيدة . غير أنهم فقدوا اهتمامهم بحياسة المستعمرات تحت تأثير مذهب حرية التجارة . فقد كان بنتام كما رأينا يرى أن المستعمرات عبئا يتطلب نفقات لا فائدة منها ، وصارت وجهة نظره مع الوقت هى وجهة نظر الحكومة . وفى سنة ١٨٥٠ ، عندما ضمت مستعمرة نهر الاورانج الى ممتلكات بريطانيا الح المجلس الخاص فى الا

تضاف في المستقبل أية أملاك جديدة سواء دائمة أو مؤقتة مهما صغرَتْ .
مساحتها الى الممتلكات البريطانية الحالية في القارة الإفريقية . » وظلت
السياسة العامة للحكومة البريطانية معارضة للتوسع في الامبراطورية حتى
سنة ١٨٨٦ ، ولكن الهيئات الحاكمة كانت تضطر للتراجع بحكم الظروف المرة
نلو المرة .

وجدثت أولى علامات التحول اذ بان حكم دزرائيلي الذي دام من سنة ١٨٧٤
الى سنة ١٨٨٠ . فقد كان دزرائيلي يحب الشرق وتهمه أبهية امبراطوريتنا
الهندية وبهاثها . وقبلت منه الملكة فيكتوريا بكل سرور لقب امبراطورة الهند
وكان الشرق الادنى (وخاصة البلاد التي تجاور فلسطين) يفتنه دائما : فأيد
تركيا في مؤتمر برلين سنة ١٨٧٨ وسره ان كان له رأى في شئون مصر .
وقد أبدى مهارة كبيرة في ربط السياسة بالسئون المالية . فعندما عجزت
تركيا عن دفع ارباح الاسهم لحاملها من البريطانيين ، استأجر قبرص من
الباب العالي مقابل جزية سنوية ، ولكنه دفع الجزية بالنيابة عن السلطان الى
دائنيه البريطانيين مباشرة . وعندما اضطر الخديوى بسبب اسرافه الى بيع
أسهمه في شركة قناة السويس اشترها منه دزرائيلي لحساب الحكومة
البريطانية . وثار غلاستون متحمسا للقيم الخلقية ضد نايب دزرائيلي «للاتراك
الذين تجل فظائهم عن الوصف » والذين روعت قسوتهم جيله أكثر مما تروع
جيلنا الذي شرب كأسه من الاهوال حتى التمهالة . ومع ذلك فعندما صار
غلاستون رئيسا للوزراء وجد نفسه مضطرا للاستمرار ، بل والاستزادة ،
في سياسة سلفه وخاصة فيما يتعلق بمصر .

وكان هناك عاملان دفعا حكومة غلاستون لاحتلال مصر في سنة ١٨٨٢ :
قناة السويس وحملة الاسهم والسبندات المصرية . وكان كلاهما تهدده في
تلك السنة ثورة وطنية أخذها البريطانيون لصالحه الخديوى . واضطرتهم هذه
المصالح ، أو هكذا يظنون ، الى البقاء في البلاد ليعلموا الخديوى كيف يحكمها .
وليس هناك من ينكر ان الحكومة صارت تحت نفوذ البريطانيين أفضل مما
كانت من قبل . ويمكن أن يقال نفس الشيء عن احتلال الفرنسيين للجزائر
سنة ١٨٣٠ وتونس سنة ١٨٨١ ، وتبدو السياسة الاستعمارية في هذه
الحالات في خير اثوابها . فقد كان أثرها حسينا بصفة عامة (١) على الرغم من
الدوافع الربيبية التي حركتها .

١ - هذه وجهة نظر المفكر انجليزى متحجر ، وحتى لو كان هذا صحيحا فان ما قد عسى ان
يكون المستعمرون قد قاموا به من اصلاحات انما قاموا به لمصلحتهم قبل كل شيء ولا يمكن ان
يعوض البلاد المستعمرة عن حريتها واستقلالها . وأكبر شاهد على هذا ما حدث في مصر في
عهد الحكم الوطنى من تقدم رائع وما نشاهده من وحشية الاستعمار في الجزائر .

ودخلت الدول الغربية منذ سنة ١٨٨٤ وما بعدها فيما كان يعرف باسم « السباق لاحتلال إفريقيا » وأصبح من المبادئ المعترف بها في اللغة الدبلوماسية ان أى كسب اقليمي لأحدى دولتين متنافستين يجب أن يقابله كسب اقليمي مساو له للدولة الأخرى ، وكانت النتيجة انه أصبحت إفريقيا كلها قبل سنة ١٩٢١ مقسمة بين الدول الغربية باستثناء دولة ليبيريا التي يسكنها الزوج ومملكة الحبشة المسيحية - الأولى لأنها كانت صغيرة وتهم الولايات المتحدة ، والثانية لأنها أنزلت بالإيطاليين هزيمة نكراء . وقد تم تقسيم إفريقيا بالطرق الدبلوماسية ولكنه لم يتم دون أن يفرس فى نفوس الدول المستعمرة أفعادا مريرة كانت من أسباب الحرب العظمى الأولى .

٢ - الكنفو

لما كانت نجارة الرقيق قد قضى عليها وتحرر العبيد ، فقد كانت أسهل طريقة لاستغلال الأعمال المتود هي احتلال البلاد التي يعيشون فيها . وكان من محاسن الصدق أن هذه البلاد تحتوى مواد أولية ثمينة . ولم يكن الجشع إلا دافعا واحدا فقط من الدوافع التي أدت الى استعمار أفريقيا وان كان هو أهدها كلها ، ولكن هنالك حالة واحدة يبدو ان الجشع كان فيها هو الدافع الأوحد وهي دولة الكونغو « الحرة » لقد كان بعض الراديكاليين الفلسفيين يعتقدون ان المصلحة الشخصية المادية اذا فهمت على حقيقتها تصبح دافعا دائما للمنشاط المفيد . ان مثل الكونغو يهوى لنا فرصة لاختبار هذه النظرية .

والكونغو نهر ضخمة يجرى فى منطقة تقرب مساحتها من مساحة أوروبا كلها باستثناء روسيا ويشق طريقه فى غابات مظلمة ويمر فى أقاليم يكاد سكانها يتكونون كلهم من الهمج . وعلى الرغم من أن مصبه كان معروفا منذ زمن طويل فان منابعه العليا لم تكتشف إلا فى سنة ١٨٧١ على يدى دكتور ليفنجستون الرجل النقى ، الذى جمع قدرا متساويا من حب المغامرة والرغبة فى نشر الدين المبتدع بين أهل إفريقيا . وكان ستانلى الذى عثر عليه فى يوجيى على بحيرة تنجانيقا أقل اهتماما بالانجيل منه ببعض النواحي الأخرى من الحضارة المسيحية . وقد قام بأول رحلاته لحساب جريدة نيويورك هيرالد ، وكانت رحلاته التالية (التى تم فيها اكتشاف مجرى الكونغو كله وبعض روافده) على نفقة ليوبولد ملك البلجيكيين ولمصلحته ، وكان ستانلى يتحدث عنه دائما بأحسن عبارات الاطراء .

وكان الملك ليوبولد بن ليوبولد خال الملكة فكتوريا ، وكانت هى تقدر نصحه فى أوائل حكمها . وكان الى جانب ذلك ، كما يقول سير هـ هـ جونسون ، حفيد لوى فيليب وزوج أرشيدوف نمساوية ومن مؤيدى الكنيسة الكاثوليكية

المخلصين ومن كبار الاغنياء ، وكان من العاملين على تقدم البحوث العلمية وخاصة في افريقيا ، ومن مناصري البعثات التبشيرية . وقرر مؤتمر برلين الذي عقد في سنة ١٨٨٤ للنظر في تقسيم افريقيا أن يهدى الى هذا الملك الواسع الافق شخصيا يحكم اقليم يمتد حوالى مليون ميل مربع ويضم الجزء الاكبر من حوض الكونجو . لقد كان ليوبولد موضع احترام الدبلوماسيين وتمجيد الرحالة ، وكان الناس بصفة عامة يعتقدون انه نموذج الرجل الانساني في معاملة الزنوج . وقد أعلن في بيان له في سنة ١٩٠٦ عندما تبرع بمبلغ ١٢,٠٠٠ جنيه انجليزى للبحوث العلمية في مرض النوم .

« اذا حقق الله أملى (الانتصار على مرض النوم) فاني سأكون قادرا على أن أقف أمام عرشه في يوم الدينونة متصنعا بانى قد قمت بأجل عمل في القرن الحالى ، وسيدعو الله عسدد لا يحصى من الآدميين الذين أنقذتهم بأن يشملنى برحمته » (١)

ولما استولى الملك ليوبولد على الكونجو أعلن ان غرضه انساني بحت . وأوضح ستانلى الذى كان يقوم له بحملة دعاية في انجلترا ، الى أى حد كان الملك ليوبولد يحب الرجل الأسود . وانه يخشى أن يكون الشعب الانجليزى عاجزا عن « أن يقدر حق قدرها تلك العاطفة الحية المتوقدة الشاملة التى تهدف الى العمل على امتداد نفوذ المدنية فى المناطق المظلمة من افريقيا الحزينة ، لأن هذه العاطفة ليست مرتبطة بأى ربح مادى » . وعندما طلب الملك ليوبولد مساعدة ولى عهد انجلترا (ادوارد الثالث) فى سنة ١٨٧٦ فى عقد مؤتمر للنظر فى اسنقرار بعض الأوربيين فى المناطق التى يتم ارتيادها من افريقيا وتشجيع هذا الارتياح بقصد نشر المدنية « تردد الأمير والتبس عليه الأمر عندما أكد له ان الدافع الوحيد هو حب «الانسانية» ، وكتب الى سير جارتل فرير يقول :

« ان المشكلة هى : هل يهتم الجمهور الذى يمثل المال بالأمر اهتمامه هو ؟ ان حب «الانسانية شىء جميل ، غير انها اذا لم تكن لها نتائج فانه لن يجد عند الجمهور الانجليزى ما يستحقه من خطورة » (٢)

وأيا كان الأمر فان تأكيد الملك ليوبولد للنزعة الانسانية لمشروعه قد جاء بالعرض المقصود منه . فلم تبدو الدول الأخرى الا قليلا من الحماسة لمشروع يتطلب نفقات بلا أمل فى جزاء مادى . وعندما عرض ليوبولد أن يتحمل النفقات بنفسه سمحوا له بأن يحمل العبء (كما اعتقدوا) بشرط أن يحافظ على حرية الدين وحرية التجارة وحرية الصحافة وما إليها .

١ - اوردها ٥٠٤ د ، موريل فى « المطاط الاحمر » ص ١٥١
٢ - سيدنى لى « الملك ادوارد السابع » (١) ص ٦٢٩

وما أن كسب الملك الانساني استبحسان العالم بقضائه على تجار الرقيق العرب ، حتى شرع يعمل في تنظيم حكومة في أملاكه . ولما كان من مؤيدي أحدث النظريات في هذا الميدان فقد أنشأ نظاما من اشتراكية الدولة يعد إشمول وأكمل نظام من نوعه عرفه العالم ، ويبدو انه كان متفقاً مع الرأى الحديث الذى يذهب اليه الكثيرون من ان الاشتراكية ينبغي ألا تتضمن شيئاً من هراء الديموقراطية . فأصدر قرارات بأن كل الأرض وكل المطاط وكل العاج ملك للدولة - التى كانت هو نفسه - وحرم على الأهلى أن يبيعوا المطاط والعاج للتجار الأوروبين كما حرم على الأوروبين أن يشتروا منهم شيئاً من هذا أو ذاك . ثم أرسل منشورا دورياً لموظفيه يذكر فيه أنهم « يجب ألا يتركوا وسيلة لاستغلال منتجات الغابات » وانهم سينالون عن كل ما يجمعونه من مطاط وعاج مكافأة تزيد قيمتها إذا كانت نفقات جمعه صغيرة . وتصغر عندما تكون نفقات جمعه كبيرة . فاذا كانت نفقات الجمع مثلاً ثلاثين سنتيماً أو أقل للكيلو منح الموظف خمسة عشر سنتيماً عن الكيلو ، أما إذا زادت النفقات عن سبعين سنتيماً للكيلو فانه لا يمنح غير أربعة سنتيماً لا أكثر . وجاءت النتائج المالية محققة لكل آماله وقد خصصت أجزاء من الكونجو يستغلها الملك مباشرة وأجزاء أخرى تستغلها شركات كان له فيها نصيب كبير من الأسهم . ونضرب مثلاً موثقة أنفوس التى كانت تستغل منطقة تقع الى الشمال من النهر : بلغ رأس المال المدفوع ١٠٠.٠٠٠ جك وبلغ صافى أرباحها فى سبت سنوات ٣٧٠.٠٠٠ جك ، وربحت شركة أخرى فى أربع سنوات ٧٣١.٦٨٠ جك عن رأس مال مدفوع قدره ٤٠.٢٠٠ جك وكانت القيمة الأصلية للأسهم التى كان الملك يملك نصفها ، ٢٥٠ فرنكا للسهم ، ولكن قيمتها ارتفعت فى سنة ١٩٠٦ الى ١.٦٠٠ فرنك للسهم أما أرباح المناطق المشاسعة التى كانت أملاكاً خاصة للملك فان معرفتها كانت أكثر صعوبة من هذا ، ولكن الاستاذ كاتيه يقدرها بمبلغ ٣٠٠.٠٠٠ جك فى السنة (١)

وكانت الطريقة التى جمعت بها هذه الأرباح الضخمة بسيطة : كانت السلطات تأمر كل قرية بأن تجمع قدراً معيناً من المطاط ، بقدر ما كان رجال القرية يستطيعون جمعه والمجىء به إذا أهملوا كل عمل آخر يحصلون به على أقاتهم . فاذا لم يجمعوا الكمية المطلوبة أخذت نساؤهم رهائن وجمعن فى ساحات مسورة أو ضمنن الى حريم الموظفين الحكوميين . وإذا لم تنجح هذه الوسيلة أرسلت الى القرية جماعة من الجنود الوطنيين ، كثيرون منهم من أكلى لحوم البشر ، لنشر الرعب بين الأهلى ولو اقتضى الأمر قتل بعض الرجال ، إلا أنهم كانوا يؤمرون ، لمنع الأسراف فى الطلقات النارية ، أن يأتوا معهم بيد آدمية يعنى عن كل رصاصة يطلقونها . فاذا أخطأ أحدهم الهدف أو يستعمل

الطائقت في صيد الوحوش كان يقطع اليد اليمنى لرجل حتى ليجمع بذلك العدد المطلوب منه . وكانت النتيجة ، بناء على تقرير سبير هـ هـ . جونستون الذى أيدته كل المصادر المحايدة الأخرى ، أن انخفاض عدد السكان فى خلال خمسة عشر عاما من حوالى ٢٠ مليون نسمة الى تسعة ملايين (١) ولسنا ننكر أن مرض النوم كان له نصيب فى هذا الانخفاض ، إذ أن انتشار هذا المرض قد ساعده كثيرا ما اتبعه الملك ليوبولد من نقل الرهائن من بحصى حدود ممتلكاته الى أقصاها من إتاحة الأخرى .

وأتخذت احتياطات ضخمة للمحافظة على سرية القتل المنظم بالجملة الذى كان وسيلة الملك الرأسمالى فى حصوله على مكاسبه . فكان الموظفون والمحاکم يتلقون منه المال وهم فى نفس الوقت تحت رحمته . ومنع التجار الأفراد من دخول البلاد وضمن سكوت البعثات التبشيرية الكاثوليكية لورعه الكاثوليكي . وعمل على أفساد بلجيكا بطريقة منظمة . وكانت الحكومة البلجيكية شريكة له فى جرائمه الى حد كبير . وكان الرجال الذين يهددون بإعلان الحقيقة يمتدرون بالمال ، وإذا تبين انهم غير قابلين للرشوة كانوا يخنفون بطريقه غامضة . وكان الأشخاص الوحيدون فى الكنجو الذين لم يستطع تكميم أفواههم هم المبشرين البروتستانت الذين كن معظمهم يظنون أن الملك يجهل الأعمال التى تتم باسمه وكان طبيعيا منهم أن يعتقدوا ذلك . ونضرب مثالا واحدا من عدة أمثال : كتب جوزيف كلارك أحد المبشرين الأمريكين فى ٢٥ من مارس سنة ١٨٩٦ يقول :

« ان تجارة المطاط عارفة فى الدماء ، ولو أن الأهالى ثاروا وقتلوا كل رجل أبيض فى أغالى الكنجو لما استوفوا الا جزءا قليلا من حقهم ولبقى لهم منه الشيء الكثير . البس من الممكن أن يفوم أحد الأمريكين من ذوى النفوذ بمقابلة ملك البلجيكين وإطلاعه على ما يرتكب باسمه ؟ ان البحيرة محجوزة للملك لا يسمح للتجار بدخولها . وقد قتل مئات من الرجال والنساء والأطفال لجمع المطاط له » (١)

ولكن من السهل أن يعتقد المرء أن المبشرين كانوا يبالبون ، أو ان هذه الحوادث كانت مجرد تصرفات فردية يقوم بها موظفون فسدت فلوهم بسبب الحمى والوحدة . فقد كان يبدو من غير المعقول أن يكون هذا النظام كله انما وضعه الملك للحصول على مكاسب مالمة . ونعل الحقيقة كانت تظل خافية أمدا طويلا لولا رجل واحد - أ . د . موريل . يقول سبير هـ هـ جونستون وهو رجل من بناتة الامبراطورية عاقل يعرف افريقيا معرفة وثيقة ، وكان

١ - سبير هـ هـ . جونستون « استعمار افريقيا » فى سلسلة كيه بروج التاريخية ص ٣٥٢
١ - موريل - نفس المرجع - ص ٥٤

أصلا أحد المؤمنين بالملك ليوبولد ، يقول هذا الرجل بعهد أن وصف كيف استعمل الملك نفوذه في خنق النقد في العالم المتمدين كله ، ما يأتي :

« ان فليلا من الروايات تبدو خيالية - وستبدو خيالية أكثر للأجيال القادمة - من القصة التي تروى كيف انتصر على هذا العملاق داوود في شخص كاتب سفن فقير يعمل في مكاتب شركة لفربول للسفن التي كانت من بين شركاء الملك ليوبولد .

فقد أرسل هذا الكاتب ، واسمه أ . د . موريل ، إلى أنتويرب وبلجيكا بصفة عامة لأنه كان يتكلم الفرنسية ومن ثم كان يستطيع أن يدبر كل تفاصيل أجور السفر وسهون المسافرين وشحن البضائع والمنتجات مع موظفي دولة الكونجو . وعرف خلال عمله بعض الوقائع البشعة التي تتعلق بسوء إدارة الكونجو ، فوجه نظر مخدميه إلى هذه الوقائع وإلى ضرورة التحقق منها . وكانت النتيجة أن فصل .

وتشرع يعمل ، وهو لا يكاد يملك ما يما ، بالقلم والفرطاس ليطلع العالم عن طريق الصحافة البريطانية والناشرين البريطانيين على الحالة القائمة في الكونجو (١) .

اشتبك موريل من تلك اللحظة حتى وفاته في معركة دائمة - أولا ضد القسوة والظلم السائدين الكونجو ، ثم ضد الدبلوماسية السرية في مراكش ، ثم ضد النظرة المتحيزة لأصل الحرب ، وأخيرا ضد مظالم معاهدة فرساي . وحالفه الفوز في معركته الأولى بعهد صعاب لا يتصورها العقل وأكسبته الاحترام العام وأدت به إلى معركته الثانية ، وهي المعركة الأكبر التي طالب فيها بمعاملة ألمانيا معاملة عادلة ، إلى السجن والنشيع عليه ، والمرض والموت ولم يصب فيها نجاحا إلا ما كان يناله من تشجيع الذين أحبهوا لنحمسه لقضايا لا مصلحة له فيها . ولم أعرف قط رجلا آخر أوتي ما أوتي موريل من بطولة وبساطة في تحرى الحقائق السياسية وإعلانها .

وكانت الصعاب التي لقيها موريل في إثارة الرأي العام لقضية الإصلاح في الكونجو من النوع الذي لا يطيقه من الناس إلا القليل . ذلك أن الفرنسيين وقد راعتهم ضخامة أرباح ليوبولد أنشأوا نظاما مشابها كل الشبه لنظامه في الكونجو الفرنسي وحصلوا منه على النتائج عبتها . ومن ثم لم يكونوا بأى حال من الأحوال يريدون أن يطنع العالم على النتائج الحميمة لوسائله الاقتصادية . كما ان وزارة الخارجية البريطانية لم تكن تريد أن تقتنع بأقواله لحاجتها إلى صداقة بلجيكا وفرنسا لأسباب سياسية عليا ، بل أنها عملت على

اخفاء التقارير الفصليّة التي تؤدي الى تأييد اتهامات موريل والمبشرين . وقالت الكنيسة الكاثوليكية - بناء على أوامر الفاتيكان كما يقول موريل - أن الدعوة الى الاصلاح ليست كلها سوى هجوم مقنع على الكتلّة الرومانية يقوم به المبشرون البروتستانت ، إلا أن هذا الدفاع لم يصمد طويلا أمام الأدلة الدامغة فتخلت الكنيسة عن ليوبولد ولم يتورع عملاؤه بطبيعة الحال عن اللجوء الى أية وسيلة للتشهير بدعاة الاصلاح واتهامهم بأن لهم دوافع دينية .

ومع ذلك فقد نجح موريل وجماعة اصلاح الكونجو في إثارة الرأى العام ، في انجلترا أولا ثم في العالم المتمددين كله بعدئذ . واضطرت الحكومة البريطانية الى الاعتراف بأن قنصلها أيدوا الاتهامات وخاصة كيزمنت (الذى شتم ابان الحرب) . وأراد الملك أن يؤكد دعواه بأن الفظائع التي ارتكبت كانت ضد رغبته فاضطر لتعيين لجنة من ثلاثة من رجال القانون النزيبين لتحقيق هذه اتّهم ، وعلى الرغم من أنه لم ينشر سوى جزء من تقريرهم ، فقد أيد ما سمح بظهوره صحّة هذه التهم . وأخيرا استعملت أوروبا فى سنة ١٩٠٨ السلطة التي حولها اياها مؤتمر برلين فحرمت الملك نفسه من ملكية الكونجو وعهدت به الى بلجيكا . واتفق على وجوب نظام الاستغلال الذى أقامه الملك . وكان زملاء الملك ليوبولد من الملوك قد أصبحوا وقتئذ يتجنبونه بسبب قسوته نحو الزنوج وعطفه على فتيات الباليه .

وقد تمكن الضمير الانسانى من التقلب على الملك ليوبولد لأنه لم يكن على أية حال سوى حاكم صغير . ولكن إستشارة العالم على فرنسا فى هذا الموضوع لم تجد فتىلا . ولهذا ظلت الفظائع تقع على نطاق واسع وأكبر ، بل انهىها لا تزال تقع فى الكنفو الفرنسية كلها باستثناء المناطق الساحلية التي لم يكن من السهل ابعاد المسافرين عنها . ولا يزال ضباب كثيف لا يمكن النفاذ فيه يلف الغابة القائمة فى وسط الكونجو وأعاليه ويحجبها عن انظار الناس حتى الآن (١)

٣ - مستعمرة أفريقية الجنوبية الغربية الألمانية

جاء اشتراك الحكومة الألمانية فى السباق لاستعمار افريقيا متأخرا . ولم تكن راضية عنه . فقد كان مجال اهتمام بسمارك منصرفا الى أوروبا . ولم يكن راعبا فى التورط فى مغامرات فى مناطق نائية ، وكان يتفق مع فردريك الأكبر فى الاعتقاد بأن « جميع الممتلكات للنائية عبء ثقيل على الدولة . وإن قرية على الحدود تساوى أكثر من مقاطعة على بعد مائتين وخمسين كيلو مترا منه » . وقد جعلته نزعته المحافظة بطيء فى ادراك أهمية الحركات الجسديّة وتفهم ضرورتها . فهو قد بدأ حياته الرسمية بنظرة كبار الملوك البروسيين الضيقة

الاصطفائية ، غير أنه اضطر شيئا فشيئا الى أن يضم الى اهتمامه بروسيا ، أولا بقية ألمانيا ثم التصنيع ثم المستعمرات ، وكانت تسيطر على حياته السياسية رغبتان : الأولى أن تصبح روسيا دولة كبرى ، والثانية تضم كبار الملاك والفلاحين والحقول والأشجار . واضطر شيئا فشيئا الى التضحية بالرغبة الثانية في سبيل تحقيق الأولى .

وكان في ألمانيا حزب استعماري نشط منذ العقد الخامس عندما فوجيء جريفيل بالألمان يتحدثون عن الحاجة الى المستعمرات والأسطول . وظل هذا الحزب يقوم بدعاية مستمرة يؤيده التجار والمبشرون . كما أيده ليست وبعد ذلك ترينشك . الا أن بسمارك كان وقتئذ مشغولا بتدعيم ألمانيا وتوسيع رقعتها في أوروبا . وكان نجاحه في هذه المهمة التي اختطها لنفسه من أكبر الأسباب التي دفعت الدول الأخرى الى أقاليم نائية تبسط فيها سلطانها وتعلي مكانتها . وكانت المغامرات الاستعمارية التي تقوم بها الدول الأخرى تسره وتشرح صدره لأنها كانت تطلق يده في أوروبا ، كما أنها كانت مصدر نزاع دولي يستطيع استغلاله . الا أنه أدرك شيئا فشيئا ان سياسة القسوة يمكن ممارستها على نطاق أوسع من أوروبا وان حكمة فردريك الأكبر لم تعد صالحة في عهد الصناعة .

وفي سنة ١٨٧٩ نشر رحالة اسمه أرنست فون ويبر مقالا بحث فيه ألمانيا على الاستيلاء على خليج دلاجوا من البرتغال وملء ألترنسفال بالألمان وأنشاء امبراطورية ألمانية بالتدريج تمتد الى نهر الزمبيزي . وكانت هذه الخطة تلقى تأييدا كبيرا رغم عدم اهتمام الحكومة بها وكان ترينشك قد كتب في السنة السابقة يقول :

« لا شك في أن الظروف في جنوبي افريقيا مواتية لنا . فالسياسة الاستعمارية الانجليزية التي صادفت نجاحا في كل مكان لم تنجح في رأس الرجاء الصالح . فالحضارة الموجودة هناك حاليا حضارة تبتونية لانها هولندية ، واذا أوتيت امبراطوريتنا الشجاعة في أن تتبع بتصميم سياسة استعمارية مستقلة فان صداما بين مصالحننا ومضالحن انجلترا لا مندوحة عنه » (١)

ولم تؤت هذه المشروعات الكبيرة ثمرة لأن بسمارك لم يكن مستعدا لمعاداة البريطانيين . الا أن مشاكل نشأت بسبب المبشرين الألمان والتجار الذين استقروا في دمارالاند وناماكوالاند . فقد وجدوا أنفسهم في نزاع مع الأهالي وطلبوا الى بريطانيا أن تحميهم ، وطلب المبشرون في عام ١٨٨١ زورقا حربيا بريطانيا ، ولكن طلبهم رفض . وكان البريطانيون قد احتلوا قبل ذلك خليج ولفنسن وهو الميناء الوحيد الصالح في المنطقة ولكنهم رفضوا أن يتحملوا أية

(١) اوردوسون في « الامبراطورية الألمانية » (٢) (٢) ص ١٧٨

مسئولية في غيره من الاقاليم . وأخيرا ، في سنة ١٨٨٣ ، سأل تاجر من برمن ، اسمه لودرينز الحكومة الألمانية هل تؤيده اذا رفع العلم الالمانى على أنجرا بكونيا (سميت فيما بعد لودريتزبرخت) . وسأل بسمارك البريطانيين فى أدب هل يدعون أية سيادة أو حماية لهم على هذه المنطقة ، وأشار الى عزمه على المطالبة بها اذا لم يكونوا قد ادعوا لها لانفسهم فعلا . وأجابت وزارة الخارجية البريطانية أنه لا بد من استشارة حكومة رأس الرجاء الصالح قبل أن ترد . ورفضت حكومة رأس الرجاء الصالح أن تتحمل أية مسؤولية فى المنطقة بسبب ما يتطلبه ذلك من نفقات . وعندئذ أبلغ لورد جرنفيل بسمارك بعد أن انتظر هذا تسعة أشهر للرد على استعلامه الرسمى البحت . ان حكومته لا تدعى أية سيادة على أنجرا بكونيا الا أنها تعتبر مطالبة أية دولة أخرى بالسيادة على هذه المنطقة اعتداء على حقوقها الشرعية . وطلب بسمارك الأدلة التى تثبت هذه « الحقوق الشرعية » ولكنه لم يلق ردا . فانتظر أربعة شهور أخرى ثم أعلن فى ٢٤ أبريل سنة ١٨٨٤ الحماية على كل المنطقة الممتدة بين نهر الاورانج وأنجرا بكونيا وغضب الانجليز ، بعد فوات الاوان ، لهذا التصرف وفى مايو أعلنت حكومة رأس الرجاء الصالح عزمها على الاستيلاء على الساحل كله من نهر الاورانج الى خليج ولفنسن ، بما فيه المنطقة التى كانت ألمانيا تطالب بها وقتئذ . غير ان الحكومة البريطانية عادت فتراجعت فى يونيو واعترفت هى والدول الأخرى بضم المنطقة التى تمت حتى صهارت المستعمرة الألمانية الضخمة وهى مستعمرة افريقية الجنوبية الغربية الألمانية .

ولم تكن المستعمرة الجديدة ناجحة كل النجاح من الناحية المالية . فقد فوجئ « الهيربرو » وهم شعب قوى مقاتل بحرمانهم من أراضيهم وماشيئهم بالعنف وعندما وجدوا انفسهم مخبرين بين الموت جوعا أو البقاء فى حالة تشبه ألق ناراوا . واشتملت حرب طويلة عوان قاتل فيها الطرفان بوحشية شديدة . وقد كتب سير هـ . هـ . جونسنون فى سنة ١٩١٣ رأيه فى حوادث هذه الحرب التى انتصر فيها الالمان أخيرا وختم مقاله بقوله :

« يقال أنه لا يوجد سوى ٢٠٠٠ (هيربرو) يعيشون الآن فى دمارالاند ، ولو ان هذا الشعب الذكى القوي - شعب الباناشو الزنجى انقرض لكان هذا أمرا يدعو الى الأسف الشديد . » وقد كلفت ألمانيا ههنا الحرب الطويلة فى الصحراوات القاحلة والجبال الصخرية أكثر من خمسة آلاف جندي ومستعمر و ١٥ مليون جنيه استرليني . ولو ان الالمان أرضوا الاهالى منذ بداية تاريخ هذه المستعمرة لكان ذلك أقل كلفة . ولتبقى بعد ذلك أكثر من نصف مساحة افريقيا الجنوبية الغربية تحت تصرف الرجل الأبيض »

وقد تعود الناس خلال الحرب الكبرى أن يضربوا مثيلا بالحملة ضد (الهيربرو) للدلالة على قسوة السياسة الاستعمارية الألمانية . ومع ذلك فان

السياسة الألمانية كانت صورة طبق الأصل ، كما ستبقى ، للسياسة البريطانية في مثابيليلاند وحقيقة أن القائد فون ترونا كان شديد الفسوة ، ولكنه لم يجد تأييدا من الحكومة المركزية واضطر الى الاستقالة . وقد أطرت السلطات باختصاصه قبل الحرب جهود ألمانيا الاستعمارية في أفريقيا . فما هو ذا سير هـ . هـ . جونستون يقول في سنة ١٩١٣ :

« إنهم يدركون أخطاءهم بسرعة ، ويصلحونها بنفس السرعة . فهم في التجارة ، كما هم في الحكم ، يلاحظون ويتعلمون ثم يتقنون خير المبادئ وإن السياسي الذي لا يقدر عظمة الخلق الألماني أو يتوقع زوال الممتلكات الألمانية في الأراضي البعيدة فهو سياسي قصير النظر . »

وكان من نتائج الحرب العالمية الأولى أن فقدت ألمانيا كل ممتلكاتها في أفريقيا التي بلغت أكثر من مليون ميل مربع .

٤ - نمو السياسة الاستعمارية البريطانية

نشأت الامبراطورية البريطانية كلها تقريبا دون مساعدة متعمدة من سياسة الحكومة أو تأييد من المذهب الاستعماري . فقد كان غلادستون وهو من اتباع كبدن ، يكره الاستيلاء على أقاليم جديدة ، إلا أن عهدا جديدا بدأ بانتصار المحافظين في سنة ١٨٨٦ ، واتخذت حمى انتماء الامبراطورية تزداد زيادة مستمرة منذ تلك السنة الى آخر القرن . واتخذت صورة كانت أحيانا اجرامية وأحيانا أخرى تدعو الى السخرية وكانت دائما كريهة . وكان لهذا التحول في وجهة النظر عدة أسباب . فنمو الصناعة في الخارج وبخاصة في أمريكا وألمانيا قضى على الاحساس بالفخر بأن إنجلترا هي مصنع العالم ، ومن ثم تطلبت الحاجة الى المباحاة فلسفة مختلفة تستطيع بها أن تبرهن بأن لنا أكبر الامبراطوريات كلها . وزاد تقدير البريطانيين للممتلكات فيما وراء البحار بعد أن رأوا ان الأمم الأخرى قد بدأت تنطلق اليها . وقد تقبل غلادستون الهزيمة على أيدي البربر ولهدى باستنسلام ، ولكن الرجل الانجليزي العادي أحس بأن « ماجويا » وموت جوردون قد أذلاه ايما اذلال . وكانت الكثرة الغالبة من الانجليز تكره الحكم الذاتي لايرلندا وهو النتيجة المنطقية لسياسة غلادستون وولدت مقاومته ميلا الى التملك والسلطان . وقد اتخذ من عيد ميلاد الملكة فيكتوريا في سنة ١٨٨٧ سنة ١٨٩٧ مناسبتين لظاهر قصد بها تقوية هذا الشعور .

وكانت هناك الى جانب هذه الأسباب السياسية للنزعة الاستعمارية أسباب أخرى بعضها اقتصادي وبعضها من نوع أكثر من ذلك مادية ، فكان المبشرون يدفعون الى الاعتقاد بأن غزو دولة مسيحية للوثنيين يؤدي الى انتشار الدين .

الحقيقي . وشاهد ذلك ما حدث في الاجتماع السنوي « لجمعية نشر الانجيل » الذي عقد سنة ١٩٠٠ اذ قال لورد هيوسيسل ابن رئيس الوزراء ومن أكثر الناس تديناً في عصرنا ما يأتي :

« لقد كان عدد كبير من الناس راغبين من صميم قلوبهم للاشتراك فيما يمكن أن نسميه الحركة الاستعمارية في أيامنا . غير أن ضمائرهم لم تكن مستريحة كل الاستراحة الى أن هذه الحركة بعيدة كل البعد عن التلون بالأغراض الدنيوية كما يريدونها . « هو يظن أنه اذا أوضح لنا أهمية الأعمال التبشيرية فان ذلك يخلع على الروح الاستعمارية صبغة قدسية الى حد ما .

وكان كتاب سيلي « توسع إنجلترا » وهو دعوة الى ما يسمى في أمريكا (بالمصير الواضح الذي لا خفاء فيه) أثر كبير في الطبقات الأكثر ثقافة . وقد شرح رسكين وهو اشتراكي وزعيم أخلاقي ومعبود الشيبية التقدمية ، في محاضراته الافتتاحية في أكسفورد مذهب القومية الاستعمارية في أكثر صورها تطرفاً فقال :

« ان أمامنا الآن مصير نستطيع بلوغه وهو أسمى مصير أتيت لشعب له أن يقبله أو يرفضه . اننا لا نزال شمباً قوياً متماسكاً . تختلط فيه خير دماء الشمال ولم نصب بعد بانحلال في مزاجنا ، فما زال في وسعنا أن نحكم بحزم وأن نطيع بكرامة . . فهل لكم يا شباب إنجلترا أن تجعلوا بلادكم مرة أخرى عرشاً يجلس عليه الملوك ، جزيرة ذات سؤدد ، ومصدر نور للعالم كله . وموتلاً للسلام ، سيدة العلم والفن والراعية الأئمة للمبادئ التي تثبتت صحتها على مر السنين رغم اغراء التجارب السخيفة والرغبات الفاسدة . بلاداً يقدها الناس ونبط ضجيج الغيرة القاسية ، لشجاعاتها الفريدة وحسن نواياها نحو بنى الإنسان ، ان هذا ما يجب أن تكونه إنجلترا اذا لم تشأ أن تمحى من الوجود : يجب عليها أن تنشئ مستعمرات بأسرع ما تستطيع وفي أقصى بلاد يمكنها أن تصل اليها ، مستعمرات تضم خيرة رجالها وأكثرهم نشاطاً ، فتضع يدها على كل قطعة أرض خالية تستطيع أن تصل اليها ، وهناك تعلم مستعمراتها أن فضيلتهم الأولى هي الاخلاص لبلادهم وأن هدفهم الأول هو العمل على تقدم إنجلترا وتقويتها في الارض والبحر ، وانهم وان أقاموا في أرض بعيدة ليس لهم أن يعتقدوا أن حق بلادهم عليهم قد سقط كما لا يسقط حقها على بحارة أسطولها عندما يكونون في بحار نائية . . واذا كنا نستطيع الحصول على رجال مقابل أجر زهيد يقفون أمام فوهات المدافع حياً في إنجلترا ، فقد نستطيع أن نجد أيضاً رجالاً يحسرون ويزرعون من أجلها يتصفون بالرحمة والاستقامة ويربون أولادهم على حبها ويستدفنون في ظل بهاؤها ومجدها ، أكثر مما يفعلون تحت ضوء السماء الاستوائية كلها . »

وكانت لهذه المحاضرة بنوع خاص أهمية كبرى لأنها كانت مصدر الهام

لسميسل رودس الذي جاء الى اكسفورد بعد الفائها مباشرة ورأى انها تعبر عن
المبادئ التي وجهت حياته .

وكاد رديارد كبلنج هو الداعية الادبي الأول للسياسة الاستعمارية طول
العقد العاشر من القرن التاسع عشر . وقد بدأ بقصصه عن الهند والانجليز
التي عرض فيها الرأي القائل ان الانجليز لم يذهبوا الى الهند الا لخير الهنود
وانهم قالوا آلاما تجل عن انوصف في سبيل الواجب لا غير ! ولكنه سرعان
ما وجه عنايته الى اجزاء أخرى من الامبراطورية وخاصة جنوبي أفريقيا . وكان
يؤمن ايمانا لا يتزعزع بتفوق الجنس الانجلو ساكسوني ورجولته وصور
انجلترا تباهاى مدن بريطانيا الاكثر عظمة من مراكز التقاء العنصرى مثل كلكتا
وهونج كونج .

« ما من شك في أنكم من أبناء تلك الدماء .. وما دامت الدماء تجري في
عروقكم »

فسأعرف أن خيركم هو خيرى ، وستشعرون أن قوتى هي قوتكم .
وان بيننا موطن الدعائم وان أعمدته لن تنهار .
منذ أيام مرج بن عامر حين اشتعلت آخر الحروب جمعاء »

وكان ينظر الى الهه المسيحية على أنه معبود قبلى بريطانى وكان « وانقا كل
الثقة من ان البحار الخالدة تقاتل الى جانبنا » ونادى بأعلى صوته فى « أغنية
الانجليز » :

ألا ما أحسن حظنا - وما أفضل تراننا

(توأضعوا يا بنى وطنى واخشوا الله فى أفرأحكم)

لأن الهنا العلى الأعلى

قد جعل للبحر العميق وكأنه الأرض الجافة

وشق لنا طريقا الى أقصى أطراف الأرض

وقد عبر كيلنج عن هذه العاطفة الاستعمارية أتم تعبير فى قصيدته « ترتيلة
الانسحاب » التي أنشأها فى عيد الملكة فيكتوريا سنة ١٨٩٧ فقال :

يا اله ابائنا يا من عرفناه من قديم

يا ربنا صهوف قتالنا الممتدة الى أمد بعيد

يا من تسيطر تحت سلطان يده الرهيبة

على أرض الصنوبر والنخيل -

يا رب الجيوش ، كن معنا

كيلا ننسى - كيلا ننسى !

غير ان هذا المزاج الراقى لم يكن يليق الا بمناسبة عظيمة لا غير . ومع ان السياسة الاستعمارية كانت تنطوى على شيء من المثالية الحقة . فقد كانت فى الحياة اليومية أكثر ميلا فى العادة الى الشئون الدنيوية ذات دوافع اقتصادية صريحة . وكانت هذه الدوافع تختلف بعض الشيء عند الذين هاجروا عنها لدى أولئك الذين استثمروا نفودهم لا غير . وكانت هناك أسباب كثيرة دفعت الطبقات العليا وأصحاب المهن الى تأييد كل توسع فى الامبراطورية فالشبان الذين لم يكونوا على قدر كبير من الكفاية ، الذين نشأوا على عادات التفوق الاجتماعى ووجدوا ان المجتمع فى بلادهم قد صار أكثر ديموقراطية ، كان يسرهم أن تسنح لهم فرصة للكسب وممارسة سلطة الأمر والنهى فى مناطق تسكنها شعوب « دنيا » . وكذلك جعل الازدحام والتصنيع وسيادة القانون انجلترا تبدو مقبضة فى نظر من يميلون الى المغامرة وكرهية عند من يفضلون الوحدة والمنظر الجميلة . وقد ذهب الكثيرون الى المستعمرات لا لشيء الا ليهربوا من الظروف الكريهة المقيدة للحياة الانجليزية الحديثة . ووجدوا أنفسهم بناء للامبراطورية من حيث لا يشعرون . وقد وصف كبلنج التناقض بين رغباتهم وما حققوه فعلا فى احدى قصائده الجميلة المعروفة باسم « مطارد الشعور » فقال :

سيصفر النورس من ورائه وتنحطم الموجة العمياء نارا
وينفذ ارادة الله العليا ، دون أن يعرف ما ينتفيه
ويبصر كواكب قديمة تتبدل ، ونجوما غريبة تشرق
ويدير الى العاصفة شراعه الذى ابتلاه البحر فى ظلال السموات
الجديدة

ويدفعه حب الكسب القوى الى الامام ويتسلح بسلاح الجوع
كى ينتزع قوته من الصحراء العادية ومكسبه القليل من الرمال
يضايق عينيه دخان جيرانه وتعكر أصواتهم صفو راحته
ويوغل فى السير حتى يصير الجنوب شمالا مكتنبا لا يملكه انسان
يرغب فى العزلة وستأتى اليه هذه الرغبة فى عقبه
بالآف من المركبات . وبشعب وملك
وسوف يعود بالطريق الذى سار فيه وسيلقى بجوار معسكره
وهناك سيضئ طرق آمنة بالفأس والشمعلة
الذى لم يكده يذهب عنه الدفء الشارح الصباخ الرافعة والحاتم
متى تقوم فى آخر برية ظفر بها عمد امبراطورية

مقصود فيها كيف يخترق المهاجر الصحارى ويتحمل المشاق ينشد الوحدة
ولا يلبث الجيش والشعب والملك أن يأتوا فى أعقابها .

بيد أن آلاف المركبات كانت تدفعها عوامل أخرى مختلفة .

فقد كانت الطبقات المشتغلة بالتجارة . وقد تأثرت بزيادة الضرائب الجمركية
فى كل مكان الا فى المملكة المتحدة ، تريد أسواقا لا تستطيع الحكومات الاجنبية
أن تستبعدهم منها . ورحب الصناعيون بالملكات الاستوائية ليتخذوها
مصادر ثمينة للمواد الاولية والمواد الغذائية العظيمة القيمة . إلا أن الشيء
الذى كان أكثر أهمية من الاسواق والمواد الاولية هو ايجاد متنفس
للاستثمار (١) . ذلك أن شق الطرق وانشاء السكك الحديدية واستغلال
المزارع والمناجم وبناء السدود ومالا يحصى من الاعمال الاخرى التى تتطلبها
تنمية مناطق لم تمسسها المدنية كانت كلها تهيء مجالا يرحب به أصحاب
رؤوس الاموال لاستثمار المال الذى لم يعد يستطيع استثماره فى الصناعات
المخلىة بحيث يدر ربحا مماثلا لما كانت تدره المصانع فى أول عهدهما والسكك
الحديدية عندما بدأت فى انجلترا . هذا الى أن رأس المال القديم مثل الحديد
قد أدى الى مغامرات استثمارية ، وقد رأينا كيف حصل جملة الاسهم التركية
والمصرية البريطانيين على فوائد أسهمهم . وبين هذا فائدة الجيوش والاساطيل
عندما تكون فى متناول اليد : فلم يستطع المستثمرون الانجليز فى سكك
ايرى الحديدية أن يفعلوا شيئا حيا لم يستر درو عندما خدعهم واستولى على
أموالهم ، بينما كان فى وسع الذين اقترضوا الحديوى المال أن يستعملوا قوات
التاج (دون أن يكلفهم ذلك شيئا) فى تحصيل ديونهم ، بل انهم استنطاعوا
أن يفوزوا بالاعجاب باعتبارهم وطنيين لانهم يرغبون فى أن تحتل بريطانيا
مصر .

أما فى حالة جنوب أفريقيا ، التى يجب أن نوجه اهتمامنا اليها الآن، فقد
كانت هناك قوة أخرى عملت أكثر من أية قوة سواها على تشجيع الغزوا
الاجنبى منذ فجر التاريخ : تلك هى بريق الذهب والاحجار الكريمة وما لهما
من اغراء .

٥ - افريقيا الجنوبية البريطانية

اكتشف البرتغاليون فى سنة ١٤٨٨ رأس الرجاء الصالح الذى امتدت
منه الامبراطورية البريطانية شيئا فشيئا نحو الشمال حتى اتصلت بامتداد
مصر نحو الجنوب ، ولكنهم لم يجعلوا منه موقعا لمستعمرة لهم . فقد كان
الهولنديون هم الذين أنشأوا مدينة رأس الرجاء الصالح فى سنة ١٦٥٢ .

١ - انظر ج ١٠ هوبسون « الاستعمار : دراسة » ص ٦٠

ثم استعمروا الارض المحيطة بها وأدرا فيها عددا كبيرا من الهيجونوت .
الفرنسيين بعد إلغاء مرسوم نانت . واستولى الانجليز على مستعمرة الرجاء
ابان حروب نابليون عقابا للهولنديين لانهم اضطروا الى الوقوف الى جانب
فرنسا : وأعيدت اليهم في سنة ١٨٠٢ ثم أعاد البريطانيون غزوها واحتفظوا
بها في سنة ١٨١٥ . وكره كثير من الهولنديين حكم الانجليز كرها جعلهم .
يتسربون الى الشمال في سنة ١٨٣٦ في مجاهل القارة وأسسوا أولا ولاية
الاورنج الحرة ثم الترنسفال . وكان وضع هاتين الجمهوريتين غير محدد نوعا
ما : فقد ادعينا السيادة عليهما ولكنها رفضتا الاعتراف بها ، وفي سنة ١٨٧٧
أعلن سير بارتل فريزر ضم الترنسفال الى الاملاك البريطانية ، ولكنها ثارت
بعد ثلاث سنوات من الاحتكاك ، وتركها غلادستون الذي كان قد خلف
دزرائيلي تتمتع باستقلالها وترك مسألة السيادة عليها مرة أخرى غامضة الى
حد ما .

وكان تاريخ جنوبي أفريقيا في السنين الخمس والعشرين التالية هو تاريخ
سيسيل رودس نفسه .

ولد سيسيل روز في سنة ١٨٥٣ وكان ابنا لقس ريفي . وكان الابن
الثالث لهذا القس . ومع أن أخاه الأكبر قد أرسل الى ونشستر والثاني الى
ايتن ، فان المال كان قد نفذ عندما جاء دوره في التعليم فأرسل الى مدرسة
نهارية محلية . وكان الأب يأمل في كل ابن من أبنائه أن يصير قسا ،
ولكنهم جميعا رفضوا هذا وأصبح أربعة منهم جنودا واثنان من بنساء
الامبراطورية . وكان سيسيل معرضا لذات الرثة فأرسل عندما بلغ السابعة
عشرة من عمره فقط لينضم الى أخيه الذي كان مزارعا في ناتال . وأصابا
بعض النجاح في زراعة القطن . غير أن بريق حقول الماس الجديدة جذبها
اليها بعد عام أو حوالي عام من ذلك : لوقت فخرج اليها سيسيل من مزرعته
في سنة ١٨٧١ ومعها « بعض آلات التنقيب وبعض كتب الادب القديم ومعجم
في اللغة اليونانية » ووصل الى حقول الماس بعد شهر تقريبا .

وكان قد مضى في ذلك الوقت أربعة أعوام لا غير على اكتشاف أول الماسة
في منطقة اتضح انها أغنى حقول الماس التي عرفت في التاريخ كله . فقد
ذهب مزارع هولندي اسمه شلك فان ينكرك في سنة ١٨٦٧ لزيارة صديق
له ولاحظ أن اولاد صديقه يلعبون بحصى التقطوها ، وكانت احدها لامعة
فاستأذن في أن يأخذها لعرضها على الخبراء . وكانت النتيجة أن يبيع الحجر
للمحاكم بمبلغ ٥٠٠ جنيه ، ومرت بعد ذلك سنتان لم يوجد خلالهما الماسات
كبيرة . وكان لدى أحد السحرة حجرا يستعمله في أغراض السحر (ولعل
هذا الاستعمال للماس هو السبب الاصل في البحث عنه) وعرضه على فان
نيكيرك فاشتراه هذا مقابل ٥٠٠ رأس من الغنم وعشرة ثيران وجنود .

واشترى أحد التجار الحجر من فان نيكر ك بمبلغ ١١٠٠٠ جنيهها وباعه للورد ددلي بمبلغ ٢٥٠٠٠ جنيهها ، وأضفى على هذا الحجر التقدير الخاص بالجوهر العظيمة فأطلق عليه اسم « نجم جنوبي إفريقيا » .

وكان المكان الذى وجدت فيه الالماسة يقع شمال نهر الاورانج مباشرة . داخل حدود ولاية الاورانج الحرة ، لكن البريطانيين استغلوا بعض الغموض فى حجة ملكية الارض ونجحوا فى الاستيلاء على المنطقة وأرادوا أن يرضوا ضميرهم فدفعوا تعويضاً قدره ٩٠٠٠٠٠ جنيهها وحصلوا على حق الماس يساوى مئات الملايين .

وعندما وصل رودس الى البقعة التى سميت فيما بعد « كمبرلى » كانت فى حالة من الغموض والاضطراب التى تنسم بها عادة مستعمرات التعدين الجديدة وبدأ يكسب المال بسرعة واشترى حقوق التعدين فى مناطق مختلنة بأسرع ما سمحت له موارده . ومن الغريب أنه غادر جنوبي أفريقيا وغاد الى اكسفورد بعد أقل من عامين من النجاح الذى صادفه . وأضر بلجو بصحته ثانية فاضطر الى قطع دراسته أكثر من مرة ليعود الى جنوبي أفريقيا . واسم ييد نجاحا ملحوظا فى الدراسة ولكنه أصبح خلال اقامته الاضطرابية فى الريف من أصحاب الملايين ومن رجال السياسة الناجحين . وما من شك فى أنه كان طالبا غير عادى فى الفصل الدراسى الأخير . إذ كان قد بلغ الثامنة والعشرين . الا أن المدة التى قضاها فى اكسفورد حققت مع ذلك الغرض منها لأنها ساعدته فى الحصول على تأييد الطبقة الحاكمة البريطانية فى مناسبات حرجة شتى .

وينبغى ألا نفترض أن رودس كان مجرد حامل للمال ، فقد كان على عكس ذلك كثير التأمل فى بعض المشاكل العميقة التى تمس مصير الانسانية وقد أنهى بعد شئ من التردد الى أن وجود الله وعدم وجوده احتمالان متساويان ، وسبق وليم جيمس فى كتابه « ارادة الايمان » فأحس بأن التردد فى موضوع مثل هذا لن تكون عاقبته سليمة ، وقرر أن تقوم تصرفاته على أساس الفرض بأن هناك اله . وكانت الخطوة التالية هى تحديد غرض الله من خلق الكون . وكان ذلك أكثر سهولة على رودس واستقر رأيه على « أنه من الواضح أن الله يعمل لخلق طراز من البشر أصلح ما يكون لنشر السلام والحرية والعدل فى العالم وأن يجعل لهذا الطراز السيادة عليه . ولم يكن هناك سوى جنس واحد فى نظره يقرب من هذا الطراز المثالى الذى يريده الله وهو المنصر الذى ينتمى اليه . لعنصر الانجليزى السباكسونى ، ففرض الله من خلق الكون هو اذن أن يخص بالسيادة العنصر الانجلوساكسونى ، وخير ما يمكن عمله للمعاونة فى تنفيذ الرغبة الالهية فى الدنيا هو الاسهام فى تحقيق سيادة

العنصر الانجليزي الساكسوني ، وهكذا يقترب حكم السلام والعدالة والحرية » (١) .

وشرع رودس يعمل للمعاونة على تحقيق غرض الله في نشر « السلام والحرية والعدالة » عن طريق حرب الماتابيلي وغرة جيمسون وحرب البوير واخضاع الزنوج الشمال أولا ثم البوير بعدئذ للسيادة البريطانية وانشاء نظام ضخم من الفساد السياسي في كل من إنجلترا وجنوب أفريقيا . وكان طوال الوقت يعتقد باخلاص أنه موكل في هذا من قبل الله .

كان الاساس الذي قام عليه نجاح رودس طوال حياته العاملة هو سطرته على الماس كمبرلي ، فبعد سنة ١٨٨٨ كانت شركة « مناجم دي بير المتحدة » التي كان هو الشريك الاكبر فيها ، تملك كل حقول الماس المعروفة وقتئذ في جنوب افريقيا والتي كان انتاجها يمثل ٩٠ ٪ من الانتاج العالمي كله . وكان له نصيب مهم في مناجم الذهب في الترنسفال ولكنه لم يكن محتكره ، وكانت شركة « حقول الذهب المتحدة في جنوب افريقيا » توزع ارباحها ارتفعت بسرعة من ١٠ ٪ سنة ١٨٩٢ الى ٥٠ ٪ ١٨٩٤ - ١٨٩٥ وكانت تدر عليه دخلا سنويا يبلغ ثلاثمائة او اربعمائة الف جنيه . ومع ذلك فان مصالحه في الذهب لم تبلغ مطلقا أهمية مصالحه في الماس .

وقدر رودس في نفس الوقت لاسباب استعمارية وليست شخصية ، أن الامبراطورية يجب أن تمتد شمالا في المناطق التي سميت فيما بعد رودسيا . وكان يسكن القسم الجنوبي من هذه البلاد ، وهو يتكون من مرتفعات معشبة . قبيلة الباتابيلي من الرعاة المحاربين وكان يحكمها زعيم جدير بالاعجاب اسمه لوبنجولا . وكان هذا الزعيم طويل القامة معتدلا ، قوى البنية جدا ، وتبدو عليه المهابة « عارى الجسم الا من قطعة طويلة جدا من القماش الأزرق القاتم احاط بها جسده ولكنها لم تخف منه شيئا على « الاطلاق » وكان يتمتع بنفوذ رادع على الرأي العام في قبيلته التي كانت شكسه محاربة ، وكان حكيما وسياسيا في حدود مامربه من تجارب ولكنه كان محاربا قويا عندما تبدو الحرب ضرورية ، وكان كما يقول وليم سوز في كتابه الصغير المجيد عن حياة رودس « ملكا من قمة رأسه الى اخمص قدمه »

الا انه لسوء حظه لم يكن يعرف القراءة ، ولكنه كان يستطيع شرب الشمبانيا . وكان يكره الساعين الى النيل الامتيازات الذين « يجيئون كالذئاب دون اذن ويشقون الطرق في بلادى » . ولكنه كان انيسا سهل القياد اذا طلبوا اذنه بطريقة مناسبة . وعند ما عرف أن بلاده تحتوى على ذهب كثير ارسل رودس في سنة ١٨٨٨ ثلاثة من اصدقائه ، أحدهم كان في زهيل كلية

« جميع القديسين » ليخطبوا وده . وأصابوا نجاحا تاما وحصلوا على جميع حقوق التعدين في ممتلكاته مقابل ١٠٠ جنيه في الشهر و ١٠٠٠٠ بندقية مد ١٠٠٠٠٠ رطل من الذخيرة وقارب بخارى مسلح في نهر الزمبيري . وقد عرف هذا الاتفاق باسم « امتياز رد » (١) .

وكانت الخطوة التالية تكوين شركة امتياز تتمتع بسنلطات تماثل سنلطات شركة الهند الشرقية القديمة . وكان هذا يتطلب الحصول على موافقة الحكومة البريطانية ، وتم له ذلك بتأييد الدوائر العليا له ، وكان من بين من تقدموا بطلب للامتياز وحصلوا عليه ذوق فايف (جسد ادوارد السابع) ودوق أبركورن والبرت جراي (فيما بعد آيرل جراي الحاكم العام لكندا) وغيرهم من العظماء . وكان لدوق فاين فائدة خاصة لان الاسرة المالكة أصبحت بفضلها ذات صلة بمشروعات رودى . وكان الامتياز الذى منح فى سنة ١٨٨٩ يؤكد حماية حقوق الاهالى وحرية الدين وحرية التجارة وكان من بين الاسباب التى منح الامتياز على أساسها العمل على تحسين أحوال « الاهالى الذين يسكنون الاقاليم المشار اليها من الناحية المادية وعلى تقدمهم ماديا فى الحضارة » . وقد تم الاعتراف « بامتياز رد » وصارت الشركة حكومة لمساحة شاسعة لا يحددها من الشمال الا ممتلكات الدول الأوروبية الأخرى .

وأكنتشف لوبنجولا فى هذه الاثناء أن الوثيقة التى وافق عليها كانت أبعد أثرا مما كان يظن فأمل خطابا الى الملكة فكتوريا كان مما جاء فيه :

« حضر منذ مدة فريق من الرجال الى بلادى ، أهمهم رجل اسمه فيمنا ييدو « رد » وطلبوا الى مكاننا ينقبون فيه عن الذهب وقالوا انهم سيعطوننى بعض الاشياء مقابل منحهم حق التنقيب . فطلبت اليهم أن يرونى ما يعرضون اعطاءه لى وعندئذ أريهم أنا ما أريد اعطائهم اياه ككتب وثيقة قدمتلى لتوقيعها . وسألت عما تتضمنه فقالوا انها لا تتضمن سوى الكلمات التى قلتها والكلمات التى قالها أولئك الرجال . فوضعت بضمئى عليها ، وبعد ذلك سمعت من مصادر أخرى أنى قد أعطيت هذه الجماعة بمقتضى هذه الوثيقة حق امتلاك المعادن الموجودة فى بلادى . فعقدت اجتماعا من رجالى ومن الرجال البيض وطلبت صورة الوثيقة . وقد ثبت لى أنى قد وقعت على تنازل عن الحقوق المعدنية فى بلادى كلها لرد وأصدقائه . وعقدت بعد ذلك اجتماعا من رجالى ورفضوا الاعتراف بهذه الورقة لانها لا تتضمن كلماتى ولا كلمات من لى حوزتهم . وأنا اكتب اليك لتعرفى حقيقة الامر » .

وكتب اليها بعد ذلك ببضعة أشهر خطابا آخر يشكو فيه من أن « الرجال

١ - ان خير ما كتب عن معاملات رودس مع لوبنجولا يوجد فى كتاب موريل « هبه الرجل الأسود » الفصل الرابع

البيض يزعموننى كثيرا بسبب الذهب . فاذا كانت الملكة قد بلغها انى
نزلت عن البلاد كلها فان ذلك غير صحيح .

وردت الملكة على السان وزير المستعمرات ، على أخيها الملكى بانه يستحيل
عليه أن يستبعد الرجال البيض ، وانها بعد أن قامت بتحريات عن الاشخاص
الذين يتعلق بهم الامر تأكدت من أنهم « ممن يوثق فيهم للقيام بأعمال البحث
عن الذهب فى بلاد الزعيم دون الاساءة الى شعبه ، أو المسئاس بقرآهم
وماشييتهم وحد ثقتهم بحال من الاحوال » . وحدثت من وقت لآخر بغض
المشاكل المتعلقة بسرقة الماشية ، غير أنه لم تتخذ اية خطوة أخرى فى الموضوع
مدة بضع سنين . وكانت الشركة صاحبة الامتياز توجه اهتمامها الى تطور
أحوال الاجزاء الجنوبية والى العمليات المالية فى انجلترا . وكان رأسمالها
مليونين من الجنيهات موزعة على أسهم يساوى قيمة كل منها جنيه واحد ،
وكانت بذلك تستطيع أن تضم الى مساهميتها أشخاصا لم يكونوا من الاغنياء
ولهذا كان مؤيدوا رودس يوجدون حتى بين الاجراء . وابتاع دى بيرز
٢٠٠٠٠٠ سهم والمؤسسون ٩٠٠٠٠٠ وابتاع رودى شخصيا عددا كبيرا
منها ، يضاف الى هذا أن « شركة الترخيصات المتحدة » التى كان يملك جزءا
منها حدد لها نصف الارباح المستقبلية . واذا كان العالم قد الف مثل هذه
الاوضاع فانه لم يكن من المرغوب فيه تشجيع اى نقد يوجه لهذا العمل .

وفى يولييه سنة ١٨٩٣ قرر الدكتور جيمسون مديرا الشركة صاحبة الامتياز
أن الوقت قد حان للتصرف مع الماتابيلى فطلب متطوعين لمساعدته على « تحطيم
لوبنجولا » . وعرض على كل مقاتل يتطوع ٣٠٠٠ « مورجن » (تسعة اميال
مربعة) وامتياز عشرين موقعا للتنقيب عن الذهب ، وأضاف أيضا أن
« الغنيمة ستقسم نصفها للشركة والباقى يوزع بالتساوى بين الضباط
والرجال » . وقد قدرت قيمة مجموع هذه العروض بعشرة آلاف جنيه لكل
مقاتل . ولم يكن من العسير بمقتضى هذه الشروط وجود عدد كاف من
الرجال يساعدون الله فى (نشر السلام والحرية والعدالة) . (وما أن جاء
شهر أكتوبر حتى كانت الاستعدادات قد تمت . وأرسل لوبنجولا ، الذى
كان الامل لا يزال يراوده فى حل سلمى ثلاثة مبعوثين للمفاوضة . واتعهد
البريطانيون بمنح المبعوثين (امان المرور) . ولكن اثنين منهما قتلنا
« مصادفة » فى يوم وصولهم الى المعسكر ، وكانت هذه بداية الحرب التى استمرت
ثلاثة اشهر وحقت لكل أغراض الرجال البيض . واختفى لوبنجولا وهرب
رجالها أو قتلوا ، ووزعت ٩٠٠ مزرعة و ١٠٠٠٠٠ امتياز تعدين فى الاراضى
التي كانت أصلا مملكته ، ونهب ١٠٠٠٠٠ رأس من الماشية ، وترك هذا
من بقى على قيد الحياة من الاهالى دون مورد يعيشون منه .

وكان من الضرورى على الدوام فى عملية « تمدين افريقيا السوداء حرمات

السكان من الارض والماشية والمصادر التقليدية الاخرى للغذاء ، حتى يضطروا الى العمل عند البيض . غير ان هذه الطريقة كانت أيضا مما يجب فى بلاد التاييبى ولهذا أدخل فيها نظام السخرة . وفى سنة ١٨٩٦ ، بعد أن أصر البوير جيمسون ، قام التاييبى بمحاولة يائسة لاسترداد حريتهم عن طريق الثورة ، ولكنهم هزموا طبعاً ، ولم يسببوا متاعب من أى نوع كان حتى هذه الايام . وفرضت ضريبة قدرها جنيهان على كل فرد من الاهالى الذين اضطروا للعمل عند البيض ليحصلوا على المبلغ عن طريق الاجور . وهكذا حلت مشكلتنا الدخلى وللاجور معا . ومع ذلك فان التاييبى ، كما يقول مبشر معروف هو مستر كارنيجى ، لم يعترفوا بالجميل بل يقولون :

« لقد ضاعت بلادنا ، وخسرنا ماشيتنا ، وتفرق شعبنا ، ولم يبق لدينا ما نعيش لاجله ، وقد هجرتنا نساءنا يفعل الرجل الابيض ما يشاء بهن ، وأصبحنا عبداً للرجل الابيض ، فنحن لا قيمة لنا ولا حقوق ولا قوانين من أى نوع » .

ولعل مما يساعد على العزاء أن نفكر فى أن كل هذه الآلام قد حققت هدفاً عظيماً طيباً هو نقل قطع من المعدن الاصفر من تحت الارض فى بقاع معينة الى بقاع اخرى هى أقيية المصارف الكبرى .

وكان جيمسون بطل حرب التاييبى مساعداً روى وصديقه الحميم . وكان مشروعه التالى أقل نجاحاً من مشروعه الاول ولكنه كان أكثر منه أهمية .

كانت بلاد الترانسفال باستثناء حقبة الذهب لا تزال يسكنها بعض الهولنديين الذين تركوا رأس الرجاء الصالح لانهم لم يستطيعوا البقاء تحت حكم البريطانيين . وكانوا فى مزارعهم المنعزلة يحتفظون بتقوى القرن السابع عشر البسيطة وينظرون الى العالم الرأسمالى بلديداً برعب وخرع . وعندما اكتشف الذهب عند نهر الراند أدركوا أنه يجلب ثروة مفاجئة لمن يوجد فى أرضه ذهب من المزارعين ، غير أنهم رفضوا أن تكون لهم أية علاقة ، فيما عدا تحصيل الايجار وفرض الرسوم ، بجحافل المغامرين من كل جنس الذين زحفوا على أرضهم وقد كانت من قبل هادئة حتى قدومهم اليها . وعلى الرغم من أن الدخلاء « صاروا يفوقونهم بنسبة ٥ الى ١ فان البوير رفضوا منحهم حق التصويت وظلوا وقتاً طويلاً يمنعون مد السكك الحديدية التى تربط بلادهم برأس الرجاء الصالح . هذا الى أنهم رفضوا ضرائب جمركية مرتفعة الى حد جعل كل شىء يستورده « الدخلاء » غالى الثمن ، وكاد يقضى على التجارة فى مستعمرة الرجاء الصالح . وشعر الدخلاء أنهم أكثر عناصر البلاد أهمية : فقد كان بعضهم على قدر كبير من الثراء ، وكان اقليمهم ينتج معظم ما فى العالم من ذهب وأسخطهم هذا على استبعادهم من السلطة السياسية .

وكان رودس يأمل ، وكذلك تأمل الحكومة البريطانية ، أن يثور الدخلاء ضد الرئيس كرجو على أساس الدعوة القديمة « لاضرائب دون تمثيل » التي كان لها وقتذاك وقع حسن على الأذان الانجليزية . ودأبت السلطات العسكرية خلال سنة ١٨٩٥ على أن تجلب الجنود من الهند وترسلهم اليها عن طريق رأس الرجاء الصالح بدلا من قناة السويس حتى تستطيع أنزالهم الى البر اذا حدثت اضطرابات في البلاد . ولم يكن رودس في ذلك الوقت مسيطرا على الشركة صاحبة الامتياز فحسب ، بل كان أيضا رئيس وزراء مستعمرة رأس الرجاء الصالح ، وقد استعمل سلطته المزدوجة في ارسال جيمسون ومعه قوة مسلحة الى اقرب نقطة من جوهانسبرج تقع على حدود ترانسفال بحجة ظاهرة هي حماية خط حديدي كان ينشأ وقتئذ . وحاول اشعال فتنة في الراند تؤيدها حركة جيمسون ورجاله . ولكنه فشل في الاتفاق مع (المحصلين) في آخر لحظة ، فقد كان الكثيرون منهم يريدون الاستقلال بينما كان هو مصرا على ضم الترانسفال الى الامبراطورية البريطانية . وأوشك رودس عندئذ على التخلي عن مشروعه ، ولو الى حين ، غير أن جيمسون الذي كان أكثر منه حدة في الطبع بدأ لهجومه في ٢٩ ديسمبر سنة ١٨٩٥ ، وفي ٢ يناير وقع وهو وجميع رجاله أسرى في يد رجال كروجو بطريقة تجلبهم بالعار . وكانت نتائج هذا الحدث بعيدة الأثر بصورة تدعو الى الدهشة . فقد انقلب أصدقاء رودس من الهولنديين عليه بطبيعة الحال واضطر الى اعتزال السياسة في رأس الرجاء الصالح وان ظل مسيطرا على روديسيا . وقيل أن الحكومة البريطانية ، أو على الأقل جوزيف شمبلين وزير المستعمرات ، إياها ضلح في الامر ، وعلى الرغم من أن ذلك قد يكون غير صحيح ، فمما لا مرد فيه أنه كان هناك اهمال جدير بالوم . وأرسل الامبراطور الألماني برقية تهنئة الى الرئيس كروجو أشادت المتخط في انجلترا الى درجة أن معظم الناس نسوا أن يلوموا المغيرين . سلم جيمسون ورجاله الى الانجليز لمعاقبتهم فلما وصلوا لندن اشترك أهليون كلهم في الاحتفال بهم . وحكم على جيمسون بالسجن مدة قصيرة ولكنه أطلق سراحه فورا « لاسباب صحية » . ولم تعد العلاقة ودية بين انجلترا وألمانيا بعد ذلك الحادث . وإصرت الحكومة البريطانية على مناصرة قضية « الدخلاء » وظلت تدفعها بلا هوادة الى نهايتها في حرب البوير . وكان لشئون جنوبي افريقية منذ اللحظة التي وقعت فيها هذه « الغارة عواقب وخيمة في تاريخ العالم .

وانتهى نفوذ رودس في مستعمرة رأس الرجاء ولكنه احتفظ بأهميته في أماكن أخرى . فقد كان يرغب في انشاء خط برقي بين رأس الرجاء والقاهرة وكانت روديسيا تصل الى بحيرة تنجانيقا ولكن بعد هذه النقطة كان لابد من المرور داخل الكونغو أو افريقيا الشرقية الألمانية . وفي سنة ١٨٩٩ قام بزيارة الملكين اللذين بيدهما الامر يرى أيهما يمنحه خير الشروط في الاذن له

بانشاء الخط مخترقا اراضيه . وكان يحثقر الملك ليوبولد ، « ولما خرج من المقابلة أمسك بملحقتنا العسكرية (الذى صادف مروره على مقرية منه وهمس في اذنه ، شيطان ، أنى أقول لك ان هذا الرجل شيطان x » . ولكنه على النقيض من ذلك أفلح من القيصر فلاحا يدعو الى الاعجاب . فقد بدأ فى حديثه معه ببعض الملاحظات الحبيثة عن برقية كروجر فقال « لقد كنت ولدا شقيا وحاولت أنت أن تؤذبنى وكان أهلى يريدون تأديبى أيضا ، لانى ولد خبيث فلما حاولت أنت أن تفعل ذلك قالوا ، لا ، اذا كان هذا من شأن أحد فهو من شأننا نحن ، كانت النتيجة يا صاحب الجلالة أن كرهك الانجليز جدا ، وأن عملية تأديبى لم تحدث قط » .

وسر هذا الحديث القيصر فمنح رودس ما طلبه .

وجل جوزيف تشمبرلين ابتداء من سنة ١٨٩٦ محل رودس فى التصرف فى شئون الترنسفال ، وكان تشمبرلين قد بدأ بداية راديكالية ولكنه انقلب استعماريًا مثل رودس نفسه واختار وزارة المستعمرات بالذات - لينفذ سياسته . وهو يقول « ان العناية التى تحدد مصائرنا قصدت أن تكون دولة حاكمة كبرى . ونحن نفتح . نعم نفتح - ولكننا لا نفتح الا لكى نمدين شعوبا كثيرة على وجه البسيطة وندير شئونها ونميتها لمصلحتها أولا ولمصلحتنا أيضا بلا ريب » . قد قوى الشعور الاستعماري فى انجلترا الى حد كبير خلال سنة ١٨٩٨ بفزو كتشتر للسودان واذلال الفرنسيين بارغامهم على التخلي عن فاشودة . وفى سنة ١٨٩٩ بدأ لتشمبرلين أن الوقت قد حان للنظر فى أمر الطرف الآخر من امبراطورية « القاهرة الى رأس الرجاء الصالح » والانهاء من مشكلة البوير . وقد كانت طبعًا « ضربا فى سميل الديمقراطية » أو كما قال لورد سالستورى « نحن لا نسعى وراء حقول الذهب ولا نريد ضم اقاليم جديدة » غير أن بعض الاجانب الساخرين لاحظوا رغم ذلك أننا حصلنا من وراء هذه الحرب على حقول ذهب وضمنا اقاليم جديدة .

وكانت حرب البوير عارا مزدوجا على انجلترا ، لان قضيتنا كانت غير عادلة ، وكانت جيوشنا فى أول الامر فاشلة . وكان الشعور فى القارة الاوروبية معاديا للانجليز أشد العداة وجعلت هزائمنا على يد البوير الناس يعتقدون أننا فى طريقنا الى اضمحلال . وراحت الاشاعات عن اتفاق فرنسى - المانى - روسى لأرغام انجلترا على عقد صلح مع الترنسفال . وأدرك الانجليز لأول مرة منذ حروب نابليون أنه قد يكون من المفيد أن يكون لهم حلفاء فى القارة ، فعرض تشمبرلين أن يعقد حلفا مع المانيا ولكن عرضه قوبل بالرفض

وكان قسم كبير من الراى العام ضد الحرب طوال مدة القتال . وقد اضطر
لويدي جورج ، فى برهنجهام بلد تشمبرلين ، أن يفر متخفيا فى زى رجال
الشرطة ، ولكنه لم يفقد شعبيته فى ويلز ابداً . وتحدث كامبل بانرمان ،
أحد زعماء الاحرار ، عن « الطرق الوحشية » فى معرض ذكر حرق المزارع
ومعسكرات اعتقال النساء والاطفال . وما أن انتهت الحرب حتى انقلبت
البلاد على الحزب الذى أشعلها وعلى كل الفلسفة الاستعمارية التى أوجت بها
وقد ساعد على هذا لانقلاب عاملان . الاول أن تشمبرلين شرع فى حملة
لغرض الضرائب على المواد الغذائية باعتبارها الوسيلة الوحيدة لتدعيم
الادبراطورية ، غير أن ذكريات المجاعة فى العقد الخامس جعلت الاحرار
يعتقدون أن أنشاء اتحاد جمركى للامبراطورية قد يتناع بشمن أعلى مما
يستحق . وكان العامل الثانى أكثر اتصالا بحرب جنوب أفريقيا . فقد
كان أصحاب المناجم ، الذين قامت من أجلهم الحرب ، يريدون عملا رخيصا .
وقد قيل للعمال البريطانيين طوال الحرب أنهم سيجدون عند نهاية القتال
متسعا كبيرا فى « الرائد » ، غير أن أجورهم كانت أكثر ارتفاعا مما يريد
سادة جوهانسبرج . ورؤى أن العمال السود لا يكفون ، فتقرر استيراد
عمال صينيين بشروط تجعلهم أقرب الى الارقاء . فثار شعور الانقلابات وكذلك
الشعور المناهض للرق . وأشار رئيس أبرشية جوهانسبرج الى أن جلب
هؤلاء الوثنيين الفقراء الى ارض مسيحية عمل من أعمال الرأفة ، ولكن هذه
الحجة فشلت ، لسبب ما فى اقناع الناس . وألج الاخلاقيون من معارضى
الحكومة الى الاخطار الاخلاقية التى تنجم عن الاحتفاظ بعشرة آلاف رجل من
غير نساء ، وأعلنت الحكومة أنها جلبت عددا معيناً من زوجات العمال الصينيين
لرأى أسقف كنتربرى عندئذ أن الاخلاق قد أصبحت فى حرز أمين . غير أن
المتشككين هزوا رؤسهم لما علموا أن عدد النساء اللاتى جرى بهن كان اثنتين
لا غير .

ومنح الشعب كامبل بانرمان فى آخر الامر أغلبية عظمى على الرغم من
لحديثه عن « الطرق الوحشية » . وظن السذج البسطاء أن الاستعمار
لوالحرب قد انتهى أمرها ، وأن الحكومة الجديدة ستسير فى طريق نحو السلام
ولكن كانت هناك لسوء الحظ أقلية صغيرة من حزب الاحرار تؤيد الاستعمار
باستمرار ، وكان من هذه الأقلية سير ادوارد جراى الذى صار وزيراً للخارجية .
وبينما كان الشعب يعطى صوته متحمسا ضد الحرب وافق هو ، بدون علم
مجلس الوزراء ، على المخادئات العسكرية مع فرنسا ، وهى مخادئات لم تكن
قد جعلت الحرب الكبرى أمراً محتوماً ، قد جعلت على الاقل اشتراك انجلترا فيها
إذا وقعت أمراً محتوماً .

وكانت النتيجة إنه ، على الرغم من أن رودس قد مات قبل الحرب مباشرة

وأن تشمبرلين قضى بعد سنتين من اشتعال نارها ، وعلى الرغم من أن البرلمان ،
ندم على الشرور التي ارتكبتها في أيامها ، قيدت حفنة من الرجال انجليزياً
بسلوك الاساليب آتعتيقة الغاشمة مستعنين على ذلك بوسائل خفية ،
وساقوا بلادهم معصوبة العينين في طريق الكارثة العالمية .

٦ - آسيا

وكانت السياسة الاستعمارية الأوروبية أقل نجاحاً في آسيا منها في
أفريقيا وقد سلكت للوصول الى غايتها طريقاً مختلفاً . وينبغي لنا أن نعتبر
روسيا الآسيوية مستعمرة وليست إمبراطورية تم الحصول عليها بطريق
الفتح ، فقد كان السكان الاصليون قليلين وكانت مقاومتهم للمهاجرين
الروس أقل من مقاومة بعض الهنود الحمر للبيض في الولايات المتحدة . وكان
مركز بريطانيا قد استقر فعلاً في الهند في سنة ١٨١٥ ولم يحدث فيه أي
تغيير مهم خلال الفترة التي نبحث فيها . ومع ذلك فقد ولد الاتصال بالأفكار
السياسية الغربية حركة قومية في الهند ، في أجزاء أخرى من آسيا ، بدأ
يخشى بها الانجليز قبيل اشتعال نار الحرب الكبرى x

كانت المناطق المفتوحة للمنافسة الاستعمارية هي الإمبراطورية العثمانية
وبلاد إيران والشرق الأقصى . وكان اضمحلال تركيا قيد أثار نهم الدول
الكبرى منذ أن تساوم نابليون والاسكندر على القسطنطينية وبلاد الشام
والقلاخ والبقعان ، إلا أن الغيرة المتبادلة حالت دون تفسيم كالذي تم في
أفريقيا بنجاح . وكان للروس والفرنسيين والانجليز مصالح في الشرق
الادنى ، ولكن ألمانيا حلت بالتدريج محل انجلترا في صداقة السلطان ،
وأصبحت آسيا الصغرى حقلاً لاستثمار رأس المال الألماني ، وأثار مشروع
خط الحديدى بين برلين وبغداد حماسة الاستعماريين الألمان بنفس الطريقة
التي أثار بها مشروع خط القاهرة - رأس الرجاء الصالح الحديدى
الاستعماريين في انجلترا (ويبدو كأنما الاستعماريون في جميع البلاد
مشغوفون بالأحرف المتكررة في أوائل الكلمات) ، وقد اعترضت كل من
روسيا وانجلترا على انشاء خط حديدى يمتد من برلين الى الخليج الفارسى ،
ولكن تم التوفيق بين وجهات النظر في صالح ألمانيا قبل اندلاع نار الحرب
مباشرة .

وكانت إيران ، أكثر البلاد الإسلامية ثقافة وأرقاها فناً، قد اعتنفت الأفكار
التحريرية وأنشأت برلماناً بعد قرون طويلة من فساد الحكم . ولم يكن ذلك

• يشير المؤلف الى تكرار الحروف الأولى في كلمات

• يقصد المؤلف دائماً بالحرب الكبرى الحرب العالمية الأولى لان كتابه يبحث في الفترة

الواقعة بين ١٨١٤ و ١٩١٤ .

عما يروق إنجلترا او روسيا . واستولت إنجلترا ، بمقتضى اتفاق تم في سنة ١٩٠٧ ، على منطقة في الجنوب تحوى حقول بترول ذات أهمية خاصة للبحرية البريطانية ، التى قررت قبل ذلك مباشرة استبدال البترول بالفحم فى الاسطول ، بينما استولت روسيا على منطقة أوسع بكثير وقضت على أنصار الدستور بالوحشية بالمأوفة للنظام القيصرى ، وتركت منطقة فى الوسط تضم أقل من ربع البلاد تتمتع باستقلال اسمى * .

وكان أهم من هذه الحوادث التى وقعت فى الشرق الادنى ما كان من اثر للتدخل المتكرر من جانب الرجال البيض فى الصين واليابان . وفى القرن السادس عشر والسابع عشر أرسل البرتغاليون من ماكا والاسبان من مانيلاً مبشرين وأسلحة نارية الى كل من البلدين . وقضى اليابانيون بعد أن تعلموا صنع الاسلحة الذارية على الذين اعتنقوا المسيحية وأغلقوا بلادهم فى وجه الاوروبيين باستثناء سفينة هولندية واحدة فى العام . أما الصينيون فقد كانت آراؤهم فى المسيحية كراى فلنير فيها ولكنهم اضطروا الى الاعتراف بأن الجزويت تفرقوا عليهم فى قدرتهم على التنبؤ بالحسوف والكسوف ومن ثم استمروا يتحملونهم لهذا السبب . ولم يكن أى من لبلدين يعتقد أن الرجال البيض يستطيعون هزيمتهم فى الحرب .

غير أن الصينيين واليابانيين تفتحت أعينهم على الحقيقة ، الاولون على يد إنجلترا والآخرين على يد أمريكا . فقد حارب الانجليز بالصين فى سنة ١٨٤٠ لان السلطات الصينية اعترضت على استيراد الافيون . ووضعت المعاهدة ، التى عقدت نتيجة لهذه الحرب ، الاسس التى قام عليها النظام الذى استمر يعمل به فى الصين الى ما بعد الحرب والذى لم تزل كثير من اسسه قائمة حتى الآن * . فاتفق على أن تتلرف على الجمارك الصينية هيئة من الموظفين المسئولين فقط أمام رئيسهم الذى كان انجليزيا طالما ظلت إنجلترا تختص بالنصيب الاكبر من تجارة الصين الخارجية ، كما اتفق على الا تزيد ضريبة الواردات على ٥٪ من قيمة ما يستورده حتى على أشياء مثل الكحول ، و (لمدة طويلة) الافيون واستولت الدول الاجنبية مجتمعة على عدد متزايد من « موانئ المعاهدة » يقع الكثير منها على بعد مئات الأميال من البحر ، وفقدت الصين سيادتها الفعلية على هذه المدن ولم يبق لها فيها سوى السيادة الاسمية . واتفق على أن يخضع الاجانب فى الصين لقوانينهم الخاصة والا يحاكموا الا أمام قضاة من جنسيتهم . ومع ذلك فقد استمر

* عالج تقسيم ايران بين روسيا وانجلترا بتفصيل اولى فى مقال « سياسة الاتلاق من ١٩٠٤ الى ١٩١٥ التى يتضمنها كتاب « العدالة فى اوقات الحرب » من صفحة ١٧١ الى صفحة ١٩٣ .

* لقد تبدلت هذه الحال كثيرا بعد ذلك للم يعد للنظام القديم اثر فى الصين الآن .
(المترجم)

الصينيون ، الذين تفرقوا على العالم كله منذ القرن الثالث قبل الميلاد ، يحتفظون بكبرياتهم وينظرون الى الاجانب باعتبارهم مصدر ازعاج أكثر منهم مصدر تهديد .

أما في اليابان فقد اتخذت الاحداث طريقا مختلفا عن هذا كل الاختلاف . فقد جعلتهم حملة أمير البحر أميري ، التي طالبت في سنة ١٨٥٣ بإنشاء علاقات تجارية مع الولايات المتحدة ، يدركون أن الاسلحة قد تقدمت منذ آخر اتصال لهم بالمدينة المسيحية في أوائل القرن السابع عشر . فأذعنوا لما طلبه مؤقتنا كما أذعنوا للانجليز الذين جاؤا بعدهم مسرعين . وعقدت معاهدات تجارية وفتحت « موانئ معاهدة » لتجارة ، ولم يساور الشك أحدا من الغربيين في أن الامور كلها ستسير وفقا للخطة المرسومة . وهذا ما أحدث فعلا ، ولكن الخطة كانت من وضع اليابانيين لا من وضع الرجال البيض . فسرعان ما تعلم اليابانيون كل ما يتعلق بالقدرة الحربية والبحرية في الحضارة الأوروبية ، واستعادوا سلطتهم على موانئ المعاهدة ، وخضع الاجانب للقوانين والمحاكم اليابانية واستمرت التجارة ولكن على أساس الذل للند لا على أساس مصلحة الرجال البيض وحدهم .

وعندما اقتتل اليابانيون الصينيون على كوريا في سنة ١٨٩٤ وادعى كل منهم أن له السيادة عليها ، دهش العالم للهزيمة السريعة السباحة التي منى بها الصينيون . كانت النتيجة أن حدث سباق بين الدول لاحتلال الصين فطالب الفرنسيون بمنطقة نفوذ لهم في الجنوب والبريطانيون في حوض نهر اليانجتسى ، واستولوا الروس على منشوريا وسرهم أن حصلوا أخيرا في بورت آرثر على منقذ حر الى المياه الدافئة . وكان من حسن حظ الالمان أن قتل لهم مبشران في شاننوغ عام ١٨٩٧ فانتزعوا من الصين تعويضا لهم عن هذا العمل ميناء كيواو وشو وامتيازات ثمينة بإنشاء خطوط جديدة في المنطقة التي تقع خلفها . وأخيرا هاجم بعض الصينيين الرجعيين الجهلة « الملاكومون » بتشجيع الامبراطورة الارملة ، الشيطان الاجانب حينما وجدوهم وخاصة في الارساليات التبشيرية وفي المفاوضات في بكين . وأرسلت حملة مشتركة من الدول الاجنبية في سنة ١٩٠٠ لتأديب البلاد ، ونهبت بكين وفرضت على البلاد غرامة ضخمة ، وأصبح من حق حى المفاوضات منذ تلك اللحظة أن يحمى نفسه بفرق عسكرية اجنبية ويمنع الصينيون من بناء منازل بالقرب من جدرانهم . واعتقد الناس عندئذ أن الصين قد أحنث رأسها ذلا لأوروبا .

ولكن الحرب اليابانية الروسية التي دارت رحاها بعد اربع سنين من ذلك

الوقت بدلت كل شيء . فقد اعتبر اليابانيون أن حقهم في كوريا قد تقرر من الحرب مع الصين . غير أن بعض الفرانديزات الروسيين كانت لهم امتيازات . في قطع لاشجنز من غابات البلاد فضلا عن أن الاستيلاء على كوريا كان يبدو ضروريا لاستكمال حيازة منشوريا . جعل انشاء الخط الحديدى الجديد في سييريا الحرب تبدو عملا سهلا فى نظر السلطات العسكرية الروسية . الا أن اليابانيين أثبتوا أنهم أقوى الفريقين ، فقد دمروا الاسطول الروسى فى البحر . واستولوا فى ألبر على بورت آرثر ومنشوريا الجنوبية حتى مكدن . وكانت هذه أول مرة منذ أيام عظمة الاتراك هزم فيها الأوروبيون على يد شعب غير أوروبى . وكان الاستعمار الوحيد للقائم فى الصين منذ تلك اللحظة هو الاستعمار اليابانى أما الأوروبيون فلم يبقوا فيها خصوصا بعد الحرب الكبرى الا من باب التسامح لا غير .

وكان لآثار الحرب اليابانية الروسية من الأهمية فى روسيا ما كان لها فى الصين . فقد أدت أولا إلى ثورة سنة ١٩٠٥ التى أقامت دستورا وبداية حكم برلمانى . ثم أدت ثانيا إلى تغيير شامل فى سياسة روسيا الخارجية فلم تعد المغامرات فى الشرق الأقصى مستطاعة لهم . وكان مستحيلا على الفرنسيين أن يساعدوا الروس هناك بسبب التحالف الانجليزى اليابانى . ولهذا السبب عينه ، وكذلك بسبب الاتفاق الذى انجليزى الفرنسى فى سنة ١٩٠٤ وهى نفس السنة التى بدأت فيها الحروب الروسية اليابانية ، لم يكن متوقعا أن يساعد الفرنسيون الروس على انجلترا . وجعل ذلك كله من المستحيل على روسيا اتباع سياسة التوسع فى اسيا ، وهكذا زالت أسباب العدواة بين انجلترا وروسيا وهى العدواة التى ظلت قائمة منذ بدأ الروس تقدمهم فى وسط اسيا وشعرت انجلترا من جرائه بقلق شديد على امبراطوريتها الهندية . وكانت النتيجة أن وجه الروس طموحهم نحو البلقان والشرق الأدنى حيث اصطدموا بتركيا والنمسا وهنغاريا وبألمانيا تبعا لذلك . ولم تكن هذه السياسة تتعارض مع مصالح بريطانيا فى أى مكان ، بل انها على النقيض من ذلك جعلت صداقة بريطانيا ممكنة ومرغوبا فيها . ومن ثم كان الاتفاق الذى انجليزى فى سنة ١٩٠٧ الذى أكمل تجمعات الدول الكبرى التى استمرت حتى الحرب الكبرى (الأولى) .

وقضى تفوق اليابان فى الشرق الأقصى على مطامع الدول الأوروبية فى الصين ، وبذلك زالت من ميدان المساومة بينها آخر منطقة مهمة لم يكن قد تم الاستيلاء عليها . ومن هذا الوقت كانت خريطة العالم قد تم تخطيطها وأصبح مكسب أى دولة لا يمكن أن يتحقق إلا على حساب دولة أخرى . وزاد من حدة المنافسة بين الدول وجعل التوفيق بينها أكثر صعوبة من ذي

قبل . فقد أصبحت قوى التوسع التي كانت لا تجد لها متنفساً في الاستعمار مضطرة الى العمل ، لا في المناطق النائية غير المستثمرة بل في مناطق أقرب منها اليها وعن طريق المنافسة المباشرة بين الامم المتجاورة . وقد تنبأ رجال السياسة نتيجة ذلك التنافس ، ولكنهم كانت تدققهم الارادة والذكاء اللذان لمنع وقوعها ، وساقهم التيار نحو الكارثة لا حول لهم ولا طول ، فإن لم يروا امامهم المصير المحتوم .

٥ - قضاة أوروبا

الفصل الثانى والثلاثون

قضاة أوروبا المحكمون

اتخذ انقسام الدول الكبرى فى أوروبا الى معسكرين فى سنة ١٩٠٧ الاخيرة التى استمرت حتى الحرب الكبرى . وكان العالم قد تغير منذ مؤتمر فينا أكثر مما تغير فى أى قرن خـر مضى : فقد زادت الحرية وزاد التنظيم معا وبقدر متساو تقريبا . فأما من حيث الحرية فقد اختفى رق الأرض ، وأدخلت النظم البرلمانية فى بلاد لم تكن فيها من قبل ، وصارت هذه النظم أكثر ديموقراطية فى البلاد التى عرفنها من قبل ، وتمت للنقابات صبغتها القانونية ، ومنحت الأجراء ما يقرب من المساواة فى القدرة على المساواة فى معاملاتهم مع أصحاب الأعمال ، وسمحت الحكومات فى كل مكان بالهجرة ، وبدأت الهجرة تترك أثرا كبيرا فى أوروبا الشرقية والجنوبية ، واستقر التسامح الدينى فى كل مكان باستثناء الامبراطورية الروسية ، وأصبح القانون الجنائى أقل وحشية، وألغيت الرقابة على الصحف أو خففت . وفى ميدان السياسة صارت حرية الرأى أقرب لأن تكون حقيقة واقعة منها فى أية فترة سابقة .

وكان التغير فى التنظيم مماثلا فى روعته لما حدث فى الحرية . فقبيل أصبحت المنظمات الاقتصادية على نطاق واسع ضرورة يحتمها اختراع المسك الحديدية ، وصارت ممكنة بفضل قانون المسئولية المحدودة . وزاد حجم تجمعات رأس المال باستمرار فى كل من أوروبا وأمريكا ، وبذلك تركزت القوة الاقتصادية فى أيدي عدد قليل من الاقطاب ، وأصبحت الحكومات ، التى كانت يقوم بوظائف قليلة نسبيا فى سنة ١٨١٥ ، تعمل فى عدة اتجاهات جديدة وأهم هذه الاتجاهات هى التربية : وكان وجود ديموقراطيات متعلمة فى البلاد الغربية مما جعل فى الامكان قيام تعاونى قومى وثيق لم يعرف مثله من قبل الا فى دول المدن الصغيرة . وجعلت المسك الحديدية والتلغرافات والتليفونات على وسع رجال الحكم الموجودين فى المراكز اصدار تعليمات سريعة الى المقيمين فى الجهات النائية . وبذلك قويت سلطات الحكومات . وقامت خارج أوروبا ، حيث كان الهنود الحمر يصطادون وزعماء القبائل الافريقية يقودون محاربيهم فى المعارك ، مدن جديدة وآلات حديثة أدخلت الناس فى فلك ستوق الاوراق المالية .

وعلى الرغم من أن العالم تغير كثيرا منذ سنة ١٨١٤ فقد كانت هناك ناحية واحدة لم يمسها تغيير مهم ، وكان ما طرأ فيها من تغيير تخلصا الى الوراثة لا تقديما . فقد ظلت العلاقات الخارجية بين الدول الكبرى ، كما كانت فى أيام مؤتمر فيينا ، فى أيدي أفراد ربما كانت سلطتهم خاضعة لفيود من الناحية العملية أن تكون سلطات مطلقة . فعلى الرغم من قيام برلمانات فى الامبراطوريات الشرقية الثلاث ، فان علاقاتهم الخارجية ظلت خاضعة اتم الخضوع لباطرتها كما كانت الحال فى عهد استكندر الاول ومترنيخ . وفى انجلترا ابعدت العلاقات الخارجية عن الاشراف الفعال للمبرلمان بسبب السنة التقليدية سنة الاستمرار فى السياسة الخارجية ، فقد ظلت وزارة الخارجية فى أيدي أبناء أسر الاحرار الذين تولوها منذ سنة ١٨٣٠ أيا كان الحزب الحاكم . وفى فرنسا كان وزير الخارجية أقل سلطة من أمثاله فى الدول الاخرى فى أوروبا ، إلا أن التحالف بين الموظفين الدائمين وبعض ذوى المصالح الاقتصادية أدى الى نتائج شبيهة جدا بالنتائج التى أدت اليها السلطة المطلقة فى أماكن أخرى .

وبينما ظلت العلاقات على وضعها القديم ، زادت قدرة الدول على الاضرار بعضها ببعض الى حد يجعل عن الوصف . فقد غير العلم التصنيع فن الحرب وجعل فى الامكان تخصيص جزء من السكان للقتال وانتاج الذخائر أكبر بكثير مما كان يمكن تخصيصه للتدمير أيام حرب نابليون . ومكنت سرعة التحرك ونقل الأوامر الجيوش من غزو بلد معاد بأسرع مما كان يحدث فى أى وقت مضى . ومن ثم أصبحت الامم أكثر خوفا بعضها من بعض وزاد هذا الخوف من حدة الشعور القومى الذى يولد بدوره خوفا أكبر وبالنتالى زيادة الشعور القومى فى الناحية الاخرى من الحدود . وعمل الخوف القومية فى تفاعل يؤدي الى كوارث ، على أن يزيد كل منهما الآخر باستمرار كما شجعها على التنظيم القومى فى سبيل الحرب ، وخاصة الحرب المفاجئة ، لان أسرع الدول فى التعبئة تستطيع أن تضمن التقاء الجيوش فى أرض العدو . وكان لابد أن تعمل الاساطيل والجيوش والدبلوماسية فى تعاون وثيق ، وأن يكون تفكيرها على الدوام هو تفكير الرجال الذين ينتظرون الاشارة لبدء السباق .

وكان الافتقار الى التنظيم فى العلاقات الخارجية مرتبطا بنقص فى التنظيم فى ناحية من نواحي الحياة الاقتصادية ، وهى استثمار رأس المال الجديد . وقد رأينا المكاسب الهائلة التى أصابها سيسل رودس والملك ليوبولد من استثمار رأس المال فى أفريقيا . وكان هناك آخرون ينشدون ارباحا مماثلة عن طريق القيام بالمغامرات الإستعمارية فى أجزاء كثيرة من الدنيا .

وكان الحصول على هذه الارباح يتم تارة عن طريق الغزو ، وتارة أخرى

عن طريق الدبلوماسية . وارتبطت صناعة الصلب والحديد في الدول الكبرى ارتباطا وثيقا بصناعة الاسلحة التي كانت تحاول دائما بيع هذه الاسلحة الى الدول المتخلفة . فعندما أغرق اليابانيون سفن قيصر روسيا ألج عليه امبراطور ألمانيا مرارا بأن يأمر بصنع سفن جديدة له في مصانع ألمانيا ، ولكن القيصر فضل أن يضع ثقته في حلفائه الفرنسيين . وعندما أراد سير بازيل زهاروف أن يكون ثروة من بناء الغواصات لم يصب نجاحا في أول الامر مع أي من الدول الكبرى . ولكنه نجح أخيرا في حمل مواطنيه اليونانيين على شراء واحدة منها ، وأدى ذلك الى أن اشترى الاتراك اثنتين واشترت دولة أخرى ثلاثا وأخرى أربعة وهكذا حتى غرقت اللوزبتانيا وهو تسلسل كان مجزيا لبناء السفن من أول الى آخره . وبهذه الطرق أصبح استثمار رأس المال الجديد مرتبطا بالايعيب الدبلوماسية ، واعتمدت أرباحه في كثير من الاحيان على خطر الحرب .

وكانت الشؤون الخارجية تعالج في كل مكان معالجة الاسرار الغامضة يضير المصلحة القومية عرضها عارية أمام انظار غير العارفين بدخائلها . وكان من حسن حظ المؤرخين أن أدت الثورات التي نشبت في الامبراطوريات الشرقية الثلاث الى نشر وثائق الدول في تاريخ مبكر جدا عما كان يمكن أن يحدث لو أن الحكومات القديمة ظلت باقية في الحكم . وبذلك أصبح الآن في وسعنا أن نحكم بدقة على أعمال الرجال الكبار الذين كانوا يتحكمون في قوات بلادهم الهائلة في السنوات الاخيرة قبل الحرب الكبرى وكانهم عاشوا منذ مائة عام .

وكان من أهم هذه الشخصيات كما كان من أهم الشخصيات سنة ١٨١٤ قيصر روسيا وامبراطور النمسا وملك بروسيا الذي صار امبراطور ألمانيا . غير أنه حدث بين هذه الدول الشرقية الثلاث تغيير كبير في أهميتهم بعضهم بالنسبة لبعض . فالمانيا الآن تآنى على رأس القائمة والنمسا في ذيلها ، بينما فقدت روسيا ، وإن ظلت في مركز ممتاز جدا ، المكانة التي كان يحتلها اسكندر الاول وأصبحت هذه المكانة لألمانيا ، وأحسبت انجلترا التي كانت ما زالت قوية بأسطولها وامبراطوريتها أنها مهددة من ناحية ألمانيا . وكانت سلطة الشؤون الخارجية في انجلترا منذ نهاية سنة ١٩٠٥ في يد سيرادوارد جراى ينفرد بها انفرادا يكاد يماثل انفراد امبراطور ألمانيا بالسلطة في بلاده وكانت فرنسا تبدل سياستها من حين الى حين ، ولكن مقاليد الامور في السياسة التي تم لها النصر أخيرا كانت في يد دلكاسية وبونكاريزه ولم يكن كل هؤلاء الرجال مجرد ممثلين لقوى غير شخصية ، بل انهم كانوا يؤثرون في الاحداث بفضل مزاجهم الشخصى .

وكانت هناك عناصر ثابتة في الدبلوماسية الأوروبية طوال الفترة المحصورة من سنة ١٨٧١ وسنة ١٩١٤ ، وأخرى متغيرة . وكان أهم

العناصر الثابتة هو عداء فرنسا لألمانيا . وقد تقبل بسمارك ذلك وعده أمرا لا مندوحة عنه ، وعالجه من ناحيه بتحسين علاقة بروسيا ، ومن ناحية أخرى بتشجيع انجلترا وفرنسا وايطاليا على القيام بمغامرات استعمارية تؤدي الى اصطدامها بعضها ببعض . وحسنت فرنسا بعد سقوط بسمارك مركزها الدبلوماسي شيئا فشيئا ، اولا بالمحالفة الفرنسية الروسية ثم بالاتفاق الودي مع انجلترا وأخيرا باضعاف مركز ألمانيا والنمسا في البلقان نتيجة لحروب البلقان ، هذا الى أن كان مفهوما أن المصادر الصناعية للولايات المتحدة ستكون في متناول فرنسا وانجلترا أكثر من ألمانيا في حالة وقوع حرب ، وتكاد مؤسسة مورجان بنوع خاص تعد شريكة في الاتفاق ، وكلما تحسن مركز فرنسا زاد أمل السياسيين وأرباب الصناعة الفرنسيين في استرداد المقاطعات المفقودة وخاصة مراكز الحديد الخام في اللورين . وكانت آمال الدول الأخرى ممكنة التحقيق في حروب صفري ، ولكن استعادة الألبان واللوين كانت مستحيلة الا في حرب أوروبية عامة . ومن ثم كانت مصالح فرنسا وسياستها ، أكثر من أية دولة كبرى أخرى ، تعمل لوقوع صدام كبير بمجرد أن ضمنت تأييد انجلترا لها بمقتضى خرى ، تعمل لوقوع صدام كبير بمجرد أن ضمنت تأييد انجلترا لها بؤسج الاتفاق الودي الذي عقد سنة ١٩٠٤ .

وكان أهم رجل في أوروبا ذلك الوقت اذا حكمنا له من نفوذ على الاحداث ، هو الامبراطور وليم الثاني . وقد أمضى وليم الثاني صدر حياته في ظل جده وليم الاول وجدته الملكة فيكتوريا . وكانت والدته ، كبرى بنات الملكة فنكوريا ، زوجة لولي العهد فردريك الذي اعتلى العرش وهو على وشك الموت بعد أن انتظره حتى بلغ السابعة والخمسين ولم يكن يستطيع أن يشترك بأى نصيب في الحكم مدة جلوسه على العرش التي استمرت بضعة أشهر . ولم يكن وليم الثاني ، وقد ولد بذراع ضامرة موضع حب والدته في أى وقت من الاوقات ، وقد أعربت مرة لشخص نمساوى عن اعجابها الكبير بولي عهد النمسا اذا قارنته بأنها « الغنيط البليد » ، (وقد أعاد الرجل كلماتها بطبيعة الحال) . وكانت امه امرأة طموحة ذات شخصية قوية تهفو نفسها الى اعتلاء العرش ، وكانت تكره بسمارك وتكره ألمانيا ولم تكلف نفسها عناء اخفاء احساسها بانها انجليزية . وعاش الامبراطور العجوز طويلا - فقد مات في التسعين من عمره - وفقد آمالها شيئا فشيئا وأدركت أن حكمها (ونقول حكمها لان زوجها كان خاضعا لها) سيكون قصيرا وأضاف ذلك حسدا الى ما كانت تحسه من كره نحو ابنها السدى تشاجرت معه في الساعات الأخيرة من حياة زوجها شجارا لم تمنح آثاره قط . وكان كره وليم لامه مصدر كرهه لانجلترا .

على أن انجلترا لم تكن موضع حقه فحسب ، بل انها كانت أيضا

موضع اعجاباه اعجابا لا يقل عن حقه . وكان يوجد فى تلك الايام « دويلة ملكية » أوسع نفوذا من « الدويلة الحمراء » أو « الدويلة السوداء » فكان فى شمال أوروبا أسرة ملكية واحدة يحكم بعض أعضائها بلادا مختلفة ، وكانت الملكة فيكتوريا هى الرأس المعترف به لهذا البيت العظيم . فلم يكن امبراطور ألمانيا وحده حفيدها بل أن قيصر روسيا أيضا تزوج حفيدتها . وقد كتب نيقولا بفخر فى مذكراته عندما تمت خطوبته « سأناديها يا جدتى ، ومنذ أن دخلت فرساي فى حوزة الجمهوريين (١) لم يكن هناك قصر ملكي فى بهاء قصر وندسور . وكان وليم النسائي كلما دعى الى الإقامة فيه أبان حياة « جدته » يحبس بسرور ممزوج بالتفاخر ويتباهى بروعته عند عودته . ولم يكن يستطيع مقاومة نزعته فى التحبب الى الانجليز ، وان كانت محاولاته فى ذلك سمجة الى حد اضطر وزراه الى تحذيره باستمرار من هذا الاسراف فى اعلان العواطف . وكان اعجاباه بالانجليز مرتبطا بالملكة فكتوريا كلما كان حقه عليهم مرتبطا بأمه .

وقال الامبراطور فى كيل سنة ١٩٠٤ أمام الملك ادوارد يدافع عن سياسته الخاصة ببناء أسطول ضخم ، وهو دفاع صحيح من الناحية النفسية ولكنه قد يكون بعيدا عن الحكمة من الناحية السياسية : « عندما كان يسمح لى وأنا صبي صغير أن أزور بليموث وبوتسموث فى رفقة حالات طبيبات وأمهات البحر الطيبين ، كنت أعجب بالسفن الانجليزية الشامخة فى هذين الميناءين العظيمين . واستيقظت عندئذ فى نفسى الرغبة أن أنشىء لى سفننا مثلها فى يوم من الايام وأن يكون لى أسطول جميل مثل الاسطول الانجليزى عندما أكبر » . وقد حاول بولوف مستشاره أن يمنع نشر هذا الحديث قائلا انه « اذا وصف الاسطول بهذه الطريقة العاطفية باعتباره نتيجة لميوله الشخصية وذكريات طفولته فان الرايشتاج قد يرفض اقرار الاموال اللازمة له ، ولكن الامبراطور لم يلق . فقد أصر أن يرى « العم برتى » كل أسطوله على الرغم من أنه جذر مرارا من أنه كلما زاد اعجاب الملك بالاسطول كان الأثر السياسى أسوأ ، وكانت تحسدوه باستمرار رغبة فى أن يكون عظيما مثل « جدتى » .

وكان لذراع الامبراطور الضامرة اثر سيء فى شخصيته يماثل اثر أمه أو جدته . فقد جعلته خيلاؤه القلقة ينشد الظهور والتباهى باعتباره ضرورة لا بد منها ، وكان مركزه على رأس أسرة هو هزلون يحتم عليه أن يكون جنديا غير أنه لم يتعلم ركوب الخيل الا بصعوبة كبيرة وبمجهود كمجهود الابطال ، ولم يكن بد من أن تكون الهياذلى التى يركبها هادئة ذلولة . وكما كان يحدث فى المناسبات المرحجة مثل زيارته لطنجة حين نزل بها ليرضى بولوف ويشير حتى فرنسا وانجلترا ، كان يشتد قلقه كلما أحس بأن الجواد الذى يركبه

(١) الى منذ أصبحت حكومة فرنسا جمهورية

نشط أكثر من اللازم . وقد كتب بعد مدة طويلة من زيارته لطنجة خطابا الى بولوف يعرب فيه عن تذمره فقال « لقد نزلت في طنجة لانه ارادتنى أن أنزل بها ذلك لمصلحة الوطن وأمتطيت جوادا غريبا على الرغم مما تسببه لى ذراعى العاجزة من صعوبة فى الركوب وقد كان الجواد يكلفنى حياتى وهو ما كنت تقامر به فى هذه اللعبة » وعلق بولوف على ذلك بقوله « ليس من بين الصفات الكثيرة المحببة للامبراطور صفة تروق المرء أكثر من الطريقة التى تتجلى فيها العزيمة بحق والتى تحمل بها شلل ذراعه اليسرى وتغلب عليه .

وقد أصبح الامبراطور بفضل ارادته القوية فارسا جريئا وراميا ماهرا ولاعب تنس ممتاز دون أن يحاول مطلقا اخفاء هذا السيب الجثمانى «

وهذا صحيح لا شك فيه ولكن المجهود الذى بذله جعل كبريائه تتجه وجهات وخيمة العاقبة .

وكان حبه الظاهر للاعتداء واستعداده للتحدى ومباهاته بقدرته الحربية كانت رداء يخفى به عصبيته ويتقى به قول الناس أنه ناقص الرجولة . ولو أنه ولد رجلا غنيا فى مركز غير رسمى لوجد سعادته التامة فى أن يجعل نفسه من رعاة الفن : ولاحظ نفسه بمصورين وموسيقيين يطرون صورهم ونغماتهم ، ولارضيت حاجته الى الاطراء بشئ من الاعجاب البعيد عن الاخلاص لاننتاج فنى مما ينتجه ، بدلا من أن يضطر الى الاتجاه فى طريق كان أحد العوامل التى أدت الى دمار أوروبا . ويبدو مزاجه الطبيعى فى نوع الاصدقاء الذين اختارهم بمحض ارادته ، ومن بين هؤلاء الكونت فيليب أيولنبرج الذى كان أوثقهم صلة به . وكان أيولنبرج مخنبا وخبيثا ، مصابا بانحراف جنسى مثل اصدقاء الامبراطور الذين كانوا على صلة وبيقة به . وكان قد بدأ يحدث رد فعل ضد صفات الرجولة فى بروسيا القديمة حتى فى الدوائر العسكرية نفسها . فقد كان رئيس المجلس العسكرى الكونت هوسلن - هايسلر يرتدى فى كثير من المناسبات ملابس راقصات الباليه . وفى آخر مرة رقص امام الامبراطور وسقط فى آخر الرقصة ميتا - مما سبب الحزى لرعايا جلالته .

ولم تكن قوة شخصية وليام الثانى فى مثل قوة بسمارك أى قوة رجل ذى ارادة لاقتل ، بل كانت تميل الى قوة الشخصية فى الممثل الذى يخشى الا يكون الدور الاول فى المسرحية من نصيبه . وقد كان سببا فى صعوبة التفاهم بينه وبين المستشار العجوز الذى ظل مدى ستة وعشرين عاما الحاكم المطلق فى بروسيا . وكان الرجل العجوز يتمتع بميزة بفض الامبراطورة فرديريك له ، ومن ثم ظل فى الحكم العامين الاولين من العهد الجديد . غير أن

الحلاف الذي لم يكن منه مناص وقع في سنة ١٨٩٠ وعزل بسنمارك من منصبه

وحدث ان ثارت في هذه اللحظة بالذات مشكلة حيوية يجب البت فيها هي مشكلة تجديد معاهدة « اعادة الضمان » مع روسيا . فقد كان الحلاف النمساوى الالمانى الذى عقد فى سنة ١٨٧٩ يتضمن خطر تحالف فرنسنا مع روسيا وارآد بسمارك ، ان يحول دون ذلك فعقد معاهدة سرية مع روسيا مدتها ثلاث سنوات اتفق بمقتضاها الطرفان على ألا ينضم أحدهما الى دولة ثالثة فى الاعتداء على الطرف الآخر .

وكانت لروسيا والنمسا مصالح متعارضة فى البلقان ، ولكن بسمارك صدم على أن يكون صديقا للطرفين . وظلت الدول الشرفية الثلاث ذات علاقة ودية منذ سنة ١٨١٣ باستثناء فترة استمرت أسابيع قليلة فى سنة ١٨٦٦ وعملت هذه الصداقة على الاحتفاظ بالسلام فى أوروبا ومنعت فرنسا من ان تجد لها فيها حلفاء . واستطاعت المانيا بفضل معاهدة « اعادة الضمان » (التى كان يجب اخفاؤها عن النمسا) أن تفعل كل ما يمكن للمحافظة على الوفاء بين الاباطرة الثلاثة .

كانت هذه السياسة من صنع بسمارك . وكان مفضوبا عليه . ومن ثم فلا بد أن تكن سياسته خاطئة . وفى غمرة الارتباك الذى حدث فى الفترة بين عزل بسمارك واستقرار الامور لخلفه لم يكن هناك سوى شخص واحد يفهم دخائل الدبلوماسية الالمانية هو البارون هولشتاين وزير الخارجية . واوصى هولتساين بعدم تجديد المعاهدة لان الحكومة الروسية ترددت فى عقدها مع اى شخص آخر غير بسمارك . ولم يكن هو يرغب فى عودة بسمارك الى الحكم فلم تجدد المعاهدة وتحولت روسيا الى فرنسا وعقدت معها اتفاقا وديا فى سنة ١٨٩١ حلفا فى سنة ١٨٩٤ .

وكان هولشتاين الذى اكتسب بهذا العمل نفوذا كبيرا فى السياسة الخارجية الالمانية لاول مرة شخصية فذة فريدة فى نوعها . فقد حدث أثناء طفولته ان اشعلت النار فى حظيرة لأبيه مليئة بالضان ، وعندما حاول أبوه انقاذها داسته الخراف ومات قتيلًا تحت حوافرها . وقد تركت هذه الحادثة أثرا بالغا فى الصبى وظل طوال حياته عرضة لاضطراب عصبى كلما رأى خرافا « وأيا كان الأمر فلم يبد عليه شيء من الشذوذ حتى أمره بسمارك فى يوم من الايام عندما كان هولتساين سكرتيرا للسفارة فى باريس يقدم له أدلة ضد رئيسه كونت ارنيم الذى قرر بسمارك ان يقضى عليه .

واضطر هولتساين الى الشهادة ضده فى جلسة علنية بالمحكمة . وكان

ارنايم محبوبا من مجتمع برلين . فعومل هولتساين معاملة المنبوذ لانه قام بدور الجاسوس في زى صديق . وعاش منذ هذه اللحظة فى عزلة عن المجتمع وحتى الامبراطور نفسه لم ينجح الا مرة واحدة فى مقابلته بعد دعوة متكررة كان هولتساين يرفضها بدعوى انه ليست لديه ملابس تليق بالبلاط .

>

وقد قال القيصر مرة بعد سقوطه بسمارك ان اعزله كان أشبه برفع كتلة من الجرانيت والكشف عن الهوام التى تحتها . ولعلبه كان يفكر فى هولتساين ، ان كان يقول عنه ايام سقوطه انه « رجل فاضل الى أقصى حد » وقد وجد هنا « الرجل الفاضل » عزاءه عن عزلته الاجتماعية فى مباحث القوة السرية . فصادق ايولنبرج وجمع ضده فى نفس الوقت الادلة التى يستطيع بها ان يرسل « صديقه » الى السجن فى اى وقت شاء . ويقال إنه لما ذات ليلة من المطر المنهمر الى حانة ذات سمعة سيئة تستعمل ملتقى للمتحرفين جنسيا ورأى فيها رجلين فى زى البحارة اتضح انهما منكران فى هذا آلزى وكان يناديان بعضهما بعضا باسمى « كرواس » و « هوفمان » . وعرف أن « كرواس » هو ايولنبرج . ولما قابل بولوف لأول مرة بعد ذلك بسنين عدة عرف صوته ، لقد كان بولوف هو « هوفمان » نفسه ومكنته هذه المعرفة التى لاشك فيها ، والتى قيل ان هذا الحادث كان بدايتها من السيطرة على هذين الرجلين النابهين ، وجعلته بالتالى يعمل على رقيهما ، ولكنهما ، ايا كان سمو المركز الذى وصل اليه كانا مضطرين دائما لاتباع لسياسة التى يوصى بها أن يعنيا الاشخاص الذين يروقونه . ولهذا كانت سياسة ألمانيا الخارجية من سنة ١٨٩٠ عندما سقط بسمارك الى سنة ١٩٠٦ هى سياسة هولتساين . فهو الذى اشار برفض عرض تشمبرلين لعقد محالفة بين إنجلترا والمانيا وهو الذى اوحى بالسياسة المراكشية التى ارغم بولوف القيصر عليها على كره منه . ولم يجذب برفيه كروجر التى كانت من بنات أفكار القيصر ولكنه حرص على أن يكون بعيدا عند مناقشتها لانه يدرك ان تبعتها ستقع على عاتق مارشال وزير الخارجية الذى كان يريد اقصاءه ليضع محله بولوف . وكان الناس كلهم تقريبا يخشونه بسبب معرفته بالاسرار المشينة ومهارته فى الدسائس . وكان السبب فى سقوطه حادثا غير متوقع بالمرء فقد حدث فى سنة ١٩٠٦ ان اغمى على بولوف فى الرايشتاغ وعهد بجمع اوراقه مؤقتا الى مرؤوسه تشيرسكى . وكان من بين هذه الاوراق استقالة هولتساين التى كان يستعملها ، كعشرات المرات السابقة ، مجرد وسيلة من وسائل الضغط . ولكن تشيرسكى لم تكن تحيط به اسرار شائنة على خلاف الكثيرين غيره فذهب على الفور الى القيصر وحصل على موافقته على الاستقالة . وظن هولتساين أن يولنبرج هو المألوم على هذا فقضى عليه كما قضى على الكثيرين غيره من النابهين ، بان قدم معلومات عن اصدقاء القيصر الاخضاء الى الصحفي الراديكالى هارون الذى نشرها فى صحيفته . ومات هولتساين فى سنة

١٩٠٩ عجوزا فقيرا لا يكاد يبصر فى مسكن صغير فى حى من احياء برلين غير الراقية وهو نفس المسكن الذى عاش فيه طوال مدة سطوته . وقد نعته جريدة الديلى ميل عند وفاته قائلة انه « كان مثال الموظف البروسى من رجال مدرسة القديمة » لقد كان عالما مثقفا لا يعمل من العمل . وكان وطنيا من نوع خاص . الا ان طبيعته المستريبة دفعتة فى كل المواقف الحرجة الى أن يقدم لنصيحة الخاطئة وكان لاطخائه المثنوية شأن كبير فى خلق جو الحرب .

وتكشفت علاقة القيصر بايولنبرج واصدقائه عن جانب واحد من شخصيته ، ولكن خطاباته الى « نكس » اعز الناس لديه ؛مبراطور روسيا تكشف عن جانب آخر مختلف عن هذا كل الاختلاف . وكان نيقولا الثانى الذى اعتلى العرش سنة ١٨٩٤ أصغر من قريبه وليم يقل منه ذكاء وأضعف شخصية . فبدأ انه من الممكن اقامة علاقة بينهما يكون وليم فيها هو المتسلط . ومن ثم يجعل سياسة تتفق ومصالحة المانيا . ولم يستطع وليم أن يتخلى عن هذا الامل حتى بعد أن أصبح التحالف الثلاثى والاتفاق الثلاثى مجموعتين واضحتى المعالم بينهما عداة متبادل . كما انه لم يدرك بخلده أبدا ان ما كان يقوله لقريبه العزيز ضد فرنسا وانجلترا يمكن أن ينقل اليهما . ولما ان عقد الحلف الروسى الفرنسى مباشرة قال لنيكس : « ضع هؤلاء الاندال « الفرنسين » فى مراكزهم واجعلهم يلزمون السكون » وكان يؤله أن يعامل ملك مطلق الجمهوريين باحترام . ان محادثات الفرانكوفات مع زعماء الجمهورية تجعل الجمهوريين يعتقدون : انهم خلق شرفاء ممتازون يستطيع الامراء ان يختلطوا بهم دون حرج » ومن الطريف أنه أخطأ فى هجاء لفظ الجمهوريين (١) يضاف الى هذا انه « يجب ألا ننسى أن جوربه يجلس على عرش ملك فرنسا وملكتها وان لم يكن ذلك خطاه الشخصى . . نكس . . صدقنى ، ان لعنة الله حلت على هؤلاء الناس الى الابد ! »

ولم تقلح هذه الحجج فى ازالة الغشاوة عن عين قيصر روسيا ليرى وضاعة فرنسا . وقد أصاب وليم نجاحا أكبر - أو على الأقل خيل اليه ذلك - عندما كتب عن الخطر الاصفر وعمل على اثاره قيصر روسيا ليشن حربا مقدسة على بودا . وسر نشوب الحرب بين روسيا واليابان ، وأكد للقيصر تأييد المانيا المعنوى الكامل بشرط أن توقع روسيا معاهدة تجارية من النوع الذى تحتاجه المانيا . فلما رفض قيصر روسيا أن يبرم أى اتفاق سياسى دون علم فرنسا ، كتب وليم الى بولوف يقول : « ينبغى علينا الآن ان نضم اليابان ونوجه الى باريس ضربة تدمى أنفها ! »

وكان بغض الامبراطور للانجليز يبدو كلما ورد ذكرهم على لسانه . فهو يتحدث عنهم بأنهم « دولة تتدخل فيما لا يعنيهها » . ومع ذلك فانه عندما

اقترح تشمبرلين عقد محالفة معه ، كتب الامبراطور مباشرة الى « نكس اعز الناس لديه » مبالغا في وصف العرض ويطلب رايه في الظاهر ويشير في الواقع الى أنه لا يستطيع أن يرفضه الا اذا تقدم القيصر بعرض أحسن منه للفوز بصداقته . وقد ظل حتى سنة ١٩٠٦ يراوده الامل في أن يقوم القيصر باقناع فرنسا بالانضمام الى كتلة في القارة ضد انجلترا ، وكان يحس بأنه هو ونيقولا يستطيعان شخصيا السيطرة على العالم . وكتب في سبتمبر سنة ١٩٠٢ يقول : اننا بوصفنا حاكمين للدولتين اللتين تتزعمان الكتلتين الاوروبيتين الكبيرتين نستطيع أن نتبادل الرأي في أى موضوع عام يهم مصالح الكتلتين ، فاذا ما استقر رأينا على الطريقة التي نعالجها بها فان في وسعنا أن نقنع حلفاءنا بأن يتبنوا هذه الآراء نفسها واذا ما قرر الحليفان - أى الدول الخمس - أن السلام يجب أن يسود ، لم يكن أمام العالم من سبيل الا أن يظل في سلام وأن يتمتع بِنغمته . ومعنى هذا أنه يريد العودة الى سياسة الحلف المقدس التي أنشأت لاوروبا بحكومه دولية رجعية ظلت قائمة من سنة ١٨١٥ الى سنة ١٨٣٠ وقد أدت هذه السياسة الى المحافظة على السلام في الماضى ولكنها أصبحت مستحيلة في سنة ١٩٠٢ . فقد كانت فرنسا منذ سقوط نابليون رجعية ممزقة الاوصال ، ولكنها بعد سنة ١٨٧١ كانت متحررة غير راضية عن فقد الازماس والاورين . وكان بين روسيا والنمسا نفور بسبب تضارب مصالحهما في البلقان وفي القسطنطينية وازداد هذا التضارب بسبب نمو القومية الصقلية . واثار الاسطول الالماني في عداء انجلترا وجعلها تتطلع الى زيادة اشتعال نار البغضاء بين فرنسا وألمانيا ومن ثم لم تعد سياسة امبراطور ألمانيا ، ولعل ذلك لسوء الحظ ، مستطاعة بسبب النزعة الاستعمارية والنزعة القومية العدائيتين اللتين تسودان ذلك العصر في ألمانيا وفي غيرها من البلاد .

وكان أكبر أمل في كسب نيقولا ، كما كان يبدو للامبراطور ، عن طريق خوفه من المبادئ لتحررية والثورة . وقد نجح مرنينخ في استغلال هذه الطريقة ليحول اسمكندر الاول ضد اليونانيين ، وكان نيقولا الاول يكره الفرنسيين بعد سنة ١٨٣٠ وحاربهم في القرم ، كما أن جد نيقولا الثاني قد اغتيل بايدي الثوار الذين يمكن اعتبار مبادئهم الضارة من وحي فرنسا . ولم تكن انجلترا في نظر أى حاكم مطلق تفضل فرنسا من هذه الناحية . وكانت الغلبة لهذه الافكار بعض الوقت في سنة ١٩٠٥ . فقد هزم القيصر في الشرق الاقصى وكان يواجه ثورة في بلاده . وقد استشاط غضبا من انجلترا لتدمرها من حادث دوجرابنك التي أطلق فيها أسطولها في البحر البلطى وهو في طريقه الى اليابان النار على مراكب صيد انجليزية حسبها قوارب طوربيد يابانية . فأبرق الى امبراطور ألمانيا يقول : انى لا أجد من الالفاظ ما يعبر عن حنفي على تصرف انجلترا . واستغل وليم الفرصة السانحة وقابل القيصر في رحلة بحرية على يخته في بوجوركو على البحر البلطى ، وأمضى معه معاودة فاجأ بها

دون حضور أحد من وزراء الدولتين . وقد قال للقيصر أن يوم توقيع هذه المعاهدة هو حجر الزاوية في سياسة أوروبا وسيفتح صفحة جديدة في تاريخ العالم . وأرسل أيضا الى بولوف أنشودة انتصار يقول فيها : ان صباح أول يوليه سنة ١٩٠٥ في بوجوركو يعتبر نقطة تحول في تاريخ أوروبا وفرحة لوطني المحبوب الذي سيتحرر أخيرا من قبضة روسيا . وفرنسا الحانقة .

ولكن لسوء الحظ أعلن بولوف أن المعاهدة لا قيمة لها بسبب كلمتين اضافهما امبراطور ألمانيا الى مشروعها ، كما رفض وزير الخارجية الروسي لاسدورف التصديق عليها بحجة أنها تتعارض مع التزامات روسيا نحو فرنسا . وهدد بولوف بالاستقالة ولكن وليم أرسل له برقية احنجاج طويلة ختمها بقوله : ان اليوم الذي أتسلم فيه استقالتك لن يكون فيه امبراطور ! فكر في زوجتي وأطفالي المساكين !

وقد أقنعت هذه الفكرة ، أو فكرة أخرى ، المستشار بالبقاء ، ولكن المعاهدة قضى عليها القضاء الاخير .

ومع ذلك فقد استمر ولي يكتب الى نكي كان ما استقرأ عليه شخصا قد جعل الوثيقة سارية المفعول ، وذهب الى أن الاتفاق الودي بين فرنسا وانجلترا ، وكان حديث العهد وقتئذ ، يهدف الى غرض تحرري : ان الصحافة التحررية في فرنسا وانجلترا متفتحتان على التنديد بصراحة بجميع الاعمال وأوجه النشاط الملكية في روسيا - وهما تطلقان عليها اسم القيصرية - وتؤيد بصراحة قضية الثوريين التي تهدف الى نشر المبادئ التحررية والاستشارة والمحافظة عليهما ضد القيصرية والسياسة الاستعمارية وبعض الدول المتخلفة . وتقصده بذلك بلادك وبلادى ، والعبارة التي يكررها الانجليز باستمرار على مسامع الفرنسيين هي ، لندافع متكاتفين عن الحرية في العالم كله ونعمل على نشرها في البلاد الاخرى ، وهذا يعنى تشجيع الثورات في أوروبا كلها ومساعدتها وخاصة في البلاد التي ليست تحت السيطرة المطلقة لهذه البرلمانات الملعونة .

وتناسى في نفس الرسالة خبث الفرنسيين وحث على عقد حلف ضد انجلترا وقال ان الاتحاد القارى الذى تحمى جناحه أمريكا ، هو الطريقة الفعالة الوحيدة التي تحول دون أن يصبح العالم كله من ممتلكات جون بول الخاصة يستغله كما يتراعى له بعد أن يثير كل الشعوب المتمدنية بعضها ضد بعض لفائدة الخاصة . ونحن نرى هذا المبدأ الآن يعمل في المسألة المراكشية هكذا التي يبذل فيها جون بول كل ما فى وسعه ليثير فرنسا ضدنا .

غير أن هذه الجهود أيضا ذهبت أدراج الرياح ، فقد سنوى قيصر روسيا خلافاته مع انجلترا وأصبح شيئا فشيئا أقل مودة لوليم . ويبدو أن بول كان

أقرب الى الصواب من نكى فيما يتعلق بمصالح الإباطرة بوصفهم طبقة من الطبقات ، ولعله كان يستطيع أن يكون أكثر اقناعا بشيء من اللباقة .

وكان الاسطول الالمانى ، الذى حدد اتجاه السياسة البريطانية ابتداء من سنة ١٩٠٢ من صنع امبراطور المانيا شخصيا . وقد رأينا كيف أكد أن رغبته فى بناء السفن الحربية قد اوحى بها المنظر الذى شاهده وهو صبى فى رفقة خالات طبيبات فى بورنسموث و بليموث . ولكن كانت هناك أيضا دوافع أكثر خطورة . فقد كان يحسد إنجلترا على قوتها فى المناطق البعيدة : فقد حدثت اضطرابات فى الكويت ظهرت على اثرها السفن البريطانية فوراً وحدث نزاع بشأن ساموا ، فأسرع إليها أسطول صاحب الجلالة ! وكان ضرب كريت بالقنابل أقل قسوة مما أراد بسبب أمراء البحر الانجليز . وعندما ذهب فى رحلة بحرية فى البحر الابيض لم يستطع ان يحاجز نفسه عن الاعجاب بجبل طارق او عن ابلاغ « نكى » عظيم تحمسه ! « كل ما اقوله ان جبل طارق شيء هائل ، انه اعظم شيء رأيته فى حياتى . وان اللغة لتعجز كل العجز عن وصفه وصفا مناسباً ، انه عظيم بطبيعته ، وبالقوة الحربية المركزة فى هذه الصخرة الهائلة وحولها . وكان يحس انه قد يستطيع إذا توفر له الاسطول المناسب أن يحصل أيضا على صخرة عظيمة قوية . ومما يتفق تماما مع اعجابه بإنجلترا أنه كتب الى قيصر روسيا بعد ذلك بأشهر قلائل يقول « ان قيامك ببعض المظاهرات الحربية على الحدود الافغانية - الايرانية قد يكون عميلا ممتازا يحد من وقاحة البريطانيين وعجفهم وذلك لاني أعلم وقد بلغت أن ذلك هو الشيء الوحيد الذى يخشونه ، وان خوفهم من دخولك الهند من تركستان ودخولك افغانستان من ايران هو السبب الحقيقى الوحيد فى ان مدافع جبل طارق والاسطول البريطانى ظلت صامتة منذ ثلاثة اسابيع (بعد حادث دوجربانك) » وينبغى ان نعتبر مصدر هذه النصيحة وكذلك اقتراحه بان يقتحم اسطول قيصر روسيا فى البحر الاسود المضيقي فجأة وينضم الى اسطول البحر البلطى فى رحلة الى الشرق الاقصى هو اعجابه بإنجلترا اعجاباً ممتزجا بالحسد . ولكن هذه النصائح ، التى بذلت تحت ستار الصداقة ، تنم عن غدره بالقصر الذى كان لديه مايكفيه من متاعب مع اليابان ومن الثورة فى بلاده ، وما كانت حرب جديدة مع إنجلترا لتخفف من هذه المتاعب .

وكان يؤيد الامبراطور وليم ضد باقى وزرائه فى بنائه للاسطول أحد الفئتين المتحتمين هو تيريتز الذى لم يكن يفهم شيئاً فى الدبلوماسية . فقد ذعر بولوف أولاً ، ثم بنتمان هولفج بعده ، من عزلة المانيا التى أدى اليها عداء إنجلترا ، وأدركا انه اذا حدث ان يشتركت المانيا فى أى حرب كبرى فان إنجلترا ستتضمن حتماً الى الجانب الاخر . وكانا يريدان عقد اتفاق بحرى

مافتشت الحكومة البريطانية تقترحه على ألمانيا ، واجاب الامبراطور بفضب في أول الامر بأن اى اقتراح من هذا النوع تتقدم به انجلترا رسمياً يعنى الحرب ، وكان يؤيده فى ذلك تيربينز ، ولم يكن سبب موقفهما ان المانيا مستعدة للقتال ، بل كان سببه اعتقادهما أن اللهجة الحازمة ستخيف الانجليز . ونصح امير البحر فيشر ، وهو رجل يشبهه تيربينز الى حد كبير ويعجب به جدا (١) ، بأن يضرب الاسطول الالماني ويتم اغراقه فجأة بدون اذار سابق كما ضرب الاسطول الدنماركى منذ قرن مضى فى كوبنهاجن . وقال وزير البحرية المدينى آرثر لى (لورد اوف فارينهام فيما بعد) مستعميه فى خطاب له أنه اذا نشبت الحرب فان الاسطول الالماني ستيغرق قبل ان يعرف الالمان ان الحرب أعلنت . ولم يكن من شأن هذه المقترحات « الودية » ان تجعل المفاوضات بعد ذلك سهلة ميسرة .

وعلى الرغم من ان تيربينز ووليم الثاني توقفا منذ سنة ١٩١٢ عن الاعتراض على عقد اتفاق بحرى كامل من ناحية المبدأ ، فانهما ظلا كارهين لهذا الاتفاق فكانا يضعان له شروطا مستحيلة ، خاصة المطالبة بوعد بالحياد فى اى حرب تشترك فيها اى من الدولتين ، وهو عمل اذا تم لايتفق مع التزامات انجلترا نحو فرنسا وبلجيكا . وهكذا استمر العداة والتسابق فى التسليح البحرى ، رغم ادراك السياسة الالمان انه ستيؤدى حتما الى حرب لا بد ان تكون وخيمة العاقبة وقد تنتهى بكارثة ماحقه . وكان الامبراطور هو المسئول وحده عن السياسة البحرية لانه كان يؤيد تيربينز ضد جميع مستشاريه الاخرين . وكانت الفكرة السائدة لديه انه لن تمضى بضع سنوات ، وصفت بأنها « منطقة الخطر » ، سيكون الاسطول الالماني من القوة بحيث لا تجرؤ انجلترا على مهاجمته . وعندما أعلن الانجليز سياسة « قوة الدولتين » (٢) التى بينون بمقتضاها سفنا تحول دائما دون وصول المانيا حتى الى مايقرب من قوة الاسطول البريطانى ، أكد تيربينز لوليم ان الحسوف من زيادة الضرائب سيمنعهم فى القريب العاجل عن المضى فى هذا السبيل . ولم يفهم كلاهما ان التفوق البحرى كان عاملا ثابتا فى السياسة البريطانية لا تستكثر عليه اية توضيحات مالية مهما بلغت ضخامتها ، وكانا يقولان « فلنحافظ على السلام بضع سنوات اخرى ويكن فى وسعنا بعدها ان نواجه الاسطول البريطانى . ولكن الحرب نشبت كما كان يمكن أن يتوقع قبل ان تنتهى « بضع السنوات » التى كان تيربينز يريدتها .

(١) كتب فيشر فى سنة ١٩١٦ خطابا الى تيربينز يبدأ «صديقى القديم تيربينز» وينتهى المخلص الى أن يتجمد الجحيم» .

(٢) المقصود بهذه السياسة ان يكون الاسطول البريطانى اقوى من مجموع اسطولين لدولتين مختلفتين (المترجم)

وقد كانت سياسة وليم البحرية غير واقعية . فلم يكن لديه اى أمل في اللحاق بالبريطانيين ، لان السفن الحربية لا يمكن ان تبني سرا . ودفع الانجليز الى الانضمام الى روسيا وفرنسا فشجعت بذلك اعداء المانيا اينما وجدوا ، وأحيت فى فرنسا املا جديدا فى الانتقام ، وفى البلقان استعدادا جديدا لتحدى النمسا . فى الاستيلاء على القسطنطينية ، وفى البلقان استعدادا جديدا لتحدى النمسا . وقد كان مبعث الخطورة فى كل التطلعات الدبلوماسية من سنة ١٩٠٤ الى سنة ١٩١٤ . هو قلق إنجلترا من قوة الاسطول الالماني ولما حان الوقت آخر الامر كى يستخدم وليم سفنه ، احتفظ بها كأنها لعب ثمينه هى همه أن تبقى . لقد كان وليم يحب أسطوله فى الحرب والسلم على السواء اكثر مما ينبغى .

وكان الحكم فى الامبراطورية الروسية حكما مطلقا اكثر منه فى المانيا نفسها . نعم ان نيقولا الثانى الذى اعتلى العرش فى سنة ١٨٩٤ ، اضطر الى منح اقامة نوع ما من الحكم الدستورى فى سنة ١٩٠٥ : الا ان إنجلترا وفرنسا ، اللتين كانت نزعة للتحرير فيهما شبحا يخيف به امبراطور المانيا قيصر روسيا ، ساعدتا حليفها على جعل الدوما مجلسا عسديم القيمة بان اقرضته ما احتاجه من مال حين اراد ان يحله . وقد فعلا هذا على الرغم من ان الدستور الذى صدر حديثا كان يحرم عقد قروض دون موافقة مجلس الدوما . وكان الحكم فى روسيا من سنة ١٩٠٧ الى سنة ١٩١٤ حكما دكتاتوريا لا يقف عند شىء لا يحد من أثره سوى الاغتيال .

وتزوج نيقولا بعد اعتلائه العرش بفترة وجيزة جدا ووقع تحت سيطرة زوجته التامة . وكانت توجه سياسته - وهى سياسية زوجته - اهلهف معينة محدودة تحديدا تاما . فقد كان يريد أن يرفع الصليب فوق مسجدايا صوفيا فى القسطنطينية ، وكان يريد المحافظة على الحكم الملكى المطلق . وكان يريد أن يقف فى وجه التسامح الدينى فى اية صورة من صوره او ما يقرب منه . وعندما اقترح أستوليبيين ، الذى لم يكن رديكاليا بالمعنى الدقيق ازالة بعض القيود المفروضة على اليهود ، رد عليه القيصر بقوله :

« ان ضميرى لم يضلنى او يوجهنى فى الطريق الخطأ حتى لان . ومن اجل هذا سأسبغ على ما يمليه على مرة أخرى . وأنا اعرف انك تؤمن كما اومن أنا نفسى بأن القيصر فى يد الله . فليبق اذن فى يد الله . وأناى لاجل امام الخالق جل وعلا مسؤولة هائلة عن القوة التى أملكها وأتصرف فيها ، ولكنى على استعداد دائم لان اقدم له حسابا عنها . ولا يؤسفنى الا أنك انت وزملائك اضعتم وقتا طويلا فى البحث فى مسألة ارفض رفضا تاما أن أوافق عليها أو أقرها . »

وكان كذلك صلبا لايلىن فى وجه « القوميين القدامى » ولكننا لايسعنا الا ان نعترف أن هؤلاء ايضا كانوا اشخاصا اشتداه مستثنىين . فقد اختلفوا مع

الحكومة على طريقة هجاء كلمه « يسوع » ، كما كانوا يصرون على اعادة كلمة « هالدولايا » مرتين بدلا من ثلاث مرات فى موضع معين من القداس .

وعندما اطلق صبي النار على احد امراء البحر واصابة خفيفة طلب امير البحر استعمال الرافعة بالصبي الذى حاول قتله بسبب صغر سنه واقترح تخفيف عقوبة الاعدام . ولكن القيصر رفض ذلك وقال .

« آنى لست قاسيا ولا منتقما . والذى اكتبه اليك هو ما اعتقده وأومن به ايمانا متأسلا فى قرارة نفسى . ورغم ان ماسأقوله مؤلم وقاس فان الشبح الصحيح الذى لاشك فيه ، وان يكن ذلك يحزننا ويجلنا بالقار ، هو أنه ليس ثمة طريقة لمنع اراقه انهر من الدماء الا اعدام بعض الاشخاص المضللين . وانى لادعو لك بالصحة والسلام الكامل لروحك ، وأشكر لك كل ما فعلته للروسيا ولى » .

وفى سنة ١٨٩٥ عندما قامت حركة تدعو الى اشتراك مجيئـالس « الزمتمفوس » (وهى هيثيات شبيهة بمجالس المقاطعات) فى الحكم ولم تكن بأى حال من الاحوال ثورية ،لقى القيصر خطابا قاسيا مخالفا بذلك نصيحة مستشاريه :

« لقد بلغنى انه سمع خلال الاشهر الماضية فى بعض اجتماعات « الزمتمفوس » صوت من تراودهم احلام طائشة تقول ان « الزمتمفوس » يمكن ان يعهد اليها الاشتراك فى حكم البلاد . وارىد ان يعلم كل شخص اننى سأكرس مجهودى للاحتفاظ بمبدأ الحكم الملكى المطلق ، لخير الامة كلها ، بنفس الحزم والشدة اللذين اتبعهما والذى المأسوف عليه : »

وزد استمر زيفولا لايتحدث بهذه اللهجة نفسها حتى اللحظة التى خلع فيها عن العرش .

ومع ذلك فان هذه الامور ليست هى التى تبدو فيها شخصية القيصر الحقيقية لقد كانت السياسة تضجره ، وكان يحب زوجته وأولاده ويحبركوب الدرآجة يتجول بها فى الحديقة ، كان شغوفاً بلعبه الدومينو . وعندما اصببت ابنته العريزة اليكس بالم فى قدمها انزعج انزعاجا شديدا ، ولكنه عندما فقد امبراطورية لم يعر الامر اهتماما جديا . وفى ٢٣ فبراير سنة ١٩١٧ وهو فى مركز القيادة العامة يبذل بخر محاولة للفرار من الثورة آنزعج عندما علم ان اولاده اصببوا بالحصبة . وارسل برقية الى القيصر يقول فيها : ماأشد ازعاجى . . أرجو أن ينجو جميعا من الحصبة ، أنى أفتقد كثيرا نصف الساعة التى كنت أقضيها كل مساء فى لعب الورق بمفردى . ساعود الى لعب الدومينو فى أوقات فراغى » وارسل برقية فى اليوم التالى لخلعه يقول : « شكرا خالصا

على برقيتك . وصلت الوالدة لقضاء يومين ، المكان مريح وجميل ، سنتناول العشاء معا فى قطارها . عاصفة ثلجية اخرى . انى معك بفكرى وصلواتى . نيكى ، ولم يفوته أبدا أن يعلق على حالة الجو مهما تكن الاحداث .

لقد كان نيقولا زوجا عطوفا وديبا رؤوفا ، أما مابقى من شخصيته ، وهو قليل ، فكان مزيجا من القسوة والقدر والعجرفة العاجزة .

وكن مايفتقر اليه من حزم ، متوفرا كله فى القيصر ، وهى امرأة تشبه الى حد كبير ليدى ماكبت ، وتكاد تكرر فى رسائلها الى زوجها نفس العبارات القوية التى قالتها هذه السيدة . فليدى ماكبت تقول « انى أخشى أن طبيعتك فهى مفعمة بالرحمة الانسانية أكثر مما يجب » وتقول القيصر « سامحنى يا أعز الناس لى » ولكنك تعلم انك أكثر رقة ورأفة مما ينبغى . « ثم تمضى قائلة « كن يا حبيبى ، أكثر حزما وأكثر ثقة بنفسك . أنت لتدرك حقيق الإدراك انك على حق ، ومن ثم فاذا حدث أى خلاف فى الرأى ، افرض رأيك واجعله يسود على آراء غيرك » وكان الموضوع الذى كتبت بشأنه هذه الرسالة هو : من الذى يقرر خطة الحملة فى غاليسيا سنة ١٩١٥ ، السلطة العسكرية اوراسبوتين رجل الله الذى يتلقى الوحي فى الموضوع من الله جل وعلا . وكانت الامبراطورة التى دأبت على معاملة الجميع بتعاطف وكبرياء ، ذليلة امام « صديقنا » الذى كانت تعتقد ان لديه قدرة خارقة فى المحافظة على صحة ابنها . ومنيت القوات الروسية غاليسيا فى الشهر التالى بسلسلة من الكوارث ابرق القيصر خلالها من مركز القيادة يقول : « وصلت قواتى فى امان . الجو بديع . والغابات الآن خضراء ورائحتها جميلة ، انى ذاهب توا الى الكنيسة . شكر لك على برقيتك . عانقك بحنان . نيكى . »

وكانت الامبراطورة ، التى واجهت بارادتها القوية عقبات بدا الا سبيل الى التغلب عليها بالوسائل البشرية : الجيوش الالمانية . ورغبة كل الطبقات الروسية فى الثورة أو الاصلاح . والاستهداف الوراثنى للتخريف الذى أصيب به ولى العهد ، تتحول شيئا فشيئا الى مصادر غيبية فى طلب المعونة واخذت بايمان يتزايد يوما بعد يوم أنها وجدت ضالتها فى « القديس » . وقد كتبت فى سنة ١٩١٦ الى القيصر تقول : « انى أضغ كل ثقته فى « صديقنا » الذى لا يفكر الا فىك وفى طفلنا وفى روسيا . وسنجتاز هذه الايام العصبية بتوجيهه . ان الكفاح سيكون مريرا ، ولكن أحد رجال الله قريب منك يقود سفينك بين الصخور الى شاطئ الامان » . وبعد ذلك بعبدة ايام عندما أثير موضوع تغيير بعض الوزراء الذين عينوا بايعاز راسبوتين اتخذت الامبراطورة لهجة الاستعطاف والحنو الرقيق : « آه يا حبيبى انك تستطيع أن تثق فى . قد لا أكون ماهرة جدا - ولكنى أتمتع باحساس قوى

كثيرا ما يكون خيرا من العقل . احتفظ بالاوراق والاسماء يا حبيبي العزيز من أجل زوجتك .

ولم يكن راسبوتين ، الذي كان يعيش في هذه الاثناء حياة عريضة وسكر ويجمع المال ، سوى الحلقة الاخيرة في سلسلة من المحتالين وأسوتهم - وهم محتالون ممن يتظاهرون بأنهم متصوفة روحانيون وأثروا في السياسة الامبراطورية سنين طويلة . وكانت السلطة التي يتمتع بها المهرجيون النصابون نتيجة طبيعية لمركز القيصر غير الواقعي الذي لا يمكن تبريره في العالم الحديث الا بعادة تصديق الترهات . فان القيصر والقيصرة ، وقد رفضا كل اصلاح ، لم يجدا مهربا من افهام الذات الا بأن يعيشا في عالم من الخداع والاهام .

لقد كان وليم الثاني ونيقولا الثاني أقوى شخصين في العالم خلال السنين العشرين السابقة على الحرب الكبرى . ومن الخطأ أن نفترض أن سياستهما لم تكن من صنعهما بل من وضع وزرائهما . فكلاهما كان يختار رجالا ينفذون اوامره وان كانا في بعض المناسبات يقتنعان بالسير في طريق ما كانا ليختاراه لو ترك الامر لهما وحدهما . مثال ذلك ان سياسة ألمانيا في مراكش سنة ١٩٠٥ و ١٩٠٦ كانت من وضع بولوف . ولم يرض القيصر قط عنها كل الرضا . ولكن ألمانيا وروسيا ، أقوى دولتين في القارة قد تركتا سياستهما الخارجية وجيوشهما وأسماطيهما بصفة عامة في أيدي هذين الرجلين .

وهناك ملكان آخران كان لهما بعض الشأن في مجرى الامور ، هما امبراطور النمسا فرانسيس جوزيف والملك ادوارد السابع .

وكان فرانسيس جوزيف ، الذي اعتلى العرش اثناء الاضطرابات التي وقعت سنة ١٨٤٨ ، شيخا مسنا جدا عاش خلال كثير من الاحزان العامة والخاصة ، حتى أصبح يرى أن سوء الحظ هو نصيبه الطبيعي في الحياة فمن الناحية العامة : متى بالهزيمة على يد بروسيا ، وفقد ممتلكاته الايطالية ، وأرغم على منح هنغاريا حق المساواة التامة للنمسا ، وكان عاجزا كل العجز عن إيقاف نمو تيار السخط الصقلي الخطر في أجزاء مهمة من ممتلكاته . اما من الناحية الخاصة : شفق شقيقة - مكسميليان امبراطور المكسيك ، الذي أطلق - على يد رعاياه الثائرين واغتيلت زوجته بيد فوضوى ايطالي ، مات ابنه ميتة عنيفة كانت في الغلب الظن انتحارا . وتزوج ابن اخته ووريثة في العرش - وهو الذي قتله ايذانا ببدء الحرب الكبرى - زواجا غير متكافئ . لا يتيح لابنائه من هذه الزوجة أن يرثوا . وقد عاش الرجل المعجوز حتى شاهد عجز جيوشه ، ولكنه لم يعش حتى يرى زوال أسرة هابسبرج وانحلال امبراطوريته . وترك تدبير معظم الامور في السنوات الاخيرة قبل سنة ١٩١٤

فى يد ابن اخيه الارشيدوق فرانسيس فرديناند الذى زاد نشاطه الجيئس وسرعة حركته وحرم الامبراطور من لذة مشاهدة الاستعراضات الفخرة . فقد كان التعب يبلغ بالجئود بعد سير يوم كامل حدا لا يستطيعون معه جنى رفع ايديهم بالتحية العسكرية ، مما جعل الامبراطور المستكين يلعن ما طمعت عليه الحياة الحديثة من عجلة هذا وكان ابن اخيه يضع فى نفس الوقت الخطط لمنع الصقالية استقلالهم الذاتى وتحويل الملكية الثنائية الى ملكية ثلاثية . وقد كان الخوف من أن تؤدي هذه السياسة الى قبول الصقالية الجنوبيين لحكم الـ هابسبرج أحد الاسباب التى وان دفعت الوطنيين الصريين الى الائتثار على قتله .

وكان الناس فى القارة يبالغون فى شأن ادوارد السابق ، بما اهيل انجلترا فكانوا يبغسونه قدره . فقد كان يبغض ابن اخته وليم الثانى ، ويحب الفرنسيين فى كل من لهوهم وجدهم ، كما قال غامبتا . وبإدله الفرنسيون هذه العراطف . وكان ذا الباقة كبيرة وكياسة وله مكانة ملحوظة فى كل القصور الملكية فى اوربا . وعلى الرغم من انه لم يكن يتصرف الا فى حدود الدستور ، فليس ثمة شك فى انه بذل مجهوداً فى تنفيذ سياسة حكومته اكثر مما كان يفعل قبلا بعد ان بدأت الحكومة فى تحسين علاقتها بفرنسا . وكانت لديه ثلاثة اسباب تدفعه للوقوف ضد المانيا ، وهى اسباب تربط بامه وزوجته واخته على التوالي . فقد كانت الملكة فكتوريا تؤيد فى حماسة عظمة كلا من بروسيا والنمسا ، واشتد بها الحنق على كل من بالمرسون ولررد جون رسل لتأييدهما وحدة ايطاليا على حساب النمسا ، فى سنة ١٨٧٠ كانت تريد ان تعقد محالفة مع بروسيا التى تمثل كما قالت « المدنية والحرية والنظام والوحدة بمقارنتها بفرنسا التى كانت تمثل « الدكتاتورية والفساد والانهارى الحلقى والاعتداء » (١) واتجه الامير كما هى طبيعة ارثى العروش ، الى الاختلاف مع والدته وتكون لديه ميلا متحيزا لفرنسا وكان ذلك رد فعل طبيعى على ميلها هى نحو المانيا . وكان الهجوم النمساوى البروسى على الدانمرك ، بعد ان تزوج اميرة دانماركية ، سببا فى نفوره من بروسيا وزاد نفوره حقد ضم شلزفيج وهولشتاين لبروسيا . وتكونت لديه منذ تلك اللحظة أسوا فكرة ممكنة عن بسمارك كانت تشاطره اياها شقيقته وليمة العهد التى صارت فيما بعد الامبراطورة فرديريك ، التى اطلقت على بسمارك اسم « الرجل الحبيث » فى خطاب كتبته الى امها . وكان ادوارد شديد المعطف على اخته بنجاز الى جانبها فى كل نزاع لها مع ابنها . وكانت الملكة فيكتوريا تعامل امبراطور المانيا اذا ماضايقتها معاملة الولد الحبيث فى محضنه . فعندما شكها لورد سالسبرى ردت عليه تقول : « انى أشك فى ان اى ملك كتسب

بهذه الالهجة الى ملك آخر ، خاصة اذا كان هذا الملك الثانى جدته ، عن رئيس وزرائه . ولو كنت مكاثك لما فعلت أبدا مثل هذا ، وأنا شخصيا لم يحدث أبدا أن هاجمت الامير بسمارك وأن كنت ادرك جيدا اى عدو لدود لانجلترا واعرف كل ما سببه لها من أذى .

وما كان اى شخص ، حتى لو كان امبراطورا ، لتفضبه هذه اللهجة من جدته ، ولكن خاله « برتى » وان كان شعوره فى اغلب الظن مماثلا لهذا الشعور لابد له أن يعبر عنه بطريقة مختلفة . فهو لم يكن ممن يفصح عن غيظه كما يفعل ابن أخته ، ولكنه كان يقف موقفا من التعالى الهادى يثير حنق الامبراطور ، وقد كتب ادوارد السابع الى لورد فوليز يقول : أنا أعرف أن الامبراطور الالماني يكرهنى ، وأنه لا يفتأ يكرز هذا فى كل مناسبة (خلف ظهري) مع انى بينما كنت على الدوام رقيقا ظريفا فى معاملته ، وعلى الرغم من أن ادوارد الميت أقوى من الحى ! « وكان فى هذه العبارة من عنصر الصدق أكثر مما يعتقده الانجليز الذين كانوا واقفين فى دستورهم البرلماني وثوق المبتهج المنشرح الصدر . وكانت الحكومة هى التى قررت السير على سياسة الاتفاق الودى مع فرنسا ، وان كان الملك قد أحبها وعمل بدبلوماسيته على نجاحها . فقد كان البريطانيون يخشون ابا نجرهم مع البوير أن تتحد أوروبا ضدهم وكانت خير وسيلة للحيلولة دون ذلك هى الانحمام الى احدى المجموعتين: الحلف الثلاثى أو الحلف الثنائى . وقد حدث قبل ذلك احتكاك مع فرنسا فى افريقيا ومع روسيا فى آسيا ، فكان يبدو فى اول الامر ان عقد صداقة مع المانيا أقرب وايسر . وبذل جوزيف تشمبرلين جهودا فى هذا الاتجاه سنتى ١٨٩٨ و ١٩٠٠ ، ولكن ولكن المانيا نأت عنه بجانبها . فقد نصح هولشتاين بأن التأخير فى عقد الحلف مع انجلترا مفيد للمانيا لان اتفاقا بين انجلترا من ناحية وفرنسا وروسيا من ناحية اخرى مستحيل ، وان انجلترا ستضطر فى آخر الامر الى قبول أية شروط تفرضها المانيا فى نظير تحالفها معها . فضلا عن هذا فان وليم الثانى كان قد بدأ لتوه فى بناء اسطوله واذ كان له أن يصادق انجلترا فلا بد له ان يقيه صغير الحجم . ومن ثم جعل بولوف يتهرب فى احاباته على عروض الاتفاق التى تقدم بها الانجليز ، ولكنه اكتشف بعيد قوات الاوان ان عقد اتفاق بين انجلترا وفرنسا لم يكن مستحila كما اعتقد هولشتاين .

وكان الاتفاق مع فرنسا (١٩٠٤) من عمل لورد لاند سدوام مع روسيا سنة ١٩٠٧ من عمل سير ادوارد غراى ، ولكن كليهما فى الواقع كان من وضع الموظفين الدائمين فى وزارة الخارجية الذين نعرف عنهم أقل مما نعرف عن هولشتاين لانه لم تحدث فى انجلترا ثورة تكشف الستار عن أسرار ذلك الوقت وكانت قوتهم السريه ، خاصة فى عهد غراى ، تكاد تكون مطلقة من كل قيد وكان غراى رجلا سئى التفكير ووطنيا مخلصا وشريفا كريما فى معاملته الذين يراهم اكفاء له،

شديد التحمس للعمل في الخفاء . ولهذا وضع الانجليز حياتهم ومصائرهم بين يديه ، وان لم يكن يعرف لغة أجنبية ولم يكدر انجلترا أبدا ، وأنه كان أقل جهدا من أن يتحقق من كل ما كان أعوانه يبلغونه . يضاف الى هذا أن ايمانه بالشرف والنزاهة لم يمتد الى مجلس العموم لانه كان يعتقد كما يعتقد الارستقراط في أيامه أن الافراد العاديين لا يستطيعون فهم السياسة الخارجية . وسمح للقواد العسكريين بأعداد خطة للحرب المشتركة مع فرنسا ولامراء البحرية بالدفاع عن بحر الشمال على أن يركز الاسطول الفرنسي نشاطه في البحر الابيض المتوسط . ولم يطلع مجلس العموم على شيء من هذا ، بل أكد مرارا اننا لسنا مرغمين على الاشتراك مع فرنسا في حالة وقوع حرب . وأخيرا أعلن الحقيقة كلها فجأة في ٣ من أغسطس سنة ١٩١٤ ، إلا أن الشعب كان عندئذ في حالة هياج وصفق لبعده نظره ، وما كان الشعب ليوافق مقدمات طول السنوات الثمان التي تولى فيها غراي الشؤون الخارجية على السياسة التي نجمت عنها هذه الالتزامات الخطرة والحق انجلترا لم يكن فيها للشعب أية سيطرة على سياسته الخارجية من سنة ١٩٠٦ الى سنة ١٩١٤ أكثر مما كان له في المانيا أو روسيا . بل كانت السياسة الخارجية البريطانية هي ما يقرر به ادوارد غراي ان تكون ، وما كان يقرره سير ادوارد غراي هو ما كان ينصح به سرا الموظفون الدائمون . وليس معنى هذا أن نصائحكم لم تكن موضع ترحيبه : فقد كان يكره الامان لغلظتهم . أما الروس ذوو اللطف ودماثة الخلق الذين كانوا يبيدون خير العناصر في بولندا وفنلندا وايرن وفي روسيا نفسها ، فقد كانوا يحتفظون في معاملاتهم بأسلوب غاية في المجاملة لم يدرك معه ما كانوا يستخدمون ما يقدمه لهم من تأييد .

وينبغي الا نتصور ان اوروبا كلها كانت تستسلم وهي هادئة ساكنة لحكم ملوكها المطلقين القلائل . ففي روسيا قامت الثورة فعلا سنة ١٩٠٥ ، وتآزمت فيها الامور الى ما يقرب من الثورة في السنوات التالية . وفي النمسا-والمجري بلغ تدمير الصقالية حدا يهدد الامبراطورية بالتفكك ، وفي المانيا كان الاشتراكيون الذين كانوا في سنة ١٩٠٢ يؤلفون أكثر من ثلث اصحاب الاصوات ، معارضين اشد المعارضة لسياسة الاستعمار ، وكان يبدو انهم سيطروا بعد فترة قصيرة على الرايشتاج ويملون على الحكومة السياسة التي يريدونها . ولكن الدفاع عن الدين والملكية في الامبراطوريات الشرقية الثلاثة اصبح لسوء الحظ مرتبطا بالدفاع عن الحكم المطلق . وكانت النتيجة ان الراسماليين ، حتى الذين كانوا معرضين للخراب إذا نشبت الحرب ، وجدوا انفسهم مرغمين على تأييد دعاة الدبلوماسية المغامرة ، كما اضطر المسيحيون المتدينون الى تأييد العسكريين ليمنعوا القضاء على الذين يبشرون

وكانت خطط العسكريين في فرنسا وانجلترا مختلفة في تفاصيلها عن
الخطط السابقة بسبب قيام الحكم الديمقراطي في البلدين وان كانت القوى الكبرى
مماثلة تقريبا لذلك التي توجد في أوروبا الشرقية . وكانت فرنسا قد خرجت
لنوها من قضية دريفوس « التي حكم فيها على رجل بريء ، لانه يهودي ،
بالخيانة ونفى لى جزيرة الشيطان بناء على وثائق مزورة » وقد ظلت الجريمة
ثابتة فى نظر جميع الكاثوليكين الصالحين ، باستثناء اولئك الذين اشتركوا
فى تزوير الوثائق طبعا ، حتى أنها و آخر دليل من ادلة الاتهام . وروعت
الامة لهذه القضية ، فالكنيسة والجيش والاعنياء كانوا ضد دريفوس ، بينما
كان المدافعون عنه ملحدون واشتراكيين وبروليتاريين . وبدأ ان انتصار
المدافعين عن دريفوس هو انتصار لقضية السلام ، ولعل الامر كاد يكون
كذلك لولا الاتفاق الفرنسى الانجليزى وتعارض مصالح فرنسا والمانيا
التعدينية فى مراكش ، وشراسة دلكاسيه التي كانت تشجعه عليها بريطانيا .
وكان حزب السلام فويا الى درجة استطاع معها اسقاط دلكاسيه وعقد مؤتمر
الجسر ، ولكن الوطنين ، بمساعدة اخطاء بولوف ، نشروا اسطورة مضمونها
ان دلكاسيه انما يضجى به الانذال الذين لا يهتمهم فرنسا ارضاء لامبراطور
المانيا وبفضل هذه الاسطورة استطاع دلكاسيه وبوانكاريه عندما حان الوقت
ان يجعل سياسة فرنسا عدائية على الرغم من رغبة الاشتراكيين المتطرفة فى
السلام ، رغم انف الاتحاد العام للعمل وأجزاء كبيرة من الجنوب ، والحق أن
الدعوة الى السلام التي كان يقوم بها لاشتراكيون المناهضون لرجال الكنيسة ،
كانت فى الواقع لسبب الاساسى فى اتجاهات القساوسة والاثرياء الحربية .

وكانت طريقة الرجعيين فى الاستيلاء على السياسة الخارجية فى انجلترا
اكثر دهاء منها فى غيرها . فقد احازوا الاصداقاء السلام بأن يعتقدوا انهم
انتصروا فى السيطرة على مقاليد الامور بينما عملوا فى هدوء على ملء
المراكز الرئيسية - فى السياسة الخارجية والجيش والشئون المالية -
باصدقائهم القليلين فى حزب الاحرار . وكان اهتمام التقدميين مركزا فى
الشئون الداخلية ، ولم يدرك قبل الحرب الاهمية الكبرى للسياسة الخارجية
الا فئة قليلة جدا منهم ولكن عددهم أخذ فى الازدياد حتى اصبحوا فى القريب
العاجل فيما بعد قوة ضخمة .

وقد كانت فى كل بلد فى أوروبا عناصر قوية سريعة الازدياد تؤيد
العمل بطريقة جديدة كل الجدة فى العلاقات الخارجية . وكانت بضع سنوات
قليلة كفيلا بأن تحدث تحولا فى روسيا والمانيا بترك أثره فى كل مكان اخر .
لكن نفس الطريقة القديمة ظلت فى الوقت نفسه قائمة بلا تغيير منذ مؤتمر
فيينا فيما بعد ما يسمونه اتفاق أوروبا . وقبل أن تسيطر القوى الجديدة على
مقاليد الامور ، ساقطت الطريقة القديمة أوروبا الى الهاوية .

ان فكرة « مسئولية الحرب » التي كان لها شتان كبير ابان الحرب واحتلت مكان الصدارة في معاهدة فرساي فكرة غير علمية على الاطلاق . ذلك ان كل امة من الامم سمحت لعدد قليل من رجالها بتوجيه سياستها الخارجية وكان في قدور الزعماء في كل بلد كبير ، بقسط وافر من الحكمة ، ان يحولوا دون وقوع الحرب في الوقت الذي نشبت فيه . ولعل تأجيلها كان يهيء فسحة من الوقت لحدوث تغير في النظام وقتئذ او على الاصح في الفوضى القائمة ومن ثم لا تقع حرب على الاطلاق ، ولكن وجود الطريقة القديمة ، او بالاخري عدم وجود طريقة بالمره ، جعل وقوع حرب ان اجلا او عاجلا امرا لا يمكن تفادية الا بدرجة من حسن السياسة في كل مكان في العالم لم يكن ثمة ما يجعلنا نتوقعه . وذلك انه لم يكن بين الحكومات (باستثناء حكومة فرنسا) حكومة تريد الحرب أكثر مما يريد سائق سيارة مخمور وقوع حادث . ولكن الحكومات جميعها كانت تطلب ميزات قومية مختلفة اكثر مما كانت تطلب السلام . وكان التساؤل عن الملوم في وقوع الحرب كالتساؤل عن المسئول في حادثة تصادم في بلد ليس فيه قانون ينظم المرور ، عدم وجود حكومة دولية كل امة الحكم النهائي في قضاياها وما زال يجعل وقوع حرب كبرى من وقت لا آخر امرا في حكم المؤكد . ان السيادة المطلقة لكل دولة كانت تؤيدها كبرياء الملوك وايمان الاحرار بمبدأ القومية ، وكانت النتيجة المنطقية لهذه الفوضى في حب التسلط الذاتي ، الى وقوع الحرب في سنة ١٩١٤ ولا بد ان تظل تؤدي الى نشوب حرب من وقت لا آخر حتى تقوم سلطة الامم الفردية لها من القوة ما تستطيع به فرض طاغتها على جميع الامم .

٦ - الخاتمة

خاتمة

انتهى القرن التاسع عشر بكارثة بسبب الصندام بين التصنيع الفنى والنظريات السياسية . ذلك ان الانتاج الآلى والسكك الحديدية والبـرق ، انتقدت فى فنون الحرب عملت كلها على الاستزادة من التنظيم كما زادت من قوة أولئك الذين يسيطرون على الاقتصاد والسياسة . وكان فى وسع بيير بون مورجان ووليم الثانى أن يوجها الطاقة البشرية أسرع وفى جموع أضخم مما كان يستطيعه خشيار شىاى ملك الفرس أو نابليون أو أى من الرجال العظماء فى الماضى . الا أن الفكر السياسى القوى لم يتقدم بنفس الخطى التى تقدم بها تركيز السلطة : فالنظريات التى استطاعت أن تنجح فى تغيير الاوضاع ظلت موزعة بين الملكية والديموقراطية التنافسية أولاهاما تمت الى عهد ما قبل التصنيع ، والثانية لا تلائم الا المراحل الاولى للصناعة . ولم يكن حكم الاقلية الثرية ، وهو الحكم الذى كان قائما فعلا فى البلاد الغربية معترفا به وبذلت كل الجهود الممكنة لاختفائه عن اعين الجمهور .

وظلت حكومات الامبراطوريات الشرقية الثلاث حتى سقوطها فى سنة ١٨١٧ و١٩١٨ تسير على مبدأ الشرعية الذى كان سائدا فى أوروبا سنة ١٨١٥ واستطاعت هذه الامبراطوريات بتحالفها أن تفرض نظامها على أوروبا التى تمتعت بالسلام وتحملت حكم الاستبداد من سنة ١٨١٥ الى سنة ١٨٤٨ . ثم تلت ذلك فترة لم تستطع فيها المحافظة بالقوة على السلام وان ظلت صديقة . وأخيرا قام بينها نزاع لعدة أسباب أهمها القومية الصقلبية ، وكانت النتيجة أن اختفت الشرعية من العالم بوصفها مبدأ سياسيا عند نهاية الحرب الكبرى .

وكان مصدر التغيرات السياسية التى حدثت طوال ذلك القرن مذهبين فكريين هما : التحرر والراديكالية . فاما التحرر فيرجع أصله الى القرن الثامن عشر وهو الذى أوحى بالثورتين الامريكية والفرنسية . ويدعو هذا المذهب الى الحرية الفردية والقومية ، مع أقل قدر ممكن من النشاط الحكومى ، بل ان كثيرا من الاحرار قصروا وظيفة الحكومة على منع الجريمة . ونجح مذهب التحرر فى خلق ظروف مستقرة وسكان راضين الى حد لا بأس به فى المجتمعات الزراعية، ولكنه لم يستطع أن يفعل للاجراء الا القليل لأن فلسفته لم يهتد الى طريقة للحد بين القوة الاقتصادية فى أيدي الافراد . وقد نجح فى انشاء برلمانات ، على درجة من القوة تزيد أو تنقص فى كل بلد من بلدان أوروبا وأمريكا وكذلك فى اليابان والصين ، ولكن الفوائد التى نتجت عنه لم تظهر بوضوح فى أجزاء كثيرة من العالم .

وكان أبعد أجزاء المذهب التحررى أثرا هو مبدأ القومية . ذلك أن أنصار مبدأ الشرعية كانوا يعتبرون الدول ملكا خاصا للملوك ، ولكن الاحرار قاموا يدعون الى انه يجب أن ترسم الحدود بناء على رغبة السكان . ودعا الاحرار ، ردا على ما قامت به الدول الكبرى من اخماد للثورات التى حدثت ابان سيطرة

هتاريخ الى حق كل بلد فى ان تكون له حرينه كاملة والا يتوقع منه ان يتحمل
صاغرا ان تدخل خارجى فى شئونه . وهكذا قضاوا على بداية الحكومة العالمية
التي انشئت ايام مؤتمر فينا .

وتسرب مبدأ القومية بعد ان ادى الى توحيد المانيا وايطاليا ، الى البلقان
حيث نجمت عنه مشاكل أصعب من ان تحلها حكمة ساسه أوروبا مجتمعين .
وتحول مبدأ القومية بطريقة طبيعية ، ساعد بسمارك على الاسراع بها ، الى مبدأ
الوطنية . فكان دعاة القومية يقولون : ان كل بلد ينبغي أن يكون حرا فى
تحقيق أهدافه المشروعة . أما دعاة الوطنية فكانوا يقولون ، أو على الاقل هذا
ما كان يدور بخلدهم ، ان بلدى ينبغي أن يكون حرا فى تحقيق أهدافه سواء
كانت مشروعة أو غير مشروعة . وبهذا التغير تحولت الوطنية الى الاستعمار .

وكانت الراديكالية ، على خلاف التحررية ، تستمد وحيها من الاعتبارات
الاقتصادية وخاصة تلك التي أظهرتها المراحل الأولى للنصنيع . وكان الراديكاليون
أكثر فردية من الاحرار لانهم لم يكونوا يهتمون بالامم نفسها . ولعلمهم بوصفهم
أفرادا كانوا يحسون بالوطنية ، ولكنهم بوصفهم من أصحاب النظريات كانوا
عالميين . وكانوا يؤمنون بحرية التجارية وحرية المنافسة وحرية الابتكار الفردى
فى حدود القانون الجنائى . ولم يعترضوا على قوة الملكية ما دامت الملكية قد
اكتسبت بالمجهود الشخصى لا عن طريق ميزة خاصة أو ميراث . لقد كانت
فلسفتهم هذه تنطبق على الجيل الاول من الرأسماليين الصناعيين الذين كونوا
ثروتهم بمجهودهم ، غير أن أبناء الجيل التالى ، حتى من كان منهم مدينا بكل
شئ للثروة الموروثة ، ظلوا يتحدثون عن أنفسهم كأنهم أمثلة لامعة للنجاح
الذى يمكن أن يصيبه المرء عن طريق المجهود الشخصى . وفى أمريكا ، حيث
كانت معظم القوة الاقتصادية فى أيدي فلة من المحتكرين ، ظل هؤلاء المحتكرون
أنفسهم يشيدون بالمنافسة باعتبارها القوة الدافعة للتقدم .

وكان للراديكاليين الفيلسفين ، بوصفهم مدرسة ذات آراء خاصة مزايا
هامة قد يفغل عنها الانسان فى العصر الحاضر . فقد كانوا يطبقون محك
النفسية على كل الانظمة القائمة ولم يقبلوا أى شئ على أساس من وجوده
التاريخى وانتهوا بهذا الاختيار الى أنه ليس هناك ما يبرر الملكية أو الارستقراطية
أو الدين أو الحرب أو قيام الامبراطورية . وكان الاحرار يعترضون على بعض
هذه المؤسسات بالاعتماد على العاطفة أو العبارات الخطابية الخلابه ، ولكن
اعتراضات الراديكاليين الفيلسفين كانت هادئة تقوم على الحجج ، ويبدو عليها
أنها مستمدة من صوت العقل الجامد الذى لا يلبس . وما كانت ألوان التحادل
كالتى أدت الى الاضطهاد الدينى وتقييد حرية اليهود ، لتقف على قدميها اذا
طبق عليها هذا الاختبار ، كما أن أولئك الذين تأثروا بالراديكاليين الفيلسفين
لم يكن يظن أن يضللهم بريق البطولة العسكرية أو الشخصية الملكية . وكانوا
فى المسائل الاقتصادية وفى غيرها من المسائل يناقشون بدقة وعناية ويفترضون
فى نقاشهم أن المصلحة الشخصية هى الدافع الاساسى لنشاط الافراد وان

السعادة العامة هي هدف المشرع . وعندما كان تعجزهم يقودهم فى طريق غير سليم كما حدث لهم كثيرا ، كانت النتيجة التجاؤم الى الحجج الحاطئة وهى أقل اقناعا بكثير من بلاغة السفسطائين . ومن ثم كان نفوذهم وهم مصيبيون أقوى منه حين يكونون مخطئين ، وكانوا أكثر فائدة مما قد يتوقع لهم اذا نظرنا الى الاخطاء الكثيرة التى اختلطت بمذاهبهم .

وقد شارك الاشتراكيون نظرة الراديكاليين الفلسفيين هذه الى حد كبير ، وكان موضع الخلاف الاساسى بينهم أن الاشتراكيين نظروا الى العالم من ناحية الأجير لا من ناحية صاحب العمل . وقد كان أوون صديقا فنتام ، وكان ماركس من اتباع ريكاردو فى كثير من الآراء المهمة . الا أن ماركس أدرك مافات أسلافه الراديكاليين أن يروه ، وهو اتجاه رأس المال الى التركيز فى منظمات ضخمة ذات قوة اقتصادية هائلة ، وأدرك أيضا ما للرأسماليين من نفوذ على الحكومات ، وهو ما لم يكن ظاهرا عندما كانت الحكومات لا تزال فى أيدي أصحاب الاراضى من الارستقراطيين شبه الاقطاعيين . غير أن هناك أمرا واحدا ، وهو أمر بالغ الأهمية ، ورث فيه ماركس عن الراديكاليين الفلسفيين القيود التى كانت تحدد آرائهم . ذلك أن المنظمات التى كان من الضرورى للبروليتاريات ، فى نظره ، أن تكافحها كانت منظمات اقتصادية واختيارية وليست قائمة ، مثل الشعوب والاسر ، على أساس عاطفى أو بيولوجى . فقد افترض أن البروليتارى الذى لا يملك شيئا ، لن يكون له شعور وطنى . أو على الأقل ، ليس لديه قدر من هذا الشعور يمنعه من الوقوف فى وجه المأسامى . وهو ، فى هذه الناحية لم يقدر قوة الدوافع غير الاقتصادية حتى قدرها .

وتستمد النزعة القومية الاقتصادية ، وهى القوة السائدة فى العالم الحديث قوتها من كونها تجمع بين دوافع المصلحة الشخصية التى اعتمد عليها ماركس والراديكاليون والدوافع الأخرى الأقل عقلية التى توحى بالشعور الوطنى . فالرؤوس الهادئة يمكن كسبها عن طريق الأرباح وأصحاب الطبع الحاد يمكن كسبهم عن طريق النداءات البليغة . وبهذه الطريقة تجمعت خيانت من شعارات المدارس المختلفة منافسة . . نعم ، ولكن بين الأمم ، تعاون . . تم داخل الأمة ومصالح ذاتية لخير الأمة مجتمعة ، وتضحية . . نعم فى سبيل الأمة من قبل الفرد الذى ليس له نصيب فى النهب الذى تقوم به الاقلية الثرية الحاكمة ، نروة . . نعم فى خدمة المجد القومى ، أما تكوين الثروات . . فلا لأن أقطاب الصناعة يساعدون على جعل البلاد عظيمة فى كل ما يفعلون .

وقد كانت هذه هى العقيدة السائدة فى كل العالم المتمدن خلال السنوات السابقة على الحرب ، والتى لا تزال أقوى سيطرة فى العصر الحاضر تنظيم الى أقصى حد داخل الدولة ، وحرية لا حد لها فى العلاقات بين الدول . واذا كان لتنظيم يؤدى الى زيادة قوة الدول ، والدول تستمد قوتها الخارجية عن طريق الحرب أو التهديد بالحرب ، فان زيادة التنظيم القومى وحده ، لا يمكن الا أن

تؤدي الى زيادة الكوارث عند وقوع الحرب . ولما كان ظل خطر الحرب مصدر رعب دائم ، فان الحرية داخل الدولة تعتبر خطرة . وقد وصل العالم بأخذه مبدأ التنظيم القومي عن الاشتراكيين ومبدأ الحرية الدولية من الاحرار الى حالة تهدد كيان المدنية نفسها في الصميم . والتنظيم مع الاصول الفنية الحديثة في الصناعة والعلم الحديث أمر لا غنى عنه ، وقدر معين من الحرية ضرورى للسعادة والتقدم ، ولكن الفوضى كاملة تكون أكثر خطورة بين شعوب منظمه تنظيمها دقيقا منها بين أفراد في داخل أمة . وقد فشل القرن التاسع عشر لانه لم ينشئ منظمة دولية . فقد ورث عن الماضي دولا وظن أن المسألة قد حلت عندما جعلها دولا قومية . وخلق اعتباطا ونتيجة للاصول الفنية التي لا تسترشد في عملها بالتفكير ، منظمات اقتصادية لم تعلمه فلسفته كيف يسيطر عليها . وقد أدى تحالف هذه المنظمات مع الدول القومية الى أن أصبحت الفوضى في العلاقات الدولية أكثر خطورة منها في أى وقت مضى . ولم يفهم الاحرار والرايكاليون ما للتنظيم من أثر في عالم تحكمه الاصول الفنية العلمية . وبسبب عدم فهمهم هذا انتهى القرن الذى حاولوا قيادته بكارثة رغم الزيادة الكبيرة فى الثورة والقدرة العقلية والسعادة .

وقد ظلت أمريكا طول الفترة التى نتحدث عنها معزولة عن أوروبا الى حد كبير . ولم تصر أمريكا جزءا من النظام العسكرى والدبلوماسى الذى نما فى أوروبا لبعدها عن الدول الكبرى الأخرى ، وقد ظلت فى عزلتها هذه الى ما بعد بداية الحرب بعامين ونصف عام ، وكان العامل الاساسى فى توحيد أوروبا وأمريكا عندما حدث ، هو أثر الشئون المالية .

وكانت الحرب الكبرى من بعض النواحي نهاية حقبة من الحقب ، كما كانت من بعضها الآخر مجرد حادث عارض فى عملية مستمرة . فقد وضعت حدا لمبدأ الحق الالهى فى الحكم وهو المبدأ الذى حل محله فى البلاد التى كان سائدا فيها الحكم السافر للقوة المسلحة . كما قضت على آمال الاحرار ومذهب التقدم الحتمى اللذين عبرت عنهما روح التفاؤل فى القرن التاسع عشر وأثبتت خطأهما . ولكن الحرب كانت ، فى النواحي التى تعتمد على النمو الاقتصادى الحديث ، أو تعبير وأسمع المدى للقوى التى ظلت تعمل مدى خمسين عاما ، والتي لا تزال تزداد قوة على الدوام . ولقد كان نمو الاحتكارات القومية ، وخاصة فى الحديد والصلب ، وبالذات فيما يتعلق بالحديد الخام فى اللورين ، كان ولا يزال أكثر أهمية فى السياسة العالمية مما يدرك معظم الناس أو يعترف به رجال الحكم والسياسة . ولا تزال الأسباب نفسها التى أدت الى الحرب فى سنة ١٩١٤ تعمل ، واذا لم تكبح جماحها سيطرة دولية على الاستثمار والمواد الأولية ، فستؤدي لا محالة الى النتائج نفسها ، ولكنها ستكون على نطاق أوسع .

وقصارى القول أن التنهيم الاقتصادى العالمى لا العواطف السلمية هو السبيل الوحيد لانقاذ الجنس البشرى المتمددين من الانتحار الجماعى .

الحريّة والنظيم

ان هذا الكتاب محاولة لتتبع الأسباب الرئيسية للتغيير السياسي الذي حدث خلال السنين المائة الواقعة بين 1814 و1914. ويبدو لي ان هذه الأسباب تنقسم إلى ثلاثة أنواع: التطبيق الفني الاقتصادي، والنظريات السياسية، والأفراد المهمين .

علي مهلا

ISBN 978-9933-407-05-6



9 789933 407056